

فِي وَحْشِ الشَّاهِدِ

تألیفت

أبی عبد اللہ مُحَمَّد بْنُ عُمَرَ بْنَ وَاقِدِ الْوَاقِدِی

المرفیٰ سنۃ ۴۰۷ھ

ضیبَطُهُ وَصَحَّهُ

عَبْدُ اللَّطِیفِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ

الجزء الأول

منشورات

مُجْرِيَ بِرْهَنَ

دَارُ الْكِتَابِ الْعَلَمِيَّةِ

بَيْرُوت - لُبْنَان

جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة لدار الكتب
العلمية بيروت - لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة
أو إعادة تضليل الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة
كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على أسطوانات
ضوئية إلا موافقة الناشر خطياً.

Copyright ©
All rights reserved

Exclusive rights by DAR al-KOTOB al-ILMIYAH Beirut - Lebanon. No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

دار الكتب العلمية
لبنان - بيروت

العنوان : رمل الظريف، شارع البحيري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٤٢٩٨ - ٣٦٦١٢٥ - ٦٠٢١٢٢ (٩٦١ ١)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ - بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH
Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ترجمة المؤلف^(*)

هو الإمام العلامة أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الأسلمي مولاهم الواقدي المدني، صاحب التصانيف والمغازي وأحد أوعية العلم: ولد بعد العشرين ومائة^(١)، وطلب العلم عام بضعة وأربعين، وسمع من صغار التابعين فمن بعدهم بالحجاج والشام وغير ذلك.

حدث عن جماعة من العلماء، منهم محمد بن عجلان وابن جريج والأوزاعي وأبو بكر بن أبي سبرة. قال الذهبي^(٢): «وجمع فأوعى وخلط الغث بالسمين والخرز بالذر الثمين، فاطرحوه لذلك، ومع هذا لا يُستغنى عنه في المغازي وأيام الصحابة وأخبارهم». وحدث عنه محمد بن سعد كاتبه، وأبو بكر بن أبي شيبة ومحمد بن يحيى الأزدي ومحمد بن الفرج الأزرق وغيرهم عدّة.

قال البخاري في التاريخ الكبير^(٣): «مات الواقدي في ذي الحجة سنة سبع ومائتين». وقال ابن النديم^(٤): «مات عشية يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة حلت من ذي الحجة سنة سبع ومائتين وله ثمان وسبعون سنة، ودفن في مقابر الخيزران، وصلّى عليه محمد بن سماعة.

(*) انظر ترجمته في طبقات ابن سعد (٣٣٤/٧) والتاريخ الكبير للبخاري (١٧٨/١) والتاريخ الصغير (٢/٣١١) والجرح والتعديل (٨/٢٠) وسير أعلام النبلاء (٤٥٤/٩) وتاريخ بغداد (٣/٣) ومعجم الأباء (١٨/٢٧٧) ووفيات الأعيان (١/٥٦٥) والوافي بالوفيات (٤/٢٣٨) والنجوم الراحلة (٢/١٨٤) وشذرات الذهب (٢/١٨) وغيرها.

(١) كذا في سير أعلام النبلاء (٤٥٤/٩) وفي الفهرست لابن النديم (ص ١٥٧) أنه ولد سنة ١٣٠ هـ.

(٢) سير أعلام النبلاء (٩/٤٥٤، ٤٥٥).

(٣) التاريخ الكبير (١/١٧٨).

(٤) الفهرست (ص ١٥٨، ١٥٧).

له من المصنفات^(١): كتاب التاريخ والمعازى والمبعث، كتاب أخبار مكة، كتاب الطبقات، كتاب فتوح الشام وهو الذي بين أيدينا، كتاب فتوح العراق، كتاب الجمل، كتاب مقتل الحسين، كتاب السيرة، كتاب أزواج النبي ﷺ، كتاب الردة والدار، كتاب حرب الأوس والخزرج، كتاب صفين، كتاب وفاة النبي ﷺ، كتاب أمر الحبشة والغيل، كتاب المناجح، كتاب السقيفة وبيعة أبي بكر، كتاب ذكر القرآن، كتاب سيرة أبي بكر ووفاته، كتاب مداعي قريش والأنصار في القطائع ووضع عمر الدواوين وتصنيف القبائل ومراتبها وأنسابها، كتاب الترغيب في علم المعازى وغلط الرجال، كتاب مولد الحسن والحسين ومقتل الحسين، كتاب ضرب الدنانير والدرارم، كتاب تاريخ الفقهاء، كتاب الآداب، كتاب التاريخ الكبير، كتاب غلط الحديث، كتاب السنة والجماعة وذم الهوى وترك الخروج في الفتنة، كتاب الاختلاف ويحتوي على اختلاف أهل المدينة والكوفة في الشفعة والصدقة والهبة والعمرى والرقى والوديعة والعارية والبضاعة والمضاربة والغصب والسرقة والحدود والشهادات وعلى نسق كتب الفقه ما بقي.

(١) انظر الفهرست (ص ١٥٨).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا

إقبال الجند

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه
أجمعين.

قال الإمام الواقدي رحمه الله تعالى أمين: حدثني أبو بكر بن الحسن بن سفيان بن نوفل بن محمد بن إبراهيم التيمي، ومحمد بن عبد الله الأنصاري، وأبو سعيد مولى هشام ومالك بن أبي الحسن وإسماعيل مولى الزبير ومازن بن عوف من بني النجار، كل حدث عن فتوح الشام بما كان، قالوا جميعاً: إنه لما توفي رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر الصديق رضي الله عنه قتل في خلافته مسلمة الكلذاب الذي أدعى النبوة، وقاتلبني حنفة، وأهل الردة وأطاعته العرب، فعزم أن يبعث جيشه إلى الشام وصرف وجهه لقتال الروم فجتمع أصحاب رسول الله ﷺ في المسجد وقام فيهم خطيباً فحمد الله عز وجل، وقال: يا أيها الناس رحمنكم الله تعالى اعلموا أن الله فضلكم بالإسلام وجعلكم من أمة محمد عليه الصلاة والسلام، وزادكم إيماناً ويقيناً ونصركم نصراً مبيناً، وقال فيكم «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينكم» [المائدة: ٣] واعلموا أن رسول الله ﷺ كان عوئل أن يصرف همته إلى الشام فقبضه الله إليه واختار له ما لديه، ألا وإنني عازم أن أوجه أبطال المسلمين إلى الشام بأهليهم وما لهم فإن رسول الله ﷺ أبنائي بذلك قبل موته، وقال: «زويت لي الأرض فرأيت مشارقها وغاربها وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لي منها»، مما قولكم في ذلك؟ فقالوا: يا خليفة رسول الله مرنا بأمرك ووجهنا حيث شئت، فإن الله تعالى فرض علينا طاعتك. فقال تعالى: «بِإِنَّمَا أَنْهَا الَّذِينَ أَطْبَعُوا اللَّهَ وَأَطْبَعُوا الرَّسُولَ وَأُولَئِكُمْ مِنْكُمْ» [النساء: ٥٩] ففرح أبو بكر رضي الله عنه. ونزل عن المنبر وكتب الكتب إلى ملوك اليمن وأهل مكة وكانت الكتب فيها نسخة واحدة. وهي:

بسم الله الرحمن الرحيم سلام عليكم

أما بعد: فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأصلحي على نبيه محمد ﷺ، وقد عزمت أن أوجهكم إلى بلاد الشام لتأخذوها من أيدي الكفار والطغاة فمن عول منكم على الجهاد والصدام، فليبادر إلى طاعة الملك العلام، ثم كتب «انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله» [التوبه: ٤١] الآية، ثم بعث الكتب إلىهم وأقام يتظاهر جوابهم وقدومهم، وكان الذي بعثه بالكتب إلى اليمن أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ قال: فما مرّت الأيام حتى قدم أنس رضي الله عنه يبشره بقدوم أهل اليمن وقال: يا خليفة رسول الله وحقك على الله ما قرأت كتابك على أحد إلا وينادر إلى طاعة الله ورسوله، وأجاب دعوتك وقد تجهزوا في العدد والعديد والزهد النضيد، وقد أقبلت إليك يا خليفة رسول الله مبشرًا بقدوم الرجال، وأي رجال، وقد أجابوك شعثًا غبرًا وهم أبطال اليمن وشجعانها، وقد ساروا إليك بالذراري والأموال والنساء والأطفال، وكأنك بهم وقد أشرفوا عليك ووصلوا إليك فتأهبا إلى لقائهم. قال: فسرّ أبو بكر رضي الله عنه بقوله سروراً عظيماً، وأقام يومه ذلك حتى إذا كان من الغد أقبلوا إلى الصديق رضي الله عنه وقد لاحت غبرة القوم لأهل المدينة. قال: فأخبروه فركب المسلمون من أهل المدينة وغيرهم وأظهروا زيتهم وعددهم ونشروا الأعلام الإسلامية ورفعوا الألوية المحمدية فما كان إلا قليل حتى أشرفت الكتائب والمواكب يتلو بعضها بعضاً، قوم في أثر قوم وقبيلة في أثر قبيلة، فكان أول قبيلة ظهرت من قبائل اليمن حمير وهو بالدروع الداوية والبيض العادية والسيوف الهندية وأمامهم ذو الكلاع الحميري رضي الله عنه. فلما قرب من الصديق رضي الله عنه أحب أن يعرفه بمكانه وقومه وأشار بالسلام وجعل ينشد ويقول:

| | |
|---|--|
| أهـل السـوابـقـ والـعـالـوـنـ بـالـرـتـبـ | أـتـكـ حـمـيرـ بـالـأـهـلـيـنـ وـالـوـلـدـ |
| بـرـدـواـ الـكـمـاـةـ غـدـاـ فـيـ الـحـرـبـ بـالـقـضـبـ | أـسـدـ غـطـارـفـةـ شـوـسـ عـمـالـقـةـ |
| وـذـوـ الـكـلـاعـ دـعـاـ فـيـ الـأـهـلـ وـالـنـسـبـ | الـحـرـبـ عـادـتـنـاـ وـالـضـرـبـ هـمـتـنـا |
| وـسـاكـنـيـهـاـ سـأـهـوـيـهـمـ إـلـىـ الـعـطـبـ | دـمـشـقـ لـيـ دـوـنـ كـلـ النـاسـ أـجـمـعـهـمـ |

قال: فتبسم أبو بكر الصديق رضي الله عنه من قوله، ثم قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: يا أبا الحسن أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أقبلت حمير ومعها نساها تحمل أولادها فأبشر بنصر الله على أهل الشرك أجمعين». فقال الإمام علي: صدقت وأنا سمعته من رسول الله ﷺ. قال أنس رضي الله عنه: وسارت حمير بكتائبها وأموالها وأقبلت من بعدها كتائب مذحج أهل الخيل العتاق والرماح الدقاد، وأمامهم

سيدهم قيس بن هبيرة المرادي رضي الله عنه، فلما وصل إلى الصديق رضي الله عنه جعل يقول: صلوا على طه الرسول:

أتتك كتائب منا سراعاً
ذوو التيجان أعني من مراد
قدمنا أمامك كي ترانا نبيد القوم بالسيف النجادي

قال: فجزاه أبو بكر رضي الله عنه وتقديم بكتابه ومواليه، وتقديمت من بعده قبائل طيء يقدمها حارث بن مسعد الطائي رضي الله عنه، فلما وصل هم أن يترجل فأقسم عليه أبو بكر رضي الله عنه بالله تعالى أن لا تفعل فدنا منه. فصافحه وسلم عليه وأقبلت الأزد في جموع كثيرة يقدمها جنوب بن عمرو الدوسى رضي الله عنه، ثم جاءت من بعدهم بنو عبس يقدمهم الأمير ميسرة بن مسروق العبسى رضي الله عنه، وأقبلت من بعدهم بنو كنانة يقدمهم غيشم بن أسلم الكنانى وتتابعت قبائل اليمن يتلو بعضها بعضًا ومعهم نساوهم وأموالهم، فلما نظر أبو بكر رضي الله عنه إلى نصرتهم سر بذلك وشكر الله تعالى وأنزل القوم حول المدينة كل قبيلة متفرقة عن صاحبتها واستمرروا فأضطر بهم المقام من قلة الزاد وخلف الخيل وجドوية الأرض فاجتمع أكبابهم عند الصديق رضي الله عنه، وقالوا: يا خليفة رسول الله إنك أمرتنا بأمر فأسرعنا الله ولنك رغبة في الجهاد وقد تكامل جيشنا وفرغنا من أهبتنا، والمقام قد أضطر بنا لأن بذلك ليست بلد جيش، ولا حافر ولا عيش، والعسكر نازل فإن كنت قد بذلك فيما عزمنا عليه فأمرنا بالرجوع إلى بلدنا وأقبل الجميع وخطابوه بذلك، فلما فرغوا من كلامهم قال أبو بكر رضي الله عنه: يا أهل اليمن، ومن حضر من غيرهم. أما والله ما أريد لكم الإضرار، وإنما أردنا تكميلكم، قالوا: إنه لم يبق من ورائنا أحد قادر على فاعزم على بركة الله تعالى.

وصية أبي بكر

قال المؤلف رحمة الله تعالى: لقد بلغني أن أبو بكر الصديق رضي الله عنه قام من ساعته يمشي على قدميه وحوله جماعة من الأصحاب منهم عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين، وخرجوا إلى ظاهر المدينة ووقع النداء في الناس وكبروا بأجمعهم فرحاً بالخروج، وأجبتهم الجبال لدوبي أصواتهم، وعلا أبو بكر على دابته حتى أشرف على الجيش فنظر إليهم قد ملأوا الأرض فنهل وجهه، وقال: اللهم أنزل عليهم الصبر وأيدهم ولا تسليمهم إلى عدوهم **﴿إنك على كل شيء قادر﴾** [البقرة: ٢٠] وكان أول من دعا أبو بكر يزيد بن أبي سفيان وعقد له راية وأمره على ألف فارس من سائر الناس ودعا بعده رجالاً منبني عامر بن لؤي يقال له ربيعة بن عامر، وكان فارساً مشهوراً في الحجاجز فعقد له راية وأمره على ألف فارس، ثم أقبل أبو بكر على يزيد بن أبي سفيان، وقال له: هذا

ربيعة بن عامر من ذوي العلى والمفاخر قد علمت صولته وقد ضممه إليه وأمرتك عليه فاجعله في مقدمتك وشاوره في أمرك ولا تخالفه. فقال يزيد: حبًا وكراهة. وأسرعت الفرسان إلى لبس السلاح واجتمع الجندي وركب يزيد بن أبي سفيان، وربيعة بن عامر وأقبلا بقومهما إلى أبي بكر رضي الله عنه فأقبل يمشي مع القوم. فقال يزيد: يا خليفة رسول الله الناجي من غضب الله من رضيت عنه لا نكن على ظهور خيولنا، وأنت تمشي إلماً أن تركب وإنما أن ننزل. فقال: ما أنا براكب وما أنت بنازلين، وسار إلى أن وصل إلى ثنية الوداع فوقف هناك فتقدّم إليه يزيد فقال: يا خليفة رسول الله أوصنا، فقال: إذا سرت فلا تضيق على نفسك ولا على أصحابك في مسيرك ولا تغضب على قومك ولا على أصحابك وشاؤرهم في الأمر واستعمل العدل وياحد عنك الظلم والجور فإنه لا أفلح قوم ظلموا ولا نصرعوا على عدوهم، «إذا لقيتم القوم فلا تولوهم الأذى ومن يولهم يومئذ دبره إلا متعرضاً لقتاله أو متخيلاً إلى فتنة فقد باع بغضبه من الله وماه جهنم وبئس المصير» [آل عمران: ٢٠] وإذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولدًا ولا شيخًا ولا امرأة ولا طفلاً ولا تعقرروا بهيمة المأكول ولا تغدرروا إذا عاهدتكم ولا تنقضوا إذا صالحتم، وستمرون على قوم في الصوامع رهباناً يزعمون أنهم ترقبوا في الله فدعوه ولا تهدموا صوامعهم حتى كأنها من أحياض العظام فأعلوهم بسيوفكم حتى يرجعوا إلى الإسلام أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وقد استودعتكم الله، ثم عانقه وصافحه وصافحه ربعة بن عامر، وقال: يا عامر أظهر شجاعتكم على بنى الأنصار بلغكم الله أمالكم، وغفر لنا ولكم. قال: وسار القوم ورجع أبو بكر رضي الله عنه بمن معه إلى المدينة قال: فجدهم في السير، فقال ربعة بن عامر: ما هذا السير يا يزيد، وقد أمرك أبو بكر أن ترافق بالناس في سيرك. فقال يزيد: يا عامر إن أبا بكر رضي الله عنه سيعقد العقود ويرسل الجيوش فأردت أن أسبق الناس إلى الشام فلعلنا أن نفتح فتحاً قبل تلاحق الناس بنا فيجتمع بذلك ثلات خصال: رضاء الله عزوجل، ورضاء خليفتنا، وغنية نأخذها. فقال ربعة: فسر الآن ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. قال: فأخذ القوم في السير على وادي القرى ليخرجوا على تبوك ثم على الجابية إلى دمشق. قال: واتصل الخبر للملك هرقل من قوم من عرب اليمن المنتصرة كانوا في المدينة، فلما صرخ عند الملك ذلك جمع بطارقته في عسكره، وقال لهم: يا بنى الأنصار إن دولتكم قد عزمت على الانهزام، ولقد كتمتم تأمورن بالمعروف وتنهون عن المنكر وتقيمون الصلاة وتوثرون الزكاة التي أمركم بها الآباء والأجداد والقسس والرهبان، وتقيمون حدود الله التي أمركم بها في الإنجيل لا جرم أنكم ما قصدكم ملك من ملوك الوشاة ونائزكم على الشام إلا وقهرتموه ولقد قصدكم كسرى بجنود فارس فانكسرت على أعقابهم، والآن قد بدلتكم

وغيرتم فظلتم وجرتم، وقد بعث إليكم ربكم قوماً لم يكن في الأمم أضعف منهم عندنا، وقد رمتهم شدة الجوع إلينا وأتى بهم إلى بلادنا ويعthem صاحب نبيهم ليأخذوا ملكتنا من أيدينا ويخرجونا من بلادنا، ثم إنه حدثهم بالذى سمعه من طرسيسه.

قالوا: أيها الملك نرذهم عن مرادهم ونصل إلى مدinetهم ونخرب كعبتهم. قال: فلما سمع مقالتهم وتبيّن اغتياظهم جزد منهم ثمانية آلاف من أشجع فرسانهم وأمر عليهم خمسة من بطارقته، وهم البطاليق وأخره جرجيس وصاحب شرطته ولوقا بن سمعان وصليب بن حنا صاحب غزة، وكانت هذه الخمسة البطارقة يضرب بهم المثل في الشجاعة والبراعة، ثم تدرعوا وأظهروا زينتهم، وصلت عليهم الأمة صلاة النصر. قالوا: اللهم انصر من كان منا على الحق وبخروهم ببخار الكنائس، ثم رشوا عليهم من ماء العمودية ووذعوا الملك وساروا وأمامهم العرب المنتصرة يذلّونهم على الطريق. قال: حدثني رفاعة عن ياسر بن الحصين. قال: بلغني أن أول من وصل إلى تبوك كان يزيد بن سفيان وربيعة بن عامر ومن معهما من المسلمين قبل وصول الروم بثلاثة أيام، فلما كان في اليوم الرابع وال المسلمين قد همّوا بالرحيل إلى الشام إذ أقبل جيش الروم، فلما رأه المسلمون أخذوا على أنفسهم وكمن ربيعة بأصحابه الألف وأقبل يزيد بأصحابه الألف ووعظهم وذكر الله تعالى. وقال لهم:

اعلموا أن الله وعدكم النصر وأيدكم بالملائكة، وقال الله تعالى في كتابه العزيز:
﴿كُمْ مَنْ فَتَةٌ قَلِيلٌ غَلِبتُ فَتَةً كَبِيرًا بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وقد قال ﷺ: «الجنة تحت ظلال السيوف» وأنتم أول جند دخل الشام وتوجه لقتال بني الأصفر فكانكم بجنود الشام، وإياكم أن تطمعوا العدو فيكم وانصروا الله ينصركم، فيبينما يزيد يعظ الناس وإذا بطلائع الروم قد أقبلت وجيوشها قد ظهرت فلما رأوا قلة العرب طمعوا فيهم وظنوا أنه ليس وراءهم أحد فبرر بعضهم على بعض بالرومية وقالوا دونكم من يريد أخذ بلادكم واستنصروا بالصليب فإنه ينصركم، ثم حملوا وتلقاهم أصحاب رسول الله ﷺ بهم عاليه وقلوب غير دانية ودار القتال بينهم وتکاثرت الروم عليهم وظنوا أنهم في قبضتهم إذ خرج عليهم ربعة بن عامر رضي الله عنه بالكمين، وقد أعلنوا بالتهليل والتکبير والصلاوة على البشير النذير، وحملوا على الروم حملة صادقة، فلما عاينت الروم من خرج عليهم انكسرت، وألقى الله الرعب في قلوبهم فتفهروا إلى ورائهم ونظر ربعة بن عامر إلى البطاليق وهو يحرّض قومه على القتال فعلم أنه طاغية الروم فحمل عليه وطعنه طعنة صادقة فوافقت في خاصرته وطلعت من الناحية الأخرى، فلما نظرت الروم إلى ذلك ولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار ونزل النصر على طائفه محمد المختار. حدثنا سعد بن أوس عن السرية التي أنفذها أبو بكر الصديق رضي الله عنه مع يزيد بن

أبي سفيان وربيعة بن عامر، قال: قد اجتمعا بعساكر الروم في أرض تبوك مع البطاليق وهزمهم الله تعالى على أيدينا، وكان جملة من قتل منهم ألفاً ومائتين، ومن قتل من المسلمين مائة وعشرين رجلاً. قال: وإن القوم لما انهزموا قال لهم جرجيس وهو آخر المقتول: يا ولدكم بأي وجه ترجعون إلى الملك، وقد عملوا فينا عملاً ذريعاً، ولئنروا الأرض من قتلانا ولا أرجع حتى آخذ بثأر أخي أو الحق به. قال: واجتمع القوم وسمعوا منه ذلك ورجع بعضهم إلى بعض وعادوا إلى القتال، فلما استقرروا في خيامهم بعثوا رجالاً من العرب المتنصرة اسمه القداح، وقالوا له: امض إلىبني عمك وقل لهم يبعثوا إلينا رجالاً من كبارهم وعقلائهم حتى ننظر ما يريدون منا. قال: فركب القداح جواده وأقبل نحو جيش المسلمين، فلما رأوه مقبلاً إليهم استقبله رجال من الأوس وقالوا له: ماذا تريد؟ قال لهم: إن البطارقة يريدون رجالاً من عقائلكم ليخاطبوا بهم فيما يريد الله من صلاح شأن الجمعين. قال فأخبروا يزيد بن ربيعة بما قال المتنصر. فقال ربيعة بن عامر: أنا أسير إلى القوم.

قال يزيد: يا ربيعة أنا أخاف عليك من القوم لأنك قد قتلت كثيرهم بالأمس. فقال ربيعة **«قل لن يصيّبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون»** [التوبه: ٥١] وإنني أوصيك والمسلمين أن تكون همّتكم عندي فإذا رأيتم القوم غدرموا بي فاحملوا عليهم ثم ركب جواده وسار حتى أتى جيش الروم وقرب من سراديق أميرهم. فقال القداح: عظم جيش الملك وانزل عن جوادك. فقال ربيعة رضي الله عنه: ما كنت بالذى أنتقل من العز إلى الذل ولست أسلم جوادي لغيري وما أنا بنازل إلا على باب السراديق وإلا رجعت من حيث جئت لأننا ما بعثنا إليكم، بل أنتم بعثتم إلينا قال: فأعلم القداح الروم بما تكلم به ربيعة بن عامر. فقال بعضهم لبعض: صدق العربي في قوله دعوه ينزل حيث أراد قال: فنزل ربيعة على باب السراديق وجثا على ركبته وأمسك عنان جواده بيده وسلامه معه. فقال له جرجيس: يا أخا العرب لم تكن أمة أضعف منكم عندنا وما كنا نحدّث أنفسنا أنكم تغزوتنا وما الذي تريدون منا؟ فقال ربيعة: نريد منكم أن تدخلوا في ديننا، وأن تقولوا بقولنا، وإن أبيتم تعطونا الجزية عن يد وأنتم صاغرون وإلا فالسيف بيننا وبينكم. فقال جرجيس: فما منعكم أن تقصدوا الفرس وتدعون الصداقة بيننا وبينكم؟. فقال ربيعة: بدأنا بكم لأنكم أقرب إلينا من الفرس، وإن الله تعالى أمرنا في كتابه بذلك قال الله تعالى: **«لِيَا أَيْهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتلوا الَّذِينَ يُلْوِنُوكُمْ مِّنَ الْكُفَّارِ وَلِيُجَدِّوْكُمْ فِيْكُمْ غَلَظَةٌ»** [التوبه: ١٢٣] قال جرجيس: فهل لك أن تعقد الصلح بيننا وبينكم وأن نعطي كل رجل منكم ديناراً من ذهب وعشرة أوسن من الطعام وكتباً بيننا وبينكم كتاب الصلح لا تغزوون إلينا ولا نغزوكم. قال ربيعة: لا سبيل إلى ذلك وما بيننا وبينكم إلا السيف أو أداء الجزية أو الإسلام. قال جرجيس: أما ما ذكرت من دخلتنا في دينكم فلا

سبيل إلى ذلك ولو نهلك عن آخرنا لأننا لا نرى لدينا بدلاً. وأما إعطاء الجزية فإن القتل عندنا أيسر من ذلك، وما أنتم بأشهى منا إلى القتال وال الحرب والتزال لأن فينا البطارقة وأولاد الملوك رجال الحرب وأرباب الطعن والضرب. قال جرجيس لأصحابه: علي بأنفس صقالبة حتى يناظروا هذا البدوي في كلامه. قال: وكان الملك هرقل قد بعث معهم قسيسًا عظيمًا عارفًا بدينهم مجادلًا عن شرعهم. قال: فأتي الحاجب به، فلما استقر به الجلوس قال له جرجيس: يا أبانا استخبر من هذا الرجل عن شريعتهم، وعن دينهم. فقال القسيس: يا أخا العرب إننا نجد في علمتنا أن الله تعالى يبعث من العجائز نبياً عربياً هاشمياً قرشياً علامته أن الله تعالى يسرى به إلى السماء أكان ذلك أم لا، قال: نعم أسرى به، وقد ذكره ربنا في كتابه العزيز بقوله تعالى: ﴿سَبَّحَانَ الَّذِي أَسْرَى بَعْدَهُ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكَنَا حَوْلَهُ لِتَرِيهِ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء: ١] قال القسيس: إننا نجد في كتابنا أن ربنا يفرض على هذا النبي وأمهاته شهرًا يصومونه يقال له شهر رمضان. قال ربيعة: نعم، وقدقرأنا في القرآن العظيم ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥] فقال القسيس: إننا وجدنا في كتابنا أن من أحسن حسنة تكتب عشرة. قال ربيعة: نعم، قال الله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحُسْنَةِ فَلَهُ عَشَرُ أَمْثَالِهِ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يَجْزِي إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠] قال القسيس: إننا نجد في كتابنا أن الله يأمر أمهاته بالصلة عليه. قال ربيعة: نعم، وقد قال الله في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يَصْلُوُنَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَنَا صَلْوًا عَلَيْهِ وَسَلَّمْوَا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] قال: فعجب القسيس من كلامه وقال للبطارقة: إن الحق مع هؤلاء القوم. فقال بعض الحجاج: إن هذا هو الذي قتل أخاك. فلما سمع ذلك ازورت عيناه وغضب غضباً شديداً وهم أن يثب على ربيعة ففهم ربيعة ذلك منه فوثب من مكانه أسرع من البرق وضرب بيده إلى قائم سيفه وعجل جرجيس بضربة فجندله صريعاً قتيلاً ووثب على فرسه فركبها فأسرعت البطارقة إليه وهو راكب فحمل فيهم ونظر يزيد بن أبي سفيان إلى ذلك. فقال للمسلمين: إن أعداء الله قد غدروا بصاحب رسول الله ﷺ فدونكم وإياهم، فحمل المسلمون على المشركين واختلط الجيش وصبرت الروم لقتال العرب فيما هم في القتال إذ أشرفت جيوش المسلمين مع شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله ﷺ، فلما نظر المسلمون إلى إخوانهم في القتال حملوا على القوم حملة صادقة وحكمت سيفهم في قمم الروم.

قال الواقدي: لقد بلغني أن الثمانية آلاف المذكورة من الروم لم ينج منهم أحد لأن العرب التقطوهم بسبق الخيل وبعد الشام من تبوك، ثم إن المسلمين أخذوا أموالهم وخiamهم، ثم سلموا على شرحبيل ومن معه وجمعوا المال والغنائم. فقالوا: نبعث

الجميع إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فرضوا بذلك ويعثروا الجميع إلا العدة والسلاح، ويعثروا مع الغنائم والأموال شداد بن أوس رضي الله عنه في خمسمائة فارس، ولما وصل بالمال إلى المدينة المنورة وعاين المسلمين أموال المشركين رفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير، والصلوة على البشير النذير محمد ﷺ، وسمع الصديق بقدوم شداد بن أوس رضي الله عنه ومن معه من المسلمين ففرح بذلك فرحاً شديداً، ثم أقبلوا إلى الصديق وأعلموا بالفتح بعد أن سلّموا عليه فسجد لله عز وجل، ثم كتب كتاباً إلى أهل مكة يستدعهم إلى الجهاد مضمونه: بسم الله الرحمن الرحيم من أبي بكر إلى أهل مكة وسائر المؤمنين فإنني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي على نبيه محمد ﷺ.

أما بعد: فإني قد استنفرت المسلمين إلى الجهاد وفتح بلاد الشام، وقد كتبت إليكم وإلى المسلمين أن تسرعوا إلى ما أمركم به ربكم تبارك الله تعالى: إذ يقول الله عز وجل: «انفروا خفافاً وثقلاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون» [التوبه: ٤١] وهذه الآية فيكم وأنتم أحق بها وأهلها، وأول من صدق وقام بحكمها من ينصر دين الله فالله ناصره، ومن بخل استغنى الله عنه والله غني حميد، فسارعوا إلى جنة عالية قطوفها دانية أعدها الله للمهاجرين والأنصار، فمن اتبع سبيلهم كتب من الأولياء الأخيار، وحسبنا الله ونعم الوكيل. قال: وختم الكتاب ودفعه إلى عبد الله بن حذافة، فأخذه وسار حتى وصل مكة وصرخ في أهلها، فاجتمعوا إليه فدفع إليهم الكتاب فقرأوه على أصحاب رسول الله ﷺ، فلما سمعوه قال سهل بن عمرو والحارث بن هشام وعكرمة بن أبي جهل، وقالوا: أجبنا داعي الله وصدقنا قول نبيه محمد ﷺ، فاما عكرمة فإنه قال: إلى متى نبسط لأنفسنا وقد سبقنا القوم إلى المواطن، وقد فاز من فاز بالصدق، وإن كنا تأخرنا عن السبق فاللحاق السباقي فعلينا نكتب في الحال.. ثم خرج عكرمة بن أبي جهل فيبني مخزوم وخرج الحارث بن هشام معهم وتلاحق أهل مكة خمسمائة رجل، وكتب أبو بكر للطائف فخرجوا في أربعمائة رجل.

قال الواقدي: خرج بهم سعيد بن خالد بن سعيد بن العاص وكان غلاماً نجيباً، وذلك أن سعيد بن خالد أتى إلى الصديق رضي الله عنه. فقال: يا خليفة رسول الله ﷺ إنك أردت أن تعقد لأبي خالد راية ويكون قائداً من قواد جيشك، فتكلّم فيه المتكلمون فعزلته حين رجع من بعثتك، وقد حبس نفسه في سبيل الله عز وجل ولم أزل مجيباً دعوتك في بعثتك، فهل لك أن تقدمني على هذا الجيش، فوالله لا يراني الله وانتي أبداً ولا عاجزاً عن الحرب، قال: وكان سعيد بن خالد غلاماً نجيباً أنجب من أبيه وأفرس، فقد له أبو بكر راية ودفعها إليه وأمره على ألفين من العرب. قال: فلما سمع عمر بن الخطاب

كلام سعيد بن خالد وأنه خير من أن يكون أميراً كره له ذلك وأقبل على الصديق رضي الله عنه . وقال : يا خليفة رسول الله عقدت هذه الراية لسعيد بن خالد على من هو خير منه ، ولقد سمعته يقول عندما عقدتها على رغم الأعادي والله لتعلم أنه ما يريد بالقول غيري ، والله ما تكلمت في أبيه .

قال الواقدي : فشقق ذلك على أبي بكر وكره أن لا يعقد له ، وكره أيضاً أن يخالف عمر لمحبته له ونصحه ومتزنته عند النبي ﷺ ورثب قائماً ، ودخل على عائشة رضي الله عنها وأخبرها بخبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وما كان من كلامه . فقالت عائشة : قد علمت أن عمر ينصر الدين ويريد النصر لرب العالمين ، وما في قلب عمر بغض للمسلمين . قال : فقبل قول عائشة رضي الله عنها ، ثم دعا بأزد الدوسي وقال له : امض إلى سعيد بن خالد وقل له : رد علينا رايتك . قال : فردها ، وقال : والله لأقتلن تحت راية أبي بكر حيث كان ، فإني قد حبسني في سبيل الله .

قال الواقدي : ولقد بلغني أن الصديق حال تفكّره فيمن يقدم طليعة الجيش . قال : فتقدّم إليه سهل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل وهشام بن الحارث ، وقالوا : أشهدوا أننا قد حبسنا أنفسنا في سبيل الله فلا نرجع عن القتال أبداً . فقال أبو بكر : اللهم بلّغهم أفضّل ما يؤمّلون . ثم إن أبي بكر دعا عمرو بن العاص . فسلم إليه الراية وقال : قد ولّيتك على هذا الجيش ، يعني أهل مكة والطائف وهوازن وبني كلاب فانصرف إلى أرض فلسطين ، وكاتب أبي عبيدة وأنجده إذا أرادك ولا تقطع أمراً إلا بشпорته : امض بارك الله فيك وفيهم . قال : فأقبل عمرو بن العاص على عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وقال له : يا أبي حفص أنت تعلم شدّتي على العدو وصبري على الحرب ، فلو كلمت الخليفة أن يجعلني أميراً على أبي عبيدة ، وقد رأيت متزلتني عند رسول الله ﷺ وإنني أرجو أن يفتح الله على يدي البلاد ويهلك الأعداء . قال عمر رضي الله عنه : ما كنت بالذّي أكذبك وما كنت بالذّي أكلّمه في ذلك ، فإنه ليس على أبي عبيدة أمير ، ولا ب أبي عبيدة عندنا أفضّل منزلة منك ، وأقدم سابقة منك والنبي ﷺ قال فيه : «أبو عبيدة أمين الأمة» قال عمرو : ما ينقص من متزنته إذا كنت واليًا عليه . قال عمر بن الخطاب : ويلك يا عمرو إنك ما تطلب بقولك هذا إلا الرياسة والشرف فاتّق الله ولا تطلب إلا شرف الآخرة ووجه الله تعالى ، فقال عمرو بن العاص : إن الأمر كما ذكرت . ثم أمر الناس بالمسير تحت رايته فساروا ، وتقدّم أهل مكة وتبعهم بنو كلاب وطيء وهوازن وتنفيف وتخلّف المهاجرون والأنصار ليسروا مع أبي عبيدة بن الجراح .

وصية الصديق لعمرو بن العاص

وتقدم عمرو بن العاص وسار. قال أبو الدرداء: كنت مع عمرو بن العاص في جيشه، فسمعت أبا بكر يقول وهو يوصيه: اتق الله في سرك وعلانيك واستحبه في خلواتك فإنه يراك في عملك، وقد رأيت تقدمتي لك على من هو أقدم منك سابقة وأقدم حرمة فكن من عمال الآخرة، وأرد بعملك وجه الله وكن والدًا لمن معك وارفق بهم في السير فإن فيهم أهل ضعف، والله ناصر دينه ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون، وإذا سرت بجيشك فلا تسر في الطريق التي سار فيها يزيد وربيعة وشريحيل، بل اسلك طريق إيليا حتى تنتهي إلى أرض فلسطين، وابعث عيونك يأتونك بأخبار أبي عبيدة، فإن كان ظافرًا بعدوه فكن أنت لقتال من في فلسطين، وإن كان يريد عسكراً فأنفذ إليه جيشاً في أثر جيش، وقدم سهل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل والحارث بن هشام وسعيد بن خالد، وإياك أن تكون وانياً عما ندبتك إليه، وإياك والوهن أن تقول: جعلني ابن أبي قحافة في نحر العدو ولا قوة لي به، وقد رأيت يا عمرو ونحن في مواطن كثيرة ونحن نلاقي ما نلاقي من جموع المشركين ونحن في قلة من عدونا ثم رأيت يوم حنين ما نصر الله عليهم. واعلم يا عمرو أن معك المهاجرين والأنصار من أهل بدر، فأكرمهم وأعرف حقهم ولا تتطاول عليهم بسلطانك ولا تداخلك نجدة الشيطان فتقول: إنما ولائي أبو بكر لأنني خيرهم، وإياك وخداع النفس وكن كأحدهم، وشاورهم فيما ت يريد من أمرك، والصلوة ثم الصلاة، أذن بها إذا دخل وقتها ولا تصل صلاة إلا بأذان يسمعه أهل العسكرية، ثم ابرز وصلّى من رغب في الصلاة معك فذلك أفضل له، ومن صلاها وحده أجزاءه صلاته واحذر من عدوك وامر أصحابك بالحرس ولتكن أنت بعد ذلك مطلعاً عليهم وأطل الجلوس بالليل على أصحابك وأقم بينهم واجلس معهم ولا تكشف أستار الناس، واتق الله إذا لاقيت العدو، وإذا عظت أصحابك فأوجز وأصلاح نفسك تصلح لك رعيتك فالإمام ينفرد إلى الله تعالى فيما يعلمه وما يفعله في رعيته وإنك قد وليتك على من قد مررت من العرب فاجعل كل قبيلة على حميتها، وكن عليهم كالوالد الشفيف الرفيق وتعاهد عسكرك في سيرك وقدم قبلك طلائعك فيكونوا أمامك، وخلف على الناس من ترضاه، وإذا رأيت عدوك فاصبر ولا تتأخر فيكون ذلك منك فخرًا، والزم أصحابك قراءة القرآن وانههم عن ذكر الجاهلية وما كان منها فإن ذلك يورث العداوة بينهم، وأعرض عن زهرة الدنيا حتى تلتقي بمن مضى من سلفك وكن من الأئمة الممدودين في القرآن إذ يقول الله تعالى: «وَجَعَلْنَاهُمْ أَنْمَاءٍ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فَعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ» [الأبياء: ٧٣] قال: فكان أبو بكر رضي الله عنه يوصي عمرو بن العاص وأبو عبيدة حاضر، ثم قال: سيروا على بركة الله تعالى وقاتلوا أعداء الله وأوصيكم بتقوى الله فإن الله ناصر من ينصره. قال: فسلم المسلمون

عليه ووَدُعوا وساروا في تسعه آلاف مع من ذكرنا يريدون أخذ فلسطين، فلما كان بعدهم يوم واحد عقد العقود والرایات إلى أبي عبيدة بن الجراح وأمره بأن يقصد بمن معه أرض الجابية، وقال: يا أمين الأمة قد سمعت ما وصيت به عمرو بن العاص ووَدُعْه المسلمين، فلما عاد أبو بكر والمسلمون دعا بخالد بن الوليد وعقد له راية، وكانت له راية النبي ﷺ وأمره على لخم وجذام وضم له جيش الزحف وكانوا شجاعاناً ما منهم إلا من شهد الواقع مع رسول الله ﷺ وقال له: يا أبو سليمان قد وليتك على هذا الجيش فاقصد به أرض العراق وفارس وأرجو الله أن ينصركم. ثم إنه وَدَعَه وسار خالد بمن معه يطلب العراق.

قال: حدثني ربيعة بن قيس. قال: كنت في الجيش الذي وجهه أبو بكر الصديق مع عمرو بن العاص إلى فلسطين وإيليا. وكان صاحب رايته سعيد بن خالد. قال: وبعث أبو بكر مع كل جيش أميراً وهو يدعوه لهم بالنصر وأخذه القلق على المسلمين حتى عرف ذلك في وجهه. فقال له عثمان بن عفان رضي الله عنه: ما هذا الغم الذي نزل بك؟ فقال: اغتممت على جيوش المسلمين وأرجو الله أن ينصرهم على عدوهم. فقال عثمان: والله ما خرج جيش سررت به إلا هذا الجيش الذي سار إلى الشام، وهذا الذي أوصى الله نبيه به، وليس في قوله خلف. وإنما سنظهر على الروم وفارس ولكن ما ندرى متى يكون أفي هذا البعث أو غيره ولكن أحسن الظن بالله. قال: وبات الصديق فرأى في منامه كأن عمرو بن العاص في وجهه طرمه هو وأصحابه، ثم قصد عمرو أرضها. نشرة سهنة وفرجة فحمل على فرسه، ثم أتبعه أصحابه، فإذا هم في أرض واسعة فنزلوا واستراحوا قال: وانتبه أبو بكر من مسامعه فرحاً بما رأى. فقال عثمان: يدل على فتح إلا أنه يوشك أن يلقى عمرو في قتال المشركين مشقة عظيمة ثم يخلص منها.

قال الواقدي: كانت الساقطة تنزل المدينة في العاھلية والإسلام يقدمون بالبر والشعير والزيت والتين والقماش، وما يكون في الشام، فقدم بعض الساقطة إلى المدينة وأبو بكر ينفذ الجيوش وسمعوا كلام أبي بكر لعمرو بن العاص، وهو يقول: عليك بفلسطين وإيليا. قال: فساروا بالخبر إلى الملك هرقل. فلما سمع ذلك جمع أرباب دولته وبطارقته وأعلمهم بالحديث الذي جرى وقال: يا بني الأصفهان هذا الذي كنت حذرتكم منه قد دينا وإن أصحاب هذا النبي لا بد أن تملك ما تحت سريري هذا وقد قرب الوعد، وإن خليفة محمد قد أنفذ لكم الجيوش وكأنكم بهم وقد أتوكم وقصدوا نحوكم فحدروا أنفسكم وقاتلوا عن دينكم، وعن حريمكم فإن تهاونتم ملكت العرب بلادكم وأموالكم. قال: فبكى القوم، فقال لهم: دعوا عنكم البكاء، ثم قال له وزيره: أيها الملك قد اشتئينا أن تدعو بعض من قدم بهذا الخبر عليك فأمر هرقل بعض حجاجه أن

يأتي برجل من المتنصرة ممن قدم عليه بالأخبار فأتى برجل منهم، فقال له الملك: كم عهديك؟ قال: منذ خمسة وعشرين يوماً. قال: فمن المتولي عليهم؟ قال له: رجل يقال له أبو بكر الصديق وجه جيوشه إلى بلدك، قال: هل رأيت أبي بكر؟ قال: نعم وإنه أخذ مني شملة بأربعة دراهم وجعلها على كتفه وهو كواحد منهم، وهو يمشي في ثوبين وبطوف بالأسواق ويدور على الناس يأخذ الحق من القوي للضعيف. قال هرقل: صفة لي. قال: هو رجل آدم اللون خفيف العارضين. فقال هرقل: وحق ديني هو صاحب أحمد الذي كنا نجد في كتابنا أنه يقوم بالأمر من بعده، ونجد في كتابنا أيضاً أن بعد هذا الرجل رجلاً آخر طويلاً كالأسد الوثاب يكون على يديه الدمدمة والجلاء. قال: فشhec المتنصر من قول هرقل. وقال: إن هذا الذي وصفته لي رأيته معه لا يفارقه. قال هرقل: هذا الأمر والله قد صح وقد دعوت الروم إلى الرشد والصلاح، فأبوا أن يطيعوني، وأن مليكي سوف ينهدم، ثم عقد صليباً من الجوهر، وأعطاه قائد جيوشه روبيس. وقال له: قد وليتك على الجيوش فسيروا لمنع العرب من فلسطين فإنها بلد خصب كثيرة الخير وهي عزّنا وجاهنا وتأجنا، فتسلّم روبيس الصليب وسار من يومه إلى أجنادين واتبعه جيش الروم.

عمرو بن العاص في فلسطين

قال الواقدي: لقد بلغني أن عمرو بن العاص توجه إلى إيليا، حتى وصل إلى أرض فلسطين هو ومن معه قال: فلما نزل المسلمون بفلسطين جمع عمرو المسلمين المهاجرين والأنصار وشاورهم في أمرهم فيبيناهم في المشورة إذ أقبل عليهم عدي بن عامر، وكان من خيار المسلمين، وكان كثيراً ما يتوجه إلى بلاد الشام، ودارس أرضهم وعرف مساكنها ومسالكها. فلما أشرف على المؤمنين داروا به وأوقفوه بين يدي عمرو بن العاص. فقال عمرو بن العاص: ما الذي وراءك يا ابن عامر؟ قال: ورائي المتنصرة وجنودهم مثل النمل. فقال له عمرو: يا هذا لقد ملأت قلوب المسلمين رعباً وإننا نستعين بالله عليهم. فقال له: فكم حزرت القوم؟ فقال: أيها الأمير إني قد علوت على شرف من الجبال عال، فرأيت من الصلبان والرماح والأعلام ما قد ملأ الأجم، وهو أعظم جبل بأرض فلسطين وهو زيادة عن مائة ألف فارس، وهذا ما عندي من الخبر قال: فلما سمع عمرو ذلك قال:

لا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم، ثم أقبل على من حضر من كبار المسلمين. وقال: أيها الناس أنا وإياكم في هذا الأمر بالسواء فاستعينوا بالله على الأعداء، وقاتلوا عن دينكم وشر عکم فمن قتل كان شهيداً، ومن عاش كان سعيداً، فماذا أنتم قاتلون؟ قال: فتكلّم كل رجل بما حضر عنده من الرأي. فقالت طائفة

منهم: أيها الأمير ارجع بنا إلى البرية حتى نكون في بطن الدياء فإنهم لا يقدرون على فراق القرى والمحصون. فإذا جاءهم الخبر إننا توسطنا البرية يتفرق جمعهم وبعد ذلك نعطف عليهم وهم على غفلة فنهزمهم إن شاء الله تعالى. فقال سهل بن عمرو: إن هذه مشورة رجل عاجز. فقال رجل من المهاجرين: لقد كنا مع رسول الله ﷺ نهزم الجمع الكبير بالجمع القليل، وقد وعدكم الله النصر وما وعد الصابرين إلا خيراً، وقد قال الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَيْنَا قَاتِلَوْنَا الَّذِينَ يُلُونَكُمْ مِّنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيْكُمْ غُلَظَةً﴾** [التوبه: ١٢٣]

قال سهل بن عمرو: أما أنا فلا رجعت عن قتال الكفارة ولا ردت سيفي عنهم، فمن شاء فلينهض، ومن شاء فليرجع، ومن نكس على عقيبه فأنا ورائي بالمرصاد، قال: فلما سمع المسلمون أن وافقه على ذلك عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قالوا أحسنت يا أبي الفاروق، قال: ثم إن عمرو بن العاص عقد راية وأعطاهما عبد الله بن عمر بن الخطاب وضم إليه ألف فارس فيهم رجال من الطائف ومن ثقيف وأمرهم بالمسير فسار عبد الله، وجعل يجد السير بقية يومه إلى الصباح، وإذا بغيرة القوم قد لاحت. فقال عبد الله بن عمر: هذه غيرة عسكر وأظتها طليعة القوم، ثم وقف ووقف أمامه أصحابه. فقال قوم من البدية: أتركتنا نرى ما هذه الغيرة. فقال: لا تفترقوا من بعضكم حتى نرى ما هي. فوقف الناس، وإذا بالغيرة قد فربت وانكشفت عن عشرة آلاف من الروم وقد بعث معهم روبيس بطريقاً من أصحابه، وكانوا قد ساروا يكتشفون خبر المسلمين. فلما نظرهم عبد الله بن عمر قال لأصحابه: لا تمتهلوهم لأنهم لا بد لهم منكم، والله ينصركم عليهم. واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف، قال: فأعلن القوم بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله. فلما جهروا بها أجابهم الشجر والمدر والدواب والحجر، وكان أول من حمل عكرمة بن أبي جهل وتبعه سهل بن عمرو والضحاك أيضاً بالجملة وصاح في رجاله وحمل المهاجرين، والأنصار معهم والتقي الجمعان، وعمل السيوف في الفريقين. قال عبد الله بن عمر: وبينما أنا في الوعرة إذ نظرت من القوم بطريقاً عظيم الخلقة وهو كالحائز البليد، وهو يركض يميناً وشمالاً، فقلت: إن يكن لهذا الجيش عين فهذا عين الجيش وصاحب الطلائع وهو مرعوب من الحرب. فلما حملت عليه ومددت قناتي إليه، نفر فرسه من الرمح فقربت منه وأوهنته أني أريد الانهزام، ثم عطفت عليه وطعنته، فوالله لقد خيل لي أني ضربت بسيفي حجراً، وسمعت طنين السيوف حتى حسبت أن سيفي انفصل، وإذا هو صريع ثم عطفت عليه وأخذت لامته. فلما رأى المشركون صاحبهم مجندلاً داخلهم الفزع والهلع وصدتهم المسلمون في الضرب والقتال، فللله در الضحاك والحارث بن هشام، لقد قاتلا قتالاً شديداً ما عليه من مزيد، فما كان غير قليل حتى انهزم الكفار من بين أيديهم هاربين. قال: فرجع المسلمون واجتمع بعضهم على بعض وجمعوا الغنائم والأموال. وقال بعضهم لبعض: ما فعل الله بعد الله بن فتح الشام / ج ١ / ٢٤

عمر، قال قائل منهم: الله خبير بحسن زهذه وعبادته. وقال آخرون: لقد أصبتنا بابن عمر فما كان يساوي هذا الفتح شرة من رأسه.

قال عبد الله بن عمر: وأنا مع ذلك أسمع كلامهم خلف الراية. فأعلنت بالتهليل والتكبير والصلوة على البشير النذير، وهزرت الراية. فلما نظر المسلمين الراية سارعوا إلى وقالوا: أين كنت؟ فقلت: اشتغلت بقتال أصحابهم فقالوا: أفلح والله وجهك فهذا والله فتح قد رزقنا الله إياه ببركتك. قال عبد الله: وبوجوهكم، ثم حازوا الأموال والغنائم والخيل وستمائة أسير وقتل من المسلمين سبعة نفر فواروهم وصلى عليهم ابن عمر وانعطف الجيش إلى عمرو بن العاص وحدثوه بما جرى ففرح وحمد الله تعالى، ثم دعا بالأسرى واستنبطق منهم بالعرية فما كان فيهم غير ثلاثة نفر من أنباط الشام فسألهم عن خبرهم وخبر أصحابهم فقالوا: يا معاشر العرب إن هذا روبيس قد أقبل في مائة ألف فارس، وقد أمره الملك أن لا يدع أحداً من العرب يصل إيليا.. وإنه بعث بهذا الطريق طليعة، وقد قتل وكأنكم به. فقال عمرو: إن الله يقتله كما قتل أصحابكم، ثم عرض عليهم الإسلام، فما أحد منهم أسلم. فقال عمرو للMuslimين: كأنكم ب أصحابهم، وقد أتيت بأخذ ثأرهم وهؤلاء تركهم علينا بلاء، ثم أمر بضرب أعناقهم وصاح بالMuslimين استعدوا فإني أظن أن القوم سائرون، فإن أتوا إلينا فهم في شدة وقوّة وسنلقي منهم تعباً في القتال وإن سرنا إليهم نرجو من الله النصر والظفر بهم كما ظفرنا بغيرهم وما عودنا الله إلا خيراً. قال أبو الدرداء: وبتنا مكاننا. فلما جاء الله بالصبح رحلنا فما بعدها غير قليل حتى أشرقت علينا عشرة صلبان تحت كل صليب عشرة آلاف فارس. فلما أشرف الجيش على الجيش أقبل عمرو ورتب أصحابه وجعل في الميمنة الضحاك وفي الميسرة سعيداً، وأقام على الساقية أبي الدرداء وثبت عمرو في القلب ومعه أهل مكة، وأمر الناس يقرأون القرآن. وقال لهم: اصبروا على قضاء الله وارغبوا في ثواب الله وجنته، ثم إنه جعل يصفهم ويعييهم تعبية الحرب ونظر روبيس بطريق الروم إلى عسكر المسلمين، وقد صفهم عمرو بن العاص لا يخرج سنان عن سنان ولا عنان عن عنان ولا ركاب عن ركاب، وهم كأنهم بنيان مرصوص، وهم يقرأون القرآن. والنور يلمع من نواصي خيولهم فشم منهم رائحة النصر وتبيّن من نفسه الجزء، وعلم أن كل من معه كذلك فوقف ينظر ما يكون من المسلمين وانكسرت حميته. قال: وكان أول من برع من جيش المسلمين سعيد بن خالد رضي الله عنه، وهو أخو عمرو بن العاص من أمّه. فلما برع نادي بر فيه صوته: ابرزوا يا أهل الشرك، ثم حمل على الميمنة فألْجأها إلى الميسرة، وحمل على الميسرة فألْجأها إلى الميمنة وقتل رجالاً وجندل أبطالاً، ثم اقتحم فيهم فشوشهم وزعزع جيشهم. قال: فاجتمعوا عليه فقتلوه رحمة الله عليه. قال: فحزن المسلمين على قتله حزناً عظيماً وأكثرهم عمرو بن العاص. وقال: واسعيداه، لقد اشتري نفسه من الله عزَّ

وجلَّ. ثم قال: يا فتیان من يحمل معي هذه الحملة حتى نظر ما يكون من أمرها وأنظر حال سعيد. قال: فأسرع بالإجابة ذو الكلاع الحميري وعكرمة بن أبي جهل والضحاك والحارث بن هشام، ومعاذ بن جبل وأبو الدرداء، وعبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم أجمعين. قال عبد الله: وكنا سبعين رجلاً، وحملنا حتى دنونا من القوم وهم لا يفكرون من حملتنا لأنهم جبال من حديد.

قال الواقدي رحمة الله عليه: فلما رأى المسلمين ثبات الروم صاح بعضاً لبعض: ابتعدوا دوابهم فما هلاكم غير ذلك قال: فبعجنا دوابهم بالأسنة فنتكسوا بعد انتكسهم تفرق بعضهم عن بعض وحملوا علينا وحملنا عليهم، وكنا فيهم كالشامة البيضاء في جلد البعير الأسود وكان شعارنا يوم فلسطين: لا إله إلا الله محمد رسول الله يا رب انصر أمة محمد ﷺ قال أبو الدرداء: فلقد شغلني الحرب عن مناشدة الأشعار، ولقد كان أحذنا لا يدرى أهو يضرب أخاه أو عدوه من كثرة القتال قال: فثبتت المسلمين مع قتالهم وفوضوا أمرهم إلى الله عزَّ وجلَّ وما كان أحد من المسلمين يضرب إلا وظهره ناطق بالدعاء يقول: اللهم انصرنا على من يتخذ معك شريكاً. قال عبد الله بن عمر بن الخطاب: فلم يزل الحرب بيننا إلى وقت الزوال وهبت الرياح والناس في القتال إذ نظرت إلى السماء وقد انفتح فيها فرج وخرجت منها خيول شهب تحمل ريايات خضراء أستتها تلمع ومناد ينادي بالنصر أبشروا يا أمة محمد ﷺ فقد أتاكم الله بالنصر. قال: فما كان غير قليل إذ نظرت إلى الروم منهزمين، والمسلمون في أعقابهم لأن خيل العرب أسبق من خيل الروم. قال ابن عمر: فقتلنا في هذه الواقعة قريباً من خمسة عشر ألف فارس وأكثر ولم ننزل في آثارهم إلى الليل وعمرو بن العاص قد فرح بالنصر وقلبه متعلق بال المسلمين لإسراعهم وراء العدو، وقال عمرو بن غيث: فنظرت إلى عمرو بن العاص والراية في يده، وقد أوفى القناة على عاتقه وهو يعركتها بيده ويقول: من يرد الناس علي رد الله عليه ضالته إذ نظرت العرب قد عطفت راجعة كعطفة الأم على ولدتها فاستقبلهم عمرو، وهو يقول: هنيئاً لهذه الوجوه التي تعبت في رضا الله تعالى أما كان لكم كفاية في أن خولكم الله حتى اتبعتم العدو، فقالوا: ما أردنا الغنيمة، بل القتال والجهاد، قال: ولما رجع المسلمون لم يكن لهم همة إلا افتقاد بعضهم بعضاً فقد من المسلمين مائة وثلاثون رجلاً ختم الله لهم بالسعادة منهم سيف بن عبادة ونوفل بن دارم والأهب بن شداد والباقي من اليمن ووادي المدينة. قال: فاغتنم عمرو لفقدتهم، ثم راجع نفسه وقال: قد نزل بهم خير، وأنت يا عمرو تأبى ذلك. ثم ندب الناس إلى الصلاة كما أمره أبو بكر الصديق رضي الله عنه فصلى ما فاته كل صلاة بأذان وإقامة، قال ابن عمر: ما صلى خلفه إلا قليل، بل صلَّى الناس في رحالهم من تعهم ولم يجمعوا من الغنائم إلا القليل وبات الناس، فلما أصبح عمرو أذن وصلَّى بهم وأمر الناس بجمع الغنائم وأن يخرجوا

إخوانهم المؤمنين من الروم فجعلوا يلقطونهم. قال: فأخرجوا مائة وثلاثين رجلاً ووجدوا سعيد بن خالد، فلما نظر عمرو إلى ما نزل به بكى، وقال: رحمك الله فقد نصحت لدين الله وأديت النصيحة ثم جعله في جملة المسلمين وصلّى عليهم وأمر بدفنهم، وذلك قبل أن يخمس شيئاً من الغنائم ثم بعد ذلك جمعها إليه وكتب إلى أبي عبيدة كتاباً يقول فيه:

كتاب عمرو بن العاص إلى أبي عبيدة

بسم الله الرحمن الرحيم من عمرو بن العاص إلى أمين الأمة، أما بعد: فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلّى على نبيه محمد ﷺ وإنني قد وصلت إلى أرض فلسطين ولقينا عساكر الروم مع بطريق يقال له روبيس في مائة ألف فارس فمن الله بالنصر وقتل من الروم خمسة عشر ألف فارس وفتح الله على يدي فلسطين بعد أن قتل من المسلمين مائة وثلاثون رجلاً فإن احتجت إلي سرت إليك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته. ودفع الكتاب إلى أبي عامر الدوسي وأمره أن يسير إلى أبي عبيدة. قال: فأسرع أبو عامر بالكتاب فوجد أبو عبيدة وهو نازل بأرض الشام وجاهر بالدخول إليها غير أنه أمره كما أمره أبو بكر. قال: فلما وصل أبو عامر قال له أبو عبيدة: ما وراءك؟ قال: خير هذا كتاب من عمرو بن العاص يخبرك بما فتح الله على يديه، ثم سلم إليه الكتاب، فلما قرأه خر ساجداً فرحاً بنصر الله ثم قال: والله قتل من المسلمين رجال أخيار منهم سعيد بن خالد. قال أبو عامر: فكان خالد والده جالساً، فلما سمع بأن ولده قد قتل قال: والبناء وجعل يبكيه حتى بكى المسلمون لبكائه، ثم إن خالداً أسرع إلى فرسه فركبها وعزم إلى أرض فلسطين لينظر إلى قبر ولده. فقال أبو عبيدة: كيف تسير وتدعنا. فقال: إنما أنظر قبر ولدي وأرجو الله أن يلحقني به، قال: وكتب أبو عبيدة كتاباً لعمرو بن العاص يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم إنما أنت مأمور فإن كان أبو بكر أمرك أن تكون معنا فسر إلينا، وإن كان أمرك بالثبات في موضعك فثبت وسلام عليك ورحمة الله وبركاته. وطوى الكتاب وسلمه إلى خالد بن سعيد وسار مع أبي عامر إلى أن أتيا إلى جيش عمرو بن العاص فدفع له الكتاب وهو يبكي فوثب عمرو وصافح خالداً ورفع منزلته وعزّاه في ولده سعيد وعزّاه المسلمين. فقال خالد: يا أيتها الناس هل أروي سعيد رمحه وسيفه في الكفار؟ قالوا: نعم. فلقد قاتل وما قصر، ولقد جاهد في الدين ونصر. فقال: أروني قبره، قال: فأرزوه إياته فأقام على القبر وقال: يا ولدي رزقني الله الصبر عليك وألحقني بك وإن الله وإنا إليه راجعون، والله إن مكنتني الله لآخذن بثأرك يا ولدي عند الله احتسبتك، ثم قال لعمرو بن العاص: إني أريد أن أسرى بسرية في طلب القوم فلعل أن أجدهم فرصة أو غنية وأكون قد أخذت بثار ولدي، فقال عمرو: إن الحرب أمامك يا

ابن الأُمّ. فإذا رأيت الروم فلا تبق عليهم. فقال خالد: والله لأُسِيرَ إِلَيْهِمْ، ثم أخذ خالد أهْبَتَهُ لِلمسير وعزم أن يسير وحده فركب معه ثلاثة فارس من فتى حمير فساروا يومهم ذلك أجمع وأرادوا النزول في الأوّدية ليعرفوا دوابهم ويسيروا ليلتهم إذ نظر خالد بن سعيد إلى أشباح على ذروة جبل هناك عالٌ منيع. فقال لأصحابه: إني أرى أشباحاً على ذروة هذا الجبل ونحن في هذا الوادي، ثم قال: كونوا في أماكنكم ثم نزل عن فرسه وتقلد سيفه والتحف يازاره وقال: اعلموا أنّ القوم ما علموا بنا ولو نظروا إلينا ما ثبتوا في أماكنهم فمن منكم يبذل نفسه ويصنع كما أصنع؟ قالوا: كلنا لك قال: فطافوا في الجبل حتى أشرفوا على القوم وهو في أماكنهم فعند ذلك قال: خذوه بارك الله فيكم فأسرع إليهم المسلمون فقتلوا منهم ثلاثة وأسروا أربعة فسألهم خالد بن سعيد عن حالهم فإذا هم من أنباط الشام فقالوا: نحن من أهل هذا البقيع والجامعة وكفار القرية وقد عظم علينا دخول العرب إلى بلادنا وقد فزعنا منهم فرعاً عظيماً، وقد هرب أكثرنا إلى الحصون والقلعاء، وقد اعتقدنا نحن بهذا الجبل، لأنّه ليس في الرستاق أحسن منه فعلونا عليه وأنتم كبسطونا. قال خالد: فما بلغكم عن جيش الروم؟ قالوا: بأجنادين وهذا الطريق أقبل إلينا ليأخذ الميرة والعلوقة، وقد جمعوا له الدواب والبغال والحمير تحمل الميرة وهم مع ذلك خائفون أن تلحقهم خيل العرب، وهذا خبر قومنا ولا شك أنّهم رحلوا من يومهم، قال: فلما سمع خالد بن سعيد مقالتهم، قال: غنيمة للمسلمين ورب الكعبة، ثم قال: اللهم انصرنا عليهم. ثم سأله على أي طريق سار القوم قالوا: على هذه الطريق التي أنتم عليها لأنها أوسع الطرق كلها، وأما الميرة فإنّها مجموعة من حول البلاد، فلما سمع خالد كلامهم قال لهم:

أسلموا فقالوا له: ما نعرف إلا دين الصليب، ونحن فلا حون قال: فهم خالد بقتلهم. فقال رجل من أصحابه: دعهم يدخلونا على الطريق إلى ميرة القوم فأجابوه إلى ذلك وساروا وهم يدخلونهم إلى تل عظيم. قال: فتوافق القوم وهو يحملون دوابهم حول التل ومعهم ستمائة لباس من القوم، فلما نظر خالد إلى ذلك قال لأصحابه: اعلموا أن الله تعالى قد وعدكم بالنصر على عدوكم وفرض عليكم الجهاد وهذا جيش العدو أمامكم فارغبوا في ثواب الله تعالى واسمعوا ما قال الله عز وجل: **«إِنَّ اللَّهَ يَحْبُّ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفَا كَانُوهُمْ بَنِيَانَ مَرْصُوصٍ»** [الصف: ٤] وهو أنا أحمل فاحملوا ولا يخرج أحد عن صاحبه. ثم إن خالداً حمل وحمل أصحابه قال: فلما رأينا استقبلونا وانهزم من كان مع الدواب من الفلاحين وصبرت الخيل لقتالنا ساعة من النهار قال: فبينما ذو الكلاع الحميري يشجع أصحابه ويقول: يا أهل حمير أبواب الجنة فتحت والحوور العين قد تزخرفت وإذا بصاحب القوم قد لقيه خاد فعرفه بلا منه وحسن زيه. قال: فاستقبله وصرخ فيه فأرعبه ثم قال: يا لثار ولدي سعيد وطعنه طعنة صادقة فجندله صريعاً كأنه

برج من حديد وما بقي أحد إلا قتل من الروم. قال: فلما رأى الروم ذلك ولوا الأدبار ورکنوا إلى الفرار وقتل منهم ثلاثة عشرة وعشرون فارساً وولي الباقيون منهزمين وتركوا الأنقال والبغال والميرة وأخذ المسلمين الجميع بعون الله تعالى. قال: وأطلق سراح الفلاحين وعاد خالد ومن معه بالغنائم والميرة إلى عمرو بن العاص ففرح بسلامتهم وشكر فعلهم وكتب كتاباً إلى أبي بكر الصديق، وذكر له ما جرى مع الروم وبعث الكتاب مع أبي عامر الدوسي رضي الله عنه وأخذته وقدم به المدينة وأعطاه أبا بكر الصديق رضي الله عنه. فلما قرأه على المسلمين فرحوا وضجوا بالتهليل والتكبير والصلوة على البشير النذير، ثم إن أبا بكر استخبر عن أبي عبيدة. فقال له عامر: إنه قد أشرف على أوائل الشام ولم يجسر على الدخول إليها وإنه سمع أن جيوش الملك قد اجتمعت من حول أجنادين وهو أمم لا تحصى وقد خاف على المسلمين أن يتوسط بهم عدوهم.

خالد بن الوليد في الشام

فلما سمع أبو بكر ذلك علم أن أبا عبيدة لِئَن العريكة لا يصلح لقتال الروم وعوئل أن يكتب إلى خالد بن الوليد ليوليه على جيوش المسلمين وقتل الروم قال: واستشار المسلمين في ذلك فقالوا: الرأي ما تراه، وكتب كتاباً يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عتيق بن أبي قحافة إلى خالد بن الوليد سلام عليك: أما بعد فإنني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأصلّى على نبيه محمد ﷺ وإنني قد ولّتكم على جيوش المسلمين وأمرتك بقتال الروم وأن تسارع إلى مرضاته الله عزّ وجلّ وقتل أعداء الله، وكن ممن يجاهد في الله حق جهاده ثم كتب «يا أيها الذين آمنوا هل أدلّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم» [الصف: ١٠] الآية وقد جعلتكم الأمير على أبي عبيدة ومن معه. وبعث الكتاب مع نجم بن مقدم الكناني فركب على مطيته وتوجه إلى العراق فرأى خالداً رضي الله عنه قد أشرف على فتح القادسية فدفع إليه الكتاب فلما قرأه قال: السمع والطاعة لله ولخليفة رسول الله ﷺ ثم ارتحل ليلاً وأخذ طريقه عن اليمين وكتب كتاباً إلى أبي عبيدة يخبره بعزله وبسيره إلى الشام، وقد ولّني أبو بكر على جيوش المسلمين فلا تبرح من مكانك حتى أقدم عليك السلام. وبعث الكتاب مع عامر بن الطفيلي رضي الله عنه، وكان أحد أبطال المسلمين فأخذه وتوجه يطلب الشام.

وأما خالد فلما وصل إلى أرض السماوة قال: أيها الناس إن هذه الأرض لا تدخلونها إلا بالماء الكثير لأنها قليلة الماء ونحن في جيش عظيم والماء معكم قليل فكيف يكون الأمر؟ فقال له رافع بن عميرة الطائي رضي الله عنه: أيها الأمير إنني أشير عليك بما تصنع، فقال: يا رافع أرشدك الله بما نصنع ووقفك الله مولانا جل وعلا للخير، قال: فأخذ رافع ثالثين جملًا وعطشها سبعة أيام ثم أوردها الماء فلما رويت حزم

أفواهها، ثم ركبوا المطايا وجنبوا الخيول وساروا فكانوا كلما نزلوا متزلاً أخذوا عشرة من الإبل يشقون بطونها ويأخذون ما يجدون من الماء في بطونها فيجعلونه في حياض الأدم، فإذا برد سقوه للخيل وأكلوا اللحم ولم يزالوا كذلك حتى تمت الإبل وفرغ الماء وقطعوا مرحليتين بلا ماء وأشرف خالد ومن معه على الهلاك. فقال خالد لرافع بن عميرة: يا رافع قد أشرفنا على الهلاك والتلف أتعرف لنا ماء ننزل فيه.

قال الواقدي: وكان رافع رمداً عيناه. فقال: أيها الأمير أتاني رمد كما ترى، ولكن إذا أشرفتم على أرض سهلة فأعلموني. قال: فلما أشرفوا عليها أعلموا رافعاً بذلك. قال: فرفع طرف عمامته عن عينيه، وسار على راحلته يضرب يميناً وشمالاً والناس من ورائه إلى أن أقبل على شجرة من الأراك فكبَّر وكبَّر المسلمين، ثم قال: الله تعالى وأنثوا عليه وعلى رافع خيرًا، ثم وردوا الماء وسقو خيلهم وإبلهم، ثم جذوا في طلب من انقطع من المسلمين ومعهم القرب بالماء. قال: فسقوهم فارتجمت قوتهم. ثم لحقوا بالجيش وأراحوا أنفسهم، ثم في ثاني يوم جذوا في المسير إلى أن بقي بينهم وبين أركة مرحلة واحدة، فبينما هم كذلك إذ أشرفوا على حلة عامرة وأغنام وإبل قد سدت الفضاء والمستوي، فأسرع المسلمين إلى الحلة وإذا براع يشرب الخمر وإلى جانبه رجل من العرب مشدود. قال: فتبينه المسلمين وإذا هو عامر بن الطفيلي الذي أرسله خالد. قال: فأقبل خالد بن الوليد مسرعاً حتى وقف عليه، فلما رأه تبسم وقال: يا ابن الطفيلي كيف كان سبب أسرك؟ قال عامر: أيها الأمير إني أشرفت على هؤلاء القوم في هذه الحلة وقد أصابني الحر والعطش فملت إلى هذا الراعي ليسقيني من اللبن فوجده يشرب خمراً. فقلت له: يا عدو الله أشرب الخمر وهي محظمة. فقال لي: يا مولاي إنها ليست بخمر وإنما هي ماء زلال، فأنزل كي تراه واستنشق ما في الجفنة فإن كان خمراً فافعل ما بدا لك، فلما سمعت كلامه أنتح المطية ونزلت عن كورها وجلست على ركبتي في الجفنة وإذا أنا بالعبد قد طلبني بعضاً كانت إلى جانبه وضربني على رأسي فشجّني شجنة موضحة، فانقلبت على جنبي فأسرع العبد إلى وشدّني كتافاً وأوثقني رباطاً وقال لي: أظننك من أصحاب محمد بن عبد الله ولست أدعوك من بين يدي أو يقدم سيدني من عند الملك. فقلت له: ومن سيدك من العرب؟ فقال: القداح بن وائلة وإنني عند هذا العبد كلما شرب الخمر أحضرني كما ترى وألقى علي فضلة من كأسه. قال: فلما سمع خالد بن الوليد كلام عامر بن الطفيلي اشتد به الغضب ومال على العبد وضربه ضربة هائلة فجندله صريعاً ونهب المسلمين المال والأغنام والإبل وقلعوا الحلة بما فيها وأطلق عامراً وقال له: أين رسالتي يا عامر؟ فقال: يا مولاي هي في طرف عمامتي لم يعلم بها العبد. فقال خالد: انطلق بها يا عامر على بركة الله تعالى. قال: فركب عامر

وسار يطلب الشام وارتحل خالد من موضعه ذلك فنزل بأركة وهي رأس الأمانة لمن يخرج من العراق، وكانت الروم تمسك بها القواقل وكان عليها بطريق من قبل الملك فأغار خالد عليها وأخذ ما كان فيها وتحصّن أهلها بحصنها وكان يسكن فيها حكيم من حكماء الروم وقد طالع الكتب القديمة والملاحم، فلما رأى المسلمين وجيشهم انتفع لونه وقال: اقترب الوقت وحق ديني. فقال أهل أركة: وكيف ذلك؟ قال: إن عندي ملحمة فيها ذكر هؤلاء القوم، وإن أول راية تشرف من خيلهم هي الراية المنصورة وقد دنا هلاك الروم، فانظروا إن كانت رايتهم سوداء وأميرهم عريض اللحية طويل ضخم بعيد ما بين المنكبين واسع الهيكل في وجهه أثر جدرى لهو صاحب جيشه في الشام وعلى يديه يكون الفتح.

قال: فنظر القوم وإذا الراية على رأس خالد وهي كما قال حكيمهم. قال: واجتمعوا على بطريقهم وقالوا له: أنت تعلم أن الحكيم سمعان لا ينطق إلا بالحق والحكمة وقد قال كذا وكذا. والذي وصفه لنا رأينا عياناً ونرى من الرأي أن نعقد بيننا وبين العرب صلحًا ونأمن على حريمنا وأنفسنا. فلما سمع ذلك بطريقهم قال: آخروني إلى غد لأرى من الرأي. قال: فانصرفوا من عنده وبات الطريق يحدث نفسه ويدبر أمره وكان عارقاً عاقلاً خبيراً بالأمور، وقال: إن أنا خالفتهم خفت أن يسلموني للعرب، وقد تحقق أن رويس سار بجيشه عظيم فهزمهم العرب ولم يزل يراود نفسه إلى أن أصبح الصباح فدعا قومه. وقال: على ماذا عولتم؟ قالوا: عوّلنا على أننا نقيم الصلح بيننا وبين العرب. فقال الطريق: أنا واحد منكم مهما فعلتم لا أخالفكم. قال: فخرج مشايخ أركة إلى خالد وكلموه في الصلح، فأجابهم إلى الصلح وألان الكلام لهم وتلقاهم بالرحب والسعنة ليسمع بذلك أهل السخنة ويبلغ الخبر لأهل قمدة، وكان الوالي عليهم بطريق اسمه كوكب، فجمع رعيته وقال لهم: بلغني عن هؤلاء العرب أنهم فتحوا أركة والسعنة وأن قومنا يتحدّثون بعدلهم وحسن سيرتهم وأنهم لا يطلبون الفساد وهذا حصن مانع لا سبيل لأحد علينا، ولكن تخاف على نخلنا وزرعنا، وما يضرنا أن نصالح العرب، فإن كان قومنا هم الغالبين فسخنا صلحهم، وإن كان العرب ظافرين كنا آمنين. قال: ففرح قومه بذلك وهبّوا العلوفة والضيافة حتى خرج خالد رضي الله عنه من أركة ونزل عليهم فخرجوه إليه بالخدمة وصالحهم على ثلثمائة أوقية من الذهب وكتب لهم كتاباً بالصلح، ثم ارتحل عنها إلى حوران وبلغ عامر بن الطفيلي كتاب خالد إلى أبي عبيدة، فلما قرأه تبسم وقال: السمع والطاعة لله تعالى ول الخليفة رسول الله ﷺ، ثم أعلم المسلمين بعزله ولولية خالد بن الوليد، وكان أبو عبيدة وجّه شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله ﷺ إلى بصرى في أربعة آلاف فارس. قال: فسار على فنائها، وكان على بصرى بطريق عظيم الشأن والقدر عند الملك وعند الروم اسمه روماس، وكان قرأ الكتب

السالفة والأخبار الماضية، وكان يجتمع إليه الروم من أقصى بلادها ينظرون إلى عظيم خلقته ويسمعون الفاظ حكمته، وكانت آهله بالخلق عامرة بالناس، وكان فيها ألف فارس، وكان العرب يقصدونها ببعضائهم وتجارتهم من أقصى اليمين وببلاد الحجاز، فإذا كان في أيام الموسم ينصب لبطريقيهم كرسي ليجلس عليه ويجمع الناس إليه، ويستفيدون من علمه وحكمته، في بينما هم قد اجتمعوا إليه وقعت الضجة بقدوم شرحبيل بن حسنة وعسكره فبادر إلى جواده فركبه وصاح في قومه فأجابوه وقال: لا تتحذثوا حتى نسمع كلام القوم وما عندهم، ثم سار حتى قرب من شرحبيل بن حسنة وجشه، ونادى: يا معاشر المسلمين أنا روماس وإنني أريد صاحبكم. قال: فخرج إليه شرحبيل، فلما قرب منه قال بطريق: من أنت؟ قال شرحبيل: من أصحاب محمد صلوات الله عليه النبي الأمي القرشي الهاشمي المنعوت في التوراة والإنجيل فقال روماس: ما فعل الله به؟

فقال شرحبيل: قبضه الله إليه. فقال بطريق: فمن ولد الأمر بعده؟ قال: عتيق بن أبي قحافة بن بكر بن تيم بن مزة. فقال روماس: وحق ديني لقد أعلم بأنكم على الحق ولا بد لكم أن تملكون الشام والعراق وأنا أشفق عليكم إذ أنتم في جمع يسير ونحن في جمع كثير، ولكن ارجعوا إلى بلادكم فإننا لا نتعرض لكم. واعلم يا أخا العرب أن أبي بكر هو صاحبي ورفيقي ولو كان حاضراً ما قاتلني. فقال شرحبيل: لو كنت ولدك أو ابن عمك لما عفا عنه إلا أن يكون من أهل ملته، وليس له من الأمر شيء لأنه مكلف، وقد أمره الله أن يجاهدكم ولستنا نبرح عنكم إلا بإحدى ثلاث: إما أن تدخلوا في ديننا أو تؤدوا الجزية، أو السيف. فقال روماس: وحق ما أعتقده من ديني: لو كان الأمر إلي ما أقاتلكم لأنني أعلم أنكم على حق، وهؤلاء طواغية الروم وقوم مجتمعون، وإنني أريد أن أرجع إليهم وأنظر ما عندهم. فقال شرحبيل: ارجع إليهم فلا بد لكم بما ذكرت. قال: فعاد روماس إلى قومه وجمعهم، وقال: يا أهل دين النصرانية وبني ماء المعمودية إن الذي كنتم تعتقدونه في كتبكم من الخروج من بلادكم ودياركم ونهب أموالكم قد قرب، وهذا وقته وزمانه ولستم بأعظم جيشاً من روبيس سار إلى شرذمة من العرب بأرض فلسطين. فقتل وقتل من معه وانهزم الباقون، ولقد بلغني أن رجالاً منهم قد خرج من أرض السماوة صوب العراق اسمه خالد بن الوليد وقد فتح أركرة والحسنة وتدمير حوران، وهو عن قريب يحضر إليكم، والصواب أن تؤدوا الجزية عن يد إلى هؤلاء العرب وينصرفون عنكم. قال: فلما سمع قومه ذلك غضبوا وشوشوا وهمموا بقتله. فقال روماس: يا قوم إنما أردت أن أختبركم، وأرى حمية دينكم والآن دونكم والقوم وأنا في أولكم. قال: فرجعت الروم إلى عددها وعددها وتظاهروا بالدروع البيض وقادوا الجنائب وتهيئوا للحملة. فلما رأى شرحبيل بن حسنة ذلك وعظ أصحابه. وقال: أعلموا رحmkm الله أن رسول الله صلوات الله عليه قال: «الجنة تحت ظلال السيوف وأحـبـ ما قـرـبـ إلى الله»

قطرة دم في سبيل الله أو دمعة جرت في جوف الليل من خشية الله». قال الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قَاتَلُوكُمْ لَا تُمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ» [آل عمران: ١٠٢] ثم حمل وحمل المسلمين على جيش بصرى. قال عبد الله بن عدي: واجتمع علينا العدو وطمعوا فينا، وحملوا علينا في اثنى عشر ألف فارس من الروم، ونحن فيهم كالشامة البيضاء في جلد البعير الأسود وصبرنا لهم صبر الكرام، ولم يزل القتال بيننا وبينهم إلى أن توسرت الشمس في قبة الفلك، وقد طمع العدو فينا، فرأيت شرحبيل بن حسنة قد رفع يده إلى السماء وهو يقول: يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام، اللهم انصرنا على القوم الكافرين. قال: فوالله ما استثم شرحبيل كلامه ودعاه حتى جاء النصر من عند الله العزيز الحكيم، وذلك أن القوم داروا بنا فرأينا غبرة قد أشرفت علينا من صوب حوران. فلما قربت لنا رأينا تحتها سوابق الخيل، فلاحت لنا الأعلام الإسلامية والرايات المحمدية، وقد سبق إلينا فارسان: أحدهما ينادي ويزعق: يا شرحبيل يا ابن حسنة أبشر بالنصر لدين الله، أنا الفارس الصنديد والبطل المجيد، أنا خالد بن الوليد، الآخر يزعق ويقول: أنا عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وأشرف العساكر من كل جانب. قال: وأشرف راية العقاب يحملها رافع بن عميرة الطائي. قال: حدثنا سالم بن عدي عن ورقاء بن حسان العامري عن مسيرة بن مسروق العبسي. قال:

وإله لقد خمدت أصوات الروم عند زعة خالد رضي الله عنه، وأقبل المسلمين يسلّم بعضهم على بعض، وأقبل شرحبيل بن حسنة إلى خالد بن الوليد، وسلم عليه. فقال خالد: يا شرحبيل أما علمت أن هذه مينا الشام والعراق، وفيها عساكر الروم وبطارقتهم. فكيف غارت بنفسك وبمن معك من المسلمين؟ قال: كله بأمر أبي عبيدة. فقال خالد: أما أبو عبيدة فإنه رجل خالص النية، وليس عنده غائلة الحرب ولا يعلم بمقاعدها، ثم أمر الناس بالراحة فنزلوا وارتاحوا من أوزارهم. فلما كان في اليوم الثاني زحفت جيوش بصرى على المسلمين فقال خالد: إن الروم زحفوا لعلمهم بتعبنا وتعب خيولنا فاركبوا بارك الله فيكم، واحملوا على بركة الله تعالى. قال: فركب المسلمين وأخذوا أهبتهم للحرب فجعل في الميمنة رافع بن عميرة الطائي، وجعل في الميسرة ضرار بن الأزور وكان غلاماً فاتكا في الحرب، وجعل على الدرك عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، ثم قسم جيش الزحف فجعل على شطره المسيب بن نجيبة الغزارى، وعلى الشطر الآخر مذعور بن غانم الأشعري، وأمرهم أن يزفوا الخيل إذا حملت. قال: وبقي خالد في الوسط وهو يعظ الناس ويوصيهم، وقد غزوا على الحملة، وإذا بصفوف الروم قد انشقت وخرج من وسطها فارس عظيم الخلقة كثير الزينة يلمع ما عليه من الذهب الأحمر والياقوت. فلما توسرت الجمعين نادى بسان عربي كأنه بدوي: يا معشر

العرب لا يبرز لي إلا أميركم، فأنا صاحب بصرى. قال: فخرج إليه خالد رضي الله عنه كالأسد الضراغم وقرب منه. فقال له البطريق: أنت أمير القوم؟ قال: كذلك يزعمون أنني أميرهم ما دمت على طاعة الله ورسوله، فإن عصيته فلا إمارة لي عليهم. قال البطريق: إني. رجل عاقل من عقلا الروم وملوكيهم وإن الحق لا يخفى عن ذي بصيرة، واعلم أنني قرأت الكتب السابقة، والأخبار الماضية، فوجدت أن الله تعالى بعث قرشياً واسمه محمد بن عبد الله. قال خالد: والله نبيتنا. قال: أنزل عليه الكتاب؟ قال: نعم القرآن. قال روماس البطريق: أحَرِّمْ عَلَيْكُمْ فِيهِ الْخَمْر؟ قال خالد: نعم من شربها حذنناه، ومن زنى جلذناه، وإن كان محسناً رجمناه. قال: أفترضت عليكم الصلوات؟ قال: نعم خمس صلوات في اليوم والليلة. قال: أفترض عليكم الجهاد؟ قال خالد: ولو لا ذلك ما جئناكم نبغى قتالكم. قال روماس: والله إنني لأعلم أنكم على الحق وإنني أحبكم وحدرت قومي منكم وإنني خائف منكم، فأبوا. فقال خالد: فقل أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يكون لك ما لنا وعليك ما علينا. فقال: إني أسلمت وأخاف أن يعدل هؤلاء بقتلي ونبي حريري، ولكن أنا أسير إلى قومي وأرغبهم فعلل الله أن يهدىهم. فقال خالد: وإن رجعت إلى قومك بغير قتال يكون بيني وبينك خفت عليك، ولكن أحمل علي حتى لا يتهموك وبعد ذلك اطلب قومك. فحمل بعضهم على بعض، وأرى خالد الفريقين أبواباً من الحرب حتى أبهر روماس. فقال لخالد: شدد على الحملة حتى يرى الديرجان فإني خائف عليك من بطريق بعث به الملك يقال له الديرجان. فقال خالد: ينصرنا الله عليه، ثم شدد على روماس الحملة حتى إنه انهزم من بين يديه إلى قومه. فلما وصل إلى قومه قال: ما الذي رأيت من العرب؟ قال: إن العرب أجياد ما لكم بقتالهم طاقة ولا بد لهم أن يملكون الشام، وما تحت سريري هذا فادخلوا تحت طاعتهم وكونوا مثل أركة والسعنة قال: فلما سمعوا كلامه زجروه وأرادوا قتله، وقالوا له: ادخل المدينة والزم قصرك ودعنا لقتال العرب، فانصرف روماس، وقال: لعل الله ينصر خالداً. ثم إن أهل بصرى ولدوا عليهم الديرجان، وقالوا: إذا فرغنا من المسلمين سرنا معك إلى الملك، ونسأله أن ينزع روماس ويوليك علينا. قال الديرجان: وما الذي تريدون؟ قالوا: نحمل ونطلب قتال العرب. قال: فخرج الديرجان وطلب خالداً.

قال عبد الرحمن لخالد: يا أمير أنا أخرج إليك. فقال: دونك يا ابن الصديق، فخرج عبد الرحمن وحمل على الديرجان، فما لبشا غير ساعة، وقد أحسن الديرجان من نفسه بالتقسيط فولى منهزمًا وراح إلى قومه. فلما رأوا ذلك منه نزل الرعب في قلوبهم وعلم خالد ما عند القوم من الفزع فحمل وحمل عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وحمل المسلمون. فلما نظر أهل بصرى إلى حملة المسلمين حملوا وتلاقى الفريقيان،

وضجت الرهبان بكلمة كفراهم. فقال شرحبيل بن حسنة: اللهم إن هؤلاء الأنجلاس بيتهلون بكلمة كفراهم ويدعون معك إلى آخر لا إله إلا أنت ونحن نبتهل إليك بلا إله إلا أنت، وأن محمداً عبدك ورسولك، إلا ما نصرت هذا الدين على أعدائك المشركين، ثم حملوا حملة واحدة، فلم يكن للروم ثبات مع العرب، فولى المشركون الأدبار، وركنا إلى الفرار. فلما حطوا داخل المدينة أغلقوا الأبواب وتحصنتوا بالأسوار، ورفعوا الصليبان، وعولوا أن يكتبوا للملك ليمدهم بالخيل والرجال. قال عبد الله بن رافع: فلما تحصنتوا رجعنا عنهم وافتقدنا أصحابنا فوجدنا قد قتل منا مائة وثلاثون فارساً، وقتل من الأعيان بدريان. قال: وغنِّ المسلمون الأموال، وصلَّى خالد على الشهداء، وأمر بدفعهم. فلما كان الليل تولى الحرس عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ومعمر بن راشد ومائة من جيش الزحف. في بينما هم يدورون حول العسكر، وإذا بروماس صاحب بصرى قد أقبل عليهم. وقال لهم: أين خالد بن الوليد فأخذوه وأتوا به إلى خالد. فلما رأه رحب به. فقال: أيها الأمير بعد أن فارقتك طردني قومي، وقالوا: الزم قصرك وإلا قتلناك فلزمت قصري، وهو ملاصق للسور ولما وقع لهم ما وقع وانهزموا تحصنتوا. فلما جن الليل أمرت غلمانى بحفر السور وفتحوا فيه باباً فأتيتك فأرسلت معي من تعتمد عليه من أصحابك تستلمون المدينة. فلما سمع خالد هذا الكلام أمر عبد الرحمن بن أبي بكر أن يأخذ مائة من المسلمين ويسيروا مع روماس. قال ضرار بن الأزور: وكنت ممن دخل المدينة. فلما صرنا في قصر روماس فتح لنا خزانة السلاح، فلبستنا من سلاحهم وقسمنا أربعة أقسام، كل جانب خمسة وعشرون رجالاً. وقال لنا عبد الرحمن: إذا سمعتم التكبير فكُبُروا. فلما سرنا حيث أمرنا أخذنا أنفسنا بالحملة على القوم.

قال الواقدي: بلغني ممن أثق به من الرواة أن عبد الرحمن لما فارق أصحابه ليس سلاحه وسار هو وروماس يطلبون الدرج الذي عليه الديرجان، وسار معهم ضرار ورافع وشرحبيل بن حسنة. فلما قرب عبد الرحمن من الدرج الذي فيه الديرجان، قال الديرجان: من أنت؟ فقال: أنا روماس. قال: لا أهلاً ولا مرحباً بك، ومن الذي معك؟ قال: معي صديق لك ومشتاق إلى رؤياك، قال: ويحك، ومن هو يا روماس؟ قال: هذا ابن أبي بكر الصديق. فلما سمع الديرجان ذلك هم أن يقتله فلم تطاوعه نفسه فحمل عليه عبد الرحمن، وهز سيفه في وجهه وضربه على عاتقه فتجندل صريعاً يخور في دمه، وعجل الله بروحه إلى النار. قال: وكبير عبد الرحمن فأجابه روماس وسمع أصحابه التكبير فكبُروا من جوانب بصرى. قال: وأجبتهم الأحجار والأشجار. قال: وكبير المسلمين من جوانب بصرى ووضعوا السيف في الروم، وسمع خالد التكبير فصرخوا، وإذا بغلمان روماس وأولاده قد فتحوا لهم الأبواب فعبر خالد ومن معه من المسلمين. فلما نظر أهل بصرى إلى الأبواب، وقد فتحت بالسيف قهراً ضجوا بأجمعهم يقولون:

الأمان الأمان. فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه: ارفعوا السيف عنهم، وأقام خالد إلى الصباح واجتمع إليه أهلها. وقالوا: يا أيها الأمير لو صالحناك ما جرى شيء من ذلك، ولكن نسألك بالذى أيدك ونصرك ما الذي فتح لك أبواب مدینتنا؟ فاستحب خالد رضي الله عنه أن يقول، فوثب روماس، وقال: أنا فعلت ذلك يا أعداء الله وأعداء رسوله، وما فعلته إلا ابتغاء مرضاه الله وجهاؤكم. فقالوا: أولست منا؟ فقال: اللهم لا تجعلني منهم، رضيت بالله ربّا وبالإسلام دينا وبالکعبة قبلة وبالقرآن إماماً، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. قال: ففرح خالد بذلك. وأما أهل بصرى فغضبوا وأضمرموا له شرّاً، وعلم بذلك روماس. فقال لخالد: أنا لا أريد المقام عندهم، وإنّي أسيّر معك حيث سرت. فإذا فتح الله على يديك الشام وصار لكم الأمر رذوني إليها لأنّ الوطن عزيز.

قال الواقدي: حدثني عمر بن سالم عن جده. قال: كان روماس يجاهد معنا جهاداً حسناً حتى فتح الله على أيدينا الشام، فكان أبو عبيدة يكتب به عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أيامه فولاً على بصرى فلم يلبث إلا يسيراً حتى توفي رحمة الله، وخلف عقباً يذكر به، قال: وأمر خالد رجالاً يعيّنونه على إخراج رحله وماله من المدينة ففعلوا ذلك، وإذا بزوجته تخاصمه وتطلب فراقه. فقال لها المسلمون: ما الذي تريدين؟ قالت: أريد أمير جيشكم يحكم بيننا فجاءوا بها إلى خالد، فقالت له: أنا أستغيث بك من روماس. قال لها خالد: وكيف ذلك؟ قالت: إني كنت البارحة نائمة إذ رأيت شخصاً ما رأيت منه أحسن منه وجهاً كان البدر يطلع من بين عينيه، وكأنه يقول: إن المدينة فتحت على يد هؤلاء القوم والشام وال العراق. قلت له: ومن أنت يا سيدي؟ قال: محمد رسول الله، ثم دعاني إلى الإسلام فأسلمت، ثم علمتني سورتين من القرآن. قال: فحدث الترجمان خالد بما كان منها. قال: إن هذا لعجب، ثم قال خالد للترجمان: قل لها أن تقرأ سورتين فقرأت الفاتحة، وقل هو الله أحد، ثم جددت إسلامها على يد خالد بن الوليد، وقالت: يا أيها الأمير إما أن يسلم روماس وإلا يتركني أعيش بين المسلمين. قال: فضحك خالد من قولها، وقال: سبحان الله الذي وفّقهما جميعاً. ثم قال للترجمان: قل لها إن روماس أسلم قبلها ففرحت بذلك. ثم إن خالداً أحضر أهل بصرى وقرّرهم على أداء الجزية وولى عليهم من اتفق رأيه عليه. ثم كتب إلى أبي عبيدة كتاباً يبشره بالفتح، ويقول له: يا صاحب رسول الله قد ارتحلنا إلى دمشق فالحقنا إليها. ثم كتب كتاباً آخر إلى أبي بكر الصديق يخبره برحيله، ويقول له: يوم كتبت إليك هذا الكتاب ارتحلنا إلى دمشق فادع لنا بالنصر والسلام عليك ومن معك ورحمة الله وبركاته. ثم بعث الكتابين كلامهما، ثم ارتحل خالد إلى نحو دمشق حتى أشرف على موضع يقال له الشنية فوقف هناك وركز راية العقاب فسميت بذلك ثانية العقاب. ثم ارتحل منها إلى الدير المعروف الآن بدير خالد، وكان

أهل السواد قد التجنوا إلى دمشق، وقد اجتمع خلائق وأمم لا تحصى من الرجال. وأما أصحاب الخيل فكانوا اثنى عشر ألفاً، وقد زينوا أسوارهم بالطوارق والبيارق والصلبان، وأقام خالد على الدير يتظاهر قدوم المسلمين.

قال الواقدي: ووصلت الأخبار إلى الملك هرقل وما فتح خالد من الشام، وكيف قدم على دمشق فغضب وجمع البطارقة وقال: يا بني الأصفه، لقد قلت لكم وحدرتكم فأبىتم وهؤلاء العرب قد فتحوا أركة وتدمير والسخنة وبصرى، وقد توجهوا إلى الريوة ففتحوها فواكرباه لأن دمشق جنة الشام وقد سارت إليها الجيوش وهو أضعف العرب، ثم قال: أليكم يتوجه إلى قتال العرب ويكتفي أمرهم، فإن هزمهم أعطيته ما فتحوه ملكاً. فقال بطريق من البطارقة اسمه كلوس بن حنا، وكان من فرسانهم، وقد عرفت شجاعته في عساكر الروم والفرس: أيها الملك أنا أكيفيك وأردهم على أعقابهم منهزمين. قال: فلما سمع الملك قوله سلم إليه صليباً من الذهب وقدمه على خمسة آلاف فارس، وقال له: قدم صليبيك أمامك فإنه ينصرك. قال: فأخذه كلوس وسار من يومه من أنطاكية إلى أن وصل حمص فوجدها مزينة بالسلاح، فلما بلغ أهلها قدومه خرجوا إلى لقائه، وقد خرجت القسس والرهبان واستقبلوه ودعوا له بالنصر وأقام بحمص يوماً وليلة، ثم ارتحل إلى مدينة بعلبك فخرج إليه النساء لاطمات الخدود وقلن: أيها السيد إن العرب فتحوا أركة وحوران وبصرى، فقال لهن: كيف قدرت العرب على حوران وبصرى؟ . فقلن: أيها السيد إن الذين ذكرتهم لم يبرحوا من أماكنهم، وإن هذا الرجل قد أقبل من العراق، وهو الذي فتح أركة. فقال: وما اسمه؟ قلن: خالد بن الوليد. قال: فيكم يكون من العساكر؟ قلن: في ألف وخمسمائة فارس. فقال: وحق المسيح لأجعلن رأسه على رأس سبابي. ثم رحل فلم ينزل إلا بدمشق، وكان واليها بطريقاً من قبل الملك هرقل اسمه عازر، فلما قدم كلوس اجتمع عليه عازر وأصحابه وقرأوا عليهم منشور الملك، ثم قال لهم: أتريدون أن أقاتل عدوكم وأصدّه عن بلادكم؟ قالوا: نعم فقال: أخرجوا عازر عنكم حتى أكون وحدي في هذا الأمر. فقالوا: أيها السيد وكيف ينبغي أن يخرج صاحبنا من بلدنا، وهذا العدو قاصد إلينا. قال: فغضب عازر في وجه كلوس من كلامه، وقد اتفق رأيهما على أن كل واحد يقاتل العرب يوماً فثبتت عداوة عازر في قلب كلوس.

قال الواقدي: ولقد بلغني أنهم كانوا يخرجون كل يوم من باب الجاوية مقدار فرسخ ينظرون قدوم أبي عبيدة بن الجراح فلم يشعروا حتى قدم إليهم خالد بن الوليد من نحو الشنية، قال: حدثنا يسار بن محمد. قال: أخبرنا رفاعة بن مسلم. قال: كنت في جيش خالد بن الوليد لما نزل على الدير المعروف به، وإذا بجيش الروم قد زحف علينا وهو

كالجراد المنتشر، فلما نظر خالد ذلك تدرّع بدرع مسلمة، ثم صرخ في وجه المسلمين. وقال: هذا يوم ما بعده يوم، وهذا العدو قد زحف بخيله فدونكم والجهاد فانصروا الله ينصركم وكونوا من باع نفسه الله عزّ وجلّ وكأنكم بإخوانكم المسلمين قدموا عليكم مع أبي عبيدة بن الجراح، ثم بعد ذلك استقبل الجيش وصرخ بملء رأسه فأربعب المشركين من صرخته وحمل شرحبيل بن حسنة وعبد الرحمن بن أبي بكر وضرار بن الأزور، ومذ حمل ضرار لم يول عنهم بل قتل من الميمونة خمسة فرسان ومن الميسرة كذلك. ثم حمل ثاني مرة فقتل منهم ستة فرسان، ولو لا سهام القوم لما ردّ عن قتالهم فشكّره خالد بن الوليد وقال لعبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه: أحمل بارك الله فيك. قال: فحمل عبد الرحمن وفعل كما فعل ضرار بن الأزور وقاتل قتالاً شديداً. ثم حمل من بعده خالد بن الوليد ورفع رمحه ورأى العسّكر من أمره الحرب حتى جزع الروم من شجاعته. فلما نظر إليه البطريق كلوس علم أنه أمير الجيش وعلم أنه يقصده فتأخر كلوس إلى ورائه من مخافته. فلما نظر خالد إلى قهقرة كلوس إلى ورائه حمل عليه ليرده فوقعت عليه البطارقة ورمي بالسهام فلم يتلفت إليهم خالد، ولم يعيّا بهم ولم يرجع حتى قتل عشرين. ثم اثنى بجواهه بين الصفين وجال بجواهه بين الفريقين وطلب البراز فلم يجبه أحد، وقالوا: أخرجوا غيره منكم. فقال: ولكلم ها أنا رجل واحد من العرب وكلنا في الحرب سواء بما منهم من فهم كلامه، فأقبل عازيز على كلوس، وقال: أليس الملك قد قدمك على جيشه ويعثث إلى قتال العرب فدونك حام عن بلدك ورعايتك.

فقال كلوس: أنت أحقّ متي بذلك لأنك أقدم مني، وقد عزمت أنك لا تخرج إلا بإذن الملك مرقل فما بالك لا تخرج إلى قتال أمير العرب. فقال لهما العساكر: تقارعاً فمن وقعت عليه القرعة فلينزل إلى قتال أمير العرب. فقال كلوس: لا بل نحمل جميعاً فهو أهيب لنا، قال: وخاف كلوس أن يبلغ الملك ذلك فيطربه من عنده أو يقتله. قال: فتقارعاً فوقعت القرعة على كلوس. فقال عازيز: اخرج وبيّن شجاعتك، فقال كلوس لأصحابه: أريد أن تكون همتك عندي، فإن رأيتني مني تقصيراً فاحملوا وخلصوني. فقال أصحابه: هذا كلام عاجز لا يفلح أبداً، فقال: يا قوم إن الرجل بدوي ولغته غير لغتي فخرج معه رجل اسمه جرجيس، وقال له: أنا أترجم لك فسار معه. فقال كلوس: أعلم يا جرجيس أن هذا رجل ذو شجاعة فإن رأيته غلبني فاحمل أنت عليه حتى تقضي يومنا معه، ويخرج له غداً عازيز فيقتله ونستريح منه وأتخذك أنا صديقي. فقال له: ما أنا أهل حرب، وإنما أخوفه بالكلام. قال: فسكت وسارا حتى قربا من خالد فنظر إليهما. قال: فهم أن يخرج إليهما رافع بن عميرة فصاح فيه خالد، وقال: مكانك لا تبرح فإني كفء لهما، فلما دنووا من خالد. قال كلوس لصاحب: قل له من أنت وما تريدين وخوفه من

سطواتنا فقرب جرجيس من خالد، وقال له: يا أخا العرب أنا أضرب لك مثلاً إن مثلكم ومثلنا كمثل رجل له غنم فسلّمها إلى راع وكان الراعي قليل الجرأة على الوحوش فأقبل عليه سبع عظيم يجعل يلتفت منه كل ليلة رأساً إلى أن اقضت الأغنام والسبع ضار عليها ولم يجد له مانعاً عنها. فلما نظر صاحب الغنم ما حل بgunمه علم أنه لم يؤت إلا من الراعي فانتدب لغنمته غلاماً نجبياً فسلّمها الغنم فكان كل ليلة يكثر الطوفان حول الغنم. وبينما الغلام كذلك إذ أقبل عليه السبع على عادته الأصلية واحتقر الغنم فهجم الغلام على السبع وبيده منجل فضرره فقتله، ولم يقرب الغنم وحش بعدها وكذلك أنتم نتهاون بأمركم لأنه ما كان أضعف منكم لأنكم جياع مساكين ضعفاء وتعودتم أكل الذرة والشعير ومص النوى. فلما خرجمت إلى بلادنا وأكلتم طعامنا وفعلتم ما فعلتم، وقد بعث لكم الملك رجالاً لا تقاس بالرجال ولا تكترث بالأبطال ولا سيما هذا الرجل الذي بجانبي فاحذر منه أن ينزل بك ما أنزل الغلام بالأسد، وقد سألني أن أخرج إليك وأنتلطف بك في الكلام فأخبرني ما الذي تريد قبل أن يهجم عليك هذا الفارس؟ فلما سمع خالد منه ذلك، قال: يا عدو الله والله لا نحسبكم عندنا في الحرب إلا كقابض الطير بشبكة، وقد قبضها يميناً وشمالاً فلم يخرج إلا ما انفلت منه. وأما ما ذكرت من بلادنا وأنها بلاد قحط وجوع فالأمر كذلك إلا أن الله تعالى أبدلنا ما هو خير منه، فأبدلنا بدل الذرة الحنطة والفواكه والسمن والعسل. وهذا كله قد رضيه لنا ربنا ووعدنا به على لسان نبيه وأما قولك: ما الذي تريدونه منا؟ فنريد منكم إحدى ثلات خصال إما أن تدخلوا في ديننا أو تؤذوا الجزية، أو القتال. وأما قولك: إن هذا الرجل الذليل الذي هو عندكم مسكين فهو عندنا أقل القليل وإن يكن هو ركن الملك فأنا ركن الإسلام. أنا الفارس الصنيد، أنا خالد بن الوليد. أنا صاحب رسول الله ﷺ.

معارك الشام

قال الواقدي رحمه الله تعالى: فلما سمع جرجيس كلام خالد تأخر إلى ورائه وقد تغير لونه، فقال له كلوس: يا وليك رأيتك في بدايتك تهيئ كالسبعين مما لك قد تأخرت؟ فقال: وحق المسيح ما أعلم أنه الفارس الجحجاج ويطلبهم الفصاح، هذا صاحب القوم الذي ملا الشام شرّاً. فقال كلوس: يا جرجيس اسأله أن يؤخر الحرب بيننا إلى غد فالتفت إلى خالد، وقال له: يا سيد قومك هذا صاحبجي يريد أن يرجع إلى قومه ليشاورهم. فقال خالد: ويحك أتريد أن تخدعني بالكلام وأقبل برمحه في وجه جرجيس. فلما نظر جرجيس ذلك انعقد لسانه وولى هارباً. فلما رأى خالد ذلك طلب كلوس وحمل عليه وتطاعنا واحتقر البطريق من طعنات خالد، فلما نظر خالد احتراز البطريق حط يده في أطواقه وجذبه فقلعه من سرجه. فلما نظر المسلمين فعل خالد كيروا

بأجمعهم وتسابق الفرسان إلى خالد، فلما قربوا منه رمى لهم البطريق، وقال أوثقوه كثافاً فصار يرير بلسانه فأتى المسلمين بروماس صاحب بصرى، وقالوا له: اسمع ماذا يقول؟ فقال لهم: يقول لكم لا تقتلوني فإني أجبت صاحبكم في المال والجزية. فقال خالد: استوثقوا منه ثم نزل عن جواده وركب جواداً أهداه له صاحب تدمر وعزم أن يهجم على الروم. فقال ضرار بن الأزور: أيها الأمير دعني أنا أحمل على القوم حتى تستريح أنت. فقال: يا ضرار: الراحة في الجنة غداً، ثم عول خالد على الحملة فصاح به البطريق كلوس، وقال: وحق دينك ونبيك إلا ما رجعت إليّ حتى أخاطبك فرجع خالد إليه، وقال لروماس: أسأله ما يريد. فقال: أعلمه أنّي صاحب الملك، وقد بعثني إليّكم في خمسة آلاف فارس لأرذكم عن بلدكم وأهلكم ورعيته، وقد تراجعت أنا وعازيز متولي دمشق وقدم إلى معه كذا وكذا، وأنا أسألك بحق دينك إذا خرج إليك فاقتله، وإن لم يخرج إليك فاستدعه واقتله فإنه رأس القوم. فإن قتله فقد ملكت دمشق. فقال خالد لروماس: قل له إننا لا نبغي عليك ولا عليه ولا على من أشرك بالله تعالى. ثم إنه بعد ذلك الكلام حمل، وهو ينشد ويقول:

| | |
|--|---|
| وشكرًا لما أوليت من سابق النعم | لـك الحمد مولانا على كل نعمة |
| وأنقذتنا من حندس الظلم والظلمة | منـت علينا بعد كفر وظلمة |
| وكشفت عـنا ما نلاقي من الغمـ | وأكرمتـنا بالهاشمي محمدـ |
| وعـجل لأهل الشرـك بالبؤـس والنـقـ | فتـمم إـلـهـ العـرـشـ ماـ قدـ تـرـوـمـهـ |
| بحـقـ نـبـيـ سـيدـ الـعـرـبـ وـالـعـجـمـ | وـأـقـهـمـ رـبـيـ سـرـيـعـاـ بـبـغـيـهـمـ |

قال الواقدي: لقد بلغني منن أتق به أنه لما ولى جرجيس هارباً من بين يدي خالد إلى أصحابه رأوه يرتعد من الفزع. فقالوا له: ما وراءك؟ فقال: يا قوم ورائي الموت الذي لا يقاتل، والليث الذي لا ينزل، وهو أمير القوم، وقد آلى على نفسه أن يطلبنا أينما كنا، وما خلصت روحي إلا بالجهاد فصالحوا الرجل قبل أن يحمل عليكم بأصحابه فلا يبقي منكم أحداً، فقالوا له: ما يكفيك أنك انهزمت، وقد همـوا بـقتـلهـ، فـبـيـنـماـ هـمـ كذلكـ إذـ أـقـبـلـ أـصـحـابـ كـلـوـسـ عـلـىـ عـازـيـزـ وـهـمـ خـمـسـةـ آـلـافـ وـصـاحـبـاـ وـهـ وـقـالـواـ لـهـ:ـ ماـ أـنـتـ عـنـدـ الـمـلـكـ أـعـزـ مـنـ صـاحـبـاـ،ـ وـقـدـ كـانـ بـيـنـاـ وـبـيـنـكـ شـرـكـ فـأـخـرـجـ أـنـتـ إـلـىـ خـالـدـ وـاقـتـلـهـ أوـ اـسـرـهـ وـخـلـصـ لـنـاـ صـاحـبـاـ إـلـاـ وـحـقـ الـمـسـيـحـ وـالـمـذـبـحـ وـالـذـبـحـ شـنـثـاـ عـلـيـكـ الـحـربـ فـقـالـ عـازـيـزـ،ـ وـقـدـ رـجـعـ بـهـ مـكـرـهـ وـدـهـأـهـ:ـ يـاـ وـيلـكـمـ أـتـظـنـونـ أـنـيـ جـزـعـتـ مـنـ الخـرـوجـ إـلـىـ هـذـاـ الـبـدـوـيـ مـنـ أـوـلـ مـرـةـ،ـ وـلـكـنـيـ مـاـ تـأـخـرـتـ عـنـ الخـرـوجـ إـلـيـهـ وـتـقـاعـدـتـ عـنـ قـتـالـهـ حـتـىـ يـتـبـيـنـ عـجزـ صـاحـبـكـ وـسـوـفـ يـنـظـرـ الـفـرـيقـانـ أـيـنـاـ أـفـرـسـ وـأـشـجـعـ وـأـثـبـتـ فـيـ مـقـامـ الـقـتـالـ إـذـ نـحنـ تـشـابـكـاـ بـالـصـالـ.ـ ثـمـ إـنـهـ فـيـ الـحـالـ تـرـجـلـ عـنـ جـوـادـهـ وـلـبـسـ لـامـتـهـ وـرـكـبـ جـوـادـاـ يـصـلـحـ فـتـوحـ الشـامـ/ـ جـ ١ـ /ـ مـ ٣ـ

للجولان، وخرج إلى قتال سيدنا خالد بن الوليد، الفارس الصنديد رضي الله عنه، فلما قرب منه قال: يا أخا العرب ادن مني حتى أسألك وكان الملعون يعرف العربية، فلما سمع خالد ذلك. قال: يا عدو الله ادن أنت على أم رأسك، ثم هم أن يحمل عليه. فقال: على رسرك يا أخا العرب أنا أدنو منك فعلم خالد أن الخوف داخله فأمسك عنه حتى قرب منه. فقال: يا أخا العرب ما حملك أن تحمل أنت بنفسك؟ أما تخشى الها لاك فلو قتلت بقيت أصحابك بلا مقدم. فقال خالد: يا عدو الله قد رأيت ما فعل الرجال من أصحابي لو تركتهم لهزموا أصحابك بعون الله تعالى، وإنما معني رجال، وأي رجال يرون الموت مغنمًا والحياة مغرتًا، ثم قال له خالد: من أنت؟ فقال: أو ما سمعت باسمي أنا فارس الشام أنا قاتل الروم والفرس أنا كاسر عساكر الترك. فقال خالد: ما اسمك؟ فقال: أنا الذي تسميت باسم ملك الموت اسمي عزرايل.

قال الواقدي: فضحك خالد من كلامه، وقال: يا عدو الله تخواني أن الذي تسميت باسمه هو طالبك ومشتاق إليك ليرديك إلى الهاوية. فقال له البطريق: ما فعلت بأسيرك كلوس؟ . فقال: هو موثق بالقيود والأغلال. فقال له عزازير: وما منعك من قتيله، وهو داهية من دواهي الروم؟ فقال خالد: منعني من ذلك أني أريد قتلكم جميعاً، فقال عزازير: هل لك أن تأخذ ألف مثقال من الذهب وعشرة أثواب من الدياباج وخمسة رؤوس من الخيل وتقتله وتتأئيني برأسه. فقال له خالد: هذه ديته فما الذي تعطيني أنت عن نفسك. قال: فغضب عدو الله من ذلك، وقال: ما الذي تأخذ مني؟ قال: الجزية وأنت صاغر ذليل. فقال عزازير: كلما زدنا في كرامتكم زدتكم في إهانتنا فخذ الآن لنفسك الحذر فإني قاتلك ولا أبالي، فلما سمع خالد كلام عزرايل حمل عليه حملة عظيمة كأنه شعلة نار فاستقبله البطريق، وقد أخذ حذره وكان عزازير من يعرف بالشجاعة في بلاد الشام فلما نظر خالد إلى عدو الله أظهر شجاعته وبراعته تبسم. فقال عزازير: وحق المسيح لو أردت الوصول إليك لقدرتك على ذلك ولكنني أبقيت عليك لأنني أريد أن أستأسرك ليعلم الناس أنك أسيري، وبعد ذلك أطلق سبيلك على شرط أنك ترحل من بلادنا وتسلم لنا ما أخذت من بلاد الشام، فلما سمع خالد كلام عزازير قال له: يا عدو الله قد داخلك الطمع فينا، وهذه العصابة قد ملكوا تدمر وحوران وبصرى وهم من باعوا أنفسهم بالجنة، واختاروا دار البقاء على دار الفناء، وستعلم أينما من يملك صاحبه ويبدل جانبه، ثم إن خالدًا أرى الطريق أبواب الحرب. قال: فندم عزازير على ما كان منه من الكلام، وقال: يا أخا العرب أما تعرف الملاعبة. فقال خالد: ملاعي بي الضرب في طاعة الرب، ثم إن الملعون هاجم خالدًا ولوح إليه بسيفه وضربه به فلم يقطع شيئاً فذهب عدو الله من جولان خالد وثباته، وعلم أنه لا يقدر عليه ولا على ملاقاته فولى هاربًا، وكان جواده أسيق من جواد خالد. قال عامر بن الطفيلي رضي الله

عنه: و كنت يوم حرب دمشق في القلب و شاهدنا ما جرى بين خالد و عزازير لما ولى هارباً و قصر جواد خالد عن طلبه فوقع في قلبي الطمع، وقال: كأن البدوي خاف مني وما لي إلا أن أقف حتى يلحقني و آخذه أسيراً ولعل المسيح ينصرني عليه، فلما وقع ذلك في نفسه وقف حتى لحق به خالد، وقد جلل فرسه العرق، فلما قرب منه صاح عزازير، وقال: يا عربي لا تظن أني هارب خوفاً منك، وإنما أبقيت عليك خوفاً على شبابك فارح مفسك، وإن أردت الموت أسوقه إليك أنا قابض الأرواح أنا ملك الموت، فعند ذلك ترجل عن جواهه وسحب السيف وسار إليه كأنه الأسد الضاري.

فلما نظر عزازير إلى ذلك وإلى ترجل خالد زاد طمعه فيه وحام حوله وهم إليه ي يريد أن يعلو رأسه بالسيف فزاغ خالد عنها وصاحت فيه وضرب قوائم فرسه بضرية عظيمة فقطعتها فسقط عنده الله على الأرض ثم ولّ هارباً يريد أصحابه فسبقه خالد. وقال: يا عدو الله إن الذي تسميت باسمه قد غضب عليك وانتقام إليكوها هو قد أقبل عليك يقبض روحك ليؤديك إلى جهنم، ثم هجم عليه وهم أن يجلد به الأرض ونظرت الروم إلى أصحابها، وهو في يد خالد فهموا أن يحملوا على خالد ويخلصوه من يده إذ قد أقبلت جيوش المسلمين، وأبطال الموحدين مع الأمير أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه كان قد سار من بصرى فوجده، وقد أخذ عزازير في تلك الساعة، فلما نظرت عساكر دمشق إلى جيوش المسلمين قد أقبلت داخلهم الجزع والفرز فوقفوا عن الحملة. قال: حدثني عمر بن قيس عن شعيب عن عبد الله عن هلال القشعمي قال: لما قدم الأمير أبو عبيدة سأك عن خالد فقالوا: إنه في ميدان الحرب، وقد أسر بطريق الروم فدنا أبو عبيدة إليه وهم أن يترجل فأقسم عليه خالد أن لا يفعل وأقبل عليه وصافحه، وكان أبو عبيدة يحب خالداً لمحبة رسول الله ﷺ. فقال أبو عبيدة لخالد: يا أبا سليمان لقد فرحت بكتاب أبي بكر الصديق حين قدمك علي وأمرك علي وما حقدت في قلبي عليك لأنني أعلم مواقفك في الحرب. فقال خالد: والله لا فعلت أمراً إلا بمشورتك والله لولا أمر الإمام طاعة لما فعلت ذلك أبداً لأنك أقدم مني في دين الإسلام وأنا صاحب رسول الله ﷺ، وأنت قال فيك: أبو عبيدة أمين هذه الأمة فشكراً أبو عبيدة وقدم لخالد جواهه فركبه، وقال خالد لأبي عبيدة: أعلم أيها الأمير أن القوم قد خذلوا ووقع الربع في قلوبهم، وأهينوا بأخذ كلوس وعزازير قال: وسار مع أبي عبيدة يحدّثه بما صار من البطريقين، وكيف نصره الله عليهما إلى أن أتيا الدير فنزلها هناك، وأقبل المسلمين يسلم بعضهم على بعض. فلما كان الغد ركب الناس وتزيينت المراكب وزحف أهل دمشق للقتال وقد أمروا عليهم صهر الملك هرقل، ولما أقبلوا قال خالد لأبي عبيدة: إن القوم قد انخلعوا ووقع الربع في قلوبهم فاحمل بنا على القوم. قال أبو عبيدة: افعل قال: فحمل خالد وحمل أبو عبيدة وحمل المسلمون على عساكر الروم حملة عظيمة وكبّروا

بأجمعهم فارتجمت الأرض من تكبيرهم ووقع القتل في الروم، وجاهد أصحاب رسول الله ﷺ جهاداً عظيماً، وذهلت منهم الكفار. قال عامر بن الطفيلي: لقد كان الواحد منا يهزم من الروم العشرة والمائة. قال: فما لبثوا معنا ساعة واحدة حتى ولوا الأدبار، وركنوا إلى الفرار، وأقبلنا نقتل منهم من الدبر إلى الباب الشرقي. فلما نظر أهل دمشق إلى انهزام جيشهم أغلقوا الأبواب في وجهه من بقي منهم. قال قيس بن هبيرة رضي الله عنه: فمنهم من قتلناه، ومنهم من أسرناه، فلما رجع خالد عنهم قال لأبي عبيدة: إن من الرأي أن أنزل أنا على الباب الشرقي وتنزل أنت على باب الجابية. فقال أبو عبيدة: هذا هو الرأي السديد.

قال: حدثنا سهل بن عبد الله عن أويس بن الخطاب أن الذي قدم مع الأمير أبي عبيدة من المسلمين من أهل الحجاز واليمن وحضرموت وساحل عمان والطائف وما حول مكة كان سبعة وثلاثين ألف فارس من الشجاعان، وكان مع عمرو بن العاص تسعة آلاف فارس، والذين قدم بهم خالد بن الوليد رضي الله عنه من العراق ألف فارس وخمسمائة فارس فكان جملة ذلك سبعة وأربعين ألفاً وخمسمائة غير ما جهز عمر بن الخطاب في خلافته، وسنذكر ذلك إذا وصلنا إليه إن شاء الله تعالى، هذا وإن خالداً نزل بنصف المسلمين على الباب الشرقي ونزل أبو عبيدة بالنصف الثاني على باب الجابية. فلما نظر أهل دمشق إلى ذلك نزل الرعب في قلوبهم، ثم إن خالداً أحضر البطريقين بين يديه وهما كلوس وعزازير فعرض عليهما الإسلام فأبا فأمر ضرار بن الأزور أن يضرب عنقهما ففعل. قال: فلما نظر أهل دمشق ما فعلوا بالبطريقين كتبوا إلى الملك كتاباً يخبرونه بما جرى على كلوس وعزازير، وقد نزلت العرب على الباب الشرقي وباب الجابية، وقد نزلوا بشبانهم وأولادهم وقد قطعوا أرض البلقاء وأرض السواد ووصفوا له ما ملك العرب من البلاد فأدركتنا وإلا سلمتنا إليهم البلد، ثم سلموا الكتاب إلى رجل منهم وأعطوه أجرة وأدلوه بالحبل من أعلى الأسوار في ظلمة الاعتكار.

قال الواقدي: وإن الرجل وصل إلى الملك هرقل، وهو بأرض أنطاكيه فاستأذن عليه فأمر له بالدخول، فلما دخل سلم الكتاب إليه. فلما قرأه الملك رماه من يده ويكي، ثم إنه جمع البطارقة. وقال لهم: يا بنى الأصفر لقد حذرتم من هؤلاء العرب، وأخبرتكم أنهم سوف يملكون ما تحت سريري هذا فاتخذتم كلامي هزواً وأردتم قتلي وهؤلاء العرب خرجوا من بلاد الجدب والقطخط وأكل الذرة والشعير إلى بلاد خصبة كثيرة الأشجار والشمار والفاواكه فاستحسنوا ما نظروه من بلادنا وخصبنا وليس يزجرهم شيء لمن هم فيه من العزم والقوة وشدة الحرب ولو لا أنه عار علي لتركت الشام ورحلت إلى القسطنطينية العظمى، ولكن ها أنا أخرج إليهم وأقاتلهم عن أهلي وديني. فقالوا: أيها

الملك ما بلغ من شأن العرب أن تخرج إليهم بنفسك وقعودك أهيب قال الملك هرقل: نبعث إليهم، قالوا: عليك أيها الملك بوردان صاحب حمص لأنه ليس فيما مثله في القوة وللقاء الرجال، ولقد بين لنا شجاعته في عساكر الفرس لما قصدونا. قال: فأمر الملك بإحضاره، فلما حضر وردان قال له الملك: إنما قدمتك لأنك سيفي القاطع وسندى المانع فاخبر من وقتك و ساعتك ولا تتأخر، فقد قدمتك على اثنى عشر ألفاً، فإذا وصلت إلى بعلبك فانفذ إلى من بأجنادين بأن يتفرقوا في أرض البلقاء وجبال السواد فيكونوا هناك ولا تتركوا أحداً من العرب يلحق ب أصحابه، يعني عمرو بن العاص رضي الله عنه، فقال وردان: السمع والطاعة لك أيها الملك وسوف يبلغك الخبر أني لا أعود إلا برأس خالد بن الوليد ومن معه اهزمهم جميعاً وبعد ذلك أدخل الحجاز ولا أخرج حتى أهدم الكعبة ومكة والمدينة. قال: فلما سمع الملك هرقل قوله قال: وحق الإنجيل لمن فعلت ذلك ووفيت بقولك لأعطيتك ما فتحوه حرثاً وخراباً وكتبت كتاب العهد أنك الملك من بعدي، ثم سورة وتوجه وأعطاه صليباً من الذهب وفي جوانبه أربع يوافيت لا قيمة لها، وقال: إذا لاقت العرب فقدمه أمامك فهو ينصرك، قال: فلما تسلم وردان الصليب من وقته دخل الكنيسة وانغم في ماء المععمودية وبخروه بيخرور الكنائس وصلّى عليه الرهبان وخرج من وقته فضرب خيامه خارج المدينة. قال: وأخذت الروم على أنفسهم بالرحيل، فلما تكاملوا ركب الملك هرقل وسار لداعهم وصحبته أرباب دولته فوصل معهم إلى جسر الحديد بها فردهم الملك وسار إلى أن وصل إلى حماة فنزل بها وأنفذ من وقته كتاباً إلى من بأجنادين من جيوش الروم يأمرهم ليتفرقوا فيسائر الطرق ليمنعوا عمرو بن العاص ومن معه أن يصلوا إلى خالد، فلما سار الرسول بالكتاب جمع وردان إليه البطارقة وقال لهم: إني أريد أن أسير على حين غفلة على طريق مارس حتى أكبس على القوم ولا ينجو منهم أحد، فلما كان الليل رحل على طريق وادي الحياة.

قال: حدثني شداد بن أوس قال: لما دخل خالد بن الوليد رضي الله عنه بعد قتل البطريقين أمر المسلمين أن يزحفوا إلى دمشق. قال: فزحف من الرجال من العرب وبأيديهم الحجف يتلقون بها الحجارة والسهام، فلما نظر أهل دمشق إلينا، ونحن قد زحفنا إليهم رمونا بالسهام والحجارة من أعلى الأسوار، وضيقنا عليهم في الحصار، وأيقن القوم بالدمار. قال شداد بن أوس: فاقمنا على حصارهم عشرين يوماً، فلما كان بعد ذلك جاءنا ناوي بن مرة وأخبرنا عن جموع الروم بأجنادين وكثرة عددهم فركب خالد نحو باب المدينة الجاوية إلى أبي عبيدة يخبره بذلك ويستشيره وقال: يا أمين الأمة إني رأيت أن ترحل من دمشق إلى أجنادين، ونلقي من هناك من الروم، فإذا نصرنا الله عليهم عدنا إلى قتال هؤلاء القوم. قال أبو عبيدة: ليس هذا برأي قال خالد: ولم ذلك؟

قال أبو عبيدة: إذا رحلنا يخرج أهل المدينة فيملكون مواضعنا، فلما سمع خالد ذلك من أبي عبيدة. قال: يا أمين الأمة إني أعرف رجلاً لا يخاف الموت خبيئاً بلقاء الرجال قد مات أبوه وجده في القتال. قال: ومن هذا الرجل يا أبو سليمان؟ قال: هو ضرار بن الأزور بن طارق. قال أبو عبيدة: والله لقد صدق ووصفت رجلاً باذلاً معروفاً فافعل. قال: فرجع خالد إلى بابه واستدعي بضرار بن الأزور فجاء إليه وسلم عليه. فقال: يا ابن الأزور إني أريد أن أقدمك على خمسة آلاف قد باعوا أنفسهم لله عز وجل واختاروا دار البقاء والآخرة على الأولى، وتسيروا إلى لقاء هؤلاء القوم الذين وردوا علينا، فإن رأيت لك فيهم طمعاً فقاتلهم، وإن رأيت أنك لا تقدر عليهم فابعث إلينا رسولك. فقال ضرار بن الأزور: وأفرحتاه، والله يا ابن الوليد ما دخل قلبي مسيرة أعظم من هذه فاتركني أسير وحدي. قال خالد: لعمري إنك ضرار، ولكن لا تلق نفسك إلى الهلاك وسر بما ندب معك من المسلمين. قال فقام ضرار رضي الله عنه مسرعاً فقال خالد: ارفق بنفسك حتى يجتمع عليك الجيش. فقال: والله لا وقفت ومن علم الله فيه خيراً أدركني ثم ركب ضرار وأسرع إلى أن وصل إلى بيت لهيا، وهو الموضع الذي كان يصنع فيه الأصنام فوقف هناك حتى لحق به أصحابه. فلما تكاملوا نظر ضرار، وإذا بجيشه الروم ينحدر كأنه الجراد المنتشر وهم غائصون في الدروع وقد أشرت الشمس على لماتهم وطوارقهم.

فلما نظر إليهم أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لضرار: أما والله إن هذا الجيش عرمم والصواب أننا نرجع. فقال ضرار: والله لا زلت أضرب بسيفي في سبيل الله وأتبع من أتاب إلى الله ولا يراني الله مهزوماً، ولا أولي الدبر لأن الله تعالى يقول «فلا تولوهم الأذى» [الأنفال: ١٦] وتكلم رافع بن عميرة الطائي وقال: يا قوم وما الخيفة من هؤلاء العلوج؟ أما نصركم الله في مواطن كثيرة والنصر مقرون مع الصبر ولم تزل طائفتنا تلقى الجموع الكثيرة والجماعي السيرة فاتبعوا سبيل المؤمنين وتضرعوا إلى رب العالمين وقولوا كما قال قوم طالوت عند لقائهم جالوت «ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين» [البقرة: ٢٥٠]. فلما سمع ضرار كلامهم وأنهم اشتروا الآخرة على الأولى كمن بهم عند بيت لهيا وأخفى أمره وجلس عاري الجسد بسراويله على فرس له عربي بغير سلاح وبيده قنادة كاملة الطول وهو يوصي القوم.

قال الواقدي: هكذا حدثني تميم بن أوس عن جده عمرو بن دارم. قال: كنت يوم بيت لهيا من صحب ضرار بن الأزور رضي الله عنه وهو بهذه الصفة رغبة منه في الشهادة. فلما قارب العدو كان أول من بز وكير ضرار بن الأوزر قبل فأجابه المسلمين

بتكبيرة واحدة رعبت منها قلوب المشركين وفاجؤهم بالجملة ونظروا إلى ضرار بن الأوزر وهو في أول القوم وهو في حالته التي وصفناها فهالهم أمره، وكان وردان في المقدمة والأعلام والصلبان مشتبكة على رأسه. قال: فما طلب ضرار غيره لأنه علم أنه صاحبهم فحمل عليه غير مكترت به وطعن فارساً كان في يده العلم فتجندل من على فرسه قتيلاً، ثم إنه طعن آخر في الميمنة فأرداه وحمل يزيد القلب، وكان قد عاين وردان والصلب على رأسه يحمله فارس من الروم والجواهر تلمع من أربع جوانبه فعارضه ضرار وطعن حامله طعنة عظيمة فخرج السنان يلمع من خاصرته. قال فسقط الصليب منكساً إلى الأرض. فلما نظر وردان إلى الصليب أيقن بالهلاك، وهم أن يتراجل لأخذنه أو يميل في ركابه ليأخذنه فما وجد لذلك سبيلاً لما قد أحدق به وترجل عليه قوم من المسلمين ليأخذوه وقد اشتغل كل عن نفسه ونظر ضرار إلى من ترجل لأخذ الصليب. فقال: معاشر المسلمين إن الصليب لي دونكم وأنا صاحبه فلا تطمعوا فإني إليه راجع إذا فرغت من كلب الروم. قال فسمع ذلك وردان وكان يعرف العربية فعطف من القلب يزيد الهرب. فقالت البطارقة: إلى أين أيها السيد أتفرب من الشيطان فما رأينا أذن من منظره ولا أهول من مخبره، ونظر إليه ضرار وقد عطف راجعاً فعلم أنه قد عزم على الهرب فصاح بقومه ثم اقتحم في أثره ومد رمحه وهز جواهه فصارخ به الروم وعطفت عليه المواكب من كل جانب فأنسد يقول:

الموت حق أين لي منه المفر
وجنّة الفردوس خير المستقرِ
هذا قتالي فاشهدوا يا من حضر
وكل هذا في رضا رب البشر

ثم اخترق القوم وحمل عليهم وحمل المسلمون في أثره فأحدقوا بهم من كل مكان، ونظروا إلى ضرار وقد قصده وردان صاحب حمص عندما علم أنه اخترق القوم فمدّ إليه رمحه وقد أحدقته به بطريقته وضاره يمانع عن نفسه يميناً وشمالاً فما طعن أحداً إلا أباده إلى أن قتل من القوم خلقاً كثيراً، وهو يصرخ بقوله: ويقول ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفَّا كَانُوكُمْ بِنِيَانَ مَرْصُوصٍ﴾ [الصف: ٤] قال: وأكبت عليه جيوش الروم من كل جانب ومكان واشتعل الحرب بينهم ووصل همدان بن وردان إلى ضرار بن الأوزر ورماه بسهم. فأصاب عضده الأيمن فوصل السهم إليه فأوهنه وأحس ضرار بالألم فحمل على همدان وصمصم عليه برممه وطعنه. فأصاب بالطعنة فؤاده فوصل السنان إلى ظهره فجذب الرمح منه فلم يخرج، وإذا به قد اشتباك في عظم ظهره فخرج الرمح من غير سنان فطمعوا فيه وحملوا عليه وأخذوه أسيراً، فنظر أصحاب رسول الله ﷺ إلى ضرار وهو أسير فعظم الأمر عليهم وقاتلوا قتالاً شديداً ليخلصوه مما وجدوا إلى ذلك سبيلاً وأرادوا الهرب. فقال رافع بن عميرة الطائي: يا

أهل القرآن إلى أين تريدون؟ أما علمتم أن من ولّ ظهره لعدوه فقد باع بغضب من الله، وإن الجنة لها أبواب لا تفتح إلا للمجاهدين، الصبر الصبر، الجنة الجنة، يا أهل الكتاب كرروا على الكفار عباد الصليبان،وها أنا معكم في أوائلكم، فإن كان صاحبكم أسر أو قتل فإن الله حي لا يموت، وهو يراكم بعينه التي لا تنام، فرجعوا وحملوا معه . . .

قال: ووصل الخبر إلى خالد أن ضرار قد أسر بيد الروم، وأنه قتل من الروم خلقاً كثيراً فعظم ذلك على خالد، وقال: في كم العدو؟ قالوا: في اثنى عشر ألف فارس. فقال: والله ما ظننت إلا أنهم في عدد يسير، ولقد غرت بقومي، ثم سأله عن مقدمهم من يكون؟ فقيل وردان صاحب حمص، وقد قتل ضرار ولده همدان، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثم أرسل إلى أبي عبيدة يستشيره فبعث إليه أبو عبيدة يقول له: اترك على الباب الشرقي من تثق به وسر إليهم فإنك تطحنتهم بإذن الله تعالى. فلما وصل الجواب إلى خالد قال: والله ما أنا من يدخل بنفسه في سبيل الله ثم أوقف بالمكان ميسرة بن مسروق العبيسي رضي الله عنه ومعه ألف فارس، وقال له: احذر أن تنفذ من مكانك. فقال ميسرة: حباً وكراهة، وعطف خالد بالناس، وقال لهم: أطلقوا الأعنة وقوموا الأستة فإذا أشرفتم على العدو فاحملوا حملة واحدة ليخلص فيها ضرار إن شاء الله تعالى إن كانوا أبقوا عليه، والله إن كانوا عجلوا عليه لتأخذن بثاره إن شاء تعالى وأرجو أن لا يفجعنا به، ثم تقدم أمام القوم وجعل يقول:

| | |
|---------------------------|-----------------------------|
| اللهم فاز فيه من صدق | لا أرهب الموت إذا الموت طرق |
| لأروين الرمح من ذوي الحدق | لأهلكن البيض هتكا والدرق |
| عسى أرى غداً مقام من صدق | في جنة الخلود وألقى من سبق |

خولة بنت الأزور

في بينما خالد يتربّم بهذه الأبيات، إذ نظر إلى فارس على فرس طويل وبيده رمح طويل وهو لا يبين منه إلا الحدق والفروسيّة تلوح من شمائله وعليه ثياب سود وقد تظاهر بها من فوق لامته وقد خرم وسطه بعمامة خضراء وسحبها على صدره ومن ورائه وقد سبق أمام الناس كأنه نار، فلما نظره خالد قال: ليت شعري من هذا الفارس وايم الله إنه لفارس شجاع، ثم اتبّعه خالد والناس، وكان هذا الفارس أسبق الناس إلى المشركين. قال وكان رافع بن عمير الطائي رضي الله عنه في قتال المشركين وقد صبر لهم هو ومن معه إذ نظر خالداً وقد أتجده هو ومن معه من المسلمين، ونظر إلى الفارس الذي وصفناه وقد حمل على عساكر الروم كأنه النار المحترقة فزعزع كثائبهم وحطّم مواكبهم، ثم غاب

في وسطهم فما كانت إلا جولة الجائل حتى خرج وستانه ملطخ بالدماء من الروم، وقد قتل رجالاً وجندل أبطالاً وقد عرض نفسه للهلاك، ثم اخترق القوم غير مكتثر بهم ولا خائف وعطف على كراديس الروم في الناس وكثراً قلقهم عليه، فأما رافع بن عميرة ومن معه فما ظنوا إلا أنه خالد قالوا: ما هذه الحملات إلا لخالد فهم على ذلك إذ أشرف عليهم رضي الله عنه وهو في كبكة من الخيول، فقال رافع بن عميرة: من الفارس الذي تقدم أمامك فلقد بذل نفسه ومهجته. فقال خالد: والله إني أشد إنكاراً منكم له ولقد أعجبني ما ظهر منه ومن شمائله. فقال رافع: أيها الأمير إنه منغمس في عسكر الروم يطعن يميناً وشمالاً.

قال خالد: معاشر المسلمين احملوا بأجمعكم وساعدوا المحامي عن دين الله. قال فأطلقوا الأعناء وقوموا الأسنة والتتصق بعضهم ببعض وخالد أمامهم إذ نظر إلى الفارس وقد خرج من القلب كأنه شعلة نار والخيول في أثره، وكلما لحقت به الروم لوى عليهم وجندل، فعند ذلك حمل خالد ومن معه ووصل الفارس المذكور إلى جيش المسلمين. قال فتأملوه فرأوه قد تخضب بالدماء فصاح خالد والمسلمون: الله درك من فارس بذل مهجته في سبيل الله وأظهر شجاعته على الأعداء، اكشف لنا عن لثامك. قال فمال عنهم ولم يخاطبهم وانغمس في الروم فتصايحت به الروم من كل جانب وكذلك المسلمين، وقالوا: أيها الرجل الكريم، أميرك يخاطبك وأنت تعرض عنه اكشف عن اسمك وحسبك لتزداد تعظيمًا فلم يرد عليهم جواباً، فلما بعد عن خالد سار إليه بنفسه وقال له: ويحك لقد شغلت قلوب الناس وقلبي بفعلك، من أنت؟ قال فلما لج عليه خالد خاطبه الفارس من تحت لثامه بلسان التأنيث، وقال: إبني يا أمير لم أعرض عنك إلا حياء منك لأنك أمير جليل وأنا من ذوات الخدور وبنات الستور، وإنما حملني على ذلك أنا محقة الكبد زائدة الكمد. فقال لها: من أنت؟ قالت: أنا خولة بنت الأزور المأسورة بيد المشركين أخي وهو ضرار وإني كنت مع بنات العرب وقد أتاني الساعي بأن ضرار أسير فركبت وفعلت ما فعلت. قال خالد: نحمل بأجمعتنا ونرجو من الله أن نصل إلى أخيك ففكه. قال عامر بن الطفيلي: كنت عن يمين خالد بن الوليد حين حملوا وحملت خولة أممه وحمل المسلمون وعظم على الروم ما نزل بهم من طاقة. ولما حمل خالد ومن معه إذا إن كان القوم كلهم مثل هذا الفارس فما لنا بهم من طاقة. ولما حمل خالد وحملوا وإنما بالروم قد اضطربت جيوشهم ونظر وردان إليهم. فقال لهم: اثبتوا للقوم فإذا رأوا ثباتكم ولدوا عنكم ويخرج أهل دمشق يعيشوكم على قتالهم. قال فثبت المسلمون لقتال الروم وحمل خالد بالناس حملة منكرة وفرق القوم يميناً وشمالاً وقصد خالد مكان صاحبهم ورдан عند اشتباك الأعلام والصلبان وإذا حوله أصحاب الحديد والزرد النضيد وهم محددون به، فحمل خالد عليهم حملة منكرة واشتباك المسلمين بقتال الروم وكل فرقه

مشغولة بقتال صاحبها. وأما خولة بنت الأزور فإنها جعلت تجول يميناً وشمالاً وهي لا تطلب إلا أخاها وهي لا ترى له أثراً ولا وقفت له على خبر إلى وقت الظهر وافتراق القوم بعضهم عن بعض وقد أظهر الله المسلمين على الكافرين وقتلوا منهم مقتلة عظيمة. قال وتراجعت كل فرقة إلى مكانها وقد كمداً أفندة الروم ما ظهر لهم من المسلمين وقد همّوا بالهزيمة وما يمسكهم إلا الخوف من صاحبهم وردان، فلما رجع القوم إلى مكانهم أقبلت خولة بنت الأزور على المسلمين وجعلت تسألهم رجالاً رجالاً عن أخيها فلم تر من المسلمين من يخبرهما أنه نظره أو رأه أسيراً أو قتيلاً، فلما يئست منه بكثرة بكاءً شديداً وجعلت تقول: يا ابن أمي ليت شعرى في أي البيداء طرحوك أم بأي سنان طعنوك أم بالحسام قتلوك، يا أخي أختك لك الفداء لو أني أراك أفقدتك من أيدي الأعداء، ليت شعرى أترى أراك بعدها أبداً، فقد تركت يا ابن أمي في قلب أختك جمرة لا يحمد لها فيها ولا يطفأ، ليت شعرى لحقت بأبيك المقتول بين يدي النبي ﷺ فعليك مني السلام إلى يوم اللقاء. قال فبكى الناس من قولها وبكي خالد وهو أن يعاود بالحملة إذ نظر إلى كردوس من الروم قد خرج من ميمنة العقبان فتأهب الناس لحربهم وتقدم خالد وحوله أبطال المسلمين. فلما قربوا من القوم رموا رماحهم من أيديهم والسيوف وترجلوا ونادوا بالأمان. فقال خالد: أقبلوا أمانهم واثتوني بهم فأتوا إليه. فقال خالد: من أنت؟ فقالوا: نحن من جند هذا الرجل وردان ومقامنا بحمص وقد تحقق عندنا أنه ما يطيقكم ولا يستطيع حربكم فأعطونا الأمان واجعلونا من جملة من صالحتم من سائر المدن حتى نؤدي لكم المال الذي أردتم في كل سنة، فكل من في حمص يرضى بقولنا.

فقال خالد: إذا وصلت إلى بلادكم يكون الصلح إن شاء الله تعالى إن كان لكم فيه أرب، ولكن نحن هنا لا نصالحكم ولكن كونوا معنا إلى أن يقضي الله ما هو قاض، ثم إن خالداً قال لهم: هل عندكم علم عن صاحبنا الذي قتل ابن صاحبكم؟ قالوا: لعله عاري الجسد الذي قتل منا مقتلة عظيمة وفجع صاحبنا في ولده. قال خالد: عنه سألتكم. قالوا: بعثه وردان عندنا أسيراً على بغل. ووكل به مائة فارس وأنفذه إلى حمص ليرسله إلى الملك ويخبره بما فعل. قال ففرح خالد بقولهم، ثم دعا برافع بن عميرة الطائي وقال: يا رافع ما أعلم أحداً أخبر منكم بالمسالك وأنت الذي قطعت بنا المفازة من أرض السماوة وأعطيشت الإبل وأوردتها الماء وأوردتنا أركة وما وطئها جيش قبلنا لمفارتها، وأنت أوحد أهل الأرض في الحيل والتداريب فخذ معك من أحببت واتبع أثر القوم فلعلك أن تلحق بهم وتخلص صاحبنا من أيديهم، فلشن فعلت ذلك لتكونن الفرحة الكبرى. فقال رافع بن عميرة: حبّاً وكراهة، ثم إنه في الحال انتخب مائة فارس شداداً من المسلمين وعزم على المسير فأتت البشرى إلى خولة بمسير رافع بن عميرة ومن معه في

طلب أخيها ضرار فتهلل وجهها فرحاً وأسرعت إلى لبس سلاحها وركبت جوادها وأتت إلى خالد بن الوليد، ثم قالت له: أيها الأمير سألك بالطاهر المظهر محمد سيد البشر إلا ما سرحتني مع من سرحت فلعلني أن أكون مشاهدة لهم. فقال خالد لرافع: أنت تعلم شجاعتها فخذها معك. فقال له رافع: السمع والطاعة، وارتحل رافع ومن معه، وسارت خولة في أثر القوم ولم تختلط بهم، وسار إلى أن قرب من سليمة. قال فنظر رافع فلم يجد للقوم أثراً. فقال لأصحابه: أبشروا فإن القوم لم يصلوا إلى هنا، ثم إنه كمن بهم في وادي الحياة، وبينما هم كامنون إذا بغيرة قد لاحت. فقال رافع لأصحابه: أيقظوا خواطركم وانتبهوا، فأيقظ القوم هممهم ويقروا في انتظار العدو وإذا بهم قد أتوا وهم محدقون بضرار، فلما رأى رافع ذلك كبر وكبر المسلمون معه وحملوا عليهم فلم يكن غير ساعة حتى خلص الله ضراراً وقتلوا جميعاً وأخذوا سببهم. قال وإذا بعساكر الروم قد أقبلت منهزمة وأذلهم لا يلتفت إلى آخرهم، فعلم رافع أن القوم انهزموا فما قبل بلتقطمهم بمن معه. قال وكان خالد لما أرسل رافع بن عميرة في طلب ضرار ليخلصه ومعه المائة فارس صدم وردان صدمة من يحب الشهادة ويتغيّر دار السعادة وصدم المسلمين الروم، فما لبثوا أن ولوا الأدبار ورکنوا إلى الفرار وكان أولهم وردان واتبعهم المسلمون وأخذوا أسلابهم وأموالهم ولم يزالوا في طلبهما إلى وادي الحياة، فاجتمع المسلمون برافع بن عميرة الطائي وضرار بن الأزور وسلموا عليهم وفرحوا بضرار رضي الله عنه وهناؤه بالسلامة. قال وأنهى خالد على رافع خيراً ورجعوا إلى دمشق وفرح المسلمين بالنصر واتصل الخبر إلى الملك هرقل وأن وردان قد انهزم وقتل ولده همدان. قال فأيقن بزوال ملكه من الشام فكتب إلى وردان كتاباً يقول فيه: أما بعد فإني قد بلغني جياع الأكباد عراة الأجساد قد هزموك وقتلوا ولدك رحمة المسيح ورحمك، ولو لا أني أعلم أنك فارس الحرب ومجيد الطعن والضرب وليس النصر آتيك لحل عليك سخطي والآن مضى ما مضى، وقد بعثت إلى أجنادين تسعين ألفاً، وقد أمرتك عليهم فسر نحوهم وإنجد أهل دمشق وأنفذ بعضهم ليمنعوا من في فلسطين من العرب وحل بينهم وبين أصحابهم وانصر دينك وصاحبك. قال وأنفذ إليه الكتاب مع خيل البريد، فلما ورد عليه الكتاب وقرأه سري عنه بعض ما كان يجده وأخذ الأهة إلى أجنادين فسار فوجد الروم قد تجمعوا وأظهروا العدد والزهد وخرجوا إلى لقائه وسلموا عليه وتقدموا بين يديه وزوجه في ولده، فلما استقر قراره قرأ عليهم منشور الملك فأجابوا بالسمع والطاعة وأخذوا على أنفسهم.

قال: حدثني روح بن طريف قال: كنت مع خالد بن الوليد على باب شرقى حين رجعنا من هزيمة وردان فإذا قد ورد علينا عباد بن سعد الحضرمي، وكان قد بعثه شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله ﷺ من بصرى يعلم خالداً بمسير الروم إليه من

أجنادين في تسعين ألف فارس مخذل أهبتك للقائهم. قال: فلما سمع خالد ذلك ركب إلى أبي عبيدة وقال له: يا أمين الأمة هذا عباد بن سعد الحضرمي قد بعث به شرحبيل بن حسنة يخبر أن طاغية الروم هرقل قد ولى ورдан على من تجمع بأجنادين من الروم وهم تسعون ألفاً فما ترى من الرأي يا رسول الله. فقال أبو عبيدة: أعلم يا أبا سليمان أن أصحاب رسول الله ﷺ متفرقون مثل شرحبيل بن حسنة بأرض بصرى، ومعاذ بن جبل بحوران، ويزيد بن أبي سفيان بالبلقاء، والنعمان بن المغيرة بأرض تدمر وأركة، وعمرو بن العاص بأرض فلسطين، والصواب أن تكتب إليهم ليقصدونا حتى نقصد العدو ومن الله نطلب المعونة والنصر. قال فكتب خالد إلى عمرو بن العاص كتاباً يقول فيه: بسم الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أما بعد فإن إخوانكم المسلمين قد عولوا على المسير إلى أجنادين فإن هناك تسعين ألفاً من الروم يريدون المسير إلينا **﴿يريدون ليطفئنا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾** [الصف: ٨] فإذا وصل إليك كتابي هذا فاقدم علينا بمن معك إلى أجنادين تجدنا هناك إن شاء الله تعالى والسلام عليك وعلى من معك من المسلمين ورحمة الله وبركاته، وكتب نسخة الكتاب إلى جميع الأمراء الذين ذكرناهم ثم أمر الناس بالرحيل فرفعت القباب والهوداج على ظهور الجمال وساقوا الغنائم والأموال. فقال خالد لأبي عبيدة: قد رأيت رأياً أن أكون على الساقية مع الغنائم والأموال والبنين والولدان وكن أنت على المقدمة مع خاصة أصحاب رسول الله ﷺ . فقال أبو عبيدة: بل أكون أنا على الساقية وأنت على المقدمة مع الجيش. فإن وصل إليك جيش الروم مع وردان يجدوك على أهمية فتمنعمهم من الوصول إلى الحرير والأولاد فلا يصلون إلينا إلا وأنت قتلت فيهم وإن كنت أنا ومن معني غنية لهم إذا كنت أنا في المقدمة. فقال خالد: لست أخالفك فيما ذكرت. ثم إن خالداً قال: أيها الناس إنكم سائرون إلى جيش عظيم فأيقظوا هممكم، وإن الله وعدكم النصر وقرأ عليهم قوله تعالى: **﴿كُمْ مَنْ فَتَةً قَلِيلَةً غَلَبَتْ فَتَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصابِرِينَ﴾** [البقرة: ٢٤٩].

ثم إن خالداً أخذ الجيش وسار في المقدمة وبقي أبو عبيدة في ألف من المسلمين، ونظر إلى ذلك أهل دمشق فعطقوه عليهم وأقبلوا بسيوفهم وهو يظلون أنهم منهزمون لأجل ما بلغهم من الجيش العظيم الذي هو بأجنادين. فقال لهم عقلاؤهم: إن كانوا سائرين على طريق بعلبك فإنهم يريدون فتحها وفتح حمص، وإن كانوا على طريق مرج راهط فالقوم لا شك هاربون إلى الحجاز ويتركون ما أخذوا من البلاد. قال وكان بدمشق بطريق يقال له بولص وكان عظيماً عند النصارى، وكان إذا قدم على الملك يعظمه، وكان الملعون فارساً وذلك أنهم كان عندهم شجرة فرماداً بسهم فغاص السهم في الشجرة من قوة ساعده. ثم إن من عجبه كتب عليها: إن كل من يدعى الشجاعة فليرم بسهمه إلى

جانب سهمي، وكان قد شاع ذكره بذلك ولم يحضر قتال المسلمين منذ دخلوا دمشق، فلما اجتمعوا عليه قال لهم بولص: ما الذي حل بكم؟ فأعلمه بما جرى عليهم من المسلمين وقالوا له: إن كنت ت يريد حياة الأبد عند الملك وعنده المسيح وعنده أهل دين النصرانية فدونك والمسلمين فآخر إلىهم وأخطف كل من تخلف منهم، وإن رأيت لنا فيهم مطمعاً قاتلناهم. فقال بولص: إنما كان سبب تخلفي عن نصرتكم لأنكم قاتلوك الهمة لقتال عدوكم فتخلفت عنكم والآن لا حاجة لي في قتال العرب.

قالوا: وحق المسيح والإنجيل الصحيح لمن سرت في مقدمتنا لتبثن معك وما منا من يولي عنك وقد حكمناك فيما ينهم أن تضرب عنقه ولا يعارضك في ذلك أحد. قال فلما استوثق منهم دخل إلى منزله ولبس لامته. فقالت له زوجته: إلى أين عزمت؟ قال: أخرج في أثر العرب فقد ولائي أهل دمشق عليهم. فقالت: لا تفعل والزم بيتك ولا تطلب ما ليس لك به حاجة فإني رأيت لك في المنام رؤيا. فقال لها: وما الذي رأيت؟ قالت: رأيتك كأنك قابض قوسك وأنت ترمي طيوراً وقد سقط بعضها على بعض، ثم عادت صاعدة فيما أنا متوجبة إذ أقبلت نحوك سحابة من الجو فانقضت عليك من الهواء وعلى من معك فجعلت تضرب هماماتهم ثم ولبتم هاربين، ورأيتها لا تضرب أحداً إلا صرعته ثم إني انتبهت وأنا مذعورة باكية العين عليك. فقال لها: ومع ذلك رأيتني فيما صرخ؟ قالت: نعم وقد صرعنك فارس عظيم. قال: فلطم وجهها وقال: لا بشّرك المسيح بخير لقد دخل رعب العرب في قلبك حتى صرت تحلمين بهم في النوم فلا بد أن أجعل لك أميرهم خادماً وأجعل أصحابه رعاة العنم والختانزير. فقالت له زوجته: افعل ما تريد فقد نصحتك. قال فلم يلتفت إلى كلامها وخرج من عندها وركب وسار معه من كان في دمشق من الروم، فعرضهم فإذا هم ستة آلاف فارس وعشرة آلاف راجل من أهل النجدة والحمية وسار يطلب القوم.

معركة حول دمشق

وكان خالد في المقدمة وأبو عبيدة يمشي مع الأموال والأغنام والجمال إذ نظر رجل من أصحابه، وهو يتأمل الغيرة من ورائهم، فسأل أبو عبيدة عن ذلك فقال: أظنها غيرة القوم. فقال أبو عبيدة: إن أهل الشام قد طمعوا فينا، وهذا العدو قاصد إلينا. قال مما استتم كلامه حتى بدت الخيل كأنها السيل وبولص في أوائلهم. فلما نظر إلى أبي عبيدة قصده وسمعه الفرسان وأخوه بطرس قصد الحرير والمال فاقتطعوا منها قطعة. فلما احتوى عليها رجع بها بطرس نحو دمشق. فلما بعد جلس هناك لينظر ما يكون من أمر أخيه. وأما أبو عبيدة فإنه لما نظر إلى ما فاجأه من الروم. قال: والله لقد كان الصواب مع خالد لما قال دعني في الساقفة فلم أدعه وإنه قد وصل إليه بولص وقصده والأعلام

والصلبان على رأسه مشتبكة والنساء يولولن والصبيان يصيحون والألف من المسلمين قد اشتغلوا بالقتال وقد قصد عدو الله بولص أبا عبيدة واشتد بينهم الحرب ووقع القتال من أصحابه والروم وارتقت الغبرة عليهم وهم في كرّ وفر على أرض سحوراً. قال وقد بلى أبو عبيدة بالقتال وصبر صبر الكرام. قال سهيل بن صباح، وكان تحتي جواد محجل من خيل اليمن شهدت عليه اليمامة فقومت السنان وأطلقت العنان فخرج كأنه الريح العاصف، فما كان غير بعيد حتى لحقت بخالد بن الوليد والمسلمين فأقبلت إليهم صارخاً وقلت: أيها الأمير أدرك الأموال والحرير. فقال خالد: ما وراءك يا ابن الصباح؟ فقلت: أيها الأمير إلى الحق أبا عبيدة والحرير فإن نفير دمشق قد لحق بهم، وقد اقتطعوا قطعة من النساء والولدان وقد بلى أبو عبيدة بما لا طاقة لنا به. قال فلما سمع خالد ذلك الكلام من سهل بن صباح قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، قد قلت لأبي عبيدة دعني أكون على الساقية، فما طاوعني ليقضى الله أمراً كان مفعولاً، ثم أمر رافع بن عميرة على ألف من الخيل. وقال له: كن في المقدمة وأمر عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق على ألفين. وقال له: أدرك العدو وسار خالد في أثره ببقية الجيش.

قال: في بينما أبو عبيدة في القتال مع بولص لعن الله إذ تلاحت به جيوش المسلمين وحملوا على أعداء الله وداروا بهم من كل مكان، فعند ذلك تنكسرت الصلبان، وأيقن الروم بالهوان، وتقدم الأمير ضرار بن الأزرور كأنه شعلة نار وقصد نحو بولص. فلما رأه عدو الله تبليط خاطره ووقيعت الرعدة في فرائصه، وقال لأبي عبيدة: يا عربي وحق دينك إلا ما قلت لهذا الشيطان يبعد عنك وكان بولص قد سمع به ورأه من سور دمشق وما صنع بعسكر كلوس عزازير وسمع بفعاليه في بيت لهايا، فلما رأه مقللاً إليه عرفه. فقال لأبي عبيدة: قل لهذا الشيطان لا يقرئني فسمعيه ضرار رضي الله عنه فقال له: أنا شيطان إن قصرت عن طلبك، ثم إنه فاجأه وطعنه، فلما رأى بولص أن الطعنة واصلة إليه رمى نفسه عن جواده وطلب الهرب نحو أصحابه فسار ضرار في طلبه. وقال له: أين تروح من الشيطان وهو في طلبك؟ ولحقه وهم أن يعلوه بسيفه. فقال بولص: يا بدوي إيق علي قفي بقائي بقاء أولادكم وأموالكم. قال فلما سمع ضرار قوله أمسك عن قته وأخذه أسير، هذا والمسلمون قد قتلوا من الروم مقتلة عظيمة.

قال: حدثني أسلم بن مالك اليربوعي عن أبي رفاعة بن قيس. قال: كنت يوم وقعة سحوراً مع المسلمين وكنت في خيل عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه. قال فدرنا بالروم من كل جانب وبذلنا أسيافنا في القوم، وكانوا ستة كتائب في كل كتيبة ألف فارس قال رفاعة بن قيس: فوالله لقد حملنا يوم فتح دمشق وإنه ما رجع منهم فوق المائة ووجه خبر لضرار أن خولة مع النساء المأسورات فعظم ذلك عليه وأقبل

على خالد وأعلمته بذلك، فقال له خالد: لا تجزع، فقد أسرنا منهم خلقاً كثيراً، وقد أسرت أنت بولص صاحبهم وسوف نخلص من أسر من حريمنا ولا بد لنا من دمشق في طلبهم، ثم أمر خالد أن يسيروا بالناس على مهل حتى ننظر ما يكون من أمر حريمنا. ثم إنه سار في ألف فارس جريدة وبعث العسكر كلهم إلى أبي عبيدة مخافة أن يلحقهم وردان بجيشه فسار القوم وتوجه خالد بمن معه في طلب المأسورات، وقد قدم أمامه رافع بن عميرة الطائي وميسرة بن مسروق العبسي وضرار بن الأزور.

قال: حدثني سعيد بن عمر عن سنان بن عامر اليربوعي، قال: سمعت حبيب بن مصعب يقول: لما اقتطعوا من ذكرنا من نساء العرب سار بهم بطرس أخو بولص إلى أن نزل بهم إلى النهر الذي ذكرناه، ثم قال بطرس: أنا لا أبرح من ه هنا حتى أنظر ما يكون من أمر أخي، ثم إنه عرض عليه النساء المأسورات فلم يعجبه منها إلا خولة بنت الأزور أخت ضرار. قال بطرس: هذه لي وأنا لها لا يعارضني فيها أحد، فقال له أصحابه: هي لك وأنت لها. قال وكل من سبق إلى واحدة يقول هي لي حتى قسموا الغنيمة على ذلك، ووقفوا ينتظرون ما يكون من أمر بولص وأصحابه، وكان في النساء عجائز من حمير وتباع من نسل العمالقة والتتابعة وكفن قد اعتدن ركوب الخيل فقالت لهن خولة بنت الأزور: يا بنات حمير بقية تبع أترضين بأنفسكن علوج الروم، ويكون أولادكن عبيداً لأهل الشرك، فأين شجاعتكن وبراعتكن التي تتحدث بها عنكن في أحياء العرب ومحاضر الحضر ولا أراكن إلا بمعزل عن ذلك، وإنني أرى القتل عليكن أهون من هذه المصائب وما نزل بكن من خدمة الروم الكلاب.

فقالت عفرة بنت غفار الحميرية: صدقت، ووالله يا بنت الأزور نحن في الشجاعة كما ذكرت، وفي البراعة كما وصفت، لانا المشاهد العظام والمواقف الجسام، ووالله لقد اعتدنا ركوب الخيل وهجوم الليل غير أن السيف يحسن فعله في مثل هذا الوقت، وإنما دھمنا العدو على حين غفلة، وما نحن إلا كالغنم، فقالت خولة: يا بنات التتابعة والعاملقة خذوا أعمدة الخيام وأوتاد الأطناب ونحمل بها على هؤلاء اللئام فلعل الله ينصرنا عليهم أو نستريح من معركة العرب، فقالت عفرة بنت غفار والله ما دعوت إلا ما هو أحب إلينا مما ذكرت، ثم تناولت كل واحدة عموداً من أعمدة الخيام وصحن صيحة واحدة وألقت خولة على عاتقها عمود الخيمة وسعت من ورائها عفرة وأم أبيان بنت عتبة وسلمة بنت زارع ولبني بنت حازم ومزروعة بنت عمليوق وسلمة بنت النعمان، ومثل هؤلاء رضي الله عنهم. فقالت لهن خولة: لا ينفك بعضكم عن بعض، ولكن كالحلقة الدائرة ولا تفرقن فتملكن فيقع بكن التشتت وحطمن رماح القوم واكسرن سيفهم. قال فهجمت خولة أمامهن، فأقول ما ضربت رجالاً من القوم على هامته بالعمود فتجندل

صريعاً والتفت الروم ينظرون ما الخبر، فإذا هم بالنسوة، وقد أقبلن والعمد بأيديهن فصاح بطريق: يا ولكلن ما هذا، فقالت عفرا: هذه فعالنا فلنضربن القوم بهذه الأعمدة ولا بد من قطع أعماركم وانصرام آجالكم يا أهل الكفر. قال فجاء بطرس، وقال: تفرقوا عن النسوة ولا تبذلوا فيهن السيف ولا أحد منكم يقتل واحدة منهم وخذلوهن أسرى ومن وقع منكم بصاحبتي فلا ينلها بمكروه، فتفرق القوم عليهم وحدقوا بهن من كل جانب ورموا الوصول إليهن فلم يجدوا إلى ذلك سبيلاً ولم تزل النساء لا يدنو إليهن أحد من الروم إلا ضربن قوائم فرسه فإذا تنكس عن جواهه بادرت النساء بالأعمدة فيقتلنها ويأخذن سلاحه.

قال الواقدي: ولقد بلغني أن النسوة قتلن ثلاثين فارساً من الروم، فلما نظر بطرس إلى ذلك غضب غضباً شديداً وترجل وترجلت أصحابه نحو النساء، والنساء يحرضن بعضهن بعضاً ويقلن متن كراماً ولا تمن لثاماً، وأظهر بطرس رأسه وتلهفه عندما نظر إلى فعلهن، ونظر إلى خولة بنت الأزور، وهي تجول كالأسد وتقول:

نحن بنات تبع وحمير
وضربنا في القوم ليس ينكرو
لأننا في الحرب نار تسعير
اليوم تسقون العذاب الأكبر

قال: فلما سمع بطرس ذلك من قولها، ورأى حسنها وجمالها، قال لها: يا عربية أقصري عن فعالك فإني مكرمك بكل ما يسرك أما ترضين أن أكون أنا مولاك وأنا الذي تهابني أهل النصرانيةولي ضياع ورستيق وأموال ومواش ومتزلة عند الملك هرقل، وجميع ما أنا فيه مردود إليك، أما ترضين أن تكوني سيدة أهل دمشق فلا تقتلي نفسك، فقالت له: يا ملعون وبأ ابن ألف ملعون والله لشن ظرفت بك لأنقطعن رأسك والله ما أرضي بك أن ترعى لي الإبل فكيف أرضاك أن تكون لي كفواً. قال فلما سمع كلامها حرض أصحابه على القتال، وقال: أترون عازراً أكبر من هذا في بلاد الشام أن النسوة غلبنكم فاتقوا غضب الملك، قال فافتلق القوم وحملوا حملة عظيمة وصبر النساء لهم صبر الكرام، فبينما هم على ذلك إذ أقبل خالد بن الوليد رضي الله عنه ومن معه من المسلمين، ونظروا إلى الغبار ويريق السيف، فقال لأصحابه: من يأتيبني بخبر القوم فقال رافع بن عميرة الطائي: أنا آتيك به قال ثم أطلق جواهه حتى أشرف على النسوة وهن يقاتلن قتال الموت. قال: فرجع وأخبر خالداً بما رأى، فقال خالد: لا أعجب من ذلك إنهن من بنات العمالة ونسل التابعية، وما بينهن وبين تبع إلا قرن واحد، وتبع بن بكر بن حسان الذي ذكر رسول الله ﷺ قبل ظهوره، وشهد له بالرسالة قبل أن يبعث، وقال:

شهدت بأحمد أنه رسول من الله باريء كل النساء

وأمته سميت في الزبور بأمة أحمد خير الأمم
 فلو مد عمري إلى عصره لكنت وزيراً له وابن عم

بطولة النساء

قال الواقدي: قال خالد: لا تعجب يا رافع واعلم أن هؤلاء النساء لهن الحروب المذكورات والمواقوف المشهورات، وإن يكن فعلهن ما ذكرت، فلقد سدن على نساء العرب إلى آخر الأبد وأزلن عنهن العار فتهللن وجوه الناس فرحاً ووثب ضرار بن الأزور عندما سمع كلام رافع. فقال خالد: مهلاً يا ضرار ولا تتعجل فإنه من تأني نال ما تمنى فقال ضرار: أيها الأمير لا صبر لي عن نصرة بنت أبي وأمي فقال خالد: قد قرب الفرج إن شاء الله تعالى، ثم إن خالداً وثب ووثب أصحابه، وقال: معاشر الناس إذا وصلتم إلى القوم فتفرقوا عليهم وأحدقوا بهم فعسى أن يخلص حريمنا، قالوا: حباً وكراهة. ثم تقدم خالد. قال في بينما القوم في قتال شديد مع النساء إذ أشرفت عليهم المواتك والكتائب والأعلام والرايات، فصاحت خولة: يا بنات التتابعة، قد جاءكم الفرج ورب الكعبة. ونظر بطرس إلى الكتائب المحمدية، وقد أشرفت فخنق فؤاده وارتعدت فرائصه وأقبل القوم ينظر بعضهم ببعضًا. قال فصاح بطرس: يا معاشر النساء إن الشفقة والرحمة قد دخلت في قلبي، لأن لنا أخوات وبنات رأمهات، وقد وهبتكن للصلب. فإذا قدم رجالكن فأخبرنهم بذلك. ثم عطف يزيد أهرب إذ نظر إلى فارسين، قد خرجا من قلب العسكر أحدهما قد تكمي في سلاحه والآخر عاري الجسد، وقد أطلقوا عنانهما كأنهما أسدان. وكان خالداً وضراراً، فلما رأت خولة أخاهما قالت له: إلى أين يا ابن أمي أقبل؟ فصاح بها بطرس: انطلقي إلى أخيك، فقد وهبتك له. ثم ولى يطلب الهرب. فقالت له خولة، وهي تهزأ به: ليس هذا من شيم الكرام تظهر لنا المحبة والقرب. ثم تظهر الساعة الجفاء والتبعaud وخطت نحوه. فقال: قد زال عنى ما كنت أجد من محبتك. فقالت له خولة: لا بد لي منك على كل حال. ثم أسرعت إليه، وقد قصده ضرار. فقال له الأمير ضرار: خذ أختك عنى فهي مباركة عليك، وهي هدية مني إليك. فقال له الأمير ضرار: بطرس: قد قبلت هديتك وشكرتها وإنني لا أجده لك على ذلك إلا سنان رمحي فخذ هذه مني إليك. ثم حمل عليه ضرار، وهو يقول **﴿وإذا حيتم بتحية فحيتو بأحسن منها أو ردوها﴾** [النساء: ٨٦] ثم همهم إليه بالطعنة ووصلت إليه خولة فضررت قوائم فرسه فكبأ به الجواد ووقع عدو الله إلى الأرض فأدركه ضرار قبل سقوطه وطعنه في خاصرته فأطاعل السنان من الجانب الآخر فتجندل صريعاً إلى الأرض فصاح به خالد: الله درك يا ضرار هذه طعنة لا يخيب طاعتها.

ثم حملوا في أعراض القوم وجميع المسلمين معهم فما كانت إلا جولة جائل حتى فتوح الشام/ ج ١ / م ٤

قتل من الروم ثلاثة آلاف رجل. قال حامد بن عامر اليربوعي: لقد عدلت لضرار بن الأزور في ذلك اليوم ثلاثة قتيلًا وقتلت خولة خمس وعفراء بنت غفار الحميرية أربعة. قال وانهزم بقية القوم، ولم يزالوا في أدبارهم والمسلمون على أثرهم إلى أن وصلوا إلى دمشق فلم يخرج إليهم أحد بل زاد فزعهم واشتد الأمر عليهم ورجع المسلمون وجمعوا الغنائم والخيل والسلاح والأموال، ثم قال خالد: الحقوا بأبي عبيدة لثلا يكون ورдан وجيوشه قد لحقوا به، فسار ضرار والقوم، وقيل: جعل ضرار رأس الطريق على سنان رمحه، ولم يزل القوم سائرين إلى أن لحقوا بأبي عبيدة في مرج الصفر، وقد تخلف أبو عبيدة حتى أشرف المسلمين عليه، فكبّر وكبّر خالد بن الوليد رضي الله عنه ومعه المسلمين. فلما اجتمع الناس سلم بعضهم على بعض ورأوا المأسورات وقد خلصن، وأخبر خالد أبا عبيدة بما فعلت خولة وعفرا وغيرهن من الصحابة فاستبشر بنصر الله وعلموا أن الشام لهم. ثم دعا خالد بيولص، فقال له: أسلم وإلا فعلت بك كما فعلت بأخيك. فقال له: وما الذي صنعت بأخي؟ قال: قتلتة، وهذه رأسه ورمها ضرار قدامه. فلما رأى أخيه بكى، وقال له: لا بقاء لي بعده حيًا فالحقوني به، قال فقام إليه المسيب بن يحيى الفزاري رضي الله عنه فضرب عنقه بأمر خالد ثم رحل القوم.

قال الواقدي: حدثنا سعيد بن مالك. قال: لما بعث خالد الكتب إلى شرحبيل بن حسنة كاتب وهي رسول الله ﷺ وإلى يزيد بن أبي سفيان وإلى عمرو بن العاص قرأ كل واحد من الأمراء كتابه. قال فساروا بأجمعهم إلى أجنادين لعون إخوانهم وجاءوا بعدهم وعددهم. قال سفيينة مولى رسول الله ﷺ: كنت في خيل معاذ بن جبل، فلما أشرفنا بأجمعنا على أجنادين كنا كلنا على سيارة واحدة في يوم واحد، وذلك في شهر صفر سنة ٢٠ من الهجرة وتبادر المسلمين يسلّم بعضهم على بعض، قال ورأينا جيوش الروم في عدد لا يحصى. فلما أشرفنا عليهم أظهروا لنا زيتهم وعددهم واصطفوا مواكب وكتائب ومدوا صفوهم، فكانوا ستين صفًا في كل صف ألف فارس، قال الضحاك بن عروة: والله لقد دخلنا العراق ورأينا جنود كسرى فما رأينا أكثر من جنود الروم ولا أكثر من عددهم وسلاحمهم. قال فنزلنا بإزائهم. قال فلما كان من اللند بادرت الروم نحونا. قال الضحاك: فلما رأيناهم، وقد ركبوا أخذنا على أنفسنا وتأهينا، وأن خالد ركب، وجعل يتخلّل الصفوف: ويقول: أعلموا أنكم لستم ترون للروم جيشاً مثل هذا اليوم، فإن هزمهم الله على أيديكم فما يقوم لهم بعدها قائمة أبداً فأصدقوا في الجهاد وعليكم بنصر دينكم وإياكم أن تولوا الأدبار فيعقبكم ذلك دخول النار وأقرنوا المواكب ومكّنوا المضارب ولا تحملوا حتى أمركم بالحملة وأيقظوا هممكم.

قال الواقدي: ولقد بلغني ممن أثق به أن ورдан لما رأى أصحاب رسول الله ﷺ قد أجمعوا وعولوا على حربهم جمع إليه الملوك والبطارقة وقال لهم: يا بني الأصفر اعلموا أن الملك يعول عليكم، وإذا انكسرتم لا تقوم لكم بعدها قائمة أبداً وتملك العرب بلادكم وتسبي حريمكم فعليكم بالصبر ولتكن حملتكم واحدة ولا تتفرقوا واعلموا أن كل ثلاثة منا بوحد منهم واستعينوا بالصلب ينصركم، فهذا ما كان من هؤلاء. وأما خالد رضي الله عنه فإنه مشى على أصحابه وقال: معاشر المسلمين من فيكم يحذر لنا القرم وينذرهم؟ فقال ضرار بن الأزر: أنا أيتها الأمير. فقال خالد: أنت لها والله، ولكن يا ضرار إذا أشرفت على القوم فإياك أن تحمل نفسك ما لا تطيق، وأن تغrr بنفسك وتحمل على القوم مما أمرك الله بذلك، فقد قال الله تعالى: «ولا تلقووا بأيديكم إلى التهلكة» [البقرة: ١٩٥] قال فأطلق ضرار عنان جواده حتى أشرف على جيش الروم فرأى أثائهم وخيمتهم وشعاع البيض والطوارق والريات كأجنحة الطيور، قال وكان وردان ينظر نحو جيش المسلمين إذ نظر إلى ضرار، وهو مشرف على القوم، فقال للبطارقة: إني أرى فارساً قد أقبل ولست أشك أنه طليعة القوم فرأيكم يأتيوني به فانتدب من القوم ثلاثة فارساً طلبوا ضراراً، فلما نظر إليهم ضرار ولئن من بين أيديهم فتبعوه وظروا أنه قد انهزم، وإنما أراد بذلك أن يبعدهم عن أصحابهم، فلما بعدوا علم أنه تمكّن منهم فلوى رأس جواده إليهم وصوب السنان عليهم، فأقول من طعن فارساً من القوم أرداه وثنى على الآخر فأعدمه الحياة وصال فيهم صولة الأسد على الغنم ودخل رعبه في قلوبهم فولوا منهزمين فتبّعهم، وهو يصرع منهم فارساً بعد فارس إلى أن صرع منهم تسعة عشر فارساً.

فلما رأوا ذلك وقرب هو من جيوش الروم لوى راجعاً إلى خالد ومعه أسلابهم وخيولهم وأعلمه بما كان، فقال له خالد: ألم أقل لك لا تغrr بنفسك ولا تحمل عليهم، فقال: إن القوم طلبواني فخفت أن يراني الله منهزاً فجاهدت بإخلاص ولا جرم أن الله ينصرنا عليهم والله لولا خوفي من ملامك لأحملن على الجميع. واعلم أن القوم غنية لنا. قال فرتّب خالد عسكره ميمنة وميسرة وقلباً وجناحين فجعل في القلب معاذ بن جبل وفي الميمنة عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وفي الميسرة سعيد بن عامر وفي الجناح الأيسر شرحبيل بن حسنة، وفي الساقية يزيد بن أبي سفيان في أربعة آلاف فارس حول الحريم والبنات والأولاد، ثم التفت إلى النسوة وهن عفراء بنت غفار الحميرية وأم أبان ابنة عتبة وكانت عروساً قد تزوج بها في هذا اليوم أبان بن سعيد بن العاص والخضاب في يدها والعطر في رأسها، وخولة بنت الأزر ومزروعة بنت عملاق وسلمة بنت زارع وغيرهن من النسوة ممن عرفن بالشجاعة والبراعة.

نصيحة خالد

فقال لهن خالد: يا بنات العمالة وبقية التابعة قد فعلتن فعلاً أرضيتن به الله تعالى وال المسلمين، وقد بقي لكن الذكر الجميل، وهذه أبواب الجنة قد فتحت لكن ، وأبواب النار قد أغلقت عنكן وفتحت لأعدائكن ، واعلمن أيق بكن. فإن حملت طائفه من الروم عليكن فقاتلن عن أنفسكن ، وإن رأيتن أحداً من المسلمين قد ول هاري فدونكن وإيه بالأعمدة وارمين بولده وقلن له : أين تولي عن أهلك ومالك وولدك وحريمك فإنكن ترضين بذلك الله تعالى . فقالت عفراة بنت غفار: أيها الأمير والله لا يفرحنا إلا أن نموت أمامك ، فلنضررين وجوه الروم ولنقاتلن إلى أن لا تبقى لنا عين تطرف ، والله ما نبالي إذا رميوا الروم كلهم قال فجزاهن خيرا . ثم عاد إلى الصفوف فجعل يطوف بينهم بفرسه ، ويحرّض الناس على القتال ، وهو ينادي برفع صوته: يا معاشر المسلمين: انصروا الله ينصركم ، وقاتلوا في سبيل الله واحتسبوا نفوسكم في سبيل الله ولا تحملوا حتى أمركم بالحملة ، ولتكن الشهام إذا خرجت من أكباد القسي كأنها من قوس واحدة . فإذا تلاصقت الشهام رشقاً كالجراد لم يخل أن يكون منها سهم صائب ، ﴿وَاصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لِعِلْكُمْ تَفْلِحُون﴾ [آل عمران: ٢٠٠] ، واعلموا أنكم لم تلقوا بعد هذا عدواً مثله ، وأن هذه الفتنة جملتهم وأبطالهم وملوكهم فجردوا السيف وأوتروا القسي وفوقوا الشهام . ثم إن خالداً أقبل ووقف في القلب مع عمرو بن العاص وعبد الله بن عمر وقيس بن هبيرة ورافع بن عميرة وذى الكلاع الحميري وربيعة بن عامر ونظائرهم . قال فلما نظر وردان إلى جيش المسلمين قد زحف ، زحفوا وكانوا ملء تلك الأرض في الطول والعرض من كثتهم فترامي الجمعان وتلاقى الفريقان ، وقد أظهر أعداء الله الصليبان والأعلام ، ورفع المسلمون أصواتهم بالتهليل والتكبير والصلوة والسلام على البشير النذير .

فلما قرب القوم بعضهم من بعض خرج من علوج الروم شيخ كبير وعليه قلنسوة سوداء . فلما قرب من المسلمين نادى بسان عربي: أيكم المقدم فليخاطبني وليخرج إلي وعليه أمان . قال فخرج إليه خالد بن الوليد . فقال له القس: أنت أمير القوم؟ فقال خالد: كذلك يزعمون ما دمت على طاعة الله وستة رسوله ، وإن أنا غيرت أو بدلت فلا إمارة لي عليهم ولا طاعة . قال القس: بهذا نصرتم علينا ، ثم قال: اعلم أنك توسيطت بلاداً ما جسر ملك من الملوك أن يتعرض لها ولا يدخلها ، وأن الفرس دخلوها ورجعوا خائبين ، وأن التابعة أتواها وأفنا أنفسهم عليها وما بلغوا ما أرادوا ، ولكنكم أنتم نصرتم علينا وإن النصر لا يدوم لكم وصاحبى ورдан قد أشفق عليكم وقد بعثني إليكم وقال: إنه يعطي كل واحد منكم ديناراً وثواباً وعمامة ولك أنت مائة ديناراً ومائة ثوب ومائة عمامة وارحل عنا بجيشكم فإن جيشتنا على عدد الذر ولا تظن أن هؤلاء مثل من لقيت

من جموعننا، فإن الملك ما أنفذ في هذا الجيش إلا عظماء البطارقة والأساقفة. قال خالد: والله ما نرجع إلا بـأحدى ثلث خصال: إما أن تدخلوا في ديننا، أو تؤدوا الجزية، أو القتال. وأما ما ذكرت من أنكم عدد الذر فإن الله تعالى قد وعدنا النصر على لسان محمد ﷺ وأنزل ذلك في كتابه العزيز. وأما ما ذكرت من أن صاحبكم يعطي كل واحد منا ديناراً وعمامة وثوبًا فعن قريب إن شاء الله نرى ثيابكم وببلادكم وعمائكم كل ذلك في ملكنا وبأيدينا. فقال الراهب: إني راجع إلى صاحبي أخبره بجوابك، ثم لوى راجعاً وأخبر ورдан بما كان من جواب خالد. فقال وردان: أيطن أننا مثل من لقيه من قبل وإنما هؤلاء لحقهم الطمع إذ تقاصروا عن قتالهم والملك قد أرسل إليهم أكابر البطارقة وما بيننا وبينهم إلا جولة الجائل ثم تركهم صرعى، ثم رتب أصحابه وزحف وقدم أمامه الرجال صفاً أمام القوم والخيالة وبأيديهم المزاريب والقصي. قال فصاح معاذ بن جبل: معاشر الناس إن الجنة قد زخرفت لكم والنار قد فتحت لأعدائكم والملائكة عليكم قد أقبلت والحرور العين قد تزينت للقائكم فأبشروا بالجنة السرمدية، ثم قرأ «إن الله اشتري من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة» [التوبه: ١١١] بارك الله فيكم الحملة. فقال خالد: مهلاً يا معاذ حتى أوصي الناس، ومشى في الصفوف ورتبها وقال: أعلموا أن هؤلاء أضعافكم فطاولوهم إلى وقت العصر، فإنها ساعة نرزق فيها النصر، وإياكم أن تلووا الأدبار فيراكم الله منهزمين، ازحفوا على بركة الله تعالى.

فلما تقارب الجمعان رمت الأروام سهامهم رمية واحدة. قال فقتلوا رجالاً وجرحوا أناساً، وخالد قد منع الناس من الحملة. فقال ضرار بن الأزرور: وما لنا والوقوف والحق سبحانه تعالى قد تجلى علينا، والله ما يظن أعداء الله إلا أننا قد فشلنا عنهم وجزعنا، فأمرنا بالحملة حتى نحمل معك. قال: فأنت لها يا ضرار، فخرج ضرار بن الأزرور، وقال: والله ما من شيء أشهى إلى قلبي من ذلك. ثم حمل ضرار وقد تدرع بدرع كان بطرس أخي بولص، وألقى الزرد على وجهه وركب جواده، وكان عليه يومئذ جبتان من جلود الفيلة كان قد أخذهما أيضاً من بطرس، وقد أخفى نفسه عن الروم بلباسه ذلك، وقد أطلق عنانه وقوم سنانه وحمل في صفوف الروم فرشقوه بالسهام فلم يصل إليه منهم أذى، وهو يخترق صفوفهم، فما كان قدر ساعة حتى قتل من الروم عشرين فارساً ومثلها رجالاً. قال عنان بن عوف النجبي: كنت من يعد قتلى ضرار بن الأزرور، وكنت كلما قتل فارساً من الروم أعدّه، فكان جملة قتل ضرار في حملته هذه فرساناً ورجالاً ثلاثة فارساً.

قال عمر بن سالم: هكذا حدثني نوفل بن زياد. ثم إنه رمى البيضة عن رأسه والزرد عن وجهه ونادي بأعلى صوته: أنا الموت الأصفر، أنا ضرار بن الأزرور، أنا

صاحبكم، أنا قاتل همدان بن وردان، أنا البلاء السلط عليكم وعلى من أشرك بالرّحمن. قال فلما سمعت الروم كلامه عرفوه وتقهقرت إلى ورائهم. قال فطمغ فيهم وحمل على أثراهم، فعند ذلك انطبقت عليهم الروم. فقال وردان: مَنْ هَذَا الْبَدْوِي، فَقَالُوا: أَيْهَا الْمَلِكُ هَذَا الَّذِي بَقِيَ طُولَ عُمْرِهِ عَارِيَ الْجَسَدِ، وَمَرَّةً بِرْمَحٍ وَمَرَّةً بِنَبْلٍ. فَلَمَّا سَمِعْتُ ذَلِكَ وَبِذَكْرِ ضَرَارَ بْنِ الْأَزْوَرِ تَنَفَّسَ الصَّعْدَاءَ وَقَالَ: هَذَا قَاتِلُ وَلَدِيِّي، وَلَقَدْ اشْتَهَيْتُ مِنْ يَأْخُذُ مِنْهُ بِثَارِي وَلَهُ مِنِّي مَا يَرِيدُ. قال فبرز إليه بطريق، وكان صاحب طيرية، وقال لوردان: أنا آخذ لك بالثار، ثم لوى عنانه وحمل على ضرار فجلا أكثر من ساعة، ثم طعنه ضرار طعنة صادقة خرق بها كبد عدو الله فتجندل صريعاً، فقال وردان لهم: ما أتي به ولو أتي به عيناً ما صدقته، فإن هذا لا تطيق الإنس أن تقاتله، وأنا ما أرى لهذا غيري، ثم ترجل وغيره لامته وألقى عليه درعاً، وجعل على رأسه التاج وركب جواداً من الخيول العربية وهم أن يخرج إلى ضرار بن الأزور، فتقدم إليه بطريق اسمه اصطفان، وهو صاحب عمان. قال وباس ركاب وردان وقال: أيها السيد إن آخذ بثأرك من هذا الذميم أو أسرته لك أتزوجني ابنتك؟ فقال له وردان: هي لك وأشهد عليه من حضر من ملوك الشام. فلما سمع اصطفان بذلك خرج كأنه شعلة نار وحمل على ضرار وقال له: ويلك قد نزل بك ما لا قدرة لك به. قال فلم يدر ضرار ما يقول غير أنه أخذ حذره منه، وقد أخرج اصطفان صليباً من الذهب، وجعله في عنقه في سلسلة من الفضة وجعل يقبله ويرفعه على رأسه فعلم ضرار أنه يستنصر به عليه، فقال ضرار رضي الله عنه: إن كنت تستنصر علي به فأنا استنصر بالقريب المجيب الذي هو من دعاه قريب. ثم حمل عليه وأريا الناس أبواباً من الحرب حتى ضجّ الناس من قتالهما، فصاح خالد: يا ابن الأزور ما هذا التكاسل والتغافل والجهة قد فتحت لك والنار قد فتحت لأعدائك، وإياتك الكسل فإن الله عزّ وجلّ يعينك قال فأيقظ ضرار نفسه وانقض من سرجه وحمل على خصمه وتصايحت الروم بصحابها تشجعه وكلاهما في ضرب عظيم، وقد حميّت الشمس وتعب الجوادان. فأشار الطريق إلى ضرار أن ترجل حتى تقابل، فهمّ ضرار أن يترجل شفقة على الجواد، وإذا بصفوف الروم قد خرجت ورجل يقود جنبياً أمامهم، وكان ذلك غلام البطريق، فلما نظر إليه ضرار صاح في جواده، وقال له: اجلد معي ساعة وإلا شكتك إلى رسول الله ﷺ.

قال: فحمد حمود وشمر أجنحته جريأ واستقبل ضرار غلام البطريق بطعمته فقتله وأخذ الجندي فركبه وأطلق جواده نحو عساكر المسلمين فتناولوه وعاد ضرار نحو الطريق. فلما رأه أقبل إليه بعد ما قتل غلامه وركب جواده أيقن عدو الله بالهلاك وعلم أنه إن ولّ قتله بلا محالة، وإن وقف أهلكه. فلما نظر ضرار إلى عدو الله علم ما عنده فهجم عليه إذ نظر إلى الروم وقد خرج منهم كردوس، وذلك لأن وردان لما نظر إلى

صاحبه وقد أشرف على الموت علم أنه إن لم يدركه هلك، فقال لقومه: يا قوم إن هذا الشيطان قد أكل من كبدي قطعة، وإذا لم أقتلها قتلت نفسي ولا بد لي من الخروج إليه. قال فخرج في عشرة من البطارقة وهم مدرعون، وفي أرجلهم أخفاف من الحديد وسواهد من الحديد، وبأيديهم أعمدة من الحديد ووردان قد ليس لامته وعلى رأسه تاج عظيم فخرجوها ووردان أمامهم كأنه شعلة نار ونظر أسطوان إلى من خرج فصرخ بضرار فلم يلتفت إلى من خرج إليه إلا أنه تأهب. فبينما هم كذلك إذ نظر خالد إلى القوم وخروجهم ونظر إلى التاج، وهو يلمع على رأس صاحبهم. فقال: إن التاج لا يكون إلا على رأس الملك ولا شك أنه صاحب القوم قد خرج إلى صاحبنا فما الذي يقعدنا عن نصرته؟ ثم قال لأصحابه: لا يخرج إلا عشرة حتى نساوي القوم، فخرج خالد في عشرة من أصحابه وأطلقوا الأعنة وقاموا الأستة، قال ووصل الروم إلى ضرار فاستقبلهم بقلب أقوى من الحجر الجلمود، قال فناداه خالد: أبشر يا ضرار. فقد أسعدهك الجبار ولا تجزع من الكفار، فقال ضرار رضي الله عنه: ما أقرب النصر من الله، وجاء خالد ومن معه والتقت الرجال بالرجال وإنفرد كل واحد بصاحبه وطلب خالد ووردان، ولم يبرح ضرار عن خصمه أسطوان، وقد كل ساعة وارتعدت فرائصه عندما نظر إلى خالد ومن معه، فنظر يميناً وشمالاً ليطلب الهرب فعلم ضرار منه ذلك فهجم عليه بسنائه، فلما أيقن بالموت ألقى نفسه إلى الأرض وولى هارباً فبادر إليه ضرار وألقى نفسه عن جواهه وطلب عدو الله حتى لحقه وتقابضاً على وجه الأرض، وكان عدو الله كالصخر الجلمود، وكان ضرار نحيف الجسم غير أن الله تعالى أعطاه قوة الإيمان. فلما طال بهم العراك ضرب بيده إلى مراق بطنه وقلعه من الأرض بحيلة وجلد به الأرض فصاح عدو الله وجعل يستنجد بوردان وقال بالرومية: أيها السيد انجدني مما أنا فيه فقد هلكت، فصاح وردان: يا وليك ومن ينقذني أنا من هؤلاء السباع الكاسرة، فسمع خالد ذلك فطماع فيه وحمل على وردان وهم ضرار بخصمه ونظر إليهما الفريقان، وأقبل صاحب رسول الله ﷺ ضرار فلم يمهل على خصمه دون أن بر크 على صدره وذبحه مثل البعير، وكل واحد مشتغل عن نصرة صاحبه. قال فأخذ ضرار رأس عدو الله وهو ملطخ بالدماء وركب جواهه وحملت الروم على المسلمين ونادي سعيد بن زيد: يا معاشر الناس اذكروا الوقوف بين يدي الله الملك الجبار فإياكم أن تولوا الأدباء فستوجبوا دخول النار، يا أهل الإيمان يا حملة القرآن اصبروا. قال فزاد الناس بقوله نشاطاً وتزاحماً الفريقان. قال: وجاء وقت العصر فافتلقوا وقد قتل من الروم ثلاثة آلاف وعشرة من ملوكيهم، ومنهم رومان صاحب الأميرة، ودمر صاحب نوى، وكوكب صاحب أرض البلقاء، ولاوي بن حنا صاحب غزة. قال ثم افترق القوم ورجع وردان إلى مكانه وقد امتلاً قلبه رعباً مما ظهر له من المسلمين من شدة صبرهم وقتالهم. فجمع البطارقة وقال لهم: يا أهل دين النصرانية ما

تقولون في هؤلاء العرب فإني أراهم غالبين علينا وقد رأيت أسيافهم قاطعة وخيلهم صابرة وسواعدكم بليدة، وإن القوم أطوع منكم لربكم وما خذلتم إلا بالظلم والجور والغدر، وما مرادي منكم إلا أن تتوبيوا إلى ربكم، فإن فعلتم ذلك رجوت لكم النصر من عدوكم، وإن لم تفعلوا ذلك فائذنوا بذلك فآتكم المسيح وبهلاك أنفسكم، فإن الله عاقبكم أشد عقوبة إذ سلط عليكم أقواماً لا نفكّر بهم ولا نعدهم، لأن أكثرهم جياع وعيid وعراة ومساكين أخرجهم إلينا قحط الحجاز وجوعه وشدة الضرر والبلاء، والآن قد أكلوا من خبز بلادنا وفواكه أرضنا وأكلوا العسل والتين والعنب، وأعظم ذلك سبي نسائكم وأموالكم.

قال الواقدي: فلما سمع القوم ذلك بكوا وقالوا: نقتل عن آخرنا ولا يصل إلينا هؤلاء القوم وإنما نرى أن نقاتلهم بالرماح. قال فلما سمع وردان ذلك منهم صاح بالبطارقة وقال لهم: ما عندكم من الرأي؟ . فقال رجل منهم: يا وردان أعلم أنك قد بليت بقوم لا تقوم لقتالهم، وقد رأيت الواحد منهم يحمل على عسكتنا ولا يبالي من أحد ولا يرجع حتى يقتل منهم، وقد قال لهم نبيهم إن من قتل منكم صار إلى الجنة. ومن قتل من الروم صار إلى النار، والموت والحياة عندهم سواء وما أرى لكم من القوم مطمعاً إلا أن نتحيل على صاحبهم فقتله فإن قتلتهم ينهزم القوم وإنك لا تصل إليه إلا بحيلة توقعه فيها. فقال وردان: وأي حيلة ندخل بها على القوم والخيل والخداع والمكر منهم؟ .

قال له البطريق: أنا أقول لك شيئاً إن صنته وصلت به إلى أمير العرب من حيث لا يصل إليك شيء ولا أذى، وذلك أنك تنتخب عشرة من الفرسان من ذوي الشدة والباس ويكمون في مكمن من جهة العسكر قبل خروجك إليه وبعد ذلك تخرج إليه وتشاغله بالحديث ثم اهجم عليه وأخرج قومك يبادرون من المكمن ويقطعونه إرباً إرباً وتستريح منه وبعد ذلك تفرق أصحابه ولا يجتمع منهم أحد. قال فلما سمع وردان ذلك من البطريق فرح فرحاً عظيماً . وقال: ما هذا إلا رأي سديد فنعم ما أشرت به وقد أصبت فيما ذكرت غير أن هذا الأمر يعمل في جنح الليل ولا يأتي الصباح إلا وقد فرغنا مما نريد، ثم إن وردان دعا برجل من العرب المنتصرة اسمه داود وكان في سكته . وقال له: يا داود أنا أعلم أنك فصيح اللسان وإنني أريد أن تخرج إلى هؤلاء العرب وتسألهما أن يقطعوا الحرب بيننا وبينهم، وقل لهم لا يخرجون لنا بكرة النهار حتى أخرج بنفسي إليهم منفرداً عن قومي ولعلنا نصطلح مع العرب. فقال داود: ويحك وتخالف أمر الملك هرقل فيما أمرك به من الحرب وتصطلح أنت والعرب فإن الملك ينسبك إلى الجزع والفزع وما كنت بالذي أخاطب العرب في ذلك أبداً فيبلغ الملك أنني كنت السبب في ذلك فيقتلني . فقال له وردان: يا ويلك إنما دبرت حيلة على أمير العرب حتى أصل بها إليه فأفتهله

وتتفرق هؤلاء العرب عنا ثم إنه حدثه بما عزم عليه من المكر بخالد بن الوليد. فقال لوردان: إن الباغي مخدول في كل فعل فالق الجمع بالجمع واترك ما عزمت عليه، فقال ورдан وقد غضب: وبذلك أنت تعاندني فيما أمرتك به دع عنك المحاججة. فقال: حبا وكرامة، ثم إنه مضى وقال في نفسه: إن وردان قد عزم أن يلحق بولده، ثم أقبل حتى إنه وقف قريباً من المسلمين ونادي برفع صوته، وقال: يا معاشر العرب حسبكم من القتل وسفك الدماء فإن الله تعالى يسألكم عن سفكها، وأريد أن يخرج إلى أمير العرب حتى أخطبه بما أرسلت به. قال فما استتم كلامه حتى خرج إليه خالد رضي الله عنه وهو كأنه شعلة نار.

فلما نظر إليه داود النصراوي قال له: يا عربي على رسلك مما خرجت أحارب ولا أنا من رجال الحرب وما أنا إلا رسول. فلما سمع خالد مقالته قرب منه. وقال: اذكر مسألك واستعمل الصدق تنج فمن صدق نجا ومن كذب هلك، فقال: صدقت يا عربي، إن أميرنا وردان كاره سفك الدماء، وقد رأى شدتكم ولا يريد حربكم، وقد نظر إلى من قتل من جماعته فكره أن يحاربكم، وقد رأى أن يدفع لكم مالاً ويحقن به دماء الناس لكن بشرط أن يكون بينك وبينه كتاب وتشهد عليك كبراء قومك أنك لا تتعرض له ولا لأحد من أصحابه ولا لحصن من حصونه، فإن فعلت ذلك وثق بقولك وهو يسألك أن تقطع الحرب بقية يومك، فإذا أصبحت فاخترج بنفسك ولا يكن معك أحد ويخرج هو أيضاً متفرداً فتنظر ما تتفقان عليه عسى أن تتحققنا دماء الناس بيننا وبينكم. قال فلما سمع خالد ما نطق به داود قال له: إن كان ما أخبر به صاحبكم يريد به حيلة أو مكيدة فتحن والله جرثومة الخداع وما مثلنا يأتي بحيلة ولا بخدع، فإن كان ذلك ضميره واعتقاده فما هو إلا قرب أجله وانقطاع عمره وهلاك جموعكم والانفصال بيننا وبينكم، وإن كان ذلك حقاً من قوله فلست أصالحه إلا إذا أدى الجزية عن جماعته. وأما المال فلست برافغ فيه إلا على ما ذكرته لكم وعن قريب نأخذ أموالكم ونملك بладكم. فقال داود وقد عظم عليه كلام خالد: ما يكون الأمر إلا كما ذكرت فإذا توافقتم كان الانفصال بيننا، وها أنا راجع فأذكر له ما ذكرت ثم لو راجعاً وقد امتنأ قلبه رعياناً من خالد وفزع منه فزعًا شديداً، ثم قال في نفسه: صدق والله أمير العرب وأنا أعلم والله أن وردان أول مقتول ونحن من بعده وما لي إلا أن أصدق أمير العرب وأخذ لي ولأهلي منه أماناً، ثم رجع إلى خالد وقال له: يا أمير إني قد أضمرت على سر وأريد أن أبديه لك لأنني أعلم أن البلاد لكم، إن وردان قد نوى على شيء، فقال خالد: وما هو؟ فقال: خذ لنفسك الحذر وكن مستيقظاً فإنه قد أضمر لك كيداً، ثم أخبره بالقصة من أولها إلى آخرها، ثم قال لخالد: أريد منك الأمان لي ولأهلي. فقال خالد: الأمان لك ولأهلك ولأولادك إن أنت لم تخبر القوم ولم تغدر قال داود: لو أردت أن أغدر لما حدثتك. فقال خالد:

وأين كمین القوم؟ قال: عند كثيّب عن يمین عسکرهم، ثم إنّه خلاه ورجع وأعلم وردان ففرح وقال: الآن أرجو أن يظفرني الصليب بهم، ثم إنّه دعا بعشرة من الأبطال، وقال لهم: امضوا رجاله وأكمّنا وأمرهم أن يفعلوا ما ذيروه. وأما خالد فإنه رجع فلقيه أمين الأمة أبو عبيدة فرأه ضاحكاً. فقال: يا أبا سليمان أضحك الله ستّك ما الخبر؟ فحدثه بما جرى. فقال أبو عبيدة: على ماذا عزمت؟ قال: عزمت أن أخرج إلى القوم وحدي. فقال: يا أبا سليمان لعمرك إنك لكافء ولكن ما أمرك الله أن تلقى بنفسك إلى التهلكة والله تعالى يقول: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم» [الأنفال: ٦٠] وقد أعد لك عشرة، وهو حادي عشر وما آمن عليك من اللعين ولكن اندب له رجاله كما ندب لك رجاله ويكمون قريباً من القوم، فإذا صرخ اللعين بقومه فاصرخ أنت بقومك ونكون نحن متأهبين على خيولنا، فإذا فرغت من عدو الله حملنا جميّعاً ونرجو من الله النصر، ثم قال: والمسلمون هم رافع بن عميرة الطائي، ومعاذ بن جبل، وضرار بن الأزور، وسعيد بن زيد، وقيس بن هبيرة، وميسرة بن مسروق العبسي، وعدى بن حاتم حتى استتم العشرة وأخبرهم خالد بما قد عزم عليه الروم من الحيلة والمكيدة التي قد ذيرواها وردان. وقال: اخرجو رجالة بحيث لا يدرى بكم أحد حتى تأتون الكثيّب الذي عن يمین العسکر فاكملنا هناك، فإذا صرخت بكم فبادروا وانفروا للقوم كل واحد لواحد واتركوني لعدو الله فإني إن شاء الله تعالى كفاء له فقال ضرار: أيها الأمير أخاف أن يكثر عليك الجمع الكثير فلا نأمن أن يصلوا بشرّهم إليك، وقد كنت أذير لك حيلة أننا نسير من وقتنا هذا إلى مكمن القوم فإذا وجدناهم رقوداً قتلناهم وفرغنا منهم قبل الصباح ونكمّن نحن في مواضعهم فإذا خلّوت أنّت بعدوا الله خرجنا عليكم بغير مقابلة.

قال خالد: افعل يا أبا الأزور ما ذكرت إن وجدت إلى ذلك سبيلاً وخذ معك هؤلاء الذين ندبتمهم وأنت الأمير عليهم، وأرجو أن الله يبلغك ما تطلبه، وخرج هو وأصحابه في جنح الليل رجاله وبأيديهم أسلحتهم وودعوا الناس، وكان وقت خروجهم قد مضى ثلث الليل، ثم سار ضرار حتى وصل الكثيب فأوقف أصحابه وقال: على رسلكم حتى أستخبر لكم خبر القوم. فلما أشرف عليهم من بعيد سمع غطيطهم وهو نائم سكري غرقوا في النوم لما نالهم من التعب والنصب وقد أمنوا من أحد ينظرهم. فقال ضرار في نفسه: إن أنا دنوت من القوم لقتلهم خشيت أن يوقظ بعضهم بعضاً. قال فرجع إلى أصحابه وقال لهم: أبشروا فقد أتاكم الله بما تريدون، وأذهب عنكم ما تحذرون، فجردوا سيفكم وسيروا إلى القوم فاقتلوهم كيف شئتم، ثم تقدم ضرار أمامهم وهو في أثره إلى أن وصل بهم إليهم فوجدهم نياماً كل واحد منهم سلاحه عند رأسه فانفرد كل واحد منهم بوحد، فلم يلبثوا إلا وقد فرغوا منهم عن آخرهم وأخذ كل واحد سلاح غريميه وأخذوا

كل ما معهم من الزاد وغيره، فقال لهم ضراراً: أبشروا فإن هذا أول النصر إن شاء الله تعالى، وأقبلوا بقية ليلتهم يصلون ويدعون الله أن ينصرهم على عدوهم ولم يزل كل واحد منهم في مصلاه إلى أن أضاء الفجر فصلوا صلاة الفجر. فلما فرغوا من الصلاة لبس كل واحد ثياب غريميه ولباسه وغيروا القتلى مخافة أن يرسل إليهم ورдан خبراً..

معركة أجنادين

قال الواقدي: فلما أصبح الصباح صلى خالد بالناس ورتب أصحابه لأهبة الحرب، في بينما هم كذلك إذ خرج من القلب فارس وقال: يا معاشر العرب أريد أميركم ليخرج إلى صاحبنا وردان لنتظر ما ينفقان عليه من أمر العجشين وحقن الدماء بينهما. قال فخرج إليه خالد بن الوليد. فقال له الفارس: إن وردان يريد أن تنتظره حتى تتكلم معه. فقال خالد: السمع والطاعة ارجع وأخبره، فعند ذلك خرج وردان وقد تزين بقلادة جوهر وعلى رأسه تاج. فقال خالد عندما رأه: هذه غنية للمسلمين إن شاء الله تعالى. قال فلما نظر عدو الله إلى خالد ترجل عن جواهه وكذلك خالد وجلس كلاهما، وقد جعل عدو الله سيفه على فخذه. فقال له خالد: قل ما تشاء، واستعمل الصدق والزم طريق الحق، وأعلم أنك جالس بين يدي رجل لا يعرف الحيل. فقل: ما تريده. فقال وردان: يا خالد اذكر لي ما الذي تريدون وقرب الأمر بيني وبينكم، فإن كنت تتطلب منا شيئاً فلا تخلي به عليكم صدقة منا علينا لأننا ليس عندنا أمة أضعف منكم، وقد علمتنا أنكم كتمتم في بلاد قحط وجوع تموتون جوعاً فاقع منا بالقليل وارحل عنا. فلما سمع منه خالد هذا الكلام قال له: يا كلب الروم إن الله عز وجل أغنانا عن صدقاتكم وأموالكم وجعل أموالكم تقاسمها بيننا وأحل لنا نساءكم وأولادكم إلا أن تقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله، وإن أبيتم فالحرب بيننا وبينكم، أو الجزية عند يد وأنتم صاغرون، وبإله الله أقسم إن الحرب أشهى لنا من الصلح. وأما قولك يا عدو الله لم تكن أمة أضعف مننا عندكم فأنتم عندنا بمنزلة الكلاب، وإن الواحد منا يلقي ألفاً منكم بعون الله تعالى وما هذا خطاب من يطلب الصلح، فإن كنت ترجو أن تصل إلى بانفرادي عن قومي وقومك دونك وما تريده.

قال: فلما سمع وردان مقالات خالد وثب من مكانه من غير أن ي مجرد سيفه وتشابكا وتقابضا وتعانقا. قال: فصاح عدو الله عندما وثق من خالد وقال لأصحابه: بادروا الآن الصليب قد مكتني من أمير العرب، مما استتم كلامه حتى بادر إليه الصحابة لأنهم عقبان يتقدمهم ضرار بن الأزور، وقد رموا الشاب عنهم وجردوا سيوفهم وضرار عاري الجسد بسراويله قابض على سيفه وهو يزار كالأسد وأصحابه من ورائه فالتفت عدو الله ونظر إلى القوم وهم يتسابقون إليه وهو يظن أنهم قومه حتى أنهم وصلوا إليه ونظر

في أوائلهم ضرار بن الأزور. فقال لخالد: سألك بحق معبودك أن تقتلني أنت بيديك ولا تدع هذا الشيطان يقتلني. فقال خالد: هو قاتליך لا محالة فهزّ ضرار سيفه وقال: يا عدو الله أين خديعتك من خديعة أصحاب رسول الله ﷺ. فقال خالد: اصبر يا ضرار حتى أمرك بقتله، ثم وصل إليه أصحاب رسول الله ﷺ فهزوا سيفهم في وجهه ومرادهم أن يقتلوه ونظر عدو الله إلى ما دهمه فوق الأرض وهو يشير بإصبعه الأمان الأمان. فقال خالد: يا عدو الله لا تعطي الأمان إلا لأهل الأمان وأنت أظهرت لنا المكر والخديعة «والله خير الماكرين» [آل عمران: ٥٤] فلما سمع ضرار كلام خالد لم يمهله دون أن ضربه على عاتقه فخرج السيف يلمع من علاقته، ثم أخذ التاج من على رأسه. وقال: من سبق إلى شيء كان أولى به وقد أدركته سيوف المجاهدين فقطعواه إرباً إرباً وتباذروا إلى سيفه فأخذوه، ثم إن خالداً قال لأصحابه: إني أريد أن تحملوا على الروم لأنهم مشتاقون إلى أصحابهم. قال فأخذوا رأس عدو الله وردان وتوجهوا نحو عسكر الروم. فلما وصل خالد الصفوف نادى: يا أعداء الله هذا رأس صاحبكم وردان.. أنا خالد بن الوليد أنا صاحب رسول الله ﷺ، ثم إنه رمى الرأس وحمل عليهم وحمل المسلمين. فلما رأى الروم رأس وردان ولوا الأدبار وركنا إلى الفرار، ولم يزل السيف يعمل فيهم من وقت الصباح إلى الغروب. قال عامر بن الطفيلي الدوسي: كنت مع أبي عبيدة ونحن نتبع المنهزمين إلى طريق غزة إذ أشرف علينا خيل فظننا أنها نجدة من عند الملك هرقل فأخذنا على أنفسنا وإذا بالغيرة قد قربت منا، فإذا هي عسكر قد أرسلها أبو بكر الصديق، وما رأوا أحداً من المنهزمين إلا قتلوا ونهبوا جميع ما معه.

قال الواقدي: وكان الروم بأجنادين تسعين ألفاً فقتل منهم في ذلك اليوم خمسون ألفاً وتفرق من بقي منهم، فمنهم من انهزم إلى دمشق، ومنهم من انهزم إلى قيسارية وغنم المسلمون غنيمة لم يغنم مثلها وأخذوا منهم صلبان الذهب والفضة، فجمع خالد ذلك كله مع تاج ورдан إلى وقت القسمة وقال خالد: لست أقسم عليكم شيئاً إلا بعد فتح دمشق إن شاء الله تعالى، وكانت الوعقة بأجنادين لليلة ست خلت من جمادى الأول سنة ثلاثة عشرة من الهجرة النبوية، وذلك قبل وفاة أبي بكر بثلاث وعشرين ليلة، ثم إن خالداً رضي الله عنه كتب كتاباً إلى أبي بكر يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد المخزومي إلى خليفة رسول الله ﷺ، سلام عليك. أما بعد فإنني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأصلح على نبيه محمد ﷺ، وأزيد حمداً وشكراً على المسلمين ودماراً على المتكبرين المشركين وانصداع بيعتهم، وإنما لقينا جموعهم بأجنادين وقد رفعوا صلبانهم وتقاسموا بدینهم أن لا يفزوا ولا ينهزموا... فخرجنا إليهم واستعننا بالله عزوجل متوكلين على الله خالقنا فرزقنا الله الصبر والنصر، وكتب الله على أعدائنا القهقرفاتلناهم في كل واد وسبب، وجملة من أحصيناهم ممن قتل من المشركين خمسون

ألفاً وقتل من المسلمين في اليوم الأول والثاني أربعين ألفاً وخمسون رجلاً ختم الله لهم بالشهادة منهم عشرون رجلاً من الأنصار ومن أهل مكة ثلاثة عشرة رجلاً ومن حمير عشرون والباقي من أخلاق الناس، ويوم كتبت لك الكتاب كان يوم الخميس لليلتين خلتا من جمادي الآخر، ونحن راجعون إلى دمشق إن شاء الله تعالى فادع لنا بالنصر والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته، وطوى الكتاب وسلمه إلى عبد الرحمن بن حميد وأمره بالمسير إلى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم السلام، وسار خالد المسلمين طالب دمشق.

قال الواقدي رحمة الله عليه: ولقد بلغني أن أبي بكر الصديق كان يخرج كل يوم بعد صلاة الفجر إذ أقبل عبد الرحمن بن حميد. فلما رأه تسابقت إليه أصحابه وقالوا له: من أين أقبلت؟ قال: من الشام وإن الله قد نصر المسلمين فسجد أبو بكر الصديق الله شكرًا، وأقبل عبد الرحمن ابن حميد إلى أبي بكر وقال: يا خليفة رسول الله ارفع رأسك فقد أقر الله عينك بال المسلمين فرفع أبو بكر رأسه وقرأ الكتاب سرًا، فلما فهم ما فيه قرأه على المسلمين جهراً، فتزاحم الناس يسمعون قراءة الكتاب، فشاع الخبر في المدينة فهرعت الناس من كل مكان، فقرأه أبو بكر ثانية مرة وتسامع الناس من أهل مكة والحجاز واليمن بما فتح الله على أيدي المسلمين وما ملكوا من أموال الروم فتسابقوا بالخروج إلى الشام ورغبوا في الثواب والأجر، وأقبل إلى المدينة من أهل مكة وأكابرهم بالخيل والرماح وفي أوائلهم أبو سفيان والغيداق بن وائل، وأقبلوا يستأذنون أبي بكر في الخروج إلى الشام فكره عمر بن الخطاب خروجهم إلى الشام وقال لأبي بكر: لا تأذن للقوم فإن في قلوبهم حقائد وضيائين، والحمد لله الذي كانت كلمته هي العليا وكلمته هي السفلة وهم على كفرهم وأرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم وبايبي الله إلا أن يتم نوره، ونحن مع ذلك نقول: ليس مع الله غالب. فلما أن أعز الله ديننا ونصر شريعتنا أسلموا خوفاً من السيف. فلما سمعوا أن جند الله قد نصروا على الروم أتوا لنبعث بهم إلى الأعداء ليقاوموا السابقين الأولين، والصواب أن لا نقر بهم. فقال أبو بكر: لا أخالف لك قولاً ولا أعصي لك أمراً. قال وبلغ أهل مكة ما تكلم به عمر بن الخطاب فأقبلوا بجمعهم إلى أبي بكر الصديق في المسجد فوجدوا حوله جماعة من المسلمين وهم يتذاكرون ما فتح الله على المسلمين وعمر بن الخطاب عن يساره وعلي بن أبي طالب عن يمينه والناس حوله، فأقبلت قريش إلى أبي بكر فسلموا عليه وجلسوا بين يديه وتشاوروا فيما يكون أولهم كلاماً، فكان أول من تكلم أبو سفيان بن حرب فأقبل على عمر بن الخطاب وقال: يا عمر كنت لنا مبغضاً في الجاهلية، فلما هدانا الله تعالى إلى الإسلام هدمنا ما كان لك في قلوبنا لأن الإيمان يهدم الشرك وأنت بعد اليوم تتغضنا فما هذه العداوة يا ابن الخطاب قدماً وحديثاً؟ أما آن لك أن تغسل ما بقلبك من الحقد

والتنافر، وإنما لتعلم أنك أفضل منا وأسبق في الإيمان والجهاد، ونحن عارفون بمرتبتكم غير منكرين. قال: فسكت عمرو رضي الله عنه واستحق من هذا الكلام. فقال أبو سفيان: إني أشهدكم أنني قد حبسني في سبيل الله وكذلك تكلم سادات مكة. فقال أبو بكر: اللهم بلغهم أفضلي ما يؤملون، واجزهم بأحسن ما يعملون وارزقهم النصر على عدوهم ولا تمكّن عدوهم فيهم **«إنك على كل شيء قادر»** [آل عمران: ٢٦].

قال الواقدي: فما تمت أيام قلائل حتى جاء جموع من اليمن وعليهم عمرو بن معد يكتب الزبيدي رضي الله عنه يريد الشام فما لبثوا حتى أقبل مالك بن الأشتر النخعي رضي الله عنه فنزل عند الإمام علي رضي الله عنه بأهله، وكان مالك يحب سيدنا علياً، وقد شهد معه الواقع وخاغن المعاذم في عهد رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه وقد عزم على الخروج مع الناس إلى الشام.

كتاب أبو بكر إلى خالد

قال الواقدي: واجتمع بالمدينة نحو تسعة آلاف، فلما تم أمرهم كتب أبو بكر كتاباً إلى خالد بن الوليد يقول فيه: بسم الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، من أبي بكر خليفة رسول الله إلى خالد بن الوليد ومن معه من المسلمين. أما بعد فإنني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي على نبيه محمد صلوات الله عليه وآله وسلامه، وأوصيكم وأمركم بتقوى الله في السر والعلانية، وقد فرحت بما أفاء الله على المسلمين من النصر وهلاك الكافرين وأخبرك أن تنزل إلى دمشق إلى أن يأذن الله بفتحها على يدك فإذا تم لك ذلك فسر إلى حمص وأنطاكية والسلام عليك وعلى من معك من المسلمين ورحمة الله وبركاته، وقد تقدم إليك أبوطالب اليمن وأبطال مكة ويكتفيك ابن معد يكتب الزبيدي ومالك بن الأشتر وانزل على المدينة العظمى أنطاكية، فإن بها الملك هرقل فإن صالحك فصالحه وإن حاربك فحاربه ولا تدخل الدروب، وأقول هذا وإن الأجل قد قرب. ثم كتب **«كل نفس ذاققت الموت»** [آل عمران: ١٨٥] ثم ختم الكتاب وطواه ودفعه إلى عبد الرحمن، وقال له: أنت كنت الرسول من الشام وأنت ترد الجواب فأخذته عبد الرحمن وسار على مطيته يطوي المنازل والمناهل إلى أن وصل إلى دمشق.

قال: حدثني نافع بن عميرة قال: لما بعث خالد بن الوليد الكتاب إلى أبي بكر الصديق ارتحل يريد دمشق، وكان أهلها قد سمعوا بقتل بطريقهم وأبطالهم وانهزام جيوشهم ومن أرسلهم الملك بأجنادين فخافوا وتحصنوا بدمشق وأعدوا آلة الحصار ورفعوا السيوف والطوارق وعلوا على الأسوار ونشروا الأعلام والسبلاب، فلما أخذوا على أنفسهم أشرف عليهم الأمير خالد بن الوليد والجيش قد زاد عمرو بن العاص في تسعه

آلاف ويزيد بن أبي سفيان في ألفين وشرحيل بن حسنة وعامر بن ربيعة في ألفين، وأقبل السوداد من ورائهم معاذ بن جبل في ألفين، فلما رأى أهل دمشق عسكر المسلمين مثل البحر الراخر أيقنوا بالهلاك، وأقبل خالد في جيش الزحف فنزل على الدير المعروف به، وبينه وبين المدينة أقل من ميل، فلما نزل هناك دعا بالأمراء فأحضرهم، فقال لأبي عبيدة: أنت تعلم ما ظهر لنا من غدر هؤلاء القوم عند اصراحتنا عنهم وخروجهم في أثربنا فامض بمن معك من أصحابك وانزل بهم على باب الجابية ولا تسمح للقوم بالأمن فيأخذوك بمكرهم ولتكن متبعاً عن الباب وابعث إليهم فوجاً بعد فوج، واجعل قتال الناس دولاً ولا يضيق صدرك من كثرة المقام ولا تبرح من مكانك واحذر من القوم الكافرين. فقال أبو عبيدة: حبّاً وكراهة، ثم إنه خرج حتى نزل بباب الجابية ونصب له بيئاً من الشعر بالبعد من الباب.

حول دمشق

قال الواقدي: حدثني مسلمة بن عوف عن سالم بن عبد الله عن حجاج الأنصاري. قال: قلت لجدي رفاعة بن عاصم، وكان ممن قاتل بدمشق، وكان في خيل أبي عبيدة فقلت: يا جده ما منع أبي عبيدة أن ينصب له قبة من بعض قبب الروم مما أخذه من أجنادين ومن بصرى، فقد كان عندهم ألف من ذلك، فقال: يا بني منهم من ذلك التواضع ولم يتنافسوا في زينة الدنيا وملكتها حتى ينظروا الروم أنهم لا يقاتلون طليقاً للملك، وإنما يقاتلون رجاء ثواب الله تعالى وطلب الآخرة ونصرة للدين ولقد كنا ننزل فننصب خيامنا وخيام الروم بالبعد. قال: فلما نزل أبو عبيدة على باب الجابية أمر أصحابه بالقتال. ثم إن خالداً استدعى بيزيد بن أبي سفيان، وقال له: يا يزيد خذ صاحبك وانزل على الباب الصغير واحفظ قومك، وإن خرج إليك أحد لا يكون لك به طاقة فابعث إلى حتى أنجدك إن شاء الله تعالى. ثم استدعى بشرحيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله ﷺ وقال له: انزل على باب توما. ثم توجه بقومه واستدعى بعمرو بن العاص وأمره أن يسير إلى باب الفراديس. ثم استدعى بعده بقيس بن هبيرة، وقال له: اذهب بقومك إلى باب الفرج. ثم نزل خالد إلى الباب الشرقي ودعا بضرار بن الأزور رضي الله عنه وضم إليه ألفي فارس، وقال له تطوف حول المدينة بعسكرك، وإن دهمك أمر أو لاحت لك عيون القوم فأرسل إلينا. قال ثم سار ضرار واتبعه قومه وبقي خالد على الباب الشرقي. ثم قدم عبد الرحمن بن حميد من المدينة بكتاب أبي بكر الصديق رضي الله عنه وعدل إلى ناحية خالد بن الوليد على الباب الشرقي وقد تقدم للقتال طائفة من أصحابه مع رافع بن عميرة. فلما رفع إليه الكتاب فرح بعد أن فرأه على المسلمين واستبشر بقدوم عمرو بن معد يكرب الزبيدي وأبي سفيان بن حرب. قال وشاع الخبر

عند جميع الناس وبعث خالد كتاب أبي بكر إلى كل باب فقرىء على الناس وبات الناس متأبهين للحرب يتحارسون إلى الصباح وضرار يطوف حولهم ولا يقف في مكان واحد مخافة أن يكبس بهم العدو.

قال الواقدي : ولقد بلغني أن أهل دمشق اجتمعوا إلى كبارهم من البلد وتشاوروا فيما بينهم . فقال بعضهم : ما لنا إلا الصلح ونعطي العرب جميع ما طلبوه منا ، وقال آخرون : ما نحن بأكثر من جموع أجنادين . فقال لهم بطريق من الروم : اطلبوا لنا صهر الملك توما نشاور في هذا الأمر لنسمع ما يقول ونطلب منه أن يكشف عنا ما نحن فيه فإذاما أن يصلحهم ، وإنما أن يحمي عنا . قال فمضى القوم إلى توما وعليه رجال موكلون بالسلاح ، فقالوا لهم : ما الذي تريدون ؟ فقالوا : نريد صهر الملك توما نشاوره في هذا الأمر . قال فأذنوا لهم فدخلوا عليه وقتلوا الأرض بين يديه . فقال لهم : ما الذي تريدون ؟ فقالوا : أيها السيد انظر ما نزل ببلادنا ، وقد جاءنا ما لا طاقة لنا به . فإذاما أن نصالح العرب على ما طلبو . وإنما أن نرسل إلى الملك فينجدنا أو يمانع عنا فقد أشرفنا على الهلاك ، فلما سمع ذلك منهم تبسم ضاحكا وقال : يا وليكم أطمعتم العرب فيكم وحق رأس الملك ما أرى القوم أهلاً للقتال ولا هم خاطرون لي على بال فلو فتح لهم الباب ما جسروا أن يدخلوا . فقالوا : أيها السيد إن أكبرهم وأصغرهم يقاتل العشرة والمائة وصاحبهم داهية لا تطاق . فإن كان ولا بد فآخرج بنا لقتالهم . فقال لهم توما : إنكم أكثر منهم ومدينتنا حصينة ولكم مثل هذا العدد والسلاح ، وأما القوم فهم حفاة عراة ، فقالوا له : أيها السيد إن معهم من عدتنا وأسلحتنا كثيراً مما أخذوه من واقعة فلسطين وما أخذوه من بصرى ومن يوم لقائهم بكلوس وعزازير وما أخذوه من أجنادين ، وأيضاً إن نبيهم قال لهم : إن من قُتل منا صار إلى الجنة فلأجل ذلك يبقون عراة الأجساد ليصلوا إلى ما قال لهم نبيهم . قال فضحك من قولهم ، وقال لهم : لأجل ذلك أطمعتم العرب فيما ولو صدقتم في الحرب والصدام لقتلتكم لأنكم أضعافهم مرازاً .

قالوا : أيها السيد اكفنا مؤونتهم كيف شئت ، واعلم أنك إن لم تمنعهم عنا ففتحنا لهم الأبواب وصالحناهم . فلما سمع توما كلامهم فَكَرْ طويلاً وخشي أن يفعل القوم ذلك . فقال : أنا أصرف عنكم هؤلاء العرب واقتل أميرهم وأريد منكم أن تقاتلوا معي . قالوا : نحن معك وبين يديك نقاتل حتى نهلك عن آخرنا . فقال لهم : باكروا القوم بالقتال فانصرفوا عنه وهم له شاكرون ولأمره متظرون ، وباتوا بقية ليتهم على الحصن وأصحاب رسول الله ﷺ في مواضعهم ولهم ضجة بالتهليل والتكبير والصلوة على البشير النذير ، وخالد بن الوليد عند الدير ومعه النساء والعبيال والأموال والغنائم التي غنموها من أعدائهم ، ورافع بن عميرة على الباب الشرقي في عسكر الزحف وغيرهم ولم يزل الناس

في الحرس إلى أن برق الصباح وصلى كل أمير بمن معه من قومه وصلى أبو عبيدة بمن معه . ثم أمر أصحابه بالزحف ، وقال لهم : لا تخلوا عن القتال واركعوا الخيل .

حدّثني رفاعة بن قيس ، قال : سألت والدي قيساً ، وكان ممن حضر فتوح دمشق الشام فقلت له : أكتم تقاتلون في دمشق خيالة أو رجاله يوم حصار المسلمين ، فقال : ما كان أحد مثنا فارسا إلا زهاء ألفي فارس مع ضرار بن الأزرور ، وهو يطوف بهم حول العسكر وحول المدينة وكلما أتى باباً من الأبواب وقف عنده وحرّض أهله على القتال ، وهو يقول صبراً صبراً لأعداء الله . قال وأقبل توماً صهر الملك هرقل من بابه الذي يدعى باسمه ، وكان عندهم عابداً راهباً ولم يكن في بلاد الشرك عبد منه ولا أزهد في دينهم وكان معظمًا عند الروم فخرج ذلك اليوم من قصره والصليب الأعظم على رأسه وعلا به فوق البرج وأوقف البطارقة حوله والإنجيل تحمله ذورو المعرفة قال ونصبوا بالقرب من الصليب ورفع القوم أصواتهم ، وتقدم توماً ووضع يده على أسطر من الإنجيل . وقال : اللهم إن كنا على الحق فانصرنا ولا تسلمنا لأعدائنا واخذل الظالم منا فإنك به عليم اللهم إننا نتقرب إليك بالصليب ومن صلب على دينه ، وأظهر الآيات الربانية والأفعال الالهوية انتصرا على هؤلاء الظالمين . قال وأنّ الناس على دعائه . قال رفاعة بن قيس : هكذا حدّثني شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله ﷺ والذي فسر لنا هذا الكلام روماس صاحب بصرى ، وكان في جيش شرحبيل بن حسنة يقاتل على باب توما ، وكلما قال الروم شيئاً بلغتهم فسره لنا . قال ونهض شرحبيل وقصد الباب بحملته ، وقد عظم عليه قول توما للعين ، وقال له : يا لعين لقد كذبت إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب أحياه متى شاء ورفعه متى شاء . ثم إن روماس ناوشه بالقتال ، فقاتل توما قتالاً شديداً وهشم الناس بالحجارة ورمى الشباب رميًّا متداركاً فجرح رجالاً ، وكان ممن جرح أبان بن سعيد بن العاص أصابته نشابة ، وكانت مسمومة فأحس بلهيب السم في بدنها فتأخر وحمله إخوانه إلى أن أتوا به إلى العسكر فأرادوا حل العمامة . فقال : لا تحلوها فإن حللت جرحي تبعتها روحي أما والله لقد رزقني الله ما كنت أتمناه . قال فلم يسمعوا قوله وحلوا عمamته . فلما حلوا شخص إلى السماء وصار يشير بإصبعيه أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله هذا ما وعد الرّحمن وصدق المرسلون ، مما استتمها حتى توفي إلى رحمة الله تعالى .

بطولة المرأة

وكانت زوجته بنت عمّه ، وكان قد تزوجها بأجنادين ، وكانت قريبة العهد من العرس ولم يكن الخضاب ذهب من يدها ، ولا العطر من رأسها ، وكانت من المترجلات البازلات من أهل بيت الشجاعة والبراعة ، فلما سمعت بموت بعلها أتته تتعثر في أذيالها ففتح الشام / ج ١ / م ٥

إلى أن وقعت عليه، فلما نظرته صبرت واحتسبت، ولم يسمع منها غير قولها هنت بـما أعطيت ومضيت إلى جوار ربك الذي جمع بيننا ثم فرق، ولأجهدن حتى الحق بك فإني لمتشوقة إليك، حرام علي أن يمسني بعدك أحد وإنني قد حبسني في سبيل الله عسى أن الحق بك وأرجو أن يكون ذلك عاجلاً، ثم حفر له ودفن مكانه قبره معروف، وصلى عليه خالد بن الوليد، فلما غاب في التراب لم تقف على قبره دون أن أتت إلى سلاحه ولحقت الجيش من غير أن تعلم خالد بذلك، وقالت: على أي باب قتل بعلي؟ فقيل لها: على باب توما والذي قتله هو صهر الملك، قال فسارت إلى أصحاب شرحبيل بن حسنة فاختلطت بهم، وقاتلت مع الناس قتالاً لم ير مثله، وكانت أرمي الناس بالنبل، وكان قد جعل لها قوس وكتانة. قال شرحبيل بن حسنة: رأيت يوم حصار دمشق رجلاً على باب توما يحمل الصليب وهو أمام توما، وهو يشير إليه اللهم انصر هذا الصليب ومن لاذ به، اللهم أظهر له نصرته وأعلى درجته، قال شرحبيل بن حسنة: وأنا دائمًا أنظر إليه إذ رمته زوجة أباد بنبلة فلم تخطئ رميها، وإذا بالصلب قد سقط من يده وهو إلى إلينا وكأنني أنظر لمعان الجوهر من جوانبه بما فينا إلا من بادر إليه ليأخذه وقد استتر بالدرق وتزاحم بعضنا على بعض كل منا يسبق إليه ليأخذه ونظر عدو الله توما إلى ذلك من تنكس الصليب الأعظم وإهوائه إلى المسلمين، فعند ذلك كفر وعظم عليه الأمر، وقال: يبلغ الملك أن الصليب الأعظم أخذ مني وملكته العرب، لا كان ذلك أبداً ثم إنه حزم وسطه وأخذ سيفه، وقال: من شاء منكم فليتبعني ومن شاء فليقصد فلا بد لي من القوم عسى أن أشفى صدري، ثم انحدر مسرعاً وأمر بفتح الباب، وكان هو أول مبادر. فلما نظرت الروم إلى ذلك لم يكن فيه إلا من انحدر في أثره لما يعلمون من شجاعته وخرجوا كالجراد المنتشر. هذا والمسلمون محيطون بالصلب، فلما خرج الروم ووقع صياغهم حذر الناس بعضهم بعضاً، فلما نظر المسلمون إلى الروم سلموا الصليب إلى شرحبيل بن حسنة وانفردوا لأعدائهم وحملوا في أعراضهم وأخذتهم الشاب والحجارة ومن كل مكان من أعلى الباب، فصاح شرحبيل بن حسنة: معاشر المسلمين تقهروا إلى ورائكم لتؤمنوا الشاب من أعداء الله العالين على الباب، قال فتقهقر الناس إلى ورائهم إلى أن أمنوا من ضرب الشاب فاتبعهم عدو الله توما، وهو يضرب يميناً وشمالاً وحوله أبطال المشركين من قومه، وهو يهدر كالجمل. فلما نظر شرحبيل بن حسنة ذلك صرخ بقومه، وقال: معاشر الناس كونوا آيسين من آجالكم طالبين جنة ربكم وأرضوا خالقكم بفعلكم. فإنه لا يرضى منكم بالفرار ولا أن تولوا الأدبار فاحملوا عليهم واقربوا إليهم بارك الله فيكم، قال فحمل الناس حملة منكرة واحتلط الناس بعضهم بعض وعملت بينهم السيوف وتراموا بالنبل، وتسامع أهل دمشق أن توما خرج إلى العرب من بابه وأن صليبه الأعظم سقط إليهم من كفت حامله فجعلوا يهرون إلى أن تزايد أمرهم وجعل عدو

الله ينظر يميناً وشمالاً وينظر الصليب فحانت منه التفاتة فنظر فرآه مع شرحيل بن حسنة، فلما نظر إليه لم يكن له صبر دون أن حمل وصاح: هات الصليب لا أم لك، فقد لحقتك يومئذ.

قال: ونظر شرحبيل بن حسنة إلى عدو الله، وهو مقبل فرمى الصليب من يده
وصادمه. فلما رأى عدو الله الصليب مرميًا على الأرض صرخ بأصحابه صرخة هائلة
ونظرت زوجة أبان بن سعيد إلى حملة عدو الله على شرحبيل. فقالت: من هذا؟ قيل:
هو صهر الملك، وهو قاتل بعلك أبان بن سعيد، فلما سمعت ذلك منهم حملت حملة
منكرة إلى أن قاربته ورمته بنبلة، وكان الروم أرببوها فلم تلتفت إليهم دون أن حفقت
نبالتها على أصحابها، وقالت: بسم الله وببركة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم أطلقتها، وكان عدو الله
واصلًا إلى شرحبيل إذ جاءته النبلة فأصابت عينه اليمنى فسكنت النبلة فيها فتفهقر إلى
ورائه صارخًا وهمت بأن ترميه بأخرى فتبادرت إليها الرجال واستتروا بالطوارق وتبادر
إليها قوم من المسلمين يحامون عنها، فلما أمنت من شر الأعداء أخذت ترمي بالنبل. ثم
إنها رمت علجلًا من الروم فأصابت صدره فسقط هاوياً إلى الأرض، وكان عدو الله أول
من تفهقر ذلك اليوم هارباً من شدة حرارة النبلة وصرخ صرخة عظيمة إلى أن دخل الباب
ونظر شرحبيل إلى ذلك فصرخ بأصحابه: يا ولكم دونكم وكلب الروم احملوا على
الكلاب عسى أن تدركوا عدو الله. قال فحمل الناس على الروم إلى أن أوصلوهم إلى
الباب فحملهم قومهم من أعلى الباب بالحجارة والنشاب. قال فتراجع الناس إلى
مواضعهم، وقد قتلوا من الروم مقتلة عظيمة وأخذوا أسلابهم وأموالهم وصلبيهم، ودخل
 العدو الله توما إلى المدينة وأغلقوا الأبواب وجاء الحكماء يعالجون في قلع النبلة من عينه
فلم تطلع فجذبوا فلم تنجدب، وهو يضج بالصرخ فلما طال على القوم ذلك
ولم يجدوا حيلة في إخراجها نشرواها وبقي النصل في عينه ولم تزل في مكانها وسألوه
المسيير إلى منزله فأبى وجلس داخل الباب إلى أن سكن ما به وخف عنه الألم، فقالوا
له: عد إلى متراك بقية ليتلتك، فقد نكتبنا في يومنا هذا نكتبين نكتة الصليب ونكتة عينك
كل هذا مما وصل إلينا من النبال، وقد علمنا أن القوم لا يصطلي لهم بنار، وقد سألناك
أن نصالح القوم على ما طلبوه منا، قال غضب توما من قولهم، وقال: يا ولكم يؤخذ
الصلبي الأعظم وأصاب يعني وأغفل عن هذا ويبلغ الملك عني ذلك فينسبني للوهن
والعجز ولا بد من طلبهم على كل حال وأخذ صليبيي وأخذ في عيني ألف عين منهم
وسأوقع حيلة أصل بها إلى كبيرهم وأخذ جميع ما غنموه وبعد ذلك أسير إلى أصحابهم
الذى هو في الحجاز وأقطع آثاره وأخرب دياره وأهدم مساكنه، وأجعل بلده مسكنًا
للحوش. ثم إن الملعون سار إلى أعلى السور، وهو معصوب العين وصار يحرض
الناس لكي يزيل عن قلوبهم الرعب وأقبل يقول لهم: لا تفزعوا ولا تجزعوا مما ظهر

لهم من العرب ولا بد للصلب أن يرميهم وأنا الضامن لكم. قال فثبت القوم من قومه وحاربوا حرباً شديداً وبعث شرحبيل بن حسنة إلى خالد بن الوليد يخبره بما صنع مع القوم. فقال الرسول: إن عدو الله توما قد ظهر لنا منه ما لم يكن في الحساب ونطلب منك رجالاً لأن الحرب عندها أكثر من كل باب، فلما سمع خالد ذلك الخبر حمد الله، وقال: كيف أخذتم الصليب من الروم؟ فقال الرسول: كان يحمل صليب الروم رجل وهو أمام توما صهر الملك فرمته زوجة أبان بنيلة فوق الصليب إلينا وخرج عدو الله فرمته زوجة أبان بنيلة فاشتictت في عين توما اليمنى.

قال خالد: إن توما عند الملك معظم وهو الذي يمنعهم عن الصلح ونرجو من الله أن يكفينا شره. ثم قال للرسول: عد إلى شرحبيل وقل له كن حافظاً ما أمرتك به فكل فرقة مشغولة عنك ولم تؤت من قبلهم وأنا بالقرب منك، وهذا ضرار بن الأزرور يطوف حول المدينة وكل وقت عندهك. قال فرجع الرسول فأخبره بذلك فصبر وقاتل بقية يومه ووصل الخبر إلى أبي عبيدة بما نزل بشرحبيل بن حسنة من توما وبما غنم من صليبه فسر بذلك، قال: ولما أصبح الصباح بعث توما إلى أكبر دمشق وأبطالهم. فلما حضروا بين يديه قال لهم: يا أهل دين النصرانية إنه قد طاف عليكم قوم لاأمان لهم ولا عهد لهم وقد أتوا يسكنون ببلادكم فكيف صبركم على ذلك وعلى هتك الحرير ونبي الأولاد وتكون نسااؤكم جواري لهم وأولادكم عبيداً لهم وما وقع الصليب إلا غضباً عليكم مما أضرتم لهذا الدين من مصالحة المسلمين وإذلالكم للصلب وأنا قد خرجت ولو لا أني أصبحت بعيوني لما عدت حتى أفرغ منهم ولا بد من أخذ ثأري وأن أقلع ألف عين من العرب ثم لا بد أن أصل إلى الصليب وأطالبهم به عن قريب. فلما سمعوا كلامه قالوا له: ها نحن بين يديك وقد رضينا بما رضيت لنفسك، فإن أمرتنا بالخروج خرجنا معك وإن أمرتنا بالقتال قاتلنا، فقال توما: اعلموا أن من خاض الحرب لم يخف من شيء وإنني قد عزمت على أن أهجم هذه الليلة وأكبسم في أماكنهم فإن الليل مهيب وأنتم أخبر بالبلد من غيركم فلا يبقى الليلة منكم أحد حتى يتأنق للحرب ويخرج من الباب وأرجو أن لا أعود حتى تنقضى الأشغال فإذا فرغت من القوم أخذت أميرهم أسيراً وأحمله إلى الملك يأمر فيه بأمره، فقالوا: حباً وكرامة فعند ذلك فرق القوم على الباب الشرقي فرقة وعلى باب الجاوية فرقة وعلى كل باب جماعة، وقال لهم: لا تجزعوا، فإن أمير القوم متبعده عنكم وليس هناك إلا الأراذل والموالي فاطحونهم طحن الحصيد. قال ودعا بفرقة أخرى إلى باب الفراديس إلى عمرو بن العاص وخرج توما من بابه وأخذ معه أبطال القوم ولم يترك بطلاً يعرف بالشجاعة إلا أخذه معه ورتب على الباب ناقوساً، وقال لهم: إذا سمعتم الناقوس فهي العلامة التي بيننا فافتتحوا الأبواب واخرجوا مسرعين إلى أعدائكم ولا تجدوا رجالاً نيااماً إلا وتضعون السيف فيهم. فإن فعلتم ذلك فرقتهم جمعهم

في هذه الليلة وانكسرت كسرة لا يجبرون بعدها أبداً، قال ففرح القوم بذلك وخرجوا إلى حيث أمرهم وقد عدت كل فرقة على بابها وأقاموا ينتظرون صوت الناقوس ليبدروا إلى المسلمين، قال ودعا توما برجل من الروم، وقال له: خذ ناقوساً واعلبه على الباب فإذا رأينا قد فتحنا الباب فاضرب الناقوس ضربة خفيفة يسمعها قومنا، وقد سار توما بقطعة من جيشه عليهم الدروع وبأيديهم السيوف وتوما في أوائلهم وببيده صفيحة هندية وألقى على رأسه بيضة كسرورية كان هرقل قد أهداها له، وكانت لا تعمل فيها السيوف القواطع حتى وصل إلى الباب، ثم وقف حتى تكامل القوم، فلما نظر إليهم قال يا قوم إذا فتحنا لكم الباب فأسرعوا إلى عدوكم وجدوا في سعيكم إلى أن تصلوا إلى القوم، فإذا وصلتم إليهم فاحملوا وملئوا السيوف فيهم ومن صاح منهم بالأمان فلا تبقوا عليه إلا أن يكون أمير القوم ومن أبصر منكم الصليب فليأخذه فقالوا: حباً وكراهة.

الفتال من فوق الأسور

ثم أمر رجلاً من أصحابه أن يسير إلى الذي بيده الناقوس ويأمره أن يضربه ضربة خفيفة ثم فتح الباب وتبارد الرجال إلى أصحاب رسول الله ﷺ وهم في غفلة مما دبر القوم لهم إلا أنهم في يقظة، فلما سمعوا الصوت أيقظ بعضهم بعضاً وتواثبت الرجال من أماكنهم كالأسود الضاربة فلم يصل إليهم العدو إلا وهم على حذر وحملوا عليهم وهم في غير ترتيب فتقاتل القوم في جنح الظلام وعمل السيف وسمع خالد بن الوليد فقام ذاهل العقل مما سمع من الرزقات فصاح: واغوثه واسلاماه كيد قومي ورب الكعبة، اللهم انظر لهم بعينك التي لا تنام وانصرهم يا أرحم الراحمين. وسار خالد ومن معه وهم أربعمائة فارس من أصحابه، وهو بغير درع قد ليس ثوب كنان من عمل الشام مكشوف الرأس. ثم جد في السير والأربعائة فارس معه كأنهم الليوث العوابس إلى أن وصلوا إلى الباب الشرقي وإذا بالفرقة التي هناك قد هاجمت أصحاب رافع بن عميرة الطائي. قال: وأصوات المسلمين عالية بالتهليل والتكبير، وال القوم من أعلى الأسوار قد أشرفوا وتصايرحوا عندما استيقظ لهم المسلمون فحمل خالد بن الوليد على الروم ونادي برج صوته أبشروا يا معاشر المسلمين أنا لكم الغوث من رب العالمين، أنا الفارس الصنديد، أنا خالد بن الوليد وحمل في أوساط الناس بمن معه فجندل أبطالاً وقتل رجالاً، وهو مع ذلك مشتعل القلب على أبي عبيدة والمسلمين الذين على الأبواب وهو يسمع أصواتهم وزعقاتهم، قال وتصاير الروم والنصارى واليهود.

قال سنان بن عوف: قلت لابن عمي قيس: هل كانت اليهود تقاتلوكم؟ قال: نعم يقاتلوننا من أعلى الأسوار ويرمون بالسهام وخشي خالد على شرحبيل بن حسنة مما وصل إليه من عدو الله توما لأنه ملازم الباب. وقال ولقي شرحبيل بن حسنة من عدو الله

توما أمراً عظيماً لم يلق أحد مثله وذلك أنه هجم عليه توما في تلك الليلة، وكان أول من وصل إلى المسلمين عدو الله توما قال: فصبروا له صبر الكرام وقاتل عدو الله قتالاً شديداً وهو ينادي: أين أميركم الذميم الذي أصابني أنا ركن الملك الرحيم، أنا ناصر الصليب. قال: فلما سمع شرحبيل صوته قصد جهته، وقد جرح رجالاً من المسلمين، وقال: ها أنا صاحبك وغريمك، أنا مبيد جمعكم وأخذ صليبيكم، أنا كاتب وحي رسول الله ﷺ فعطف عليه توما عطفة الأسد ورأى من شرحبيل بن حسنة أمراً هائلاً ولم يزالوا كذلك إلى أن زال من الليل شطره وكل قرن مع قرنه وكانت زوجة أبيان مع شرحبيل وكانت في تلك الليلة أحسن الناس صبراً ورمي بنالها، وكانت لا تقع نبلة من بنالها إلا في رجل من المشركين إلى أن قتلت من الروم مقتلة عظيمة بالتبال والروم يتحايدون عنها إلى أن لاح رجل من الروم فرمته بنبيلة فقيت معلقة في نحره. قال فصرخ بالروم فهاجموها وأخذوها أسيرة ومات عدو الله الذي رمته. قال: ولقي شرحبيل من الروم ما لا يلقاء أحد وإنه ضرب توما ضربة هائلة فتلقاها الملعون بدرقه فانكسر سيف شرحبيل فطمع عدو الله فيه وحمل عليه وظن أنه يأخذها أسيراً وإذا بفارسين قد أشرفوا من ورائهم مع كبكة من الفرسان فهجموا على الروم ونظروا وإذا بزوجة أبيان قد خلصت وهجمت على الروم وهتفت فللحقها فارسان فبرز لهم عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأبيان بن عثمان بن عفان رضي الله عنه فقتلوا الرجلين ورجع عدو الله توما هارباً إلى المدينة.

قال: حدثني تميم بن عدي، وكان من شهد الفتوحات. قال: كنت في خيمة أبي عبيدة وذلك أن أبو عبيدة كان يصلى فيها إذ سمع الصياح. فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ثم لبس سلاحه ورتب قومه ودنا من القوم فنظر إليهم وهو في المعمعة وال الحرب وعدل عنهم ميسرة وميسنة إلى أن جاوزهم وعطف نحو الباب وكثير وكثير المسلمين، فلما سمع المشركون تكبيرهم ظنوا أن المسلمين قد دهموهم من ورائهم في جمع كثير فولوا راجعين فتلقاهم أبو عبيدة وقومه وأخذوا عليهم المجاز وبذل أبو عبيدة السيف فيهم.

قال الواقدي: ولقد بلغني أنه ما سلم من الروم تلك الليلة أحد من الذين هم غراماء أبي عبيدة ولقد قتلوا عن آخرهم فيما هم في القتال إذ أشرف عليهم ضرار بن الأزرر، وهو ملطخ بالدماء. فقال له خالد: ما وراءك يا ضرار؟ فقال: أبشر أيها الأمير ما جئتكم حتى قتلت في ليلي هذه مائة وخمسين رجلاً وقتل قومي ما لا يعد ولا يحصى، وقد كفيتكم مؤنة من خرج من الباب الصغير إلى يزيد بن أبي سفيان، ثم عطفت إلى سائر الأبواب فقتلت خلقاً كثيراً قال فسر بذلك خالد بن الوليد، ثم ساروا جميعاً حتى أتوا

شرحبيل بن حسنة وشكروا فعله وكانت ليلة مقمرة ولم يلق مثلها الناس فقتلوا في تلك الليلة ألفاً من الروم قال فاجتمع كبار أهل دمشق إلى توما وقالوا له: أيها السيد إنا قد نصحناك فلم تسمع لقولنا وقد قتل منا أكثر الناس وهذا أمير لا يطاق، يعني خالد بن الوليد فصالح فهو أصلح لك ولنا وإن لم تصالح صالحنا وأنت شأنك. فقال: يا قوم أمهلوني حتى أكتب إلى الملك وأعلمه بما نزل بنا، فكتب من وقته و ساعته كتاباً يقول فيه: إلى الملك الرحيم من صهرك توما، أما بعد فإن العرب محدثون بنا بإحداث البias بسواد العين، وقد قتلوا أهل أجنادين ورجعوا إلينا وقد قتلوا منا مقتلة عظيمة، وقد خرجت إليهم وأصيّبت عيني، وقد عزّمت على الصلح ودفع الجزية للعرب فإما أن تسير بنفسك، وإما أن ترسل لنا عسكراً تتجدنا بهم، وإما أن تأمرنا بالصلح مع القوم، فقد تزايد الأمر علينا ثم طوى الكتاب وختمه وبعث به قبل الصباح . . .

فلما أصبح الصباح باكرهم المسلمين بالقتال . . . ويعث خالد لكل أمير أن يزحف من مكانه فركب أبو عبيدة ووقع القتال واشتد الأمر على أهل دمشق فبعثوا لخالد أن أمهلنا فأبى إلا القتال ولم يزل كذلك إلى أن ضاق بهم الحصار وهم ينتظرون أمر الملك واجتمع أهل البلد وقالوا لبعضهم: ما لنا صبر على ما نحن فيه من الأمر وإن هؤلاء إن قاتلناهم نصرنا علينا وإن تركناهم أضر بنا الحصار فاطلبوا من القوم صلحًا على ما طلبوه منكم، فقال لهم شيخ كبير من الروم وقدقرأ الكتب السالفة: يا قوم والله إني أعلم أنه لو أتى الملك في جيشه جميعاً لما منعوا عنكم هؤلاء لما قرأت في الكتاب إن صاحبهم محمداً خاتم المرسلين سيظهر دينه على كل دين فأطاعوا القوم وأعطوه ما طلبوه منكم فهو أوفق لكم، فلما سمع القوم مقالات الشيخ رکنوا إليه لما يعلمون من علمه ومعرفته بالأخبار والملاحم. فقالوا: كيف الرأي عندك؟ فنحن نعلم أن هذا الأمير الذي على باب شرقى رجل سفاك للدماء. فقال لهم: إن أردتم تقارب الأمر فامضوا إلى الذي على باب الجاوية، وليتكلم رجل يعرف بالعربية، ويقول بصوت رفيع، يا معاشر العرب الأمان حتى ننزل إليكم ونتكلم مع أصحابكم. قال أبو هريرة رضي الله عنه: وكان أبو عبيدة قد أنفذ رجالاً من المسلمين مكتشا بالقرب من الباب مخافة الكبسة مثل الليلة التي خلت، وكانت النوبة تلك الليلة لبني دوس والأمير عليها عامر بن الطفيلي الدوسي. قال فيبينما نحن جلوس في مواضعنا من الباب إذ سمعنا أصوات القوم وهو ينادون قال أبو هريرة، فلما سمعت بأدرت إلى أبي عبيدة قال وبشرته بذلك فاستبشر وقال: امض وكلم القوم وقل لهم لكم الأمان، قال فأتيت القوم وبشرتهم بالأمان فقالوا: من أنت؟

فقلت: أنا أبو هريرة صاحب رسول الله ﷺ ولو أن عبيداً أعطوكم الأمان والذمام ونحن في الجاهلية لما غدرنا فكيف وقد هدانا الله إلى دين الإسلام. قال فنزل القوم

وفتحوا الباب وإذا هم مائة رجل من كبرائهم وعلمائهم فلما قربوا من عسكر أبي عبيدة تبادر إليهم المسلمون وأزالوا عنهم الصليب إلى أن وصلوا خيمة أبي عبيدة فرحب بهم وأجلسهم وقال: إن نبينا محمدًا ﷺ قال: «إذا أناكم عزيز قوم فأكرموه» وتكلموا في أمر الصلح وقالوا: إنا نريد منكم أن تتركوا كنائسنا ولا تنقضوا علينا منها كنيسة وهي الجامع الآن بدمشق، فقال لهم أبو عبيدة: جميع الكنائس لا يؤمر بهدمها قال: وكان في دمشق كنائس واحدة تسمى كنيسة مريم وكنيسة حنا وكنيسة سوق الليل وكنيسة إنذار، وهي عند دار عبد الرحمن ذرة فكتب لهم أبو عبيدة كتاب الصلح والأمان ولم يسم فيه اسمه ولا أثبت شهودًا بذلك، لأنه لم يكن أمير المؤمنين، فلما كتب لهم الكتاب تسلمه منه وقالوا له: قم معنا إلى البلد. قال: فقام أبو عبيدة وركب معه أبو هريرة ومعاذ بن جبل ونعميم بن عمرو وعبد الله بن عمرو الدوسي وذو الكلاع الحميري وحسان بن النعمان وجرير بن نوفل الحميري وسيف بن سلمة ومعمور بن خليفة وريعة بن مالك والمغيرة بن شعبة وأبو لبابة بن المنذر وعرف بن ساعدة، وعامر بن قيس، وعبادة بن عتيبة، وبشر بن عامر، وعبد الله بن قرط الأسدي وحملتهم خمسة وثلاثون صحابيًّا من أعيان الصحابة رضي الله عنهم، وخمسة وستون من أخلاق الناس فلما ركبوا وتقذموا نحو الباب. قال أبو عبيدة: أريد منكم رهائن حتى ندخل معكم فأتوه برهائن، وقيل إن أبا عبيدة رأى في منامه أن رسول الله ﷺ يقول له: تفتح المدينة إن شاء الله تعالى في هذه الليلة، فقلت: يا رسول الله أراك على عجل قال: لأحضر جنازة أبي بكر الصديق. قال: فاستيقظت من المنام.

قال الواقدي: وقد بلغني أن أبا عبيدة لما دخل دمشق بأصحابه سارت القسس والرهبان بين يديه على مسرح الشعر وقد رفعوا الإنجيل والمبخر بالند والعود، ودخل أبو عبيدة من باب الجابية ولم يعلم خالد بن الوليد بذلك لأنه شد عليهم بالقتال. قال وكان هناك قسيس من قسس الروم اسمه يونس بن مرقص وكانت داره ملاصقة للسور مما يلي باب شرقى الذي عنده خالد وكان عنده ملاحم دانيال عليه السلام وكان فيها: إن الله تعالى يفتح البلاد على يد الصحابة ويعلو دينهم على كل دين، فلما كانت تلك الليلة نقب يونس من داره وحرف موضعًا وخرج على حين غفلة من أهله وأولاده وقصد خالدًا وحدثه أنه خرج من داره وحرف موضعًا والآن أريد أمانتا لي ولأهلني ولأولادي قال فأخذ خالد عهده على ذلك وأنفذ معه مائة رجل من المسلمين أكثرهم من حمير، وقال لهم: إذا وصلتم المدينة فارفعوا أصواتكم بأجمعكم واقصدوا الباب واكسرعوا الأقفال وأزيلوا السلاسل حتى تدخلوا إن شاء الله تعالى. قال ففعل القوم ما أمرهم به خالد رضي الله عنه وساروا ومضى أمامهم يونس بن مرقص حتى دخل بهم من حيث خرج. فلما حطوا في داره تدرعوا واحترسوا ثم خرجوا وقصدوا الباب وأعلنوا بالتكبير. قال فلما سمع

المشركون التكبير ذهلاً وعلموا أن أصحاب رسول الله ﷺ حطوا معهم في المدينة، وأن أصحاب رسول الله ﷺ قصدوا الباب وكسروا الأقفال وقطعوا السلاسل، ودخل خالد بن الوليد ومن معه من المسلمين ووضعوا السيف في الروم وهو مختلفون بين يديه إلى أن وصل إلى كنيسة مريم وخالد بن الوليد يأسر ويقتل.

قال الواقدي: والتقي الجمعان عند الكنيسة جيش خالد وجيش أبي عبيدة وأصحابه سائرون والرهبان سائرون بين أيديهم وما أحد من أصحاب أبي عبيدة جزء سيفه، فلما نظر خالد إليهم ورأى أن لا أحد منهم جزء سيفه بهت وجعل ينظر إليهم متعجبًا. قال فنظر إليه أبو عبيدة وعرف في وجهه الإنكار. فقال: أبا سليمان قد فتح الله على يدي المدينة صلحًا وكفى الله المؤمنين القتال.

قال الواقدي: ما خاطب أبو عبيدة خالدًا يوم الفتح بدمشق إلا بالإمارة. فقال: أيها الأمير قد تم الصلح. فقال خالد: وما الصلح؟ لا أصلح الله بالهم وأتى لهم الصلح وقد فتحتها بالسيف، وقد خضبت سيف المسلمين من دمائهم وأخذت الأولاد عبيداً وقد نهيت الأموال. فقال أبو عبيدة: أيها الأمير اعلم أنني ما دخلتها إلا بالصلح. فقال له خالد بن الوليد: إنك لم تزل مغفلًا وأنا ما دخلتها إلا بالسيف عنوة وما بقي لهم حماية فكيف صالحتهم. قال أبو عبيدة: اتق الله أيها الأمير، والله لقد صالحتم القوم ونفذتم السهم بما هو فيه وكتبت لهم الكتاب وهو مع القوم. فقال خالد: وكيف صالحتمهم من غير أمري وأنا صاحب رايتك والأمير عليك ولا أرفع السيف عنهم حتى أنتيهم عن آخرهم. فقال أبو عبيدة: والله ما ظنت أنك تخالفني إذا عقدت عقدًا ورأيت رأياً فالله في أمري، فوالله لقد حقت دماء القوم عن آخرهم وأعطيتهم الأمان من الله جل جلاله وأمان رسول الله ﷺ وقد رضي من معي من المسلمين، والغدر ليس من شيءنا. قال وارتفع الصياح بينهما وقد شخص الناس إليهما وخالد مع ذلك لا يرجع عن مراده، ونظر أبو عبيدة إلى ذلك فرأى أصحاب رسول الله ﷺ مع خالد وهم جيش البوادي من العرب مشتبكون على قتال الروم ونهب أموالهم. قال فنادى أبو عبيدة واثكلاه خفرت والله ونقض عهدي وجعل يحرك جواده ويشير إلى العرب مرة يميناً ومرة شماليًا وينادي: معاشر المسلمين أقسمت عليكم برسول الله ﷺ أن لا تمدوا أيديكم نحو الطريق الذي جئت منه حتى نرى ما نتفق أنا وخالد عليه، فلما دعاهم بذلك سكتوا عن القتل والنهب واجتمع إليهما فرسان المسلمين والأمراء وأصحاب الرأيات مثل معاذ بن جبل رضي الله عنه ويزيد بن أبي سفيان رضي الله عنه وعمرو بن العاص رضي الله عنه وشريحيل بن حسنة رضي الله عنه وربيعة بن عامر رضي الله عنه وعبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم أجمعين ونظائرهم، والتقووا عند الكنائس

وأجتمع هناك فرسان للمشورة والمناظرة. فقالت طائفة من المسلمين منهم معاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان: الرأي أن تمشي إلى ما أمضاه أبو عبيدة بن الجراح وتكتفوا عن القتال للقوم. فإن مدن الشام لم تفتح أبداً، وهرقل في أنطاكية كما تعلمون، وإن علم أهل المدن صالحتم وغدرتم لم تفتح لكم مدينة صلحًا ولأن تجعلوا هؤلاء الروم في صالحكم خير من قتلهم، ثم قالوا لخالد: أمسك عليك ما فتحت بالسيف ويعينك أبو عبيدة بجانبه واكتبا إلى الخليفة وتحاكموا إليه، فكل ما أمر به فعلناه، فقال لهم خالد بن الوليد: قد أجبت إلى ذلك وقبلت مشورتكم، فأما أهل دمشق فقد أمنتهم إلا هذين اللعينين توما وهربيس وكان هربيس هو المؤمر على نصف البلدة ولاه توما حين رجع الأمر إليه. فقال أبو عبيدة: إن هذين أول من دخل في صلحي فلا تخفر ذمي رحمة الله تعالى. فقال خالد: والله لو لا ذمامك لقتلتهما جميعاً، ولكن يخرجان من المدينة فلنعملهما الله حيث سارا.

قال أبو عبيدة: وعلى هذا صالحتما. قال ونظر توما وهربيس إلى خالد وهو يتنازع مع أبي عبيدة فخافوا الهلاك فأقبلوا على أبي عبيدة ومعهما من يترجم عندهما وقال له: ما يقول هذا - يعني خالد - . قال الترجمان لأبي عبيدة: ما تقول أنت وصاحبك فيه من المشورة: إن صاحبك هذا يريد غدرنا فنحن وأهل المدينة دخلنا في عهدهم ونقض العهد ما هو من شيمكم، وإنني أسألكم أن تدعوني أن أخرج أنا وأصحابي وأسلك أي طريق أردت. فقال: أنت في ذمتنا فاسلك أي طريق شئت، فإذا صرت في أرض تملكونها فقد خرجت من ذمتنا أنت ومن معك. فقال توما وهربيس: نحن في ذمتكم وجواركم ثلاثة أيام أي طريق سلكنا، فإذا كان بعد ثلاثة أيام فلا ذمة لنا عندكم، فمن لقينا منكم بعد ثلاثة أيام وظفر بنا فنحن لهم عبيد إن شاء أسرنا وإن شاء قتلنا. فقال خالد: قد أجبناك إلى ذلك، لكن لا تحملوا معكم من هذا البلد إلا الزاد الذي تقوتون به. قال أبو عبيدة لخالد: هذا كلام داع لنقض العهد والصلح إنما وقع بيننا أنهم يخرجون برجالهم وأموالهم. فقال خالد: سمحت لهم بذلك إلا الحلقة يعني السلاح فإني لا أطلق لهم شيئاً من ذلك. فقال توما: لا بد لنا من السلاح نمنع به عن أنفسنا في طريقنا إن طرقنا طارق حتى نصل إلى بلدنا، وإن فتحن بين أيديكم فاحكموا علينا بما أردتم. فقال أبو عبيدة: أطلق لكل واحد قطعة من السلاح إن أخذ سيفاً فلا يأخذ رمحاً، وإن أخذ رمحًا فلا يأخذ سيفاً، وإن أخذ قوساً فلا يأخذ سكيناً. فقال توما لما سمع منهم ذلك الكلام: قد رضينا بذلك وما يريد كل واحد منا إلا قطعة من السلاح لا غير، ثم قال توما لأبي عبيدة: إني خائف من هذا الرجل يعني خالد بن الوليد فليكتب لي بذلك قال أبو عبيدة: ثكلتك أمرك إنا معاشر العرب لا نغدر ولا نكذب وإن الأمير أبا سليمان قوله قول وعده عهد ولا يقول إلا الصدق. قال فانطلق توما وهربيس يجمعان قومهما

ويأمرانهم بالخروج . قال وكان الملك له خزانة دبياج في دمشق فيها زهاء من ثلاثةمائة حمل دبياج وحلل مذهبة فعزم على إخراجها وأمر توما فضربت له خيمة من الفرز ظاهر دمشق وأقبلت الروم تخرج الأمتعة والأموال والأحمال حتى أخرجوا شيئاً عظيماً، فنظر خالد بن الوليد إلى كثرة أحمالهم . فقال: ما أعظم رحالهم، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفِرُ بِالرَّحْمَنِ لَبِيوْتِهِمْ سَقْفًا مِّنْ فَضْلَةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣] الآية، ثم نظر خالد إلى القوم كأنهم حمر مستنفرة ولم يلتفت أحد إلى أخيه من شدة عجلتهم ، فلما نظر خالد إلى ذلك رفع يديه إلى السماء ، وقال: اللهم اجعله لنا وملائكتنا إياه واجعل هذه الأمتعة قوتاً للمسلمين أمين إنك سميع الدعاء ، ثم أقبل على أصحابه وقال لهم: إني رأيت أنا رأياً فهل أنتم تتبعوني عليه؟ فقالوا: نتبعك ولا نخالف لك أمراً، فقال خالد: قوموا بخيلكم حق القيام وأحسنوا إليها ما استطعتم وانجزوا سلاحكم فإني أسير بكم بعد ثلاثة أيام في طلب هؤلاء القوم وأرجو من الله أن يغنمنا هذه الغنية والأموال التي رأيتها . وإن نفسي تحذرني أن القوم ما تركوا في دمشق متاعاً ولا ثواباً حسناً إلا وقد أخذوه معهم .

قالوا: أفعل ما تريده مما نخالف لك أمراً، ثم أخذوا في إصلاح شأنهم ، وتوما وهربيس قد جمعوا مال الرساتيق وجميع المال ، فلما جمعوه جاءوا به إلى أبي عبيدة . فقال لهم: وفيتم بما عليكم فسيروا حيث شئتم فلكم الأمان منا ثلاثة أيام . قال يزيد بن ظريف: فلما سلموا المال لأبي عبيدة ارتحلوا سائرين كأنهم سواد مظلم ، وكان قد خرج من القوم خلق كثير من أهل دمشق بأولادهم وكرهوا أن يكونوا في جوار المسلمين . قال واشتغل خالد عن اتباعهم بخلاف وقع بينهم وبين أهل دمشق في حنطة وشعير وجدوا في المدينة منه شيئاً كثيراً . فقال أبو عبيدة: هو للقوم دخل في صلحهم فكادت الفتنة أن تثور بين أصحاب خالد وبين أصحاب أبي عبيدة ، واتفق رأيهم أن يكتبوا كتاباً إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه في ذلك وليس عندهم خبر أنه مات يوم دخولهم دمشق .

قال عطيية بن عامر: كنت واقفاً على باب دمشق في اليوم الذي سارت فيه الروم مع توما وهربيس ومعهم ابنة الملك هرقل . قال فنظرت إلى ضرار بن الأزور وهو ينظر إلى القوم شرزاً ويتحسن على ما فاته منهم ، فقللت له: يا ابن الأزور ما لي أراك كالمتحسر أما عند الله أكثر من ذلك؟ فقال: والله ما أعني مالاً وإنما أنا منافق على بقائهم وإنفلاتهم مثناً، ولقد أساء أبو عبيدة فيما فعل بالمسلمين . فقللت: يا ابن الأزور ما أراد أمني الأمة إلا خيراً للمسلمين أن يحقن دمائهم وأذواجهم من تعب القتال فإن حرمة رجل واحد خير مما طلعت عليه الشمس ، وإن الله سبحانه وتعالى أسكن الرحمة في قلوب المؤمنين وإن الرب يقول في بعض الكتب المترفة إن الرب لا يرحم من لا يرحم .

وقال تعالى: **«والصلح خير»** [النساء: ١٢٨]. فقال ضرار: لعمري إنك لصادق، ولكن أشهدوا عليّ أني لا أرحم من يجعل له زوجة وولداً.

قال: حدثني عمر بن عيسى عن عبد الواحد بن عبد الله البصري عن وائلة بن الأسعق. قال: كنت مع خالد بن الوليد في جيش دمشق، وكان قد جعلني مع ضرار بن الأزور في الخيل التي تجوب من باب شرقى إلى باب توما إلى باب السلامة إلى باب الجابية إلى باب الصغير إلى باب قيان إذ سمعنا صرير الباب وذلك قبل فتوح الشام وإذا به قد خرج منه فارس فتركناه حتى قرب منا فأخذناه قبضاً بالكاف وقلنا: إن تكلمت قتلناك فسكت وإذا قد خرج فارس آخر قام على الباب وجعل ينادي بالذى قد أخذناه، فقلنا له: كلمه حتى يأتي. قال فرطن له بالروميه إن الطير في الشبكة فعلم أنه قد أسر فرجع وأغلق الباب. قال فأردنا قتله، فقال بعضنا: لا تقتلوه حتى نمضي به إلى خالد الأمير. قال فأتينا به خالدًا، فلما نظر إليه قال له: من أنت؟ قال له: أنا من الروم وإنني تزوجت بجارية من قومي قبل نزولكم عليهم وكانت أحبها، فلما طال علينا حصاركم سالت أهلها أن يزفوها عليّ فأبوا ذلك، وقالوا إن بنا شغالاً عن زفافك وكانت أحب أن ألقاها ولنا في المدينة ملاعب نلعب فيها فوعدتها أن نخرج إلى الملاعب فخرجت وتحدثنا فسألتني أن أخرج بها إلى خارج المدينة ففتحنا الباب وخرجت أنظر أخباركم فأخذني أصحابك فنادتني. قلت: إن الطير وقع في الشبكة احذرها منكم مخافة عليها ولو كان غيرها لهان عليّ ذلك. فقال خالد: ما تقول في الإسلام؟ فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فكان يقاتل معنا قتالاً شديداً، فلما دخلنا المدينة صلحًا أقبل يطلب زوجته. فقيل له: إنها لبست ثياب الرهبانية فأقبل إليها وهي لا تعرفه. فقال لها: ما حملك على الرهبانية؟ قالت: حملني على ذلك أني غرت بزوجي حتى أخذته العرب وترهبت حزناً عليه. قال: أنا زوجك وقد دخلت في دين العرب. قال فلما سمعت ذلك قالت: وما تريد؟ قال: أن تكوني في الدمة. فقالت: وحق المسيح لا كان ذلك أبداً وما لي إلى ذلك سبيل، وخرجت مع الطريق توماً، فلما نظر إلى امتناعها أقبل إلى خالد بن الوليد فشكاه له حاله.

قال له خالد: إن أبا عبيدة فتح المدينة صلحًا ولا سبيل لك إليها ولما علم أن خالدًا يسير وراء القوم. فقال: أسيير معه لعلي أقع بها وأقام خالد بدمشق إلى اليوم الرابع، ثم أقبل إليه يونس الدمشقي زوج الجارية وقال: أيها الأمير قد عزمت على المسير في طلب هذين اللعينين توماً وهربيس وأخذ ما معهما قال: بلى. فقال له: وما الذي أقدرك عن ذلك؟ قال: بعد القوم وبيننا وبينهم أربعة أيام بلياليها وهم يسيرون سير الخوف ما يمكن اللحاق بهم. فقال يونس: إن كان تختلفك بعد المسافة بيننا وبينهم فأننا

أعرف الديار وأسلك طريقاً فنلحقهم إن شاء الله تعالى، ولكن البسو زمي لخم وجذام وهو العرب المتنصرة وخذوا الزاد وسيراً. قال فسار خالد وأخذ عساكر الزحف وهم أربعة آلاف فارس فأمرهم أن يسيروا ويخففوا حمل الزاد ففعلوا ذلك، وخالد ومن معه قد ساروا ويونس الدليل أمامهم وهو يتبع آثار القوم وقد أوصى خالد أبا عبيدة على المدينة وال المسلمين. قال زيد بن طريف: وكان يonus دلينا. قال فرأى آثار القوم وأنهم إذا سقط منهم حمل جمل تركوه، وسار خالد ومن معه كلما دخلوا بلدًا من بلاد الروم ينظرون أنهم من العرب المتنصرة من لخم وجذام حتى أشرف بهم الدليل على ساحل البحر ونوى أن يطلب الآخر وإذا بالقوم قد عدوا أنطاكية ولم يدخلوها خيفة الملك. قال فوقع للدليل عند ذلك حيرة في أمره فعدل إلى قرية هناك، وسأل بعضًا من الناس فأخبروه أن الخبر قد اتصل إلى الملك بأن توما وهربيس قد سلما دمشق للعرب فنقم عليهم ولم يدعهما يأتيان إليه، وذلك أنه جمع الجيوش وأرسلها إلى اليرموك فخاف أن يتهدّوا بشجاعة العرب أصحاب رسول الله ﷺ فتضعضع قلوبهم فبعث إلى توما ومن معه أن يسيروا إلى القسطنطينية، فلما علم يonus أن القوم عدلوا وأخذوا في طلب التحذير فكر في ذلك غاب عن المسلمين فوق خالد وصلّى بالناس وإذا يonus قد أقبل وقال: أيها الأمير إني والله قد غررت بكم وبلغت الغاية في الطلب. قال خالد: وكيف الأمر؟ قال: أيها الأمير تباغني في آثارهم في هذا المكان رجاء أن أتحقق، وأن الملك منهم من الدخول إلى أنطاكية لثلا يرعبوا عسكره وأمرهم أن يطلبوا القسطنطينية، وقد فطع بينكم وبينهم هذا الجبل العظيم وأتم في جبل هرقل وهو يجمع عسكره ويسير إلى حربكم وإني خائف عليكم إن تركتم هذا الجبل خلف ظهوركم هلكتم وبعد هذا فالأمر إليك وكل ما أمرتني به فعلت. قال ضرار بن الأوزور: فرأيت خالداً وقد انتفع لونه كالخضاب... وكان ذلك منه جزعاً وما عهدت به ذلك. فقلت: يا أمير على ماذا عولت؟ فقال: يا ضرار والله ما فزعت من الموت ولا من القتل، وإنما خفت أن يؤتى المسلمين من قبلـي وإنـي رأـيت قبل فتح دمشق منـاماً أفزعني وأنا متـظر تـأـيله وأرجـو أن يجعل الله لنا خـيراً وينـصرـنا على عـدوـنا. فقال ضرار: خـيراً رأـيت و خـيراً يـكون إن شـاء الله تعالى فـما الـذي رـأـيت؟ قال: رـأـيت المسلمين في بـرـية قـفـرة ونـحن سـائـرون فـيـنـما نـحـن كـذـلـك وـإـذـا بـقـطـيعـ منـ حـمـرـ الوحـشـ كـثـيرـة عـظـيمـة أـجـسـامـها مـهـزـولـة أـخـفـافـها وـهـي لا تـكـدـم بـرـمـاحـنا وـنـحـن نـصـرـبـها بـأـسـيـافـنا وـهـي لا تـكـتـرـث فـيـنـما نـزـلـ بـهـا مـاـلـأـتـ الـأـذـى وـلـاـ تـهـلـعـ مـاـيـنـزلـ فـلـمـ نـزـلـ مـثـلـ ذـلـكـ حتـىـ أـجـتـهـدـناـ وـاجـتـهـدـتـ خـيـولـنـاـ وـأـنـيـ أـقـبـلـ عـلـىـ أـصـحـابـيـ وـفـرـقـتـهـمـ عـلـيـهـاـ منـ أـرـبـعـةـ جـوـانـبـ الـبـرـيةـ وـحـمـلتـ عـلـيـهـمـ فـجـفـلـتـ مـنـ أـيـدـيـنـاـ إـلـىـ مـضـايـقـ وـتـلـالـ وـأـوـدـيـةـ خـصـبـةـ فـلـمـ نـأـخـذـ مـنـهـاـ إـلـاـ يـسـيرـ فـيـنـماـ نـحـنـ نـطـبـخـ وـنـشـوـيـ لـحـومـهـاـ وـإـذـاـ هـيـ قـدـ رـجـعـتـ تـطـلـبـ الـحـرـبـ مـنـاـ،ـ فـلـمـ نـظـرـتـ إـلـيـهـاـ وـقـدـ طـرـحـتـ الـمـضـايـقـ وـالـأـجـامـ صـحـتـ بـالـمـسـلـمـيـنـ اـرـكـبـواـ فـيـ طـلـبـهـاـ بـارـكـ اللـهـ

فيكم فاستوى المسلمين على خيولهم وركبت معهم وطلبناها حتى وقعت بها وتصيدت منها بغيراً عظيماً فقتلته فجعل المسلمين يقتلونه وتصيدونه فما بقي منها إلا اليسير في بينما أنا فرح وأنا أريد الرجوع بال المسلمين إلى وطنهم إذ عثرت فرسي فطارت عمانتي من على رأسى فهو يت لأخذها فاتبهت من منامي وأنا فزع مروع، فهل فيكم أحد يفسره؟ فإني أقول الرؤيا ما نحن فيه. قال فصعب ذلك على القوم وجعل خالد يراود نفسه على الرجوع.

فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: أما تفسير الوحش فهو لاء الأعاجم الذين نحن في طلتهم، وأما سقوطك عن فرسك فإنه أمر تحيط عليه من رفعه إلى خفصة، وأما سقوط العمامة عن رأسك فالعمائم تيجان العرب وهي معرة تلحقك. فقال خالد: أسأله العظيم إن كان ذلك تأويل ما رأيته أن يجعله من أمر الدنيا ولا يجعله من أمر الآخرة وبإله استعين وعليه أتوكل في كل الأمور. قال ثم سار خالد والدليل أمامهم حتى قطعوا الجبل، فلما كانت الليلة التي أرداها أن نصبع فيها القوم أتى مطر كأفواه القرب وكان من توفيق الله عز وعلا أن جبس القوم عن المسير. قال روح بن طريف رضي الله عنه، ولقد رأينا ونحن نسير والمطر ينزل علينا كأفواه القرب طول ليتلتنا، فلما أصبح الصباح وطلعت الشمس قال يونس: أيها الأمير قف حتى أنظر القوم لأنهم لا شك بالقرب منا وقد سمعت صياحهم. فقال له خالد بن الوليد: أحقاً سمعت صياحهم يا يونس؟ قال: نعم أيها الأمير وأريد منك أن تأذن لي بالمسير إليهم واتيك بخبرهم. قال فعند ذلك التفت خالد بن الوليد إلى رجل اسمه المفرط بن جعدة. قال له: يا مفرط سر مع يونس وكن له مؤنساً واحذر أن يأخذ خبركما القوم فقال المفرط: السمع والطاعة الله ولك أيها الأمير، ثم انطلقا إلى أن صعدا على جبل يقال له الأبرش والروم تسميه جبل باردة. قال المفرط: فلما علمنا عليه وجدنا مرجاً واسعاً كثيرة الجنبات كثيرة النبات وفيه خضرة عظيمة، وإن القوم قد أصابهم المطر حتى بل رحالهم وقد حميت عليهم الشمس فخافوا إتلافها فأخرجوها وأخرجوا الديباج ونشروها في طول المرج، وقد نام أكثرهم من شدة السير والتعب والمطر الذي أصابهم. قال المفرط بن جعدة: فلما رأيت ذلك فرحت فرحاً شديداً ورجعت إلى خالد بن الوليد وتركت صاحبي يونس، فلما رأني خالد وحدى أسرع إلى وظن أن صاحبي كيد. فقال: ما وراءك يا ابن جعدة أخبرني وعجل بالخبر. قلت: الخبر والغنية يا أمير وإن القوم خلف هذا الجبل وقد أصابهم المطر وقد وجدوا الراحة بطلع الشمس وقد نشروا أمتعتهم. فقال: بشرك الله بالخير، ثم ظهر لي من وجهه الخير والفرح والسرور، فيبينما نحن كذلك وإذا بيونس قد أقبل. فقال له خالد: خيراً، فقال له: أبشر أيها الأمير فإن القوم أمنوا على أنفسهم، ولكن أوصي أصحابك أن كل من وقع بزوجتي فليحافظها فما أريد من الغنية سواها. فقال له خالد:

هي لك إن شاء الله تعالى، ثم إن خالدًا قسم أصحابه أربع فرق فأمر ضرار بن الأزور على ألف فارس وعلى الألف الثاني رافع بن عميرة الطائي، وعلى الألف الثالث عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وبقي هو في الفرقة الرابعة. وقال: سيروا على بركة الله تعالى وإياكم أن تخرجوا إليهم دفعة واحدة، بل يخرج كل أمير منكم بيته وبين صاحبه قدر ساعة، ثم افترق القوم وحمل ضرار بن الأزور والروم مطمننون وحمل من بعده رافع بن عمير الطائي، ثم عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، ثم خالد بن الوليد سار في آخر القوم حتى وصلوا المرج. قال عبيد بن سعيد: والله لقد كدنا أن نفتنه من حسن منظره فزعم فينا خالد بن الوليد وقال: عليكم بأعداء الله ولا تستغلوا بالغنائم ولا بالنظر إلى المرج فإنها لكم إن شاء الله تعالى.

ثم عطف خالد بن الوليد رضي الله عنه على الروم وقد نظرت الروم إلى الخيل وقد خرجت عليهم وخالد أمامهم، فعلموا أنها خيول المسلمين فبادروا إلى السلاح وركبوا الخيل وقال بعضهم لبعض: إنها خيل قليلة ساقها المسيح إليكم وجعلها غنية لكم فبادروا إليها. قال فتباخر الروم وهم يظنون أن ليس وراء خالد أحد، وإذا بضرار بن الأزور قد خرج عليهم في ألف فارس وطلع رافع بن عميرة الطائي بعده وطلع عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق بعدهم وطلبت كل كتيبة فرقة من الروم وتفرقوا من حولهم وطلبوا ما في أيديهم وقد رفعوا أصواتهم يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله وانصب خيل المسلمين على الروم كأنها السيل المنحدر ونادي هربيس برجاله قاتلوا عن نعمكم فما لهؤلاء القوم حيلة ولا يخلصون من هذا المكان أبداً، فانقسمت الروم طائفة معه وطائفة مع توما فكان من طلب خالدًا توما وقد أحدق به خمسمائة فارس وقد رفع بين عينيه صليباً من الجوهر مصمماً بالذهب الأحمر فعدل خالد وحمل عليه وقال: يا عدو الله أظنتم أنكم تفلتون منا والله تعالى يطوي لنا البلاد وكان توماً أعزوره امرأة أبان قال فحمل عليه وطعنه في عينه الأخرى ففقأها وأرداه عن جواده وحمل أصحابه على رجال توما والله در عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فإنه لما نظر إلى توما وقد سقط عن جواده نزل وجلس على صدره واحتز رأسه ورفعها على السنان ونادي قد قتل والله توما اللعين فاطلبوا هربيس.

قال الواقدي: ففرح المسلمون بذلك. قال رافع بن عميرة الطائي: كنت في الميمنة مع خالد بن الوليد إذ نظر إلى فارس زيه زي الروم، وقد نزل عن جواده، وهو يقاتل علجنة من نساء الروم وهي تظهر عليه مرة فدنوت أنظرها. فإذا هو يonus الذليل وهو يقاتل زوجته ويصارعها صراع الأسد. قال رافع: فدنوت أن أتقدم إليهما فأعينه فقصد إلى عشرة من النساء يرمين قوسى بالحجارة فخرج حجر كبير من امرأة حسناء عليها ثياب

الديباج. قال فوق الحجر في جبهة جوادي فانكب على رأسه، وكان جواداً شهدت عليه اليمامة فسقط الججاد ميتاً. قال فأسرعت في طلبها فهربت من بين يدي كأنها ظيبة القناص وهربت النساء من وراءها فلحقتهن وقصدت قتلهن وزعقت عليهن وكنت أريد قتلهن وما لي قصد إلا الجارية التي قتلت حصانني فدنت منها وعلوت بالسيف على رأسها فجعلت تقول الغوث الغوث فرجعت عن قتلها وأقبلت إليها، وإذا عليها ثياب الديباج وعلى رأسها شبكة من اللؤلؤ فأخذتها أسيرة من النساء وأوثقها كتاباً، ورجعت على أثرى فركبت جواداً من خيل الروم. ثم قلت: والله لأمضين وأنظر ما كان من أمر يونس فوجدته، وهو جالس وزوجته بجانبه وقد تلطخت بدمائهما وهو يبكي عليها، فلما رأيتها قلت لها أسلمي، فقالت: لا وحق المسيح لا اجتمعنا أنا وأنتم أبداً. ثم أخرجت سكيناً كانت معها فقتلتها بها نفسها. قلت: إن الله عز وجل أبدلك ما هي أعظم منها وعليها ثياب الديباج وشبكة من اللؤلؤ وهي كأنها القمر فخذها لك بدلاً عن زوجتك، فقال: أين هي؟ قلت: ها هي معي.

قال: فلما نظر إليها وإلى ما عليها من الحلي والزيينة وتبين حسنها وجمالها راطتها بالروميه وسألها عن أمرها فرطنت عليه، وهي تبكي فالتفت إلى، وقال لي: أتدرى من هذه؟ قلت: لا، فقال: هذه ابنة الملك هرقل زوجة توما وما مثل يصلاح لها ولا بد لهرقل من طلبها ويفديها بماله. قال: وافتقد المسلمين خالداً فلم يجدوا له أثراً فقلقوا عليه قلقاً عظيماً وخالد رضي الله عنه غائص في المعركة وقصد اللعين هربيس بعد قتل توما، فبينما هو يحمل يميناً وشمالاً إذ نظر علجاً من علوج الرومان عظيم الخلقة أحمر اللون فظن خالد أنه اللعين فأطلق جواده نحوه وطلب طلباً شديداً ليقتله، فلما نظر إليه العلنج وإلى حملته فترهارياً من بين يديه فوكزه خالد بالرمح، وإذا هو واقع على الأرض على أم رأسه فانقض عليه خالد كالأسد، وهو يقول: ويلك يا هربيس أظنت أنك تقوتنى وذلك العلنج يعرف العربية. فقال: يا عربي ما أنا هربيس فأبقي علىي ولا تقتلني. فقال خالد: ما لك من يدي خلاص إلا إذا كنت تدلني على هربيس. فإذا دللتني عليه أطلقتك. فقال له العلنج: أئذا دللتكم عليه تطليقني؟ فقال خالد: نعم لك ذلك. فقال العلنج: يا أخا العرب قم من على صدري حتى أدللك عليه، فقام خالد من على صدره فوثب العلنج ونظر يميناً وشمالاً. ثم قال لخالد: أترى هذا الجبل وهذه الخيل الصاعدة أقصدها فإن هربيس فيها. قال فوكل خالد بالعلنج واحداً، وهو ابن جابر ثم أطلق خالد عنان جواده حتى لحق بهم وصرخ عليهم، وقال: يا ويلكم أئى لكم مني خلاص؟ فلما سمع هربيس ذلك ظنه من بعض العرب فزعق فيه ورجع ورجعت البطارقة بالسلاح. فقال لهم خالد: يا ويلكم ظنتم أن الله لا يمكنكم أنكم أنا الفارس الصنديد أنا خالد بن الوليد. ثم طعن فارساً فرماه وأخر فأرداه. فلما سمع هربيس كلام خالد، قال

لأصحابه: يا ولكلم هذا الذي قلب الشام على أصحابه، هذا صاحب بصرى وحوران ودمشق وأجنادين دونكم وإياته قال فطمع القوم فيه لانفراده عن أصحابه، وكان المسلمين في قتال الروم ونهب الأموال وكل منهم مشتغل بنفسه. قال فترجلت البطارقة حول خالد لأنهم في جبل كثير الوعر وأحاطوا بخالد بن الوليد فعندها ترجل عن جواهه وأخذ سيفه وجحافته وصبر لقتالهم. قال حدثني شداد بن أوس وكان من حضر وقعة مرج الدبياج، وقال خالد: قد صحت الرؤيا. فلما ترجل أقبل يقاتل بنفسه وأقبل إليه هربيس، وهو مشتغل بالقتال وأتاه من ورائه وضرب خالد بالسيف فوق السيف على البيضة فقدها، وقد عمامته وانقض السيف من يد هربيس وخاف خالد أن يتلفت إلى ورائه فتهجم عليه الروم وخاف أن يفلت هربيس من بين يديه فعند ذلك صاح بالتهليل والتكبير والصلوة على البشير النذير كأنه مستبشر بشيء أغاثه أو أدركه وذلك خديعة منه وحيلة يربد بها أن يتمكن من الأعلاج. فيبينما هو كذلك إذ سمع من المسلمين زعقات، وقد أخذت الروم من ورائهم وهم يصيحون بالتهليل والتكبير وقاتل يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله أتاك النصر من رب العالمين أنا عبد الرَّحْمَنُ بْنُ أَبِي بَكْرِ الصَّدِيقِ. فلما سمع خالد صوته لم يتلفت إلى عبد الرَّحْمَنِ ولا إلى من معه ومضى يفرق الأعلاج ذات اليمين وذات الشمال، ولما أن سمع اللعين هربيس أصوات المسلمين أراد الهرب فللحقة سيدنا خالد وضربه ضربة فأرداه قتيلاً وعجل الله بروحه إلى النار واستطاع أصحاب رسول الله ﷺ على أصحاب هربيس ونزلوا فيهم بالسيف حتى أبادوهم عن آخرهم، وكان أكثرهم قتلاً من يد ضرار بن الأزور. فلما انكشف الكرب عن خالد ونظر إلى ما فعل ضرار. قال: أفلح الله وجهك يا ابن الأزور فما زلت مباركاً في كل أفعالك أنتج الله أعمالك وأصلاح ربي حالي. ثم سلم على عبد الرَّحْمَنُ بْنُ أَبِي بَكْرِ الصَّدِيقِ رضي الله عنه وعلى المسلمين، وقال: من أين علمتم مكانى هذا، فقال عبد الرَّحْمَنُ: يا أمين بينما نحن في قتال الروم، وقد نصرنا الله عليهم والمسلمون قد اشتغلوا بالغنائم إذا سمعنا هاتقًا من الهواء يقول: اشتغلتم بالغنائم وخالد قد أحاطت به الروم. فلما سمعنا ذلك لم ندر أي مكان أنت فيه، وفقدنا شخصك فدللنا عليك علوج كان بيد رجل من أصحابك، وقال: إن صاحبكم أنا الذي دلته على هربيس وإنه معه في هذا الجبل فسرنا إليك.

فقال خالد: لقد دلنا على عدونا ودلل علينا المسلمين، وقد وجب له الحق علينا ورجع خالد وأصحابه إلى المسلمين، فلما رأوه بادروا وسلموا عليه فرد عليهم السلام. ثم إن خالدًا رضي الله عنه دعا بذلك العلوج الذي دله على هربيس، وقال له: إنك وفيت لنا ونزيرد أن نوفي لك بما وعدناك لأنك نصحت لنا فهل لك أن تكون أصحاب دين الصلاة والصيام وملة محمد عليه الصلاة والسلام فتكون من أهل الجنة، فقال: ما أريد بدینی بدلاً فأطلق خالد سبیله. قال نوفل بن عمرو: فرأيته قد استوى على ظهر جواهه
فتح الشام / ج ١ / ٦

يطلب بلاد الروم وحده. ثم إن خالدًا رضي الله عنه أمر بجمع الغنائم والأسارى فجمع ذلك إليه، فلما رأى كثرته حمد الله تعالى وشكره وأتني عليه ودعا بدليله يونس التنجيب. ثم قال له: ما فعلت بزوجتك؟ فحدّثه بحديثه معها، وما كان من أمرها فعجب من ذلك، فقال رافع بن عميرة: أيها الأمير إني أسرت ابنة الملك هرقل، وقد سلمتها إليه بدلاً من زوجته، فقال خالد: وأين ابنة الملك هرقل فمثلت بين يديه فنظر إلى حسنها وجمالها وما منحها الله به من الجمال فصرف وجهه عنها، وقال: سبحانك اللهم وبحمدك تخلق ما تشاء وتختار. ثم قرأ قوله تعالى: **﴿وَرَبِّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾** [القصص: ٦٨] ثم قال ليونس: أتريدتها بدلاً من زوجتك؟ قال: نعم ولكنني أعلم أن الملك هرقل لا بد له أن يفديها بالأموال أو يخلصها بالقتال. فقال خالد: خذها لك الآن فإن لم يطلبها فهي لك، وإن طلبها فالله يعوضك خيراً منها. فقال يونس: أيها الأمير إنك في مكان ضيق ومكان صعب فاعزم على الخروج قبل أن يلحق نفير القوم. فقال خالد: الله لنا ومعنا وعطف راجعاً يجد في مسيرة والغنائم أمامه والمسلمون في أثره فرحين بالغنية والسلامة والنصر.

قال روح بن عطية: فقطعنا الطريق كلها وما عرض لنا من الروم أحد ونحن نخوض في وسط ديار القوم خوضاً، فلما وصلنا مرج الصغير عند قنطرة أم حكيم نظرنا إلى غبرة من وراءنا. فلما عايناها أنكرنا ذلك فأسرع رجال من المسلمين إلى خالد يخبرونه بالغبرة. قال: أيكم يأتيني بخبرها؟ فبادر بالإجابة رجل من غفار يقال له صعصعة بن يزيد الغفارى. قال: أنا إليها الأمير. ثم نزل عن جواده، وكان بجريه يسبق الفرس الجواد لقرة عزمه فورد الغبرة واحتبرها ورجع على عقبه، وهو ينادي: أيها الأمير أدركنا الصليبان من ورائنا وهم مصدرون في الحديد لم يبين منهم غير حماليق الحدق، فدعا خالد بيونس الدليل عندما قاربته الخيل وقال: يا يونس اقصد نحو الخيل وانظر ما يريدون. فقال: السمع والطاعة. ثم دنا من الخيل وقاربهم، ثم رجع إلى خالد، وقال له: ألم أقل لك أيها الأمير إن هرقل لا يغفل عن طلب ابنته وقد أنفذ هذه الخيل يريدون أن يأخذوا الغنية من أيدي المسلمين، فلما لحقوك ههنا قربانا من دمشق بعثوا رسولاً يسألوك في الجارية إما بيعها وإما هدية، في بينما خالد يتحدّث إذ أقبل إليه شيخ عليه لبس المسوح فأقبل حتى دنا من المسلمين فأوقفوه أمام خالد، وقال له: قل ما تشاء. فقال الشيخ: أنا رسول الملك هرقل وإنه يقول لك بلغني ما فعلت برجالي وقتلت توما زوج ابنتي وهتك حرمتي، وقد ظفرت وسلمت فلا تفترط بمن معك، والآن إما أن تبيع ابنتي أو تهدّيها إلي فالكرم شيمتكم وطبعكم ولا يرحم من لا يرحم وإنني أرجو أن يقع بيتنا الصلح، فلما سمع خالد ذلك. قال للشيخ: قل لصاحبك والله لا رجعت عنه وعن أهل ملته حتى أملك سريره وما تحت قدميه، كما في علمك، وأما إيقاؤك علينا فلو وجدت

إلى ذلك من سبيل فما قصرت، وأما ابنتك فهي لك هدية منا ثم إن خالدًا أطلق ابنة الملك هرقل وسلّمها للشيخ ولم يأخذ في فدائها شيئاً، فلما بلغ ذلك الرسول إلى الملك هرقل قال لعظاماء الروم: هذا الذي أشرت عليكم فلم تقبلوه وأردتم قتيلاً وسيكون الأمر أعظم، ولكن ليس هذا منكم بل هو من رب السماء.

قال الواقدي: فبكى الروم بكاء شديداً وسار خالد حتى أتى دمشق، وكان المسلمين وأبو عبيدة قد أيسوا من خالد ومن معه فهم في أعظم القلق والإياس إذ قدم عليهم خالد رضي الله عنه والمسلمون فخرجو إلى لقائه وهنثوا بالسلامة وسلم المسلمين بعضهم على بعض ووجد خالد في دمشق عمرو بن معد يكرب الزبيدي ومالك بن الأشتر النخعي ومن كان معهما وأقبل خالد إلى جانب أبي عبيدة، وهو يحدّثه بما لاقى في غزوه وأبو عبيدة يتعجب من شجاعته وجسارته، فلما استقر بخالد مكانه أخذ الخمس من الغنائم وفرق الباقى على المسلمين، ثم إن خالدأعطى من ماله ليونس، وقال: خذ هذا فتزوج به أو اشتري به جارية لك من بنات الروم. قال يونس: والله لا أتزوج في هذه الدار الدنيا زوجة أبداً وما أريد إلا أن أتزوج في الآخرة بعيناء من العور العين. قال رافع بن عميرة الطائي: فشهد معنا القتال إلى يوم اليرموك فما كنت أراه في حرب إلا ويجahed جهاداً عظيماً، وقد أبلى في الروم بلاء حسناً فأتاه سهم في لبته فخرّ ميتاً رحمة الله تعالى. قال رافع: فحزنت عليه وأكثرت من الترحم عليه فرأيته في النوم وعليه حلل تلمع وفي رجليه نعلان من ذهب وهو يجول في روضة خضراء، فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي وأعطاني بدلاً من زوجتي سبعين حوراء لو بدت واحدة منها في الدنيا لکف ضوء وجهها نور الشمس والقمر فجزاكم الله خيراً فقصصت الرؤيا على خالد، فقال: ليس والله سوى الشهادة، طوبى لمن رزقها.

كتب خالد بالفتح

قال الواقدي: ولقد بلغني أن خالد رضي الله عنه لما رجع من غزوته ومسيره غانماً ظن أن الخليفة أبا بكر الصديق رضي الله عنه حي لم يقبض فهم أن يكتب له كتاباً بالفتح والبشرى وما غنم من الروم، وأبو عبيدة لا يخبره بذلك ولا يعلمه أن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فدعاه خالد بدوابة وبياض وكتب: بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله خليفة رسول الله ﷺ من عامله على الشام خالد بن الوليد. أما بعد سلام عليك، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد ﷺ ثم إنما لم نزل في مواجهة العدو على حرب دمشق حتى أنزل الله علينا نصره وقهـر عدوه وفتحت دمشق عنـة بالسيف من بـاب شرقـي، وكان أبو عبيدة على بـاب الجـابـية فخدعـته الروم فصالـحـوه على بـابـ الآخرـ وـمنـعـنيـ أنـ أـسـبـيـ وأـقـتـلـ ولـقـيـناـهـ علىـ كـنـيـسـةـ يـقـالـ لهاـ

كنيسة مريم وأمامه القسسين والرهبان ومعهم كتاب الصلح، وإن صهر الملك توما وأخر يقال له هربيس خرجا من المدينة بمال عظيم وأعمال جسيمة فسرت خلفها في عساكر الزحف وانتزعت الغنية من أيديهما وقتلت الملعون وأسرت ابنة الملك هرقل، ثم أهديتها إليه ورجعت سالماً، وأنا منتظر أمرك والسلام عليك، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وطوى الكتاب وختمه بخاتمه، ودعا برجل من العرب يقال له عبد الله بن قرط فدفع إليه الكتاب وسار إلى مدينة رسول الله ﷺ فوردها وال الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقرأ عنوان الكتاب، وإذا هو: من خالد إلى خليفة رسول الله ﷺ فقال عمر: أما عرف المسلمين وفاة أبي بكر رضي الله عنه، فقال: لا يا أمير المؤمنين، فقال: قد وجهت بذلك كتاباً إلى أبي عبيدة وأمرته على المسلمين وعزلت خالداً وما أظن أبو عبيدة يريد الخلافة لنفسه، فسكت وقرأ الكتاب.

قال أصحاب السير في حديثهم ممن تقدم ذكرهم وإسنادهم في أول الكتاب ممن روى فتوح الشام ونقلوها عن الثقات منهم محمد بن إسحاق وسيف بن عمرو وأبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي رضي الله عنه كل حدث بما رواه وسمعه ثقة عن ثقة. قالوا جميعاً في أخبارهم: إنه لما قبض أبو بكر الصديق رضي الله عنه وولي الأمر بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه وله من العمر اثنان وخمسون سنة بايعه الناس في مسجد رسول الله ﷺ بيعة تامة ولم يختلف عن مبايعته أحد لا صغير ولا كبير وانقطع في إمارته الشقاق والنفاق وانحسس الباطل وقام الحق وقوى السلطان في إمارته وضعف كيد الشيطان وظهر أمر الله لهم كارهون، ومن أمره أنه كان يجلس مع الفقير ويتألف بالناس وال المسلمين ويرحم الصغير ويوقر الكبير ويعطف على اليتيم وينصف المظلوم من الظالم حتى يرد الحق إلى أهله ولا تأخذن في الله لومة لائم، وكان في إمارته يدور في أسواق المدينة وعليه مرقعة وبهذه درته وكانت درته أهيب من سيف الملوك وسيوفكم هذه، وكان قوته في كل يوم خبز الشعير وادمه الملح الجريش، وربما أكل خبزه بغیر ملح تزهداً واحتياطاً وترفقاً على المسلمين ورقة ورحمة لا يريد بذلك إلا الثواب من الله سبحانه وتعالى ولا يشغل شاغل عن أداء الفريضة. وما أوجب الله عليه من حقوقه وستة نبأه محمد عليه الصلاة والسلام قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد تولى والله عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة فجذ في التشرّم وترك عن نفسه التكبر، ولقد كان أحرقه خبز الشعير والملح وأراد أكل الزيت والبابس من التمر، وربما أخذ شيئاً من السم، ويقول: أكلت الزيت وخبز الشعير والملح والجوع أهون غداً من نار جهنم، من حل بها لم يمت ولم يجد فيها راحة أبداً، قرارها بعيد وعذابها شديد وشرابها الصدید لا يؤذن لهم فيعتذرون، جند الجنود في إمارته وبعث العساكر وفتح الفتوحات ومصر الأمصار، وكان يخاف عذاب النار، رضي الله عنه.

قال الواقدي رحمة الله تعالى: ولقد بلغني أن هرقل لما بلغه أن عمر بن الخطاب قد ولـي الأمر من بعد أبي بكر الصديق رضي الله عنه جمع الملوك والبطارقة وأرباب دولته وقام فيهم خطيباً على منبر قد نصب له في كنيسة القسيسين، وقال: يا بني الأشرف، هذا الذي كنت أحذركم منه فلم تسمعوا مني، وقد اشتد الأمر عليكم بولاية هذا الرجل الأسمـر وقد دنا موعد صاحب الفتوح المشبه بنوح، والله ثم والله لا بد أن يملك ما تحت سريري هذا، الحذر ثم الحذر قبل وقوع الأمر ونـزول الضرر، وهـدم القصور وقتـل القسـس وتبـطيل الناقوس، هذا صاحب الحرب والجـالب على الروم والفرسـ الكـربـ، هذا الزـاهـدـ في دـنيـاهـ، وهذا الغـليـظـ علىـ منـ أـتـبعـ فيـ غـيرـ مـلـتهـ هـوـاهـ، وإنـيـ أـرجـوـ لكمـ النـصـرـ إنـ أـمـرـتـمـ بـالـعـرـوـفـ وـنـهـيـتـمـ عـنـ الـمـنـكـرـ وـتـرـكـتـ الـظـلـمـ وـاتـبـعـتـ الـمـسـيـحـ فـيـ أـدـاءـ الـمـفـرـوضـاتـ وـلـزـومـ الـطـاعـاتـ وـتـرـكـ الزـنـاـ وـأـنـوـاعـ الـخـطاـياـ، وإنـ أـبـيـتـمـ إـلـاـ الـفـسـادـ وـالـفـسـوقـ وـالـعـصـيـانـ وـالـرـكـونـ إـلـىـ شـهـوـاتـ الدـنـيـاـ يـسـلـطـ اللـهـ عـلـيـكـمـ عـدـوكـ وـيـلـوـكـ بـمـاـ لـاـ طـاقـةـ لـكـمـ بـهـ، ولـقـدـ أـعـلـمـ أـنـ دـيـنـ هـؤـلـاءـ سـيـظـهـرـ عـلـىـ كـلـ دـيـنـ وـلـاـ يـزاـلـ أـهـلـهـ بـخـيـرـ مـاـ لـمـ يـغـيـرـوـاـ وـيـدـلـلـوـاـ، فإـمـاـ أـنـ تـرـجـعـواـ إـلـيـهـ، إـمـاـ أـنـ تـصـالـحـوـاـ قـوـمـ عـلـىـ أـدـاءـ الـجـزـيـةـ، فـلـمـ سـمـعـ الـقـوـمـ ذـلـكـ نـفـرـوـاـ وـبـادـرـوـاـ إـلـيـهـ وـهـتـمـوـاـ بـقـتـلـهـ فـسـكـنـ غـضـبـهـ بـلـيـنـ كـلـامـهـ وـلـاطـفـهـ. وـقـالـ لـهـمـ: إـنـماـ أـرـدـتـ أـنـ أـرـىـ حـمـيـتـكـمـ لـدـيـنـكـمـ وـهـلـ تـمـكـنـ خـوفـ الـعـرـبـ فـيـ قـلـوبـكـمـ أـمـ لـ؟ـ

ثم استدعى برجل من المتنصرة يقال له طليعة بن ماران وضمن له مالاً، وقال له: انطلق من وقتك هذا إلى يثرب وانتظر كيف تقتل عمر بن الخطاب، فقال له طليعة: نعم أيها الملك. ثم تجهز وسار حتى ورد مدينة رسول الله ﷺ وكم حولها، وإذا بعمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج يشرف على أموال اليتامي ويقتضي حدائقهم فصعد المتنصر إلى شجرة ملتفة بالأغصان فاستتر بأوراقها، وإذا بعمر رضي الله عنه قد أقبل إلى أن قرب من الشجرة التي عليها المتنصر ونام على ظهره وتوسد بحجر، فلما نام هـمـ المـتـنـصـرـ أـنـ يـنـزـلـ إـلـيـهـ لـيـقـتـلـهـ، وـإـذـ بـسـبـعـ أـقـبـلـ مـنـ الـبـرـيـةـ فـطـافـ حـولـهـ وـأـقـبـلـ يـلـحـسـ قـدـمـيهـ، وـإـذـ بـهـاتـفـ يـقـولـ: يـاـ عـمـ عـدـلـتـ فـأـمـنـتـ، فـلـمـ اـسـتـيقـظـ عـمـ رـضـيـهـ عـنـ ذـهـبـ السـبـعـ وـنـزـلـ المـتـنـصـرـ وـتـرـامـيـ عـلـىـ عـمـ رـضـيـهـ عـنـ فـقـيـلـ يـدـيـهـ، وـقـالـ: بـأـبـيـ أـنتـ وـأـمـيـ أـفـدـيـ مـنـ الـكـاثـنـاتـ مـنـ السـبـعـ تـحـرـسـهـ وـالـمـلـاـكـهـ تـصـفـهـ وـالـجـنـ تـعـرـفـهـ، ثـمـ أـعـلـمـهـ بـمـاـ كـانـ مـنـ وـأـسـلـمـ عـلـىـ يـدـيـهـ.

قال الواقدي: ثم إن عمر رضي الله عنه كتب كتاباً لأبي عبيدة بن الجراح يقول فيه: قد ولـيـتـكـ عـلـىـ الشـامـ وـجـعـلـتـكـ أـمـيـراـ عـلـىـ الـمـسـلـمـينـ وـعـزـلـتـ خـالـدـ بـنـ الـوـلـيدـ وـالـسـلامـ. ثـمـ سـلـمـ الـكـتـابـ إـلـىـ عـبـدـ اللـهـ بـنـ قـرـطـ وـأـقـامـ قـلـقاـ عـلـىـ مـاـ يـرـدـ عـلـيـهـ مـنـ أـمـورـ الـمـسـلـمـينـ وـصـرـفـ هـمـتـهـ إـلـىـ الشـامـ.

تولية أبي عبيدة

قال الواقدي : حدثني رافع بن عميرة الطائي . قال حدثني يونس بن عبد الأعلى ، وقد قرأت عليه بجامع الكوفة . قال حدثني عبد الله بن سالم الثقفي عن أشياخه الثقات . قال : لما كانت الليلة التي مات فيها أبو بكر الصديق رضي الله عنه رأى عبد الرحمن بن عوف الزهري رضي الله عنه رؤيا قصها على عمر رضي الله عنه ، وكانت تلك الليلة بعينها ، قال : رأيت دمشق والمسلمون حولها وكأنني أسمع تكبيرهم في أذني وعند تكبيرهم وزحفهم رأيت حصنًا قد ساخ في الأرض حتى لم أر منه شيئاً ورأيت خالداً ، وقد دخلها بالسيف وكان نازاً أمامه وكأنه وقع على النار فانطفأ ، فقال الإمام علي كرم الله وجهه ورضي الله تعالى عنهم أجمعين : أبشر فقد فتح الشام هذه الليلة أو قال : يومك هذا إن شاء الله تعالى ، وبعد أيام قدم عقبة بن عامر الجهنمي صاحب رسول الله ﷺ ومعه كتاب الفتح ، فلما رأه قال : يا ابن عامر كم عهدك ؟ قال : قلت : يوم الجمعة . قال : ما معك من الخبر ؟ فقلت : خير وبشارة وإنني سأذكرها بين يدي الصديق رضي الله عنه . فقال : قبض والله حميداً وصار إلى رب كريم ، وقلدها عمر الضعيف في جسمه فإن عدل فيها نجا وإن ترك أو خلط هلك . قال عقبة بن عامر : فبكيت وترحمت على أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وأخرجت الكتاب فدفعته إليه ، فلما قرأه نظر فيه وكتم الأمر إلى وقت صلاة الجمعة . فلما خطب وصلى ورقى المنبر واجتمع المسلمون إليه وقرأ عليهم كتاب الفتح ، فضجّ المسلمون بالتهليل والتکبیر وفرحوا ، ثم نزل عن المنبر وكتب إلى أبي عبيدة رضي الله عنه بتوليته وعزل خالد ، ثم سلمني الكتاب وأمرني بالرجوع ، قال فرجعت إلى دمشق فوجدت خالداً قد سار خلف توما وهربيس فدفعت الكتاب إلى أبي عبيدة فقرأه سرًا ولم يخبر أحداً بموت أبي بكر الصديق رضي الله عنه ثم كتم أمره وكتم عزل خالد وتوليته على المسلمين حتى ورد خالد من السرية فكتب الكتاب بفتح دمشق ونصرهم على عدوهم وبما ملكوا من مرج الدبياج وإطلاق بنت الملك هرقل وسلم الكتاب إلى عبد الله بن قرط ، فلما ورد به إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنكر الأمر ورجعت حمرته إلى البياض ، وقال : يا ابن قرط أما علم الناس بموت أبي بكر رضي الله عنه وتوليتني أبي عبيدة بن الجراح ؟ قال عبد الله بن قرط : قلت : لا ، فغضض وجمع الناس إليه وقام على المنبر . ثم قال : يا معاشر الناس إني أمرت أبي عبيدة الرجل الأمين ، وقد رأيته لذلك أهلاً ، وقد عزلت خالداً عن إمارته ، فقال رجل منبني مخزوم : أتعزل رجالاً قد أشهـر الله بيده سيفاً قاطعاً ونصر به دينه ، وإن الله لا يعذرك في ذلك ولا المسلمين إن أنت أغmedت سيفاً وعزلت أميراً أمره الله لقد قطعت الرحم ، ثم سكت الرجل ، فنظر عمر رضي الله عنه إلى الرجل المخزومي فرأه غلاماً حدث السن . فقال شاب حدث السن

غضب لابن عمه ثم نزل عن المنبر وأخذ الكتاب وجعله تحت رأسه وجعل يؤامر نفسه في عزل خالد، فلما كان من الغد صلَّى صلاة الفجر وقام فرقى المنبر خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وذكر الرسول ﷺ فصلَّى عليه وترحم على أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ثم قال: أيها الناس إني حملت أمانة عظيمة وإنِي راع وكل راع مسؤول عن رعيته، وقد جئت لإصلاحكم والنظر في معايشكم وما يقربكم إلى ربكم أنت ومن حضر في هذا البلد فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صبر على أذاتها وشرها كنت له شفيعاً يوم القيمة» وببلادكم بلاد لا زرع فيها ولا ضرع ولا ما أورث به الإبل إلا من مسيرة شهر وقد وعدنا الله مغانم كثيرة وإنِي أريدها للخاصة والعامة لأؤدي الأمانة والتوفير للمسلمين... وما كرهت ولاية خالد على المسلمين إلا لأن خالدًا فيه تبذير المال يعطي الشاعر إذا مدحه ويعطي للمجاهد والفارس بين يديه فوق ما يستحقه من حقه ولا يبقى لقراء المسلمين ولا لضعافائهم شيئاً، وإنِي أريد عزله وولاية أبي عبيدة مكانه والله يعلم أنِي ما وليته إلا أميناً فلا يقول قاتلکم: عزل الرجل الشديد وولي الأمين اللذين للمسلمين فإن الله معه يسدده ويعينه، ثم نزل عن المنبر وأخذ جلد أدم منشور وكتب إلى أبي عبيدة كتاباً فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله بن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح سلام عليك فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأصلحي على نبيه محمد ﷺ وبعد، فقد وليتك أمور المسلمين فلا تستحي فإن الله لا يستحي من الحق، وإنِي أوصيك بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ما سواه والذي استخرجك من الكفر إلى الإيمان، ومن الضلال إلى الهدى، وقد استعملتك على جند ما هنالك مع خالد فاقبض جنده واعزله عن إمارته ولا تنفذ المسلمين إلى هلكة رجاء غنية ولا تنفذ سرية إلى جماع كثير ولا تقل إنِي أرجو لكم النصر فإن النصر إنما يكون مع اليقين والثقة بالله، وإياك والتغريب بإلقاء المسلمين إلى الهلكة، وغض عن الدنيا عينيك وأله عنها قلبك، وإياك أن تهلك كما هلك من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم وخبرت سرائرهم وإنما بينك وبين الآخرة ستة أخبار وقد تقدم فيها سلفك وأنت كأنك متظر سفراً ورحيلًا من دار قد مضت نضرتها وذهب زهرتها فأحزن الناس فيها الراحل منها إلى غيرها ويكون زاده التقوى وراع المسلمين ما استطعت، وأما الحنطة والشعير الذي وجدت بدمشق وكثُرت في ذلك مشاجرتكم فهو للمسلمين، وأما الذهب والفضة ففيهما الخمس والسهام، وأما اختصاصك أنت وخالد في الصلح أو القتال فأنت الولي وصاحب الأمر وإن صلحك جرى على الحقيقة أنها للروم فسلم إليهم ذلك والسلام ورحمة الله وبركاته عليك وعلى جميع المسلمين.

وأما هديتك ابنة الملك هرقل فهديتها إلى أبيها بعد أسرها تفريط، وقد كان يأخذ في فديتها مالاً كثيراً يرجع به على الضعفاء من المسلمين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وطوى الكتاب وختمه بخاتمه، ثم دعا بعامر بن أبي وقاص أخي سعد ودفع الكتاب إليه، وقال له: انطلق إلى دمشق وسلم كتابي هذا إلى أبي عبيدة وامره أن يجمع الناس إليه واقرأه أنت على الناس يا عامر وأخبره بموت أبي بكر الصديق رضي الله عنه ثم دعا عمر رضي الله عنه بشداد بن أوس فصافحه، وقال له: امض أنت وعامر إلى الشام فإذا قرأ أبو عبيدة الكتاب فأمر الناس بيايعونك لتكون بيعنك بيعتي.

قال الواقدي: فانطلقا يجدان في السير إلى أن وصلا إلى دمشق والناس مقيمون بها ينتظرون ما يأتيهم من خبر أبي بكر الصديق رضي الله عنه وما يأمرهم به فأشرف صاحبا عمر رضي الله عنه على المسلمين، وقد طالت أعناقهم إليهما وفرحوا بقدومهما فأقبلما حتى نزلا في خيمة عمر رضي الله عنه وقال له عامر بن أبي وقاص: تركته يعني عمر بخير ومعي كتاب وإنه أمرني أن أقرأه على الناس بالاجتماع فاستنكر خالد ذلك واستراب الأمر وجمع المسلمين إليه فقام عامر بن أبي وقاص فقرأ الكتاب فلما انتهى إلى وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ارتفع للناس ضجة عظيمة بالبكاء والتحبيب وبكي خالد رضي الله عنه، وقال: إن كان أبو بكر قد قبض وقد استخلف عمر فالسمع والطاعة لعمر وما أمر به وقرأ عامر الكتاب إلى آخره، فلما سمع الناس بما فيه من أمر المبايعة لشداد بن أوس بايده، وكانت المبايعة بدمشق لثلاث خلت من شهر شعبان سنة ثلاثة عشر من الهجرة.

قال الواقدي رحمه الله تعالى: قد بلغني أنه كان على العدو بعد عزله أشد فظاعة وأصعب جهاداً لا سيما في حصن أبي القدس.

ذكر حديث وقعة أبي القدس

قال الواقدي رحمه الله تعالى: سألت من حدث بهذا الحديث عن حصن أبي القدس. قال: ما بين عرقا وطرابلس مرج يقال له مرج السلسلة وكان بإزاره دير وفيه صوامع وفيه صومعة راهب عالم بدين النصرانية وقد قرأ الكتب السالفة وأخبار الأمم الماضية المتقدمة وكانت تقصده الروم وتقتبس من علمه وله من العمر ما ينوف عن مائة سنة، وكان في كل سنة يقوم عند ديره عيد آخر صيام الروم وهو عيد الشعائين فتجمعت الروم والنصارى وغيرهم من جميع النواحي والسوائل ومن قبط مصر ويحددون به فيطلع عليهم من ذروة له فيعلمهم ويوصيهم بوصايا الإنجيل، وكان يقوم في ذلك العيد سوق عظيم من السنة إلى السنة، وكان يحمل له الأملتعة والذهب والفضة وبيعون ويشترون

ثلاثة أيام، وما كان المسلمين يعلمون بذلك ولا يعرفونه حتى دلّهم عليه رجل نصراني من المعاهدين وقد اصطفاه وأمه وأهله، فلما ولي أبو عبيدة أمر المسلمين أراد ذلك المعاهد أن يتقرّب إلى أبي عبيدة رضي الله عنه فعسى أن يكون فتح الدير والسوق على يديه فأقبل إليه وأبو عبيدة قد أطّال الفكر فيما يصنع وأي بلد من بلاد الروم يقصد، فمرة يقول: أسير إلى بيت المقدس بالجيش فإنها أشرف بلدتهم وكرسي مملكة الروم بها قيام دينهم، ووقتاً يقول: أسير إلى أنطاكية وأقصد هرقل وأفرغ منه، وبينما هو يفكّر في أمره وقد جمع المسلمين إذ أقبل ذلك المعاهد وكان من نصارى الشام. فقال: أيها الأمير إنك قد أحسنت إلى وأمنتني ووهبتي أهلي ومالي ولدي وقد أتيتك ببشرة وغنية تغمّها المسلمين ساقها الله إليهم، فإن أظفّرهم الله بها استغناً غنى ولا فقر بعده. فقال أبو عبيدة: أخبرنا ما هذه الغنية وأين تكون؟ فما علمتك إلا ناصحاً. فقال: أيها الأمير إنها بِإِزَائِكَ على دير الساحل وهو حصن يعرف بأبي القدس وبِإِزَائِهِ دير فيه راهب تعظمه النصارى ويتركون بدعائه ويقتبسون من علمه وله في كل سنة عيد يجتمعون إليه من كل النواحي والقرى والأقصار والضياع والأديرة ويقوم عنده سوق عظيم يظهرون فيه فاخر ثيابهم من الدياج والذهب والفضة يقيّمون عنده ثلاثة أيام أو سبعة وقد قرب وقت قيام السوق فتأخذون جميع ما فيه وتقتلون الرجال وتسبون النساء والذراري، وهذه غنية يفرح بها المسلمين ويوهن لها عدوكم.

قال الواقدي: فلما سمع أبو عبيدة ما قاله المعاهد فرح رجاءً أن يكون ما قاله المعاهد غنية للمسلمين. فقال للمعاهد: كم بيننا وبين هذا الدير؟ قال: عشرة فراسخ للمجدد السائر. قال أبو عبيدة: وكم بقي إلى قيام السوق؟ قال: أيام قلائل قال أبو عبيدة: فهل يكون لهم حامية يلي أمرهم ويصدّ عنهم؟ قال المعاهد: لسنا نعرف ما ذكرت في بلاد الملك لأنّه لا يصيّب بعضاً لهيبة هرقل في قلوبهم، فلما سمع أبو عبيدة قال: هل بالقرب منه شيء من مداين الشام؟ قال: نعم بالقرب من السوق مدينة تسمى طرابلس وهي مينا الشام إليها تقدم المراكب من كل مكان وفيها طريق عظيم كثير التجّبر وقد أقطعه الملك إياها من تجّبره وهو يحضر السوق وما كنت أعهد أن لهذا السوق حامية من الروم إلا أن يكون الآن لخوفهم منكم ولو سار إلى الدير والسوق أدنى المسلمين لرجوت لهم الفتح إن شاء الله تعالى.

قال أبو عبيدة: أيها الناس أيّكم يهب نفسه لله تعالى وينطلق مع جيش أبيه فتحاً للمسلمين فسكت الناس ولم يتكلّم أحد، فنادى أبو عبيدة ثانية وإنما يريد خالدًا بقوله واستحى أن يواجهه في ذلك لأجل عزله، فقام من وسط الناس غلام شاب نبت شعر

عارضيه واخضر شاربه وكان ذلك الشاب عبد الله بن جعفر رضي الله عنه، وكانت أمه
أسماء بنت عميس الخثعمية وكان أبوه جعفر رضي الله عنه قد مات في غزوة تبوك
وخلف ولده عبد الله صغيراً فتزوجها أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فلما كبر وترعرع
كان يقول لأمه: يا أماه ما فعل أبي؟ فتقول: يا ولدي قتله الروم وكان يقول: لئن عشت
لأخذن بشأره، فلما مات أبو بكر وتولى عمر رضي الله عنه جاء عبد الله إلى الشام في
بعثة عمر مع عبد الله بن أنيس الجهني وكان فيه مشابهة من رسول الله ﷺ في خلقه
وخلقه وهو أحد الأصحاب الأsexies، فلما قال أبو عبيدة رضي الله عنه: أيها الناس من
ينطلق إلى هذا الدير وثبت عبد الله بن جعفر الطيار رضي الله عنه. فقال: أنا أول من
يسير مع هذا البعث يا أمين الأمة ففرح أبو عبيدة وجعل يندب له رجالاً من المسلمين
وفرسان الموحدين وقال له: أنت الأمير يا ابن عم رسول الله ﷺ وعقد له راية سوداء
وسلمها إليه، وكان على الخيل خمسمائة فارس منهم رجال من أهل بدر، وكان من
جملة من سيره مع عبد الله أبو ذر الغفاري وعبد الله بن أبي أوفى وعامر بن ربيعة
وعبد الله بن أنيس وعبد الله بن ثعلبة وعقبة بن عبد الله السلمي ووائلة بن الأسعع
وسهل بن سعد وعبد الله بن بشر والسائب بن يزيد ومثل هؤلاء السادات رضي الله عنهم
أجمعين.

قال الواقدي : ولما أن اجتمعت الخمسينية فارس تحت راية عبد الله بن جعفر وما منهم إلا من شهد الواقع وخاض المعايم لا يولون الأدبار ولا يرکنون إلى الفرار عولوا على المسير . وقال أبو عبيدة لعبد الله بن جعفر : يا ابن عم رسول الله ﷺ لا تقدم على القوم إلا في أول قيام السوق ، ثم إنهم وذعهم وساروا .

قال الواقدي: وكان في هذه السرية مع عبد الله بن جعفر وأئلله بن الأسعق وكان خروجهم من أرض الشام وهي دمشق إلى دير أبي القدس في ليلة النصف من شعبان وكان القمر زائد النور. وقال وأنا إلى جانب عبد الله بن جعفر. فقال لي: يا ابن الأسعق ما أحسن قمر هذه الليلة وأنوره، فقلت: يا ابن عم رسول الله ﷺ هذه ليلة النصف من شعبان وهي ليلة مباركة عظيمة، وفي هذه تكتب الأرزاق والأجال وتغفر فيها الذنوب والسيئات وكنت أردد أن أقومها. فقلت: إن سيرنا في سبل الله خير من قيامها والله جزيل العطاء. فقال: صدقت ثم إننا سرنا ليتلتنا، فيبينما نحن سائرون إذ أشرفنا على صومعة راهب وعليه برنس أسود، فجعل يتأملنا وينظر في وجوهنا فتفقدنا واحداً بعد واحد، ثم جعل يطيل النظر في وجه عبد الله، ثم قال: أهذا الفتى ابن نبيكم؟ فقلنا: لا قال: إن نور النبوة يلوح بين عينيه فهل يلحق به. فقلنا: هو ابن عمك. فقال الراهب: هو من الورقة والورقة من الشجرة. فقال عبد الله: أيها الراهب وهل تعرف رسول الله ﷺ؟

فقال: وكيف لا أعرفه واسمه وصفته في التوراة والإنجيل والزبور، وإنه صاحب الجمل الأحمر والسيف المشهور. فقال عبد الله: فلما لا تؤمن به وتصدقه؟ فرفع يده إلى السماء وقال: حتى يشاء صاحب هذه الخضراء فأعجبنا كلامه وسرنا والدليل بين أيدينا إذ أتى بنا إلى واد كثير الشجر والماء أمرنا أن نكمن فيه، ثم قال لعبد الله بن جعفر: إني ذاهب أجيس لكم الخبر. فقال له عبد الله: أسرع في مسيرك وعد إلينا بالخبر. قال فانطلق مسرعاً وأقام عبد الله بن جعفر يحرس المسلمين بنفسه إلى الصباح. قال: فلما أصبحنا صلينا صلاة الصبح وجلستنا ننتظر رجوع الرسول فلم يأت وأبطأ خبره علينا فقلق المسلمون عليه لاحتباسه وخافوا من المكيدة ووسوس لهم الشيطان وساعت بالدليل الظنون فما من المسلمين إلا من ظن بالمعاهد شرّاً إلا أبا ذر الغفاري رضي الله عنه فإنه قال: ظنوا بصاحبكم خيراً ولا تخافوا منه كيداً ولا مكرّاً إن له شأنًا تعلمونه. قال فسكت الناس بعد ذلك وإذا بصاحبهم قد أقبل. قال واثلة بن الأسعق: فلما رأينا فرحتنا به وظننا أنه يأمر بالنهوض إلى العدو فأقبل حتى وقف وسط المسلمين. وقال: يا أصحاب محمد وحق المسيح ابن مریم أني لا أكذبكم فيما أحدهُم به وإنني رجوت لكم الغنية وقد حال بينكم وبينها ماء.

فقال له عبد الله رضي الله عنه: وكيف حيل بيننا وبينها؟ قال: حال بينكم وبينها بحر عجاج، وذلك أني أشرفت على السوق وقد قام فيه البيع والشراء، فاجتمع فيه أهل دين النصرانية وقد دار أكثرهم بالدير دير أبي القدس واجتمع إليه القسّيس والرهبان والملوك والبطارقة، فلما نظرت إلى ذلك لم أرجع حتى اختبرت ما السبب الذي تجمعت له الخلائق زيادة على كل سنة، وذلك أني مضيت، واختلطت بالقوم وإذا بصاحب طرابلس قد زوج ابنته ملكاً من ملوك الروم، وقد أتوا بالجارية إلى الدير ليأخذوا لها من راهبهم قرباً وقد دار بها فرسان الروم المنتصرون في عددهم وعددهم، كل ذلك خوفاً منكم لأنهم يعلمون أنكم بأرض الشام: يا معاشر المسلمين وما أرى لكم صواباً أن تصلوا إلى القوم لأنهم خلق كثير وجم غفير وجمع غزير. فقال عبد الله بن جعفر رضي الله عنه: في كم يكون القوم وكم حزرتهم؟ فقال: أما السوق ففيه أكثر من عشرين ألفاً من عوام الروم والأرمي والنصارى والقبط واليهود من مصر والشام وأهل السواد والبطارقة والمنتصرة، وأما المستعدون للحرب فخمسة آلاف فارس بما لكم بالقوة طاقة، وإن وقع الصائن في بلادهم انضاف إليهم أمثالهم فإن بلادهم متصلة بهم، وأما أنت فعددكم يسير، والعرب منكم بعيد.

قال الواقدي: فصعب ذلك على عبد الله بن جعفر وعلى المسلمين وسقط في أيديهم وهموا بالرجوع. فقال عبد الله بن جعفر: معاشر المسلمين، ما الذي تقولون في

هذا الأمر؟ فقالوا: نرى أن لا نلقي بأيدينا إلى التهلكة كما أمر ربنا في كتابه العزيز، ونرجع إلى الأمير أبي عبيدة رضي الله عنه والله لا يضيع أجراً. قال فلما سمع عبد الله قولهم قال: أما أنا فأخاف إن فعلت ذلك أن يكتبني الله من الفارين وما أرجع أو أبيدي عذراً عند الله تعالى، فمن ساعدنا فقد وقع أجره على الله، ومن رجع فلا عتب عليه، فلما سمعوا ذلك من عبد الله بن جعفر أميرهم وبذل مهجته استحبوا منه وأجابوه بأجمعهم وقالوا: افعل ما تريده فما ينفع حذر من قدر فرح بإيجابتهم، ثم عمد إلى درعه فأفرغه عليه ووضع على رأسه بيضة وشدّ وسطه بمنطقة وتقلّد بسيف أبيه واستوى على متن جواده وأخذ الراية بيده وأمر الناس بأخذ الأبهة فلبسوا دروعهم واشتملوا بسلاهم وركبوا خيولهم وقالوا للدليل: سر بنا نحو القوم فستعاين من أصحاب رسول الله ﷺ عجباً. قال وائلة بن الأسعق: فرأيت الدليل قد اصفر وجهه وتغير لونه وقالوا: سيروا أنتم برأيكم وما علي من أمركم وخرج قال أبو ذر الغفارى فرأيت عبد الله بن جعفر يتلطف به حتى سار بين يديه يدلّه على القوم ساعة، ثم وقف وقال: أمسكوا عليكم فإنكم قد قربتم من القوم فكونوا في مواضعكم كامنين إلى وقت السحر ثم أغيروا على القوم. قال وائلة بن الأسعق: فبتنا ليتنا حيث أمرنا ونحن نطلب النصر من الله تعالى على الأعداء، فلما أصبح النهار صلى بهم عبد الله بن جعفر صلاة الصبح، فلما فرغوا من صلاتهم قال: ما ترون في الغارة؟

فقال عامر بن عميرة بن ربيعة: أدلكم على أمر تصنعونه قالوا: قل. قال: اتركوا القوم في بيعهم وشرائهم وإظهار أمتعتهم، ثم اكبسو عليهم على حين غفلة وغرّة من أمرهم، فصوب الناس رأيه وصبروا إلى وقت قيام السوق، ثم أظهروا السيف من أغմادها وأوتروا القسي وشرعوا لامااتهم، وعبد الله بن جعفر أمامهم والراية بيده، فلما طلعت الشمس عمد عبد الله إلى المسلمين فجعلهم خمسة كراديس كل كرديس مائة فارس وجعل على كل مائة نقيناً وقال: تأخذ كل مائة منكم قطرًا من أقطار سوقيهم ولا تشغلوا بنهب ولا غارة، ولكن ضعوا السيف في المفارق والعوائق، وتقدم عبد الله بن جعفر بالراية وطلع على القوم فنظر إلى الروم متفرقين في الأرض كالتمل لكثرتهم وقد أحدق منهم بدير الراهب خلق كثير، والراهب قد أخرج رأسه من الدير وهو يعظ الناس ويوصيهم ويعليمهم معالم ملتهم وهم إليه شخصوص بأبصارهم وابنة الطريق عنده في الدير وبالبطارقة وأبناؤهم عليهم الدبياج المثقل بالذهب، ومن فوقهم دروع وجواشن تلمع وبيض وهم ينظرون صيحة بين أيديهم أو طارقاً يطرقهم من خلفهم، ونظر عبد الله إلى الدير وإلى ما أحدق به، وإلى الراهب وما حول صومعته فهاله ذلك من أمرهم وصاح فيهم قبل الحملة. وقال: يا أصحاب رسول الله ﷺ احملوا بارك الله فيكم، فإن كانت غنية وسرور فالفتح والسلامة ويكون الاجتماع تحت صومعة الراهب، وإن كان غير ذلك

فهو وعدنا الجنة ونلتقي عند حوض رسول الله ﷺ مع الصحابة. قال وطلب عبد الله الجم العظيم فخاص بهم وجعل يضرب بسيفه ويطعن برممه ويحمل المسلمين من ورائه، وسمع الروم أصوات المسلمين مرتفعة بالتهليل والتكبير فتيقنوا أن جيوش المسلمين قد أدركتهم وكانوا لذلك منتظرین وعلى يقظة من أمرهم، فأما السوقة فإنهم تبادروا إلى أسلحتهم والمنع عن أنفسهم وأموالهم وأخرجو السيف من الأغمدة وانعطفوا على قتال المسلمين عطفة الأسد الضاري، وطلبو صاحب الراية ولم يكن مع المسلمين راية غيرها فأحدقوا بالراية من كل جانب ومكان وقامت الحرب على ساق وثار الغبار وانعقد وأحدق الروم بال المسلمين، فما كان المسلمين فيهم إلا كشامة بيضاء في جلد بغير أسود، وما كان أصحاب رسول الله ﷺ يعرف بعضهم بعضاً إلا بالتهليل والتكبير، وكل واحد مشتغل بنفسه عن غيره، وقال أبو سيرة إبراهيم بن عبد العزيز بن أبي قيس، وكان من السابقين والمتقدمين يأيمائهم في الإسلام وصاحب الهجرتين جميماً قال: شهدت قتال الحبشة مع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وشهدت المشاهد مع رسول الله ﷺ حزنت بدر وفي أحد وفي حنين، وقلت إني لاأشهد مثلها، فلما قبض رسول الله ﷺ حزنت عليه ولم أستطع أن أقيم بالمدينة بعد فقدمت مكة فأقمت بها فعوتبت في منامي من التخلف عن الجهاد، فخرجت إلى الشام وشهدت أجنادين والشام وسرية خالد خلف توما وهربيس وشهدت سرية عبد الله بن جعفر وكنت معه على دير أبي القدس فأنسنتي وقعتها ما شهدت قبلها من الواقع بين يدي رسول الله ﷺ، وذلك أنني نظرت إلى الروم حين حملنا عليهم في كثرةهم وعددهم وقينا ما ثم غيرهم وليس لهم كمين عظيم. قال فرأينا أجسادهم هائلة وعليهم الدروع وما بين منهم إلا حمالق العدق لهم طقطقة وزمرة عندما يحملون حتى نظرت إلى المسلمين قد غابوا في أوساطهم ولا أسمع منهم إلا الأصوات تارة يجهرون بها وتارة أقول هلكوا.

ثم أنظر إلى الراية بيد عبد الله بن جعفر رضي الله عنه مرفوعة بذلك، وعبد الله يقاتل بالراية ويكر على المشركين ولا يثنى... ويجاهد على صغر سنّه ولم تزل الحرب بيتنا كلما طال مكثها اشتد ضرامها وعلا قاتمها والتهب نارها، وصار عبد الله في وسط القوم وهو حوله كالحلقة الدائرة والروم يحدقون به فجعل كلما حمل يمينا وإن حمل شمالاً حملت شمالاً ولم نزل في الحرب والقتال حتى كلّت منا السواعد وخدرت المناكب. قال: وعظم الأمر علينا وهالنا الصبر وتثlim سيف عبد الله في يده وكانت تقع فرسه من تحته فالتجأ بأصحابه في موضع، فاجتمع أصحابه إليه فنظر المسلمين إلى رايته فقصدوها، وما منهم إلا مكلوم من المشركين فضاق لذلك ذرعه وما نزل به في نفسه مثل ما نزل بال المسلمين فالجأ إلى الله تعالى أمره وفوض إلى صاحب السماء شأنه ورفع يده إلى السماء وقال في دعائه: يا من خلق خلقه وأبلى بعضهم ببعض وجعل

ذلك محنة لهم أسألك بجاه محمد النبي ﷺ إلا ما جعلت لنا من أمرنا فرجاً ومحرجاً، ثم عاد إلى القتال وأصحاب رسول الله ﷺ يقاتلون معه تحت رايته، فلله در أبي ذر الغفارى رضي الله عنه فإنه نصر ابن عم رسول الله ﷺ وجاهد بين يديه. قال عمرو بن ساعدة: فلقد رأيته مع كبر سنه يضرب بسيفه ضرباً شديداً في الروم وينتمي إلى قومه ويدرك عند حملاته اسمه ويقول: أنا أبو ذر، وال المسلمين يفعلون ك فعله إلى أن بلغت القلوب العنجر وظنوا أن في ذلك الموضع قبورهم.

قال الواقدي رحمه الله تعالى: حدثني عبد الله بن أنيس الجheni . قال: كنت أحب جعفراً وأحب من أولاده عبد الله، فلما قبض أبو بكر رضي الله عنه وكان قائماً مقاماً أبيه نظرت إلى أمه أسماء بنت عميس حزينة فكرهت أن أنظر إليها في ذلك الحزن، وأيضاً أن أباً بكر رضي الله عنه كان يحب عبد الله حباً شديداً فاستأذن عبد الله بن جعفر عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في المسير إلى الشام. وقال لي: يا ابن أنيس الجheni أشتئي أن الحق بالشام ومعنا عشرون فارساً أكون مجاهداً أفتصحبني؟ فقلت: نعم فودع عمه عليّاً رضي الله عنه ووَدَعَ عمر رضي الله عنه وسار يريد الشام ومعنا عشرون فارساً حتى أتينا تبوك. فقال: يا ابن أنيس أتدرى موضع قبر أبي؟ فقلت: نعم فقال: أشتئي أن أرى الموضع. قال فما زلنا حتى أتينا الموضع فأررته موضع مصبه عليه وموضع الوعرة وقرب أبيه جعفر رحمه الله تعالى وعليه حجارة، فلما نظر إليه نزل ونزلنا معه وبكي وترحم فأقمنا عنده إلى صبيحة اليوم الثاني، فلما رحلنا رأيت عبد الله يبكي ووجهه مثل الزعفران فسألته عن ذلك. فقال: رأيت أبي البارحة في النوم وعليه حلتان خضراءتان وتاج وله جناحان وبيه سيف مسلول أحضر فسلمه إلي و قال: يا بني قاتل به أعداءك فما وصلت إلى ما ترى إلا بالجهاد، وكأني أقاتل بالسيف حتى تعلم. قال عبد الله بن أنيس وسرنا حتى أتينا عسکر أبي عبيدة رضي الله عنه بدمشق، فبعثه أمير تلك السرية إلى دير أبي القدس. قال عبد الله بن أنيس: فلما رأيت بيته وبين الروم، قلت يوشك أن يذهب عبد الله فسرت كالبرق ورجعت إلى أبي عبيدة رضي الله عنه، فلما رأني قال: أبشرة يا ابن أنيس أم لا؟ فقلت: أنفذ المسلمين إلى نصرة عبد الله بن جعفر ومن معه، ثم حدثته بالقصة فقال أبو عبيدة رضي الله عنه: إنما الله وإنما إليه راجعون أيصاب عبد الله بن جعفر ومن معه تحت رايتك يا أبو عبيدة وهي أول إمارتك.

قال الواقدي: ثم التفت إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه. فقال له: يا أبا سليمان سألك بالله. الحق عبد الله بن جعفر فأنت المعد لها. فقال خالد: أنا لها إن شاء الله وما كنت أنتظر إلا أن تأمرني فقال أبو عبيدة رضي الله عنه: استحييت منك يا أبا سليمان فقال: والله لو أمر علي طفل صغير لأطيعن له، فكيف أخالفك وأنت أقدم مني إيماناً

وأسبق إسلاماً سبقت بإسلامك مع السابقين وسارعت بإيمانك مع المسارعين وسمّاك رسول الله بالأمين، فكيف أحقك أو أنال درجتك، والآن أشهدك أني قد جعلت نفسي حبيساً في سبيل الله تعالى لا أخالفك أبداً، ولا وليت إمارة بعدها أبداً.

قال الواقدي: فاستحسن المسلمين قوله، فقال أبو عبيدة رضي الله عنه: يا أبا سليمان الحق إخوانك رحمك الله. قال: فوثب خالد رضي الله عنه كأنه الأسد وسار إلى رحله فأفرغ عليه درع مسيلمة الكذاب الذي سلبه منه يوم اليمامة وألقى بيضة على رأسه وأردها قلنسوة وتقلد بحسامه وانصب في سرجه كأنه السيل ونادى بجيشه الزحف هلموا إلى جزب السيف فأجابوه مسرعين كأنهم العقبان وبادروا إلى طاعة الرَّحْمن وأخذ خالد الراية بيده وهزّها على ركباه ودار به عسکر الزحف من كل جانب وودع المسلمين بعضهم بعضًا وساروا وسار خالد وعبد الله بن أبي سعيد يذلّهم على الطريق. قال رافع بن عميرة الطائي: كنت يومئذ من أصحاب خالد بن الوليد رضي الله عنه ولم يزل مُجِداً في السير والله عزّ وجلّ يطوي لنا البعيد، فلما كان عند غروب الشمس أشرفنا على القوم والروم كالجراد المنتشر قد غرق المسلمون في كثتهم. فقال خالد: يا ابن أبي سعيد في أي جانب أطلب ابن عم رسول الله ﷺ فقلت له إنه واعد أصحابه أن يلتقطوا عند دير الراهب أو موعدهم الجنة.

قال الواقدي: فنظر خالد نحو الدير فشاهد الراية الإسلامية، وهي ييد عبد الله بن جعفر، وما من المسلمين إلا من أصيب بجرح، وقد أيسوا من الحياة الفانية وطعموا في الحياة السرمدية، والروم تناوشهم بالحرب وتكثر الطعن والضرب وعبد الله بن جعفر يقول لأصحابه: دونكم والمشركين واصبروا لقتال المارقين واعلموا أنه قد تجلّى عليكم أرحم الراحمين، ثم قرأ الآية قوله تعالى: «كُمْ مَنْ فَتَةٌ قَلِيلٌ غَلَبَتْ فَتَةٌ كَثِيرٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ» [البقرة: ٢٤٩] فلما نظر خالد رضي الله عنه إلى صبرهم وتجلّدهم على قتال أعدائهم لم يطق الصبر دون أن حمل عليهم وهز رايته، وقال لأصحابه: دونكم القوم القباح فأرووا من دمائهم السلاح، وأبشروا بالنجاح يا أهل حي على الفلاح.

قال الواقدي رحمة الله تعالى: في بينما أصحاب عبد الله بن جعفر في أشد ما يكونون فيه إذ خرجة عليهم خيل المسلمين وكتائب الموحدين كأنهم الطيور وعليها الرجال كأنهم العقبان الكاسرة والليوث الضاربة وهم غائصون في الحديد، وقد ارتفع لهم الضجيج، وبخيلهم العجيج فلما نظر عبد الله وأصحابه إلى ذلك ظنوا أنها نجدة الأعداء فأيقنوا بالهلاك والفناء وجعلوا ينظرون إلى الخيل التي رأوها وإذا هي قاصدة إليهم ففزعوا وجزعوا وظنوا أن كميّاً من الروم قد خرج لقتالهم فظم عليهم الأمر، وقل منهم الصبر وأخذهم

البهر وقد لحق بالمرشكين الدمار وأتاهم حرب مثل النار، والسيوف تلمع، والرقوس من الرجال تقطع، والأرض قد امتلأت قتلى وهم في أيدي المرشكين كالأسرى والقوم في أشد القتال والسيف ي العمل في الرجال إذ نادى فيهم مناد وهتف بهم هاتف: خذل الآمن ونصر الخائف، يا حملة القرآن جاءكم النصر من الرَّحْمَن ونصرتم على عبدة الصليبان، وقد بلغت القلوب الحناجر، وعملت المرهفات البواتر، وإذا بفارس على المقدمة كأنه الأسد الزائر أو الليث الهاادر ويده تشرق بالأنيوار كإشراف القمر فنادي الفارس بأعلى صوته: أبشروا يا معاشر حملة القرآن بالنصر المشيد أنا خالد بن الوليد فلما نظر المسلمون الراية وسمعوا صوت خالد رضي الله عنه كأنهم كانوا في لجة وأخرجهم فأجابوه بالتهليل والتكبير، وكانت أصواتهم كالرعد القواصف والرياح العواصف، ثم حمل خالد بن الوليد رضي الله عنه بجيشه الزحف الذي لا يفارق ووضع السيوف في الروم. قال عامر بن سراقة: مما شبهت حملته إلا حملة الأسد في الغنم ففرقهم يميناً وشمالاً. قال: فثبت المسلمون، وكل علج من الروم شديد يمانع عن نفسه وخالد يطلب أن يصل إلى عبد الله بن جعفر.

ولما نظر المسلمون إلى الخيل المقبلة عليها ولم يعلموا ما هي حتى سمعوا صوت خالد بن الوليد رضي الله عنه، فقال: يا أيها الناس دونكم الأعداء، فقد جاءكم النصر من رب السماء، ثم حمل وحملت المسلمين معه. قال وائلة بن الأسعق: لقد كانا أيسنا من أنفسنا وأيقنا بالهلاك حتى أتتنا المعونة من الله عز وجل، فحملنا بحملة إخواننا. قال: فما اختلط الظلام حتى نظرت إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه والراية بيده، وهو يسوق المشركين بين يديه سوق الغنم، إلى المراعي والمسلمون يقتلون ويأسرون فله در أبي ذر الغفارى وضرار بن الأزور والمسىب بن نجية الفزارى لقد قرنا المواكب وهزوا المضارب وقتلوا الروم من كل جانب والتلقى ضرار بعد الله بن جعفر رضي الله عنه فنظر إليه والدم على أكمام درعه كأكباد الإبل فقال: شكرًا لله تعالى لك يا ابن عم رسول الله ﷺ والله إنك لقد أخذت بثار أبيك وشفيت غليلك، فقال عبد الله بن جعفر رضي الله عنه: من الرجل المخاطب لي؟ وكان الظلام قد اعتكر وضرار ملثم لا يبين منه إلا الحدق فلم يعرفه عبد الله. فقال: أنا ضرار بن الأزور صاحب رسول الله ﷺ، فقال: مرحباً بطلعتك وبأي خ منا عدل لنا وقام لنصرتنا.

معركة ضرار

قال عبد الله بن أنيس: في بينما هم على ذلك إذ أقبل خالد بن الوليد. رضي الله عنه وجيشه الزحف. فقال: شكر لك الله وأحسن جزاءك، ثم قال عبد الله: يا ضرار أعلم أن حامية الروم والبطارقة عند الدير لأجل ابنة صاحب طرابلس وما معها من الأموال، وقد

أحاط بها كل فارس من الروم، فهل لك يا ابن الأزور أن تحمل معي؟ فقال: وأين هم؟ فقال: أما تنظر إليهم فمد عينه، وإذا بحامية الروم وبطريق طرابلس وقد أحدقوا بالدير يمنعون عن الجارية والنيران مشتعلة والصلبان تلمع كضوء النار وكأنهم سد من حديد. فقال: أرشدك الله للخيرات فنعم المرشد أنت احمل حتى احمل معك بحملتك قال: فحمل عبد الله بن جعفر من جهته وحمل ضرار بن الأزور من جهةه واتبعهما الرجال وزعوا في الروم وحمة المشركين وهو يمانعون عن أنفسهم وكان أشدتهم منعة بطريقهم فبرز أمام القوم وهو يهدى كالبعير ويزار زئير الأسد يصبح بكلمة الكفر ويحمل حملات الشجعان فقصده ضرار بن الأزور وباطشه في الضرب والتقت الأقران ونظر ضرار إلى العلوج وعظم خلقته وتمكنه في سرجه وشدة ضربه وحسن احترازه فأخذ ضرار منه حذره، واحترز منه الطريق وطلبه أشد الطلب وكل واحد منهم طامع في صاحبه، فانفرد ضرار بن الأزور مع صاحب القوم وكل قرن مع قرنه، وليس مع ضرار أحد المسلمين فانبسط ضرار بين أيديهم ليذكر بهم وطلبه الطريق وأصحابه وقصدوه بحملتهم، فلما نظر ضرار إلى ذلك قصد موضعًا يصلح لمحاجل الخيل فاعترضه واحد من ظلمة الليل فكباه به الجواد فسقط الأرض هاويا ثم ثار من سقطته يرجم أخذ الفرس فلم يجد إلى ذلك سبيلاً فوق مكانه وسيفه وجحافته بيده وجعل يجاهدهم بسيفه وصبر لهم صبر الكرام ولم تأخذه في الله لومة لائم فتحقق عليه طريق الروم وأقبل يضربه بعموده، فلما لازمه ورمي العمود عليه زاغ ضرار عن الضربة، ثم وثب إليه وثبة الأسد وضربه ضربة أزعجت فرس الطريق من تحته وقام على رجليه وشك بيديه وضربه الثانية فوافت ضربة ضرار في عين جواده فانتكس الجواد إلى الأرض ووقع العلوج على ظهره ولم يقدر أن يقوم لأنه مزرد في سرجه، فعالجه ضرار قبل وصول غلمانه إليه وضربه على جبل عاتقه فنبا سيفه ولم يعمل شيئاً فناهضه العلوج وقد أيقن بالهلاك وقبض عليه وكان كالجبل العظيم فرماه ضرار تحته وملك صدره واستوى على نحره، وكان مع ضرار سكين من صنعة اليمن لا تفارقه فاستلها من غمدها وضرب صدر عدو الله إلى سرتة فسقط عدو الله قتيلاً وعجل الله بروحه إلى النار وبئس القرار.

ثم وثب ضرار وملك جواد عدو الله واستوى في سرجه، وكان على الجواد كثيراً من الذهب والفضة والفصوص التي تساوي ثمناً كثيراً، فلما صار على ظهر الجواد حمل وكبار على المشركين ففرقهم يميناً وشمالاً، وكان ضرار لما انبسط أمام القوم ملك عبد الله بن جعفر الدير ومن فيه ومن معه من المسلمين وأحدقوا به ولم يأخذوا منه شيئاً حتى رجع خالد رضي الله عنه من اتباع الروم، وذلك أن خالداً اتبعهم إلى نهر عظيم كان بينهم وبين طرابلس الشام، والروم يعرفون مخاوفه فوقف خالد ورجع إلى أصحاب رسول الله ﷺ فوجدهم قد ملکوا الدير وقتلوا العلوج وانتشرت الناس في جمع العنانم وما فتح الشام / ج ١ / م ٧

كان في السوق من المتع والفراش والقماش والثياب والطعام وغيره قال وائلة بن الأسع :

جعلنا نجتمعه ونأكل من الخيرات وأخرجوا ما كان في الدير من آنية الذهب والفضة والستور والمراتب وأخرجوها بابنة الطريق ومعها أربعون جارية لهن حلي وحلل ، والمال على البراذين والبغال والحمير فانقلب أصحاب رسول الله ﷺ بالغنية والأموال الجسيمة .

قال الواقدي : فنسبت تلك السرية لثلاث : عبد الله بن جعفر صاحبها ، وعبد الله بن أبي مدركها ، وخالد بن الوليد من مجدها ولقي خالد فيها مشقة وجراحًا مؤلمة ، فلما ساروا أقبل خالد إلى الدير فصاح بصاحبه يا راهب فلم يكلمه فهتف به مرة أخرى وهدده فاطلع عليه وقال : ما تشاء وحق المسيح ليطالبتك صاحب هذه الخضراء بدماء من قتلت .

فقال خالد : كيف يطالبنا وقد أمرنا أن نقاتلكم ونجاهدكم ووعدنا على ذلك الثواب ، ووالله لو لا رسول الله ﷺ نهانا أن نتعرض لكم لا تركتك في صومعتك بل كنت قتلتك أشر قتلة فسكت الراهب عنه ولم يجبه وانقلب خالد وال المسلمين بالغائم إلى دمشق وأبو عبد الله رضي الله عنه فيها فشكر لهم وسلم على خالد وعلى عبد الله بن جعفر رضي الله عنهم ورجع إلى مكانه فخمس الغنية وقسمها على الناس فدفع لضرار بن الأزور فرس الطريق وسرجه وما عليه من حلي الذهب والفضة والجواهر والفصوص فأتاها ضرار إلى أخيه المست خولة رضي الله عنه قال فرأيتها تنزع فصوص الجوهر فتفرقها على نساء المسلمين وإن الفص منها ليساوي الثمن الكبير قال وعرض السبي على أبي عبيدة رضي الله عنه وفي الجملة ابنة الطريق ، فقال عبد الله بن جعفر : أريدها . قال أبو عبيدة : حتى استأذن أمير المؤمنين في ذلك فكتب إليه يعلمه بها وبمسئلة عبد الله بن جعفر فكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه : هي له ، فأخذها عبد الله وأقامت زمامًا عنده وعلمتها الطبخ ، وكانت من قبل تعرف طبخ الفرس والروم وأقامت عنده إلى أيام يزيد فأخبر بها فاستهدادها منه فأهداها له ، وكانت عنده ، وقال عامر بن ربيعة : أصحابي من غنية سوق الدير مريم وعيسي عليهما السلام فحملت الثياب إلى اليمين فيبعت بثمن كثير وكتب إلى صورة مريم وعيسي عليهما السلام وفتحت الثياب إلى هرقل أو إلى بيت المقدس وهي عمى وأنا مع أبي عبيدة : يا ابن أخي ابعث لي من هذه الثياب وأكثر منها فإنها تتفق .

قال الواقدي : فلما رجع جيش المسلمين غانمًا كتب أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتاباً يخبره بما فتح الله على يديه وما غنم المسلمين من دير أبي القدس ويمدح خالدًا ويشكروه ويثنى عليه ويخبره بما قال فيه وما تكلم به وسألة في كتابه أن يكتب إلى خالد يستشيره في المسير إلى هرقل أو إلى بيت المقدس وكتب إليه أيضًا أن بعض المسلمين يشربون الخمر ، قال عاصم بن ذؤيب العامري ، وكان من شهد قتال الروم بالشام وفتح دمشق العرب الواقدين من اليمين فأخذوا في الشرب

واستطابوا ذلك فأنكر ذلك الأمير أبو عبيدة. فقال رجل من العرب أظنه سراقة بن عامر: يا معاشر المسلمين خلوا شرب الخمور فإنها تزيل العقول وتكتسب الإثم، وإن رسول الله ﷺ لعن شارب الخمر حتى لعن حاملها والمحمولة إليه.

وحدثني أسامة بن زيد الليثي عن الزهري عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف الغفاري قال: كنت مع أبي عبيدة بالشام فكتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخبره بفتح الشام وفي الكتاب: أن المسلمين يشربون الخمر واستقلوا العد فقدمت المدينة فوجدت عمر رضي الله عنه في مسجد رسول الله ﷺ جالساً وعنه نفر في الصحابة وهم عثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف يتحدون فدفعت الكتاب إليه، فلما قرأه جعل يفكّر في ذلك ثم قال: إن رسول الله ﷺ جلد من شربها، ثم سأله عمر علياً رضي الله عنه في ذلك وقال: ما ترى في هذا فقال علي رضي الله عنه: إن السكران إذا سكر هذى، وإذا هذى افترى فكتب إليه عمر أن من شرب الخمر فعله ثمانون جلدة ولعمري ما يصلح لهم إلا الشدة والفقير، ولقد كان حقهم يراقبوا ربهم عزّ وجلّ ويعبدوه ويؤمنوا به ويشكروه فمن عاد فأقم عليه الحد.

قال الواقدي: فلما ورد كتاب عمر رضي الله عنه وقرأه نادي في المسلمين من كان في نفسه حد فليعطي ذلك من نفسه وليتبع إلى الله عزّ وجلّ ففعل ذلك كثير من الناس من كان شرب الخمر وأعطى العد من نفسه، ثم قال أبو عبيدة رضي الله عنه: إني عزمت على المسير إلى أنطاكيا وقصد قلب الروم لعل الله يفتح فتحاً على أيدينا. فقال المسلمون: سر حيث شئت فنحن تبع لك نقاتل أعدائك فسرّ بقولهم وقال: تأهبوا للرحيل فإني سأئركم إلى حلب فإذا فتحناها توجهنا منها إن شاء الله تعالى إلى أنطاكيا، فأمسك المسلمون في إصلاح شأنهم وأخذوا أهبتهم، فلما فرغ أبو عبيدة رضي الله عنه من جميع شغله أمر خالد بن الوليد رضي الله عنه أن يأخذ راية العقاب التي عقدها أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأمره أن يسير أمام الجيش ب العسكرية الزحف فسار خالد على المقدمة ومعه ضرار بن الأزور ورافع بن عميرة الطائي والمسيب بن نجية الفزاري والناس يتبع بعضهم بعضاً وتترك على دمشق صفوان بن عامر السلمي وتترك عنده خمسمائة رجل وسار أبو عبيدة بال المسلمين ومعه ناس من اليمن ومصر.

ذكر فتح حمص

قال الواقدي: وسار أبو عبيدة على طريق البقاع واللبؤة، فلما وصل إلى هناك بعث خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى حمص قال: يا أبا سليمان انهض على بركة الله تعالى وعونه، ونازل القوم وشن الغارة على أرض العواصم وقنسرين وأنا أسيء إلى بعلبك فلعل

الله أن يسهل علينا فتحها، ثم ودعه وسار خالد رضي الله عنه بمن معه إلى حمص وتوجه أبو عبيدة رضي الله عنه إلى بعلبك إذ ورد بطريق جوسيه ومعه الهدايا والتحف وصالح المسلمين سنة كاملة وقال: إن فتحتم بعلبك فأنا بين أيديكم ولا نخالف لكم قولًا فصالحهم أبو عبيدة رضي الله عنه على أربعة آلاف درهم وخمسين ثواباً من الدجاج، فلما انبرم الصلح سار أبو عبيدة رضي الله عنه، يطلب بعلبك مما بعد من اللبوة إلا وقد أشرف عليه راكب نجيب فإذا هو أسامة بن زيد الطائي، فقال: يا أسامة من أين أقبلت؟ فأناخ نجيبه وسلم على أبي عبيدة رضي الله عنه وعلى المسلمين وقال: أتيت من المدينة وسلم إليه كتاباً من عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقضى أبو عبيدة رضي الله عنه، وإذا فيه: لا إله إلا الله محمد رسول الله، بسم الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أمين الأمة: سلام عليك فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلني على نبيه محمد ﷺ، أما بعد فلا مرد لقضاء الله وقدره، ومن كتب في اللوح المحفوظ كافراً فلا إيمان له، وذلك أن جبلة بن الأبيهم الغساني كان قدم علينا ببني عمه وسراة قومه، فأنزلتهم وأحسنت إليهم وأسلموا على يدي وفرحت بذلك إذ شد الله عضد الإسلام والمسلمين بهم، ولم أعلم ما كمن في الغيب وإن سرنا إلى مكة حرستها الله تعالى وعظمها نطلب الحج، فطاف جبلة بالبيت أسبوعاً فوطئه رجل من فزارة إزاره فسقط إزاره عن كتفه فالتفت إلى الفزارى، وقال: يا وليك كشفتني في حرم الله تعالى، فقال: والله ما تعمدى فلطم جبلة بن الأبيهم الفزارى لطمة هشم بها أنفه وكسر ثنayah الأربع فأقبل الفزارى إلى مستعيناً على جبلة، فأمرت بإحضاره وقلت له: ما حملك على أن لطمت أخاك في الإسلام وكسرت ثنayah الأربع وهشمت أنفه؟ فقال جبلة: إنه وطئ إزارى برجله فحله، والله لو لا حرمة هذا البيت لقتلته، فقلت له: قد أقررت على نفسك فإما أن يعفو عنك وإنما أن آخذ له منك القصاص، فقال: أيقتنص مني وأنا ملك وهو من السوق؟ قلت: قد شملك وإياته الإسلام بما تفضل له إلا بالعافية، فقال: أتركتني إلى غداً وتقتنص مني؟ فقلت للفزارى: أتركه إلى غد؟ قال: نعم. فلما كان الليل ركب في بني عمه وتوجه إلى الشام إلى كلب الطاغية، وأرجو أن الله تعالى يظفرك به فأنزل على حمص ولا تنفذ عنها فإن صالحك أهلها فصالحهم، وإن أبوها فقاتلهم وابعث عيونك إلى أنطاكية وكن على حذر من المنتصرة والسلام عليك ورحمة الله وعلى جميع المسلمين.

قال الواقدي: فلما قرأ أبو عبيدة الكتاب في سرته جهر به مرة أخرى ثم لوى يطلب حمص، وكان خالد رضي الله عنه سبقه إليها بثلث الجيش فنزل عليها يوم الجمعة من شوال سنة أربع عشرة من الهجرة النبوية، وكان عليها واليًا بطريق من قبل هرقل اسمه لقيطا وكان قد مات قبل نزول خالد والمسلمين رضي الله عنهم أجمعين فاجتمع المشركون في كنيستهم العظمى، وقال كبيرهم: ألموا أن صاحب الملك قد مات وليس

عند الملك خبر من هؤلاء العرب وقد نزلوا علينا وما ظننا ذلك، ولقد حسبنا أنهم لا ينزلون علينا حتى يفتحوا جوسيه وبعلبك وإن أتتم قاتلتهم وكاتبتم الملك أن يسير إليكم واليا وجيشا، فإن العرب لا تتمكن أحدا من جنود الملك أن يسير إليكم ولا يصل لكم، وليس عندكم طعام يقوم بكم للحصار، فقالوا: أيها السيد فما الذي ترى؟ قال: صالحون القوم على ما أرادوا وتقولون نحن لكم وبين أيديكم إن فتحتم حلب وقنصرين وهزتم جيش الملك، فإذا توجه القوم عنا بعثنا إلى الملك أن يمدنا بجيش عرمم ويولي من أراد علينا ويستوثق لنا من الطعام والعدد، وبعد ذلك نقاتلهم فاستصوب القوم رأيه وقالوا: دبرنا بحسن رأيك وتديرك فبعث الطريق إلى أبي عبيدة رضي الله عنه جائلاً كان عندهم معظمًا لعقد الصلح بينهم وبين المسلمين فخرج الجاثيلق ووصل إلى أبي عبيدة رضي الله عنه وتكلم في الصلح معه بما تحدث به الطريق من أمر سير المسلمين إلى حلب وقنصرين والعواصم وأنطاكية فأجابهم أبو عبيدة رضي الله عنه إلى ذلك وصالح القوم لهم أهل حمص على عشرة آلاف دينار ومائتي ثوب من الدبياج وعقد الصلح مع القوم سنة كاملة أولها ذو القعدة وأخرها شوال سنة أربع عشرة من الهجرة. قال وانبرم الصلح وخرجت السوق من حمص إلى عسكر المسلمين فباعوا واشتروا ورأى أهل حمص سماحة العرب من بيعهم وشرائهم وربحا منهم ربيحا وافيا.

ذكر حديث سرية خالد بن الوليد رضي الله عنه

قال الواقدي: إن أبي عبيدة دعا بخالد وضم إليه أربعة آلاف فارس من لخم وجذام وطي ونبهان وكهلان وستس وخolan وقال: يا أبا سليمان شن الغارة بهذه الكتبية واقتصر بها المعركة واقرب من معركة حلب وشن بها الغارة على بلدة العواصم وارجع على أثرك وانفذ عيونك وانظر إن كان للقوم نجدة أو ناصر من قومهم أم لا؟ فأجابه خالد إلى ذلك وأخذ الرأية وتقدم أمام الكتابية وجعل ينشد ويقول:

| | |
|-----------------------|--------------------------|
| إنني بحملها زعيم | أخذتها والملك العظيم |
| وصاحب لأحمد الكريم | لأنني كبسبني مخزوم |
| أسير مثل الأسد الغشوم | يا رب فارزقني قتال الروم |

قال الواقدي: وسار خالد بن الوليد إلى شيزر ونزل على النهر المقلوب، ودعا بمصعب بن محارب اليشكري وضم إليه خمسمائة فارس وأمره أن يشن الغارة على العواصم وقنصرين... وسار خالد بن الوليد إلى كفر طاب والمراء وإلى دير سمعان وجعلت خيل المسلمين تغير يميناً وشمالاً على القرى والرساتيق ويأخذون الغنائم والأسرى فرجعوا إلى خالد بن الوليد بالأسرى فسار بهم إلى أبي عبيدة رضي الله عنه،

فلما نظر إلى خالد وما معه من الغنائم والأموال فرح فرحاً شديداً وإذا خلف خالد سواد عظيم قد ارتفعت أصواتهم بالتهليل والتكبير والصلة على البشير التذير. فقال أبو عبيدة رضي الله عنه: ما هؤلاء يا أبا سليمان؟

فقال خالد: هذا مصعب بن محارب اليشكري وقد عقدت له راية على خمسين إلة فارس من قومه، ومن أهل اليمن وإنه أغارت بهم على العواصم وقنسرين وقد أتى بالغنائم والسيبي والأموال، فالتفت الأمير أبو عبيدة فنظر إلى سرخ عظيم من البقر والغنم وبراذين عليها رجال ونساء وصبيان ولهم دوي عظيم وبكاء شديد فقصدتهم أبو عبيدة رضي الله عنه وإذا برجال مقرئون في الحبال وهم يبكون على عيالهم ونهب أموالهم، وخراب ديارهم. فقال أبو عبيدة رضي الله عنه لترجمانه: قل لهم ما بالكم تبكون ولم لا تدخلون في دين الإسلام وتطلبون الأمان والذمماً لتؤمنوا على أنفسكم وأموالكم؟ فقال لهم الترجمان ذلك. فقالوا: أيها الأمير نحن كنا بالبعد منكم وكانت أخباركم تأتينا وما ظننا أنكم تبلغون إلينا فما شعرنا حتى أشرف علينا أصحابكم فنهبوا أموالنا وأولادنا وساقونا في الجبال كما ترى.

قال الواقدي: وكانت الأعلام زهاء من أربعين إلة علچ. فقال لهم الأمير: إن مننا عليكم وأطلقناكم من أسركم ورددنا عليكم أموالكم وأهاليكم فهل تكونون في طاعتنا وتؤدون الجزية إلينا والخارج؟ فقالوا: أوف لنا بذلك ونحن نفعل جميع ما شرطته علينا، فعند ذلك أقبل أبو عبيدة رضي الله عنه إلى المسلمين، وقال لهم: قد رأيت من الرأي أن أؤمن هؤلاء من القتل وأرد عليهم أموالهم وعيالهم فيكونوا عبيداً لنا ويعمروا الأرض والبلاد ونأخذ خراجهم وجزيئهم بما أنتم قائلون مما كنت بالذي أقطع أمراً إلا بمشورتكم، فقالوا: الرأي رأيك في ذلك أيها الأمير إن رأيت صلحاً للمسلمين.

قال الواقدي: ففرض على كل واحد أربعة دنانير وبذلك كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فعند ذلك رد عليهم أموالهم وأولادهم وأقر لهم على بلادهم وكتب أسماءهم وأمرهم بالرجوع إلى أوطانهم، فلما استقروا في خيامهم أخبروا من كان بالقرب منهم بحسن سيرة العرب وما عاملوهم به من الجميل وقالوا: لقد ظننا أنهم يقتلوننا ويستعبدون أولادنا والآن قد رحمنا وأقروا في بلادنا على أداء الجزية والخارج.

قال الواقدي: فسمعت الروم ذلك فأقبلوا إلى أبي عبيدة رضي الله عنه في طلب الأمان وأداء الجزية والخارج.

ذكر فتح قنسرين

قال الواقدي: وبلغ الخبر إلى أهل قنسرين أن الأمير أبا عبيدة يعطي الأمان من

قصده فأحبوا أن يأخذوا الأمان من أبي عبيدة رضي الله عنه وأجمعوا رأيهما على ذلك وأن ينفذوا رسولًا من غير علم بطريقهم.

قال الواقدي : وكان على قنسرين والعواصم بطريق من بطارقة الملك من أهل الشدة والباس ، وكان أهل قنسرين يخافون منه ، وكان اسمه لوقا ، وصاحب حلب عسكره مثل عسكته وسلطته مثل سلطته ، وكان الملك هرقل قد دعا بهما إليه ، فقالا له : أيها الملك ما كان ترك ملکنا من غير أن نقاتل قتالاً شديداً فشكراًهما الملك هرقل على ذلك ووعدهما أن يبعث إليهما جيشاً عرماً و كانوا متظرين ذلك من وعد الملك لهما ، وكان مع كل واحد منهما عشرة آلاف فارس إلا أنهما لا يجتمعان في موضع واحد . قال فلما سمع صاحب قنسرين ما قد عزم عليه أهل قنسرين من الصلح مع أبي عبيدة غضباً شديداً وعزم أن يمكر بهم فجمع أهل قنسرين إليه وقال لهم : يا بني الأصفر ما تريدون أن أصنع من هؤلاء العرب وكأنكم بهم وقد أقبلوا إلينا يفتحون بلادنا كما فتحوا أكثر بلاد الشام . فقالوا : أيها السيد قد بلغنا أنهم أصحاب وفاء وذمة وقد فتحوا أكثر البلاد بالصلح والعدل ومن قاتلهم قاتلوه واستعبدوا أهله وأولاده ، ومن دخل تحت طاعتهم أقرّوه في بلده وكان آمناً من سلطتهم ، والرأي عندنا أن نصالح القوم ونكون آمنين على أنفسهم وأموالنا . فقال لهم الطريق : لقد أشرتم بالصواب والأمر الذي لا يعب ، لأن هؤلاء العرب قوم منصورون على من قاتلهم ، وها أنا أعقد لكم الصلح معهم سنة كاملة إلى أن ترافينا جيوش الملك هرقل ونعطي عليهم وهم آمنون فنبدهم عن آخرهم . فقالوا : أفعل ما فيه الصلاح .

قال الواقدي : واتفق أهل قنسرين والطريق على صلح المسلمين وفي قلوبهم الغدر . قال وإن لوقا البطريق دعا برجل من أصحابه اسمه اصطخر ، وكان قسيساً عالماً بدین النصرانية فصيبح اللسان قوي الجنان يعرف العربية والرومية ، وقد عرف الدينين اليهودية والنصرانية . فقال لوقا : يا أبا نا سر إلى العرب وقل لهم يصالحونا سنة كاملة حتى وبعد القوم بالحيلة والخداع . ثم كتب الكتاب إلى الأمير أبي عبيدة رضي الله عنه . فقال بعد كلمة كفره : أما بعد يا معاشر العرب إن بلدنا منيع كثير العدد والرجال فما تأتونا من قبله ولو أقمتم علينا مائة سنة ما قدرتم علينا ، وإن الملك هرقل قد استنجد عليكم من حد الخليج إلى رومية الكبرى ونحن قد بعثنا إليكم نصالحكم سنة كاملة حتى نرى لمن تكون البلاد ، ونحن نريد منكم أن تجعلوا بيننا وبينكم علامة من حد أرض قنسرين والعواصم حتى إذا همت العرب بالغارة بدت العلامة تربكم حد أرضنا ، ونحن نصالحكم خفية من الملك هرقل لثلا يعلم فيقتلنا والسلام . ثم خلع على اصطخر خلعة سنة وأعطاه بغلة من مراكبه وعشرة غلمان ، وسار حتى وصل إلى حمص فرأى الأمير أبو عبيدة رضي

الله عنه يصلی بال المسلمين صلاة العصر فوق اصطخر ينظر ما يفعلون ويعجب من ذلك، فلما فرغوا من صلاتهم ونظروا إلى القسیس وثبوا إليه، وقالوا له: من أنت؟ ومن أين أقبلت. فقال: أنا رسول ومعي كتاب، فمثلوه بين يدي أبي عبیدة فهم القسیس بالسجود له فمنعه أبو عبیدة رضي الله عنه، من ذلك، وقال له: نحن عبید الله عز وجل فمنا شقى ومنا سعيد **﴿فَأُمَّا الَّذِينَ شَقَوْا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدُّوْنَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾** [هود: ١٠٦، ١٠٧] فلما سمع اصطخر ذلك بهت ويفي لا يرد جواباً، وهو متعجب مما تكلم به الأمير أبو عبیدة رضي الله عنه، فناداه خالد بن الوليد رضي الله عنه، وقال له: ما شأنك أيها الرجل ورسول من أنت؟ فقال اصطخر: أنت أمير القوم؟ فقال خالد: لا بل هذا أميرنا، وأشار إلى أبي عبیدة رضي الله عنه. فقال اصطخر: أنا رسول صاحب قنسرین والعواصم، ثم أخرج الكتاب ودفعه إلى أبي عبیدة رضي الله عنه فأخذه وقرأه على المسلمين، فلما سمع خالد بن الوليد رضي الله عنه ما في الكتاب من صفة مدحهم وكثرة عددهم ورجالهم وتهديدهم بجيوش الملك هرقل حرك رأسه وقال لأبي عبیدة: وحق من أيدنا بالنصر وجعلنا من أمة محمد ﷺ الطاهر إن هذا الكتاب من عند رجل لا يريد الصلح بل يريد حربنا، ثم قال لاصطخر: تريدون أن تخدعونا حتى إذا جاءت جنود صاحبكم ورأيتم القوم وقد جاءتكم نقضتم صلحنا وكتتم أول من يقاتلنا، وإن رأيتم الغلبة لنا هربتم إلى طاغيتكم هرقل، فإن أردتم ذلك فنوعادكم الحرب مواعدة من غير أن يكون صلحاً سنة كاملة، فإن لحق بكم جيش هذه السنة من الملك هرقل، فلا بد من قتاله فمن أقام في المدينة ولم يقاتل مع الجيش فهو على صلحنا لا تتعرض له. قال اصطخر: قد أجبناكم إلى ذلك فاكتبا لنا كتاباً بذلك. فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه: أيها الأمير اكتب لهم كتاباً بمواعدة الحرب سنة كاملة أولها مستهل شهر ذي القعدة سنة أربع عشرة من الهجرة النبوية. قال: فكتب له أبو عبیدة رضي الله عنه بذلك، فلما فرغ من الكتاب. قال له اصطخر: أيها الأمير حد بلادنا معروف وبإذنا صاحب حلب وببلاده بحد بلادنا ونريد أن تجعل لنا علامة فيما بيننا وبينكم حتى إذا طلب أصحابكم الغارة لا يتتجاوزون ذلك.

قال الواقدي: فرضي أبو عبیدة رضي الله عنه بذلك، وقال: أنا أبعث من يحدد لكم ذلك، قال اصطخر: أيها الأمير ما نريد معنا أحداً من أصحابك نحن نصنع عموداً ونصبه ويكون عليه صورة الملك هرقل، فإذا رأه أصحابك لا يجاوزونه. فقال أبو عبیدة رضي الله عنه: افع ذلك، ثم دفع إليه الكتاب ونادي في عساكر المسلمين وأصحاب الغارات من نظر إلى عمود فلا يتعداه ولا يتتجاوزه بل يشن الغارة على أرض حلب وحدها ولا يتتجاوز العمود فليبلغ الشاهد الغائب.

قال الواقدي: ورجع اصطخر إلى بطريق قنسرين وأعلم بما جرى له مع خالد بن الوليد رضي الله عنه ودفع له الكتاب، ففرح بذلك وقصد إلى عمود عظيم وصنع عليه صورة الملك هرقل كأنه جالس على كرسي مملكته.

قال الواقدي: وكانت خيل المسلمين تضرب غارتها إلى أقصى بلاد حلب والعمق وأنطاكية ويحيدون عن حد قنسرين والعواصم ولا يقربون العمود. قال عمر بن عبد الله الغبرى عن سالم بن قيس عن أبيه سعد بن عبادة رضي الله عنه قال: كان صلح المسلمين لأهل قنسرين والعواصم على أربعة آلاف دينار ملكية ومائة أوقية من الفضة وألف ثوب من متاع حلب وألف وستمائة طعام.

قال الواقدي: حدثنا عامر. قال: كنا في بعض الغارات إذ نظرنا إلى العمود وعليه صورة الملك هرقل فجئنا عنده وجعلنا نجول حوله بخيولنا ونعلمها الكر والفر، وكان يبد أبي جندلة قناعة تامة فقرب به الججاد من الصورة، وهو غير متعمد ذلك ففقأ عين الصورة، وكان عندها قوم من الروم وهم غلمان صاحب قنسرين يحفظون العمود فرجعوا إلى الطريق وأعلموا بذلك فغضب غضباً شديداً ودفع صليباً من الذهب إلى بعض أصحابه وضم إليه ألف فارس من أعلام الروم وعليهم الديباج الرومي وعليهم المناطق المجوفة وأمر اصطخر أن يسير معهم. وقال له: ارجع إلى أمير العرب وقل له غدرتم بنا ولم توافوا بذمامكم، ومن غدر جندل، فأخذ اصطخر الصليب وسار مع ألف فارس من الروم حتى أشرف على أبي عبيدة رضي الله عنه، فلما نظر المسلمون إلى الصليب، وهو مرفوع أسرعوا إليه ونكسوه فاستقبل أبو عبيدة القوم وقال: من أنت؟ قال اصطخر: أنا رسول صاحب قنسرين إليك، وهو يقول لك غدرتم ونقضتم العهد الذي بيننا وبينكم، فقال أبو عبيدة رضي الله عنه: وحق رسول الله ﷺ ما علمت بذلك وسوف أسأل عنه، ثم نادى: يا معاشر الناس من فقا عين التمثال فليخبرنا بذلك، فقالوا: أيها الأمير أبو جندلة وسهل بن عمرو صنعا ذلك من غير أن يتعمداه. فقال أبو عبيدة رضي الله عنه لاصطخر: إن صاحبنا فعل ذلك من غير أن يتعمد فما الذي يرضيك منا؟ فقالت الأعلام: لا نرضى حتى نفقأ عين ملككم يريدون بذلك أن يتطرقوا إلى رقب المسلمين. فقال أبو عبيدة رضي الله عنه: ها أنا فاصنعوا بي مثل ما صنع بصورتكم. قالوا: لا نرضى بذلك إلا بعين ملككم الأكبر الذي يلي أمر العرب كلها. فقال: إن عين ملكتنا تمنع من ذلك.

قال الواقدي: وغضب المسلمين حين ذكر الأعلام عين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهما بقتل الأعلام، فنهاهم أبو عبيدة رضي الله عنه عن ذلك فقال المسلمون: أيها الأمير نحن دون إمامنا فنفديه بأنفسنا ونفقأ عيوننا دون عينه. فقال اصطخر عندما نظر

إلى المسلمين وقد همّوا بقتله وقتل من معه من الأعلاج: لا نفقاً عين عمر ولا عيونكم، ولكن نصور صورة أميركم على عمود ونصنع به مثل ما صنعتم بصورة ملائكتنا. فقالت المسلمون: إن صاحبنا فعل ذلك من غير تعمّد وأنتم تريدون العمد. فقال أبو عبيدة رضي الله عنه: مهلاً يا قوم، فإذا رضي القوم بصورتي فقد أجبتم إلى ذلك ولا يتحدث القوم عنا أننا عاهدنا وغدرنا فإن هؤلاء القوم لا عهد لهم ولا عقل، ثم أجابهم إلى ذلك.

قال الواقدي: فصوروها أبي عبيدة رضي الله عنه على عمود وجعلوا له عينين من زجاج وأقبل فارس منهم حنقاً ففقاً عين الصورة، ثم رجع اصطخر إلى صاحب قنسرين وأخبره بذلك. فقال لقومه بهذا نالهم ما يريدون. قال: وأقام أبو عبيدة على حمص يغیر يميناً وشمالاً يتظاهر خروج السنة لينظر ما بعد ذلك.

قال الواقدي: وأبطأ خبر أبي عبيدة على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولم يرد عليه شيء من الكتب والفتوح، فأنكر عمر ذلك وظن به الظنو وحسب أنه قد دخله خبر وقد ركن إلى القعود عن الجهاد، فكتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتاباً يقول فيه: بسم الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى أمين الأمة أبي عبيدة عامر بن الجراح سلام عليك، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلحي على نبيه محمد ﷺ وأمرك بتقوى الله عزّ وجّل سراً وعلانية، وأحدركم عن معصية الله عزّ وجّل وأحدركم وأنهاكم أن تكونوا من قال الله في حقهم «فَلَمَّا كَانَ آبَاؤُهُمْ وَأَبْنَاؤُهُمْ وَإِخْوَانُهُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ وَعَشِيرَتُهُمْ» [التوبه: ٢٤] الآية، وصلّى الله على خاتم النبّيين وإمام المرسلين، والحمد لله رب العالمين. فلما وصل الكتاب إلى أبي عبيدة رضي الله عنه قرأه على المسلمين، فعلموا أن أمير المؤمنين عمر يحرّضهم على القتال، وندم أبو عبيدة رضي الله عنه على صلح قنسرين ولم يبق أحد من المسلمين إلا بكى من كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقالوا:

أيها الأمير ما يقعدك عن الجهاد فدع أهل شيزر وقنسرين واطلب بنا حلب وأنطاكية، فلعل الله أن يفتحهما على أيدينا وقد انقضى أجل الصلح وما بقي إلا القليل، وما البقاء إلا للملك الجليل، فعزّم أبو عبيدة على المسير إلى حلب وعقد راية لسهل بن عمرو، وعقد راية أخرى لمصعب بن محارب اليشكري، وأمر عياض بن غانم أن يسير على مقدمتهم واتبعه خالد بن الوليد وسار أبو عبيدة رضي الله عنه إلى أن نزل على الرشين وصالح أهلها وسار إلى حماة فخرج أهلها إليه ومعهم الإنجيل وقد رفعه الرهبان على أكفّهم والقسّيس أمّا القوم يطلبون منه الصلح والذمام، فلما رأه أبو عبيدة رضي الله عنه وقف، وقال لهم: ما الذي تريدون؟ فقالوا: أيها الأمير نريد أن نكون في صلحكم وذمّامكم فأنتم أحبّ إلينا.

قال الواقدي: فصالحهم أبو عبيدة وكتب لهم كتاب الصلح والذمam وخلف رجالاً من المؤمنين وسار حتى نزل إلى شيزر فاستقبلوه فصالحهم وقال لهم: أسمعتم للطاغية هرقل خبراً؟ فقالوا: ما سمعنا له خبراً غير أنه اتصل بنا الخبر أن بطريق قنسرين قد كتب إلى الملك هرقل يستنجد بهم عليكم، وقد بعث بجبلة بن الأيمان الغساني من بني غسان والعرب المتنصرة ومعه بطريق عمورية في عشرة آلاف فارس وقد نزلوا على جسر الحديد فكن منهم على حذر أيها الأمير. فقال أبو عبيدة رضي الله عنه: حسبنا الله ونعم الوكيل.

قال الواقدي: وأقام الأمير أبو عبيدة على شيزر وبقي مرة يقول: أسير إلى حلب ومرة يقول أسير إلى أنطاكية فجمع أمراء المسلمين إليه. وقال: أيها الناس قد بلغني أن بطريق قنسرين قد نقض العهد وأرسل للملك هرقل والخبر كذا وكذا فما أنتم قائلون؟ فقالوا: أيها الأمير دع أهل قنسرين والعواصم وسر بنا إلى حلب وأنطاكية. فقال: خذوا أهبتكم رحمة الله.

قال الواقدي: وكان بقي من الصلح والعقد الذي بينهم وبين أهل قنسرين شهر أو أقل من ذلك، فأقام أبو عبيدة رضي الله عنه ينتظر انفصال العهد. قال وكانت عبید العرب يأتون بجراثيم الشجر من الزيتون والرمان وغير ذلك من الأشجار التي تطعم الشمار فعظم ذلك على الأمير أبي عبيدة رضي الله عنه فدعا العبيد إليه وقال: ما هذا الفساد؟ فقالوا: أيها الأمير إن الأحاطب متباudeة منا وهذه الأشجار قربة. فقال الأمير أبو عبيدة: عزيمة مني على كل حر وعبد قطع شجرة لها طعم وثمر لأجازينه ولأنكلن به، فلما سمع العبيد ذلك النkal جعلوا يأتون بالأحاطب من أقصى الديار. قال سعيد بن عامر وكان معي عبد نجيب وكان اسمه مهجعاً وقد شهد معي الواقع والحروب كان جريء القلب في القتال وكان إذا خرج في غارة أو في طلب حطب يتوجل وبعد فخرج هو وجماعة من العبيد من شهد الواقع في طلب الحطب، فابتدا خبره على سيده سعيد بن عامر، فركب جواده وخرج في طلبه وجعل يقفوا أثره وإذا لاح له شخص وقد سال دمه على وجهه وصبع سائر جسده وما كاد يمشي خطوة واحدة إلا ويهوي على وجهه. قال سعيد بن عامر: فنزلت إليه وقلت له: ما وراءك من الأخبار؟ فقال: هلكة ودمار يا مولاي فقلت: عليك يا ابن الأسود حدثني بخبرك. قال سعيد: فلم يك يقف حتى سقط على وجهه، فنضجت على وجهه ماء فسكن ما به. فقال: يا مولاي انج بنفسك وإنما أدركك القوم يصنعون بك مثل ما صنعوا بي. فقلت: ما القوم الذين صنعوا بك ما أرى؟ فقال: خرجت يا مولاي أنا وجماعة من الموالي لتحطب حطبًا، فتباعدنا كثيراً في البر وإذا نحن بكتيبة من الخيل زهاء عن ألف فارس كلهم عرب وفي أعناقهم صلبان الذهب والفضة وهم معقلون بالذهب والفضة

والرماح، فلما نظروا إلينا أسرعوا نحونا وداروا بنا وعزموا على قتلنا. فقلت لأصحابي: دونكم ولبياهم!

قالوا: ويحك ومن يقاتل وليس لنا طاقة بقتال هذه الكتيبة والخيل وما لنا إلا أن نلقى بأيدينا إلى الأسر فهو أهون من القتال. فقلت: لا والله ما سلمت نفسي إليهم دون أن أقاتل قتالاً شديداً، فلما رأوا مني الجد فعلوا مثل فعلي فقاتلنا القوم وقاتلنا فقتلوا منا عشرة وأسروا عشرة، وأما أنا فأناخت بالجراح حتى سقطت على وجهي فرجعوا عنني وبقيت كما ترى. قال سعيد بن عامر الأنباري: فغمي والله ما نزل بالعيid فأردفته ورائي ورجعت على أثري وإذا بالخيل قد طلعت من ورائي كأنها الريح الهبوب أو الماء إذا اندفق من ضيق الأنبوب، وإذا بخيل غسان أحدق بالرماح الطوال وهم يقولون: نحن بنو غسان من حزب الصليب والرهبان. قال سعيد بن عامر: فناديتهم أنا من أصحاب محمد المختار عليه السلام، فأسرع بعضهم إلي وهم أن يعلوني بالسيف فناديه: يا وليك أنتقتل رجالاً من قومك. فقال: من أي الناس أنت؟ قلت: أنا من الخزرج الكرام، فرد السيف وقال: أنت طلبة سيدنا جبلة بن الأبيهم وحق المسيح، فقلت: ومن أين يعرفي جبلة حتى يطلبني؟ فقال: إنه يطلب رجالاً من أهل اليمن من أنصار محمد بن عبد الله، ثم قال: سر بنا طائعاً وإلا سرت كرها. قال سعيد بن عامر: فسرت والجيش معى حتى أشرفنا على جيش عرمون وعنه أعلام وصلبان قد رفعت فلم أزل مع القوم حتى أتوا بي إلى مضرب جبلة بن الأبيهم وإذا به جالس على كرسي من ذهب أحمر وعليه ثياب الدبياج الرومي وعلى رأسه شبكة من اللؤلؤ وفي عنقه صليب من الياقوت. فلما وقفت بين يديه رفع رأسه إلي وقال: من أي عرب أنت؟ قلت: أنا من اليمن، قال: أكرمت من أيها. فقلت: أنا من ولد حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن عبد الله بن الأزرور بن عوف بن مالك بن كهلان بن سبا. فقال جبلة: من أي الملا أنت نسباً؟ فقلت: أنا من ولد الخزرج بن حارثة من أنصار محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام. فقال جبلة: وأنا من قومك منبني غسان. فقلت: أنا من القبيلة التي نسبت إليها، فقال: أنا جبلة بن الأبيهم الذي رجعت عن الإسلام فما رضي صاحبكم عمر بن الخطاب أن يكون مثلي لهذا الدين ناصراً حتى يأخذ مني القود لعبد حمير وأنا ملك اليمن وسيد غسان. فقلت: يا جبلة إن حق الله أوجب من حرك وديننا لا يقوم إلا بالحق والنصفة، وإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يخاف ولا تأخذه في الله لومة لائم، فقال لي: ما اسمك؟ فقلت: سعيد بن عامر الأنباري، فقال: أوطيء يا سعيد قال: فجلست فقال: ألك عهد بحسان بن ثابت الأنباري؟ فقلت: شاعر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن قال فيه المصطفى: أنت حسان ولسانك حسام. فقال لي كم لك منذ فارقة؟ فقلت: عهدي به

قريب وقد دعاني إلى دعوة صنعتها وأمر مولاته أن تنشد بها شعرًا فيك فأنشدت:

| | |
|-----------------------------|--------------------------|
| يوماً بجلق في الزمان الأول | لله در عصابة نادمتهم |
| لا يسألون عن السواد المقبل | يغشون حتى ما تهر كلابهم |
| شم الأنوف من الطراز الأول | بيض الوجوه كريمة أنسابهم |
| المشفقين على اليتيم الأرمل | الملحقين فقيرهم بغنيهم |
| قبر ابن مارية الكريم المفضل | أولاد جفنة حول قبر أبيهم |

ثم خرجنا إلى الشام وهذا آخر عهدي به. قال جبلة بن الأبيهم: أو حفظ لي هذه المكرمة؟ قلت: نعم، قال فأمر لي بشوب من الكتان الرومي وفيه شيء من الورق. وقال: أنا أمرت لك بالكتان كي تلبسه ولا تحرمه، ثم قال لي: بحق ذمة العرب ما كنت تصنع في المكان الذي أسرت فيه؟ فقلت: إن الصدق أوفي ما استعمله الرجل، أنا من أصحاب الأمير أبي عبيدة بن الجراح وقد قصدنا نريد حلب وأنطاكية. فقال جبلة: أعلم أن الملك قد بعثني أنا وهذا الطريق صاحب عمورية حتى نصر صاحب قنسرين، فإنه قد كادكم بصلحه لكم وأنا منتظر أن يلاقينا بهذا المكان ولكن ارجع إلى صاحبك أبي عبيدة وحذره من أسيافنا وقل له يرجع من حيث قدم ولا يتعرض لبلاد هرقل وسوف ينزع من أيديكم ما قد ملكتموه من الشام. قال سعيد بن عامر: فركبت وأردفت غلامي زررت حتى أتيت عسكر المسلمين، فأسرع الناس إلى وقالوا: أين كنت يا ابن عامر فأيئت خيمة الأمير أبي عبيدة رضي الله عنه وحدثته بقصتي مع جبلة بن الأبيهم فقال لي: لقد خلصك الله بذكرك لحسان بن ثابت الأنصاري، ثم جمع أصحاب رسول الله ﷺ للمشورة، ثم قال: أيها الناس ما ترون من قصة هذا الطريق وقد وفينا له وكادنا؟ فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه: إن البغي مصرعة وإن كادنا كان الله من ورائه بالمرصاد وسوف نكيده أعظم مكيدة وأنا أسير إلى لقائه بعشرة رجال من أصحاب رسول الله ﷺ. فقال أبو عبيدة: أنت لها يا أبا سليمان ولكل كريهة فخذ من أحبيت من أصحاب رسول الله ﷺ. فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه: أين عياض بن غانم الأشعري، أين عمرو بن سعيد، أين مصعب بن محارب اليشكري، أين أبو جندلة بن سعيد المخزومي، أين سهل بن عمرو العامري، أين رافع بن عميرة الطائي، أين المسيب بن نجية الفزاري، أين سعيد بن عامر الأنصاري، أين عمرو بن معبد يكرب الزبيدي، أين عاصم بن عمرو القيسى، أين عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه؟ فأجابوه بالتلبية.

قال الواقدي: وكان ضرار بن الأزور رضي الله عنه رمد العينين لم يحضر هذه الواقعة، فقال لهم خالد بن الوليد: هلموا فوجدوه قد تدرع بدرع مسلمة الكلذاب الذي

استلبه منه يوم اليمامة واشتمل بلامة حرية وركب جواده، وقال لعبدة همام: سر معى حتى ترى مني عجبًا فسار معه وسار خالد بن الوليد رضي الله عنه والعشرة من أصحاب رسول الله ﷺ وأبو عبيدة يقول: يا سعيد أما أخبرك جبلة بن الأبيهم من أين يأتي الطريق صاحب قنسرين إليه؟ فقال: نعم يا أبا سليمان أخبرني فقال له: خذنا في الطريق إلى جبلة بن الأبيهم حتى نكمن له فيه، فإذا أتى الطريق صاحب قنسرين كدناه كما كدنا ودمRNAه ومن معه، فسار سعيد أمام القوم يدلّهم ويجد السير طالب عسکر جبلة بن الأبيهم، وكان مسيّرهم ليلاً فلما وصلوا إلى قرب النيران وسمعوا أصوات القوم عدل بهم سعيد بن عامر إلى صوب طريق الطريق وكمن بمن معه من الرجال إلى وقت الصباح فلم يأت أحد فصلى خالد بأصحابه صلاة الفجر وهم في المكمن في بينما هم في المكمن إذ أشرف عليهم جيش جبلة بن الأبيهم والعرب المتنصرة وصاحب عمورية وهو طالبون أرض العاصمة وقنسرين. فقال المسلمين لخالد: يا أبا سليمان أما ترى هذا الجيش الذي قد أشرف علينا في عدد الشوك والشجر؟ فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه: فما يكون من كثتهم إذا كان النصر لنا والله معنا فاختلطوا بهم أنتم وكونوا في جملتهم كأنكم من جيشهم إلى أن نلتقي بالطريق صاحب قنسرين ويفعل الله تعالى ما يشاء ويختار، فعند ذلك اختلطوا بهم وصاروا في جملتهم وهو لا يفترقون. قال رافع بن عميرة الطائي: فلما أشرفنا على حد صلحنا ولاح لنا بلد العاصمة وقنسرين إذا بيطريقةها قد استقبلنا وقد رفع أمامه الصليب وأخرج بين يديه القوس والرهايـان وهم يقرأون الإنجيل وقد ارتفعت أصواتهم بكلمة الكفر ودنا بعضهم من بعض.

وخرج الطريق أمام الصحابة ليأتي إلى جبلة بن الأبيهم يسلم عليه فاستقبله خالد بن الوليد رضي الله عنه مواجهًا له وحوله أصحاب رسول الله ﷺ فلما قرب الطريق منهم. قال: سلمكم المسيح وأباكم الصليب. فقال خالد: يا وليك ما نحن من عباد الصليب، بل نحن من أصحاب رسول الله ﷺ محمد الحبيب وكشف خالد بن الوليد رضي الله عنه وجهه ونادي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله يا عدو الله أنا خالد بن الوليد أنا المخزومي صاحب رسول الله ﷺ وضرب بيده الطريق وقبض عليه وانتزعه من سرجه ويرز أصحاب رسول الله ﷺ وسلوا السيف على أصحابه وارتفعت الضجة والجلبة وأعلن العدو بكلمة الكفر، وضعج المسلمين بكلمة التوحيد وسمع جبلة وصاحب عمورية أصوات المسلمين، وقد ارتفعت بالتهليل والتكبير فانزعجاً لذلك ونظروا إلى السيف وقد جردت والرماح وقد شرعت فيرزاً نحو أصحاب رسول الله ﷺ وأحاطوا بهم من كل جانب ومكان، فلما نظر خالد إلى ما دهمه ونزل بأصحابه الذين معه والطريق صاحب قنسرين لا يفارقه وقد ملك قيده وهو خائف أن

ينفلت من يديه أو تجري عليه حادثة قبل أن يقتله هم خالد أن يقتله ورفع السيف ليعلوه به فتبسم البطريق من فعاله وعجب خالد من ضحكته، وقال: ويلك مم ضحكك؟ فقال البطريق: لأنك مقتول أنت ومن معك وتريد قتلي، فإن أنت أبقيت علي فهو أصوب فتركه خالد ولم يقتله ثم صاح خالد بأصحابه: أصحاب رسول الله ﷺ كونوا حولي واحمموا عنني واصبروا على ما نزل بكم ولا يكثر عليكم من أحدق بكم فإن أشد ما تخافون منه القتل والموت منية خالد في سبيل الله وإنى والله أهديت نفسي للقتل مراراً لعلّي أرزق الشهادة، واعلموا رحمة الله أن حجتنا واضحة ومفوضة إلى الله عزّ وجلّ وكأني بكم، وقد وصلتم إلى ربكم وسكنتم داراً لا يموت ساكنها، ثم قرأ ﴿لَا يمسهم فيها نصبٌ وما هم منها بمحرجين﴾ [الحجر: ٤٨].

جبلة يحارب خالداً

قال الواقدي: فاجتمع أصحاب رسول الله ﷺ إلى خالد رضي الله عنه وداروا من حوله وسار عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن يمينه ورافع بن عميرة عن يساره وعبد همام من ورائه وأصحابه محدثون به وسلم خالد البطريق صاحب قنسرين إلى عبده همام وقال: أوثقه إلى جانبك ولا تبرح من مكانك وأبشر بالنصر من الله عزّ وجلّ.

قال الواقدي: وأقبلت إليهم العرب المتصررة يقدمهم جبلة بن الأئمّة في عنقه صليب من الذهب الأحمر وفيه طوق من الجوهر وعليه ثياب الدياج المزركش ومن فوقه درع مذهب الزرد وعلى رأسه بيضة من الذهب وعلى أعلى صليب من الجوهر، وفي يده رمح طويل وسنانه يضيء كالقنديل وصاحب عمورية كالبرج المشيد ومن حوله الأعلام المدلجة وقد أحدق بهم الجيش من كل جانب. فلما نظر صاحب عمورية إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه وقد ملك صاحب قنسرين وهو في يده أسير خاف أن يعجل عليه خالد، فأقبل إلى جبلة وقال له: وحق المسيح ما هؤلاء العرب إلا شياطين إلا ترى إلى هذا العربي ومن معه وهم عشرة رجال وقد أحدق بهم هذا الجيش العظيم وما يفكرون فيه وقد ملكوا علينا وهو معهم أسير ولا يخلص من أيديهم وإنى خائف عليه أن يقتلوه وهو عزيز عند الملك هرقل فأخرج إلى هذا العربي، وقل له يخلّي صاحبنا ويوصله إلينا حتى نجود لهم بأنفسهم، فإذا أطلقوا صاحبنا حملنا عليهم وقتلناهم عن آخرهم. قال رافع بن عميرة الطائي: فيبينما نحن وقوف حول خالد بن الوليد رضي الله عنه وجيشه الروم والعرب المتصررة محدثون بما ونحن لا نفكّر في كثريتهم لأنّا واثقون بالله عزّ وجلّ وإذا بجبلة بن الأئمّة وهو ينادي برفع صوته، ويقول: من أنت من أصحاب محمد المعروفين؟ .. من أنت من العرب التابعين؟ أخبرونا من قبل أن ينزل بكم

الدمار، فكان المكلم له خالد وبادره بالخطاب وقال له: بل نحن من أصحاب محمد المختار المعروفين بأهل القبلة والإسلام والإكرام والإنعام. وأما سؤالك عن أنسابنا فنحن الآن من قبائل شتى وقد جعل الله كلمنا واحدة ونحن مجتمعون عليها، وهي قول لا إله إلا الله محمد رسول الله زاده الله تعالى شرفاً. فلما سمع جبلة كلام خالد بن الوليد غضب غضباً شديداً إذ لم يفتأر فيه ولا فيمن معه.

فقال جبلة: يا فتى أنت أمير هؤلاء العرب؟ فقال خالد: لست أميرهم بل أخوهم في الإسلام، وهم إخواني المؤمنون. فقال جبلة: من أنت من أصحاب محمد بن عبد الله رضي الله عنه؟ فقال خالد: أنا المعروف بكبشبني مخزوم، أنا خالد بن الوليد صاحب رسول الله رضي الله عنه، وهذا الرجل الذي عن يميني هو عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وهذا الذي عن شمالي من أهل اليمن من كرام طيء، وهو رافع بن عميرة الطائي صهري وفؤادي، وذلك أني أخذت من كل قبيلة شجاعها المعروف، وبطلها الموصوف، فلا تزدر بقتلنا، ولا تفرح بکثراهم، مما أنتم في القتال إلا كطير وقع عليها صائدتها وهي كامنة في أوکارها فألقى القانص الشبكة عليها فما انفلت منها إلا النجيب.

قال الواقدي: فزاد غضب جبلة من كلام خالد، وقال له: ستعلم أن كلامك عليك ميشوم إذا دارت بك الأسنة وبيت أنت ومن معك طعاماً للوحوش في هذه الفلاة تمزقكم بكرة وعشياً، فقال له خالد: ذلك لا يکثر علينا وهو سهل لدينا. فأنت من العرب التي قد نسبت لعبادة الصليب، فقال: أنا سيدبني غسان ومن ملوك همدان، أنا ملك غسان وتاجها، أنا جبلة بن الأبيهم، فقال خالد: أنت المرتد عن دين الإسلام ومن اختار الضلال على الهدى، وسلك سبيل الغي وضل وغوى، فقال جبلة: لست كذلك أنا الذي اخترت العز على الذل والهوان، فقال خالد: فإنك على ذل نفسك حريص، وإنما الكرامة إنما في دار البقاء والبعد عن دار الشقاء، فقال جبلة: يا أخابني مخزوم لا تفرط علينا في المقال فإنما بقائي عليك وعلى أصحابك بسبب هذا الأسير الذي في يدك لأنني أخاف إن حملت عليكم قتلته قبل قتلك وهو معظم عند الملك هرقل وقريب عنده في النسب فأطلقه من يدك حتى أجود عليكم بأنفسكم، فقال خالد: أما أسيري فلا أطلقه من يدي حتى أقتله ولا أبالي بما صنع بي بعده، وأما قولك تحمل علي وعلى من معك بهذه الجموع فما أني صفت في المقال، فإذا أردت النصفة في القتال فجمعكم عظيم وعدكم كثير، ونحن عشرة رجال وقد أحذقت بنا أعنت خيولكم وأسْتَهْ رماحكم وطبال سيفكم فأبرزوا فارساً لفارس وهذا أميركم، فإن قاتلتمونا فقد خلصتم أسيركم، وإن أظفرنا الله بكم وما النصر إلا من عند الله فما يعظم عليكم هلاك أسيركم إذا هلكت أنفسكم قبله.

قال الواقدي: فعند ذلك نكس جبلة رأسه وأقبل يحدُث صاحب عمورية بجواب خالد بن الوليد رضي الله عنه فغضب صاحب عمورية غضباً شديداً وانتقضى سيفه فلما نظر خالد بن الوليد إلى الطريق وقد جرد سيفه علم أنه يريد القتال، فلما هم صاحب عمورية بالحملة أمسكه جبلة ومنعه عن الحملة وأوقفه تحت صليبه وأقبل جبلة على خالد بن الوليد، وقال: يا أخابني مخزوم إن الحرب كما ذكرت تحتمل النصفة وهؤلاء بنو الأصفر أعلاج الروم غنم ما يعرفون النصفة في البراز وقد حدثهم بحديثك معي وقد رضوا منك بالمبارزة فمن أراد منكم المبارزة فليبرز. قال رافع بن عميرة الطائي: فعزّم خالد بن الوليد أن يبرز فمنه عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقال: يا أبي سليمان وحق القبر الذي ضم أعضاء رسول الله ﷺ وحق شيبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه لا يبرز لهؤلاء القوم غيري وأبذل المجهود فيهم فلعلني أحق بأبي بكر الصديق فتركه خالد، وقال: اخرج شكر الله مقالك وعرف لك فعالك. قال: فخرج عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وهو على فرس كان لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان دفعه له من قسمة غنيمة وقعة أجنادين وكان الجواب من خيلبني لخم وجذام من العرب المنتصرة وكان كالطود العظيم وعبد الرحمن غارقاً في الحديد والزرد التضييد وبهذه قناة تامة الطول فجال عبد الرحمن بجواره بين عساكر الروم والعرب المنتصرة ودعاهم إلى القتال والبراز والتزال وقال: دونكم والقتال فأبا ابن الصديق ثم جعل يقول:

أنا ابن عبد الله ذي المعالي والشرف الفاضل ذي الكمال
أبي المجيد الصادق المقال أدين هذا الدين بالفعال

ثم طلب البراز. قال رافع بن عميرة: فخرج إليه خمسة فوارس من شجعان الروم فما كان يجول عبد الرحمن على الفارس إلا جولة واحدة فيصرعه قتيلاً فلما قتل الخمسة فوارس توقفوا عنه فهم بالحملة على عسكر الروم فخرج إليه جبلة بن الأبيهم وقد اشتد به الغضب، فلما قرب من عبد الرحمن قال له: يا غلام قد تعديت علينا في فعالك وبغيت علينا في قتالك، فقال عبد الرحمن: وكيف ذلك وما البغي من شيمتنا، قال جبلة: لأنك قد ملأت الأرض من قتلانا وما خرجمت إليك أقتلتك لأنك لست لي كفؤاً في القتال، وإنما خرجمت إليك لأن رجلاً من أصحابك قد خرج يعينك، وليس هذا من شيم الأشراف والإنصاف. قال: فلما سمع عبد الرحمن كلام جبلة تبسم، وقال: يا ابن الأبيهم تريد أن تخدعني وأنا تربية الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد شهدت معه الواقع والقتال. فقال جبلة: لست مخادعاً وما قلت إلا حقاً. فقال عبد الرحمن: فآخر بيازاء من خرج سعي فارساً من قومك إن كنت صادقاً في مقالتك واحمل على علي فإني كفء كريم.

قال الواقدي : فلما نظر جبلة بن الأبيهم إلى عبد الرّحمن وأنه لا يُؤتى من قبل الخداع والخيل . قال : هل لك يا غلام أن تلقي بيديك إلينا وأغمسك في ماء المعموديةخمسة تخرج منها نقىًّا من الذنوب كما خرجت من بطن أمك وتكون من حزب الصليب والإنجيل وتأكل القربان وتأخذ الجائزة العظيمة من الملك هرقل وأزوجك ابنتي وأفاسنك نعمتي وأنفضل عليك يا كرامي وإنعامي ، وأنا الذي مدحني شاعر نبيكم حيث يقول :

إن ابن جفنة من بقية عشر
يعطي الجزيel ولا يراه بأنه
لم ينسني بالشام إذ هو بارج
إن جئته يوماً تقر بمنزل
لم تغذهم آباءهم باللوك
إلا كبعض عطية المذموم
يوماً ولا متنصراً بالروم
تسقي براحته من الخرطوم

فأسرع إلى ما عرضته عليك لتنجو من المهالك وتكون في النعم والعيش السليم . فقال عبد الرّحمن : لا إله إلا الله وحده لا شريك له يا وليك يا ابن اللئام أندعوني من الهدى إلى الضلال ومن الإيمان إلى الكفر والجهالة ، وأنا ممن وقر الإيمان في قلبه وعرف ر Sheldon من غيبة وصدق النبي الله وأبغض من كفر بالله ، فدونك والقتال ودع عنك الخديعة والمحال وتقديم إلى ما عزمت عليه حتى أضربك ضربة أُعجل بها حمامك وأرغم بها أنفك وتستريح العرب من أن تنسب إليك لأنك كافر بالرحمن وعبد للصلبان . قال : فغضب جبلة من كلام عبد الرّحمن وحمل عليه وهم به ورفع رمحه يريد أن يطعنه فزاغ عبد الرّحمن من الطعنة وحمل على جبلة حملة عظيمة وتطاعنا بالرماح حتى كل عبد الرّحمن من حمل قناته فرمها من يده وانتقض سيفه وتعاركا في الحرب فهجم عبد الرّحمن على جبلة وضرب رمحه في راه فرمى جبلة باقي الرمح من يده وانتقض سيفه من غمده وكان من سيوف كندة من بقايا عاد كأنه صاعقة بارقة ما ضرب منها شيئاً إلا براه وحمل على عبد الرّحمن رضي الله عنه حملة عظيمة . قال رافع بن عميرة الطائي : فعجبنا والله من عبد الرّحمن وصبره على قتال جبلة ومتنازلته على صغر سنه وقلة أعوانه ، ثم التقى بضربيتين واصليتين فسبقه عبد الرّحمن بالضربة فأخذها جبلة في حجفته فقطع الدرق ونزل السيف إلى البيضة فأثنى سيف عبد الرّحمن عنها لأنها ذات سقاية عظيمة فجرحه جرحاً واضحـاً أسال دمه وضربه جبلة ضربة واصلة فقطع ما كان عليه من الزرد والدروع والثياب ووصلت الضربة إلى منكبـه فجرحتـه ، فلما أحس عبد الرّحمن رضي الله عنه بالضربة قد وصلـتـ إـلـيـ ثـبـتـ نـفـسـهـ وأـرـىـ قـرـيـنـهـ كـأـنـ الضـرـبـةـ لمـ تـصـلـ وـحـرـكـ جـوـادـهـ وأـطـلقـ عنـانـ فـرـسـهـ حتـىـ لـحـقـ بـخـالـدـ بـنـ الـولـيدـ رـضـيـ اللهـ عـنـهـ وأـصـحـابـهـ ، فـلـمـ وـصـلـ إـلـيـهـ قـالـ لهـ خـالـدـ : قـدـ وـصـلـ إـلـيـكـ عـدـوـ اللهـ بـضـرـبـتـهـ ؟ـ فـقـالـ :ـ نـعـمـ ،ـ وـأـظـهـرـ لـهـ ضـرـبـتـهـ وـمـاـ لـحـقـهـ فـأـخـذـوهـ

عن فرسه وسدوا جراحته. فقال: يا ابن الصديق إن كان جبلة قد وصل إليك بضربيه فورحق بيضة أبيك لأفجعنهم في أسيرهم كما فجعني بك ثم صاح خالد بعده همام وقال: قدم هذا العلح فقدمه بين يديه فضربه بسيفه فأطاح رأسه عن جسده، فلما نظرت الروم إلى صاحبهم وقد قتله خالد فجعلهم ذلك غضب جبلة، وقال: أبitem إلا الغدر وقتلتمن صاحبنا ثم صاح في الروم والعرب المنتصرة وهموا بالحملة ونظر خالد إليهم وقد حملوا على المسلمين فقال لعبد همام قف أنت عند عبد الرحمن فامن عن أراده بسوء، ثم قال لأصحابه: أصحاب رسول الله ﷺ لا يخرج أحد منكم عن صاحبه وكونوا حولي فما أسرع الفرج والنصر من الله عز وجل، فوقف أصحاب رسول الله ﷺ حول خالد بن الوليد رضي الله عنه كما أمرهم وما قصدهم إلا من آيس من نفسه وحملت الروم والعرب المنتصرة بأجمعهم وثبت لهم المسلمين الأخيار وعظم بينهم القتال ودارت بهم الأهوال. قال ربيعة بن عامر: والله لقد كان خالد بن الوليد كلما كثرت الخيل حولنا وازدحمنا علينا يتقيها بنفسه ويفرقها بسيفه ولم نزل كذلك حتى أخذنا العطش والظماء. قال رافع بن عميرة الطائي: فلما رأيت ذلك قلت لخالد بن الوليد: يا أبا سليمان لقد نزل بنا القضاء. فقال: والله لقد صدقت يا أبا عميرة لأنني نسيت الفلنسوة المباركة ولم أصحبها معي.

قال الواقدي: وقد عظم عليهم الأمر وعزّ منهم الصبر وأخذهم الانبهار ورأوا من المشركين الدمار والأرض قد ملئت من قتلى المشركين وهم بين الروم كأنهم أسرى وإذا قد نادى بهم مناد وهتف بهم هاتف وهو يقول: خذل الآمن ونصر الخائف أبشروا يا حملة القرآن جاءكم الفرج من الرحمن ونصرتم على عبدة الأواثان، هذا وقد بلغت القلوب الحناجر وعملت السيوف البواتر ودارت عليهم الحوافر.

قال الواقدي: حدثنا بسرة عن إسحاق بن عبد الله قال: كنت مع أبي عبيدة رضي الله عنه فبينما نحن في شيزر وأبو عبيدة في مضربه وإذا به قد خرج في بعض الليل من مضربه وهو ينادي: النفيير يا معاشر المسلمين لقد أححيط بفرسان الموحدين قال فأسرعنا إليه من كل جانب ومكان وقلنا له: ما نزل بك أيها الأمير؟ فقال: الساعة كنت نائماً إذ طرقني رسول الله ﷺ وحزنني وقال لي معتقداً: يا ابن الجراح أتنام عن نصرة القوم الكرام، فقم والحق بخالد بن الوليد رضي الله عنه فقد أحاط به القوم الثناء وإنك تلحق به إن شاء الله تعالى رب العالمين.

قال الواقدي رحمه الله تعالى: فلما سمع المسلمون قول أبي عبيدة رضي الله عنه تبادروا إلى لبس السلاح والزرد وركبوا خيولهم وساروا يريدون خالداً ومن معه قال: فبينما الأمير أبو عبيدة رضي الله عنه على المقدمة في أوائل الخيل إذ نظر إلى فارس يسرع به جواهه وهو أمام الخيل ويكر في سيره كرّا فأمر أبو عبيدة رضي الله عنه رجالاً

من المسلمين أن الحقوا به فلم يقدروا على ذلك لسرعة جواهه قال فلما كلت الخيل عن إدراكه نظر أبو عبيدة إليه وظن أنه من الملائكة قد أرسله الله أماهم غير أنه نادى به الأمير أبو عبيدة: على رسلك أيها الفارس المجد والبطل المكذب أرقق بنفسك يرحمك الله، فوقف الفارس حين سمع النداء، فلما قرب أبو عبيدة من الفارس إذا هي أم تميم زوجة خالد بن الوليد رضي الله عنه. فقال لها أبو عبيدة: ما حملك على المسير أمامنا؟ فقالت: أيها الأمير إني سمعتك وأنت تصيح وتتصفع بالنداء وتقول إن خالداً أحاطت به الأعداء فقلت إن خالداً ما يخذل أبداً و معه ذئابة المصطفى عليه السلام إذ حانت مني التفاتة إلى القلنسوة المباركة وقد نسيها فأخذتها وأسرعت إليه كما ترى. فقال أبو عبيدة: الله درك يا أم تميم سيري على بركة الله وعونه قالت أم تميم: كنت في جماعة نسوة من مذحج وغيرهن من نساء العرب والخيل تطير بنا طيراً حتى أشرفنا على الغبرة والقتال ونظرنا الأسنة والصوارم تلوح في القتال كأنها الكواكب وما للمسلمين حس يسمع قالت فأنكرنا ذلك وقلنا: إن القوم قد وقع بهم عدوهم فعند ذلك كبر الأمير أبو عبيدة رضي الله عنه وحمل وحملت المسلمين، قال رافع بن عميرة: في بينما نحن قد أيسنا من أنفسنا إذ سمعنا التهليل والتكمير فلم تكن إلا ساعة حتى أحاط جيش المسلمين بعسكر الكافرين وووضعوا السيف من كل جانب وعلت الأصوات وارتتفعت الزعقات قال مصعب بن محارب اليشكري فرأيت عبدة الصليبان وهم هاربون ورأيت خالد بن الوليد رضي الله عنه وهو ثابت في سرجه متشفوف إلى الأصوات من أين هي، وإذا بفارس قد خرج من الغبار وهو يسوق فرسان الروم بين يديه ويهربون منه حتى أزاح من حولنا الكتاب والرجال فأسرع خالد بن الوليد إليه، وقال: من أنت أيها الفارس الهمام والبطل الضرغام؟ فقالت: أنا زوجتك أم تميم يا أبا سليمان، وقد أتيتك بالقلنسوة المباركة التي تنصر بها على أعدائك فخذها إليك فوالله ما نسيتها إلا لهذا الأمر المقدر، ثم سلمتها إليه فلمع من ذئابة رسول الله عليه السلام نور كالبرق الخاطف.

قال الواقدي: وعيش عاش فيه رسول الله عليه السلام ما وضع خالد القلنسوة على رأسه وحمل على الروم إلا قلب أوائلهم على أواخرهم وحملت المسلمين حملة عظيمة، فما كان غير بعيد حتى ولت الروم الأبدار وركعوا إلى الفرار ولم يكن في القوم إلا قتيل وجريح وأسير، وكان جبلة أول من انهزم والعرب المنتصرة أثرة، فلما رجع المسلمين من اتباعهم اجتمعوا حول راية الأمير أبي عبيدة رضي الله عنه وأتبعاه وسلموا على الأمير أبي عبيدة رضي الله عنه وعلى المسلمين وشكروا الله على سلامتهم، ونظر أبو عبيدة رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد وأصحابه وهم كانوا قطعة أرجوان فصافحه وهنأه بالسلامة، وقال: الله درك يا أبا سليمان قد أشفيت الغليل وأرضيتك الملك الجليل. ثم قال الأمير أبو عبيدة رضي الله عنه: يا معاشر الناس قد رأيت أن نسير من وقتنا هذا ونغير

على قنسرین والعواصم وقتل الرجال ونهب الأموال، فقال المسلمون: نعم ما رأيت يا أمين الأمة.

قال الواقدي: فانتخب أبو عبيدة رضي الله عنه فرسانًا فجعلهم في المقدمة مع عياض بن غانم الأشعري وساروا حتى أشرفوا على قنسرین والعواصم. فقال لأصحاب رسول الله ﷺ: شتو الغارات، فشتو الغارات عليهم وبسبوا الذراري وقتلوا الرجال، فلما نظر أهل قنسرین إلى ذلك غلقوا مدinetهم وأذعنوا بالصلح وأداء الجزية، فأجابهم أبو عبيدة رضي الله عنه إلى ذلك وكتب لهم كتاب الصلح وفرض على كل رأس منهم أربعة دنانير، وبذلك أمره عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال الواقدي: لما فتح أبو عبيدة رضي الله عنه قنسرین والعواصم. قال لأصحاب رسول الله ﷺ: أشيروا علي برأيكم رحمكم الله، فإن الله تعالى يقول لنبيه ﷺ: «وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله» [آل عمران: ١٥٩] الآية، فهل أسير إلى حلب وقلاعها وأنطاكية وملوكها وعساكرها أو نرجع إلى وراثنا؟ فقالوا: أيها الأمير كيف نرجع إلى حلب وأنطاكية، وهذه أيام انقضاء الصلح الذي بيننا وبين أهل شيزر وأرمين وحمص وجوسية ولا شك أنهم قد أخذوا الحصار وقوروا بلادهم بالأطعمة والرجال ونخاف أن يتغلبوا علينا، فيما أخذناه من البلاد وينغيروا علينا لا سيما بعلبك وحصنها، فإنهم أولو شدة وعديد، ونرى من الرأي أنا نرجع إليهم ونقاتلهم فلعل الله عزوجل أن يفتح على أيدينا. قال فاستصوب ورجع على طريقه فوجدوا البلاد كما قالوا، قد تحصنت بالعدد والرجال والطعام ولم يكن لأبي عبيدة قصد إلا حمص فوجدها قد تحصنت بالعدد والعديد، وقد بعث إليها الملك هرقل بطريقاً من أهل بيته، وكان من أهل الشدة والباس ومعه جيش عرمم، وكان اسم الطريق هربيس، فلما نظر أبو عبيدة إلى ذلك ترك على حمص خالد بن الوليد رضي الله عنه، وسار هو إلى بعلبك، فلما قرب منها، وإذا بقافلة عظيمة فيها جمع من الناس ومعهم البغال والدواب وعليها من أنواع التجارات، وقد أقبلت من الساحل يريدون بعلبك، فلما نظر أبو عبيدة رضي الله عنه إلى سوادها قال لمن حوله من الفرسان: ما هذا إلا جمع كثير أماننا. فقالوا: لا علم لنا بذلك. فقال: علي بخبرهم، فسارت الخيل إليهم وأخذت أخبارهم ورجع بعضهم بخبرها والقافلة من قواقل الروم محملة متأملاً. قال شداد بن عدي: وكانت أحمال القافلة أغلبها سكر، وكانت لأهل بعلبك، فلما سمع أبو عبيدة ذلك قال: إن بعلبك لنا حرب وليس بيننا وبينهم عهد فخذلوا ما قد ساقه الله إليكم، فإنها غنيمة من عند الله.

قال الواقدي: فاحتווنا على القافلة، وكان فيها أربعين ألفاً حمل من السكر والفتق والتين وغير ذلك وأخذنا أهلها أسرى، فقال أبو عبيدة رضي الله عنه: كفوا عن القتل

واطلبوها منهم الفداء فابتعنهم أنفسهم بالذهب والفضة والثياب والدواب وصنعتها من السكر العصيدة والفالوذج بالسمن والزيت ودعس المسلمين دعساً وبتنا حيث حرتنا القافلة، فلما أصبح الصباح أمرنا أبو عبيدة رضي الله عنه بالمسير إلى بعلبك والتزول عليها، وكان قد هرب قوم من القافلة وأخبروا أهل بعلبك بالقافلة.

قال الواقدي: وكان على بعلبك بطريق عظيم يقال له هربيس وكان شديد البأس شجاع القلب، فلما أتاه الخبر بقدوم عساكر المسلمين جمع رجاله وأهل الحرب وأمرهم بلبس السلاح والعدد وخرج بعسكره وجعل يسير، وهو يعلم أن الأمير أبي عبيدة رضي الله عنه سائر إليهم بجيوش المسلمين، فلما انتصف النهار وتراء الجمunan، وكان هربيس معه سبعة آلاف فارس سوى من اتبعه من سواد بلده، فلما نظر طوالع جيش أبي عبيدة رضي الله عنه، ونظر المسلمون إلى ذلك نادوا التفير التفير فعندما تبادرت الفرسان وتقدمت الشجعان وشرعوا رماحهم وجروا سيفهم وصف هربيس رجاله وعباهم تعبة الحرب، فقال له بعض بطارقته: ما الذي تريده أن تصنع مع العرب؟ فقال: أقاتلهم لثلا يطمعوا فيينا فينزلوا على مديتنا، فقالوا له: الرأي عندي أن لا تقاتل العرب وارجع سالمًا أنت ورجالك. فإن أهل دمشق الشام ما قدروا عليهم ولا رذهم عساكر أجنادين ولا جيوش فلسطين، وقد بلغك ما فيه كفاية مما جرى لهم بالأمس مع صاحب قنسرين وصاحب عمورية والعرب المنتصرة، وكيف رذهم هؤلاء العرب على أعقابهم منهزمين والصواب أنك تفوز بنفسك وبمن معك وارجع.

قال هربيس: لست أفعل ذلك ولا أنهزم أمام العرب، وقد بلغني أن عساكرهم الكبير على حمص مع الأمير أبي عبيدة الذي كان فيها خالد بن الوليد وهذه غنيمة ساقها المسيح لنا، فقال ذلك البطريق الناصح: أما أنا فلست أتبع رأيك ولا أقاتل العرب. ثم لوى عنان فرسه راجعًا إلى بعلبك واتبعه خلق كثير من القوم، وأما هربيس فإنه صفت رجاله وزحف يريد القتال، فلما نظر أبو عبيدة رضي الله عنه ذلك وأنهم قد عولوا على الحرب صفت رجاله وعساكره، وقال: أيها الناس اعلموا رحمكم الله تعالى أن الله قد وعدكم وأيدهم بالنصر حتى هزم أكثر هؤلاء القوم وهذه المدينة التي أتتم قاصدون إليها وسط ما فتحتموه من البلاد وأهلها قد أثثروا من الزاد والعدد والقوة فإياكم والعجب وانتصروا واغزوا أعداء الدين وانصروا الله ينصركم واعلموا أن الله معكم. ثم حمل الأمير أبو عبيدة وحمل المسلمون قال عامر بن ربيعة: وعيش عاش فيه رسول الله ﷺ سيد المرسلين ما كان بيننا وبينهم إلا جولة الجائل حتى ولوا الأدبار وطلبو الأسوار ودخل هربيس المدينة مع أصحابه وفيه سبع جراحات فتلقاء الذي أشار عليه لا تقاتل العرب، وقال له: وأين غنائم العرب التي غنمتموها؟ قال هربيس: قبحك المسيح أتهازأ بي، وقد

قتلت العرب رجالى ، وقد جرحت هذه الجراحات ، فقال له البطريق : ألم أقل لك إنك مهلك نفسك ورجالك .

قال الواقدي : ثم إن الأمير أبو عبيدة سار حتى نزل على بعلبك فنظر إلى مدينة هائلة وحصن حصين والقوم قد أغلقوا الأبواب ، وقد أحرزوا أموالهم ومواشيهم في جوفها واطلع المسلمون على الأموال كأنها الجراد المنتشر . قال فلما نظر الأمير أبو عبيدة رضي الله عنه إلى البلد وتحصينه وامتناعه وكثرة رجاله وشدة برده وذلك أنه بلد لا يزايده البرد في الشتاء والصيف . فقال الأمير أبو عبيدة رضي الله عنه لخواص أصحاب رسول الله ﷺ : ما الرأي في ذلك ؟ فاجتمع رأيهم على شورى واحدة ، وهو أن يحاصروا القوم ويضيقوا عليهم ، فقال معاذ بن جبل رضي الله عنه : أصلح الله الأمير إني أعلم أن الروم ازدحم بعضهم من كثرتهم وأظن أن المدينة لا تسعمهم ، وإن طاولناهم رجونا من الله النصر وأن يفتحها الله على أيدينا ، فقال الأمير : يا ابن جبل من أين علمت أن القوم يتضايقون في مدinetهم ، فقال إليها الأمير إني كنت أول من أسرع بجواهه قبل وأشرفت على هذه المدينة والقلعة البيضاء ورجوت أن نلحق سوابق الخيل فرأيت القوم يدخلون المدينة من جميع الأبواب مثل السبيل المنحدر والمدينة مشحونة بأهل السوداد والقرى والمواشي ودواهيم فيها ، وقد ضاقت بهم وهذه أصوات القوم في المدينة كأنهم النحل من كثرتهم ، فقال أبو عبيدة : صدقت يا معاذ ونصحتك وایم الله ما عرفتك إلا مبارك الرأي سديد المشورة .

قال الواقدي : وبات المسلمون تلك الليلة يحرس بعضهم بعضًا إلى الصباح . ثم كتب أبو عبيدة رضي الله عنه إلى أهل بعلبك كتاباً يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من أمير جيوش المسلمين بالشام وخليفة أمير المؤمنين فيهم أبو عبيدة بن الجراح إلى أهل بعلبك من المخالفين والمعاندين ، أما بعد فإن الله سبحانه وتعالى وله الحمد أظهر الدين وأعز أولياء المؤمنين على جنود الكافرين وفتح عليهم البلاد وأذل أهل الفساد ، وإن كتابنا هذا معدنة بيننا وبينكم وتقدمة إلى كبيركم وصغركم لأننا قوم لا نرى في ديننا البغي وما كنا بالذين نقاتل لكم حتى نعلم ما عندكم . وإن دخلتم فيما دخل فيه المدن من قبلكم من الصلح والأمان صالحناكم ، وإن أردتم الذمام ذمناكم وإن أبيتم إلا القتال استعنوا عليكم بالله وحاربناكم فأسرعوا بالجواب والسلام على من اتبع الهدى . ثم كتب «إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى» [طه: ٤٨] وطوى الكتاب وسلمه إلى رجل من المعاهدين وأمره أن يسير به إلى أهل بعلبك وبأطيه بالجواب فأخذ المعاهد الكتاب وأتى به إلى السور وخطبهم بلغتهم ، وقال : إني رسول إليكم من هؤلاء العرب فدلوا حبلًا فربطه في وسطه ، وأخذه القوم إليهم وأتوا به إلى بطريقهم هربيس فناوله الكتاب فجمع

هربيس أهل الحرب والبطارقة وقرأ عليهم كتاب أبي عبيدة رضي الله عنه، وقال: أشيروا علي برأيكم، فقال له بطريق من بطريقته، وهو صاحب مشورة الرأي:

عندى أن لا نقاتل العرب لأنّا ليس لنا طاقة بقتالهم ومتن صالحناهم كنا في أمن وخصب ودعة كما قد صار أهل أركه وتدمير وحوران وبصرى ودمشق، وإن نحن قاتلناهم وأخذونا في الحرب قتلوا رجالنا واستعبدونا وسبوا حريمنا والصلح خير من الحرب، فقال هربيس: لا رحمك المسيح فما رأيت أجنّ منك ولا أقلّ جلدًا يا ويلك كيف تأمرنا أن نسلم مديتها إلى أوباش العرب، ولا سيما وقد عرفت حربهم وقتالهم واختبرت نزالهم وإنني في هذه النوبة لو حملت في ميسرتهم كنت هزمتهم، فقال له البطريق: نعم كانت الميسرة والقلب يخافون منك. ثم تخاصما وتشاتما وافترق أهل بعلبك فرقتين فرقة يطلبون الصلح وفرقة يطلبون القتال ورمي هربيس الكتاب إلى المعاهد بعد أن مزقه وأمر غلمانه أن يدللوه إلى ظاهر المدينة ففعلوا ذلك ووصل المعاهد إلى عسكر المسلمين وأتى أبي عبيدة رضي الله عنه وحدّثه بما كان من القوم، وقال: أيها الأمير إن أكثر القوم عولوا على القتال، فقال أبو عبيدة رضي الله عنه للMuslimين: شدوا عليهم، واعلموا أن هذه المدينة في وسط أعمالكم وببلادكم. فإن بقيت كانت وبالاً على من صالحتم ولا تقدرون على سفر ولا على غيره، قال: فلبس أصحاب رسول الله ﷺ السلاح والعدد ورجعوا إلى الأسوار وعطّف أهل بعلبك عليهم وتراموا بالسهام والأحجار، وإن هربيس قد نصب كرسيه وسريره على برج من أبراج القلعة من ناحية النملة، وقد عصّب جراحته ولبس سلاحه ولاته ولبس على رأسه صليباً من الجواهر وحوله البطارقة والديرجانية بالدروع المذهبة والعدد الكاملة وفي أعناقهم صلبان الذهب والجوهر وبأيديهم القسي والسهام. قال عامر بن وهب اليشكري: شهدت حرب بعلبك، وقد زحفت المسلمين إلى سورها. قال: ونشاب الروم كالجراد المنتشر، وكان أناس من العرب بلا سلاح فأصابهم سهام القوم. قال: ورأيت القوم يتسلطون علينا من السور تساقط الطير على الحب فذابت إلى رجل سقط لأضراب عنقه فصاح: الغوث الغوث وكنا قد عرفنا من الحرب أن من قال: الغوث يعني الأمان، فقلت له: يا ويلك لك الأمان فما الذي ألقاك إلينا من سوركم؟ فجعل يكلمني بالرومية، وأنا لا أدرى ما يقول. قال عامر بن وهب اليشكري: فسحبته إلى خيمة أبي عبيدة، وقلت له: أيها الأمير، اطلب من يعرف لغة هذا العلج فإني رأيته يرمي بعضهم بعضاً، فقال أبو عبيدة رضي الله عنه لمن حضر من المترجمة: أخبرنا بخبر هذا العلج وما قضيته، ولم يرمي بعضهم بعضاً؟ فقال له الترجمان: يا ويلك قد أعطيناك الأمان فاصدقنا في الكلام وقل لنا لم يرمي بعضكم بعضاً؟ قال: إن بعضنا لا يرمي بعضاً ولكننا من أهل السواد والقرى، فلما سمعنا بمسيركم ورجوعكم عن أهل قنسرين التجأنا إلى هذه المدينة من جميع الرساتيق لنجتصن فيها لما نعلم من كثرة ما بها من الجيش فضيق بعضاً

على بعض وسددنا طرقات المدينة ومضى بعضاً إلى السور، فإذا ليس لنا موضع نأوي إليه ولا مسكن نسكن فيه فجعلنا الأبراج والأسوار مسكننا لنا. فلما زحفت إلى القتال بز إليكم أهل الحرب والنزال من هذه المدينة فجعلوا يدوسوننا بأرجلهم، وإذا اشتد الحرب عليهم والقتال يدفع الرجل منهم الرجل منا فيلقه إليكم.

قال الواقدي: فلما سمع الأمير أبو عبيدة رضي الله عنه ذلك فرح فرحاً شديداً وقال: أرجو من الله أن يجعلهم غنيمة لنا. قال وأخذت الحرب مأخذها وطحتن رجالها وعلا الضجيج وحمى الروم أسوارهم فلم يقدر أحد من المسلمين أن يصل إليها من كثرة السهام والحجارة. قال غياث بن عدي الطائي: حاربنا أهل بعلبك في أول يوم فأصيب من المسلمين اثنا عشر رجلاً، وأصيب من الروم على السور خلق كثير من أهل الحرب وغيرهم، وانصرف المسلمون إلى رحالهم وما لهم همة إلى الطعام ولا الشراب ولا يريد أحد منا إلا الاصطلاء بالنار من شدة البرد. قال: في بينما نحن ليتنا نوقد النار ونتناوب في الحرس إلى الصباح، فلما صلينا الفجر نادى مناد من قبل أبي عبيدة رضي الله عنه يقول: عزيمة مني على كل رجل من المسلمين لا ييرز إلى حرب هؤلاء القوم حتى ينفذ إلى رحله ويصلح له طعاماً حازماً يأكله ليكون بذلك شديداً على لقاء العدو. قال فابتدرنا لصلاح أمورنا، فلما نظر أهل بعلبك إلى تأخرنا عن حربهم وقاتلهم طعوا فيما وظنوا أن ذلك فشلانا وعجزنا، فصاح هربيس في الروم وقال: اخرجوا لهم بارك المسيح فيكم. قال غياث بن عدي: فلم يشعر المسلمون إلا والأبواب قد فتحت والخيل والرجال قد طلعت علينا كالجراد المنتشر. قال: وكان بعضنا قد مد يده إلى الطعام وبعضاً ينضج له القرص وإذا بمناد ينادي: يا خيل الله اركبي وللجهاد تأهيبي، فدونكم والقوم قبل أن يدهموكم. قال حمدان بن أسد الحضرمي: وكان لي قرص خبزته وقدمت شيئاً من الزيت لأجعله أدامياً للقرص وإذا بالمنادي ينادي: التفير التفير، قال: فوالله ما راعني ذلك حتى أخذت قطعة وغمستها في الزيت وهوبيت بها إلى فمي، سمعت التفير فقمت مسرعاً وركبت جوادي عرياناً من دهشتي لسرعة الإجابة وضربت بيدي على عمود من أعمدة الخيام وحملت على القوم، فوالله ما شعرت بما صنعت ولا عقلت على نفسي حتى صرت في الروم فجعلت أحطمهم حطماً وأهبرهم بالسيف هبراً. قال فنظرت إلى خيل الروم متفرقة والأمير أبو عبيدة قد نصب رايته والناس يهرعون إليها، وإن أبو عبيدة رضي الله عنه ينادي برفع صوته: اليوم يوم له ما بعده. قال ونظر أبو عبيدة إلى شدة ضرب الروم وصبرهم على قتال المسلمين، فحمل عليهم بالخيل العربية وأحاط بالروم من كل جانب ومكان وكان في جملة خيله عمرو بن معد يكرب الزبيدي وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وربيعة بن عامر ومالك بن الأشتر وضرار بن الأزور رضي الله عنه ذو الكلاع الحميري فلله درهم فقد قاتلوا قتالاً شديداً

وأبلوا بلاء حسناً، فلما نظرت الروم إلى فعلهم رجعوا إلى أعقابهم طالبين الأسوار وغلقوا الأبواب، ورجع المسلمون إلى عسكرهم وأضرموا نيرانهم ودافعوا من استشهد منهم وأقبلت رؤساء المسلمين إلى الأمير أبي عبيدة رضي الله عنه وقالوا: أيها الأمير ما الذي قد عزمت عليه وما عندك من الرأي يرحمك الله؟ فقال أبو عبيدة رضي الله عنه: اعلموا أن الرأي أن تتأخر عن المدينة مقدار شوط فرسخ ليكون ذلك مجالاً لخيلكم ومنعه لحريمكم والنصر من عند الله تعالى ..

ثم دعا أبو عبيدة رضي الله عنه بسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وعقد له راية وأمره على خسمائة فارس وثلاثمائة راجل وأمرهم أن يهبطوا إلى الوادي وأن يقاتلا القوم على الأبواب وأن يشغلوهم عن المسلمين، ثم دعا ضرار بن الأزور وعقد له راية وأمره على خسمائة فارس ومائة راجل وسرحه إلى باب الشام، وقال: يا ابن الأزور أظهر شجاعتك علىبني الأصفر فقاتل من هناك من الروم، فقال: حبّاً وكراهة. قال ومضت كل فرقة إلى جهة من الجهات، فلما أصبح الصباح فتحت الروم الأبواب وخرجوا في خلق كثير إلى أن تكاملوا حول بطريقهم هربيس. فقال لهم الطريق: اعلموا يا معاشر النصرانية أن أهل هذا الدين من قبلكم قد فشلوا عن قتال هؤلاء العرب وعجزوا عن قتالهم وزلزلهم. فقالوا: أيها السيد طب نفساً وقر عيناً فإنما كنا نخاف من العرب قبل أن نختبرهم ونعلم قتالهم، وقد علمنا أنهم إذا لاقوا حربنا لم يكونوا أصبر منا على الحرب، لأن أحدهم يلقي الحرب وعليه ثوب خلق خام أو فروة خلقة، ونحن علينا الدروع والزرد وقد وهبنا أنفسنا للمسيح.

قال الواقدي: فلما نظر أبو عبيدة إلى كثرتهم نادى برفع صوته: يا معاشر المسلمين لا تفشلوا فتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين. قال وإن الروم داخلهم الخوف لما كانوا قد نالوه من غرة المسلمين بالأمس فحملوا حملة عظيمة. قال سهل بن صباح العبسي: شهدت قتال أهل بعلبك، وقد خرج إلينا أهلها في اليوم الثاني وهم أطعم مما كانوا في اليوم الأول وقد حملوا علينا حملة عظيمة شديدة منكرة وكانت في ذاك اليوم أصابني جرح في عضدي الأيمن وما أطيق أن أحرّك يدي ولا أحمل سيفاً فترجلت عن جوادي وجريت بين أصحابي وقلت في نفسي: إذا قصدني أحد من هؤلاء الأعلاج لم يكن لي أن أدفع عن نفسي فطلعت إلى ذروة الجبل فعلوته وأشرفت على العسكريين وجعلت أنظر إلى حربهم وقتالهم وقد طمعت الروم في العرب والمسلمون ينادون بالنصر، وأبو عبيدة يدعو لهم بالنصر والتحمّت القبائل وافتخرت العشائر قال سهل بن صباح: وأنا على الجبل من وراء حجر أنظر إلى ضرب السيوف على البيض والحجف والشرر يطير من شعاعها وقد التقى الفريقان واختلط الجماعان فقتلت في نفسي: ويحيى وما

عسى أن ينفع المسلمين مقام سعيد بن زيد وضرار بن الأزور على الأبواب والأمير أبو عبيدة في مثل هذا الحرب وإنهم والله على وجل أن ينكشفوا من عظم شدتهم وحربهم وهول ما يلقونه قال: فأسرع إلى جراثيم الشجر فجعلت أكسرها وأعبي الحطب بعضه على بعض وعمدت إلى زناد كان معه فأوقدت النار وأضرمتها فيه وعيت عليه حطباً أخضر وبابساً حتى علا منه دخان عظيم وكانت علامتنا إذا أردنا أن يجتمع بعضنا إلى بعض بأرض الشام في الليل وقود النار وإثارة الدخان قال فما هو إلا أن علا الدخان وتصاعد إلى الأفق حتى نظر إليه سعيد بن زيد وأصحابه وضرار بن الأزور وأصحابه فنادي بعضهم بعضاً الحقوا الأمير أبي عبيدة رحمكم الله فإن هذا الدخان ما هو إلا من شيء عظيم، والصواب أن تكون بخياناً في موضع واحد فأسرعوا بخيالهم وساروا حتى أشرفوا على المسلمين وهو في شدة الحرب وأعظم الكرب وقد بلغت القلوب العنادج وعملت السيوف البواتر وإذا بمناد هتف بهم: يا حملة القرآن جاءكم النصر من الرحمن ونصرتم على عبدة الصليبان، وإذا قد أشرف عليهم سعيد بن زيد وضرار بن الأزور في أوائل خيالهم وقد شرعاً سنانهما وحملما في الروم وقد أيقن الروم أنهم الغالبون إذ ظهرت عليهم رايات المسلمين وكتائب الموحدين فالتفتوا ينظرون ما الخبر، وإذا بال المسلمين من ورائهم وقد حالوا بينهم وبين مديتها فنادوا بالويل والخراب وظنوا أنه قد أتى لل المسلمين نجدة ومدد وقد غرر بهم الطريق، فلما نظر الطريق إلى تبلدهم زعق فيهم وقال: يا وليكم لا ترجعوا إلى المدينة قد حيل بينكم وبينها وهذه مكيدة من مكايده العرب، فلما سمعت الروم ذلك أحاطوا بي طريقهم كالحلقة المستديرة يحمي بعضهم بعضًا فعدل بهم الطريق نحو الجبل ذات الشمال، وكان سعيد بن زيد وضرار بن الأزور قد أقبلًا بجيشهما عن يمين الحصن وشماله فحملوا عليهم واتبعوا آثارهم حتى طلعوا إلى الجبل والتحات الروم إلى ضيعة في الجبل حصينة خالية من أهلها فاستند الروم إليها وتحصنوا فيها وتبعهم سعيد بن زيد في الخمسمائة فارس الذين كانوا معه وذلك أن الأمير أبي عبيدة رضي الله عنه لما نظر إلى هزيمة الروم نادى في المسلمين: معاشر الناس لا يتبعهم أحد ولا يفترق جمعكم لأنني أخشى أن تكون هزيمة القوم مكيدة لكم حتى إذا تفرق جمعكم زحفوا عليكم، قال وإن سعيد بن زيد لم يكن يسمع النداء، ولو سمع النداء ما تبع القوم.

قال الواقدي: لما تحصنت الروم في الضيعة قال سعيد بن زيد: هذه طائفه قد أراد الله هلاكها فدوروا بهم وحاصروها في كل مكان ولا تدعوا أحدًا يطلع رأسه إلى أن تلحق بكم المسلمين ويأتي إليكم أمر من الأمير أبي عبيدة ثم أقبل إلى رجل من عظاماء المسلمين وقال له: اخلفني في قومي حتى أنظر رأي الأمير أبي عبيدة ومن معه ثم أخذ معه زهاء من عشرين فارساً من أصحابه وسار حتى لحق بجيش المسلمين فلما نظر إليه

الأمير أبو عبيدة ومن معه قال: يا سعيد أين رجالك وما صنعت بهم؟ قال: أبشر أيها الأمير فإن المسلمين في خير وسلامة وقد حاصروا أعداء الله في ضيعة في هذا الجبل ثم أخبره بالقصة من أولها إلى آخرها. فقال أبو عبيدة: الحمد لله الذي هزمهم عن أوطانهم وجعلهم أشتاتاً، ثم أقبل أبو عبيدة على سعيد بن زيد وعلى ضرار بن الأزور وقال لهما: ما هذه المخلافة رحمةكم الله ألم أمركم بالإقامة على أبواب المدينة والمشاغلة للقوم بما الذي رذكم إلي وقد أرعبتم قلبي وقلب من كان معي وظننت أن أهل المدينة كادوكم وهو الذي منعنا أن نتبع المنهزمين. فقال سعيد بن زيد: أيها الأمير والله ما عصيت لك أمراً ولا خالفتك في قول وإنني قد وفدت حيث أمرتني إذ رأينا دخاناً قد علا قتامه ولاح لنا بيانه فقلنا: والله ما هذه إلا داهية من دواهي الروم أو نفير قد استدعانا به المسلمين فأسرعنا نحوك فعندها نادي الأمير أبو عبيدة في المسلمين معاشر الناس: أيكم أو قد ناراً أو دخن دخاناً في هذا الجبل فليجب الأمير أبو عبيدة؟ قال سهل بن الصباح: فلما سمعت النساء أجبت المنادي وأتيت الأمير أبو عبيدة. فقال: ما الذي جرأك على ذلك فقصصت عليه قضي. فقال أبو عبيدة: لقد وفقك الله تعالى إلى الجنة فإياك بعدها أن تحدث حديثاً من غير إذن أميرك.

قال الواقدي: في بينما الأمير كذلك يحدث سهل بن صباح وإذا برجل من المسلمين منحدر من الجبل وهو ينادي: النفير النفير يا أمة البشير النذير أدركوا إخوانكم المسلمين فقد أحاط بهم الروم وهم في أشد ما يكون من القتال وإنه قد دنا البطريق من المسلمين ونادي بأصحابه ورجاله وقال: يا عباد المسيح إليكم هذه الشرذمة اليسيرة والعصابة الحقيرة التي قد أحاطت بكم فاقتلوهم وادخلوا المدينة فإنكم إن قتلت القوم كسرتم بذلك حدة العرب وانصرفوا عنكم. قال مصعب بن عدي: وكنت في بعلبك من أصحاب سعيد بن زيد، وقد جعلنا محاصرين بطريق والروم في الضيعة ونحن دون الخمسينات رجل فيما شعرنا إلا وبطريق والروم قد تبادروا إلينا من كل مكان فنادي بعضنا بعضنا واجتمعنا قال: والله لقد كبوا علينا الخيل وأحاطوا بنا بعدما كنا أحطنا بهم وكان شعارنا في ذلك اليوم الصبر الصبر قال: في بينما نحن كذلك في أشد الحرب وأعظم الكرب إذا سمعنا صوتاً عالياً قد ملاً الجبل ومنادي ينادي ويقول: أما من رجل يهب نفسه في الله ويستفرج المسلمين فإنهم بالقرب منا ولا يعلمون ما نزل بنا. قال مصعب بن عدي: فلما سمعت الصوت همزت جوادي بكعبتي، وكان جواداً عتيقاً يسبق الريح الهبوب أو الماء فإذا انسكب من ضيق الأنوب وكأنه الطود العظيم، والله لقد خرج من تحتي كأنه البرق ولم تلحق منه الروم إلا الغبار بعدما قتلت منهم رجلين، ولقد نظرت إلى فرسى، وهو يشب إلى الصخرة ويسلك الوعرة حتى أشرف على عساكر المسلمين فناديت النفير يا أمة البشير النذير.

فلما سمع أبو عبيدة ذلك صاح بالرماة. فأجابه خمسمائة رام من أصحاب القسي العربية فضمهم إلى سعيد بن زيد، وقال له: أسرع يرحمك الله والحق بأصحابك قبل أن يأتي العدو إليهم. ثم نادى بضرار بن الأزور وأصحابه، وقال له: أدرك أخاك سعيد بن زيد. قال فسار المسلمون مثل الجراد المنتشر حتى علوا على قلة الجبل وأشرفوا على الروم وهو محدقون بأصحاب رسول الله ﷺ، وقال أبو زيد بن ورقة بن عامر الزبيدي: وكنت من شهد القتال على الضيعة مع أصحاب سعيد بن زيد، وقد أحاطت بنا الروم، وقد صبرنا لهم صبر الكرام. وقد صرع منها سبعون رجلاً ما بين جريح وقتيل، ونحن في أشد ما يكون من القتال والجرح، وقد طمعت الروم فيما سمعنا التهليل والتكمير ولحقنا التفير، فلما أشرفنا علينا راية المسلمين رجعت الروم على أعقابهم مدبرين إلى الضيعة راجعين ولحقنا من تأخر منهم وكثروا فيهم القتل والجرح لكثرتهم وتحصن القوم في الضيعة فأحطنا بهم من كل جانب وما تركنا منهم أحداً يخرج رأسه من كثرة التبل وورد الخبر إلى الأمير أبي عبيدة رضي الله عنه بمن استشهد من المسلمين ومن قتل من الكافرين، وأن القوم قد لزمهم الحصار، وأن لا زاد عندهم ولا ماء، فقال أبو عبيدة: الحمد لله. ثم قال للمسلمين: معاشر الناس ارجعوا إلى أموالكم وأضرموا خيامكم حول المدينة، فإن الله عزّ وجلّ كاد عدوكم، وهو منجز لنا ما وعدنا من نصره. قال فعندها رجع المسلمين إلى أموالهم وموضعهم التي كانوا فيها أول مرة وضربوا خيامهم وأنفذوا طوالهم وأرسلوا إلى المراعي خيولهم وإبلهم وسرحوا إلى الحطب عبيدهم وأضرموا النيران في عسكرهم وذهب منهم الخوف وأتاهم الأمان، وإن أهل بعلبك افترقوا على السور وجعلوا يضربون على وجوههم ويصيحون بلغتهم، فقال الأمير أبو عبيدة لبعض التراجمة: ما يقول هؤلاء؟ فقال له الترجمان: أيها الأمير إنهم يقولون: يا ويلهم وبأعظم ما أصابهم يا خراب ديارهم يا فناء رجالهم حتى ظفرت العرب ببلادهم.

قال الواقدي: فلما دنا المساء أرسل الأمير أبو عبيدة إلى سعيد بن زيد يقول له: يا ابن زيد الحذر الحذر على من معك من المسلمين واجتهد رحمك الله أن لا يفوتك من الروم أحد ولا تنسح لهم قدمًا واحدًا فيخرج منهم واحد . . . فيتبع أولئك آخرهم، فتكون كمن حصل في يده شيء فأضاعه، فلما وصل الرسول إلى سعيد بن زيد بهذه الرسالة، أمر المسلمين أن يحيطوا بالضيعة من كل جانب، وأن لا يخرجوا إلى الحطب إلا مائة بالسلاح ففعلوا ذلك وأضرموا نيرانهم وباتوا طول ليتهم يهلكون ويكتبون وبالضيعة يطوفون، فلما نظر الطريق هربيس إلى ذلك أقبل على أصحابه ورجاله وقال لهم: يا ويلكم لقد أيسنا من التدبير وأخطأنا الرأي وما لنا مدد ولا نجدة ولا نصير ولو اجتهدنا لما اجتهدت العرب على أن يحبسونا في هذه الضيعة، والآن قد حبسنا أنفسنا في

حبس ليس فيه طعام ولا شراب، وإن دام علينا هذا يوماً ثانياً أو ثالثاً ضعف قوينا ومات ضعيفنا وبطلت حيلتنا وسلمتنا أنفسنا كارهين فقتل عن آخرنا، فقالت البطارقة: فما الذي ترى أيها السيد؟ فقال: قد رأيت من الرأي أن أخدع العرب وأحتال عليهم وأسألهم الصلح لنا ولأهل مدينتنا كما قد طلبوا وأضمن أن أفتح لهم المدينة، ونكون في ذمامهم فإذا دخلنا المدينة حاربناهم على سورنا ولعلنا نرسل إلى صاحب عين الجوز وإلى صاحب جوسية فعلهما يقدمان إلى نصرتنا فيكونان لقتال العرب من خارج المدينة ونحن من أعلى الأسوار، ويكتفينا المسيح هذه النوبة.

قالت البطارقة: أعلم أيها السيد أن صاحب جوسية لا يجيئك إلى نجدة أبداً لأنه مشتغل بنفسه وربما يكون محاصراً مثل حصارنا هذا، فلقد بلغنا قبل نزول هؤلاء العرب علينا أنهم صالحوهم وليس لهم من القدرة والقوة أن يقاتلو العرب، وأما أصحاب عين الجوز فإنهم في تجارتهم متفرقون في أقصى الشام وما أظن إلا أنهم في صلح العرب، فانتظر لنفسك ورعيتك ما فيه الصلاح، فلما سمع الطريق هربيس قولهم أجابهم إلى ذلك، فلما أصبح الصباح طلع الطريق على جدار الضيعة ونادي برفع صوته: يا معاشر العرب أما فيكم رجل يعرف كلامي أنا هربيس الطريق، فلما سمعه بعض الترجمة أقبل على سعيد بن زيد وقال له: يا مولاي إن هذا العلج هو هربيس صاحب القوم وهو يستدعي كلامك، فقال له سعيد بن زيد: ادن منه وانتظر ماذا يريد وما يقول؟ قال فدنا الترجمان منه، فقال له: ما الذي تريد؟ قال: أريد أن يؤمنني أميركم هذا في ذمامه وذمام أصحابه ويدنو مني حتى أخاطبه بما يعود صلاحة على الفريقين، فقال الترجمان ذلك لسعيد بن زيد، فقال سعيد بن زيد: لا كرامة له حتى أدنو منه وأمشي إليه حتى يخاطبني فإن كانت له حاجة فليأت إلى خاضعاً ذليلاً صاغراً حتى أسمع كلامه وأعلم مراده. قال فأعلم الترجمان هربيس بكلام سعيد بن زيد، فقال هربيس: فكيف أنزل إليه وأنا محارب له فأنا أخاف أن يقتلني، فقال له الترجمان: أنا آخذ لك منه الذمام فإن العرب لا تخون إذا أمنت، فقال الطريق: نعم قد تناهت إلينا أخبارهم ولكنني أريد أن أستوثق لنفسي ولأصحابي وأهل بلدي لأنهم قوم قد لحقهم الحقد علينا وقد أصينا منهم دمًا كثيراً وإنني أريد أن أرسل له شخصاً يأخذ لي منه أمائة، فقال الترجمان: أنا أعرفه ذلك، ثم أقبل الترجمان على سعيد بن زيد وقال له: إن الطريق هربيس يريد أن يوجه إليك رجلاً من أصحابه يأخذ له منك أمائة، فقال سعيد بن زيد دعوه يوجه من يريد وأعلم أنه رسوله منا في أمان حتى يرجع إليه، قال: فأعلمه الترجمان بذلك فأقبل الطريق على رجل من عظماء أصحابه، وقال له: ترى ما قد نزل بنا وكيف قد ملك العرب علينا الطريق وأن بلاد الشام قد أذن المسيح بخرابها وقد نصرت العرب علينا وأنا في شدة شديدة وإن لم نأخذ من القوم الأمان وإلا هلكنا وهلكت خيلنا، وبعد ذلك يتحكمون في أولادنا

وحرىمنا ويقتسمون أموالنا وذارينا وليس لنا نجدة لأن كل بلد مشتغل بنفسه عن نصرتنا فأنزل إلى هؤلاء العرب وخذ لنا منهم أماناً واستوثق لنا منهم، حتى أنزل أنا إليهم فلعلنا نجري بينهم صلحًا ولعلي أمكر بهم حتى نرجع إلى المدينة، ولعلي أرغم أصحابهم في شيء من المال فعله يرحب وينصرف عنا إلى أن نرى ما يكون بينهم وبين الملك هرقل.

قال الواقدي: فنزل الرجل ووقف أمام الأمير سعيد بن زيد وهم الرجل أن يسجد له فمنعه من ذلك وتبادرت إليه المسلمين فأمسكوه ففزع الرجل وقال: لم تمنعوني أن أعظم صاحبك؟ فقال الترجمان ذلك لسعيد بن زيد، فقال: إنما أنا وهو عبد الله تعالى ولا يجوز السجود والتعظيم إلا للملك المعبد القديم، فقال الرجل: بهذا نصرتم علينا وعلى غيرنا من الأمم فقال سعيد بن زيد: فما الذي جاء بك؟ قال: جئت لأخذ منك أماناً لبطريقياً أن لا تنقض لنا عهداً فقال سعيد بن زيد: ليس من أخلاق النساء، ومن يقود الجيوش أن يغدر بعد الأمان، ولستنا بحمد الله منمن ينقض عهداً، وقد أعطيت صاحبك أماناً ولم من معه من ألقى السلاح وخرج يطلب الأمان مستسلماً، فقال الرجل: نريد منك الأمان ومن أميرك وممن معك، فقال سعيد: لكم ذلك، فعند ذلك رجع الرجل إلى الطريق وأعلمته بحواب سعيد. وقال له: اخرج وإياكم والغدر فإنه بهلك صاحبه، وإن هؤلاء العرب لا يخونون أمانهم وعهدهم.

قال الواقدي: ولقد بلغني أن الطريق هربيس خلع ما كان عليه من الثياب والديباج وألقى السلاح ولبس ثياب الصوف وخرج حافياً حاسراً ذليلاً ومعه رجال من قومه حتى وقف بين يدي سعيد بن زيد فخر سعيد الله ساجداً وقال: الحمد لله الذي أزال عنا الجبارة وملكتنا بطارقهم وملوكهم ثم أقبل عليه وقال له: ادن مني فدنا إلى أن جلس إلى جانبه وقال له: أهذا لباسك دائمًا أم غيرته، فقال: لا وحق المسيح والقربان ما لبست الصوف أبداً غير الحرير والديباج وما لبست هذا إلا في وقتي هذا فإني ما أريد حريراًكم ولا قتالكم ثم قال لسعيد: هل لك أن تصالحي على أصحابي هؤلاء وعلى أهل المدينة ومن فيها؟ فقال سعيد: أما أصحابك هؤلاء فإني أوفيهم على شرط أن من دخل في ديننا فله ما لنا، ومن اختار الإقامة على دينه وألقى السلاح كان أماناً من القتل وعليه العهد أنه لا يحمل علينا سلاحاً ولا يكون لنا حرباً أبداً، وأما المدينة فالأخير أبو عبيدة عليها وقد فتحها إن شاء الله تعالى، ثم قال: إن أحببت أن تسير معي إلى أبي عبيدة حتى يسمع كلامك وتصالح عن قومك فسر وأنت في ذمامي فإن اتفق بينكمما الأمر، وإن ردتك إلى موضعك هذا ومن أراد الرجوع معك من رجالك إلى أن يحكم الله وهو خير الحاكمين. فقال الطريق: أنا أفعل ذلك فعندها دعا سعيد بن زيد بن أبي وقار بن عوف العدوى،

قال: يا ابن أبي وقاص كن بشيرًا للأمير أبي عبيدة بما سمعت وأسرع بالجواب. قال: فأسرع ابن أبي وقاص بن عوف وركب جواده وكان حصانًا شديد العدو وجعل يسير سيرًا حيثًا حتى أشرف على الأمير أبي عبيدة رضي الله عنه ووقف بين يديه وسلم عليه، وقال: أصلح الله تعالى شأن الأمير أبشرك بأن الطريق هريس قد أخذ الأمان من سعيد بن زيد وهو يريد أن يقبل به عليك يسألوك الصلح والأمان له ولأهل مدنته، فلما سمع الأمير ذلك سجد لله شكرًا ورفع رأسه، وقال: أيها الناس تقدموا الآن إلى قتال أهل المدينة وأظهروا أسلحتكم عليها وكبروا تكبيرة واحدة لكي تربعوا بها القوم، قال: ففعل المسلمون ذلك فارتجمت المدينة وفزع أهل بعلبك وتدعوا للقتال وأحاط المسلمون بالمدينة من كل جانب، وكان أول من سبق إلى المدينة وأعطاهم خبر الطريق المرقى ابن عتبة وقال: حصنوا أنفسكم وأولادكم وأموالكم بالصلح فإن أبىتم ذلك فقد وعدنا الله تبارك وتعالى على لسان نبينا محمد ﷺ أن يفتح لنا بلادكم وأصغاركم وغيرها وإن الله تعالى منجز أمره. فلما سمع أهل بعلبك ذلك فزعوا فزعًا شديداً وأغبرت وجوههم ورعبت قلوبهم وكلت من الحرب أيديهم، وقالوا: أهلkena الطريق وأهلك نفسه ولو كان صالحنا العرب من قبل أن يوجد بنا هذا الحصار لكان خيراً لنا. قال وشدد المسلمون عليهم القتال.

قال الواقدي: فلما علم أبو عبيدة أن نيران الحرب قد أضرمت على المدينة أرسل إلى سعيد بن زيد يقول له أسرع بالطريق إلينا وله الأمان الذي أمنت أنت، فنحن لا ننقض لك عهداً، فلما ورد رسول أبو عبيدة على سعيد بن زيد استخلف على الضيعة رجلاً من أصحابه وسار سعيد مع الطريق حتى ورداً على الأمير أبي عبيدة رضي الله عنه فلما وقف الطريق بين يديه ونظر إلى زيه وزي من معه وشهد قتالهم وعظم ما تلقى المدينة من حربهم وقاتلهم حرك الطريق رأسه وعض على أنامله. فقال أبو عبيدة رضي الله عنه لترجمانه: ما لهذا يحرك رأسه ويعض أنامله كأنه يتأسف على شيء فاته؟ قال فأعلمك الترجمان بذلك فأقبل على الترجمان، وقال له: وحق المسيح وما مسح وحق البيعة والمذبح لقد ظننت أنكم أكثر عدداً من الحصى وأكثر مداداً، ولقد كان يخيل لنا عند حربكم وشدة ما نلقى منكم أنكم على عدد الحصى والرمل من كثركم، ولقد كنا نرى خيلاً شهباً وعليها رجال وبأيديهم رايات صفر وعليهم ثياب خضر فلما صرت بينكم لم أر من ذلك شيئاً وما أراكم إلا في قلة عدد وما أدرى ما فعل جمعكم أبعتموه إلى عين الجوز أو إلى جوسية أو مكان آخر؟ فأخبر الأمير الترجمان بذلك. فقال أبو عبيدة للترجمان: قل له يا وليك نحن معاشر المسلمين يكتشنا الله تعالى في أعين المشركين ويمدنا بالملائكة كما فعل بنا يوم بدر، وبذلك فتح الله تعالى بلاكم وحصونكم علينا وأذل ملوككم، فلما سمع الطريق كلام أبي عبيدة رضي الله عنه على لسان الترجمان

قال: لقد وطئتم الشام الذي عجزت عنه ملوك الفرس والترك والجرامقة وما ظننا أن يكون ذلك أبداً، وأما مدینتنا فهي حصينة لا تعبأ بالحصار لأنها مدينة ليس بالشام مثلها، بناها سليمان بن داود عليهما السلام لنفسه وعملها دار مقامه وخزانة لملكه ولو لا ما سبق من تفريطنا وخروجنا عنها إليكم وانحرافنا عنها ما صالحناكم أبداً ولا هالنا حربكم ولو أقمتم علينا مائة سنة، والآن فقد كان ذلك فهل لكم أن تصالحونا حتى نصالحكم فتعدل فينا فهو أقرب رشدًا لنا ولكم، فوحق المسيح والإنجيل الصحيح لئن فتحنا لكم هذه المدينة لا يصعب عليكم في الشام حصن ولا مدينة، قال فلما أخبر الترجمان الأمير أبو عبيدة رضي الله عنه بما قاله، قال أبو عبيدة للترجمان: قل له الحمد لله تعالى الذي ملّكتنا أرضكم ودياركم فلا بد أن تؤدوا الجزية، وقد ظننت لنفسك أمانًا كاذبًا حتى أراك الله الذل والصغر بعد العز والاقتدار ولا بد لنا أن نملك مدینتكم إن شاء الله تعالى ونقتل الرجال وناسر الأبطال، فمن أراد حربنا وقتلنا فلا يدخل في صلحنا أبداً، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فقال الطريق لما سمع ذلك على لسان الترجمان: لقد تيقنت أن المسيح قد غضب على أهل هذه المدينة إذ بعث بكم إليها وملّكتكم عليها، وقد اجتهدت في حربكم ومكرت بكم وما نفع مكري واجتهادي لأنكم قوم مسلطون، وإنما طلبت منكم السلم وألقيت يدي في أيديكم بعد جهد مني، لا شفقة مني على نفسي ولا بقاء مني على ملكي ولكن أردت صلاح البلاد لأن الله تعالى لا يحب الفساد، والآن فهل لكم أن تصالحوا على المدينة وما فيها وعلى أصحابي هؤلاء؟ فقال له الأمير أبو عبيدة رضي الله عنه: فما الذي تبذل لنا في صلحك؟ قال له الطريق: أيها الأمير انظر ما الذي تريده؟ فقال الأمير أبو عبيدة: لو أن الله فتح على المسلمين من الصلح على هذه المدينة بملئها ذهبًا وفضة ما كان أحب إلى من سفك دم رجل واحد، لكن الله تعالى أعطى الشهداء في الآخرة أكثر من ذلك. فقال الطريق: أنا أصالحك على ألف أوقية من الفضة البيضاء وألف ثوب من الديباج.

قال الواقدي: فتبسم الأمير أبو عبيدة من كلامه وأقبل على المسلمين وقال لهم: أما تسمعون ما يقول هذا الطريق؟ قالوا: نعم، قال: فما رأيكم فيما شرط على نفسه. فقالوا: يزيد عليه وشرطه يرضينا، فأقبل الأمير على الطريق وقال له: أنا أصالحك على ألفي أوقية من الذهب الأحمر وألفي أوقية من الفضة البيضاء وألفي ثوب من الديباج وخمسة آلاف سيف من مدینتكم وسلاح أصحابك الذين هم في الضيعة محاصرون، ولنا عليكم خراج أرضكم في العام الآتي وأداء الجزية في كل عام وأنتم بعد ذلك لا تحملون علينا سلاحًا ولا تقاتلون ملکًا ولا تحدثون حدثًا ولا كنيسة وترون النصوح للمسلمين، فلما سمع الطريق ذلك من شرط الأمير أبي عبيدة رضي الله عنه قال: لك ذلك كله علينا إلا أن أريد أن أشرط عليك وعلى أصحابك شرطًا. فقال له الأمير أبو عبيدة: وما فتوح الشام / ج ١ / ٩

شرطك؟ فقال: لا يدخل إلينا من أصحابك أحد وتنزل صاحبك الذي تستخلفه علينا خارج المدينة بأصحابه ويكون له الخراج والجزية وتدعني أنا من داخل المدينة من قبل الإصلاح بين الناس والنظر في أحوالهم، ونحن نخرج إلى من تخلفه علينا من أصحابك سوقًا يكون فيه من جميع ما في مديتنا، ولا يدخلون إلينا مخافة أن يغاظوا بكلامهم على كبرائنا ويفسد الأمر بيتنا وبينكم ويكون سببًا للغدر ونقض العهد. قال أبو عبيدة: فإذا صالحناكم نجاهد عدوكم لأنكم تصيرون في ذمتنا ويكون الرجل الذي نخلفه عليكم مثل الواسطة والسفير بيتنا وبينكم. قال الطريق هربيس يكون خارج المدينة ويفعل ما يشاء أن يفعله من المحاماة. فقال أبو عبيدة: لكم ذلك وما لنا في الدخول إلى مدینتكم من حاجة. فقال الطريق: تم الصلح على ذلك، ثم سار الطريق إلى المدينة وأبو عبيدة معه، فلما وصل إلى الباب حسر الطريق عن رأسه ورطن عليهم بلغة الروم فعرفوه عند ذلك، فقالوا له: وأين أصحابك ورجالكم؟.. فقص عليهم قصته وأخبرهم بخبره وأصحابه وأعلمهم بالصلح، فبكى القوم وقالوا: تلتف النفوس وذهبت الأموال. فقال لهم الطريق: يا قوم وحق المسيح ما صالحتم ولـي وجه غير الصلح، فقالوا له: اذهب أنت صالح عن نفسك، وأما نحن فلن نصالح العرب أبداً ولن ندع أحداً منهم يملـكـنا ولا يدخل بلادنا ومديتنا وهي أحسن مدينة في الشام.. وكان الأمير أبو عبيدة رضي الله عنه قد أعلم المسلمين بمصالحة الطريق وأمرهم أن يكفوا عن القتال وال الحرب. فلما سمع الترجمان كلام أهل بعلبك لطريقهم أخبر الأمير أبا عبيدة رضي الله عنه بذلك، فأقبل الطريق فقال له أبو عبيدة: هات ما عندك وإلا نرد الحرب كما كان. فقال الطريق: دعني والقوم، فوحق الإنجيل الصحيح وعيسى المسيح لو لم يقبلوا مني لأدخلـنـكـ بالـكـثـرـةـ إليـهمـ فـتـضـعـ السـيفـ فـيـهـ وـتـقـتـلـ رـجـالـهـمـ وـتـسـبـيـ نـسـاءـهـمـ وـتـهـبـ أـمـوـالـهـمـ لـأـنـيـ خـيـرـ بـعـورـاتـ بلدـهـمـ وـبـطـرـقـاتـهـ. قال أبو عبيدة رضي الله عنه: ما شاء الله كان. قال وكان الروم على سورهم يسمعون كلام الطريق لأبي عبيدة رضي الله عنه فدخل الرعب في قلوبهم، فعند ذلك أقبل الطريق على الروم وقال لهم: ما تقولون في صلح العرب؟ فإني أسير في أيديهم ورجالهم وينو عمكم في قبضتهم، فإن لم تصالحوا العرب وإلا يقاتلونا جميعاً ويرجعوا إليـكمـ منـ بـعـدـناـ.

قالوا: أيها السيد إننا لا نطيق هذا المال. فقالوا: يا ويلكم على وحدـيـ رـبعـ ما طلبـواـ فـطـابـ قـلـوبـهـمـ بـذـلـكـ وـقـالـواـ: إـنـاـ لـاـ نـفـتـحـ الـبـابـ إـلـاـ لـكـ وـحدـكـ وـلـاـ يـدـخـلـ مـعـكـ أـحـدـ منـ العـرـبـ حـتـىـ نـصـلـحـ مـدـيـنـتـنـاـ وـنـرـفـعـ رـحـالـنـاـ وـنـخـفـيـ حـرـيمـنـاـ. فـقـالـ الطـرـيقـ: وـيـحـكـمـ فـإـنـيـ قدـ صـالـحـتـ الـقـوـمـ عـلـىـ أـنـ لـاـ يـدـخـلـ مـدـيـنـتـكـمـ أـحـدـ مـنـهـمـ، وـإـنـ الرـجـلـ الـذـيـ يـخـلـفـونـهـ عـلـيـكـمـ يـكـونـ هوـ وـأـصـحـابـهـ خـارـجـ المـدـيـنـةـ وـتـخـرـجـونـ إـلـيـهـ سـوقـاـ يـتـسـوـقـونـ مـنـهـ. قال فـقـرـحـتـ الروـمـ بـذـلـكـ وـفـتـحـواـ لـهـ الـبـابـ فـدـخـلـ إـلـيـهـمـ، وـبـعـثـ الـأـمـيـرـ أـبـوـ عـبـيـدـةـ إـلـىـ سـعـيدـ بـنـ زـيـدـ أـنـ يـخـلـيـ

عن الرجال الذين هم في الضياعة محاصرون، فخلى سعيد بن زيد سبيلهم وجاء بهم عند الأمير أبي عبيدة وأخذ سلاحهم وتركهم عنده رهائن على المال الذي عندهم لأنه خاف إن تركهم أن يرجعوا إلى المدينة ويغدوا بالمسلمين، فتركهم عنده في عساكره، هذا والبطريق في المدينة يجبي المال بعد اثنى عشر يوماً وهم مع ذلك يحملون إلى عسكر المسلمين الزاد والميرة والعلوفة حتى كملت الأموال والثياب والسلاح وحملها البطريق إلى أبي عبيدة رضي الله عنه وقال له: تسلم الأموال على ما وافتكم عليه وخل عن الرجال، وانظر إلى من تخلفه علينا من أصحابك فأحضره لنا حتى نشرط عليه بحضورتك أن لا يجور علينا ولا يطالبنا بما لا نطيق ولا يدخل مديتها. قال فدعا أبو عبيدة برجل من سادات قريش اسمه رافع بن عبد الله السهمي وقال له: يا رافع بن عبد الله استعملتك على هذه المدينة وضم إليك خمسة فارس منبني عمك وعشيرتك وأربعين فارس من أخلاق المسلمين، وإنني أمرك بما أمرك الله به فاتق الله حق تقاته ولا تكون إلا من الولاة العادلين، وإياك والظلم والجور فتحشر مع الظالمين. واعلم أن الله تعالى سائلك عنهم ومطالبك بما تصنع بغير الحق. واعلم أنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى موسى بن عمران عليه السلام: أن يا موسى لا تظلم عبادي أخر بيتك من نفسك» فأقم الأرصاد في أطراف البلاد فإنك بين أعدائك، وبعد هذا ما عرفتك إلا استيقاظاً، وأحدرك من السواحل وشن الغارة عليهم، ولتكن غارتكم في المائة والمائتين، ولا تتمكن أحداً من المدينة يختلط بأصحابك في غارة حتى يطمع عدوكم فيه، وأحسن معاملة من ساعدك وأصلح بينهم وامرهم بالعدل، وكن بينهم كأحدهم، وامر أصحابك ومن معك أن يكفوا أيديهم عن الفساد والظلم للرعية، والله تعالى خليفتي عليك، والسلام عليك.

ذكر حديث نزول المسلمين على حمص

قال الواقدي: ثم هم أبو عبيدة رضي الله عنه بالرحيل إلى حمص، وإذا قد ورد عليه صاحب عين الجوز يطلب منه الصلح فصالحة عليه نصف ما صالحه عليه أهل بعلبك وولى عليهم سالم بن ذؤيب السلمي وأوصاه بمثل ما أوصى به رافع بن عبد الله ورحل الأمير أبو عبيدة رضي الله عنه يطلب حمص، فلما وصل إلى بين الرأس والكافلة لقاء صاحب الجوسية ومعه هدية كثيرة فقبلها منه وجدد معه صلحًا، وسار الأمير أبو عبيدة رضي الله عنه حتى نزل على حمص.

قال الواقدي: حدثنا حبان بن تميم الثقفي. قال: كنت فيمن أقام مع رافع بن عبد الله السهمي في جملة أصحابه، وذلك أننا نصبنا بيوت الشعر على العمود وأقمنا خارج المدينة لا يدخل إليها أحد منا، ونحن مع ذلك نشن الغارة على سواحل الروم

ونكبس على العرب التي لم تكن في صلحنا، وكنا إذا خرجنَا في سرية نبيع الغنائم في بعلبك، ففرح أهلها ببيعنا وشرائنا ووجدونَا قوماً ليس فينا كذب ولا خيانة ولا نريد ظلم أحد وطابت قلوبهم وربحوا في تلك المدة اليسيرة مالاً عظيماً، فلما نظر الطريق هربيس إلى ما ربع أهل بعلبك منا في تجارتهم ورخص ما يشترونَه منا جمعهم إليه في كنيسة المدينة وهي الجامع اليوم وكان ذلك بميعاد وعددهم فيه الاجتماع، فلما اجتمعوا عنده أقبل عليهم وقال للتجار والباعة والسوق: لقد علمتم أنِّي قد اجتهدت في أموركم وحرست على سلامت نفوسكم وأهاليكم وأولادكم وأنتم تعملون ما ذهب مني من المال، وأنا اليوم واحد منكم وقد سلمت مالي وسلامي وقتل أكثر غلمناني ورجالي وبين عمي وأنتم قوم قد أصبتُم مع هؤلاء العرب خيراً كثيراً في هذه التحارات وقد أديت وحدِي ربع المال، فقالوا: صدقت أيها الطريق وقد عرفنا كل ما وصفت بما الذي تزيد الآن؟ فقال: يا قوم إنما كنت قبل هذا اليوم بطريقكم وأنا اليوم واحد منكم وأريد أن تردوا علي بعض ما بذلت من المال للعرب. فقالوا: أيها الطريق وأنت لِكَ بذلك؟ فقال الطريق: يا قوم لست أكلفكُم أن تخربوا من أموالكم ولا مما حرته منازلكم شيئاً، وإنما أريد أن يجعلوا في هذه البيوع والأشربة العشر مما تأخذون وتعطون. قال فاضطرب القوم اضطراباً شديداً لذلك وعظم عليهم وأقبل بعضهم على بعض وقالوا: يا قوم هذا رجل منا وصاحب ملکنا وقد اجتهد في أمورنا وحمى بمالي ونفسه عنا وما عسى يصيبانا في مالنا. قال فأجابوه إلى ذلك وجعلوا له عليهم العشر فنصب عليهم من قبله عشاراً يأخذ منهم أعشارهم ويجمعها ويحملها إليه فاقام على ذلك أربعين يوماً، فلما نظر هربيس إلى كثرة ما قد اجتمع له من المال العشر قال: أنا أعلم أن هذه المدينة في كسب عظيم وتجارة رابحة ما رأى أهل بعلبك مثل هذا أبداً، ثم جمعهم في الكنيسة مرة ثانية وقال لهم: يا قوم قد علمتم ما بذلت من المال على صلحكم وهذا الذي تعطوني إياه من العشر ليس يجزياني، فإن أردتم أن تردوا علي مالي و يجعلوني كأحدكم فاجعلوا لي الربع في أموالكم حتى يرجع إلي مالي سريعاً وإن فمت أخلف من هذا العشر مالي وسلامي وغلمناني.

قال الواقدي: فأبى القوم وضجعوا عليه وأشهروا عددهم ووقفوا في الطريق بغمانه فقطعوهم إرباً إرباً وارتفع ضجيجهم، فجزع المسلمين لذلك وهم لا يعلمون بالقصة فاجتمعوا إلى أميرهم رافع بن عبد الله السهمي وقالوا: أيها الأمير أما تسمع أصوات هؤلاء القوم في مديتها؟ فقال: يا قوم قد سمعت كما سمعتم فيما عسى أن أصنع بهم ولا يحل لنا الدخول إليهم، وبهذا جرى الشرط بيننا وبينهم، ونحن أحق بمن أوفى بعهد الله تعالى، فإن هم خرجوا إلينا وأعلمنا بأمرهم صالحنا بينهم ونظرنا في أمورهم.

قال الواقدي : فما استتمَّ الأَمِير رافعُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ كَلَامَهُ حَتَّى خَرَجَ أَهْلَ بَعْلَبَكَ يَهْرُونَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا وَقَفُوا بَيْنَ يَدِيهِ قَالُوا : إِنَا بِاللَّهِ وَيْكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ، ثُمَّ أَعْلَمُوهُ بِقَصْتَهُمْ وَمَا فَعَلَ الْبَطْرِيقَ بِهِمْ أُولَى مَرَةٍ وَمَا فَعَلَ بِهِمْ ثَانِيَةً. قَالَ رافعُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ : إِنَا لَا نَمْكِنُهُ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالُوا : أَيُّهَا الْأَمِيرُ إِنَا قَدْ قَتَلْنَاهُ وَجَمِيعَ غَلْمَانَهُ فَصَعِبُ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قَالَ لَهُمْ رافعٌ : فَمَا الَّذِي تَرِيدُونَ؟ فَقَالُوا : نَرِيدُ أَنْ تَدْخُلُوا إِلَى الْمَدِينَةِ إِلَيْنَا قَدْ أَطْلَقْنَا لَكُمُ الدَّخْلَ إِلَيْهَا. قَالَ رافعُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ : أَنَا لَا أَقْدِرُ أَنْ أَدْخُلَ الْمَدِينَةَ إِلَيْهَا أَمِيرُ أَبِي عَبِيدَةَ لِأَنَّهُ مَا أَذْنَ لِي بِذَلِكَ، ثُمَّ كَتَبَ رافعُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى الْأَمِيرِ أَبِي عَبِيدَةَ يَعْلَمُهُ بِالقصَّةِ وَبِحَدِيثِ الْبَطْرِيقِ وَبِحَدِيثِهِ الَّذِي قَالَهُ، فَكَتَبَ لَهُ بِالدَّخْلِ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا قَدْ أَذْنَوْا لَهُ فَدَخَلَ رافعٌ وَاصْحَابَهُ.

قال الواقدي : حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ عَامِرَ قَالَ حَدَّثَنَا يُونُسَ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ حَدَّثَنَا سَالِمُ بْنُ عَدِيٍّ عنْ جَدِهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُسْلِمِ الرَّبِيعِيِّ، وَكَانَ مِنْ حَضَرَاتِ فَتوْحِ الشَّامِ أُولَئِكَ وَآخِرَهُ. قَالَ لَمَّا فَتَحَ اللَّهُ بَعْلَبَكَ عَلَى يَدِ الْمُسْلِمِينَ وَتَرَكَ أَبُو عَبِيدَةَ رافعَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ وَتَوَجَّهَ إِلَى حَمْصَ لِلْحُوقِ بِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، فَلَمَّا قَرَبَ مِنْ حَمْصَ وَمَوْضِعِ يَقَالُ لَهُ الزَّرَاعَةِ وَجَهَ عَلَى مَقْدِمَةِ جَيْشِهِ مَيْسِرَةَ بْنِ مَسْرُوقِ الْعَبْسِيِّ وَعَقَدَ لَهُ رَأْيَةَ سُودَاءَ مَعْلَمَةَ بِالْبَيْاضِ، وَضَمَّ إِلَيْهِ خَمْسَةَ آلَافٍ فَارِسًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا سَارَ مَيْسِرَةُ حَتَّى وَصَلَّ إِلَى حَمْصَ خَرَجَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى لِقَائِهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَعَلَى مَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ بَعَثَ أَبُو عَبِيدَةَ بَعْدَهُ ضَرَارَ بْنَ الْأَزُورِ فِي خَمْسَةَ آلَافٍ فَارِسًا وَبَعْثَ بَعْدَهُ عُمَرَ بْنَ مَعْدِ يَكْرَبِ الزَّيْدِيِّ، وَقَدِمَ أَبُو عَبِيدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِبَقِيَّةِ الْجَيْشِ، فَلَمَّا أَشْرَفَ أَبُو عَبِيدَةَ عَلَى حَمْصَ قَالَ : اللَّهُمَّ عَجَّلْ عَلَيْنَا فَتْحَهَا وَاخْذِلْ مَنْ فِيهَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَاسْتَقْبِلْهُمْ الْمُسْلِمُونَ بِأَجْمِعِهِمْ وَسَلَّمُوا عَلَيْهِ وَعَلَى مَنْ مَعَهُ، وَنَزَلَ أَبُو عَبِيدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى النَّهَرِ الْمَقْلُوبِ، فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِهِ الْقَرْارِ كَتَبَ إِلَى أَهْلِ حَمْصَ وَبِطَرِيقِهَا الْجَدِيدِ وَهُوَ هَرَبِيسُ كِتَابَ يَقُولُ فِيهِ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ أَبِي عَبِيدَةَ عَامِلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى الشَّامِ وَقَائِدِ جَيْوَشِهِ : أَمَا بَعْدَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ فَتَحَ عَلَيْنَا بِلَادَكُمْ وَلَا يَغْرِنُكُمْ عَظَمَ مَدِيَّتِكُمْ وَتَشْيِيدَ بَنِيَّكُمْ وَكَثْرَةَ رِجَالِكُمْ، فَمَا مَدِيَّتِكُمْ عَنْدَنَا إِذَا أَتَاكُمُ الْحَرْبُ إِلَّا كَالْبَرْمَةَ قَدْ نَصَبَنَا فِي وَسْطِ عَسْكَرِنَا وَأَلْقَيْنَا اللَّحْمَ فِيهَا وَجَمِيعَ الْعَسَكِرِ يَتَوَقَّعُ الْأَكْلَ مِنْهَا وَقَدْ دَارُوا بِهَا يَتَنَظَّرُونَ نَضْجَهَا وَأَكْلَ مَا فِيهَا، وَنَحْنُ نَدْعُوكُمْ إِلَى دِينِ ارْتِضَاهُ لَنَا رِبَّنَا عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنَّ أَجْبَتْمَ إِلَى ذَلِكَ ارْتَحَلْنَا عَنْكُمْ وَخَلَفْنَا عَنْكُمْ رِجَالًا مَنْ يَعْلَمُونَكُمْ أَمْرَ دِينِكُمْ وَمَا فَرَضَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْكُمْ، وَإِنْ أَبْيَتُمُ الْإِسْلَامَ قَرْنَاكُمْ عَلَى أَدَاءِ الْجُزْيَةِ، وَإِنْ أَبْيَتُمُ الْإِسْلَامَ وَالْجُزْيَةَ فَهَلَمُوا إِلَى الْحَرْبِ وَالْقَتْالِ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ، ثُمَّ طَوَى الْكِتَابَ وَسَلَّمَهُ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمَعَاهِدِينَ، وَكَانَ ذَلِكَ الرَّجُلُ يَحْفَظُ بِالْعَرَبِيةِ وَالرُّومِيَّةِ وَقَالَ لَهُ : انْطَلِقْ إِلَى حَمْصَ وَاتَّنَا بِالْجَوابِ، فَأَخْذَ الْمَعَاهِدَ الْكِتَابَ وَسَارَ حَتَّى وَصَلَّ إِلَى

السور فهم أهل حمص أن يرموه بالسهام والحجارة. فقال لهم بالرومية: يا قوم أمسكوا عليكم فأنا رجل معاهد وقد جئتكم بكتاب من هؤلاء العرب.

قال الواقدي: فدلوا له حبلاً فربط وسطه به وشالوه إليهم وأتوا به إلى بطريقهم، فلما وقف بين يديه خضع له وناوله الكتاب. فقال له البطريق: أرجعت عن دينك إلى دين هؤلاء العرب؟ قال: لا، ولكنني في ذمتهم وعهدهم أنا وأولادي وأهلي ومالي وما رأينا من القوم إلا خيراً والصواب عندي أن لا تقاتلوهم، فإن القوم أولو باس شديد لا يخافون ولا يرهبون الموت قد تمسكوا بدينهم والموت عندهم أفضل من الحياة، وقد أقسم القوم بدينهن لا ييرحون عن مدینتكم حتى تسلموها إليهم أو يفتحها الله على أيديهم، وحق ديني إنكم أحب إلى من العرب وأريد النصر لكم دون القوم، ولكنني خائف عليكم من بأسمهم وسلطتهم فسلموا تسلموا ولا تخالفوا تندموا.

قال الواقدي: فلما سمع البطريق هربيس كلامه غضباً شديداً، وقال: وحق المسيح والإنجيل الصحيح لولا أنك رسول لأمرت بقطع لسانك على جراءتك علينا، فلما قرأ الكتاب وعلم ما فيه أمر كاتبه أن يكتب إلى الأمير أبي عبيدة بجواب كتابه، فكتب كلمة الكفر. ثم قال: يا معاشر العرب إنه وصل إلينا كتابكم وعلمنا ما فيه من التهديد والوعيد والوعيد ولستنا كمن لاقيتم من أهل الشام ولم يزل الملك هرقل يستنصر بنا على من عاده وعلى من قصد إليه من العساكر والآن فلا بد لنا من الحرب والقتال، فإن سورنا شديد وأبوابنا حديد وحربنا عتيد والسلام. وطوى الكتاب وسلمه إلى المعاهد وأمر غلمانه أن يدلوه بالحبار من السور وسار حتى وصل إلى الأمير أبي عبيدة وسلمه الكتاب، ففضله وقرأه... فلما سمع المسلمون ما فيه عولوا على الحرب والقتال وقسم الأمير أبو عبيدة عسكر المسلمين أربع فرق، فبعث فرقة مع المسيب بن نجية الفزارى فنزل بهم على باب الجبل مما يلي باب الصغير، وبعث فرقة أخرى مع المرقال بن هشام بن عقبة بن أبي وقاص فنزل بهم على باب الرستق، وبعث فرقة أخرى مع يزيد بن أبي سفيان فنزل على باب الشام ونزل الأمير أبو عبيدة وخالد بن الوليد على باب الصغير وزحف المسلمون إليهم من كل مكان وقاتلواهم بقية يومهم هذا وسهام الروم تصل إليهم فيتلقونها بالحجف ونبال العرب تصل إليهم وإلى من بأعلى السور فأثرت لأجل ذلك ضراً فانقضوا عند المساء، فلما كان الغد جمع خالد بن الوليد كل عبد كان في عسكر المسلمين وأمرهم أن يتقددوا بالسيوف ويتنكبوا بالحجف ويزحفوا إلى سور حمص ويضربوا السور بأسيافهم ويطلقوا السهام بحجفهم. فقال الأمير أبو عبيدة: وما عسى أن يعني هذا يا أبا سليمان، فقال خالد رضي الله عنه: على رسرك أيها الأمير ولا تخالفني فيما صنعت فإني عزمت أن أقاتلهم بالعيدي ونعلمهم أن ليس لهم عندنا من القدر

شيء فما نقاتلهم بأنفسنا إلا أن يخرجوا إلينا، فقال أبو عبيدة رضي الله عنه: افعل ما شئت فالله تعالى يوفقك، فعند ذلك أمرهم خالد بن الوليد رضي الله عنه بالزحف على الأسوار وكانوا أربعة آلاف عبد، وأمر خالد ألفاً من العرب أن تترجل معهم ففعلوا ذلك وزحفوا على السور، وقد استتروا بالحجف والعرب من ورائهم فرموا بالنبل وضربوا بسيوفهم فمنها ما ثلم، ومنها ما انكسر.

قال الواقدي: وأشرف عليهم هربيس صاحب حمص، وقد دارت بطارقته وأصحاب الرتب فجعلوا يتأملون إلى أفعالهم، فقال هربيس: يا معاشر البطارقة وحق المسيح ما ظننت أن العرب بهذه الصفة وإذا هم كلهم سودان. فقال له بعض من لحقه بأجنادين وسائر المواطن: لا أيها السيد بل هؤلاء عبيدكم وهذه من بعض مكايدهم في الحرب وقد قدم هؤلاء السودان والعبيد إلى حربنا وقتانا معناه أن ليس لنا عندهم من القدر أن يلقونا بأنفسهم أو نخرج إليهم، فقال هربيس: وحق المسيح إن هؤلاء أشد من العرب بأسا وأقوى مراساً واعلموا أنه ما لزق قوم بسور مديتنا ولا دنو منها إلا وقد هان عليهم أمرها واقترب على أيديهم فتحها.

قال الواقدي: ولقد بلغني أن العبيد قاتلوا يومهم قتالاً شديداً وهجموا على الأبواب مارأوا ولم يزالوا بقية يومهم حتى أقبل الليل ورجعت الموالي إلى عسكر المسلمين وبعث هربيس من ليلته رسولاً إلى الأمير أبي عبيدة رضي الله عنه فأقبل الرسول والظلام متذكر فأحس جيوش المسلمين به فهموا به، فقال: أنا رسول من الطريق هربيس صاحب حمص وأريد الجواب عن هذا الكتاب، فسلم إليهم كتاب هربيس فأخذته أبو عبيدة رضي الله عنه وقرأه، فإذا فيه: يا معاشر العرب إنما ظننا أن عندكم عقلاؤ تدبرون به الحرب وتستعينون به على الأمور، وإذا أنتم بخلاف ذلك لأنكم في أول حربكم لنا تفرقتم على الأبواب، فقلنا: هذا أشد ما يكون من الحصار وأعظم ما يقدرون عليه من الإضرار..

فلما كان الغد تأخرتم عن حربنا وبعثتم هؤلاء المساكين إلى حربنا يقطعون أسيافهم ويكسرون سلاحهم فيما ليت شعري هل تصبر سيفهم على فساد سورنا، وقد بان لنا عجز رأيكم وتدبركم في القتال وملاقاة الرجال والآن فإنما أشير عليكم بأمر فيه الصلاح لنا ولكم، وهو أن تسيراوا إلى الملك هرقل وتفتحوا ما بين أيديكم كما فتحتم ما وراءكم وإياكم واللجاج والبغى فإنهما قاتلان لمن اتبعهما وراجعان على من بدأ بهما أو نحن نخرج إليكم صبيحة هذه الليلة والله ينصر من يشاء منا ومنكم من على الحق. قال فلما قرأ الأمير أبو عبيدة كتاب هربيس صاحب حمص استشار المسلمين فيما يصنع، وكان قد حضر عنده رجل كبير من أكابر خشم وسيد من ساداتهم اسمه عطاء بن عمرو الخثعمي، وكان كبير السن قد تم الهجرة سديداً الرأي قد قاد الرجال وولى أمر الجيش وحزم

العساكر، فلما سمع كتاب هريس وثب قائماً على قدميه، وقال للأمير أبي عبيدة رضي الله عنه: أقسمت عليك أيها الأمير برسول الله ﷺ إلا ما سمعت مقالتي، فإن فيه صلاحاً للMuslimين فالله وقني لمقالة وأيد المسلمين بها، قال أبو عبيدة رضي الله عنه: قل يا أبا عمرو فأنت عندنا ناصح للمسلمين. قال فدنا من الأمير أبي عبيدة وسارره، وقال له: أصلح الله الأمير أعلم أن خبرك عند هؤلاء منذ نزلت على هؤلاء اللثام وهذا الطريق أشد منعة وأعظم جولة من كان قبله، وقد علم بفتح بعلبك وأنك لا بد أن تنزل على حصارها، وقد استدعى بالطعام والعلوفة آلة الحصار، وقد شحنها بالرجال وما ترك في رساتيقها وقرابها طعاماً إلا وقد خزنوه، عندهم ما يكفيهم أعواماً، وإن نحن حاصرناهم يطول الأمر كما طال أمرنا على دمشق، والرأي عندي أن تخدعهم بخدعة وتحتال عليهم بحيلة. فإن تمت لنا عليهم الحيلة فتحنا المدينة عن قريب إن شاء الله تعالى. قال أبو عبيدة رضي الله عنه: وما الحيلة عندك يا ابن عمرو؟ فقال: الرأي عندي أن نكتب إلى هؤلاء القوم أن يجبرونا بالزاد والعلوفة ونضمن لهم أن نرحل عنهم إلى أن يفتح الله تعالى عليك غير مديتها ونرجع إليهم، وقد قل زادهم وانتشروا في سوادهم وتفرقوا في أمصارهم وتجارتهم وشن عليهم غارة فنمك ما ظهر منهم وبهون عليك أمر من بقي في حمص مع قلة الزاد والعلوفة، فقال أبو عبيدة: أصبت الرأي يا ابن عمرو إني سوف أفعل ما ذكرته ونرجو من الله التوفيق والعون.

ثم دعا أبو عبيدة رضي الله عنه بدوابة وبياض وكتب جواب الكتاب يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد فإني رأيت في قولك صلاحاً لنا ولكم ولسنا نريد البغي على أحد من عباد الله عز وجل. وقد علمت أن عسكرنا كثير وخيلنا وإيلنا كثير، فإن أردتم أن نرحل عنكم فابعثوا لنا ميرة خمسة أيام وأنتم تعلمون أن الطريق الذي أمامنا بعيد وما نلقى بعدكم إلا كل حصن منيع وأبواب حديد فإذا مرتمونا رحلنا عنكم إلى بعض مداين الشام، فإذا فتح الله علينا بعض مداين الشام رجعنا عنكم كما زعمتم، فإن فعلتم ذلك كان صلاحاً لكم. وطوى الكتاب وسلمه إلى الرسول وسار إلى حمص، فلما قرأ هريس الكتاب فرح بذلك وجتمع الرؤساء والرهبان، وقال لهم: أعلموا أن العرب قد بدعوا يطلبون منكم الزاد والميزة حتى يرحلوا عنكم فإن العرب مثلهم كمثل السبع إذا وجد فريسته لم يرجع إلى غيرها، وهم قد لحقهم الجوع في مديتها، وإذا شبعتهم انصرفوا عنها. فقالوا: أيها الأمير تخاف من العرب أن يأخذوا الزاد والعلوفة ولا يرحلوا عنها. فقال: إننا نأخذ لكم عليهم العهود والمواثيق أنكم إذا أمرتموهم بيرحلون عنكم. فقالوا: افعل ما بدا لك، واستوثق لنا ولك. قال فبعث هريس وأحضر القوسن والرهبان وأمرهم أن يخرجوا إلى الأمير أبي عبيدة رضي الله عنه ويأخذوا عليهم العهود والمواثيق إذا مرناهم بيرحلون عنها.

قال فخر جوا وقد فتح لهم باب الرستن فساروا حتى وصلوا إلى الأمير أبي عبيدة وأخذوا عليهم ميثاقاً وعهداً أن يرحلوا عنهم إذا هم ماروهم ولا يرجع عليهم حتى يفتح الله على يديه مدينة من مداين الشام شرقاً أو غرباً سهلاً كان أو جبلاً، فقال الأمير أبو عبيدة رضي الله عنه: قد رضيت بذلك وتم الصلح على ذلك، وأخرج لهم أهل حمص مما كانوا قد ادخروه من الزاد والعلوفة شيئاً عظيماً له ولعسكته ما يكفيهم مدة خمسة أيام، فأقبل أبو عبيدة عليهم، وقال: يا أهل حمص قبلنا ما حملتموه لنا من الزاد والعلوفة، فإذا رأيتم الآن أن تبيعوا من الزاد والعلوفة، فقالوا: نحن نفعل ذلك، فعندما نادى الأمير أبو عبيدة بشراء الزاد والعلوفة ولتكلروا من ذلك، فإن قدامكم طريقاً واسعاً قليلاً الزاد والعلوفة، فقالوا: أيها الأمير بماذا نشتري الزاد، وعلى أي شيء نحمله؟ فقال أبو عبيدة: من كان معه شيء من الذي غنمتموه من الروم فليشتري به الزاد والعلوفة. قال حسان بن عدي الغطفاني خفف الله عن أبي عبيدة الحساب كما خفف عنا ما كنا نحمله من البسط والطنافس مما كان قد أثقلنا وأثقل دوابنا فأخذنا به الزاد والعلوفة من القوم وكانت العرب تسمح لهم في البيع والشراء ويشتري منهم أهل حمص ما يساوي عشرين ديناراً بدينارين ورغبة أهل حمص في شراء الرخيص ولم يزل أهل حمص كذلك ثلاثة أيام وأهل حمص فرحون برحيل العرب عنهم. قال وكان للروم في عسكر العرب جواسيس وعيون يأخذون لهم الأخبار، فلما نظرت الجواسيس إلى أهل حمص، وقد فتحوا مديتها وهم يمرون العرب ظنوا أنهم دخلوا في طاعتهم فساروا على الحصون يقولون: إن أهل حمص قد دخلوا في طاعة العرب وفتحوا مديتها صلحًا فكان يعظم ذلك على الروم ويزيدهم خوفاً ورعباً، وكان ذلك توفيقاً من الله عزّ وجلّ للمسلمين، وكانت الجواسيس أربعين رجلاً فدخل ثلاثة رجال منهم إلى شizer فأشاعوا ذلك وأشيع فيها ذلك.

ذكر فتح الرستن

قال الواقدي: وسار الأمير أبو عبيدة بالعسكر حتى نزل على الرستن فرأها حصنًا منيعًا ومؤاها غزير وهي مشحونة بالرجال والعدد والعديد فبعث إليهم رسولًا يأمرهم أن يكونوا في ذمته فأبوا ذلك، وقالوا: لا نفعل حتى نرى ما يكون من أمركم مع الملك هرقل، وبعد ذلك يكون ما شاء الله تعالى، فقال الأمير أبو عبيدة رضي الله عنه: فإننا متوجهون إلى قتال الملك هرقل ومعنا رجال وأمتعة وقد أثقلتنا و Ashtonينا أن نودعها عندكم إلى وقت رجوعنا، قال: فأنت أهل الرستن إلى بطريقهم، وكان اسمه نقيطاس وشاوروه في ذلك، فقال: يا قوم ما زالت الملوك والساسرون يodus بعضهم البعض وما يضرنا ذلك،

ثم بعث إلى الأمير أبي عبيدة يقول له: مهما كان لك من حاجة فنحن نقضيها ونريد منكم المراعة لأهل سوادنا حتى نرى ما يكون من أمركم مع الملك هرقل، فقال الأمير أبو عبيدة: ونحن نفعل إن شاء الله تعالى.

قال الواقدي: عن ثابت بن قيس بن علقة. قال: كنت ممن حضر عند أبي عبيدة رضي الله عنه، فعند ذلك دعا أهل الرأي والمشورة من أصحاب رسول الله ﷺ وقال لهم: إن هذا حصن شديد منيع ليس لنا إلى فتحه سبيل إلا بالحيلة والخداع وأ يريد أن يجعل منكم عشرين رجالاً في عشرين صندوقاً وتكون الأفقال عندهم من باطنها، فإذا صاروا في المدينة فثوروا على اسم الله تعالى فإنكم تنصرون على من فيها من المشركين، فقال خالد بن الوليد: فإذا عزتم على ذلك فلتكن الأفقال ظاهرة ويكون أسفل الصناديق أنشى في ذكر من غير شيء يمسكها فإذا حل أصحابنا في حصن من هؤلاء القوم يخرجون جملة واحدة ويكتبُون. فإن النصر مقرون بالتكبير، فأجابه أبو عبيدة إلى ذلك وأخذ صناديق الطعام المنتخبة عند الروم فقضى أسفلها وجعلها ذكرًا في أنشى، فأول من دخل في الصناديق ضرار بن الأزور والمسيب بن نجية ذو الكلاع الحميري وعمرو بن معد يكرب الزبيدي والمرقال وهاشم بن نجية وقيس بن هبيرة وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ومالك بن الأشتر وعوف بن سالم وصابر بن كلكل ومازن بن عامر والأصيد بن سلمة وريمة بن عامر وعكرمة بن أبي جهل وعتبة بن العاص ودارم بن فياض العبسي وسلمة بن حبيب والفارع بن حرملة ونرفل بن جرعل وجندب بن سيف وعبد الله بن جعفر الطيار وجعله أميرًا عليهم وسلموا الصناديق إلى الروم، فلما حطت الصناديق في الرستن ألقاها نقطاس في قصر إمارته، وارتحل الأمير أبو عبيدة رضي الله عنه وسار حتى نزل في قرية يقال لها السودية، فلما أظلم الليل بعث خالد بن الوليد رضي الله عنه بجيشه الزحف إلى الرستن ينظر ما يكون من أصحابه وما فعلت الصحابة رضي الله عنه فسار خالد بن الوليد برجاته حتى وصل القنطرة وإذا بالصياح قد علا والتهليل والتکبير من داخل مدينة الرستن.

قال الواقدي: كان من أمر الصحابة أنه لما تركهم نقطاس في دار إمارته ركب إلى البيعة مع بطارقه وأهل مدینته ليصلوا صلاة الشكر، لأجل رحيل المسلمين عنهم وارتفاعت أصواتهم بقراءة الإنجيل وسمع أصواتهم أصحاب رسول الله ﷺ فخرجوا من الصناديق وشدوا على أنفسهم، وشهروا سلاحهم وقبضوا على امرأة نقطاس وحرمه وقالوا: نريد مفاتيح الأبواب فسلمتها إليهم، فلما حصلت المفاتيح في أيديهم رفعوا أصواتهم بالتهليل والتکبير والصلوة والسلام على البشير النذير وكبس القوم على أبواب مدینتهم فلم يجسروا عليهم لأنهم بدون عدة وسلاح وبعث عبد الله بن جعفر الطيار

ربيعة بن عامر والأصيد بن سلمة وعكرمة بن أبي جهل وعتبة بن العاص والفارع بن حرملة وسلم إليهم المفاتيح، وقال: افتحوا الأبواب وارفعوا أصواتكم بالتهليل والتكبير، فإن إخوانكم المسلمين من حول المدينة كاملون قبادر الخمسة إلى الباب القبلي وهو باب حمص وفتحوه ورفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير ودخلوا المدينة وإذا هم بعسكر الزحف، وعلى المقدمة خالد بن الوليد رضي الله عنه فأجابوههم بالتهليل والتكبير ودخلوا المدينة وسمع أهل الرستن أصوات أصحاب رسول الله ﷺ فلعلوا أنهم في قبضتهم وأن مدتيتهم قد أخذت من أيديهم فاستسلموا جميعاً وخرجوا إليهم وقالوا لهم: إنا لا نقاتلكم ونحن الآن أسرى لكم فاعدلوا فيما فائتم أحبت إلينا من قومنا.

قال: فعرض خالد بن الوليد رضي الله عنه الإسلام عليهم فأسلم منهم كثير وبقي الأكثر يؤدون الجزية، وأما أميرهم نقيطاس فإنه قال: لا أريد بدني بدلأ. فقال له خالد بن الوليد: الآن فاخذ بأهلك عنا وحدث قومك بعدها فآخرجوه من الرستن فتوجه بأهله وأمواله إلى حمص، وأعلم أهلهما بفتح الرستن فصعب ذلك على أهل حمص وعلموا أن العرب تصبحهم أو تمسيهم بالغارة وبعث عبد الله بن جعفر الطيار إلى أبي عبيدة يخبره بالفتح والنصر، فسجد لله شكرًا وبعث إليهم ألف رجل من اليمن ووصلهم بحفظ الرستن وأمر عليهم هلال بن مرة اليشكري، فلما استقروا بالرستن رحل خالد بن الوليد رضي الله عنه وعبد الله بن جعفر وأهلهما وعساكرهم وتوجهوا إلى حماة وكان أهل حماة في صلح المسلمين كما ذكرنا وكذلك أهل شيزر إلا أن بطريق أهل شيزر مات وبعث إليهم الملك هرقل بطريقاً عاتياً جباراً اسمه نكس ففسخ الصلح وأداق أهل شيزر ضراً وشراً وكان يصادرهم ويأخذ أموالهم ويحتجب عنهم لاهياً فيأكله وشربه، فلما بلغ الخبر الأمير أبو عبيدة بعث خيلاً جريدة إلى شيزر فغارت الخيل على بلدتهم ووقعت الضجة بشيزر وسمع الطريق نكس الضجة فنزل إليهم من قلعته وأظهر لهم بعض حجاته وجلس في بيته المعظمة عندهم وجمع الرؤساء منهم وقال لهم: يا أهل شيزر أنتم تعلمون أن الملك هرقل قد استخلفني عليكم لحفظ مدتيتكم وأمنع عن حريمكم وأموالكم ثم فتح خزانة السلاح وفرق عليهم العدد وأمرهم بالحرب والقتال، وبينما القوم كذلك إذ أشرف عليهم خالد بن الوليد في أصحابه ومعه جيش الزحف فنزلوا بيازائهم وأشرف بعده يزيد بن أبي سفيان بأصحابه فنزل عليهم وأشرف بعده الأمير أبو عبيدة في عساكره جميعهم، فلما نظر أهل شيزر تلاحق العساكر بهم هالهم ذلك وعظم عليهم وحاررت أبصارهم.

قال الواقدي: فلما نظر أبو عبيدة رضي الله عنه كتب إلى أهل شيزر كتاباً يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد يا أهل شيزر فإن حصنكم ليس بأمن من حصن

بعליך ولا من الرستن ولا رجالكم أشجع فإذا قرأتم كتابي هذا فادخلوا في طاعتي ولا تخالفوني فيكون وبالاً عليكم وقد بلغكم عدتنا وحسن سيرتنا فكعونوا مثل سائر من صالحنا ودخل في طاعتنا من سائر بلاد الشام والسلام. وطوى الكتاب وسلمه إلى رجل من المعاهدين وبعثه إليهم، فلما وصل الكتاب إليهم أعطوه بطريقهم نكس فقرئه عليه، فلما فهم ما فيه قال: ما تقولون يا أهل شيزر فيما ذكرت العرب؟ فقالوا: صدق العرب أيها الطريق الكبير فإن حصننا ليس بأمن من الرستن ولا بعلبك ولا دمشق ولا بصرى وأنت أعلم شدة أهل حمص وحده شجاعتهم، وقد صالحوا العرب وكذلك أهل فلسطين ومدنها والأردن وحصنها، فكيف تمنع عنهم شيزر وهي حصن لطيف فإن عصيت هؤلاء العرب فإنك معول على هلاكتنا وخراب مديتها.

قال الواقدي: وكثير فيهم الخطاب وعلا الكلام وأقبل الطريق نكس يسبّ أهل شيزر وأمر غلمانه بضربيهم، فلما نظر أهل شيزر ذلك غضبوا وأظهروا سلاحهم عليه وعلى غلمانه ووقع القتال بين الفريقين فعرف المسلمون ذلك وقالوا: اللهم أهلكم ببساطهم... ولم يزل أهل شيزر في القتال حتى نصروا على الطريق وعلى غلمانه وقتلواهم عن آخرهم، ثم أخرجوا إلى الأمير أبي عبيدة رضي الله عنه رجالاً إلى لقائه بغير سلاح، فلما وقفوا بين يدي الأمير أبي عبيدة سلّموا عليه وقالوا: أيها الأمير إنا قاتلنا بطريقنا في محبتكم، قال: يا أهل شيزر بيض الله وجوهكم وأدر رزقكم فقد كفيتمنا الحرب والقتال، ثم قال لل المسلمين: لا ترون إلى حسن طاعة هؤلاء الروم وفعالهم بطريقهم في محبتكم والدخول في طاعتكما، وقد رأيت من الرأي أن أحسن إلى القوم وأنعم عليهم. فقال المسلمين: نعم ما رأيت حتى يصل ما تصنع إلى غيرهم ويفتح الله علينا البلاد إن شاء الله تعالى.

قال الواقدي: فأقبل على أهل شيزر، وقال: أبشروا فإني لست أكره أحداً منكم فمن أحب منكم الدخول في ديننا فله ما لنا وعليه ما علينا والخارج موضوع عنكم ستين ومن أقام على دينه فعليه الجزية وقد وضعنا عنه الخراج سنة كاملة، ففرح الروم بذلك، وقالوا: أيها الأمير سمعنا وأطعنا وهذا قصر بطريقنا فأنت أحق بما فيه وهو هدية منا إليك فدونك وإيابه وما فيه من الرجال، والآنية والأموال، فأخرج أبو عبيدة رضي الله عنه منها الخمس وقسم الباقى على المسلمين بالسوية، ونادى أبو عبيدة رضي الله عنه: يا معاشر المسلمين قد فتح الله على أيديكم هذه المدينة أيسر فتح وأهونه، وقد خرج أهل حمص من ذمتكم ووفيت لهم ما عاهدوكم عليه فارجعوا بنا عليهم رحمة الله تعالى.

قال الواقدي: فركب المسلمين ظهور خيولهم وهموا بالمسير وإذا قد لاح لهم غبرة مرتفعة من وراء النهر المقلوب وهي منقلبة من طريق أنطاكية وقد أخذت عرضًا فأسرعت

خيل المسلمين إليها، فإذا معها قسيس كبير من قسوس الروم ومعه مائة برذون موسوقة بالأحمال ومن حولها مائة علچ من علوچ الروم يحفظونها.

قال الواقدي: ولم يكن للقسيس خبر بنزول المسلمين على شيزر فصاح بهم خالد بن الوليد رضي الله عنه وكتب المسلمين معه وأحدقوا بهم من كل جانب وأخذوا العلوچ أسرى وأخذوا البراذين، وأقبل خالد على القسيس، وقال له: يا ويلك من أين أقبلت بهذه الأحمال. قال فرطن القسيس بالرومية فلم يدر خالد ما يقول هذا القسيس الميشوم، فبدأ إليه رجل من أهل شيزر وقال: يا أيها الأمير إنه يذكر أنه من القسوس المعظمة عند الملك هرقل، وقد بعثه وبعث معه إلى هربيس هذه الأحمال مملوقة من أحمر منسوج بقضبان الذهب وعشرة أحمال مملوقة دنانير وبباقي الأحمال مملوقة من الشياط والدنانير فأخذوها وأخرجوا منها مالاً عظيماً وغنم المسلمين غنية عظيمة لم يغنموا مثلها، وساق خالد بن الوليد الأحمال إلى الأمير أبي عبيدة رضي الله عنه فوجده على النهر المقلوب مما يلي شيزر وتحته عباءة قطوانية وعلى رأسه مثلها تظلله من حر الشمس فأقبل خالد بن الوليد رضي الله عنه بالقسيس فأوقفه بين يديه. فقال أبو عبيدة: ما هذا يا أبي سليمان. فقال خالد: إنهم قوم من أنطاكيه ومعهم هدية لهربيس صاحب حمص من ملك الروم هرقل.

قال الواقدي: وعرض عليه الغنية ففرح الأمير أبو عبيدة بها فرحاً شديداً وقال: يا أبي سليمان لقد كان فتح شيزر علينا مباركاً، ثم دعا بترجمان كان معه لا يفارقه، وقال: أسأل هؤلاء عن ملك الروم الطاغية هرقل هل هو في جمع كثير أم لا؟ فكلم الترجمان القسيس ساعة فقال القسيس: قل للأمير إن الملك هرقل قد بلغه أنكم فتحتم دمشق وبعلبك وجosity وأنكم لم تنزلوا على حمص فبعثت معه هذه الهدية إلى هربيس الطريق وكتب إليه يأمره بقتالكم ويعده بالنجدة وقدوم العساكر إليه لأن الملك هرقل قد استنجد عليكم كل من يعبد الصليب ويقرأ الإنجيل فأجابته الرومية والصقالبة والإفرنج والأرمي والدقس والمغليط والكرج واليونان والعلف والغزانة وأهل رومية وكل من يحمل صليباً والعساكر قد وصلت إلى الملك هرقل من كل جانب ومكان قال فحدث الترجمان الأمير أبي عبيدة رضي الله عنه بكل ما أعلمه القسيس به فعظم ذلك على الأمير أبي عبيدة وعرض على القسيس الإسلام، فقال القسيس للترجمان: قل للأمير أبي عبيدة إني البارحة رأيت رسول الله ﷺ في المنام وقد أسلمت على يديه ففرح الأمير أبو عبيدة بذلك وعرض على الأعلام الإسلام فأبوا ذلك فضررت رقبهم، ورحل أبو عبيدة رضي الله عنه متوجهاً إلى حمص، وقد سير الخيل جريدة في مقدمته فما يشعر أهل حمص إلا والخيل قد أغارت عليهم فرجع القوم إلى المدينة وقد غلقوا الأبواب، وقالوا: غدرت

العرب وحق المسيح. قال: ونزل المسلمون حول حمص وداروا بها من كل جانب ومكان، وقد نفذ الزاد من المدينة وأكثر أهلها قد خرجوا إلى تجارتهم وفي طلب الميرة، وقد تفرقوا في البلاد فلما نزل الأمير أبو عبيدة رضي الله عنه على حمص، دعا بالعيبد والموالي وأمرهم أن يتفرقوا على الطرقات والمحارس وقال لهم: كل من وجدهموه قد رجع إلى حمص بزاد أو تجارة فائتوني به، ففعل العبيد ذلك، وصعب ذلك على هربيس صاحب حمص وكتب إلى الأمير أبي عبيدة كتاباً يقول فيه: أما بعد يا معاشر العرب فإننا لم نخبر عنكم بالغدر ولا بتفصيل العهد، ألستم صالحتمونا على الميرة فمرناكم، فطلبتم منا البيع فابتعدناكم فلم نقضتم ما عاهدناكم عليه؟ فكتب الأمير أبو عبيدة رضي الله عنه يقول: أريد أن ترسل إلي القسوس والرهبان الذين أرسلتهم إلي حتى أوقفهم على ما عاهدتهم عليه ليعلمونك أننا لم نغدر ولا مثلنا من يفعل ذلك إن شاء الله تعالى، فلما قرأ هربيس الكتاب أحضر القسوس والرهبان ويعث بهم إلى الأمير أبي عبيدة، فخرجوا إليه وفتح لهم باب حمص وساروا إلى أن وصلوا للأمير أبي عبيدة، فسلموا عليه وجلسوا بين يديه، فقال لهم أبو عبيدة رضي الله عنه: ألم تعلموا أنني عاهدتكم وخلفت لكم أنني منصرف عنكم حتى أفتح مدينة من مداين الشام سهلاً كان أو جيلاً، ثم يكون الرأي لي إن شئت رجعت إليكم أو سرت إلى غيركم؟ فقالوا: بلى وحق المسيح، فقال لهم: إن الله تعالى قد فتح علينا شيزر والرستن في أهون وقت، وقد غنمنا الله مال بطريقهم نكس وغيره مما لم نؤمله في هذه المدة اليسيرة والآن فلا عهد لكم عندنا ولا صلح إلا أن تصالحونا على فتح المدينة وتكونوا في ذمتنا وأمانتنا، فقال القسوس والرهبان لقد صدقت أيها الأمير ليس عليكم لوم وقد وفيت بذمتك، وقد بلغنا فتححكم شيزر والرستن والخطأ كان منا إذ نستوئن لأنفسنا والآن الأمر بيد بطريقنا ونحن نرجع إليه ونعملمه بذلك، ثم رجعوا إلى مدinetهم ودعا الأمير أبو عبيدة رضي الله عنه بالرجال والأبطال وأهل الحرب، وقال: خذوا أهبتكم فإن القوم بلا زاد ولا مدد يأتي إليهم من عند طاغيهم ولا نجدة فاستعينوا بالله وتوكلوا على الله . . .

قال فلبس المسلمين السلاح والعدد ورجعوا إلى الأبواب والأسوار واجتمع أهل حمص ببطريقهم هربيس وقالوا: ما عندك من الرأي في أمر هؤلاء العرب. فقال: الأمر عندي أن نقاتلهم ولا نريهم مما ضعفنا قالوا: فإن الزاد قد نفذ من مدinetنا، وقد أخذ هذه القوم مما سمعنا بمثل هذه الحيلة، فقال هربيس: ما لكم تعجزون عن حرب عدوكم وما قتل منكم قتيل ولا جرح منكم جريح ولم تصبكم شدة ولا جوع، وإنما أصابوا منكم على غرة ولو دخلوا المدينة لما قدوا عليكم وأقل الرجال على السور يكفيكم إياهم وعندى من الزاد في قصرى ما يعمك كثيركم المدة الطويلة وما أحسب أن الملك هرقل يغفل وسيبلغه خبركم ويوجه العساكر.

قال الواقدي: وكان عند الطريق هربيس في قصره جب عظيم مملوء طعاماً ففتحه وفرق الطعام على أهل حمص فسكنت بذلك نفوسهم وجعل الطريق يفرق على كبارهم وصغارهم بقية يومهم ذلك، وقد انحصر أهل حمص جميعهم فنجد ذلك اليوم نصف ما في الجب وقال لهم: اقنعوا بما أعطيتكم ثلاثة أيام وابرزوا إلى حرب عدوكم، ثم أخذوا أهبة الحرب وعرض عسکره وانتخب منهم خمسة آلاف فارس من أولاد الزراوز، والعمالقة لا يساویهم غيرهم فيهم ألف مدجنة ملکية وفتح خزانة جده جرجيس وفرق عليهم الدروع والجواشن والمغافر والقصي والنشاب والحراب وأقبل يحرضهم على القتال ويوعدهم بالمدد والنجد من الملك هرقل... ثم دعا بالقصوس والرهبان وقال لهم: خذوا أهبتكم وادعوا المسيح أن ينصرنا على العرب فإن دعاءكم لا يحجب ولا يرد، قال فدخلوا كنيستهم المعظمة عندهم وهي كنيسة جرجيس وهي الجامع اليوم ونشروا المزامير وضجوا بالتهمير وأقبلوا يتهلون بكلمة الكفر وباتوا بقية ليتهم على مثل ذلك، فلما كان الصباح دخل هربيس إلى البيعة وتقرب وصلوا عليه صلاة الموتى فدخل قصره وقدم له خنوص مشوي فأكله حتى أتى على آخره وقدم بين يديه باطية الذهب والفضة فشرب حتى انقلبت عيناه في أم رأسه ثم لبس ديباجا ممحشًا بالفرو والزبرد الصغار المضعف العدد ولبس فوقها درعاً من الذهب الأحمر وعلق في عنقه صليباً من الياقوت وتقلد بسيف من صنعة الهند وقدم له مهر كالطود العظيم فاستوى على ظهره، وخرج من قصره طالباً باب الرستن فأحاطت به بطارقته من الروم من كل جانب ومكان، وفتحت أبواب حمص وخرجت الروم من كل جانب ومكان في عددهم وعديدهم ورأياتهم وصلبانهم وبين يدي هربيس خمسة آلاف فارس من علوج الروم وهم بالعدد العديد، والزمر النضيد، فصفعهم هربيس أمام المدينة كأنهم سد من حديد، أو قطع الجلمود، وقد وطنوا نفوسهم على الموت دون أموالهم وذارياتهم فتبادر المسلمين إليهم مثل الجراد المنتشر، وحملوا عليهم حملة عظيمة والعلوج كأنهم حجارة ثابتة ما ولوا عن مواضعهم ولا فكروا فيما نزل بهم، فعندها صاح الطريق هربيس على رجاله وزوجهم فتبادرت الروم واصبح بعضهم بعض وركب المسلمين وحملوا عليهم ورشقوا الرجال بالسهام واشتبكت الحرب واختلط الفريقيان واقتتلوا قتالاً شديداً ما عليه من مزيد، إلا أن المسلمين رجعوا القهقرى، وقد فشا فيهم القتل والجرح... .

فلما نظر الأمير أبو عبيدة إلى ذلك من هزيمة المسلمين عظم عليه وكبر لديه وصاح فيهم بصوته: يا بني القرآن الرجعة بارك الله فيكم فهذا يوم من أيام الله تعالى فاحملوا معى بارك الله فيكم فتراجع الناس وحملوا على أهل حمص حملة عظيمة وشدوا عليهم الحملة، وحمل خالد بن الوليد رضي الله عنه في جمع كثير من بني

مخزوم وجعلوا يضربون فيهم بسيوفهم ويطعنون برمادهم حتى طحن الحصيد ووضع المسلمين فيهم السيف، وحمل ابن مسروق العبسي في طائفة من قومه من بنى عبس، وقد رفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير وصدموا الروم صدمة عظيمة فتراجعوا الروم إلى الأسوار وقد فشا فيهم القتل، فبربرت الروم بلغاتها وتراجعت على المسلمين وأحاطوا بهم من كل جانب ومكان ورشقت العلوج بالنশاب وطعنوا في المسلمين بالحراب، وقد استتروا بالدرق والطوارق. قال فلما نظر خالد بن الوليد إلى ذلك برباللواه وكان هو صاحب اللواء يوم حمص وصالح خالد بأصحابه وقال: شدوا عليهم بالحملة بارك الله فيكم فإنها والله غنية الدنيا والآخرة. قال فيبينما خالد بن الوليد يحرّض أصحابه على القتال إذ حمل عليه بطريق من عظام الروم وعليه لامة مانعة وهو يهدى كالأسد فحمل خالد بن الوليد عليه وضربه على رأسه فوق سيفه على البيضة فطار السيف من يده خالد بن الوليد وبقيت قبضته في يده فطمع العلاج فيه وحمل عليه ولاصقه حتى حك ركابه بر CAB خالد وتعانقا جميعاً بالسواعد والمناكب فضم خالد العلاج إلى صدره واحتضنه بيده وشد عليه بقوته فطحن أضلاعه وأدخل بعضها في بعض فأرداه قتيلاً، وأخذ خالد سيف العلاج وهزه في يده حتى طار منه الشرر ووضع رأسه في قربوس سرجه وحمل وصالح في بنى مخزوم فحملوا حملة عظيمة وهاجوا في أوساطهم وخالد بن الوليد رضي الله عنه يفرّقهم يميناً وشمالاً وهو ينادي برفع صوته:

أنا الفارس الصنديد، أنا خالد بن الوليد صاحب رسول الله ﷺ، ولم يزالوا في القتال الشديد الذي ما عليه من مزيد حتى توسطت الشمس في كبد السماء وحمى الدرع على خالد بن الوليد رضي الله عنه فخرج من المعركة وبنو مخزوم يتقدّرون من خلفه والدم يسيل ملء درعهم وسواعدهم كأنها شقائق الأرجوان، وخالد بن الوليد رضي الله عنه في أوائلهم وهو يقول:

ويل لجمع الروم من يوم شغب إني رأيت الحرب افيه تلتهب
وكم لقوا منا موقع النصب وكم تركت الروم في حال العطب

قال: فناداه الأمير أبو عبيدة: الله ذرك يا أبا سليمان الله ذرك لقد جاهدت في الله حق جهاده، فلما نظر المرقال بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص إلى غفلة الروم صاح في بنى زهرة وحملوا في ميمنة الروم وحمل ميسرة بن مسروق العبسي في قومه وحمل عكرمة بن أبي جهل وحوله جمع كثير من بنى مخزوم، وحمل المسلمين بأجمعهم وقد اطلعوا على الشهادة وأيقنوا بالعنابة.

معاركة حمص

قال الواقدي : فلم يكن يوم حمص أشد حرّيَا ولا أقوى جلداً من بني مخزوم غير أن عكرمة بن أبي جهل كان أشدَّهم بأساً وإقداماً وهو يقصد الأسنة بنفسه فقيل له : اتق الله وارفق بنفسك ، فقال : يا قوم أنا كنت أقاتل عن الأصنام ، فكيف اليوم وأنا أقاتل في طاعة الملك العلام وإنِّي أرى الحور متشوقات إليَّ ولو بدت واحدة منها لأهل الدنيا لأنّهم عن الشمس والقمر ولقد صدقنا رسول الله ﷺ فيما وعدنا ، ثم سلَّ سيفه وغاص في الروم ولم يزدد إلا إقداماً وقد عجبت الروم من حسن صبره وقتاله . في بينما هو كذلك إذ حمل عليه الطريق هربيس صاحب حمص وبهذه حرية عظيمة تضييء وتلتهب وهزها في كفه وضربه بها فوقعت في قلبه ومرقت من ظهره فانجدل صريعاً وعجل الله تعالى بروحه إلى الجنة ، فلما نظر خالد بن الوليد إلى ابن عمِّه وقد وقع صريعاً أقبل حتى وقف عليه وبكي ، وقال : يا ليت عمر بن الخطاب نظر إلى ابن عمِّي صريعاً حتى يعلم أنا إذا لاقينا العدو ركبنا الأسنة ركوبًا . قال ولم يزالوا في الأهوال الشديدة حتى هجم الليل عليهم وترجعت الروم إلى مدينتهم وغلقوا الأبواب وطلعوا على الأسوار ورجعت المسلمين إلى رحالهم وخيمهم وباتوا ليتهم يتحارسون ، فلما أصبح الصباح قال الأمير أبو عبيدة رضي الله عنه : يا معاشر المسلمين ما بالكم قد صدكم هؤلاء القوم؟ وبعد الطمع فيهم ما بالكم هزمتم وجزعتم منهم والله ألبسكم عافية مجللة وسلامة سابعة وأظفركم على بطارقة الروم وفتح لكم الحصون والقلاء ، فما هذا التقصير والله تعالى مطلع عليكم؟

قال خالد بن الوليد رضي الله عنه: هؤلاء فرسان الروم أشد الرجال ليس فيهن سوقة ولا جبان، وقد تعلم أنهم يكونون أشد في الحرب لأنهم يمنعون عن الذراري والنسوان. فقال أبو عبيدة رضي الله عنه: فما الرأي عندك يا أبو سليمان يرحمك الله؟ فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه: أيها الأمير قد رأيت من الرأي أنا نكشف للقوم غداً وندع لهم سوائمنا وإيلنا فإذا تباعدنا عن مدinetهم وتبعتنا خيلهم وتبعادوا عن مدinetهم وصاروا معنا عطفنا عليهم ومزقناهم بالأسنة ونقطع ظهورهم لبعدهم عن مدinetهم. فقال أبو عبيدة: نعم الرأي ما رأيت يا أبو سليمان ولقد أشرت وأحسنت. قال وتوعاد المسلمين على أن ينكشفوا بين أيدي الروم وأن يتركوا لهم سوائمهم، فلما أصبح الصباح فتحت أبواب حمص وخرجت الروم من جميع الأبواب وزحفوا بريدون القتال، فسألهم العرب كفوا القتال وأروهم التقصير والخوف وأطمعوهن في أنفسهم وجعلوا ينحرفون عن قتالهم حتى تصاحى النهار وانبسطت الشمس وطاب الحرب وطمعت الروم في المسلمين لما بان لهم من تقصيرهم فشد الروم بالحملة عليهم، فانهزمت العرب من بين أيديهم وتركوا سوائمهها.

قال نوفل بن عامر: حدثنا عرقجة بن ماجد التميمي عن سراقة النخعي وكان من حضر يوم حمص. قال لما انهزمت العرب أمام الروم وتبعنا هربيس البطريق في خمسة آلاف شهـب وكانوا أشد الروم. قال سراقة بن عامر: وانهزمنا أمام القوم كأننا نطلب الزراعة وجوسية، وأدركنا البطارقة وبعضاهم مال إلى السواد طمعاً في الزاد والطعم.

قال الواقدي: وكان بحمص قسيس كبير السن عظيم القدر عند الروم قد حنكـته التجارب وعرف أبواب الحـيل والخداع، وكان عالـماً من علماء الروم وقدقرأ التوراة والإنجيل والزبور والمزمـير وصحف شـيث وإبراهـيم، وأدرك حوارـي عـيسـى ابن مـريم عليه السلام، فـلما أشرف ذلك القـسيـس ونظر إلى العرب وقد مـلكـ الروـم سـوادـهم جـعلـ يـصـبحـ ويـقـولـ وهوـ يـنـادـيـ: وـحـقـ المـسـيـحـ إـنـ هـذـهـ خـدـيـعـةـ وـمـكـرـ وـمـكـيـدـةـ مـنـ مـكـاـيدـ العـربـ،ـ وإنـ العـربـ لـأـ تـسـلـمـ أـلـاـدـهـاـ وـإـلـهـاـ وـلـوـ قـتـلـوـ عـنـ آـخـرـهـمـ.ـ قـالـ وـجـعـلـ القـسـيـسـ يـصـبـحـ وـأـهـلـ حـمـصـ قـدـ وـقـعـواـ فـيـ النـهـبـ وـلـيـسـ يـغـنـيـهـمـ سـوـيـ الزـادـ وـالـطـعـامـ،ـ وـالـبـطـرـيـقـ هـرـبـيـسـ قـدـ أـلـحـ فيـ طـلـبـ الـمـسـلـمـيـنـ فـيـ خـمـسـةـ آـلـافـ فـارـسـ،ـ فـلـمـ أـبـعـدـواـ عـنـ الـمـدـيـنـةـ صـاحـ الـأـمـيـرـ أـبـوـ عـيـدةـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ بـرـفـيـعـ صـوـتـهـ:ـ اـعـطـفـواـ عـلـىـ الرـوـمـ كـالـسـبـاعـ الضـارـيـةـ وـالـعـقـبـانـ الـكـاـسـرـةـ فـرـدـواـ عـلـيـهـمـ كـرـدـوـسـاـ وـاحـدـاـ حـتـىـ أـحـاطـواـ بـالـبـطـرـيـقـ وـأـصـحـاـبـهـ مـنـ كـلـ جـانـبـ وـدارـواـ بـهـمـ مـثـلـ الـحـلـقـةـ الـمـسـتـدـيـرـ وـأـحـدـقـواـ بـهـمـ كـإـحـدـاقـ الـبـيـاضـ بـسـوـادـ الـعـيـنـ،ـ وـبـقـيـتـ الرـوـمـ فـيـ أـوـسـاطـهـمـ كـالـشـامـةـ السـوـدـاءـ فـيـ الشـوـرـ الـأـبـيـضـ فـعـنـدـ ذـلـكـ نـصـبـتـ الـعـلـوـجـ نـشـابـهـاـ عـلـىـ الـعـربـ،ـ وـالـمـسـلـمـوـنـ يـكـرـونـ عـلـيـهـمـ مـثـلـ الـأـسـوـدـ الـضـارـيـةـ وـيـحـوـمـوـنـ عـلـيـهـمـ كـمـاـ تـحـومـ النـسـورـ وـيـضـرـبـوـنـهـمـ بـالـسـيـوـفـ وـيـصـرـعـوـنـهـمـ يـمـيـنـاـ وـشـمـالـاـ حـتـىـ انـكـسـرـ أـكـثـرـهـمـ.

قال عطية بن فهر الزبيدي: فـلـمـ نـظـرـتـ الرـوـمـ إـلـىـ فـعـلـنـاـ بـهـمـ تـكـالـبـتـ عـلـيـنـاـ،ـ فـلـمـ حـمـيـتـ الـحـرـبـ اـبـتـدـرـ خـالـدـ بـنـ الـوـلـيـدـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ مـنـ وـسـطـ الـعـسـكـرـ وـهـوـ عـلـىـ جـوـادـ أـشـقـرـ وـعـلـيـهـ جـوـشـنـ مـذـهـبـ كـانـ لـصـاحـبـ بـعـلـبـكـ أـهـدـاهـ لـهـ يـوـمـ فـتـحـ بـعـلـبـكـ،ـ وـكـانـ خـالـدـ بـنـ الـوـلـيـدـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ قـدـ عـمـمـ نـفـسـهـ بـعـمـاـةـ حـمـرـاءـ وـكـانـتـ تـلـكـ الـعـمـاـمـةـ عـمـاـمـهـ فـيـ الـحـرـبـ وـجـعـلـ يـهـدـرـ كـالـأـسـدـ الـحـرـدـانـ وـقـدـ اـنـتـضـىـ سـيـفـهـ مـنـ غـمـدـهـ وـهـزـهـ حـتـىـ طـارـ مـنـهـ الشـرـ وـنـادـيـ بـرـفـيـعـ صـوـتـهـ:ـ رـحـمـ اللـهـ رـجـلـاـ جـرـدـ سـيـفـهـ وـقـوىـ عـزـمـهـ وـقـاتـلـ أـعـدـاءـ فـعـنـدـهـ اـنـتـضـبـ الـمـسـلـمـوـنـ سـيـوـفـهـمـ وـصـدـمـوـنـ الرـوـمـ صـدـمـةـ عـظـيـمـةـ وـنـادـيـ الـأـمـيـرـ أـبـوـ عـيـدةـ:ـ يـاـ بـنـيـ الـعـربـ قـاتـلـوـنـ حـرـيـمـكـمـ وـدـيـنـكـمـ وـأـمـوـالـكـمـ فـإـنـ اللـهـ مـطـلـعـ عـلـيـكـمـ وـنـاصـرـكـمـ عـلـىـ عـدـوكـمـ.ـ قـالـ:ـ وـكـانـ مـعـاذـ بـنـ جـبـلـ قـدـ اـنـفـرـدـ فـيـ خـمـسـمـائـةـ فـارـسـ إـلـىـ السـوـادـ وـالـأـمـوـالـ وـانـقـضـ عـلـىـ الرـوـمـ فـمـاـ شـعـرـتـ الرـوـمـ وـالـعـلـوـجـ مـمـنـ اـنـغـمـسـ فـيـ الـغـارـةـ وـحـمـلـ الزـادـ وـالـرـحـالـ وـالـأـمـتـعـةـ إـلـاـ وـالـطـعـنـ قـدـ أـخـذـهـمـ بـأـسـتـةـ الرـمـاحـ مـنـ كـلـ جـانـبـ كـأـنـهـاـ أـلـسـنـةـ النـارـ الـمـضـرـمـةـ وـنـادـيـ مـنـادـ:ـ يـاـ فـتـيـانـ الـعـربـ اـطـلـبـوـنـ الـبـابـ لـثـلـاـ يـنـجـوـ أـحـدـ مـنـ الرـوـمـ بـرـجـالـنـاـ

وأولادنا، فجعل المسلمين يطلبون الأبواب وكانت علوج الروم قد غرقت في رحال المسلمين، فلما نظروا إلى معاذ وقد حمل عليهم في رجاله عادت وقد رمت الرحال وطلبت الهرب فانفلت منهم من انفلت وقتل من قتل. قال صحيب بن سيف الفزاري: فوالله ما انفلت من الخمسة آلاف الذين كانوا مع هربيس صاحب حمص إلا ما ينوف عن مائة فارس. قال واتبعنا القوم إلى الأبواب فكان أعظم المصيبة قتلنا إياهم على الأبواب، لأن أكثر الرجال من العواصم وغيرهم كانوا في المدينة. قال سعيد بن زيد: شهدت يوم حمص وكنت من أولئك بعد القتلى فعددت خمسة آلاف وستة غير أسير وجريح فدنته من الأمير أبي عبيدة رضي الله عنه وقتلت: البشارة أيها الأمير فإني عدلت خمسة آلاف وستة غير أسير وجريح. فقال الأمير أبو عبيدة: بشرت بخير يا سعيد يا ابن زيد فهل ترى قتل بطريقهم هربيس. فقال سعيد بن زيد: أيها الأمير إذا كان قتل بطريقهم هربيس فما قتله غيري. فقال الأمير أبو عبيدة: وكيف علمت أنه قتيلاً يا سعيد. فقال سعيد بن زيد: أيها الأمير إني رأيت فارساً عظيم الخلقة طويلاً ضخماً أحمر اللون وبيده سيف وعليه لامة حربه صفتها كذا وكذا وهو في وسط الروم كأنه البعير الهائج فحملت عليه وقتلت في حملتي: اللهم إني أقدم قدرتك على قدرتي وغلبتك على غلبتي: اللهم اجعل قتله على يدي وارزقني أجره. فقال له أبو عبيدة: أما أخذت سلبه يا سعيد؟ قال: لا، ولكن علامتي فيه نبلة من كنانتي أثبتها في قلبه فخرّ يهوى عن جواهه ونفرت عنه أصحابه فلحقته فضررته بسيفي ضرورة فصرمت حقوته وبنتي في قلبه. قال أبو عبيدة رضي الله عنه: أدركوه رحمكم الله وسلموا سلبه إلى سعيد ففعلوا ذلك.

قال الواقدي: فلما أخذت الحرب أوزارها أخذ المسلمين الأسلاب والدروع والشهابي ومثلوا الجميع أمام الأمير أبي عبيدة رضي الله عنه فأخرج منها الخمس ليبيت مال المسلمين وقسم الباقى على المجاهدين. قال ووقع الصياح والبكاء في حمص على من قتل منهم من فرسان الكفار ورجالهم. قال واجتمع مشايخ حمص ورؤساؤهم إلى بيتهم وتحديثوا مع القسوس والرهبان على أن يسلموا حمص إلى المسلمين، وخرج علماء دينهم ورؤساؤهم إلى أبي عبيدة رضي الله عنه وصالحوه على تسليم المدينة إليه وأن يكونوا تحت ذمامه وأمانه، فصالحهم أبو عبيدة رضي الله عنه، وقال: لست أدخل مدینتكم حتى نرى ما يكون بيننا وبين الملك هرقل وأراد أهل حمص أن يكرموا المسلمين بالإقامة والعلوفة فنهاهم الأمير أبو عبيدة عن ذلك ولم يدخل أحد من المسلمين إلى حمص إلا بعد وقعة اليرموك كل ذلك ليقرب المسلمين إلى الروم بالعدل وحسن الصحة.

قال جرير بن عوف: حَدَّثَنَا حَمِيدُ الْطَّوِيلُ. قَالَ: حَدَّثَنَا سَنَانُ بْنُ رَاشِدٍ الْبِرْبُوْعِيُّ.

قال: حَدَّثَنَا سَلْمَةُ بْنُ جَرِيجَ قَالَ: حَدَّثَنَا النَّجَارُ وَكَانَ مِنْ يَعْرُفُ فَتْحَ الشَّامِ، قَالَ: لَمَّا
صَالَحُنَا أَهْلَ حَمْصَ بَعْدَ قَتْلِ هَرَبِيسَ خَرَجَ أَهْلُ حَمْصَ وَدُفِنُوا قَتْلَاهُمْ فَافْتَقَدْنَا الْقَتْلَى
الَّذِينَ اسْتَشَهَدُوا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدْنَا مِنْ اسْتَشَهَدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِائَتَيْنِ
وَخَمْسَةَ وَثَلَاثَيْنَ فَارِسًا كُلُّهُمْ مِنْ حَمِيرٍ وَهَمَدَانٍ إِلَّا ثَلَاثَيْنِ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةِ: وَهُمْ
عُكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ وَصَابِرُ بْنُ جَرِيجٍ وَالرَّئِيسُ بْنُ عَقِيلٍ وَمَرْوَانُ بْنُ عَامِرٍ وَالْمَنْهَالُ بْنُ
عَامِرٍ السَّلْمِيُّ ابْنُ عَمِ الْعَبَاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَجَمِيعُ بْنُ قَدْمٍ، وَجَابِرُ بْنُ خَوَيْلَدِ الرَّبِيعِيِّ،
فَهُؤُلَاءِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ اسْتَشَهَدُوا يَوْمَ حَمْصَ وَالْبَاقُونَ مِنَ الْيَمَنِ وَهَمَدَانَ وَمِنْ أَخْلَاطِ
النَّاسِ.

ذكر وقعة البرموك

قال الواقدي: واتصلت الأخبار إلى الملك هرقل أن المسلمين قد فتحوا حمص والرستن وشيزر، وقد أخذوا الهدية التي بعثها إلى هربيس البطريق فبلغ ذلك منه دون النفس وأقام ينتظر الجيوش والعساكر من أقصى بلاد الروم لأنه قد كان كاتب كل من يحمل الصليب فما مضى عليه إلا أيام قلائل حتى صار أول جيوشه عنده بأنطاكية وأخرها في رومية الكبرى وأنه بعث جيشاً إلى قيسارية ساحل الشام يكون حفظه على عكا وطبرية وبعث بجيش آخر إلى بيت المقدس وأقام ينتظر قوم ماهان الأرمني ملك الأرمن، وقد جمع من الأرمن ما لا يجمعه أحد من أهالي الملك هرقل، وبعد أيام قدم على الملك هرقل للقاء في أرباب دولته، فلما قرب منه ترجل ماهان وجندوه وكفروا بين يديه ورفعوا أصواتهم بالبكاء والنحيب مما وصل إليهم من فتح المسلمين بلادهم فنهادهم عن ذلك، وقال: يا أهل دين النصرانية وبني ماء المعمودية قد حذرتكم وخوقتم من هؤلاء العرب ولم تقبلوا مني فور حقيقة المسيح والإنجيل الصحيح والقربان ومذبحنا العمدان لا بد لهؤلاء العرب أن يملكون ما تحت سريري هذا والآن البكاء لا يصلح إلا للنساء، وقد اجتمع لكم من العساكر ما لم يقدر عليه ملك من ملوك الدنيا، وقد بذلك مالي ورجالي كل ذلك لأذبّ عنكم وعن دينكم وعن حريمكم فتوبوا للمسيح من ذنوبكم وانزوا للرعاية خيراً ولا تظلموا وعليكم بالصبر في القتال ولا يخامر بعضكم ببعضًا وإياكم والعجب والحسد فإنهما ما نزلَا بقوم إلا ونزل عليهما الخذلان وإنني أريد أن أسألكم وأريد منكم الجواب عما أسألكم عنه، فقالت العظماء من الروم والملوك: أسأل أيها الملك عما شئت.

قال: إنكم اليوم أكثر عدداً وأغزر مددًا من العرب وأكثر جمعاً وأكثر خياماً وأعظم قوة فمن أين لكم هذا الخذلان وكانت الفرس والترك والجرامقة تهاب سلطونكم وتفرّع من

حربيكم وشدتكم، وقد قصدوا إليكم مراراً ورجعوا منكسرین والآن قد علا عليكم العرب وهو أضعف الخلق عراة الأجساد جياع الأكباد ولا عدد ولا سلاح، وقد غلبوكم على بصرى وحوران وأجنادين ودمشق وبعلبك وحمص قال فسكت الملوك عن جوابه، فعندما قام قسيس كبير عالم بدين النصرانية، وقال: أيها الملك أما تعلم لم نصرت العرب علينا؟ قال: لا وحق المسيح، فقال القسيس: أيها الملك لأن قومنا بدّلوا دينهم وغيروا ملتهم وجحدوا بإجابة المسيح عيسى ابن مريم صلوات الله وسلامه عليه وظلموا بعضهم وليس فيهم من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وليس فيهم عدل ولا إحسان ولا يفعلون الطاعات وضيّعوا أوقات الصلوات وأكلوا الربا وارتکبوا الزنا وفشت فيهم المعاصي والفواحش، وهؤلاء العرب طائعون لربهم متبعون دينهم رهبان بالليل صوام بالنهار ولا يفترون عن ذكر ربهم ولا عن الصلاة على نبيهم وليس فيهم ظلم ولا عدوان ولا يتکبر بعضهم على بعض شعارهم الصدق ودثارهم العبادة، وإن حملوا علينا لا يرجعون، وإن حملنا عليهم فلا يولون، وقد علموا أن الدنيا دار الفناء، وأن الآخرة هي دار البقاء.

قال الواقدي: فلما سمع القوم والملك هرقل ما قاله القسيس، قالوا: وحق المسيح لقد صدقت، بهذا نصرت العرب علينا لا محالة، وإذا كان فعل قومنا ما ذكرت فلا حاجة لي في نصرتهم وإنني قد عولت أن أصرف هذه الجيوش والعساكر إلى بلادها وأخذ أهلي ومالي وأنزل من أرض سوريا وأرحل إلى أسبوك، يعني القسطنطينية فأكون هناك آمناً من العرب، قال فلما سمع القوم ذلك من الملك صفوا بين يديه، وقالوا: أيها الملك لا تفعل ولا تخذل دين المسيح فيطالبك بذلك يوم القيمة وتعيرك الملوك بذلك ويستضعفون رأيك وأيضاً تشمّت بناء أعداؤنا إذا أنت خرجم من جنة الشام وسكن بعدها فيها العرب، وقد اجتمع لنا مثل هذا الجيش الذي ما اجتمع لملك من ملوك الدنيا، ونحن نلقى العرب ونصبر على قتالهم ولعل المسيح أن ينصرنا عليهم فاعزم وقدم من شئت واتركنا ننهض إلى قتال العرب.

قال: ففرح الملك هرقل بقولهم ونشاطهم وعوّل على أن يبعث الجيش مع خمسة ملوك من الروم، فأول ما عقد لواء من الديباج المنسوج بالذهب الأحمر وعلى رأسه صليب من الجوهر وسلمه إلى قناطير ملك الروسية وضم إليه مائة ألف فارس من الصقالبة وغيرهم وخلع عليه وتوجه ومنطقه وسوره، ثم عقد لواء آخر من الديباج الأبيض فيه شمس من الذهب الأحمر وعلى رأسه صليب من الزيرجد الأخضر وسلمه إلى جرجير وهو ملك عمورية وملورية وخلع عليه وسوره ومنطقه وضم إليه مائة ألف فارس من الروم والفردانة ومن سائر الأجناس الرومية، ثم عقد لواء ثالثاً من الدستري الملون وعليه

صليب من الذهب الأحمر وسلمه إلى الديرجان صاحب القسطنطينية وضم إليه مائة ألف فارس من المغليط والإفرنج والقلن وخلع عليه ومنطقه وسوره.

ثم عقد لواء رابعاً مرصعاً بالدر والجوهر عليه قبضة من الذهب وعليه صليب من الياقوت الأحمر وسلمه إلى ماهان ملك الأرمن وكان يحبه محبة عظيمة لأنه كان من أهل الشجاعة والتدبیر، وقد قاتل عساكر الفرس والترك وهزمهم مراراً فلما عقد له لواء خلع عليه الثياب التي كانت عليه وتوجه وسوره ومنطقه وقلده بالقلائد التي لا يتقدّد بها إلا الملوك الأكابر، وقال له يا ماهان قد وليتك على هذا الجيش كله ولا أمر على أمرك ولا حكم على حكمك. ثم قال لقناطير وجرجير والديرجان وقورين وهم ملوك الجيش: اعلموا أن صلبانكم تحت صليب ماهان وأمركم إليه فلا تصنعوا أمراً إلا بمشورته ورأيه واطلبوا العرب حيث كانوا ولا تفشلو، وقاتلوا عن دينكم القديم وشرعكم المستقيم وافتقرتوا على أربع طرق فإنكم إن أخذتم على طريق واحدة لم تستعكم وتهلكوا الأرض ومن عليها. ثم خلع على جبلة بن الأيمهم الغساني وضم إليه العرب المنتصرة من غسان ولخم وجذام، وقال لهم: كونوا في المقدمة، فإن هلاك كل شيء بجنسه وال الحديد لا يقطعه إلا الحديد، ثم أمر القسوس أن يغموسمهم في ماء المععمودية ويقرءوا عليهم ويصلوا عليهم صلاة الموتى.

قال: حدثنا نوفل بن عدي عن سراقة عن خالد. قال: أخبرنا قاسم مولى هشام بن عمرو بن عتبة، وكان من حضر فتح الشام كله، قال: فكانت جملة من بعث الملك هرقل إلى اليرموك من العساكر ستمائة ألف فارس من سائر طوائف أهل الكفر من يعتقد الصليب.

قال: وحدّثنا جرير بن عبد الله عن يونس بن عبد الأعلى أن جملة من بعث الملك هرقل سوی جيش أنطاكية إلى اليرموك سبعمائة ألف فارس. قال راشد بن سعيد الحميري: كنت أحضر اليرموك من أوله إلى آخره، فلما أشرفنا علينا عساكر الروم باليرموك نحونا صعدت على محل من الأرض مرتفع وأقبلت الروم بالرایات والصلبان فعددت عشرين رایة. فلما استقرت الروم باليرموك بعث الأمير أبو عبيدة رضي الله عنه روماس صاحب بصرى ليحضر عدد القوم. قال: فتنكر روماس وغاب عنا يوماً وليلة، ثم عاد إلينا. فلما رأيناها اجتمعنا عنده وسأل أبو عبيدة روماس عن ذلك. فقال: أيها الأمير سمعت القوم يذكرون أن عددهم ألف ألف فلا أدرى أهم يتحدثون بذلك ليس مع جواسيسنا ويحدثوا بذلك أم لا؟ فقال أبو عبيدة: يا روماس كم عهديك بهم وكم يكون تحت كل رایة من عساكر الروم؟ فقال أيها الأمير: أما ما عهدت في عساكر الروم فتحت كل رایة خمسون ألف فارس، فلما سمع أبو عبيدة ذلك. قال: الله أكبر أبشروا بالنصر

على الأعداء، ثم قرأ الآية ﴿كُمْ مِنْ فَتَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبْتُمْ فَتَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

قال الواقدي: ثم إن الملك هرقل لما قلد أمر جيشه ماهان ملك الأرمي وأمره بالنهوض إلى قتال المسلمين ركب الملك هرقل وركب الروم وضربوا بوق الرحيل وخرج الملك هرقل ليتبع عساكره على باب فارس وسار معهم يوصيهم، وقال لقناطير وجرجير والديرجان وقورين: ليأخذ كل رجل منكم طريقاً وأمر كل واحد منكم نافذ على جيشه. فإذا لقيتم العرب فالأمر فيكم ل Maheran، ولا يد على يده، واعلموا أنه ليس بينكم وبين هؤلاء إلا هذه الوعنة، فإن غلبوك فلا يقنعوا ببلادكم بل يطلبونكم حيث سلکتم ولا يقنعون بالمال دون النفس ويتخذون حريمكم وأولادكم عبيداً فاصبروا على القتال وانصروا دينكم وشر عكم.

قال الواقدي: ثم وجه قناطير بجيشه على طريق جبلة واللاذقية، وبعث جرجير على طريق الجادة العظمى وهي أرض العراق وسومين، وبعث قورين على طريق حلب وحماء، وبعث الديرجان على أرض العاصم وسار Maheran في أثر القوم بجيشه والرجال أماهه ينتحتون له الأرض ويزيلون من طريقهم الحجارة، وكانوا لا يمرون على بلد ولا مدينة إلا أضروا بأهلها ويطالبونهم بالعلوفة والإقامات ولا قدرة لهم بذلك فيدعون عليهم ويقولون لا ردكم الله سالمين. قال وجبلة بن الأبيهم في مقدمة Maheran ومعه العرب المنتصرة من غسان ولخم وجذام.

قال الواقدي: حدثني من أثق به أن الطاغية هرقل لما بعث جيشه إلى قتال المسلمين، وكان للأمير أبي عبيدة في جيوش الروم عيون وجواسيس من المعاهدين يتعرفون له الأخبار، فلما وصل جيش الروم إلى شيزر فارقتهم عيون أبي عبيدة وساروا طالبين عسكر المسلمين فلم يجدوههم على حمص فسألوهم عنهم فأخبروهم أنهم رحلوا لأن الأمير أبي عبيدة رضي الله عنه لما فتح حمص ترك عندهم من يأخذ الخراج والذي تركه عندهم رجال من أهل حمص من كبارائهم ورؤسائهم وجعل الجواسيس يسيرون حتى وصلوا إلى الجابية وحضروا بين يدي الأمير أبي عبيدة رضي الله عنه وأخبروه بما رأوه من عظم الجيوش والعساكر، فلما سمع أبو عبيدة ذلك عزم عليه وكبر لديه، وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وبات قلقاً لم تغمض له عين خوفاً على المسلمين، فلما طلع الفجر أذن فصلى بال المسلمين، فلما فرغ من صلاته أقسم على المسلمين أن لا يبرحوا حتى يسمعوا ما يقول، ثم قام فيهم خطيباً وحمد الله تعالى وأثنى عليه وذكر النبي ﷺ، وترحم على أبي بكر الصديق رضي الله عنه ودعا للMuslimين بالنصر، وقال: يا معاشر المسلمين اعلموا رحمة الله أن الله ابتلاكم بباء حسن لينظر كيف تعملون وذلك

عندما صدقكم الوعد وأيدكم بالنصر في مواطن كثيرة، واعلموا أن عيوني أخبروني أن عدو الله هرقل استنجد علينا من كبار بلاد الشرك، وقد سيرهم إليكم وأنقلهم بالزاد والسلاح «يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون» [الصف: ٨] واعلموا أنهم قد ساروا إليكم في طرق مختلفة ووعدهم طاغيتهم أن يجتمعوا بإزائكم على قتالكم، واعلموا أن الله معكم وليس بكثير من يخذه الله تعالى؟ ثم قال لبعض عيونه: قم وأخبر المسلمين بما رأيت فقام الرجل وأخبر الناس بما رأى من الجيوش الثقيلة وعددها وعدديها، فعظم ذلك على المسلمين وداخل قلوب رجال منهم الهيبة والجزع، وجعل بعضهم ينظر إلى بعض ولم يرد أحد منهم جواباً، فقال أبو عبيدة رضي الله عنه: ما هذا السكوت عن جوابي رحمكم الله فأشيروا علي برأيك. فإن الله عز وجل يقول لنبيه محمد ﷺ «وشاورهم في الأمر فإذا عزتم فتوكل على الله» [آل عمران: ١٥٩].

قال الواقدي: فتكلم رجل من أهل السبق وقال: أيها الأمير أنت رجل لك رفة ومكان وقد نزلت فيك آية من القرآن، وأنت الذي جعلك رسول الله ﷺ أمين هذه الأمة. فقال عليه السلام: لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة رضي الله عنه عامر بن الجراح أشر أنت علينا بما يكون فيه الصلاح للMuslimين. فقال الأمين أبو عبيدة رضي الله عنه: إنما أنا رجل منكم تقولون وأقول وتشيرون وأشار والله الموفق في ذلك. فقام إليه رجل من أهل اليمن، وقال: أيها الأمير الذي نشير به عليك أن تسير من مكانك وتنزل في فرجة من وادي القرى، فيكون المسلمين قريباً من المدينة والنجد تصل إلينا من الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وإذا طلب القوم أثروا وأقبلوا إلينا كنا عليهم ظاهرين. فقال الأمير أبو عبيدة رضي الله عنه: اجلسوا رحمكم الله فقد أشرتم بما عندكم من الرأي وإنني إن برأت من موضعك هذا كره لي عمر بن الخطاب ذلك وأخذ يعنفي ويقول تركت مدائن فتحها الله على يديك وزاحت عنها، وكان ذلك هزيمة منك، ثم قال: أشيروا علي برأيك رحمكم الله تعالى.

فقام إليه قيس بن هبيرة المرادي وقال: يا أمير المؤمنين لا ردنا الله إلى أهله سالمين إن خرجنَا من الشام، وكيف ندع هذه الأنهر المتفجرة والزروع والأعناب والذهب والفضة والديباج ونرجع إلى قحط الحجاز وجدهه وأكل خبر الشعير ولباس الصوف ونحن في مثل هذا العيش الرغد، فإن قتلنا فالجنة وعدنا ونكون في نعيم لا يشبه نعيم الدنيا. فقال أبو عبيدة رضي الله عنه: صدق والله قيس بن هبيرة وبالحق نطق، ثم قال: يا معاشر المسلمين أترجعون إلى بلاد الحجاز والمدينة وتدعون لهؤلاء الأعلاج قصوراً وحصوناً وبساتين وأنهاراً وطعاماً وشراباً وذهبًا وفضة مع ما لكم عند الله

عَزْ وَجْلُ فِي دَارِ الْبَقَاءِ مِنْ حَسْنِ الطَّعَامِ وَلَقَدْ صَدَقَ قَيْسَ بْنَ هَبِيرَةَ فِي قَوْلِهِ لَنَا وَلَسْنَا بِبَارِحِينَ مِنْزَلَنَا هَذَا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بِيَنَّا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ。 قَالَ فَوْثَبَ قَيْسَ بْنَ هَبِيرَةَ وَقَالَ: صَدَقَ اللَّهُ قَوْلَكَ أَيَّهَا الْأَمِيرُ وَأَعْانَكَ عَلَى وَلَايَتِكَ وَلَا تَبْرُحَ مِنْ مَكَانِكَ وَتَوَكِّلْ عَلَى اللَّهِ وَقَاتِلْ أَعْدَاءَ اللَّهِ، إِنَّ فَاتَنَا فَتْحُ عَاجِلٍ فَمَا يَفْوَتُنَا ثَوَابُ آجِلٍ。 فَقَالَ أَبُو عَبِيدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شَكَرَ اللَّهُ فَضْلَكَ وَغَفَرَ لَنَا وَلَكَ وَالرَّأْيُ رَأْيُكَ وَتَتَابُعُ قَوْلِ الْمُسْلِمِينَ بِحَسْنِ رَأْيِهِمْ إِلَّا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِنَّهُ سَكَتَ لَا يَقُولُ شَيْئًا。 فَقَالَ أَبُو عَبِيدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا أَبَا سَلِيمَانَ أَنْتَ الرَّجُلُ الْجَرِيءُ وَالْفَارَسُ الشَّهِمُ وَمَعَكَ رَأْيِي وَعَزْمٌ فَمَا تَقُولُ فِيمَا قَالَ قَيْسَ بْنَ هَبِيرَةَ؟ فَقَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نَعَمْ مَا أَشَارَ بِهِ قَيْسٌ إِلَّا أَنَّ الرَّأْيَ عِنْدِي غَيْرُ رَأْيِي وَلَكِنَّ لَا أَخَالِفُ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: إِنَّ كَانَ عِنْدَكَ رَأْيٌ فِيهِ صَلَاحٌ فَاثْبِطْ بِهِ وَكَلَّا لِرَأْيِكَ تَبَعْ، فَقَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَعْلَمُ أَيَّهَا الْأَمِيرُ أَنْكَ إِنْ أَقْمَتَ فِي مَكَانِكَ هَذَا فَإِنَّكَ تَعْنِي عَلَى نَفْسِكَ، لَأَنَّ هَذِهِ الْجَاهِيَّةَ قَرِيبَةُ مِنْ قِيسَارِيَّةٍ وَفِيهَا قَسْطَنْطِينِيَّةُ ابْنِ الْمَلِكِ هَرْقُلَ فِي أَرْبَعِينَ أَلْفِ فَارِسٍ وَأَهْلِ الْأَرْدَنِ قَدْ اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ خَوْفًا مِنْكُمْ، وَالَّذِي أَشَيرَ بِهِ عَلَيْكُمْ أَنْ تَرْحُلُوا مِنْ مِنْزِلَكُمْ هَذَا وَتَجْعَلُوا أَذْرِعَاتَ خَلْفَ ظَهُورِكُمْ حَتَّى يَنْزَلُوا الْيَرْمُوكَ، وَيَكُونُ الْمَدْدُ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَمَرَ بْنَ الْخَطَابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَرِيبًا مِنْكُمْ مَتَّلِحًا بِكُمْ وَأَنْتُمْ عَلَى فَتْحِ لِقَاتَلِ عَدُوكُمْ وَهِيَ أَرْضُ وَاسِعَةٍ لِمَجَالِ الْخَيْلِ。 قَالَ فَلَمَّا نَطَقَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِهَذَا الْكَلَامِ، قَالَ الْمُسْلِمُونَ: نَعَمْ مَا أَشَارَ بِهِ خَالِدُ، وَقَالَ أَبُو سَفِيَّانُ بْنُ حَرْبٍ: أَيَّهَا الْأَمِيرُ أَفْعُلُ بِرَأْيِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَابْعُثُهُ إِلَى مَا يَلِي الرَّمَادَةَ فَيَكُونُ بَيْنَ عَسَكِرِنَا وَعَسَكِرِ الرُّومِ الْمُقِيمَةِ بِالْأَرْدَنِ لَثَلَاثَ نَدَهِي مِنْهُمْ عِنْدِ رَحِيلِنَا فَإِنَّهُ سَيَكُونُ لِرَحِيلِنَا وَرَحِيلِ عَسَكِرِنَا بَيْنَ هَذِهِ الْأَشْجَارِ ضَجْعَةً عَظِيمَةً وَجَلْبَةً هَائِلَةً فِي دَاخِلِ عَدُوكُمْ فَيَكُونُ الطَّعْمُ إِنْ أَقْبَلُوا يَرِيدُونَ غَارَةً وَمَكِيدَةً لِقَيْمِهِمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِمَنْ مَعَهُ. فَقَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ: وَاللَّهِ يَا ابْنَ حَرْبٍ لَقَدْ نَطَقْتُ عَنْ ضَمِيرِي وَهَكَذَا الرَّأْيُ عِنْدِي.

فَعِنْدَ ذَلِكَ أَمْرَ أَبُو عَبِيدَةَ النَّاسِ بِالرَّحِيلِ مِنِ الْجَاهِيَّةِ فَرَحَلُوا وَدَعَا أَبُو عَبِيدَةَ بِجِيشِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ الَّذِي أَقْبَلَ بِهِ مِنْ أَرْضِ الْعَرَاقِ وَهُوَ جَيْشُ الرَّحْفِ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ أَرْبَعَةَ آلَافَ فَارِسٍ وَأَمْرَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَسِيرَ بِهِمْ وَيَكُونُ عَلَى طَلَائِعِ الْمُسْلِمِينَ وَحَرْسِهِمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهُورِهِمْ. قَالَ: وَوَقَعَتِ الضَّجْعَةُ لِلْمُسْلِمِينَ عِنْدِ رَحِيلِهِمْ حَتَّى سَمِعَ ضَجْجِيَّهُمْ مِنْ مَسِيرَةِ فَرَسِخِينَ وَطَلَبُوا الْيَرْمُوكَ وَسَمِعَ الرُّومُ الْمُجَمَعَةُ بِالْأَرْدَنِ ضَجْعَةَ الْمُسْلِمِينَ عِنْدِ رَحِيلِهِمْ فَظَنُوا أَنَّهُمْ هَارِبُونَ إِلَى الْحِجَازِ لَمَّا بَلَغُوهُمْ مِنْ جَيْشِ هَرْقُلِ فَطَمَعُوا فِيهِمْ وَهُمْ بِالْغَارَةِ عَلَى أَطْرَافِهِمْ فَلَقِيَهُمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَصَاحَ فِي رَجَالِهِ وَقَالَ: دُونُكُمْ وَالْقَوْمُ فَهَذِهِ عَلَمَةُ النَّصْرِ، قَالَ: فَانْتَصَرَ الْمُسْلِمُونَ السَّيْفَ وَمَدُوا الرَّمَاحَ وَحَمَلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَحَمَلَ ضَرَارَ بْنَ الْأَزُورِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَالْمَرْقَالَ

وطلحة بن نوفل العامري وزاهد بن الأسد وعامر بن الطفيلي وابن أكال الدم وغير هؤلاء من الفرسان المعدودين للبراز فلم يكن للروم طاقة بهم فولوا منهزمين والمسلمون يقتلون ويأسرون حتى وصلوا إلى الأردن ففرق منهم خلق كثير، ورجع خالد بن الوليد رضي الله عنه، وأما الأمير أبو عبيدة فإنه نزل باليرموك وجعل أذرعات من خلفه وكان هناك تل عظيم فعمد أبو عبيدة رضي الله عنه إلى نساء المسلمين وأولادهم فأصعدتهم على ذلك التل وأقام الحراس والطلائع على سائر الطرق، فلما وصل خالد بن الوليد رضي الله عنه بالأسرى والغنائم فرح أبو عبيدة رضي الله عنه فرحاً شديداً، وقال: أبشروا رحمة الله تعالى هذه علامة النصر والظفر وأقام المسلمون باليرموك وهم مستعدون لقتال عدوهم كأنهم ينتظرون وعداً وعدوا به وبلغ الخبر إلى قسطنطين ابن الملك هرقل بأن المسلمين قد نزلوا باليرموك، وأن ملوك الروم سا loro لقتالهم فبعث رسولًا إلى الملوك يستضعف رأيهم في إبطاء أمرهم ويحثّهم على قتال المسلمين، فلما ورد رسوله إلى ماهان دعا بالملوك والبطارقة وقرأ عليهم كتاب قسطنطين ابن الملك هرقل وأمرهم بالمسير، فسارت جيوش الروم يتلو بعضها بعضًا لا يمرون ببلد من مداين الشام التي فتحها المسلمون إلا ويعنفون أهلها ويقولون لهم: يا وليكم تركتم أهل دينكم وملتكم وملتم إلى العرب. فيقولون لهم: أنتم أحق بالملامة منا لأنكم هربتم منهن وتركتمونا للبلاء فصالحنا عن أنفسنا فيعرفون الحق فيسكنتون ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا إلى اليرموك فنزلوا بدير يقال له دير الجبل وهو بالقرب من الرمادة والجولان وجعلوا بينهم وبين عسكر المسلمين ثلاثة فراسخ طولاً وعرضًا، فلما تكاملت الجيوش باليرموك أشرف سوابق الخيول على أصحاب رسول الله ﷺ وكان جبلة بن الأبيهم في المقدمة في ستين ألف فارس من العرب المنتصرة من غسان ولخم وجذام وهم على مقدمة ماهان، فلما نظر أصحاب رسول الله ﷺ إلى كثرة جيوش الروم قالوا: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. قال عطية بن عامر: فوالله ما شبهت عساكر اليرموك إلا كالجراد المنتشر إذا سد بكشرته الوادي. قال: ونظرت إلى المسلمين قد ظهر منهم القلق وهم لا يفترون عن قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وأبو عبيدة رضي الله عنه يقول: «ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين» [البقرة: ٢٥٠] قال وأخذ المسلمين أهبتهم ودعا الأمير أبو عبيدة بجوايسسه من المعاهدين وأمرهم أن يدخلوا عساكر الروم يجسون له خبر القوم وعددهم وعدديدهم وسلامتهم، وقال أبو عبيدة رضي الله عنه: أنا أرجو من الله تعالى أن يجعلهم غنيمة لنا.

قال الواقدي: فلما نزل ماهان بعساكره بإزاء المسلمين على نهر اليرموك أقام أيام لا يقاتل ولا يثير حرباً.

جبلة بن الأبيه

قال الواقدي : وكان تأثير ماهان لأمر ، وذلك أن رسولًا ورد عليه من الملك هرقل يقول له : لا تنجز الحرب بينك وبين المسلمين حتى نبعث إليهم رسولًا ونعدهم مما كل سنة بمال كثير وهدايا لصحابهم عمر بن الخطاب ولكل أمير منهم ، ويكون لهم من الجابية إلى الحجاز ، فلما وصل الرسول إلى ماهان قال : هيئات هيئات إن كانوا يجيبون إلى ذلك أبدًا . فقال له جرجير وهو من بعض ملوك الجيش : وما عليك في هذا الذي ذكره الملك هرقل من المشقة . فقال ماهان : اخرج أنت إليهم وادع منهم رجلًا عاقلاً وخطبه بالذي سمعت واجتهد في ذلك . قال فلبس جرجير ثياب الديباج وتعصب بعصابة من الجوهر وركب شهباء عالية بسرج من الذهب الأحمر المرصع بالدر والجوهر وخرج معه ألف فارس من المدبجة ، وسار حتى أشرف على عساكر المسلمين ، ووقف جرجير أصحابه وقرب من المسلمين ووقف بإزائهم وقال : يا معاشر العرب أنا رسول من الملك ماهان فليخرج إلي أميركم والمقدم عليكم حتى نعرض عليه مقالنا ولعلنا نصلح ولا نسفك دم بعضنا . قال فسمعه المسلمون فأعلموا الأمير أبو عبيدة رضي الله عنه بذلك فخرج بنفسه إليه وعليه ثوب من كرابيس العراق وعلى رأسه عمامة سوداء وهو متقلد بيسيمه وسار إلى أن وصل إلى جرجير ورفس فرسه حين التقت عنق فرسيهما والناس ينظرون إليهما . فقال أبو عبيدة رضي الله عنه : يا أخا الكفر قل ما أنت قائل واسأل عما تريده . فقال جرجير : يا معاشر العرب ! لا يغرنكم أن تقولوا هزموا عساكر الروم في مواطن كثيرة وفتحنا بلادهم وعلومنا أكثر أرضهم فانتظروا الآن ما قد أتاكم من العساكر فإن معنا من سائر الأجناس المختلفة وقد تحالف الروم أن لا يفروا ولا ينهزموا وأن يموتوا عن آخرهم ، وليس لكم على ما ترون من طاقة فانصرفا إلى بلادكم وقد نلتكم ما نلتكم من بلاد الملك هرقل ، وقد عول الملك أن يتبعو الإحسان إليكم وهو يهب لكم ما أخذتم من بلادهم منذ ثلاث سنين وقد أخذتم السلاح والذهب والفضة وقد كنتم حين قدمتم الشام منكم على رحيله ومنكم عريان فأجيبيوا إلى ما دعوتكم إليه وإنما كنتم من الهالكين . فقال الأمير أبو عبيدة : أما ما ذكرت من عساكر الروم وأنهم لا يفرون ولا ينهزمون ، فلو رأيت الروم شفار سيفونا هربت ناكصة على أعقابها ، وأما تهويلك لنا بكثرة عدكم فقدرأيت قلتنا وضعف أجسامنا ، وكيف لقينا جموعكم وكثرتها وعظم عددها وسلاحها وأحب الأشياء إلينا يوم مشاجرتكم بالحرب والقتال حتى يعرف من الذي يثبت للحرب ، فلما سمع جرجير كلام الأمير أبو عبيدة التفت إلى رجل من أصحابه يقال له بهيل . فقال يا بهيل :

- الملك هرقل كأنه أعرف بهؤلاء العرب منا ، ثم لوى رأس جواده ورجع إلى ماهان وأخبره بما قال أبو عبيدة . . . فقال له ماهان : دعوتمهم إلى الموعد؟ فقال : لا

وحق المسيح إني لم أفاتحه في شيء من ذلك لكن ابعث لهم بعض العرب المتنصرة، فإن العرب يميل بعضهم إلى بعض. قال فعندها دعا ماهان بجبلة بن الأبيهم الغساني. وقال: يا جبلة اخرج إلى هؤلاء وخوفهم من كثرتنا وتواتر عدتنا وألق في قلوبهم الرعب وأحط بهم مكرك. قال: فخرج جبلة بن الأبيهم وسار حتى قرب من عساكر المسلمين ونادى برفع صوته: يا معاشر العرب ليخرج إلى رجل من ولد عمرو بن عامر لأخاطبه بما أرسلت به.

فلما سمع الأمير أبو عبيدة رضي الله عنه كلام جبلة بن الأبيهم. قال: قد بعث إليكم القوم بأبناء جنسكم يريدون الخديعة بصلة الرحم والقرابة فابعثوا إليه رجالاً من الأنصار من ولد عمرو بن عامر، فأسع إليه بالخروج عبادة بن الصامت الخزرجي رضي الله عنه وقال لأبي عبيدة: أيها الأمير أنا أخرج إليه وأنظر ماذا يقول فأجيب عنه، ثم خرج عبادة نحوه بجواهه إلى أن وقف أمام جبلة بن الأبيهم فنظر جبلة إلى رجل أسمه طويل شديد السمرة كأنه من رجال شنوة فهابه ودخل الرعب في قلبه من عظم خلقته، وكان عبادة بن الصامت من الخطاط رضي الله عنه. فقال له جبلة: يا فتى من أي الناس أنت؟ فقال عبادة: أنا من ولد عمرو بن عامر، فقال جبلة: حييت فمن أنت؟ فقال: عبادة بن الصامت صاحب رسول الله ﷺ، فسأل عما تريده. فقال جبلة: يا ابن العم إنما خرجت إليكم لأنني أعلم أن أكثركم من الرحيم والقرابة فخرجت إليكم ناصحاً ومشيراً، وأعلم أن هؤلاء القوم الذين قد نزلوا بيازائكم معهم جنود لا قبل لكم بها وخلفهم عساكر ومحصون وقلاع وأموال ولا تقولوا كسرنا وهزمنا عساكر الروم، وأعلم أن الحرب دول وسجال، وإن هزمكم هؤلاء القوم لا يكون لكم ملجاً غير الموت، وهؤلاء القوم إن انهزموا يرجعون إلى بلادهم وعساكرهم والمخازن والمحصون، وما قد نلتكم نيلًا فخذوه وامضوا إلى بلادكم سالمين.

قال عبادة بن الصامت: يا جبلة أما علمت ما لقينا من جموعكم المتقدمة بأجنادين وغيرها وكيف نصرنا الله عليكم و Herb طاغيتكم ونحن نعلم من بقي من جموعكم قد تيسر علينا أمره ونحن لا نخاف من يقدم علينا من جموعكم وقد ولغنا في الدماء فلم نجد أحلى من دماء الروم، وأنا يا جبلة أدعوك إلى دين الإسلام وأن تدخل مع قومك في ديننا وتكون على شرفك في الدنيا والآخرة ولا تكون تابع علىج من علوج الروم تفديه بنفسك من المهالك وأنت رجل من سادات العرب وملوكهم، وإن ديننا ظهر أوله وأخره يظهر كما ظهر أوله فاتبع سبيل من أناب إلى الحق وصدق به، فقل: لا إله إلا الله محمد رسول الله: اللهم صلّ علیه وعلى آله وصحبه وسلم.

قال الواقدي: فغضب جبلة بن الأبيهم من كلام عبادة بن الصامت، وقال: لست مفارقاً ديني. فقال عبادة بن الصامت: فإن أبیت إلا ما أنت عليه من الكفر فإیاك أن

تلقاني في الموعد الأول فإن لنا وقعة عظيمة، فإن أخذتك شفار سيفونا فلا تخلص من شفارها ودعنا وعساكر الروم فهم أهون علينا فإن أبىت إلا ما أنت عليه حلّ بك مثل ما حلّ بهم.

قال الواقدي: فغضب جبلة بن الأبيهم وقال: لماذا تخوفني من سيفونكم: أما نحن عرب مثلكم رجل لرجل. فقال عبادة بن الصامت: قد علمنا أنك إنما خرجت إلينا مخدعاً ومعيناً ولستنا كأنتم يا ويلكم نحن على قلتنا نوحّد ربنا ونتبع سنة نبينا محمد وإن وراءنا عسكراً يعلو الأقطار ويسد القفار. فقال جبلة: لست أعرف وراءكم جيشاً غير هذا الجيش ولا من ينصركم غيرهم. فقال عبادة بن الصامت: كذبت والله يا ابن الأبيهم في قولك وإن وراءنا رجالاً أنجاداً وأبطالاً شداداً يرون الموت مغنمًا والحياة مغرماً كل واحد بنفسه يلقى جيشاً حافلاً يا ويلكم أنسنت علياً وسطوته وعمر وشدة وعثمان وبراعته والعباس وطلعته والزبير مع ما يجتمع إليهم من فرسان المسلمين من مكة والطائف واليمن وغير ذلك. قال: فلما سمع جبلة ذلك من كلام عبادة بن الصامت قال: يا ابن العم أنا ما خرجت إلا أريد النصيحة لكم فإن أبىتم ذلك فسائل قومك يجيبونا إلى الصلح. فقال عبادة بن الصامت: لا صلح بيننا إلا بأداء الجزية أو الإسلام أو السيف وهو حكم بيننا وبينكم، والله لو لا أن الغدر يقع بنا لعلوتكم بسيفي هذا، فلما سمع جبلة كلام عبادة وإن قد حف عليه في الكلام لم يرد عليه جواباً... غير أنه ثنى رأس جواهه وأتى إلى ماهان فرعاً مرعوباً وقد امتلاً قلبه رعباً من كلام عبادة بن الصامت، فلما وقف بين يدي ماهان تبيّن في وجهه الجزع والفرع. فقال لجبلة: ما وراءك؟ فقال: أيها الملك إني خوفت وأربعت ومنيت فكان ذلك كله عندهم بالسواء وقالوا: ما بيننا إلا الحرب والقتال. فقال له ماهان: فما هذا الفرع الذي أراه في وجهك وهم عرب مثلكم وأنتم عرب مثلهم وقد بلغني أنهم ثلاثة ألف فارس، وأنتم ستون ألف فارس أما يقاتل الرجال منكم الرجل الواحد منهم، دونك يا جبلة فسر أنت وأبناء عمك من العرب المتنصرة إلى قتالهم وأنا وراءكم، فإن ظفرتم بهم كان الملك مشتركاً بيننا وبينكم وتكون أقرب الناس إلينا ويسلم إليكم ما فتحت العرب من بلاد الشام.

قال الواقدي: وجعل ماهان يرْغِب جبلة في العطاء ويليه ويحرّضه على القتال في المسلمين حتى أجابه إلى ذلك، وأخبر قومه وبني عمه من بني غسان ولخم وجذام وغيرهم من العرب المتنصرة وأمرهم بأخذ الأهة للحرب والقتال ففعل القوم ذلك وركبوا في سابع الحديد والزيرد النضيد وهم ستون ألف فارس ما يخالطهم من غير العرب أحد يقدمهم جبلة بن الأبيهم وعليه درع من الذهب الأحمر متقلداً بسيف من عمل التبايعة وعلى رأسه الراية التي عقدتها له الملك هرقل، فسار جبلة نحو الصحابة في ستين ألف

فارس حتى أشرف على عساكر المسلمين وأبو عبيدة يتحدث مع عبادة بن الصامت بما جرى بينه وبين جبلة بن الأبيهم إذ أشرفوا عليهم العرب المتنصرة، فلما رأهم المسلمون صاح بعضهم على بعض: يا معاشر المسلمين قد أقبلت عليكم العرب المتنصرة لقتالكم فما أنتم قائلون؟

قالوا: نقاتلهم ونرجو من الله تعالى الظهور عليهم والمعونة وعلى غيرهم وهموا بالحملة فصاحت عليهم خالد بن الوليد رضي الله عنه وقال: اصبروا رحمة الله ولا تعجلوا حتى أكيدهم بمكيدة يهلكون بها وقال لأبي عبيدة رضي الله عنه: أيها الأمير إن القوم قد استعنوا علينا بالعرب المتنصرة وهو أضعف عدتنا وإن نحن نقاتلهم بجمعنا كله كان ذلك وهذا مما وضعناه وأريد أن أبعث لهم رسولاً من بني عمهم يكلمهم في شأن ردهم عننا فإن فعلوا كان ذلك كسرًا لهم وللمشركين وهذا عظيمًا، وإن أبوا إلا الحرب والقتال خرج منا نفر يسير يردونهم على أعقابهم بعزة الله عزوجل، قال: فتعجب أبو عبيدة رضي الله عنه وقال: يا أبا سليمان أفعل ما تريده.

فبعد ذلك دعا خالد بن الوليد بقيس بن سعد وعبادة بن الصامت الخزرجي وجابر بن عبد الله وأبي أيوب بن خالد بن يزيد رضي الله عليهم أجمعين، فلما وقفوا بين يديه قال لهم: يا أنصار الله تعالى ورسوله هؤلاء العرب المتنصرة يريدون قتالكم وهم غسان ولخم وجذام وهم بني عمكم في النسب فاخروا إليهم وخطبوا واجهدوا في ردهم عن حربكم وقتالكم فإن فعلوا ذلك وإلا أخذهم السيف منا ومنكم وكنا لقتالهم كفوا.

قال الواقدي: فخرج أصحاب رسول الله ﷺ إلى العرب المتنصرة فوجدوا جبلة بن الأبيهم قد نزل بإزاره المسلمين يريد حربهم وقتالهم، فلما قربوا من بني غسان نادى جابر بن عبد الله وقال: يا معاشر العرب من لخم وغسان وجذام إننا بني عمكم ونريد الدنو إليكم. قال: فأذن لهم جبلة بالدنو إليه فدخلوا عليه. فإذا هو في مضرب من الدبياج، وقد فرش بالحرير الأصفر وهو جالس وحوله ملوكه وملوك جفنة فحيوه بتحية ملوك العرب، فرفع جبلة أقدارهم وأدلى مزارهم وقال: يا بني العم أنتم من الرحيم ومن القرابة وإنني خرجت إليكم من جهة هذا الجيش الذي يريدكم فخرج إلي رجل منكم فأفطرت علي في المقال بما الذي أتيكم به؟ فكان أول من كلمه جابر بن عبد الله، وقال: يا ابن العم لا تؤاخذنا فيما تكلم به صاحبنا فإن ديننا لا يقوم إلا بالحق والنصح وإن النصيحة لك من واجبة لأنك ذو قرابة ورحم، وقد أتينا إليك ندعوك إلى دين الإسلام وتكون من أهل ملتنا، ويكون لك ما لنا وعليك ما علينا فإن ديننا شريف ونبينا ظريف فقال: ما أحب ذلك ولا غيره إنني ضئيل بدني وأنتم يا معاشر الأولين

والخرج رضيتم لأنفسكم أمراً ونحن رضينا لأنفسنا أمراً لكم دينكم ولنا ديننا. فقال له الأننصاري: إن كنت لا تحب أن تفارق دينك الذي أنت عليه فاعتزل عن قاتلنا لتنظر لمن تكون العاقبة والغلبة فإن كانت لنا وأردت الدخول في ديننا قبلناك وكنت منا وأخانا، وإن أقمت على دينك قنعوا منك بالجزية وأقررتناك على بلدك وعلى مواطن كثيرة لأبائك وأجدادك.

قال جبلة: أخشى إن تركت حربكم وقاتلكم وكانت الدائرة للقوم لا آمن أن يتقووا على بلدي، لأن الروم لا ترضى مني إلا أن أكون مقاتلاً لكم وقد رأسوني على جميع العرب وأنا لو دخلت دينكم كنت دنياً ولا أتبع، فقال الأننصاري: فإن أبيت ما عرضناه عليك فإن ظفرنا بك قاتلناك فاعتزل عننا وعن سيفونا فإنها تفلق الهام وتبرى العظام فتكون الواقعة بغيرك أحب إلينا من الواقعة بك ويمن معك قال: وكانت الأنصار يريدون بهذا الكلام تخويفه وترغيبه كي ينصرف عنهم وجبلة يأبى ذلك. فقال: وحق المسيح والصلب لا بد أن أقاتل عن الروم ولو كان لجميع الأهل والقرابة. فقال له قيس بن سعد: يا جبلة أبيت إلا أن يحتوي الشيطان على قلبك فيهوي بك في النار فتكون من الهالكين، وإنما أتينا لندعوك إلى دين الإسلام لأن رحمك متصلة برحمنا فإن أبيت فستعايننا منا حرباً شديداً يشيب فيه الطفل الصغير، ثم وثب قيس بن سعد وقال لقومه: انهضوا على بركة الله تعالى وعونه وحسن طاعته فبعداً له وسحقاً فقام جبلة فاستعد للقتال بعده قال فركب الأنصار خيولهم ورجعوا إلى الأمير أبي عبيدة وخالد بن الوليد رضي الله عنهم وأعلمومهما بمقالة جبلة وأنه ما يريد إلا القتال. فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه: أبعده الله تعالى، فوعيش عاش فيه رسول الله ﷺ سيد المرسلين لينظرون منا جبلة ما ينظر.

ثم قال خالد بن الوليد رضي الله عنه: اعلموا معاشر المسلمين أن القوم في ستين ألف فارس من العرب المتنصرة وهم حزب الشيطان ونحن ثلاثون ألف فارس من حزب الرّحمن ونريد أن نلقى هذا الجمع الكبير فإن قاتلنا جبلة بجمعنا كله كان ذلك وهنَا منا، ولكن ينتب منا أبطال ورجال إلى قتال هؤلاء العرب المتنصرة، فقال أبو سفيان صخر بن حرب: الله درك يا أبا سليمان، فلقد أصبت الرأي فاصنع ما تريده وخذ من الجيش ما أحبيت. فقال: إني قد رأيت من الرأي أن ننجب من جيشنا ثلاثين فارساً فيلقى كل واحد ألفي فارس من العرب المتنصرة.

قال الواقدي: فلم يق أحد من المسلمين إلا عجب من مقالة خالد بن الوليد رضي الله عنه وظنوا أنه يمزح بمقالته، وكان أول من خاطبه في ذلك أبو سفيان صخر بن حرب، وقال: يا ابن الوليد هذا كلام منك جد أو هزل. فقال خالد بن الوليد رضي الله

عنه: لا وعيش عاش فيه رسول الله ﷺ ما قلت إلا جدًا. فقال أبو سفيان: فتكون مخالفًا لأمر الله تعالى ظالماً لنفسك وما أظن أن لك في هذه المقالة مساعدًا ولو قاتل الرجل منا مائتين كان ذلك أسهل من قولك يقاتل الرجل منا ألفين وإن الله عزّ وجلّ رحيم بعباده فرض علينا أن الرجل منا يقاتل الرجلين والمائة والمائتين والألف الألفين وإنك تقول ثلاثون رجلاً منا تلقى الستين ألف فارس فما يجيئك أحد إلى ذلك وإن أجابك رجل لما قلته فإنه ظالم لنفسه معين على قتله. فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه: يا أبو سفيان كنت شجاعاً في الجاهلية فلا تكن جبائنا في الإسلام وانظر لمن انتخب من رجال المسلمين، وأبطال الموحدين فإنك إذا رأيتهم علمت أنهم رجال قد وهبوا أنفسهم لله عزّ وجلّ وما يريدون بقتالهم غير الله تعالى، ومن علم الله عزّ وجلّ ذلك من ضميره كان حقاً على الله أن ينصره ولو سلك مفظعات النيران. فقال أبو سفيان: يا أبو سليمان الأمر كما ذكرت وما أردت بقولي إلا شفقة على المسلمين فإذا قد صخ عزتك على ذلك فاجعل القوم ستين رجلاً ليقاتل الرجل منهم ألف فارس من العرب المتضررة.

قال الأمير أبو عبيدة رضي الله عنه: نعم ما أشار به أبو سفيان يا أبو سليمان. فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه: والله يا أيها الأمير ما أردت بفعلتي هذا إلا مكيدة لعدونا لأنهم إذا رجعوا إلى أصحابهم منهزمين بقوة الله عزّ وجلّ ويقولون لهم من لقيكم فيقولون لقينا ثلاثون رجلاً يدخلهم الرعب مما ويلهم ماهان أن جيئنا كفاء له. فقال أبو عبيدة رضي الله عنه: إن الأمر كما ذكرت إلا أنه إذا كان ستون رجلاً منا يكونون عصبة ومعينا بعضهم بعضاً. فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه: أنا أتدبر من المسلمين رجالاً أعرف صبرهم وإقدامهم في الحرب وأعرض عليهم هذه المقالة فإن أحبوا لقاء الله ورغبوا في ثواب الله عزّ وجلّ فإنهم يستجيبون إلى ذلك وإن أحبوا الحياة الدنيا والبقاء فيها ولم يكن فيهم من تطيب نفسه للموت فما بخالد إلا أن يبذل مهجته لله عزّ وجلّ والله الموفق لما يحبه ويرضاه.

قال أبو عبد الله: حدثنا عمرو بن سالم عن جده برعي بن عدي قال: كنت بين يدي خالد بن الوليد رضي الله عنه فدعا بستين رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ فأول ما دعا خالد بن الوليد. قال: أين عمرو التميمي أين شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله ﷺ أين خالد بن سعيد بن العاص، أين يزيد بن أبي سفيان الأموي، أين صفوان بن أمية الجمحى، أين سهل بن عمرو العامرى، أين ضرار بن الأوزور الكندي، أين رافع بن عميرة الطائي، أين زيد الخيل أبيض الركابين، أين حذيفة بن اليمان، أين قيس بن سعد، أين كعب بن مالك الأنصارى، أين سويد بن عمرو الغنوى، أين

عبادة بن الصامت، أين جابر بن عبد الله، أين أبو أيوب الأنباري، أين عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين، أين عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوى، أين رافع بن سهل، أين يزيد بن عامر، أين عبيد بن أوس، أين مالك بن نصر، أين نصر بن الحارث، أين عبد الله بن ظفر، أين أبو لبابة بن المنذر، أين عوف، أين عابس بن قيس، أين عبادة بن عبد الله الأنباري، أين رافع بن عجرة، أين عبيد بن عبد الله، أين معقب بن قيس، أين هلال، أين الصابرون يوم أحد، وقد ذكرهم الله تعالى في كتابه **«فَإِنْ تَكُنْ مِنْكُمْ مَاةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوْا مَائِتَيْنِ»** [الأفال: ٦٦]، أين أسيد الساعدي، أين كلال بن الحارث المازني، أين حمزة بن عمر الإسلامي، أين يزيد بن عامر.

قال الواقدي: وقد سُمِّي خالد بن الوليد رضي الله عنه الرجال الذين دعاهم لقتال جبلة بن الأبيه، إلا أنني اختصرت في ذكرهم وقدمت ذكر الأنصار رضي الله عنه لأن خالد بن الوليد رضي الله عنه انتخب أكثر الرجال من الأنصار. فلما كثر النداء فيهم قالت الأنصار: إن خالداً اليوم يقدم ذكر الأنصار ويؤخر المهاجرين من ولد المغيرة بن قصي، ويوشك أنه يختبرهم أو يقدمهم للمهالك، ويشفع على ولد المغيرة.

قال الواقدي: فلما سمع خالد بن الوليد رضي الله عنه ذلك من قولهم، أقبل يخطو بجواهه حتى توسط جميع الأنصار، وقال لهم: والله يا أولاد عامر ما دعوتكم إلا لما ارتضيته منكم وحسن يقيني بكم وبإيمانكم فأنتم من رsex الإيمان في قلبه، فقالوا: إنك صادق في قولك يا أبا سليمان، ثم صافحه القوم.

قال الواقدي: فلما انتخب خالد بن الوليد من فرسان المسلمين ستين رجلاً كل واحد منهم يلقى جيشاً بنفسه. قال لهم خالد بن الوليد رضي الله عنه: يا أنصار الله ما تقولون في الحملة معي على هذا الجيش الذي قد أتي ب يريد حربكم وقتللكم، فإن كان لكم صبر وأيدكم الله بنصره مع صبركم وهزمتم هؤلاء العرب المتنصرة، فاعلموا أنكم لجيش الروم غالبون، فإذا هزتم هؤلاء العرب وقع الرعب في قلوبهم فينقلبون خاسرين. فقالوا: يا أبا سليمان افعل بنا ما تريده والق ما تشاء فوالله لنقاتلن أعدانا قتال من ينصر دين الله ونتوكل على الله تعالى وقوته ونبذل في طلب الآخرة مهجتنا. فجزاهم خالد بن الوليد رضي الله عنه خيراً، وكذلك الأمير أبو عبيدة رضي الله عنه، وقال لهم: تأهبو رحمة الله وخذوا أسلحتكم وعدتكموليكن قتالكم بالسيف ولا يأخذ أحد منكم رمحاً فإن الرمح خوان ربما زاغ عن الطعن ولا تأخذوا السهام فإنها منايا منها المخظىء ومنها المصيب، والسيف والحجف عليهما تدور دوائر الحرب واركبوا خيولكم السبق الناجي ولا يركب الرجل منكم إلا جواهه الذي يصبر به، وتوعادوا أن الملتقى عند قبر

المصطفى ﷺ. قال فقدموا على أهاليهم وودعوهم. فأما ضرار بن الأزرور فإنه عمد إلى خيمته ليستعد بما يريد، ويسلم على أخيه خولة رضي الله عنها بنت الأزرور فلما لبس لامة حريره قالت له أخته خولة: يا أخي ما لي أراك تودعني وداع من أيقن بالفارق أخبرني ماذا عزمت عليه؟ فأخبرها ضرار بـ بما قد عزم. عليه وأنه يريد أن يلقى العدو مع خالد بن الوليد رضي الله عنه فبكـت خولة وقالـت: يا أخي افعل ما تـريـد أن تـفعـل والـق عـدوـكـم وأـنت مـوقـنـ بالـلهـ تـبارـكـ وـتعـالـىـ، فإـنهـ لـكـمـ نـاصـرـ وـإـنـ عـدوـكـ لـاـ يـقـرـبـ إـلـيـكـ أـجـلـأـ بـعـيـداـ وـلـاـ يـبعـدـ عـنـكـ أـجـلـأـ قـرـيـباـ فـإـنـ حدـثـ عـلـيـكـ حدـثـ أـوـ لـحـقـكـ مـنـ عـدوـكـ نـائـةـ فـوـالـلهـ العـظـيمـ شـأنـهـ لـاـ هـدـأـتـ خـوـلـةـ عـلـىـ الـأـرـضـ أـوـ تـأـخـذـ بـشـارـكـ فـبـكـيـ ضـرـارـ بـنـ الـأـزـرـورـ لـبـكـائـهـ وـأـعـدـ الـهـرـبـ وـكـذـلـكـ السـتوـنـ مـنـ أـصـحـابـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺـ وـلـمـ يـنـامـواـ طـوـلـ لـيـلـهـمـ، حـتـىـ وـدـعـواـ أـوـلـادـهـمـ وـأـهـالـيـهـ وـبـاتـواـ فـيـ بـكـاءـ وـتـضـرـعـ وـهـمـ يـسـأـلـونـ اللهـ تـعـالـىـ النـصـرـ عـلـىـ الـأـعـدـاءـ إـلـىـ أـنـ أـصـبـعـ الصـبـاحـ فـصـلـىـ بـهـمـ الـأـمـيـرـ أـبـوـ عـبـيـدةـ رـضـيـ اللهـ عـنـهـ صـلـاـةـ الـفـجـرـ، فـلـمـ فـرـغـ مـنـ صـلـاتـهـ كـانـ أـوـلـ مـنـ أـسـرـ إـلـىـ الـخـرـوجـ خـالـدـ بـنـ الـوـلـيدـ رـضـيـ اللهـ عـنـهـ وـحـرـضـ أـصـحـابـهـ عـلـىـ الـخـرـوجـ وـهـوـ يـنـشـدـ وـيـقـولـ:

نحو العدو نبتغي الكفاحا
إذا بذلنا دونه أرواحا
في نصرنا الغدو والرواحا
هبا جميع إخوتي أرواحا
نرجو بذلك الفوز والنجاحا
ويرزق الله لنا صلاحا

قال الواقدي : وأنشد بيّا آخر لم أدر ما هو وخرج أمّا المسلمين وأصحابه يقدّمون
إليه واحداً بعد واحد حتى اجتمع إليه الستون رجلاً الذين انتخبهم وكان آخر من أقبل
عليه الزبير بن العوام رضي الله عنه ومه زوجته أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله
عنها وهي سائرة إلى جانب أخيها عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهي
تدعوا لهم بالسلامة والنصر وتقول لأخيها : يا أخي لا تفارق ابن عمّة رسول الله ﷺ
ووقت الحملة اصنع كما يصنع ولا تأخذكم في الله لومة لائم . قال ووعد المسلمين
الستين أصحابهم ، وساروا بأجمعهم وخالد بن الوليد رضي الله عنه في أوساطهم كأنه
أسد قد احتوشه الأسود ولم ينلوا حتّى وقفوا بازاء العرب المنتصرة .

قال الواقدي: ونظرت العرب المتنصرة إلى أصحاب رسول الله ﷺ وقد أقبلوا نحوهم وهم نفر يسير فظنوا أنهم رسل يطلبون الصلح والمواعدة فصاح جبلة بالعرب المتنصرة وحرّضهم ليرهبون المسلمين ونادي يا آل غسان أسرعوا إلى نصرة الصليب وقاتلوا من كفر به فبادروا بالإجابة وأخذوا الأبهة للحرب ورفعوا الصليب واصطفوا للقتال وقد طلعت الشمس على لامة الحرب فلمع شعاعها على الحديد والزرد والبيض كأنها شعل نار ووقفوا يبصرون ما يصنع أصحاب رسول الله ﷺ إلى أن قاربوا صلبان العرب

المتنصرة ونادي خالد بن الوليد رضي الله عنه: يا عبدة الصليبان ويا أعداء الرَّحْمن هلموا إلى الحرب والطعان، فلما سمع جبلة كلام خالد رضي الله عنه علم أنهم ما خرجوا رسلاً، وإنما خرجوا للقتال فخرج جبلة من بين أصحابه وقد اشتمل بلامة حربه وهو يقول:

نسطو على من عابنا بفعالنا
إنا لمن عبدوا الصليب ومن به
والحرب تعلم أنها ميراثنا
ولقد علونا بالMessiah وأمه
إنا خرجنا والصليب أمامنا
حتى تبدكم سيف رجالنا

ثم قال جبلة: من الصائغ بنا والمستنهض لنا في قتالنا؟ فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه: أنا فاخرج إلى حومة الحرب. فقال جبلة: نحن قد ربنا أمورنا لحربكم وقتلکم وأنتم تترصون عن قتالنا فتحقق المسيح لا أجبناكم إلى الصلح أبداً فارجعوا إلى قومكم وأخبروهم أننا ما نزيد إلا القتال قال فأظهر خالد التعجب من قوله وقال له: يا جبلة أتظن أننا خرجنا رسلاً إليك؟ فقال جبلة: أجل. فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه: لا تظن ذلك أبداً فوالله ما خرجنا إلا لحربكم وقتلکم فإن قلت إنا شرذمة فإن الله ينصرنا عليکم. فقال جبلة: يا فتى قد غرت بنفسك وبقومك إذ خرست إلى قتالنا ونحن سادات غسان ولخم وجذام. فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه: لا تظن ذلك وإنما قليلون فقتلکم رجل منا لألف منكم وتختلف منا رجال أشهى إليهم الحرب من العطشان إلى الماء البارد، فقال جبلة: يا أخابني مخزوم لقد كنت أفضلك في عقلك وأروم بك مرام الأبطال حتى سمعت منك هذا الكلام إنك أنت والستين رجالاً ترجمون قتالنا ونحن سادات غسان وأبطال الزمان ها أنا أحمل بهذه الستين ألف فارس فلا يبقى منكم أحد، ثم صاح جبلة بقومه: يا آل غسان الحملة.

فلما سمعوا كلام سينهم حملت الستون ألف فارس في وجه خالد بن الوليد والستين رجالاً فثبت لهم أصحاب رسول الله ﷺ واشتبك الحرب بينهم فما كنت تسمع إلا زئير الرجال وزمرة الأبطال ووقع السيف على البيض الصقال حتى ما ظن أحد من المسلمين ولا من المشركين أن خالداً ومن معه ينجو منهم أحد فبكى المسلمين وأخذهم القلق على إخوانهم وجعل بعضهم يقول: لقد غرر خالد بن الوليد بأصحاب رسول الله ﷺ وأهله وآلهم والروم يقول: إن جبلة أهلك هؤلاء القوم فهلاك العرب حاصل بأيدينا لا محالة ولم يزل القوم في الحرب والقتال حتى قامت الشمس في كبد السماء قال عبادة بن الصامت: فلله در خالد بن الوليد رضي الله عنه والزبير بن الأزرور وعبد الرَّحْمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه والفضل بن العباس وضرار بن الأزور عبد الله بن عمر بن الخطاب رضوان الله عليهم أجمعين، لقد رأيت هؤلاء

الستة قد قرروا مناكمهم في الحرب وقام بعضهم بتجنب بعض وهم لا يفترقون وزادت الحرب اشتعالاً وخرقت الأسنة صدور الليوث حتى بلغت إلى خزائن القلوب لانقطاع الآجال ولم يزالوا في القتال الشديد الذي ما عليه من مزيد. قال عبادة بن الصامت: فحملت معهم وكنت في جملتهم، وقلت: يصيبني ما يصيبيهم ونادي خالد بن الوليد وقال: يا أصحاب رسول الله ﷺ ه هنا المحشر وقد أعطى خالد القلب منه، فلما حمى بينهم القتال حمل خالد بن الوليد وهاشم والمرقال وتکاثرت عليهم الرجال فلله در الزبير بن العوام والفضل بن العباس وهم ينادون: أفرجوا يا معاشر الكلاب وتباعدوا عن الأصحاب نحن الفرسان هذا الزبير بن العوام، وأنا الفضل بن العباس وأنا ابن عم رسول الله ﷺ قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: فور حرق رسول الله ﷺ لقد أحصيت للفضل بن العباس عشرين حملة يحملها عن خالد بن الوليد حتى أزال عنه الرجال والأبطال وحملوا على المشركين حملة عظيمة ولم يزالوا في القتال يومهم إلى أن جنحت الشمس إلى الغروب، والمسلمون قد جهدهم القلق على إخوانهم. أما الأمير أبو عبيدة رضي الله عنه فإنه صاح بال المسلمين وقال: يا أصحاب رسول الله ﷺ هلك خالد بن الوليد ومن معه لا محالة وذهبت فرسان المسلمين فاحملوا بارك الله فيكم لتنظر ما كان من أمر إخواننا فكل أجاب إلى قوله وإشارته إلا أبو سفيان صخر بن حرب رضي الله عنه فإنه قال للأمير أبي عبيدة رضي الله عنه: لا تفعل أيها الأمير فإنه لا بد للقوم أن يتخلصوا ونرى ما يكون من أمرهم قال: فلم يلتفت أبو عبيدة رضي الله عنه إلى كلامه وهم أن يحمل وقد أخذه القلق فبينما هو كذلك وإذا جيش العرب المنتصرة منهزمون وأصوات الصحابة رضي الله عنهم قد ارتفعت بالتهليل والتكبير كل ينادي: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، والعرب المنتصرة منهزمة على أعقابهم كأنما صاح بهم صائح من السماء فبدد شملهم وأقبل خالد بن الوليد من وسط المعمعة يلتهب بما لحقه من التعب، وكذا أصحابه الذين كانوا معه.

قال: وإن خالد بن الوليد افتقد أصحابه الستين رجالاً فلم يجد منهم إلا عشرين فجعل يلطم على وجهه وهو يقول: أهلكت المسلمين يا ابن الوليد بما عذرك غداً عند الرّحمن وعند الأمير عمر بن الخطّاب رضي الله عنه؟ فبينما هو متّحير في ذلك إذ أقبل عليه الأمير أبو عبيدة رضي الله عنه وفرسان المسلمين وأبطال الموحدين فنظر أبو عبيدة رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد وما يصنع بنفسه، وقد اشتغل عن متابعة المشركين. فقال أبو عبيدة: يا أبو سليمان الحمد لله على نصر المسلمين ودمار المشركين. فقال خالد بن الوليد: أعلم أيها الأمير أن الله قد هزم الجيش، ولكن أعيقتك الفرحة ترحة. فقال أبو عبيدة رضي الله عنه: وكيف ذلك؟ فقال خالد: أيها الأمير فقدت أربعين رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ فيهم الزبير بن العوام ابن عمّة رسول الله ﷺ وفيهم

الفضل بن العباس وجعل خالد بن الوليد رضي الله عنه يسمى فرسان المسلمين واحداً بعد واحد حتى سمي أربعين رجلاً فاسترجع أبو عبيدة رضي الله عنه، وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وقال لخالد: لا بد لعجبك يهلك المسلمين. فقال سلامة بن الأحوص السلمي: أيها الأمير دونك والمعركة فاطلب فيها أصحاب رسول الله ﷺ فإن رأيتموهم وإنما فالقوم أسرى أو قد تبعوا المشركين فأمر أبو عبيدة فأتوا بهواديء النيران، وكان الظلام قد انتصر فاقتدوا بالمعركة بين القتلى فإذا قتل من العرب المتنصرة خمسة آلاف فارس وسيدان من ساداتهم وما رفاعة بن مطعم الغساني والآخر شداد بن الأوس ووجدوا من قتلى المسلمين عشرة رجال منهم اثنان من الأنصار أحدهما عامر الأوسي والآخر سلمة الخزرجي. فقال أبو عبيدة رضي الله عنه: يوشك أن بعض الصحابة قد تبع المشركين فقال أبو عبيدة رضي الله عنه: اللهم ائتنا بالفرج القريب ولا تفجعنا بابن عمّة نبيك الزبير بن العوام ولا بابن عمّه الفضل بن العباس ثم قال أبو عبيدة: معاشر المسلمين من يقفوا لنا أثر القوم ويترعرّف خبر الصحابة وأجره على الله عزّ وجّل؟ فكان أول من أجابه خالد بن الوليد رضي الله عنه. فقال له الأمير أبو عبيدة لا تفعل يا أبا سليمان لأنك تعبت من شدة الحرب. فقال خالد: والله لا يمضي في طلبهم غيري ثم غير جواهه بفرس من خيول المسلمين وهو فرس حازم بن جبیر بن عدي من بني النجار فركبه خالد بن الوليد رضي الله عنه وطلب آثار القوم وتبعه جماعة من المسلمين فما سار خالد بعيداً حتى سمع خالد التهليل والتکبير فأجابهم بمثله فأقبل القوم وفي أوائلهم الزبير بن العوام والفضل بن العباس وهاشم والمرقال، فلما نظر خالد إليهم فرح فرحاً شديداً ورحب بهم وسلم عليهم وقال خالد بن الوليد رضي الله عنه للفضل بن العباس: يا ابن عم رسول الله ﷺ ما كان أمركم؟

قال: يا أبا سليمان هزم الله المشركين وردهم على أدبارهم خاتمين فتبعدنا آثارهم وإن رجالاً منا أسرروا فرجونا خلاصهم فلم نرهم ولا شك أنهم قتلوا. فقال خالد رضي الله عنه: إن القوم في الأسر لا محالة فقال الزبير بن العوام: من أين علمت ذلك يا أبا سليمان؟ فقال خالد رضي الله عنه: إنا لم نجد في المعركة غير عشرة رجال ونحن عشرون وأنتم خمسة وعشرون وقد أسر خمسة رجال لا محالة وكان الأسرى رافع بن عميرة وربيعة بن عامر وضرار بن الأذور وعاصم بن عمرو ويزيد بن أبي سفيان فعظم ذلك على المسلمين ورجعوا إلى أبي عبيدة رضي الله عنه، فلما نظر إلى الفضل بن العباس وإلى الزبير بن العوام والمرقال بن هاشم وقد رجعوا سالمين فرحين بما نصرهم الله على الكافرين سجد على قربوس سرجه شكرًا لله تعالى. فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه: معاشر المسلمين، لقد بذلت مهجتي أن أقتل في سبيل الله تعالى فلم أرزق الشهادة فمن قتل من المسلمين كان أجله قد حضر ومن أسر كان خلاصه على يدي إن

شاء الله تعالى قال: وبات الفرسان في فرح وسرور وبات الروم في نوح عظيم حين
كسرت حامية عسکرهم.

قال الواقدي: حدثني من أثق به أن الأمير أبا عبيدة رضي الله عنه لما نظر إلى
عساكر الروم مغولة على قتاله كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتاباً يقول فيه:
بسم الله الرحمن الرحيم إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من أبي عبيدة عامر بن
الجراح عامله، سلام عليك فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلح على نبيه
محمد ﷺ. وأعلم يا أمير المؤمنين أن كلب الروم هرقل قد استفز علينا كل من يحمل
الصليب، وقد سار القوم إلينا كالجراد المنتشر وقد نزلنا باليرموك بالقرب من أرض الرماة
والخولان والعدو في ثمانمائة ألف مقاتل غير التبع وفي مقدمتهم ستون ألفاً من العرب
المتنصرة من غسان ولخم وجذام، فأول من لقينا جبلة بن الأبيهم في ستين ألف فارس
وآخر جننا إليه ستين رجلاً، فهزم الله تعالى المشركين على أيديهم **«وما النصر إلا من عند**
الله العزيز الحكيم» [آل عمران: ١٢٦] وقتل من أصحابنا عشرة رجال، وهم راعلة
وجعفر بن المسيب ونوفل بن ورقة وقيس بن عامر وسلمة بن سلامة الخزرجي، وأسر
منهم خمسة رجال، وهم رافع بن عميرة وربيعة بن عامر وضرار بن الأزور وعااصم بن
عمرو ويزيد بن أبي سفيان ونحن على نية الحرب والقتال فلا تغفل عن المسلمين وأمدنا
برجال من الموحدين، ونحن نسأل الله تعالى أن ينصرنا وينصر الإسلام وأهله والسلام
عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته. وطوى الكتاب وسلمه إلى عبد الله بن
قرط الأزدي وأمره أن يتوجه إلى مدينة يثرب. قال عبد الله بن قرط: فركبت من اليرموك
يوم الجمعة في الساعة العاشرة بعد العصر، وقد مضى من شهر ذي الحجةاثنا عشر يوماً
والقمر زائد النور فوصلت يوم الجمعة في الساعة الخامسة والمسجد مملوء بالناس فأنفتحت
نافتي على باب جبريل عليه السلام وأتت الروضة وسلمت على رسول الله ﷺ وعلى أبي
بكير الصديق رضي الله عنه وصلت فيها ركعتين ونشرت الكتاب إلى عمر بن الخطاب
رضي الله عنه. قال فضحت المسلمين عند رؤيته وتطاولت إلى عمر بن الخطاب رضي
الله عنه، وقبلت يديه وسلمت عليه، فلما فتح عمر الكتاب انتفع لونه وتوزع كونه،
وقال: إنما الله وإنما إليه راجعون. فقال عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب والعباس
وعبد الرحمن بن عوف وطلحة وغيرهم من الصحابة: يا أمير المؤمنين أطلعنا على ما في
هذا الكتاب من أمر إخواننا المسلمين، فقام عمر رضي الله عنه ورقى المنبر خطيباً وقرأ
الكتاب على الناس، فلما سمعوا ما فيه ضجعوا بالبكاء شوقاً إلى إخوانهم وشفقة عليهم
وكان أكثر الناس بكاء عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وقال: يا أمير المؤمنين
ابعث بنا إليهم ولو قدمت أنت إلى الشام لشدت بك ظهور المسلمين فوالله ما أملك إلا
نفسني ومالي وما أبخل بهما على المسلمين. قال: فلما سمع عمر بن الخطاب كلام

عبد الرّحمن بن عوف ونظر إلى إشراق المسلمين وجزعهم على إخوانهم أقبل على عبد الله . وقال : يا ابن قرط من المقدم على عساكر الروم ؟ فقلت : خمسة بطارقة أحدهم ابن أخت الملك هرقل وهو قورين والديريجان وقناطير وجرجير وصلبانهم تحت صليب ماهان الأرمني وهو الملك على الجميع وجبلة بن الأبيه الغساني مقدم على ستين ألف فارس من العرب المنتصرة فاسترجع عمر وقال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ثم قرأ عمر : **﴿بِرِيدُونَ لِيَطْفُو نَارُ اللَّهِ بِأَنْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مَتْنُورٌ وَلَوْ كَرِهُ الْكَافِرُونَ﴾** [الصف : ٨] .

ثم قال : ما تشيرون به علي رحمكم الله تعالى ؟ فقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أبشروا رحمكم الله تعالى فإن هذه الواقعة يكون فيها آية من آيات الله تعالى يختبر بها عباده المؤمنين لينظر أفعالهم وصبرهم فمن صبر واحتبس كان عند الله من الصابرين واعلموا أن هذه الواقعة هي التي ذكرها لي رسول الله ﷺ التي يبقى ذكرها إلى الأبد هذه الدائرة المهلكة ، فقال العباس : على من هي يا ابن أخي ، فقال : يا عماء على من كفر بالله واتخذ معه ولذا فثقوا بنصر الله عز وجل ، ثم قال لعمر : يا أمير المؤمنين اكتب إلى عاملك أبي عبيدة كتابا وأعلمه فيه أن نصر الله خير له من غوثنا ونجذتنا فيوشك أنه في أمر عظيم فقام عمر ورقى المنبر وخطب خطبة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون وذكر فضل الجهاد ثم نزل وصلى بال المسلمين ، فلما فرغ من صلاته كتب إلى أبي عبيدة كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أمين الأمة أبي عبيدة بن الجراح ومن معه من المهاجرين والأنصار سلام عليكم فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد ﷺ أما بعد فإن نصر الله خير لكم من معونتنا ، واعلموا أنه ليس بالجمع الكثير يهزم الجمع القليل وإنما يهزم بما أنزل الله من النصر وأن الله عز وجل يقول : **﴿وَلَنْ تَغْنِي عَنْكُمْ فَتَكْرِمُ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾** [الأنفال : ١٩] وربما ينصر الله العصابة القليل عددها على العصابة الكثيرة وما النصر إلا من عند الله ، وقد قال تعالى : **﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾** [الأحزاب : ٢٣] الآية ، يا طوبى للشهداء ويا طوبى لمن يتكل على الله . فالعدو بمن معك من المسلمين ولا تيأس بمن صرع من المسلمين ، فقد رأيت من صرع بين يدي رسول الله ﷺ وما عجزوا عن عدوهم في مواطن كثيرة حتى قتلوا في سبيل الله ، ولم يهابوا لقاء الموت في جنب الله تعالى بل جاهدوا في سبيل الله حق جهاده **﴿وَمَا كَانُ قُولَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبُّنَا أَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبُنَا وَإِسْرَافُنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أَنْدَامُنَا وَانْصَرَنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . فَاتَّاهُمُ اللَّهُ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَحَسْنُ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَحْبُبُ الْمُحْسِنِينَ﴾** [آل عمران : ١٤٨] ، فإذا ورد عليك كتابي هذا فاقرأه على المسلمين وأمرهم أن يقاتلو العدو في سبيل الله عز وجل واقرأ عليهم **﴿إِنَّمَا أَنْوَاهُمْ أَصْبَرُوا وَرَابطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعْلَكُمْ تَفْلِحُونَ﴾** [البقرة : ١٨٩] والسلام عليك

ورحمة الله وبركاته، ثم طوى الكتاب وسلمه إلى عبد الله بن قرط، وقال له: يا ابن قرط إذا أشرفت على المسلمين وقد استوت الصفوف فسر بين صفوف الموحدين وقف على أصحاب الرأيات منهم وخبرهم أنك رسولي إليهم وقل لهم إن عمر بن الخطاب يسلم عليكم ويقول لكم: يا أهل الإيمان اصدقوهم الحرب عند اللقاء وشدوا عليهم شد الليوث واضربوا هاماتهم بالسيوف ولیكونوا عليكم أهون من الذباب فإنكم المنصوروون عليهم إن شاء الله تعالى، ثم أقرأ عليهم **﴿الَا إِنْ حَزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾** [المائدة: ٥٦]. قال عبد الله بن قرط: قلت له: يا أمير المؤمنين ادع الله تعالى لي بالسلامة والسرعة في السير.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: اللهم احمد وسلمه واطو له البعيد إنك على كل شيء قادر. قال عبد الله بن قرط وخرجت من المسجد من باب الحبشة، فقلت في نفسي: لقد أخطأت في الرأي إذ لم أسلم على قبر رسول الله ﷺ فما أدرى أراه بعد اليوم أم لا، قال عبد الله: فقصدت حجرة رسول الله ﷺ وعائشة رضي الله عنها جالسة عند قبره، وعلى بن أبي طالب كرم الله وجهه والعباس جالسان عند القبر والحسين في حجر علي والحسن في حجر العباس رضي الله عنه وهم يتلون سورة الأنعام وعلى رضي الله عنه يتلو سورة هود، فسلمت على رسول الله ﷺ فقال علي رضي الله عنه: يا ابن قرط عولت على المسير إلى الشام؟ فقلت: نعم يا ابن عم رسول الله ﷺ وما أظن أن أصل إليهم إلا والجيش قد التقى وال الحرب دائرة وإذا أشرفت عليهم لا يرون معي مداداً ولا نجدة خشيت عليهم أن يهנו ويجزعوا وكنت أحب أن أصل إليهم قبل التقائهم بعدهم حتى أعظمهم وأصبرهم. فقال علي رضي الله عنه: مما منعك أن تسأل عمر بن الخطاب أن يدعوك لك، أما علمت يا ابن قرط أن دعاءه لا يرد ولا يحجب وأن رسول الله ﷺ قال فيه: «لو كاننبي ثان بعدي لكان عمر بن الخطاب» أليس هو الذي يوافق حكمه حكم الكتاب حتى قال المصطفى ﷺ: «لو نزل من السماء إلى الأرض عذاب ما نجا منه إلا عمر بن الخطاب»، أما علمت أن الله تعالى أنزل فيه آيات بينات، أما هو الزاهد التقى، أما هو العايد، أما هو المشبه بنوح النبي فإن كان هو قد دعا لك فقد قرن دعاؤه بالإجابة. فقال عبد الله بن قرط: ما ذكرت شيئاً إلا وأنا عارف به من فضل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولكنني أردت الزيادة من دعائك ودعاء العباس عم رسول الله ﷺ ولا سيما عند قبر الرسول المعظم المكرم. قال فرفع العباس رضي الله عنه يديه وعلى رضي الله عنه كذلك وقالا: اللهم إنا نتوسل بهذا النبي المصطفى والرسول المجتبى الذي توسل به آم فأجبت دعوته، وغفرت خطيبته إلا سهلت على عبد الله طريقه وطويت له البعيد وأيدت أصحاب نبيك بالنصر إنك سميع الدعاء، ثم قال: سر يا عبد الله بن قرط فالله تعالى أكرم من أن يرد دعاء عمر وعباس وعلى

والحسن والحسين وأزواج رسول الله ﷺ وقد توسلوا إليه بأكرم الخلق عليه. قال عبد الله بن قرط : فخرجت من الحجرة وأنا فرح مستبشر واستويت على كور المطية وركبت الفلاة وأنا فرح بدعاء علي والعباس وعمر رضي الله عنهم أجمعين . قال عبد الله : خرجت من المدينة بعد العصر من يومي ذلك الذي دخلت فيه المدينة وأنا أرقب الطريق ، فلما اخطلت الظلام وأسبل الليل سجفه أرخت زمام المطية فحسبت أنها تطير بي ولم أزل سائراً ثلاثة أيام . فلما كانت صلاة العصر من اليوم الثالث أشرفت على اليرموك وسمعت ضجيج أذان المسلمين . قال عبد الله فقصدت خيمة الأمير أبي عبيدة رضي الله عنه وأنجحت ناقتي وسلمت عليه وكان لي منذ فارقته عشرة أيام فأخبرته بدعاء عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب والعباس والحسن والحسين رضي الله عنهم . فقال أبو عبيدة : صدقت يا ابن قرط وإنهم لكرام على الله عزّ وجّل وأن دعاءهم لا يرد ، ثم قرأ الكتاب على المسلمين فطابت قلوبهم بذلك ، وقالوا : أيها الأمير ما منا إلا من يطلب الشهادة فالله تعالى يبلغنا إياها .

قال الواقدي : حدثني عمرو بن العلاء ، قال : حدثنا ماجد عن الثقات ، قال : لما سار عبد الله بن قرط من المدينة يوم الجمعة ، فلما كان يوم السبت وقد صلينا الصبح خلف عمر بن الخطاب ونحن نقرأ من القرآن ما تيسر ، إذ سمعنا ضجة عظيمة وجلبة هائلة ففزعنا قلوبنا فخرجنا مبادرين وإذا نحن بقوم من اليمن من صدوان وأرض سبا وحضرموت واجتمعوا للجهاد ، وهم ستة آلاف يقدمهم جابر بن خول الربعي ، فترجلت ساداتهم وسلموا على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأمرهم بالنزول ، فلما أقبل الظلام جاء ألف فارس من مكة والطائف ووادي نخلة وثقيف يقدمهم سعيد بن عامر وسلموا على عمر ونزلوا يازأء أهل اليمن ، فلما كان يوم الأحد حمل عمر ضعيفهم وزوجهم وعقد راية حمراء على قناعة تامة وسلمها إلى سعيد بن عامر . قال سعيد بن عامر : فهممت بالمسير ، فقال عمر : على رسلك يا ابن عامر حتى أوصيك . ثم أقبل عمر بن الخطاب يمشي راجلاً ومعه عثمان بن عفان والعباس وعلي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف ، فلما قربوا من الجيش وقف عمر والناس حوله ، وقال سعيد بن عامر : يا سعيد إنني وليتك على هذا الجيش ولست بخير رجل منهم إلا أن تتقى الله فإذا سرت فارقني بهم ما استطعت ، ولا تشتم أعراضهم ولا تحقر صغيرهم ولا تؤثر قويهم ولا تتبع هواك ولا تسلك بهم المفاوز واقطع بهم السهل ولا ترقد بهم على جادة الطريق والله تعالى خليفي عليك وعلى من معك من المسلمين ، فقال له علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : اسمع وصية إمامك أمير المؤمنين الذي ختم الله تعالى به الأربعين وسميت به الأمة مؤمنين وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ : «إن تطيعوه تهتدوا وترشدوا» فسر يا سعيد وإذا وصلت إلى أبي عبيدة والتقي بكم الجيش الذي لا تلقون مثله ، وصعب عليكم

أمره فاكتبا إلى أمير المؤمنين عمر حتى يوجهني إليكم حتى أقلب أرض الشام على من فيها من المشركين إن شاء الله تعالى . قال فسار ابن عامر وهو يقول :

| | |
|--------------------------|-----------------------------|
| نمير بجيش من رجال أعزه | على كل عجاج من الخيل يصبر |
| إلى شبل جراح وصاحب نبينا | لننصره والله للدين ينصر |
| على كل كفار لعين معاند | تراه على الصلبان بالله يكفر |

قال : وسار يجد السير . قال سعيد بن عامر : وكنت عارفاً ببلاد الشام وطريقه وكانت أسير إليه في السنة مرة أو مرتين عسفاً من غير جادة طريق أسير على الكواكب ، فلما سرت من المدينة وأنا بين يدي المسلمين سلكت بهم على طريق بصرى فضلت عن الطريق وعدلت عن الجادة وأنا محترز من العدو وخائف على المسلمين فجعلت أحيد عن العمارات وأسلك الفلاة توفيقاً من الله وإكراماً ولطفاً بعباده المؤمنين ، فلما ضلت أشكل علي الطريق كأني ما سلكته يوماً قط فوقفت حائراً حتى تلاحق بي المسلمين فلم أعلمهم بأمري ، ولا أني ضلت عن الطريق ، وأنا أقول : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فسرت يومين وليلتين وأنا أتية بالناس والمسلمون يسألونني عن ذلك ، وأنا أقول لهم إني على طريق ، فلما كان في اليوم العاشر من مسيرنا من المدينة لاح لي جبل عظيم فنظرت إليه وحققته فلم أعرفه ، فقلت : غرت والله بال المسلمين ، وأنا أقول في نفسي : أترى هذا جبل بعلبك وقد سهل علينا الطريق ، وكان الجبل قد لاح لنا من بعيد من أول النهار وما أدركناه إلا والليل قد أقبل ، فلما صرنا بقريه اعترضنا واد عظيم فيه شجرة عظيمة كبيرة قال فلما تأملت الشجرة عرفتها ، وقلت لأصحابي : أبشروا فقد وصلنا إلى بلاد الشام وفتح المسلمين ودخلنا الوادي وإذا به وعر ليس فيه جادة ولا طريق فلحق المسلمين من هوله تعب عظيم . قال سعيد بن عامر وكان أكثر المسلمين رجاله ، وإنما كان يحمل بعضهم بعضاً ويتعقبون على ظهور الخيل والإبل .

فلما نظرت المسلمين إلى وحشة ذلك الوادي ووعورة مسلكه قالوا : يا سعيد إن نظن أنك قد أخطأك الطريق سلكت بنا غير طريقنا فأرجحنا في هذا الوادي قليلاً فقد أضر بنا المسير قال فأجبتهم إلى ذلك ، وكان في الوادي عين ماء غزيرة فنزل المسلمين عليها فشربوا وسقوا خيلهم وإبلهم ورعت الخيل والجمال ورق الشجر ونام أكثر الناس وبعضهم يصلي على محمد . قال سعيد بن عامر : وكنت جلست في آخر الناس أحرسهم ، وأنا أتلوا القرآن العظيم ، وأدعوا الله لنا بالسلامة إذ غلبتني عيني فرأيت في منامي كأني في جنة حضراء كثيرة الأشجار والشمار وكأني أكل من ثمرها وأشرب من أنهارها وأجنبي من ثمرها وأناوיל أصحابي وهم يأكلون ، وأنا فرح مسرور . فبينما أنا كذلك إذ خرج من بين تلك الشجر أسد عظيم فزار في وجهي وهم أن يفترسني . وأنا من

ذلك فرع مروع إذ خرج على الأسد أسدان عظيمان فصرعاه في موضعه فسمعت له خواراً عظيماً فانتبهت من نومي وحلوة ذلك الثمر في فمي، والأسود تمثل بين يديه. قال سعيد بن عامر: ففسرتها أنها غنيمة يأخذها المسلمون ويمنعنا منها مانع ونظفر به. فقلت في نفسي: الجنة هي الشهادة. قال سعيد بن عامر: ولم أزل جالساً أتلو القرآن، وأنا قلت إذ سمعت هاتفًا يهتف بي عن يمين الوادي، وهو يقول:

| | |
|--------------------------|-----------------------------|
| يا عصبة الهدى إلى الرشاد | لا تفزعوا من وعر هذا الوادي |
| ما فيه من جن ولا معادي | ستعلمون عشر العباد |
| لطف الذي يرفق بالأولاد | ويطرح الرحمة في الأكباد |
| سيصنع الله بكم رشاد | وتغنموا المال مع الأولاد |

قال سعيد بن عامر: فلما سمعت شعر الهاتف وما يشير به من الغنيمة سجدت لله تعالى شكرًا واستيقظ المسلمين لصوت الهاتف. قال سعيد بن عامر: وكنت قد حفظت من الهاتف بيتاً وحفظ سماح ثلاثة أبيات، وأنشدني إليها وفرح المسلمين بما سمعوا من الهاتف وطابت قلوبهم بالغنيمة وأقام المسلمون في الوادي حتى أصبح الصباح وصلى بهم سعيد بن عامر صلاة الفجر، فلما طلعت الشمس خرج المسلمون من الوادي وحققت تلك الأرض والجبل، وإذا به جبل الرقيم، فلما رأيته عرفته فرفعت صوتي بالتكبير، وقلت: الله أكبر وكبرت المسلمين لتكبيري، وقالوا: ما الذي رأيت يا ابن عامر؟ فقلت: وصلنا إلى بلاد الشام، وهذا جبل الرقيم. قال سعيد: وأكثر من معن طماعة العرب. قالوا: يا سعيد وما الرقيم؟ أما تعرفه فحدثهم بحديث الرقيم، قال سعيد: فعجبوا من ذلك. ثم أقبلت بهم إلى الغار فصلوا فيه، ثم سرنا حتى أشرفتنا على بلاد عمان. قال سعيد بن عامر: فعدلت إلى قرية هناك يقال لها الجنان فنظرت إلى دهاقين القرية وهم خارجون منها ومعهم الأهل والأولاد، فلما رأهم المسلمون حملوا عليهم من غير إذن لهم وأخذوا بعضهم أسرى فرجع القوم إلى القرية، وكان فيها حصن منيع فتحصنتوا فيها منا، قال سعيد بن عامر: فقربت من الحصن وصحت بهم، وقلت: يا وليك ما بالكم كتم خارجين من قريتكم فرجعتم فأشرف علي واحد منهم، وقال لي: يا معاشر العرب اعلموا أننا كنا خارجين من المدينة ففرعونا منكم وذلك أن صاحب عمان بعث إلينا وأمرنا بالمسير إلى عمان لنكون من تحت كتفه في عمان، والآن يا معاشر العرب هل لكم أن تكون في ذمامكم وأمانكم. قال سعيد: نعم فوق الصلح بينما على عشرة آلاف دينار وكتب لهم كتاب الصلح، فلما همت بالمسير، قالوا: يا معاشر العرب قد صالحناكم ونحن خائفون من قومنا واعلموا أن نقيطاس صاحب عمان لا بد أن نلقى منه شدة عظيمة فلو ظفرتم به لكان خيراً لنا ولكم، فقلت: كيف نظر به؟ فقالوا: إن الملك ماهان

مقدم العساكر قد بعث بذلك إليه، وإن أنتم ظفرتم بصاحب عمان ملكتم غنيمة جسمية، فقال سعيد بن عامر رضي الله عنه: وفي كم يكون جيش عمان؟ فقالوا: في خمسة آلاف فارس، ولكن قد وقع خوفكم في قلوبهم فلن يفلحوا إذا أبدًا، فقال سعيد بن عامر: يا معاشر المسلمين ما تقولون في لقاء هذا الطريق صاحب عمان وأخذ غنيمته، فقالوا: افعل ما تريده فإن قتله الله على أيدينا كان ذلك صلحاً للمسلمين ووهنا على المشركين. فقال سعيد بن عامر لأهل القرية: على أي طريق يأتي القوم؟ فقالوا: على هذا الطريق.

قال: فدللنا على طريق عمورية فسرنا إلى واد عظيم وكمنا فيه يوماً وليلة فلم يأتنا أحد، فلما أصبح الصباح قال سعيد: يا معاشر المسلمين إن الذي وجهنا إليه عمر بن الخطاب من نجلة أبي عبيدة وال المسلمين أفضل من مقامنا هنا فاخروا رحمة الله. فإننا إذا أشرفنا على المسلمين في سبعة آلاف فارس كان ذلك وهنا على المشركين ولذلة للكافرين، فقال المسلمين: يا ابن عامر إن قلوبنا توقد بالغنية فلا تحرمنا ذلك قال: فيبينما هم في المحاورة إذا أشرف عليهم جماعة من القسوس والرهبان وعليهم ثياب الشعر وفي أيديهم الصليان، وقد حلقوا أوساط رؤوسهم فابتدر المسلمين إليهم وأخذوهم وأوقفوهم بين يدي سعيد بن عامر، فقال لهم: من أنتم؟ وكان فيهم قس كبير فكلم سعيداً، وقال: نحن رهبان هذه الأديرة والصوماع ونريد أن نصل إلى قسطنطين ولد الملك هرقل حتى ندعوه للعساكر بالنصر قال سعيد: فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال فما وراءكم من الأخبار؟ قالوا: وراءنا صاحب عمان في خمسة آلاف فارس من فرسان النصرانية وعباد الصليب، فقال سعيد: اللهم اجعلهم غنية لنا. ثم قال سعيد للقسيس الذي خاطبه: اسمع أيها الشيخ إن نبيتنا أمرنا أن لا ن تعرض لراهب حبس نفسه في صومعة ولو لا أنكم تنذرون العدو لخلينا سبيلكم، ثم أمر المسلمين أن يوثقوهم كتاباً فأوثقوهم بزنانيرهم التي في أوساطهم، فيبينما نحن كذلك إذ أشرف علينا جيش عمان والرجالية أمامهم يعزلون لهم الحجر من الدروب، فلما أشرفوا على المسلمين حمل عليهم المسلمين من غير أهبة ورفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير ووضعوا فيهم السيف فقتلوا الرجال عن آخرهم فأخبر صاحب عمان بذلك، فلما نظر إلى صنع المسلمين أمر أصحابه بالحملة فحملوا عليهم حملة عظيمة واقتتلوا قتالاً شديداً، قال سعيد بن عامر: ونظرت إلى المسلمين وهو يقتلون الروم قتلاً ذريعاً ويضججون بالتهليل والتكبير، فلما نظر الطريق صاحب عمان ما صنع المسلمين بأصحابه ولئن منهزمَا طالب عمان وتبعه قومه وتبعهم المسلمين وبعضهم مال إلى الغنية والطريق نقطراس صاحب عمان في الهرب، وكان قد سبق فوقف حتى تلاحق به المنهزمون من قومه، قال في بينما هم كذلك إذ أشرف عليهم خيل من ورائهم تسرع برركابها، وقد أطلقوا الأعنة وقاموا الأسنة وهم زهاء من ألف

فارس يقدمهم فارسان كأنهما أسدان أحدهما الزبير بن العوام والآخر الفضل بن العباس فحملوا على الروم فقتلوا هم قتلاً ذريعاً وحمل الزبير بن العوام على نقاطس بطريق عمان وهو واقف تحت الصليب فطعنه الزبير فقلبه عن جواهه وعجل الله بروحه إلى النار وأقبل الفضل بن العباس يجندل الفرسان وينكس الأبطال، قال وأشرف سعيد بن عامر على الموضع فرأى الحرب قائمة فظن أنه وقع بينهم الخلف، فلما قربوا منهم سمعوا التهليل والتكبير، فقالوا: هذه دعوة الحق لمن قالها فاقتصر سعيد بن عامر المعركة فسمع الفضل بن العباس، وهو ينتمي باسمه، ويقول: أنا ابن عم رسول الله ﷺ.

قال سعيد بن عامر: فوالله ما انفلت من القوم أحد، فقلت له: الله درك يا ابن العباس ومن معك من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: معي الزبير بن العوام ابن عمته رسول الله ﷺ. قال سعيد بن عامر: فوالله ما انفلت من القوم أحد إلا بين أسير وقتل وغنم المسلمين غنيمة عظيمة وسلم بعضهم على بعض وأقبل الزبير على سعيد بن عامر، وقال: يا ابن عامر ما الذي حبسك عن المسير جهتنا، وقد جاءنا سالم بن نوقل العدوى وأخبرنا بمسيرك إلينا، وقد ساءت بك ظنوننا فأرسلنا أبو عبيدة لنغير على عمان والحمد لله على سلامة المسلمين ودمار المشركين، ثم أمر الزبير برؤوس القتلى فسلخت وحملتها العرب على أسنة الرماح فكانت الرؤوس أربعة آلاف رأس والأسرى ألف أسير. قال وأطلق سعيد بن عامر الرهبان وسار المسلمين حتى أشرفوا على أبي عبيدة رضي الله عنه، ورفعوا أصواتهم بالتلليل والتكبير وأجابهم جيش المسلمين بمثل ذلك فانزعجت قلوب الروم لذلك ونظروا إلى ثمانية آلاف فارس والرؤوس معهم على الأستة فبهتوا لذلك وحدث سعيد بن عامر أبو عبيدة بالنصر وغنيمتهم من الروم فسجد شكرًا لله عزوجل وأمر بالألف أسير فضربت أعنائهم والروم ينظرون إليهم. قال قطبة بن سويد: وأخبرت الروم أنه لم ينج أحد من جيش عمان.

قال الواقدي: لما أسر الخامسة من أصحاب رسول الله ﷺ اغتم لفقدهم أصحاب رسول الله ﷺ وكان أكثرهم غالباً أبو عبيدة بن الجراح وأقبل على البكاء والتضرع يدعوا لمن أسر بالخلاص، وأما الخامسة فإنهم مثلوا بين يدي ماهان لعنه الله تعالى وغضب عليه، فلما نظر إليهم استحرق شأنهم، وقال لجلة بن الأبيه: من هؤلاء؟ قال: أيها الملك هؤلاء قوم من جيش المسلمين، وقد كانوا ستين رجلاً فقتلتهم أكثرهم وأسرت هؤلاء وما بقي في عسكرهم من تخاف غائلته إلا رجل واحد وهو الذي يثبتهم ويرمي بهم كل المرامي، وهو الذي فتح أركة وتدمير وحوران وبصرى ودمشق، وهو الذي كسر عساكر أجنادين وتبع توما وهرييس وقتلهم في مرج الدبياج وأسر ابنة الملك هرقل وهو خالد بن الوليد. قال: فلما سمع ماهان ذلك قال: لا بد لي أن أحتج على هذا الرجل

حتى أحصله عندي وأقتله مع هؤلاء الخمسة الأسرى، ثم دعا ماهان برجل من الروم اسمه جرجة وكان حكيمًا فاضلاً عند الروم فصيحاً بلسان العرب. فقال: يا جرجة أريد أن تمضي إلى هؤلاء العرب وتقول لهم يبعثوا لنا رسولاً ول يكن هذا الرسول الرجل المسمى بخالد قال: فركب جرجة وسار نحو عساكر المسلمين فالتقى بخالد بن الوليد. فقال له: ما الذي تريده؟ فقال: إن الملك ماهان قد بعثني إليكم حتى تبعثوا رجلاً منكم فلعل الله أن يحقن دماءنا ودماءكم فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه: أنا أكون الرسول إليه وأوقف رسول الروم بين يديه ويدي أبي عبيدة رضي الله عنه وأخبره أنه يريد المسير إلى ماهان. فقال أبو عبيدة: امض يا أبي سليمان سلمك الله تعالى فلعل الله تعالى أن يهدىهم أو يدعونا للصلح وأداء الجزية، فتحقق الدماء على يدك فحقن دم رجل واحد أحب إلى الله تعالى من أهل الشرك جميعاً. فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه: أنا أطلب من الله تعالى العون.

ثم وثب خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى خيمته وليس خفين حجازيين وتعتم بعمامة سوداء وشدّ وسطه بمنطقة من الأديم وتقلّد سيفه الذي استله من مسلمة الكذاب يوم اليهادة وأمر عبده هماماً أن يأخذ قبته الحمراء وكانت من الأديم الطائفي وفيها شمعات من الذهب الأحمر وحليتها من الفضة البيضاء وكان خالد قد اشتراها من امرأة ميسرة بن مسروق العبسي بثمانين دينار فحملها على بغل وركب خالد جواده، فلما هم بالمسير قال له أبو عبيدة: يا أبي سليمان خذ معي رجالاً من المسلمين يكونون لك عوناً. فقال خالد: أيها الأمير أحب ذلك ولكن لا إكراه في الدين، وليس لي عليهم طاعة فأمر من شئت، فلما سمع المسلمون كلام خالد بن الوليد رضي الله عنه. قال معاذ بن جبل: يا أبي سليمان إنك من أهل الفضل ولو أمرتنا بأمر امتنناه لأنك سائر في طاعة الله تعالى ورسوله.

قال الواقدي: فاستركب معه مائة فارس من المهاجرين والأنصار منهم المرقال بن عتبة بن أبي وقاص وشرحبيل بن حسنة وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوبي وميسرة بن مسروق العبسي وقيس بن هبيرة المرادي وسهل بن عمرو العامري وجرير بن عبد الله البجلي والقعقاع بن عمرو التميمي وجابر بن عبد الله الأنباري وعبادة بن الصامت الخزرجي والأسود بن سويد المازني ذو الكلاع الحميري والمقداد بن الأسود الكندي وعمرو بن معديكرب الزبيدي رضي الله عنهم أجمعين، ولم يزل خالد يتخب مثل هؤلاء السادات رضي الله عنهم حتى كمل منهم مائة فارس كل فارس منهم يرد جيشاً وحده فأخذوا زيتهم واشتملوا بلباس الحرب وتوشحوا بالأبراد وتعمموا بالعمائم وتمتطقو بالخناجر وتقلدوا بالسيوف وركبوا الخيل العتاق، وسار خالد بن الوليد رضي الله عنه

وعن يمينه معاذ بن جبل وعن شماله المقداد بن الأسود الكندي والمائة فارس محدقون به. قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: وسرنا ونحن نعلم بالتهليل والتكبير. قال نصر بن سالم المازني: فنظرت إلى أبي عبيدة رضي الله عنه حين سار خالد بمن معه يقرأ آية من القرآن ودموعه جارية على خده. فقلت: أيها الأمير ما يبكيك؟ فقال: يا ابن سالم هؤلاء والله أنصار الدين فإن أصيب رجل منهم في إمارة أبي عبيدة فما يكون عذري عند رب العالمين وعند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال الواقدي: فلما أشرف خالد بن الوليد رضي الله عنه ومن معه على عساكر الروم نظر المسلمون إلى عساكر الروم وهم خمسة فراسخ في العرض، وعن نوفل بن دحية أن خالد بن الوليد لما ترجل عن جواهه وترجل المائة جعلوا يتبعثرون في مسيرهم ويجررون حمائل سيوفهم ويخترون صفوف الحجاب والبطارقة ولا يهابون أحداً إلى أن وصلوا إلى النمارق والفراس والديباج ولاح لهم ماهان وهو جالس على سريره، فلما نظر أصحاب رسول الله ﷺ إلى ما ظهر من زينته وملكه عظّموا الله تعالى وكبّروه وطرحت لهم الكراسي فلم يجلسوا عليها، بل رفع كل واحد منهم ما تحته وجلسوا على الأرض، فلما نظر ماهان إلى فعلهم تبسم وقال: يا معاشر العرب لم تأبون كرامتنا ولم أزلتكم ما تحكم من الكراسي وجلستم على الأرض ولم تستعملوا الأدب معنا ودستم على فراشنا؟ قال: فقال خالد بن الوليد: إن الأدب مع الله تعالى أفضل من الأدب معكم وبساط الله أطهر من فرشكم لأن نبينا محمداً ﷺ قال: جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ثم قرأ قوله تعالى: «منها خلقناكم وفيها نعيدهم ومنها نخرجكم تارة أخرى» [طه: ٥٥].

قال: حدثني عاصم بن رواح الزبيدي قال: حدثنا ابن عبد الله الشيباني قال: حدثنا طرفة بن شيبة الخولاني عن عميه جرير وكان محالفاً لخالد بن الوليد رضي الله عنه قال: لم يكن بين خالد وماهان ترجمان يبلغ عنهما، بل كانا يتحدثان كلامهما. فقال خالد يا ماهان إني أكره أن أبدأك بالكلام فتكلم أنت بما تريده فإني لست أبداً بما تتكلم ولكل كلام جواب فإن شئت فتكلم وإن شئت بدأتك، قال ماهان: أنا أبدأكم الحمد لله الذي جعل سيدنا المسيح كلمته وملكتنا أفضل الملوك وأمتنا خير الأمم، قال: فعظم ذلك على خالد بن الوليد وقطع خالد كلامه فقال الترجمان: لا تقطع كلام الملك يا أخاء العرب واستعمل حسن الأدب، فأبى خالد أن يسكت، بل قال خالد: الحمد لله الذي جعلنا نؤمن بنبينا ونبيكم وجميع الأنبياء وجعل أميرنا الذي وليناه أمرانا كبعضنا لو زعم أنه يملك علينا لعزيزنا فلستنا نرى أن له فضلاً علينا إلا أن يكون أتقى الله عزّ وجلّ مثا وقد جعل الله أمتنا تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر وتقر بالذنب وتستغفر منه وتعبد الله تعالى وحده لا شريك له، قال فاصرف وجه ماهان وسكت قليلاً.

ثم قال: الحمد لله الذي أبلانا وأحسن البلاء إلينا وعافانا من الفقر ونصرنا على الأمم وأعزنا ومنعنا من الضييم ولسنا فيما خولنا الله فيه من نعيم الدنيا بطرين ولا باغين على الناس وقد كان يا معاشر العرب طائفة منكم يغشوننا ويلتمسون نائلا ورفدنا وجوازتنا ونحن نحسن إليهم ونكرم ضعيفهم وننظم قدرهم ونتفضل عليهم ونفي لهم بال وعد وكنا نظن أن العرب كلها تعرف لنا ذلك من جميع القبائل وتشكرنا عليه لما أسلينا من عطايانا الجميلة لهم، فما شعرنا حتى جتمونا بالخيل والرجل وظننا أنكم تطلبون منا طلب إخوانكم فإذا أنتم على خلاف رأي أولئك، جئتم تقتلون الرجال وتسبون النساء وتغنمون الأموال وتهدمون الأطلال وتطلبون أن تخربونا من أرضنا وتغلبونا على بلادنا، وقد طلب منا ذلك من كان قبلكم ممن هو أكثر منكم عددًا وأكثر أموالًا وسلامًا وظهرًا فرددناهم خائفين وجلين خائبين بين قتيل وجريح وطريق فأول ما فعلنا ذلك بملك فارس فرده الله على عقبيه بالخيبة والذلة وكذلك فعلنا بملك الترك وملك الجرامقة وغيرهم وأنتم لم يكن في أمة من الأمم أصغر منكم مكانًا ولا أحقر شأنًا لأنكم أهل الشعر والوبر والبؤس والشقاء وإنكم مع ذلك تظلمون في بلادكم وببلادنا وحوالينا أمة كثيرة العدد وشوكتنا شديدة وعصبتنا عظيمة، وإنما أقبلتم علينا لأنكم خرجتم من جدوة الأرض وقطعت المطر فانجلبتم إلى بلادنا وأفسدتم كل الفساد وركبتم مراكب ليست كمراكبكم ولبستم ثيابًا ليست كثيابكم وتمتعتم ببنات الروم البيض الأواني فجعلتموهن خدمًا لكم وأكلتم طعامًا ليس كطعمكم وملئت أيديكم من الذهب والفضة والمتاع الفاخر، ولقد لقيناكم الآن ومعكم أموالنا وما غنمتموهن من قومنا وأهل ديننا وقد تركناه لكم لا نطالبكم به ولا ننزع عنكم فيه ولا نعتبر عليكم فيما تقدم من فعالكم والآن فاخرجوا من بلادنا فإن أبيتم الانصراف عنا عزمنا عليكم عزمه فترتكبكم كأمس الدابر، وإن جنحتم للصلح نأمر لكل واحد من عسكركم بمائة دينار وثوب ولأميركم أبي عبيدة بآلف دينار ولخليفتكم عمر بن الخطاب بعشرة آلاف دينار على أنكم تحلفون لنا أن لا تعودوا إلى حربنا.

قال الواقدي: وماهان يرحب تارة ويرهب أخرى وخالد مطرق لا يتكلم حتى فرغ ماهان من كلامه. فقال خالد: إن الملك قد تكلم فأحسن وسمعنا كلامه ونتكلم ويسمع كلامنا. ثم قال خالد بن الوليد رضي الله عنه: الحمد لله الذي لا إله إلا هو، فلما سمع ماهان ذلك مد يده إلى السماء وقال: نعم ما قلت يا عربي. فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المرتضى ونبيه المجتبى عليه السلام. فقال ماهان: ما أدرى محمد رسول الله أم لا، ولعله كما تقول وتزعم وتذكر. فقال خالد رضي الله عنه: حسب الرجل دينه، ثم قال: أفضل الساعات وخيرها الساعات التي يطلع فيها الله رب العالمين فالتفت ماهان إلى قومه، وقال بلسانه: إنه رجل عاقل يتكلّم بالحكمة. فقال

خالد: ما الذي قلت لقومك؟ فأخبره بمقالته. فقال خالد: إن كنت أوتيت العقل فالله تعالى المحمود على ذلك، وقد سمعنا نبينا محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لما خلق الله تعالى العقل وصورة وقدره قال: أقبل فأقبل، ثم قال له أديب فأديب. فقال الله تعالى وعزتي وجلالتي ما خلقت خلقاً أحب إلي منك بك تناول طاعتي وتدخل جنتي». فقال ماهان: إذا كنت بهذا العقل والفهم فلم جئت بهؤلاء معك، قال خالد بن الوليد رضي الله عنه: جئت بهم لأنشوريهم. قال ماهان: وأنت مع جودة عقلك وحسن رأيك وبصيرتك تحتاج إلى مشورة غيرك؟ قال خالد: نعم بهذا أمر الله عز وجل نبينا محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فقال الله تعالى في كتابه العزيز: **«وشاورهم في الأمر فإذا سألت فتوكل على الله»** [آل عمران: ١٥٩] وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«ما ضاع امرؤ عرف قدره، ولا ضاع مسلم استشار» فأنما وإن كنت ذا رأي وعقل كما تزعم وكما بلغك، فإني لا أستغني عن رأي ذي رأي ومشورة أصحابي. قال ماهان: وهل في عسكركم من له رأي مثل رأيك وحزم مثل حزمك. قال: نعم، إن في عسكركنا أكثر من ألف فارس لا يستغني عن رأيهم ولا عن مشورتهم فقال له ماهان: ما كنا نظن ذلك فيكم، وإنما كان يبلغنا عنكم أنكم طماعون جهال لا عقول لكم يغير بعضكم على بعض وينهب بعضكم أموال بعض. فقال له خالد رضي الله عنه: ذلك كان شأن أكثرنا حتى بعث الله عز وجل فينا نبينا محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهدانا لرشدنا وعرفنا سبيلنا، وفهمنا الخير من الشر، والهدى من الضلال. فقال ماهان: يا خالد إنك قد أعجبتني بما أراه من رأيك وبصيرتك، وقد أحببت أن أواخيك ف تكون أخي وخليلي. فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه: وافرحة إن تتم الله مقالتك، ف تكون إذا سعيداً ولا نفترق. فقال ماهان: وكيف ذلك؟. قال خالد: تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله الذي بشر به عيسى ابن مريم: فإذا فعلت ذلك كنت أخي و تكون أخي وخليلي وأكون خليلك ولا نفترق إلا لأمر يحدث. فقال ماهان: أما ما دعوتني إليه من الترك للدين والدخول في دينكم فما لي إلى ذلك من سبيل. فقال خالد بن الوليد: وكذلك أيضاً لا سبيل إلى مؤاخاتي لك وأنت مقيم على دينك دين الضلال. قال ماهان: أريد أن ألقى الحشمة بيني وبينك وأكلمك كلام الأخ لأخيه: فأجبني عن كلامي الذي دعوك إليه حتى أسمع ما تقول.

قال خالد: أما بعد فإنك تعلم أن الذي ذكرته مما فيه قومك من الغنى والعز ومنع الحرير والظهور على الأداء والتتمكن في البلاد، فنحن عارفون به، وكل ما ذكرته من إنعامكم على جيرانكم من العرب فقد عرفناه، ولكن إنما فعلتم ذلك إبقاء لنعمتكم ونظرًا منكم لأنفسكم وذرايركم وزيادة لكم في مالكم وعزًا لكم فستكترون جموعكم وتلقون الشوكة على من أرادكم، وأما ما ذكرته من فقرنا ورعينا الإبل والشاة فما منا من لم يرع وأكثرنا رعاة، ومن رعى منا كان له الفضل على من لم يرع، وأما قولك بأننا أهل فقر

فتح الشام/ ج ١ / ١٢

وفاقه وبؤس وشقاء، فتحن لا ننكر ذلك، وإنما ذلك من أجل أنا معاشر العرب أنزلنا الله تعالى منزلًا ليس فيه أنهار ولا أشجار ولا زرع إلا قليل وكنا أهل جاهلية جهلاء لا يملكون الرجل منا إلا فرسه وسيفه وأباعره وشياهه ويأكل قوينا ضعيفنا، ولا يأمن بعضاً بعضاً إلا في الأربع الأشهر الحرم نعبد دون الله الأصنام والأوثان التي لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ونحن عليها مكتبون ولها حاملون، في بينما نحن كذلك على شفا حفرة من النار من مات منها مات مشركاً وصار إلى النار ومن بقي منها كان كافراً بربه قاطعاً لرحمه حتى بعث الله لنانبياً نعرف حسبه ونسبة هادياً مهدياً رسولاًنبياً، وإماماً تقىأ ظهر الإسلام بدعوته ودحض المشركين بكلمته جاءنا بقرآن مبين وصراط مستقيم ختم الله تعالى به التبين، وأمرنا بعبادة رب العالمين نعبده ولا نشرك به شيئاً ولا نتخذ من دونه ولائنا، ولا نجعل لربنا صاحبة ولا ولداً لا شريك له ولا ضد ولا نذ له ولا نسجد للشمس ولا للقمر ولا للنور ولا للنار ولا للصلب ولا للقربان، ولا نسجد إلا الله وحده لا شريك له ونقر ببنوة نبينا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ كَلَامَهُ الَّذِي هَدَانَا بِهِ مَوْلَانَا فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَأَطْعَنَا أَمْرَهُ، فَكَانَ مَا أَمْرَنَا بِهِ أَنْ نَجَاهِدَ مَنْ لَا يَدِينُ بِدِينِنَا وَلَا يَقُولُ بِقَوْلِنَا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَاتَّخَذَ مَعَهُ شَرِيكًا جَلَ رَبِّنَا وَتَعَالَى عَنِ ذَلِكَ لَا تَأْخُذْهُ سَنَةً وَلَا نُومًّا فَمَنْ اتَّبَعَنَا كَانَ أَخَانَا وَصَارَ لَهُ مَا لَنَا وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْنَا وَمَنْ أَبَى الإِسْلَامَ كَانَتْ عَلَيْهِ الْجُزِيَّةُ يُؤْدِيهَا إِلَيْنَا عَنْ يَدِهِ وَهُوَ صَاغِرٌ فَإِذَا أَدَاهَا حَقْنَ بَهَا مَالَهُ وَدَمَهُ وَوَلَدَهُ وَمَنْ أَبَى الإِسْلَامَ وَأَنْ يُؤْدِي الْجُزِيَّةَ فَالسَّلِيفُ حُكْمُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ جَلَ جَلَالَهُ بِحُكْمِهِ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ، وَنَحْنُ نَدْعُوكُمْ إِلَى هَذِهِ الْخَصَالِ الْمُلْكَلَلَاتِ لَيْسَ غَيْرَهَا إِمَّا أَنْ تَقُولُوا: نَشَهِدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَوِ الْجُزِيَّةُ فِي كُلِّ عَامٍ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ مِّنَ الرِّجَالِ وَلَيْسَ عَلَى مَنْ لَمْ يَلْعَمْ الْحَلْمَ جُزِيَّةً وَلَا عَلَى امْرَأَةٍ وَلَا عَلَى رَاهِبٍ مُنْقَطِعٍ فِي صُومُعَتِهِ، قَالَ مَاهَانٌ: فَهَلْ بَعْدَ قَوْلٍ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ غَيْرُهُ هَذَا، فَقَالَ خَالِدٌ: نَعَمْ، أَنْ تَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَتَؤْتُوا الزَّكَاةَ وَتَحْجُجُوا بِالْبَيْتِ الْحَرَامَ وَتَجَاهِدُوا مِنْ كَفَرِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَتَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَتَوَالَّوْا فِي اللَّهِ تَعَالَى وَتَعَادُوا فِي اللَّهِ، فَإِنْ أَبَيْتُمْ ذَلِكَ فَالْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ حَتَّى يُورَثَ اللَّهُ أَرْضَهُ مِنْ يَشَاءُ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَقْنِينَ. قَالَ مَاهَانٌ: فَأَفْعَلْ مَا تَشَاءُ فَإِنَّا لَا نَرْجِعُ عَنِ دِينِنَا وَلَا نُؤْدِي الْجُزِيَّةَ، وَأَمَّا مَا ذُكِرَ مِنْ أَنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مِنْ يَشَاءُ مِنْ عَبَادِهِ فَلَقَدْ صَدَقْتَ فَإِنَّهَا لَمْ تَكُنْ لَنَا وَلَا لَكُمْ بَلْ كَانَتْ لِقَوْمٍ غَيْرِنَا وَغَيْرِكُمْ فَقَاتَلَنَاهُمْ عَلَيْهَا حَتَّى مُلَكَّنَاهُمْ وَالْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ فَابْرَزُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ تَعَالَى، فَقَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا أَنْتُمْ بِأَشْهَى مِنْا إِلَى الْحَرْبِ وَكَأُنِّي بِجِيُوشِكُمْ، وَقَدْ انْهَزَمَتِ النَّصْرُ يَقْدِمُنَا وَتَسَاقُ أَنْتُ وَالْحَبْلُ فِي عَنْقِكَ ذَلِيلًا حَقِيرًا وَتَقْدِمُ بَيْنَ يَدِيِّي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَيُضَربُ عَنْقَكَ. قَالَ فَلَمَّا سَمِعَ مَاهَانَ كَلَامَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ غَضِبَ غَضِبًا شَدِيدًا. قَالَ: فَلَمَّا نَظَرَتِ الْبَطَارِقَةُ وَالْحَجَابَ وَالْهَرْقَلِيَّةَ وَالْقِيَاصِرَةَ إِلَى غَضِبِ مَاهَانَ هَمُوا بِقَتْلِ خَالِدٍ إِلَّا

أنهم صبروا ينظرون أمره، فقال ماهان لخالد وقد استشاط غضباً: وحق المسيح لأحضرن أصحابك الخمسة الأساري وأضربي أعناقهم وأنت تنظر إليهم، فقال له خالد: اسمع ما أقول لك يا ماهان أنت أقل وأذل وأحقر من ذلك واعلم أن هؤلاء الذين في يدك هم منا ونحن منهم، فوحق الدعوة المستجابة وحق بيعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وخلافة عمر بن الخطاب لئن قتلتكم لأقتلنكم بسيفي هذا ويقتل كل رجل منا من قومك بعدهم وزيادة. ثم وثب خالد رضي الله عنه من وضعه وانتقض سيفه من غمده وفعل أصحاب رسول الله ﷺ كفعله، وهو يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله وجردوا سيفهم وهاجوا كالجمال أو كالسباع الضواري واستقتلوا وأيقنوا بالشهادة في ذلك المكان.

قال الشيخ أبو عبد الله محمد الواقدي مؤلف هذا الكتاب والله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ما اعتمدت في أخبار هذه الفتوح إلا الصدق وما نقلت أحاديثها إلا عن ثقات وعن قاعدة الحق لأثبت فضائل أصحاب رسول الله ﷺ وجهادهم حتى أرعم بذلك أهل الرفض الخارجين عن السنة والفرض إذ لولاهم بمشيئة الله لم تكن البلاد لل المسلمين وما انتشر علم هذا الدين، فللله درهم لقد جاهدوا في الله حق جهاده ونصروا دينه، وثبتوا للقاء الأعداء وبذلوا جهدهم ونصروا الدين حتى راحزوا الكفر عن سريره وتقهقر، لا جرم وقد قال فيهم الملك المقتدر **«فمنهم من قضى نحبه ومنهم من يتظاهر»** [الأحزاب: ٢٣].

قال الواقدي: حدثني مسلم بن عبد الحميد عن جده رافع بن مازن. قال: كنت مع خالد يوم سرنا إلى ماهان وكنا في سراقة، فنما جذبنا السيف وهممنا بالقوم وما في أعينا من جيوش الروم شيء، وقد أيقنا بالحشر من ذلك الموضع.

قال الواقدي: فلما رأى ماهان الحقيقة منا ومن خالد وتبين الموت في شفار سيفونا نادى ماهان: مهلاً يا خالد. لا تكن بهذه العجلة تهلك وأنا أعلم أنك ما قلت ذلك القول إلا أنك رسول والرسول يحمل ولا يقتل، وأنا إنما تكلمت بما تكلمت لاختبركم وأنظر ما عندكم والآن فما أواخذك فارجع إلى عسكرك واعزم على القتال حتى يعطي الله تعالى النصر لمن يشاء، فلما سمع ذلك أغمد سيفه، وقال: يا ماهان ما تصنع في هؤلاء الأسرى؟ فقال ماهان: أطلقهم كرامة لك وأخلني سيفهم فيكونون عوناً لك ولن تعجزوننا في الحرب غداً ففرح خالد بذلك وأمر ماهان بتخلية أصحاب رسول الله ﷺ. قال: فأطلقوا من وثفهم وهم خالد بالمسير، فقال ماهان: يا خالد إني كنت أحب أن يصلح الأمر بيدي وبينكم وإني أسألك حاجة، فقال خالد: سل ما تريده، فقال: إن قبتك هذه الحمراء قد أعجبتني وإنني أريد أن تهبه لي وانظر في عسكري ما أعجبك من شيء فما به لك. فقال خالد: والله لقد فرحتني إذ طلبت ما أملكه وهي موهوبة لك، وأما ما عرضت

علي من عسكرك فلا حاجة لي فيه، فقال ماهان: الله درك أنت تكرمت وأجملت. فقال خالد رضي الله عنه: وأنت أيضاً قد تكرمت علينا بما صنعت من إطلاق أصحابي من الأسر، ثم اثنى خارجاً من عند ماهان وأصحابه من حوله، وقدم له جواده فركبه وركب أصحابه أصحاب رسول الله ﷺ وأمر ماهان أصحابه وحجابه أن يسيروا معهم حتى يبلغوهم. قال: ففعل القوم ذلك ووصل خالد وأصحابه إلى الأمير أبي عبيدة رضي الله عنهما أجمعين وسلموا عليه، وفرح المسلمون بخلاص أصحاب رسول الله ﷺ وحدث خالد أبو عبيدة بكل ما جرى لهم. ثم قال خالد: وحق المنبر والروضة ما كان ماهان ليطلق لنا أصحابنا إلا فرعاً من سيفونا.

قال أبو عبيدة حين سمع ما مر لخالد ولماهان من الخطاب والجدال: هذا رجل حكيم إلا أن الشيطان غلب على عقله فعلام افترقتم؟ قال: على أننا نلتقي معهم ويعطي الله النصر لمن يشاء، فلما سمع أبو عبيدة رضي الله عنه ذلك جمع عظماء المسلمين وقام فيهم خطيباً فحمد الله تعالى وأثنى عليه وذكر النبي ﷺ وأخبرهم أن العدو يصبهم بالقتال في غداة غد وأمرهم بالأهبة، وأقبل فرسان المسلمين يحرّض بعضهم بعضاً وأقبل خالد على أصحابه وهم عسكر الزحف، وقال لهم: اعلموا أن هؤلاء الكفرا الذين نصركم الله عليهم في المواطن الكثيرة قد حشدوا لكم جموعاً بلا دadem، وإنني دخلت إلى عسكرهم ونظرت إليهم فكانهم النمل ولكنهم أصحاب عدة بلا قلوب ولا لهم من ينصرهم عليكم وهذه الواقعة بيننا وبينهم، وقد أيقنا أن القتال في غداة غد وأنتم أهل البأس والشدة فما عندكم رحمة الله تعالى، قال: فتكلم أصحاب خالد وقالوا: أيها الأمير القتال بغيتنا والقتل في سبيل الله تعالى مسربنا ولا نزال نصبر لهم على الحرب والطعن والضرب حتى يحكم الله بيننا، وهو خير الحاكمين ففرح خالد بقولهم، وقال لهم: وفقكم الله تعالى وأرشدكم.

قال الواقدي: فلم يبق أحد منهم تلك الليلة إلا وقد أخذ عدته وأهبته واستعد بالآلة للقتال وباتوا فرحين بالجهاد والثواب وخائفين من العقاب، فلما أصبح القوم ولاح الفجر أذن المؤذنون في عسكر المسلمين حتى ارتفعت لهم جلبة عظيمة بالتوحيد وأسبغوا الوضوء لصلاتهم خلف أبي عبيدة، فلما وصلوا ركبوا خيولهم إلى قتال عدوهم وعبوا صفوفهم للقتال وكانوا ثلاثة صفوف متلاصقة أول الصف لا يرى آخره، وأقبل خالد بن الوليد على أبي عبيدة رضي الله عنه، وقال: أيها الأمير من تجعل في الميسرة. قال كنانة بن مبارك الكناني أو قال عمرو بن معد يكرب الزبيدي والله أعلم أيهما كان فولاه الميسرة وأمره أن يكون مكانه في الميسرة فعل وضم إلى كنانة قيساً. قال: فسار لما أمره أبو عبيدة رضي الله عنه.

قال الواقدي : حدثني فضالة بن عامر . قال : حدثني موسى بن عوف عن جده يوسف بن معن . قال : كان هذا الغلام كنانة عارفاً بالحرب صاحب شجاعة وغارة ، وقد ذكر أنه كان من شجاعته وشدة فراسته أنه كان يخرج من حي قومهبني كنانة وحده ويسير حتى يأتي أحياء العرب المعادين له ، فإذا أشرف عليهم صرخ بهم وانتمى باسمه فتثور الرجال على أعنق الخيل ، فلا يزال يقاتلهم ويقاتلونه ، فإن ظفر بهم كان مراده وإن رأى منهم غلبة وعظم عليه أمرهم نزل عن جواده وسعى بين أيديهم فلا يلحقون منه إلا الغبار .

قال الراوي : لما وله أبو عبيدة وقف حيث أمره ، والتفت أبو عبيدة إلى خالد ، وقال : يا أبا سليمان قد وليتك على الخيل والرجل فول أمر الرجال من شئت ، فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه : سأولي أمرهم رجالاً لا يوتى المسلمين من قبلهم . ثم نادى بهاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، وقال له : ولاك الأمير على الرجال ، فقال أبو عبيدة رضي الله عنه : انزل يا هاشم وكن معهم رحمك الله وأنا أواقفك .

قال الواقدي : ورتب أبو عبيدة صفوف المسلمين وعباهم . قال خالد بن الوليد رضي الله عنه : أبعث الآن إلى أصحاب الرايات وقل لهم يسمعوا مني ، فدعا أبو عبيدة رضي الله عنه بالضحاك بن قيس ، وقال له : يا ابن قيس أسرع إلى أصحاب الرايات ، وقل لهم : إن الأمير أبا عبيدة يأمركم أن تسمعوا لخالد وتطيعوا أمره ففعل الضحاك ذلك ، وجعل يدور على أصحاب الرايات حتى انتهى إلى معاذ بن جبل وقال له مثل ذلك . قال معاذ بن جبل : سمعاً وطاعة ، ثم أقبل معاذ على الناس ، وقال : أما إنكم قد أمرتم بطاعة رجل ميمون الغرة مبارك الطلعة ، فإن أمركم بأمر فلا تخالفوه فيما يأمركم به ، مما يريده غير صلاح المسلمين والأجر من رب العالمين . قال : فقلت لمعاذ بن جبل : إنك لتقول في خالد قولًا عظيمًا ، فقال : ما أقول إلا ما قد عرفته فللله دره ، وقال الضحاك : فرجعت إلى خالد وأخبرته بما تكلم به معاذ بن جبل وبما أثني به عليه فأثني عليه ، وقال : هو أخي في الله تعالى ، ولقد سبقت له وأصحابه سوابق لا يفعلها خالد بن الوليد فمن يناله . قال الضحاك : فرجعت إلى معاذ بن جبل وأخبرته بما قال خالد وبما أثني به عليه وما ذكره من أمره وبما أورده من علي شأنه ، فقال معاذ : والله إني أحبه في الله تعالى ، وأرجو من الله أن يكون قد أثابه بحسن نيته ونصيحته للMuslimين .

قال الواقدي : فلما وضى الضحاك بن قيس أصحاب الرايات بقول أبي عبيدة بالطاعة لخالد بن الوليد رضي الله عنه جعل خالد يسير بين الصفوف ويقف على كل راية ، ويقول : يا أهل الإسلام إن الصبر قد عزم إن شاء الله تعالى على صحبتكم ،

والفشل والجهن سببان من أسباب الخذلان، فمن صبر كان حَقّاً على الله نصره على عدوه لأن الله معه، ومن صبر على حد السيف فإنه إذا قدم على الله تعالى أكرم منزلته وشكر له فعله وسعيه والله يحب الشاكرين. قال وما زال خالد رضي الله عنه يقول هذا الكلام لأهل كل رأية حتى مَرَ بِجَمَاعَةِ النَّاسِ. ثم إن خالداً جمع إليه خيل المسلمين من أهل الشدة والصبر ومن شهد معه الزحف، فقسمهم أربعة أرباع فجعل على أحدهم قيس بن هبيرة المرادي، وقال له: أنت فارس العرب فكن على هذه الخيل واصنع كما اصنع، وجعل على الربع الآخر ميسرة بن مسروق العبسي وأوصاه بمثل ذلك، ودعا عامر بن الطفيلي على الربع الثالث وأوصاه بمثل ذلك ووقف خالد مع عسكر الزحف.

قال الواقدي: فلم تطلع الشمس إلا وقد فرغوا من تعبية صفوفهم للحرب. وأما ماهان الأرمني فإنه أمر الروم بالزينة والأبهة للحرب ففعلوا ذلك، إلا أن المسلمين كانوا أسرع في التعبية. قال: وزحف الروم إلى أصحاب رسول الله ﷺ ونظر الروم إلى تعبيتهم فكان عسكر المسلمين صفوّاً كالبنيان المرصوص، وكان الطير تظّلّهم والصفوف متلاصقة والرماح مشرعة مشتبكة. قال: فلما رأى الروم ذلك داخلهم الفزع والجزع وألقى الله الرعب في قلوبهم، ثم إن ماهان عبى عسكره فجعل العرب المنتصرة من غسان ولخم وجذام في مقدمة الصفوف، وجعل عليهم جبلة وقدم أمّاهم صليباً من الفضة وزنه خمسة أرطال وهو مطلي بالذهب، وفي أربعة أركانه أربع جواهر تضيء كأنها الكواكب.

قال الواقدي: حدثني سنان بن أوس الريعي. قال: حدثني عدي بن الحارث الهمданى، وكان من حضر الفتوح من أولها إلى آخرها. قال: وكانت الصفوف التي صفّها ماهان ثلاثة صفّاً كل صفّ منها مثل عسكر المسلمين كله، وقد أظهر ماهان بين الصفوف القسوس والرهاة وهم يتلون الإنجيل ويترنمون وأكثر من الرايات والأعلام والصلبان، فلما تكاملت صفوهم وإذا ببطريق عظيم الخلقة قد بُرِزَ وعليه درع مذهب ولاة حرب مليحة وفي عنقه صليب من الذهب مرصع بالجوهر وتحته فرس أشهب، وكان الطريق من عظاماء الروم من يقف عند سرير الملك، فلما بُرِزَ جعل يرطن بكلام الروم بصوت كالرعد فعلم المسلمون أنه يطلب البراز، فتوقف المسلمون عن الخروج إليه فصالح خالد، وقال: يا أصحاب رسول الله هذا العلج الأغلف يدعوكم لقتاله وأنتم تتأخرون، فإن لم تخروا إليه وإلا خرج خالد، وهم بالخروج وإذا بفارس قد خرج من المسلمين على برذون أشهب عظيم الخلقة يشبه برذون المشرك وعلى المسلم لامة حسنة وعدة سابعة نحو الطريق فلم يكن في رجال خالد من يعرف الفارس الذي خرج، فقال خالد لهم مولاهم: اخرج إلى هذا الفارس وانظر من هو من المسلمين ومن أي

العرب هو ومن قومه؟ فمضى همام يهتف به وقد هم أن يقرب من الطريق فصاح به: من أنت يا ذا الرجل من المسلمين رحmk الله، فقال: أنا روماس صاحب بصرى فلما أخبر خالد به. قال: اللهم بارك فيه وزد في نيته، فلما صار بإزاء العلاج كلمه بلسانه، فقال الرومي وقد عرفه: يا روماس كيف تركت دينك وصبات إلى هؤلاء القوم، فقال روماس: هذا الدين الذي دخلت فيه دين جليل شريف، فمن تبعه كان سعيداً ومن خالقه فقد ضلّ.

ثم حمل روماس على العلاج وحمل العلاج على روماس وتقاتلا ساعة حتى عجب الجمuan منهما، فوجd العلاج من روماس غفلة فضربه ضربة أسد دمه. قال: فأحس روماس بالضررية، وقد وصلت إليه فانشى راجعا نحو المسلمين فأتبّعه العلاج طالبا له لا يقصر عن طلبه، وكاد أن يدركه فصاح به فرسان المسلمين من الميسرة والميسنة فقوى قلب روماس ودخل العلاج الجزء والخوف من صياغهم والهلع وقصر عن طلبه، ودخل روماس عسكر المسلمين والدم على وجهه فائز فأخذه جماعة من المسلمين فشدوا جراحه وشكروه على فعله ووعدوه بالغفران من الله تعالى وهنثوه بالسلامة. قال ولما رجع روماس منهـماً أتعـب العلاج بنفسه وأظهر عناده وأغلظ في كلامه وطلب البراز فهمـ أن يخرج إليه ميسرة بن مسروق العبيسي، فقال له خالد: يا ميسرة إن وقوفك في مكانك أحبـ إليـ من خروـجك إـلىـ هـذاـ العـلاـجـ وأـنتـ شـيخـ كـبـيرـ وـهـذـاـ عـلـجـ عـظـيمـ الـخـلـقـ،ـ وـالـشـابـ شـجـاعـ وـلـأـحـبـ أـنـ تـخـرـجـ إـلـيـهـ،ـ فـإـنـهـ لـاـ يـكـادـ الشـيـخـ الـكـبـيرـ يـقاـوـمـ الشـابـ الـحـدـثـ،ـ وـلـاـ سـيـمـاـ أـنـ شـعـرـةـ مـنـ مـسـلـمـ أـحـبـ إـلـيـ اللهـ تـعـالـىـ مـنـ جـمـيعـ أـهـلـ الشـرـكـ فـرـجـعـ مـيـسـرـةـ إـلـىـ مـكـانـهـ وـهـمـ أـنـ يـخـرـجـ إـلـيـ عـامـرـ بـنـ الطـفـيلـ،ـ وـقـالـ:ـ أـيـهـاـ الـأـمـيـرـ إـنـكـ قـدـ عـظـمـتـ قـدـرـ هـذـاـ الرـوـمـيـ الـذـمـيمـ وـأـدـخـلـتـ فـيـ قـلـوبـ الـمـسـلـمـيـنـ مـنـهـ الرـعـبـ فـقـالـ خـالـدـ:ـ إـنـ الـفـرـسـانـ تـعـرـفـ أـكـفـاءـهـ فـيـ الـحـرـبـ وـمـاـ يـخـفـيـ عـلـيـ مـاـ هـوـ فـيـ الـشـجـاعـةـ وـالـشـدـةـ وـأـنـتـ لـاـ تـقاـوـمـ لـأـنـهـ مـاـ بـرـزـ بـيـنـ أـصـحـابـهـ وـبـيـنـ شـجـاعـتـهـ إـلـاـ وـهـوـ فـارـسـ فـقـفـفـ فـيـ مـكـانـكـ فـوـقـ عـامـرـ بـنـ الطـفـيلـ فـيـ مـكـانـهـ وـلـمـ يـخـالـفـ،ـ قـالـ وـالـعـلـجـ يـدـعـوـ إـلـىـ الـبـرـازـ وـالـحـرـبـ فـأـقـبـلـ إـلـىـ خـالـدـ الـحـارـثـ بـنـ عـبـدـ اللهـ الـأـرـدـيـ،ـ فـلـمـ وـقـفـ بـيـنـ يـدـيهـ قـالـ:ـ أـيـهـاـ الـأـمـيـرـ إـنـكـ قـدـ عـظـمـتـ قـدـرـ هـذـاـ لـعـمـريـ إـنـ لـكـ جـسـارـةـ وـقـوـةـ وـشـدـةـ وـمـاـ عـلـمـتـكـ إـلـاـ شـهـمـاـ،ـ فـإـنـ شـتـ أـنـ تـخـرـجـ فـاـخـرـجـ عـلـىـ اـسـمـ اللهـ وـاعـزـمـ فـأـخـذـ الـأـزـدـيـ أـهـبـتـهـ وـهـمـ أـنـ يـخـرـجـ.ـ فـقـالـ خـالـدـ رـضـيـ اللهـ عـنـهـ:ـ عـلـىـ رـسـلـكـ يـاـ عـبـدـ اللهـ حـتـىـ أـسـالـكـ،ـ فـقـالـ:ـ أـسـأـلـ قـالـ خـالـدـ:ـ هـلـ بـارـزـتـ أـحـدـاـ قـبـلـهـ؟ـ قـالـ:ـ لـاـ قـالـ:ـ فـارـجـ يـاـ اـبـنـ أـخـيـ وـلـاـ تـخـرـجـ فـإـنـكـ غـيـرـ مـعـجـرـبـ الـحـرـوـبـ وـهـذـاـ فـارـسـ قـدـ جـرـبـ الـحـرـبـ وـجـرـبـتـهـ وـعـرـفـ مـصـادـرـهـ،ـ وـمـاـ أـحـبـ أـنـ يـخـرـجـ إـلـيـهـ إـلـاـ رـجـلـ مـثـلـهـ بـصـيرـ بـالـحـرـوـبـ وـجـعـلـ خـالـدـ يـقـولـ ذـلـكـ وـيـنـظـرـ إـلـىـ قـيـسـ بـنـ هـبـيرـةـ...ـ فـقـالـ:ـ يـاـ أـبـاـ سـلـيـمانـ إـنـيـ أـظـنـكـ تـعـرـضـ بـيـ وـإـتـايـ تـعـنـيـ أـنـاـ أـبـرـزـ إـلـيـهـ..ـ

قال خالد: ابرز على اسم الله تعالى فإنه كفاء والله تعالى يعينك عليه وخرج قيس بن هبيرة وأجرى جواده حتى لين عريكته وكسر حدته ثم سرحة نحو الطريق وهو يقول: بسم الله وعلى بركة رسول الله ﷺ وقرب من الطريق فلما نظر العلوج إلى فعاله علم أنه فارس شديد من فرسان المسلمين فعدل نحوه وقصد إليه وتحاملا قال فبادره قيس بن هبيرة وضربه على هامته فتلقاها العلوج في حجفته فقد سيف ابن هبيرة الحجفة ووصل إلى البيضة فاشتبك فيها وهم أن يخرج سيفه فامتنع عليه وضرب العلوج قيس بن هبيرة على حبل عاتقه ثبت للضربة والتقيا بعد الضربتين فطرح العلوج نفسه عليه يريد أسره وهو جبار من الجبارية، وكان قيس بعد رجوعه من قتال أهل الردة قد عوّد نفسه الصيام والقيام وهو نحيف الجسم، فلما نظر قيس إلى العلوج وقد ظهر عليه الجذب من يده وبعد عنه وجعل ينظر إليه شرزاً ويضممه له مكرًا إلى أن سيفه قد خرج من يده فثنى عنان فرسه يريد عسكر المسلمين ليأخذ سيفاً ويعود إلى القتال وقد أليس من نفسه، فلما عطف راجعاً صاح العلوج في أثره وسعى في طلبه فقصر قيس بن هبيرة في سيره وقال في نفسه أنت مرادك الشهادة وتهرب من هذا العلوج فرجع إلى العلوج فصاح به خالد: يا قيس سألك بالله ورسوله إلا رجعت إليك أتزيد في أجلي؟ قال: لا، قال: فلم اختار الفرار وأكون من أصحاب النار، بل أصبر وأنفوز بالغفران من الله تعالى ثم إنه عطف على قرنه وليس في يده سيف بل استل خنجرًا كان معه على وسطه، قال: ونظر خالد إلى قيس بن هبيرة وليس في يده سيف. فقال: من يأخذ هذا السيف ويدفعه إلى قيس ابتغاء ثواب الله تعالى؟ قال عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: أنا يا أبا سليمان.

فقال خالد: أنت والله لها يا ابن الصديق، ثم أخذ عبد الرحمن سيفه ولحق قيس بن هبيرة يريد أن يناوله السيف، فلما نظرت الروم إلى عبد الرحمن وقد لحق بقيس ظنوا أنه يريد أن يعاون قيسًا على أصحابهم فخرج عليه بطريق آخر وأقبل إلى صاحبه ووقف بإزاره، قال: فدفع عبد الرحمن السيف إلى ابن هبيرة ووقف معه وجعل الطريق الآخر يتكلم بكلام لا يفهمه عبد الرحمن. فقال عبد الرحمن: يا وليك ما الذي تقول فيما نعرف كلامك، فخرج إليه ترجمان وقال له: يا معاشر العرب ألستم ذكرتم أنكم أصحاب نصفة وحق؟ قال عبد الرحمن: بل وقام الترجمان: فما رأينا من نصفتكم شيئاً يخرج فارسان إلى فارس. قال عبد الرحمن: إنما خرجت لأعطي صاحبي هذا السيف وأرجع ولو خرج إلينا منكم مائة لواحد ما كبر علينا ولا عظم لدينا وها أنتم ثلاثة وأنا واحد وأنا لكم كفاء، قال: فأخبر الترجمان صاحبه بذلك فجعل ينظر إليه شرزاً، فقال عبد الرحمن: يا قيس قد تعبت فقف وتفرج علي وانظر ما يكون مني ومنهم ثم حمل عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه على الذي كان يخاطبه فطعنه في نحره

فأخرج السنان يلمع من ظهره فوقع مجندلاً ونظر العلجان إلى صاحبها مجندلاً فحملها على عبد الرحمن وقصداه فأراد قيس بن هبيرة أن يعاونه عليهما. فقال له عبد الرحمن: سألتك برسول الله ﷺ وبحق أبي بكر إلا تركت عبد الرحمن يصطلي بهما فإن قتلت فأنت شريك في الشواب وأقرئه عائشة مني السلام وقل لها أخوك قد لحق ببعلك وأبيك، فتأخر قيس عنه وقد عجب من فعاله فحمل عبد الرحمن على أحد العلجين وهو الأول فطعنه برمحه فاشتبك السنان في درعه فرمى عبد الرحمن الرمح من يده وانتقض سيفه وقام في الركاب وضرب العلج بسيفه ضربة طرحة بها نصفين ونظر العلج الثالث إلى عبد الرحمن وجراءته فبقي حاثراً متوججاً من حاله ونظر إلى الطريق وهو متغير باهت فبانت له فيه غفلة. فقال: ما يوقفك يا قيس وحمل على الطريق وضربه ضربة هشم بها هامته فسقط إلى الأرض صريعاً، فلما نظرت الروم إلى أصحابهم قال بعضهم لبعض: ما هؤلاء العرب إلا شياطين.

قال الواقدي: وأخبر ماهان بفعالهم. فقال لقومه: إن الملك كان أخبر بهؤلاء القوم وحق المسيح لقد أعلم أن لكم أمراً فإن لم تحملوا عليهم بكثوركم وإلا فما تقوم لكم قائمة، قال: فأناه بطريق من البطارقة وسارر ماهان في أذنه طويلاً ثم انزاح عنه، وقد أصفر وجه ماهان وسكت كأنه أخرس فاستخبروا ماهان عما حدثه الطريق فلم يخبرهم قال فحدث من رأى ذلك أنه سأله جبلة بن الأبيه. فقال: لما أخبر ماهان بخبر الثلاثة وفيهم الطريق الأول قال ماهان: إنهم منصورون عليكم. فقال له الطريق في أذنه: أيها الملك الحق ما قلت أعلم أني رأيت البارحة في منامي كأن رجالاً نزلوا من السماء إلى الأرض لهم على دواب بلق وشهب وعليهم كامل السلاح وأحدقوا بهؤلاء العرب ونحن قيام يازائهم لا يخرج أحد من عسكرنا إلا قتلوا حتى أتوا على أكثرنا وأظن أنهم هؤلاء الذين نراهم في اليقظة لأن واحداً منهم قتل ثلاثة منا وما هم إلا منصورون علينا من السماء قال: فكسر بهذا قلب ماهان فلم يرد جواباً فاجتمع القوم يسألونه عما قاله الطريق فلم يخبرهم، فلما أكثروا عليه السؤال تكلم فيهم كالخطيب، وقال: يا أهل هذا الدين إنكم إن لم تقاتلوا كتم من الخاسرين وغضب عليكم المسيح وإن الله عزّ وجلّ لم ينزل لدینکم ناصراً ومظهراً وإن الله الحجة عليکم إذ بعث فيکم رسولاً وأنزل عليه كتاباً ولم يتبع رسولکم الدنيا وأمرکم أن لا تتبعوها وفي كتابه لا يحب الظلم ولا الظالمين، فلما اتبعتم الدنيا وظلمتم وخالفتم نصر أعداؤکم عليکم فما عذرکم عند خالقکم وقد تركتم أمر نبیکم وما أنزل عليکم في كتاب ربکم، وهؤلاء العرب يازائهم يریدون قتل فرسانکم وسيسي ذرازیکم ونسائکم وأنتم على المعاصي والذنوب ولا تخافون من علام الغیوب فإن نزع الله سلطانکم من أيديکم وأظهر عدوکم عليکم فذلك بحق منه وعدل لأنکم لا تأمرتون بالمعروف ولا تنهتون عن المنکر.

قال الواقدي: وكان ماهان لما سمع كلام البطريق الذي رأه في المنام أمره أن يكتمه، وأما قيس بن هبيرة وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق فأخذوا سلاهم وأسلامهم ورجعوا إلى المسلمين فدفعوا السلب إلى أبي عبيدة فقال هو لكم، ومن قتل فارساً فله سلبه فكذا عهد إلينا عمر بن الخطاب فأخذوا السلب ووقف قيس في موضعه الذي أقامه خالد فيه ورجع عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق إلى ميدان الحرب فجال بين الصفين، وكان قد ركب أشهب البطريق الذي قتله فرأه لا ينبعث تحته كما عهد من خيل العرب فرجع وغيره من تحته بفرس غيره وحمل على ميمنة الروم فشوش صفوفهم وقتل منهم فارسيين ورجع فحمل على القلب ثم اثنى على الميسرة فرشق بالسهام فخرج إليه علج من علو الروم فما جال غير ساعة حتى قتله فخرج إليه آخر فقتله. فقال خالد: اللهم ارعه بعينك واحفظه فإن عبد الرحمن قد اصطلى اليوم الحرب بنفسه، ثم إن خالدًا صاح به: يا عبد الرحمن بحق شيبة أبيك وبيته إلا رجعت إلى مكانك فرجع حين أقسم عليه قال حزام بن غنم: قلت لرجل من شهد اليرموك: أكان النساء معكم مشاهدات القتال؟ قال: نعم إحداهن أسماء بنت أبي بكر زوجة الزبير بن العوام وخولة بنت الأزور ونسية بنت كعب وأم أبان زوجة عكرمة بن أبي جهل وعزة بنت عامر بن عاصم الضمري مع زوجها مسلمة بن عوف الضمري ورملة بنت طليحة الزبيري ورعلة وأمامه وزينب وهند ويعلم ولبني وأمثالهن رضي الله عنهم فلقد كن يقاتلن قتالاً يرضين به الله ورسوله.

نساء المسلمين في المعركة

قال الواقدي: حدثني عبد الملك بن عبد الحميد وكان قد شهد وقعة اليرموك وقال: أولها شرر نار وآخرها ضرام الحرب، وإن كل يوم يأتي من القتال أصعب من اليوم الآخر، قال عمرو بن جرير: فشهادنا في اليوم الأول حرّاً يسيراً وذلك أن ماهان أمر عشرة من الصنوف أن تحمل على المسلمين بعد أن قتل عبد الرحمن من قتل وحمل المسلمين عليهم فالتفت الرجال بالرجال فنظر أبو عبيدة وكان واقفاً إلى ماهان ولم يحمل على المسلمين فعلم أن الأمر يصعب فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وجعل يتلون قوله تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهם فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ [آل عمران: ١٧٣]، قال: ولم يزل الحرب بين الفريقين من قيام الشمس في قبة السماء إلى أن همت بالغروب ولم ينفصل الجمعان حتى فرق الليل بينهم، فحيثئذ افترق الجماعان وهم ما يعرفون إلا بالشعار وخرج كل قوم من العرب يهتفون بشعارهم وينادون بأنسابهم ورجعوا كل فتة إلى مكانها واستقبل المسلمين نساؤهم فصارت تجعل المرأة مرطها تمسح به عن وجه زوجها وتقول له: أبشر بالجنة يا ولی الله وبات المسلمين في خير وسرور وأوقدوا النيران وذلك أن القتل في أول يوم لم

يتبيّن في الفريقين، بل قتل من الروم يسير ومن المسلمين عشرة رجالان من حضرموت أحدهما يقال له مازن والثاني يقال له صارم وثلاثة من عسفان رافع ومجلبي وعلى واحد من الأنصار وهو عبد الله بن الأخرم وثلاثة من بجيلة واحد من مراد وهو سعيد ابن أخي قيس بن هبيرة فحزن عليه قيس لما فدحه فعلم أنه في القتلى فخرج قيس وخرج معه رجال من قومه حتى أتوا موضع المعركة وفتشوا عليه فلم يروه فلما هم بالرجوع نظر إلى نار قد أقبلت من جهة الروم يطلبون مكان الواقعة وهم يطلبون بطريقاً كان معظمهم عندهم.

فقال قيس لجماعته: أخمدوا ناركم فوالله لاخذن بثار ابن أخي من هؤلاء القوم، قال: فأخمدوا نارهم ورقدوا بين القتلى وتأهبو للقتال وإذا بالروم قد أتوا وهم نحو مائة وهم في زينة عظيمة وآلة وعدة وكان مع قيس سبعة من قومه فقالوا له: إن القوم مائة ونحن سبعة وقد تولانا التعب. فقال قيس: ارجعوا أنتم وإنى والله أطلب الموت لا أريد غيره وأجاده في الله حق جهاده فعجبوا من قوله ووقفوا معه وقفه الكرام وأقبلت الأعلام يريدون المعركة ويدورون بين القتلى وقد وقفوا بالعلج وهو الذي برب أولًا وقتل ابن أبي بكر الصديق، فلما احتملوه وولوا يريدون عسكرهم صالح فيهم قيس من ورائهم وتابعه أصحابه بالصياغ فذهبوا ورموا بالطريق ووضع المسلمين السيف فيهم وجعلوا يقتلونهم قتلاً ذريعاً وكان قيس إذا ضرب فيهم يقول: هذا عن ابن أخي قال: فقتل منهم ستة عشر رجلاً وقتل أصحابه أكثر القوم وانفلت الباقون، فلما فرغ قيس من القوم عاد يطلب ابن أخيه نحو عسكر الروم فسمع أنيا فأقبل نحوه، فإذا هو ابن أخيه سعيد بن بهرام المرادي، فلما عرفه بكى، فقال: ما أبكاك يا ابن أخي؟ فقال: يا عماء إني تبع القوم فرجع إلى واحد منهم وطعنني في صدره وإنى لأعالج منها أمراً عظيمًا، وهؤلاء الحور العين في حذائي ينتظرون خروج روحي، قال: فبكى قيس وقال: يا ابن أخي لكل أجل كتاب ولعل أن يكون في أجلك طول فقال: هيئات والله يا عم أفتقدر أن تحملني إلى عسكر المسلمين فأموت هناك قال أجل، قال: ثم احتملته على ظهره وأقبلت به إلى عسكر المسلمين وقصدت به إلى رحله وسجنته وسمع أبو عبيدة بمجيء قيس فأتى إليه ورأى الغلام يوجد بنفسه فجلس عند رأسه وبكي وبكت المسلمين فقال له أبو عبيدة: كيف تجدى يا ابن أخي؟ فقال: بخير والله وغفران وجزي الله محمداً عنا خيراً ولقد صدقنا في قوله وهذه الحور تنادي وتشخص فمات، قال: مما برحنا حتى وارينا بالتراب قال: وخبره قيس بمن قتل في تلك الليلة من المشركين ففرح فرحاً شديداً وعلم أن ذلك علام النصر قال: وبات الناس في ليالتهم يقرأون القرآن ويصلّون ويسألون المعونة والنصر.

قال: وأما ماهان فإنه لما رجع إلى عسكره اجتمع إليه البطارقة والرهبان والقسوس فقدموا له طعاماً ودموا له سماطاً فلم يأكل منه شيئاً مما وقع في نفسه من الرؤيا التي رأها

البطريق وكان ماهان يود لو ترك الأمر وصالح على أداء الجزية ولكنه كان مغلوبًا على أمره وأقبلت الملوك والقوسos البطارقة والرهبان على ماهان وقالوا: ما بال الملك امتنع من الطعام؟ فإن كان ذلك من غمته على من مات وعلى ما جرى عليه من الحرب فإن الحرب سجال في يوم لك ويوم عليك، واعلم أيها الملك أن القوم بنا ظافرون وما نملكون إلا أن نحمل عليهم فلا يبقى منهم أحد، قال ماهان: ما أظنكم غير منصوريين إلا من تغير أديانكم والجور في سلطانكم فبهذا نصرت العرب عليكم، فقام إليه رجل وقال: أيها الملك عشت الدهر وأنا رجل من أهل دينكم وكان لي مائة رأس من الغنم وكان فيها ولدي برعاها فضرب عظيم من عظامه أصحابك الفسطاط إلى جانبها ثم إنه عدا عليها فأخذ منها حاجته وأخذ بقيتها أصحابه فجأته زوجتي تشكو إليه انتهاب غنمى، فلما رأها أمر بها فأدخلت إليه فطال مكثها عنده فلما رأى ولدها ذلك دنا من الفسطاط فإذا هو يجامع أمه فصاح الغلام فأمر بطريق بقتل الغلام فقتل فأتت أريد خلاص ولدي وزوجتي فأمر بي فضررت بالسيف فتلقيت الضربة بيدي فقطعتها، ثم إنه أخرج يده فإذا هي مقطوعة، قال: فغضب ماهان عند ذلك غضباً شديداً وقال للمعاهد: أتعرف هذا الطريق الذي فعل بك ذلك؟ قال: نعم هو هذا وأوّلما بيده إلى طريق من البطارقة فنظر إليه ماهان مغضباً قال: فغضب بطريق وغضب البطارقة لغضبه ومالوا على المعاهد فضربوه بأسيافهم حتى قطعوه وماهان ينظر إليهم فزاد غضبه وقال: خذلتكم وهلكتم وحق المسيح يا ولكلم ترجون النصر وأنتم تفعلون هذه الفعال أما تخافون القصاص غداً وأن الله يتقم منكم وينزع منكم صالح ما أعطاكم ويعطيه غيركم من يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، فوالله أنتم الآن عندي كالكلاب وسوف ترون عاقبة هذا كله وإلى أي مصير مصيركم يكون، قال ثم إنه قام وتركهم، فلما انصرف القوم ولم يبق عنده إلا بطريق واحد قال له: أيها الملك والله إن القوم لكم تقول وما أظن إلا أننا مغلوبون، واعلم أنني رأيت في منامي كأن رجالاً نزلوا من السماء على خيل شهب فأحدقوا بهؤلاء العرب وعليهم كامل السلاح ونحن وقوف يازائهم فنظرت إليهم ولا يخرج منها أحد إلا قتلوه حتى أتوا على أكثرنا وذكر له كما قال ذلك الأول فأقبل ماهان يفكر طول ليلته فيما يصنع في أمر المسلمين، فلما أصبح الصباح عبي المسلمين صفوهم ونظروا إلى عسكر الروم وإذا فيه ارتعاد وانزعاج فلعلوا أن لهم أمراً.

قال أبو عبيدة: دعوهم ولا تبقوا عليهم فإن الباغي مخدول، قال واجتمعوا البطارقة والملوك الأربع إلا ماهان، وهم فاطير وجرجير والديرجان وقورين وهم أصحاب الجيش يستأذنونه في الحرب فقال ماهان: وكيف لي أن أقاتل بقوم يظلمون إن كتم أحرازاً فقاتلوا عن سلطانكم وامنعوا عن حرميكم، فقالوا: الآن أحينا الحرب فوحق المسيح لا نفارقهم حتى ننفيهم من الشام إلى بلادهم أو يقتلونا أو نقتلهم فشق بقولنا

وانهض بنا إليهم، فإذا عزمت على القتال فدع كل واحد منا يقاتل يوماً حتى تعرف منا من هو أفرس وأشد ويضجر المسلمين من المطاولة ونجمع عيالنا وأطفالنا وأموالنا، فإن كانت على العرب رددنا كل شيء إلى مكانه، وإن كانت للعرب علينا الحقوا ببلادهم وقومهم ويكون الأمر بيننا وبينهم في يوم واحد أو يومين، فقال له ماهان لعنه الله: هذا هو الرأي أمهلوا إلى أن أكتب إلى الملك بمثل ذلك ثم إنه كتب إلى هرقل: أما بعد فسأل الله لك أيها الملك ولجيشك النصر والأهل سلطانك العز والنصر وإنك بعشني فيما لا يحصى من العدد وإنني قدمت على هؤلاء العرب فنزلت بساحتهم وأطمعتهم فلم يطمعوا وسألتهم الصلح فلم يقبلوا وجعلت لهم جعلاً على أن ينصرفوا فلم يفعلوا وقد فزع جند الملك منهم فرعاً شديداً وإنني خشيت أن يكون الفشل قد عمهم والرعب قد دخل في قلوبهم وذلك لكثرة الظلم فيهم وقد جمعت ذوي الرأي من أصحابي وذوي النصيحة للملك وقد أجمع رأينا على النهوض إليهم جميعاً في يوم واحد ولا نزايلهم حتى يحكم الله بيننا فإن أظهر الله عدونا علينا فارض بقضاء الله، وأعلم أن الدنيا زائلة عنك فلا تأسف على ما فات منها ولا تغrieve منها بشيء في يدك والحق بمعاملتك ويدارملك بالقسطنطينية وأحسن إلى رعيتك يحسن الله إليك وارحم ترحم وتواضع الله يرفعك الله فإنه لا يحب المتكبرين ولقد علمت حيلة في إحضار أميرهم خالد ومنيته ورغبته مما أجاب ورأيته على الحق مقيماً فأردت أن أفتكم به وأمكر فحافت عاقبة المكر والغدر وما نصر هؤلاء إلا بالعدل واتباع الحق بينهم والسلام، ثم طوى الكتاب وبعث به مع أصحابه من العلوخ.

قال الواقدي: وبقي ماهان سبعة أيام آخر بعد الواقعة الأولى لم يقاتل المسلمين ولم يقاتلوا، وبعث أبو عبيدة برجل من عيونه ينظر ما الذي أخر الروم عن القتال فغاب الرجل يوماً وليلة ثم عاد وأخبر أبو عبيدة أن ماهان قد كاتب الملك وهو متضرر الجواب فقال خالد بن الوليد: ما تأخر ماهان عن قاتلنا إلا وقد وقع الفزع في قلبه فازحف بنا إليهم. فقال أبو عبيدة رضي الله عنه: لا تتعجل فإن العجلة من الشيطان.

قال الواقدي: وكان أبو عبيدة رجلاً لين العريكة يحب الرفق، فلما كان في اليوم الثامن نظر ماهان إلى تلهف أصحابه على الحرب والقتال فعزم أن يلقى بهم المسلمين وقد فرح بنشاطهم فدعا برجل من المنتصرة من لخم وقال له: اذهب فادخل هؤلاء العرب وتجسس لي أخبارهم وانظر ما عندهم، قال: فمضى اللخمي حتى دخل عسكر أصحاب رسول الله ﷺ فأقام فيهم يوماً وليلة يطوف في عسكرهم وليس أحد من المسلمين ينكره وهم آمنون وليس لهم همة إلا إصلاح شأنهم والصلة والقرآن والتسبيح، وليس فيهم عدوان ولا ظلم ولا أحد يتعدى على أحد، وقصد الموضوع الذي فيه أبو عبيدة رضي الله

عنه فنظر إليه كأنه أضعف ضعيف في العرب ساعة يجلس على الأرض وساعة ينام عليها، فإذا كان وقت الصلاة قام وأسبغ الوضوء وأذن المؤذنون وصلى الناس ونظر المنتصر إلى المسلمين وهم يصنعون كصنعه. فقال المنتصر: إن هذه طاعة حسنة ويوشك أنهم ينصرون، قال فرجع إلى ماهان وحده بما رأى من القوم وما عاينه، وقال: أيها الملك إني جئتكم من قوم يصومون النهار ويقومون الليل ويأمرن بالمعروف وينهون عن المنكر، رهبان في الليل ليوث بالنهار ولو سرق واحد منهم ولو كان كبيرهم قطعوه، ولو زنى رجموه لا يغلب هواهم على الحق، بل الحق عندهم غالب، وأميرهم كأضعف من فيهم إلا أنه مطاع عندهم، إن قام قاموا وإن قعد قعدوا، مناهم القتال، وشهوتهم التزال ومرادهم أن يموتون شهداء في قتالكم وما تأخروا عن قتالكم إلا ليكون البغي منكم إذا بذلتكم. فقال ماهان: هؤلاء القوم منصورون غير أنني قد وجدت حيلة أعملها عليهم. فقال المنتصر: ما الحيلة أيها الملك؟

قال ماهان: ألسنت زعمت أنهم لا يبدلون بالقتال حتى نقاتلهم فنكرون نحن الباغين؟ قال: نعم. قال: فإننا لا نطلب الحرب بل نطول بيننا وبينهم وندهمهم على حين غفلة دون عدة منهم ولا أخذ حذرهم فعسى أن نظرر بهم. قال: ثم إن ماهان جمع الملوك وجعل يعقد لهم الرايات والصلبان حتى عقد ستين ومائة صليب تحت كل صليب عشرة آلاف، وكان أول صليب عقد لقناطير وكان نظيره في الرتبة وأمره أن يكون في الميمنة. ثم عقد صليبياً للديرجان وضم إليه الأرمن والنجد والنوبة والروسية والصقالبة. ثم عقد لابن أخت الملك صليبياً على الإفرنج والهرقلية والقياصرة واليرفل والدوقس، وعقد لجبلة بن الأبيهم عقداً وضم إليه المنتصرة من لخم وجذام وغسان وضبة وأمره أن يكون على المقدمة، وقال: أنتم عرب وأعداؤنا عرب والعديد لا يقطعه إلا الحديد، ثم فرق الأعلام في أجناد عسكره. فما انفجر الفجر وبيان الصباح وأضاء بنوره ولاح حتى فرغ من تعبيه جيوشه وترتيب طلائعه وأمر بمضرب له فضرب على كثيب عال على جانب اليرموك يشرف منه على العسكريين، وأوقف عن يمينه ألف فارس عتاة حماة الروم شاكين السلاح وعن يساره كذلك وهم الملكية وأصحاب السرير وأمرهم باليقظة. وقال: أي كرب يكون على العرب أعظم من هذه فإنكم على تعبيه وهم على غير أهبة، فإذا طلعت الشمس ورأيتم المسلمين على غير تعبيه، فاحملوا عليهم من كل جانب ومكان، فما هم في عسكرينا إلا كالشامة البيضاء في جلد الثور الأسود. هكذا سمعت إياك بن غالب الحميري يذكر وكان من المعمرين. قال: حدثني جواد بن أسيد السكاسكي عن أبيه أسد بن علقة، فلما انشق الفجر أذن المؤذن وتقدم أبو عبيدة وصلى الناس وهو لا يعلم بمكيدة ماهان فقرأ في أول ركعة «الفجر وليل عشرين» [الفجر: ١، ٢] حتى قرأ «إن ربك لبالمرصاد» [الفجر: ١٤] إذ هتف بهم هاتف وهم في الصلاة وهو يقول:

ظفرتم بالقوم ورب العزة وما يغنى عنهم كيدهم شيئاً وما أجرى الله هذه الآية على لسان أميركم إلا بشارة لكم. فلما سمع المسلمون كلام الهاتف عجبوا مما سمعوا، ثم قرأ في الركعة الثانية **﴿والشمس وضحاها﴾** [الشمس: ١]، إلى قوله: **﴿فَدَمْدَمْ عَلَيْهِمْ رِبِّهِمْ بِذَنْبِهِمْ فَسُوَاهَا وَلَا يَخَافُ عَقْبَاهَا﴾** [الشمس: ١٤] وإذا بالهاتف يقول: تم الفأّل وصح الرجز وهذه علامة النصر. فلما فرغ أبو عبيدة من صلاته. قال: يا معاشر المسلمين، هل سمعتم الهاتف؟ قالوا: نعم، سمعنا قاتلاً يقول كذا وكذا، فقال أبو عبيدة: والله هذا هاتف النصر ويبلغ الأمل فأبشروا بنصر الله وموعناته فواهه لينصرنكم الله وليرسلن عليهم سوط عذاب كما أنزل على القرون الأولى، ثم قال أبو عبيدة: معاشر القوم إني رأيت الليلة في منامي رؤيا تدل على النصر على الأعداء والمعونة من الملاّ الأعلى، فقالوا: أصلح الله شأن الأمير فما الذي رأيت؟

قال: رأيت كأني واقف بيازء أعدائنا من الروم إذ حف بنا رجال وعليهم ثياب بيض لم أر كهيئتها حستاً، لبياضها إشراق ونور يغشى الأ بصار وعلى رؤوسهم عمامات خضر وبأيديهم ريات صفر وهم على خيول شهب، فلما اجتمعوا حولي قالوا: تقدموا على عدوكم ولا تهابوه فإنكم غالبون، فإن الله ناصركم، ثم دعوا برجال منكم وسقوهم بكأس كان معهم فيه شراب، وكأني أنظر عسكراً وقد دخل في عسكر الروم فلما رأينا ولوا بين أيدينا منهزمين، فقال رجل من المسلمين: أصلحك الله أيها الأمير وأنا رأيت الليلة رؤيا، فقال أبو عبيدة: خيراً تكون إن شاء الله تعالى ما الذي رأيت يرحمك الله؟ فقال: رأيت كأنا خرجنا نحو عدونا فصافناهم للحرب، وقد انقضت عليهم من السماء طيور بيض لها أجنحة خضر ومخاليب كمخاليب النسور، فجعلت تنقض عليهم كانقضاض العقبان، فإذا جاءت للرجل ضربته ضربة فيقع قطعاً. قال: ففرح المسلمين بتلك الرؤيا وقال بعضهم لبعض: أبشروا فقد أمنكم الله وأيدكم بالنصر وأمدكم بملائكته تقاتل معكم كما فعل بكم يوم بدر. قال: فسر أبو عبيدة بذلك، وقال: هذه رؤيا حسنة، وهي حق وتأويلها النصر وإنني أرجو من الله تعالى النصر وعاقبة المتقين، فقال رجل من المسلمين: أيها الأمير ما وقوتنا عن هؤلاء الكلاب الألاعاج وما انتظارك للحرب وعدو الله يريد كيدهنا بمطاولته وما تأخر عنا إلا لليلة يريد أن يوقعنا بها. قال أبو عبيدة: إن الأمر أقرب مما تظنون. قال سعيد بن رفاعة الحميري: فبینما نحن كذلك إذ سمعنا الأصوات قد علت والزعقات قد ارتفعت من كل جانب يهتفون بالقتال وأن الروم قد زحفت إلينا فظن أبو عبيدة أن المسلمين قد كبسوا في وجه السحر فقام ليري وكان على حرس المسلمين تلك الليلة سعيد بن زيد وعمرو بن نفيل العدو رضي الله عنهما، إذ أقبل سعيد وهو ينادي: النفير النفير حتى وقف أمام أبي عبيدة ومعه رجل من المتنفسة، فقال: أيها الأمير ماهان كاد المسلمين بتخلقه عن الحرب، وهو هو قد عبى عساكره وصف جيوشه وزحف علينا زحف من يريد الكبسة بنا، ونحن على غير أهبة ولا عدة، وهذا الرجل قد

أقبل إلينا راغبًا في الإسلام محذًرا لنا من بأسه ويزعم أن ماهان قد قدم إلينا حماة البطارقة، وقد اتفق رأيهم على أن يقاتلنا كل ملك من ملوكهم بمن معه وهذا أصعب القتال. ونظر المسلمون إلى رايات الروم تقرب منهم والصلبان تدنو. فقال أبو عبيدة: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ثم قال: أين أبو سليمان خالد بن الوليد؟ فأجابه بالتلبية، فقال له: أنت لي يا أبو سليمان فابرز في أبطال المسلمين وصد عن الحريم إلى أن تأخذ الرجال صفوتها وتستعد بالآلات حربها، فقال: حبًّا وكراهة...

فنادى خالد: أين الزبير بن العوام، أين عبد الرحمن بن أبي بكر، أين الفضل بن العباس، أين يزيد بن أبي سفيان، أين ربيعة بن عامر، أين ميسرة بن مسروق العبسي، أين ميسرة بن قيس، أين عبد الله بن أنيس الجهنمي، أين صخر بن حرب الأموي، أين عمارة الدوسى، أين عبد الله بن سلام، أين غانم الغنوى، أين المقداد بن الأسود الكلدى، أين أبو ذر الغفارى، أين عمرو بن معد يكرب الزبيدي، أين عمار بن ياسر العبسي، أين ضرار بن الأزور، أين عامر بن الطفيلي، أين أبان بن عثمان بن عفان، وجعل خالد يدعوهם رجالاً بعد رجل من أصحاب رسول الله ﷺ وكل رجل منهم يلقى جيشاً فاجتمعوا إلى خالد بأجمعهم واشتغلوا بالحرب واشتغل أبو عبيدة بترتيب الصفوف وتعبيدة العساكر فأقبل أبو سفيان إلى أبي عبيدة، وقال له: أيها الأمير من نساعنا أن يعلون على هذا التل. قال: نعم الرأى ما رأيت فأمرهن بذلك ففعلن وعلون على التل وحصل أنفسهن وأولادهن ومعهن الأطفال والأولاد، فقال لهن أبو عبيدة: خذن بأيديكن أعمدة البيوت والخيام واجعلن الحجارة بين أيديكن وحرّضن المؤمنين على القتال، فإن كان الأمر لنا والظفر فكن على ما أنتن عليه وإن رأيتن أحداً من المسلمين منهزمًا فاضربن وجهه بأعذتكن واحصبن بحجارتكم وارفعن إليه أولادكن وقلن له: قاتل عن أهلك وعن دين الإسلام، فقال النساء: أيها الأمير أبشر بما يسرك.

قال الواقدي: فلما حصن أبو عبيدة النساء على التل أقبل يعيي جيشه وقد ابتدر الناس القتال بعدما عباهم ميمونة وميسرة وقلباً وجناحين وقدم أصحاب الرايات وكانت راية المهاجرين صفراء وفيها أبيض وأخضر وأسود وسائر القبائل أيضاً راياتهم مختلفة، وجعل المهاجرين والأنصار في القلب وأظهر المسلمين العدة والسلاح وجعل عسركه ثلاثة صفوف فصف فيه النبلة من أهل اليمن، وصف فيه أصحاب الخيل والعدة وقسم الخيالة ثلاثة فرق فجعلوها في الثلاثة صفوف، واستعمل عليهم ثلاثة من المسلمين، أحدهم غياث بن حرملة العامری: والثاني مسلمة بن سيف اليربوعي، والثالث القعقاع بن عمرو التميمي ووقف المسلمون تحت راياتهم ووقف أبو عبيدة تحت رايتها التي عقدها له أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم مسيره إلى الشام، وهي راية رسول الله ﷺ الصفراء التي سار بها يوم خيبر، قال: ومع خالد راية العقاب وكانت سوداء وجعل على الرجال شرحبيل بن

حسنة وعلى الجناح الأيمن يزيد بن أبي سفيان وعلى الأيسر قيس بن هبيرة، فلما تربت الصنوف سار أبو عبيدة بين الصنوف وجعل يحرّض المؤمنين على القتال ويقول «إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم» [محمد: ٧] والزموا الصبر فإن الصبر منجاة من الكرب ومرضاة للرب، ومقدمة للعدو فلا تزايلاً صنوفكم ولا تنقضوا نيتكم ولا تخطروا خطورة إلا وأنتم تذكرون الله ولا تبدأوهم بالقتال حتى يبدأوكم وشرعوا الرماح واستترعوا بالدرب والزموا الصمت إلا من ذكر الله ولا تحدثوا حدثاً حتى أمركم، ثم رجع إلى مقامه من القلب فوق فيه ثم خرج من بعده معاذ بن جبل فطاف على الناس محراً لهم يقول: يا أهل الدين وبأيْ نصار الهدى والحق اعلموا رحمة الله تعالى أن رحمة الله لا تناول إلا بالعمل والنية ولا تدرك بالمعصية والتمني بغير عمل مرضي، ولا تدخل الجنة إلا بالأعمال الصالحة مع رحمة الله، ولا يؤتي الله الرحمة والمغفرة الواسعة إلا الصابرين والصادقين، ألم تسمعوا قوله جل من قائل: «وعِدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفُنَّمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخَلَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُمْ دِينُهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَمْ يَبْدُلْهُمْ مِنْ بَعْدِ خُوفُهُمْ أَمْنًا يَعْبُدُونِي لَا يَشْرُكُونِي بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» [التور: ٥٥] واستحبوا من الله أن يراكם في فرار من عدوكم وأنتم في قبضته ليس لكم ملجاً من دونه ولم يزل معاذ يقول ذلك إلى أن رجع إلى مقامه، ثم خرج سهل بن عمرو فمشى بين الصنوف وهو شاكي السلاح راكب فرسه متقلد سيفه وهو يقول مثله، ثم رجع وخرج من بعده أبو سفيان فطاف بين الصنوف وهو شاكي السلاح راكب فرسه متقلد سيفه معتقد رمحه وهو يقول: معاشر العرب الكرام السادة العظام قد أصبحتم في ديار الأعلام منقطعين عن الأهل والأوطان، ووالله لا ينجيكم منهم إلا الطعن الصائب في أعينهم والضرب المتدارك في هماتهم، وبذلك تبلغون أربكم وتتلون الفوز من ربكم. واعلموا أن الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله به الهم وينجي به من الغم فاصدقوا القتال فإن النصر ينزل مع الصبر فإن صبرتم ملكتكم بلادهم وأمصارهم واستعبدتم أبناءهم ونسائهم، وإن وليت فليس بين أيديكم إلا مفاوز لا تقطع إلا بالزاد الكثير والماء الغزير ولا ترجعوا إلى دور ولا إلى قصور فامنعوا بسيوفكم وجاهدوا في الله حق جهاده ولا تموتون إلا وأنتم مسلمون، قال: ثم خرج من بين الصنوف وأقبل على النساء وهن على التل وفيهن المهاجرات وبينات الانصار وغيرهن من نساء المسلمين ومعهن أولادهن. فقال لهن: إن رسول الله ﷺ قال: «إن النساء ناقصات عقل ودين» فكن منهن احتفظن على أديانهن وقدمن في ذلك النية وحرضن أزواجكن على القتال ومن رجع منهم منهزاً فاحصبن وجهه بالحجارة واضربن جواده بالعمد وأظهرن أولادكن لأزواجكن حتى يرجعوا. قال: فوقف النساء وهن مستعدات متنمرات مرتजات بأشعارهن ورجع أبو سفيان إلى موضعه وهو يقول: معاشر المسلمين قد حضر ما ترون وهذا رسول الله ﷺ والجنة أمامكم والشيطان والنار وراءكم وأقبل حتى وقف نوح الشام/ ج ١/ ١٣

مكانه ولم تغز مكيدة ماهان شيئاً ورجعت الروم إلى ورائها حين نظروا خالداً زحف إليهم في خمسمائة فارس، فخافوا لذلك ورجعوا حتى اصطلفت الصفوف وعبي المسلمين كثائبهم. فقال ماهان: ما يوقفكم عن قتالهم فازحفوا إليهم، فزحف الروم إلى المسلمين فنظر خالد إلى جيش عرمم. قال وكان ماهان قد أنفذ ثلاثة ألفاً من عظامهم فحفروا لهم في الميادين حفائر ونزلوا فيها وشدوا أرجلهم بالسلاسل واقترب كل عشرة في سلسلة التماساً لحفظ عسكرهم وحلقوا بعيسي ابن مريم والصلب والقسيسين والرهبان والكنائس الأربع أن لا يفروا حتى يقتلوه عن آخرهم، فلما نظر خالد إلى ما صنعوا قال لمن حوله من جيش الزحف هذا يوشك أن يكون يوماً عظيماً، ثم قال: اللهم أيد المسلمين بالنصر، ثم أقبل على أبي عبيدة وقال: أيها الأمير إن القوم قد اقتربوا في السلاسل وزحفوا إلينا بالقوادب ويوشك أن يكون على الناس يوماً عظيماً. فقال لهم: إن العدو عده كثير وما ينجيكم إلا الصبر، ثم قال لخالد: مما الذي ترى من الرأي يا أبي سليمان.

قال الواقدي: وكان ماهان قدم من الروم من عرف شجاعته وعلمت براعته واشتهر بالثبات في بلادهم وهو مائة ألف. فلما نظر خالد إليهم شهد لهم بالفروسية وأنهم من أهل الشدة وقال لأبي عبيدة: إن الرأي عندي أن توقف في مكاننا الذي أنت فيه سعيد بن زيد وتقف أنت من وراء الناس في مائتين أو ثلاثمائة من أصحاب رسول الله ﷺ. فإذا علم الناس أنك من ورائهم استحيوا من الله ثم منك أن يفروا. قال فقبل أبو عبيدة مشورته ودعا سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة فأوقفه أبو عبيدة مكانه، ثم انتخب أبو عبيدة مائتي فارس من اليمن وفيهم رجال من المهاجرين والأنصار ووقف بهم من وراء الجيش بحذاء سعيد بن زيد.

قال: حدثني ورقة بن مهلهل التنوخي وكان صاحب راية أبي عبيدة يوم اليرموك. قال: وكان أول من فتح باب الحرب يوم اليرموك في جيش السلاسل غلاماً من الأزد حدثاً كيساً. فقال لأبي عبيدة: أيها الأمير إني أردت أن أشفى قلبي وأجاهد عدوى وعدو الإسلام وأبدل نفسي في سبيل الله تعالى لعلّي أرزق الشهادة، فهل تأذن لي في ذلك، وإن كان لك حاجة إلى رسول الله ﷺ فأخبرني بها. قال فبكى أبو عبيدة وقال: أقرئ رسول الله ﷺ السلام مني وأخبره أنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً. قال ثم دفع الغلام الأزدي جواده وحمل يريد الحرب فخرج إليه علّي علّي من الروم قام من الرجال على فرس أشهب، فلما رأه الغلام قصد نحوه وقد احتبس نفسه في سبيل الله تعالى فلما قرب منه قال:

لا بد من طعن وضرب صائب بكل لدن وحسام قاضب

عسى أنال الفوز بالمواهب في جنة الفردوس والمراتب

قال: وبعد شعره حمل كل منهما على صاحبه وابتداً الغلام الأزدي الرومي بطعنة فجندله صريعاً وأخذ عدته وجواده وسلم ذلك لرجل من قومه وعاد إلى البراز فخرج إليه

آخر فقتله وثالث ورابع فقتلهم فخرج إليه خامس فقتل الأزدي فغضبت الأزد عند ذلك ودنت من صفوف المشركين فعندها أقبلت الروم وزحفت كالجراد المنتشر حتى دنا طرفهم من ميمنة المسلمين. فقال أبو عبيدة: إن أعداء الله قد زحفوا عليكم فتكلوهم واعلموا أن الله معكم وثبتوا نفوسكم بالصبر والصدق والبقاء والنصر من الله، ثم رمق إلى السماء بظرفه وقال: اللهم إياك نعبد وإياك نستعين ولك نوحّد ولا نشرك بك شيئاً وأن هؤلاء أعداؤك يكفرون بك وبآياتك ويتخذون لك ولداً: اللهم زلزل أقدامهم وارجف قلوبهم وأنزل علينا السكينة وألزمنا كلمة التقوى وأمننا عذابك يا من لا تختلف الميعاد، اللهم انصرنا عليهم يا من قال في كتابه العزيز: «واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير» [الحج: ٧٨] قال: فيبينما هو يدعو بهذه الدعوات إذ حملت الروم على ميمنة المسلمين وكان فيها الأزد ومذحج وحضرموت وخولان فحملت عليهم الروم حملة منكرة فصبروا لهم صبر الكرام وقاتلوا قتالاً شديداً وثبتوا ثباتاً حسناً وحملت عليهم كتيبة ثانية فصبروا صبراً جميلاً وحملت عليهم كتيبة ثالثة فأذلوا المسلمين عن الميمنة، فابتدر منهم عمرو بن معد يكرب الريدي وهو المقدم على زيد والأمير عليهم وهو يعظمهون لما سبق من شجاعته في الجاهلية وكان يوم اليرموك قد مر له من العمر مائة وعشرون سنة إلا أن همته الشجاعة، فلما نظر إلى قومه وقد انكشفوا صاح في قومه: يا آل زيد يا آل زيد تفرون من الأعداء وتفزعون من شرب كأس الردى أترضون لأنفسكم بالعار والمذلة فما هذا الانزعاج من كلاب الأعلاج: أما علمتم أن الله مطلع عليكم وعلى المجاهدين والصابرين، فإذا نظر إليهم وقد لزموا الصبر في مرضاته وثبتوا لقضائه أمدهم بنصره وأيدهم بصبره فأين تهربون من الجنة أرضيتم بالعار ودخول النار وغضب الجبار.

قال فلما سمعت زيد كلام سيدهم عمرو بن معد يكرب رجعوا إليه وعطفوا عليه عطفة الإبل على أولادها فاجتمعوا حوله زهاء من خسمائة فارس وراجل وشدوا على القوم شدة واحدة وحملت معهم حمير وحضرموت وخولان وحملوا حملة صعبة فأذلوا الروم عن أماكنهم وحملت دوس مع أبي هريرة وهز رايته وهو يحرض قومه على القتال ويقول: أيها الناس سارعوا إلى معانقة الحرور العين في جوار رب العالمين، وما من موطن أحب إلى الله من هذا الموطن: ألا وإن الصابرين قد فضلهم الله على غيرهم الذين لم يشهدوا مشهدتهم، فلما سمعت دوس كلامه طافوا به وحملوا على الروم حملة منكرة ودارت بينهم الحرب كما تدور الرحى وتكثرت جموع الروم على ميمنة المسلمين، فعادت الخيل تنكس بأذنابها راجعة على أعقابها منكشفة كانكشاف الغنم بين أيدي الأسد ونظرت النساء خيل المسلمين راجعة على أعقابها فنادت النساء: يا بنات العرب دونهن والرجال ردوهن من الهزيمة حتى يعودوا إلى الحرب. قالت سعيدة بنت عاصم الخولاني كنت في جملة النساء يومئذ على التل، فلما انكشفت ميمنة المسلمين صاحت بنا عفيرة

بنت غفار وكانت من المترجلات البازلات ونادت: يا نساء العرب دونكن والرجال وأحملن أولادكن على أيديكن واستقبلنهم بالتحريض فأقبلت النسوة يرجمن وجوه الخيل بالحجارة، وجعلت ابنة العاص بن منهه تنادي: قبح الله وجه رجل يفرّ عن حليلته، وجعل النساء يقلن لأزواجهن: لستم لنا بيعولة إن لم تمنعوا عنا هؤلاء الأعلاج. قال العباس بن سهل الساعدي: كانت خولة بنت الأزور وخولة بنت ثعلبة الأنصارية وكعبو ابنة مالك بن عاصم وسلمي ابنة هاشم ونعم ابنة فياض وهند ابنة عتبة بن ربيعة ولبني ابنة جرير الحميرية متحزمات وهن أمام النساء والمظاهر معهن، وخولة تقول هذه الآيات:

| | |
|------------------------|-----------------------|
| لها جمال ولها ثبات | يا هاريا عن نسوة ثقات |
| تملك نواصينا مع البنات | تسلموهن إلى الهنات |
| ينلن منا أعظم الشتات | أعلاج سوء فسوق عتات |

قال: ورجعت الفرسان تحرض الفرسان على القتال، فرجع المنهزمون رجعة عظيمة عندما سمعوا تحريض النساء وخرجت هند ابنة عتبة وبيدها مزهر ومن خلفها نساء من المهاجرات وهي تقول الشعر الذي قاله يوم أحد وهو هذا:

| | |
|---------------------------|---------------------------|
| نمشي على النمارق | ننحن ببنات طارق |
| قيدي مع المرافق | مشي القطا الموافق |
| أن تغلبوا نمائـلـق | ومن أبي نـفـارـق |
| فارق غـيرـ وـامـقـ | أو تـدـبـرـوا نـفـارـق |
| ـهـلـ منـ كـرـيمـ عـاشـقـ | ـهـلـ منـ كـرـيمـ عـاشـقـ |

قال: ثم استقبلت خيل ميمونة المسلمين فرأتهم منهزمين فصاحت بهم: إلى أين تنهزمون أين تفرون من الله ومن جنته وهو مطلع عليكم ونظرت إلى زوجها أبي سفيان منهزماً فضررت وجه حصانه بعمودها، وقالت له: إلى أين يا ابن صخر ارجع إلى القتال وابذل مهجتك حتى تمتص ما سلف من تحريضك على رسول الله ﷺ. قال الزبير بن العوام: فلما سمعت كلام هند لأبي سفيان ذكرت يوم أحد ونحن بين يدي رسول الله ﷺ. قال فعطف أبو سفيان عندما سمع كلام هند وعطف المسلمين معه ونظرت إلى النساء، وقد حملن معهم وقد رأيتمنهن يسابقن الرجال وبأيديهن العمد بين أرجل الخيل ولقد رأيت منهن امرأة، وقد أقبلت إلى علّج عظيم، وهو على فرسه فتعلقت به وما زالت به حتى نكسه عن جواهه وقتلته، وهي تقول: هذا بيان نصر الله المسلمين، قال الزبير بن العوام: وحمل المسلمين حملة منكرة لا يريدون غير رضا الله

رسوله، وقاتلت الأزد مع أبي هريرة وفشا فيهم القتل وأصيب منهم خلق كثير لأنهم تلقوا الصدمة الأولى بأنفسهم واستشهد منهم ما لم يستشهد من غيرهم. قال سعيد بن زيد: كان القتال في الميمنة شديداً وكان المسلمين ينهزمون تارة ويعودون مرة وساعة نصبر ساعة تتأخر. قال ونظر خالد بن الوليد إلى الميمنة، وقد وصلت إلى القلب فصاح بمن معه من الخيل وما عليهم فمالوا وكانوا زهاء ستة آلاف فكبّر وحمل على الروم فنكى بهم نكایة عظيمة حتى كشف أعداء الله عن الميمنة والقلب إلى أن ردت إلى مواضعها ووقف خالد أمامهم يطارد من كان قريباً للمسلمين، قال فانكسر الروم أمام خالد ونظر خالد إلى فرسانه فرأهم متبدلين فنادى: يا أهل الإسلام والإيمان ويا حملة القرآن ويا أصحاب محمد ﷺ قد تبيّنت في الروم الكسرة العظيمة ولم يبق عند القوم من الجلد والقتال إلا ما رأيتم وقد كسر الله حدتهم فردوا عليهم الكسرة وشدوا عليهم الكرا ربكم الله، فوالذي نفس خالد بيده إني لأرجو أن يمنحكم الله أكتافهم فنادى المسلمين من كل جانب احمل حتى نحمل معك. قال: فانتضي خالد سيفه وحمل وحمل أصحابه معه. قال عبد الرحمن بن الحميدي الجمحي: كنت من حمل مع خالد فوالله لقد انكشفت الروم بين أيدينا وولت كما تولي الغنم بين يدي الأسد وتبعهم المسلمون وكانت الحملة على ميمنة الروم فانكشفوا انكشفاً قبيحاً، وأما المسفلة فما برحوا من مواضعهم وكانوا يرمون بالسهام وهم حماة القوم.

الشعار

قال عبد الرحمن: وكان خالد أميناً في حملته ونحن من ورائه، وكان شعارنا: يا محمد يا منصور أمتك فلم يزل خالد في حملته ونحن من ورائه حتى وصل إلى الديربان وكان قائماً في موضعه الذي أقامه فيه ماهان معه صليب من الجوزه ومعه أصحابه ينتظرون حملته فيحملون معه، فلما وصلت خيل خالد إلى موضعه. قال له البطارقة: أيها الملك أما آن لك أن تحمل فتحمل معك أو تولي فقد خالطتنا خيل العرب. فقال لأصحابه: اعلموا أن يوم السوء لا أحبه ولا أحب أن أراه ولا أحضره، وقد أحضرني الملك إلى هذا الموقف وأنا كارهه ولكن لفوا وجهي ورأسي في هذا الثوب حتى لا أرى الحرب. قال: فلقوه وجهه ورأسه في ثوب ديباج والناس يقتلون حتى انهزمت الروم بين أيدي المسلمين ووصلوا إلى الديربان وهو ملفوف الرأس فحمل عليه ضرار بن الأزور فقتله.

قال الواقدي: وكان من أحسن صنع الله تعالى بالمسلمين أن جرجير وقناطير اختلفاً وتنازعاً وكان جرجير في الميمنة مع الأرمن وقناطير في الميسرة تحته، فقال جرجير لقناطير: احمل على العرب بما هذا وقت الوقوف، فقال قناطير: تأمرني أن أحمل وكيف

لا تحمل أنت؟ فقال جرجير لقناطير: وكيف لا أمرك، وأنا أمير عليك؟ فقال قناطير: كذبت أنت أمير وأنا أمير عليك وفوقك وأنت مأمور لي بالطاعة فاختلفاً وغضب جرجير من قول قناطير فحمل على المسلمين حملة شديدة وكانت حملته على كنانة وقيس وخشم وجذام وقضاعة وعاملة وغسان وهم يومند فيما بين الميسرة والقلب فكشف الروم المسلمين حتى زالت عن مصافهم ولم يبق منهم إلا أصحاب الرایات فقاتلوا من يليهم فاستقبلهم النساء بالعمد يضربن وجوه الخيل ويرمبن وجوهها بالحجارة وينادين بهم إلى أين تنهزمون يا أهل الإسلام عن الأمهات والأخوات والبنين والبنات أتريدون أن تسلمونا للأعلاج؟ قال منهال الدوسي: فلقد كانت النساء أشد علينا غلظة من الروم فرجع المسلمون عن الهزيمة ونادي بعضهم بعضاً **«وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر»** [العصر: ٣] وعطفوا على الروم عطفة عظيمة. قال وكان قتامة بن أبي شم الكثاني أمّا المسلمين يضرب في عراض المشركين تارة بالسيف وتارة بالرمي حتى كسر ثلاثة رماح، وهو يقول:

سأحمل في الروم الكلاب التوابع
 وأضربهم ضرباً بحد الصفائح
 وأرضي رسول الله خير مؤمل نبي الهدى للدين أشرف ناصح

قال الواقدي: ثم حمل حتى كسر سيفين وجعل كلما كسر رمحًا أو سيفًا يقول: من يعيّرني سيفًا أو رمحًا في سبيل الله وأخرجه على الله، ثم نادى: يا معاشر قيس خذوا نصيبكم من الأجر والصبر، فإن الصبر في الدنيا عزٌ ومكرمة وفي الآخرة رحمة وفضيلة **«اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون»** [آل عمران: ٢٠٠]. قال: فأجابه قومه ونشطوا للقتال. قال قتامة بن أبي شم الكثاني: مما رأيت مثل حملة قناطير وقومه ولقد اختلطوا بنا واحتلطنَا بهم. قال: ورجع خالد من دهمته ومعه ألفان من أصحابه، وقد وضعوا السيوف في الروم وقتلوهم قتلاً ذريعاً والقتل لا يبين فيهم لكثراهم، وأقبل خالد على الناس من كرته فرأى الناس يقولون جزى الله قتامة بن أبي شم خيراً عن الإسلام فشكوه وجزاه خيراً. قال: وأقبلت ذرعة ابنة الحارث منحدرة عن التل وهي تقول: ما فعل خالد حتى وقفت بين يديه، وقالت: يا ابن الوليد أنت من العرب الكرام، وإنما الرجال بأمرائهما، فإن ثبتوا ثبتت الرجال معهم وإن انهزموا انهزمت الرجال معهم، فقال لها خالد: ما كنت من المنهزمين وما كنا إلا نقاتل في الأعلاج. فقالت: قبح الله وجه عبد نظر إلى أميره ثابتًا وهو منهز عنده.

قال الواقدي: ونظر ماهان لعنه الله إلى الميمنة من عسكره وقد عركت عراك الأديم ببعث إليهم يحرّضهم على القتال. فعندها خرج علج من الروم وعليه درع سابق السلاح

كأنه قطعة جبل وهو على شهباء عظيمة الخلقة فبرز بين الصفين وجال على شهائه وسأل القتال فخرج إليه غلام من الأزد فما جال معه جولة حتى قتله العلوج ثم دعا بالبراز فهم أن يخرج إليه معاذ بن جبل، فقال أبو عبيدة: يا معاذ سألك بحق رسول الله ﷺ إلا ما ثبت مكانك ولزمت رايتك ولزومك الرأبة أحب إلى من برازك إلى هذا العلوج فوقف معاذ بالرأبة ونادى: يا معاشر المسلمين من أراد فرساً يقاتل عليه في سبيل الله فهذا فرسي وسلاحي فجاءه ولده عبد الرحمن فقال: أنا يا أبتك وكان غلاماً لم يحتمل. قال: فلبس السلاح وركب الجواد، وقال: يا أبتك أنا خارج إلى هذا العلوج، فإن صبرت فالمنة لله على وإن قتلت فالسلام عليك وإن كان لك إلى رسول الله ﷺ حاجة فأوصني بها. فقال له معاذ: يابني أقرئه مني السلام وقل له: جزاك الله عن أمتك خيراً، ثم قال: يابني اخرج وفكك الله لما يحب ويرضى، فخرج عبد الرحمن بن معاذ إلى العلوج كأنه شعلة نار وحمل على العلوج وضربه بالسيف فمال عنه العلوج وما ل إليه وضربه على رأسه فقطع العمامة وشجه شجة فاضحة أسالت دمه، فلما رأى العلوج ذلك الدم ظن أنه قتل فتأخر إلى ورائه لينظر كيف يسقط عن جواهه، فلما نظر عبد الرحمن إلى العلوج وقد تأخر عنه انشى راجعاً إلى المسلمين، فقال له معاذ: ما بك يابني؟ قال: قتلني العلوج قال له: ما الذي تريده من الدنيا يابني ثم إنه شد جرمه، قال: فعندها صال لعلج وحمل فرذته الأزد. قال أبو عبيدة: فمن لكم فخرج إليه عامر بن الطفيلي الدوسى وكان من أصحاب الريات ومن شهد اليمامة مع خالد بن الوليد وكان قد رأى يوم اليمامة في منامه في قتال مسيلمة الكذاب كأن امرأة لقيته ففتحت له فرجها فدخل فيها ونظر إليه ابنه فأسرع ليدخل مكانه، ثم استيقظ وقضى ذلك على المسلمين فلم يدر أحد ما تأويله، فقال ابن الطفيلي: أما أنا فأعرف تأويلها قالوا: وما تأويلها يا ابن الطفيلي قال: تأويله أنني أُقتل لأن المرأة التي أدخلتني فرجها هي الأرض وابني سيصيبيه جراح ويوشك أن يتقي بي. قال فقاتل يوم اليمامة وأبلى بلاء حسناً وسلم ولم يلحقه أذى، فلما كان يوم اليرموك شهد فيه الحرب وخرج إلى قتال العلوج وهو كأنه شعلة حريق أو صاعقة وطعن الطريق، وكانت قناته قد شهدت معه المشاهد فاندقت بين يديه وانتقض سيفه وهزه وضرب به العلوج على عاتقه فخالط أمعاهه فتنكس العلوج صريعاً عن جواهه وأسرع عامر بن الطفيلي فرمى به إلى المسلمين وسلمه إلى ولده واثنى راجعاً نحو الروم وحمل على الميمنة وعلى الميسرة وعلى القلب.

ثم قصد المتنمرة فقتل منهم فارساً ودعا للبراز وخرج إليه جبلة بن الأبيهم وعليه درع من الديباج المثقل بالذهب وتحتها درع من دروع التابعية وعليه بيضة تلمع كشعاع الشمس وتحتها فرس من نسل خيول عاد، فلما خرج جبلة إلى عامر بن الطفيلي قال له: من أي الناس أنت قال: أنا من دوس. قال جبلة: إنك من القرابة فأبق على نفسك

وارجع إلى قومك ودع عنك الطمع، فقال له عامر: قد أخبرتك من أنا ومن قبيلتي فأنت من أي العرب. قال: أنا من غسان وأنا سيدها جميعها أنا جبلة بن الأيم الغساني، وإنما خرجت إليك حين نظرت إليك، وقد قتلت هذا الطريق الشديد وهو نظير ماهان وجرجير في الشجاعة فعلمت أنك كفو فخرجت لأقتلوك وأحظى عند ماهان وهرقل بقتلك، فقال عامر بن الطفيلي: أما ما ذكرت من شدة القوم وعظم خلقهم فالله أشد منعة، وهو مهلك العجابة، وأما قولك إنك تحظى بقتلي عند مخلوق مثلك فإني أريد أن أحظى بجهادي عند رب العالمين بقتلك، وحمل عامر على جبلة بن الأيم والتقيا بضربيتين فخرجت ضربة عامر بن الطفيلي غير ممكنة وخرجت ضربة جبلة ممكنة فقطعت من قرنه إلى كتفه فسقط عامر قتيلاً فجال جبلة على مصرعه ووقف يعجب بنفسه وبما صنع وطلب البراز فخرج إليه ولد المقتول، وهو جندب بن عامر بن الطفيلي وكانت معه راية أبيه فأقبل إلى أبي عبيدة، وقال: أيها الأمير إن أبي قد قتل وأريد أن آخذ بثأره أو أقتل فأدفع رايتك لمن شئت من دوس فأأخذ أبو عبيدة الراية ودفعها لرجل من دوس فحملها وخرج جندب إلى قتال جبلة بن الأيم، وهو ينشد ويقول:

| | |
|------------------------|---------------------------|
| رأيده العفو من رب كريم | سأبذل مهمجتي أبداً لأنني |
| وأقتل كل جبار لشيم | وأضرب في العدا جهدي بسيفي |
| تباح لكل مقدام سليم | فإن الخلد في الجنات حق |

قال: ودنا من جبلة، وقال له: أثبت يا قاتل أبي لأقتلك به، فقال جبلة: ومن أنت من المقتول؟ قال: ولده. قال جبلة: ما الذي حملكم على قتل نفوسكم وأولادكم وقتل النفوس محرم؟ قال جندب: إن قتل النفس في سبيل الله محمود عند الله ونinal به الدرجة العالية، فقال له جبلة: إني لا أريد قتلك، فقال جندب: وكيف أرجع وأنا المفجوع بأبي والله لا رجعت أو آخذ بثأر أبي أو الحق به ثم حمل على جبلة وجعلها يقتتلان وقد شخصت نحوهما الأ بصار، ونظر جبلة إلى الغلام وما أبدى من شجاعته فعلم أنه شديد البأس صعب المراس فأخذ منه حذره وغسان ترقق صاحبها فرأى الغلام جندباً وقد ظهر على صاحبهم وقاربه في الحرب، فصاحت بعضهم على بعض وقالوا: إن هذا الغلام الذي برز إلى سهلكم هلام نجيب وإن تركتموه ظهر عليه فانجدوه ولا تدعوه فتأليب غسان للحملة ليستنقذوا، ونظر المسلمون إلى جندب وما قد ظهر منه ومن شجاعته وشدة ففرحوا بذلك ولطم الأمير أبو عبيدة إلى ذلك وما فعل. فبكى وقال: هكذا يكون من يبذل مهمجته في سبيل الله اللهم تقبل له فعله.

قال جابر بن عبد الله: شهدت قتال اليرموك فما رأيت غلاماً كان أنجب من جندب بن عامر بن الطفيلي حين قاتله جبلة وبعد ذلك حمل على جبلة وضربه ضربة

أوهنه بها وضربه جبلة فقتله وعجل الله بروحه إلى الجنة وتحقق منام أبيه عامر بن الطفيلي، وجال جبلة على مصرعه وطلب البراز فصاح به قومه ارجع إلينا فقد قضيت ما يجب عليك فرجع وهو معجب بنفسه حتى وقف تحت صليبه. قال وبعث إليه ماهان يشكوه وأصيب المسلمين بعامر بن الطفيلي وولده جنديب. قال فعندها صاحت دوس: الجنة الجنة خذوا بثأر سيدكم عامر وساعدتها الأزد وكانوا أحلافهم وحملوا على غسان ولخم وجذام وتنادوا الأشعار فصاح أبو عبيدة بال المسلمين، وقال: أيها الناس «سارعوا إلى مقفرة من ربكم وجنة» [آل عمران: ١٣٣] الآية، ومعانقة الحور العين في جنات النعيم فما من موطن أحب إلى الله من هذا الوطن لا وإن الصابرين فضلهم الله على غيرهم ممن لم يشهد مشهدهم، هذا ولما سمعت الأزد ذلك حملت مع دوس وكان شعارهم يومئذ الجنة الجنة.

قال الواقدي: حدثني موسى بن محمد عن عطاء بن مراد، قال: سألت رجالاً عدة ما كان شعار المسلمين يوم اليرموك فأخبرت أن شعار أبي عبيدة أمت وشعار عبس: يا لعبس، وشعار اليمن من أخلاق الناس: يا أنصار الله، وشعار خالد ومن معه: يا حزب الله، وشعار حمير: الفتح الفتح، وشعار دارم والسكاكين: الصبر الصبر، وشعاربني مراد: يا نصر الله أنزل، فهذه كانت شعار المسلمين يوم اليرموك. قال فلما حملت دوس تبعها الأزد وقصدت العرب المتنمرة وطلبت صليبيهم وفرقتهم تفريقاً صعباً حتى وصلوا إلى الصليب، فطلب رجل منهم حامل العلم الذي لغسان فأرداه عن فرسه ووقع الصليب من يده منكوساً وقتل من الأزد دوس رجال إلا أنهم كانوا مثل الشامة البيضاء في جلد البعير الأسود. ثم كرت غسان ت يريد أخذ صليبيهم فاقتتلوا عنده قتالاً شديداً حتى قتلوا خلقاً كثيراً.

قال الواقدي: حدثني هشام بن عمارة عن أبي الجbirri عن نافع عن جبير بن الحويرث عن عبد الله بن عدي. قال: شهدت اليرموك فكان المسلمين خمسة وعشرين ألفاً، فغضب الحويرث وقال: كذب من حدثك بهذا الحديث. فإن المسلمين كانوا يوم اليرموك أحدها وأربعين ألفاً وقد أديت إليك ما سمعته من أنت به من الرواة.

قال الواقدي: وهذا ثبت الأقوال لأن المسلمين كانوا يوم أجنادين اثنين وثلاثين ألفاً وجاءت الأمداد بعد ذلك.

قال الواقدي: حدثني ابن أبي نمرة عن عبد الحميد بن سهل عن جده قال: لما حملت الأزد يوم اليرموك ودوس ودخلت المشركين دوحة عظيمة وحمل المشركون حملة هائلة انكشف المسلمون وكان صاحب لوانهم عياض بن غنم الأشعري فولى منهزمًا واللواء بيده، فصاح به الناس: إنما ثبات القوم وأهل الحرب بألوائهم، فابتدر لأخذه

عمرو بن العاص وخالد بن الوليد كلاهما يتتسابق إليه فأخذه عمرو ولم يزل يقاتل به حتى انهزمت الروم وفتح الله على أيدي المسلمين، وكان اليوم الثالث من اليرموك يوماً شديداً انهزمت فيه فرسان المسلمين ثلاث مرات كل مرة تردهم النساء بالحجارة والعمد ويلوحون بالأطفال إليهم فيرجعون إلى القتال ولم يزل القتال قائماً إلى أن أقبل الليل بسواده ورجعت الروم إلى مواضعها والقتل فيهم كثير وفي المسلمين قليل إلا أن الجراح فيهم فاشية من النشاب، فلما دخل الليل بسواده رجعت كل فرقة إلى أماكنها وباتوا تحت السلاح، قال وأما المسلمون فما كانت همتهم إلا الصلاة وبعد ذلك شدوا الجراح، وصلى أبو عبيدة رضي الله عنه وقال: أيها الناس إذا عظم البلاء فانتظروا الفرج فإنه يأتي من عند الله فاضرموا نيرانكم وتحارسوا وأظهروا التهليل والتكبير، وقام أبو عبيدة يمشي في الناس هو وخالد بن الوليد يتفقدان الجرحى ويقولان: أيها الناس إن عدوكم يألم كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وباتا طول ليتهم كله وهم طائفان على المسلمين إلى أن أصبح الصباح، قال: وانحازت الروم إلى جانب اليرموك مع ماهان الأرمي فجمع بطارقته ووبخهم وزجرهم. وقال لهم: قد علمت أن هذا يكون منكم، وقد رأيت فشلكم وخوفكم وجزعكم من هؤلاء العرب الضعاف قال فاعتذروا إليه وقالوا غدراً نبارزهم فإن فينا فرساناً وشجعانًا لم يقاتلوا أصلاً وغدراً نصدقهم الحرب فتكون لنا العاقبة. قال فسكت عن توبتهم وأمرهم أن يتأهبوا لذلك وبات الفريقيان يتحارسون، وقد رعبت الروم من كثرة القتل فيهم، وأما المسلمون فإنهم أقوى قلوبًا لشدة دينهم ويقينهم.

قال: فلما أصبح الصباح صلى بهم أبو عبيدة صلاة الخوف وإذا بالصلبان قد بدلت ويريات القوم قد طلعت في عدد الشوك والشجر كأنهم لم يلاقوا قتالاً قط فوقفوا في مصافهم ونصب ماهان سريره على الكثيب الذي كان عليه بالأمس وهو يشرف منه على العساكر فأمرهم أن يعوا مصافهم، فلما نظر أمير المؤمنين إلى سرعة الروم صاح كل أمير برجاله وحرّضهم على القتال فانقلبوا من الصلاة إلى خيولهم ولبسوا السلاح وركبوا خيولهم ورجع كل أمير إلى مكانه وهو يعظ أصحابه ويوصيهم ويعذهم من الله بالنصر، وسار أبو عبيدة بين الصفوف وهو يصف لهم فضل الجهاد وما أعد الله للمجاهدين الصابرين وخلف على الذراري والنساء والأموال والأولاد عمرو بن سعيد بن عبد الله وجعل من الرماة خمسمائة في الميمنة وخمسمائة في الميسرة وخمسمائة في القلب وطاف أبو عبيدة عليهم، وقال لهم: معاشر الرماة الزموا مراكزكم فإن رأيتم القوم زحفوا إلينا فارشقوهم بالنبال واذكروهم عند رميكم ولا تتركوها مفرقة ولتخرج شهامتكم كأنها من كبد قوس واحد، فإنهم زحفوا إليكم فاثبتوها مكانكم حتى يأتيكم أمرى ففعلوا ما أمرهم به الأمير، وتقدم أبو سفيان إلى ولده يزيد والراية في يده وحوله أصحابه وقد عزم على

الحملة والجهاد. فقال: يابني إن أحسنت أحسن الله إليك عليك بتفوي الله والصبر فاتق الله حق تقاته وانصر دين الله وشرع نبيه ﷺ، وإياك والجزع فيما قضاه ربنا قد أمضاه فاصبر مع أصحابك صبر أولي العزم، وإياك ثم إياك أن يراك الله منهزمًا فتبوء بغضب من الله. قال يزيد: سأصبر جهدي وطاقتني والله أسأله أن يكون معيًا لي وناصراً.

ثم صاح يزيد برجاله وهزّ الراية وندبهم إلى القتال وحمل على من يليه من الروم فقاتلوا قتالاً عظيماً ولم يزالوا حتى نكوا العدو نكبة عظيمة وأبلوا بلاء حسناً، وكان قاتلهم من جانب القلب ولم يزالوا كذلك حتى برب إلهم بطريق من البطارقة وبيده رمح عظيم وعليه صليب من الذهب وحوله زهاء من عشرة آلاف فارس من الروم فحملوا على الميمنة وكان فيهم عمرو بن العاص ومن معه فرجموا على أعقابهم منهزمين حتى دخلت الروم في أوائل عسكر المسلمين مما يلي عمرًا ومن معه وهم يتراجعون على الرجال فيكررون تارة ويرجعون تارة حتى تکاثرت عليهم الروم فكشفوهم حتى الصقوهم بالتل الذي عليه النساء وأحاطوا بالتل فصاحت امرأة: أين أنصار الدين أين حماة المسلمين، وكان الزبير بن العوام جالساً عند زوجته أسماء بنت أبي بكر الصديق يداوي عينه وكان أرمد، فلما سمع صوت المرأة وهي تنادي: أين أنصار الدين؟ قال: يا أسماء ما لهذه المرأة تصريح أين أنصار الدين. فقالت له عفرا ابنة عثمان: يا ابن عمّة رسول الله ﷺ انھزمت ميمونة المسلمين حتى أجهّم الروم علينا وأحاط بنا الأعلاج، وهذه نساء الأنصار مستصرخة بأنصار الدين. فقال الزبير: والله إني أنا من أنصار الدين ولا يراني الله جالساً في مثل هذا الوقت. قال ثم طرح الخرقة عن عينه واستوى جالساً على متن جواهه فأخذ قناته وتسنم باسمه وقال في حملته: أنا الزبير بن العوام، أنا ابن عمّة رسول الله ﷺ، وجعل يطعن فيهم طعنة متداركاً حتى رذهم على أعقابهم وخيلهم تنكسن بأذنابها. قال ليث بن جابر: فللهم در الزبير بن العوام لقد رد الروم بنفسه وحده إذ حمل عليهم وما كان معه من العرب أحد حتى رذهم إلى عسكرهم وتراجعت خيل عمرو ورجاله وهو ينادي: الرجعة الرجعة الحزم يا أهل الإسلام الصبر الصبر فتراجعوا بعد إدبارهم.

قال الواقدي: وحمل جرجير الأرمني في ثلاثة أيام على شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله ﷺ فانكشف أصحاب شرحبيل بن حسنة ولم يثبت غيره لقتال الروم في عصبة من قومه دون الخمسين ألفاً فجعل شرحبيل يحمل على الأرمن وهو يقول: يا أهل الإسلام لا فرار من الموت الصبر الصبر. قال فتراجع أصحابه إليه وحملوا على الأرمن فردوهم على أعقابهم وجعلوا يضربون فيهم حتى أصابوا من الأرمن ما لم يصبه الأرمن منهم، فرجع شرحبيل إلى مكانه ودار به أصحابه فجعل يعتقهم بالقتال

ويقول لهم: ما الذي أصابكم حتى انهزمتم أمام هؤلاء الكفرا وأنتم الحماة البررة وأهل القرآن وعباد الرحمن أما سمعت قوله عز وجل: «ومن يولهم يومئذ دبره إلا متعرقاً لقتال أو متحبزاً إلى فتنة فقد باع بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير» [الأنفال: ١٦] وقال الله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَآمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ» [التوبية: ١١١] وأنتم تهربون. فقالوا: يا صاحب رسول الله ﷺ زلة من الشيطان مثل يوم أحد وحنين وها نحن معك فاحمل حتى نحمل معك فجزاهم خيراً ووقف مكانه وكان موقفه مما يلي سعيد بن زيد وقد لزموا مواقفهم لم يتحركوا التماساً للحفيظة، ونظر قيس بن هبيرة إلى خيل شرحبيل وقد تراجعت فحمل بمن معه ونادي هو وأصحابه بشعارهم وكان شعارهم يا نصر الله انزل يا منصور أمت أمت وكان هذا شعارهم يوم بدر وأحد، وحمل خالد بن الوليد بمن معه ذات اليمين، وحمل قيس من ذات الشمال فقاتلواهم قتالاً شديداً والله در الزبير بن العوام وهاشم بن المرقاب وخالد بن الوليد: لقد حملوا حملة عظيمة حتى قربوا من سرادقات ماهان وتواترت الروم على سرادقات ماهان وخيمه، فلما نظر ماهان إلى ذلك نزل عن سريره هارباً وصاح بالروم وعنهما فتراجعوا يطلبون القتال وصاح أبو عبيدة بسعيد بن زيد فحمل بمن معه وهو ينادي: لا إله إلا الله يا منصور أمت أمت فأقبلوا يقتلون في الروم قتالاً ذريعاً، فيما المسلمين في حملتهم إذ سمعوا قائلاً يقول: يا نصر الله انزل يا نصر الله اقرب أيها الناس الثبات الثبات. قال عامر بن أسلم: فتأملنا الصارخ فإذا هو أبو سفيان وتحت رايته ابنه يزيد. قال: وشدت الأمراء بأجمعهم على من يليهم وقاتلوا قتالاً شديداً ولم يكن في الروم أثبت من أصحاب السلسل فإنهم ثبتوا في أماكنهم يمنعون من أن THEM، وأما الرماة وهم مائة ألف رام فكانوا إذا رشقوا سهامهم نحو العرب يسترون الشمس، فلو لا النصر والمعونة من الله لكان المسلمون هلكوا وانفصل المسلمون فرحين مستبشرين والمشركون قد هلك أكثرهم وierz علوج من أعلاج الروم كأنه نخلة باسقة وعليه درع مذهب وعلى رأسه بيضة مذهبة وعليها صليب من ذهب مرصع بالجوهر وهو راكب على شبهاء وعليه زرد من حديد وبيده رمح فجال وأشهر نفسه وسأل البراز، فنظر المسلمون إلى عظم خلقته وهو جثته فجعلوا ينظرون إليه. فقال أبو عبيدة: لا يهولنكم ما ترون من خلقته فكمرأيتم من هو عظيم خلقة ولا قلب له فمن له يخرج إليه واستعينوا بالله عليه.

قال: فخرج إليه عبد من عبيد العرب وبيه سيفه وحجفته وهو راجل، فلما أراد أن يدنو من العلوج صاح به مولاه ذو الكلاع الحميري، فلما رجع خرج إليه ذو الكلاع وجال عليه وكان ذو الكلاع من أهل الشدة والباس فتواقعا وكل منهما رامح فتقطعا طعنة شديدة أشد من الجمر، ثم إنهما تجاذبا سيفهما والتقيا فضرب ذو الكلاع العلوج ضربة وضرب العلوج ضربة، وكان سيف العلوج قاطعاً وساعدته قويًا فقطع سيفه درقة ذي الكلاع وسيفه

ودرعة وما تحته من الشياب ووصلت الضربة إلى عضده الأيسر فجرحه جرحاً بليغاً وثقلت يده، فلما نظر ذو الكلاع إلى ما لحقه من العلج عطف بجواهه يزيد المسلمين ونظر العلج إلى ذي الكلاع سابقاً فلم يلحظه حتى لحق بال المسلمين فأتأتى قومه والدم يفور من جرحه، فاجتمع فرسان قومه فقال لهم: يا فرسان حمير إياكم أن تتكلوا في قتالكم على السلاح ومنعوه ولكن اتكلوا في قتالكم على الله عزوجل. قالوا: وكيف ذلك أيها السيد؟ قال: لأنني رددت عبدي عن القتال شفقة عليه إذ ليس معه لامة حرب وقلت: إنني أفرس منه وأجود عدة ولامة فصنع بي هذا الأغلف ما ترون، والله ما لحقني قبلها في حرب مثلها قط فشدوا جرحه ووقف مكانه، ثم إنه صاح بقومه: يا رجال حمير إن كان سيدكم قد رجع كلاماً فما منكم من يأخذ بثاره فانتدب فارس من فرسان حمير وعليه صباغ اليمن من الأبراد والجبر كأنه جمرة نار وحمل نحو العلج مصمصماً وجال جولة عظيمة وطعنه طعنة أثبتها في صدره فأرداه قتيلاً وعجل الله بروحه إلى النار، فهم الحميري أن ينزل عن جواهه ويأخذ سلبه فحمل عليه كردوس من الروم ليكشفوه عنه فردهم الحميري صاغرين، ثم رجع إليه وأخذ سلبه وأقبل به على أبي عبيدة فأعطاه إياه فدفع السلب إلى قومه ورجع إلى مقامه في القتال فخرج إليه آخر فقتله وأخر فقتله فخرج إليه علج رابع فقتل الحميري ونزل ليأخذ سلب الحميري فرماه رجل من رماة الأنصار ببنبلة فوضعها في لبته فجندله صريعاً وعجل الله بروحه إلى النار، قال: فانقلب الروم على وجوهها وهابوا جميع المسلمين، وكان ذاك الطريق الذي قتل بالبنبلة من عظمائهم ويقال إنه كان صاحب نابلس فصاح بهم ماهان وسكنهم عن اضطرابهم وخرج إلى القتال ملك اللان واسمه مريوس وعليه لامة الملوك وعليه ديباجة وفي وسطه منطقة مرصعة بالجواهر فجال بين الصفين وشهر نفسه وقال: أنا ملك اللان فلا يربز لي إلا أميركم، فخرج إليه شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله ﷺ وبهذه لواهه وعليه درع من حديد وهو منطق بمنطقة من الأديم وهو على جواهه. فقال أبو عبيدة: من هذا الذي خرج؟ قالوا له: شرحبيل بن حسنة فبعث إليه أبو عبيدة يقول له: ادفع الراية لمن شئت واخرج من غير راية، فلما سمع ذلك سلم الراية لرجل من قومه وقال له: قف بها موضعني، فإن قدر علي فسلم الراية إلى الأمير أبي عبيدة يدفعها لمن يزيد، وإن رجعت أخذتها الرجل وخرج شرحبيل كاتب وحي رسول الله ﷺ نحو ملك اللان وهو يقول:

سأحمل في اللنام بني الأعادي بكل مشق لدن حداد
فيما بؤساً لقيصر يوم نائي وجمع الروم شرد في البلاد
قال: فسمع الطريق شرحبيل فلم يفهمه وكان يفهم قليلاً بالعربية.

قال له: يا عربي ما الذي تقول؟ قال: أقول كلاماً تقوله العرب عند الحرب تشجع به نفوسها وتحقق بوعد الله الذي وعد به نبيتنا. فقال ملك اللان: وما الذي وعدكم به نبيكم؟ فقال شرحبيل: وعدنا الله أن يفتح لنا الأرض في الطول والعرض ونمك الشام ونكون من الظافرين بنصر الله لنا. قال ملك اللان: إن الله لا ينصر من يبغى وأنتم تتبعون علينا وتطلبون ما ليس لكم بحق. فقال شرحبيل: نحن قوم أمرنا الله أن نفعل ذلك والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، وإنني أراك تعرف كلام العرب فلو تركت ما أنت عليه من عبادة الصليب ودخلت في دين الإسلام كنت من أهل الجنة وسعدت. فقال ملك اللان: ما أترك دين المسيح أبداً فإن دينه حق؟ فقال شرحبيل: لا تقل إنه إله معبد ولا تقل صلب وقتل، فإن الله سبحانه وتعالى أحياه في الأرض ما شاء ثم رفعه إلى السماء ثم قال ملك اللان: لن أرجع عن قولي، ثم استخرج صليباً من عنقه فرفعه ووضعه على عينه وأقبل يستنصر به فغضب شرحبيل من فعاله. فقال له: يا وليك تبأ لك ولمن معك ولمن يقول بقولك، ثم حمل عليه وأخذها في القتال وجلا جولاتنا عظيمًا فرمقهما الأبصار وجعل المسلمون يدعون لشرحبيل بالنصر والمعونة، ونظر شرحبيل إلى شدة الكافر ففرّ بين يديه كأنه منهزم فتبعد عنده، فلما علم شرحبيل أنه قد قاربه ثنى عنان جواده فطعنه بقناته يريد أن يجعلها في نحره فزاغ المشرك عن الطعنة ونجا منها سالماً، ثم قال: معاشر العرب أنتم لا تدعون الخديعة والمكر. فقال شرحبيل: ولذلك أما علمت أن الحرب خدعة والمكر رأسها. فقال العلاج: مما الذي نفعك من حيلتك؟ قال فضاربها حتى انقطع السيفان في أيديهما فاعتنقا معانقة شديدة وكان المشرك أعظم جثة وأشد منعة، وكان شرحبيل نحيف الجسم من كثرة الصيام والقيام فضغط عليه المشرك ضغطة أوجعه بها وهم أن يقتله في سرجه والفريقان ينظران إليهما. قال ضرار بن الأزور: فداخلي والله الغيط. فقلت في نفسي: ويحك يا ضرار يقتل هذا العلاج كاتب وهي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنت تنظر إليه فما يمنعك من نصرته.

قال الواقدي: فخرج ضرار نحوهما يسعى على قدميه كالظبية الخمساء حتى قرب منهما ولا يعلمان به جميئاً وكان في يده خنجر فضرب به العلاج من ورائه فأططلع الخنجر من قلبه فسقط العلاج قتيلاً وخلص شرحبيل من الضغطة. قال: فلما سقط العلاج عن ظهر جواده نزل إليه شرحبيل وسلب ما كان عليه من لامة حرية، وركب ضرار جواده وانثنى راجعاً هو وشرحبيل نحو المسلمين فهنا المسلمون شرحبيل وشكروا ضراراً على فعله. قال: ثم إن شرحبيل أخذ سلب العلاج فنازعه ضرار فيه. فقال: السلب لي وأنا قلتله، وقال شرحبيل: أنا آخذ السلب، فأتيا أبو عبيدة فخاف أبو عبيدة أن يحكم بينهما فلا يرضون بحكمه، فكتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: يا أمير المؤمنين إن رجلاً خرج إلى البراز وقاتل علجاً من الأعلاج وبلغ معه الجهد جهيد، فخرج آخر من

المسلمين فأعان الرجل وقتل العلوج، قال: ولم يسم أبو عبيدة الرجلين فلمن السلب منهم؟ فجاء الجواب من عمر بن الخطاب إن السلب للقاتل فأخذ السلب أبو عبيدة من شرحبيل وأعطاه ضراراً. فقال **﴿هُذُّلْكَ فَضْلُّ اللَّهِ بِيُؤْتِيهِ مِنْ بِشَاءِ﴾** [المائدة: ٥٤].

قال الواقدي: ولما قتل ضرار ملك اللان غضبت الروم، فخرج فارس شجاع وطلب البراز فخرج إليه الزبير بن العوام رضي الله عنه فقتله وأخذ سلبه وخرج إليه ثان وثالث ورابع فقتلهم وأخذ أسلابهم. فقال خالد لأبي عبيدة: إن الزبير قد تجرد للروم وبذل نفسه لله ولرسوله وأخاف عليه من التعب فصال عليه أبو عبيدة وأقسم عليه، فرجع الزبير إلى مقامه. قال وخرج من الروم بطريق فخرج إليه خالد بن الوليد وكان ملك الروسية فقتله خالد وكان زوج بنت ملك اللان قوم سلبه وتابجه ومنطقته وصلبيه ودرعه بخمسة عشر ألفاً. قال: فأخبر ماهان بذلك فغضب وقال: سيدان منا قتلا في يوم واحد وإنى أظن أن المسيح لا ينصرنا ثم أمر الرماة أن يرموا عن يد واحدة فرموا سهامهم وأطلقوا نحو المسلمين دفعه واحدة مائة ألف سهم، فكان النشاب يقع في عساكر المسلمين كسقوط البرد من السماء فكثرت الجراح في الناس واعوز من المسلمين سبعمائة عين فسمى ذلك اليوم يوم التعوير، وكان من أصيب بعيته المغيرة بن شعبة وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل التميمي وأبو سفيان صخر بن حرب وراشد بن سعيد وكان الرجل بعد ذلك يلقي الرجل. فيقول له: ما الذي أصاب عينك؟ فيقول الآخر: لا تقل مصيبة بل هي محنـة من الله. قال: وعظم وقع السهام في عسكر المسلمين حتى ما ذنت تسمع إلا من يصيح واعيناه وبصره واحدقته وعظم اضطراب المسلمين من ذلك. قال: فجذبت العرب أعنـة خيولها راجعة. قال ونظر ماهان اللعين إلى اضطراب جيش المسلمين فحرض الرماة والروم وصاح برجاله وزحفت المسلاسل نحو المسلمين فهالهم ذلك وحمل جرجر وقنطير وقورين، وقال ماهان: اثبتو على الحملة وارموا العرب بالنشاب فزادت الرماة في رميها وزحفت المسلاسل بحديدها والبوارق تلمع من أكف الرجال كمقاييس النيران وال Herb قائمة على ساق، وأخذ المسلمون على أنفسهم إشفاقاً مما نزل بهم ووصل إليهم من قلع الأحداق، قال عباد بن عامر: فنظرت إلى جيش الشرك وهو نحونا سائر وفرسان المسلمين متاخرة وخيولهم ناكصة. فقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم: اللهم أنزل علينا نصرك الذي نصرتنا به في المواطن كلها، ثم صحت في رجال حمير تهربون من الجنة إلى النار ما هذا الفرار أما تخافون العار؟ أما أنتم بين يدي الجبار: أما هو عالم الأسرار فررتم من الكفار. قال بما أجباني والله أحد كأنهم صم لا يسمعون؟ قال: فقلت: كأن قبيلتك خرست عن الجواب فجعلت أهتف بقبائل العرب فكل قد شغل بنفسه عن إجابتي فجعلت أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، بما كان غير بعيد حتى نزل النصر من الله. وذلك أن المسلمين قد انقلبوا

راجعين نحو تل النساء ولم يثبت غير أصحاب الرأيات. قال عبد الله بن قرط الأستدي: شهدت القتال كله فلم أر قتالاً أشد من يوم التعرير ورجعت الخيل على أذنابها وقاتلته الأماء بأنفسها والرأيats بأيديهم حتى كان أبو عبيدة ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص والمسيب بن نجية الفزاروي وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق والفضل بن العباس يقاتلون قتالاً شديداً. قال عبد الله بن قرط: فقلت في نفسي: وكم مقدار ما يقاتلون هؤلاء وهم نفر يسير حتى ساعدتنا النساء اللاتي شهدن مع رسول الله ﷺ المشاهد يداوين الجرحى ويستقين الماء ويبزرن إلى القتال ولم أر امرأة من نساء قريش قاتلت بين يدي رسول الله ﷺ ولا في اليمامة مع خالد مثل ما قاتلت نساء قريش يوم اليرموك حين دهمهن القتال وخالط الروم المسلمين فضربن بالسيوف ضرباً وجيعاً، وذلك في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان قد انضم النساء المهاجرات لغيرةهن وقامت الحرب على ساق وتنادي النساء بأسابهن وأمهاتهن وألقابهن، وجعلن يقاتلن قتال الموت ويضربن وجوه الخيل بالعدم ويلوحن بالأطفال، وجعل النساء بعضهن يقاتل المشركين وبعضهم يقاتل المسلمين حتى رجعوا إلى قتال المشركين وبعضهن يسقي الماء وبعضهن يشد الجراح. قال فيبينما هن يقاتلن وقد هجمت الرجال إذ انهزمت نساء لخم وجذام وخولان، فخرجت خولة بنت الأزور وأم حكيم ابنة حكيم بنت الحارث وسلمي بنت لؤي، وجعلن يضربن في وجوههن ورؤوسهن بالعدم ويقلن: اخرجن من بيننا فأنتن توهن جمعنا. قال فرجعت نساء لخم وجذام يقاتلن قتال الموت، وقاتلته أم حكيم بنت الحارث أمام الخيل بالسيف وما نسمع يومئذ صوت واحدة من النساء غير صوت واعظة تعظ، وأما أم حكيم فإنها جعلت تنادي: يا معاشر العرب احصدوا الغلف، بالسيوف، وأما النساء بنت أمي بكر فإنها قرنت عنانها بعنان زوجها الزبير بن العوام فما كان يضرب إلا ضربت مثله. قال فتراجع المسلمون إلى القتال حين رأوا النساء يقاتلن قتال الموت ويقول الرجل لمن يليه: إن لم نقاتل نحن هؤلاء.. وإن فنحن أحق بالخدور من النساء، فلله در نساء قريش يوم اليرموك.

قال الواقدي: حدثني عبد الرحمن بن الفضل عن يزيد بن أبي سفيان عن مكحول قال: كانت وقعة اليرموك في رجب سنة خمس عشرة من الهجرة، قال أبو عامر: وحملت خولة بنت الأزور على علچ من الأعلاچ كان قد حمل علينا فاستقبلته وجعلت تشاشه بالسيف ضربها العلچ بسيفه على قصتها فأسال دمها وسقطت إلى الأرض فصاحت عفيرة بنت عفان حين نظرتها صريعة ونادت: فجع والله ضرار في أخته فأخذت رأسها على ركبتيها والدم قد صبغ شعرها كالشقائق فقالت لها: كيف تجدى؟ قالت: أنا بخير إن شاء الله تعالى ولكنني هالكة لا محالة فهل لك علي بأخي ضرار. فقالت عفيرة: يا ابنة الأزور ما رأيتك. فقالت خولة: اللهم اجعلني فداء لأخي ولا تفجع به بالإسلام قالت عفيرة

فجهدت أن تقوم معي فلم تقم فحملناها إلى أن أتيت بها موضعها، فلما كان الليل رأيتها وهي تدور تسقي الرجال وكان ليس بها ألم قط ونظر إليها أخوها والضربة في رأسها. فقال لها: ما بك؟ قالت: ضربني علوج قتلته عفيرة. فقال لها: يا أختاه أبشرى بالجنة فقد أخذت لك بثأر الضربة مرازاً وقتلت منهم أعداً قال ولم يزل العرب من أول النهار وكلما قرب الليل يزيد ويشتعل ضرائمها وأبو عبيدة يقاتل برأيته والأمراء يفعلون ك فعله إلى أن فصل بينهما الظلام، وقد قتل من الروم يوم التعويذ أربعون ألفاً أو يزيدون، ونقل عن خالد أنه انقطع في يده ذلك اليوم تسعة أسياف ولقد أخبرنا عن خالد بن الوليد ممن حضر قتال اليرموك وشاهده قال: كان يعد قتال خالد بمائة رجل من شجعان الرجال، قال حازم بن معن: وبرز من المشركين في قلب الواقعة أصحاب الدبياج والحرير والتجافيف على الخيول الشهب والبلق لأنها من العجال الراسيات، فلما بрезوا غاصوا في القلب وكروا كرة واحدة ورفعوا في وسطهم صليباً من الجوهر وحملت ميمتهم على ميسرتنا وميسرتهم على ميسرتنا، وقد شردوا إلى النساء والنساء يضربن وجوههن فجعلن يصحن بهم الله لا تغموا الإسلام بهزيمتكم واتقوا ربكم. قال كان بين يدي أبي عبيدة رجل من محرز اسمه نجم بن مفرح وكان من خطباء العصر وأفصح العرب لساناً وأجرئها جنائاً وكان رفيع الصوت حسنه جداً فقصده العرب والفصحاء يسمعون ما ينطق به من نظمه ونشره.

قال الواقدي: حدثني عبد الملك بن محمد عن أبيه عن حسان بن كعب عن عبد الواحد عن عوف عن موسى بن عمران اليشكري قال: رأيت نصر بن مازن وهو بجامع النيل يحدث عن وقعة اليرموك. قال: ما رد الناس عن الهزيمة بعد قضاء الله إلى نصرة الإسلام إلا غلام رجل منبني محارب يقال له نجم بن مفرح وكان لا يتكلم إلا بالسجع يؤلفه بحسن نظمه وقد حفظنا منه يوم اليرموك ما نحن نذكره عنه، ولقد بلغني أن البلاء الفصحاء المتأخرین مثل الأصماعي وأبي عبيدة اللغوي ينسجان على منواله في حسن كلامه فكان من جملة ما وعظ به المسلمين يوم اليرموك وقت هزيمتهم: أيها الناس هذا يوم له ما بعده وقد عايت قربه من بعده ولن تزال الجنة إلا بالصبر على المكاره وتالله لا ينالها من هو للجهاد كاره وينشد:

ولتكنها محفوفة بالمكاره والله في عرض السموات جنة

وأعلى الدرجات درجة الشهادة فأرضاوا عالم الغيب والشهادة وهذا الجهاد قد قام على ساقه وكسد النفاق في أسواقه وأخفى نفاقه في نفاقه وأنتم أصحاب نبي العصر فأيستم من الثبات والنصر بشرعوا روح المصطفى بثباتكم وقوموا العزم بصفاء نياتكم وإيتاكم أن تولوا الأدباء فتستوجوا عذاب النار وغضب الجبار، فوالذي قدر الأقدار، وأدار الفلك

الدوار، وكل شيء عنده بمقدار لقد تزيينت لكم الحور العين بأيديهن أباريق وكأس من معين، فمن طلب دار البقا هان عليه ما يلقى، فحققوا حملتكم تناولوا بغيتكم واطعنوا الصدور تناولوا الحور وشرعوا الأسنة تناولوا الجنة واغتنموا الصبر يكتب لكم الأجر، بشروا المؤمنين بحسن عملكم وإياكم أن تضلوا عن سبيلكم لا توافقوا الكفار في جهنم واعدلوا عن طريق قولهم ووافقوا من سلف من أسلافكم في فعلهم واسمعوا ما نزل في القرآن من أجلهم «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيُسْتَخْلِفُنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُمْ ذِي أَرْتِضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خُوفِهِمْ أَمَّا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشَرِّكُونَ بِي شَيْئًا وَمِنْ كُفَّارَ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» [النور: ٥٥] سيروا فقد سبق المفردون، واجتهدوا فقد فاز المجتهدون «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا اللَّهُ حَقُّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» [آل عمران: ١٠٢] قال وحمل خالد بن الوليد بعصابة حمراء وهو يفوز الروم باسمه ويقول: أنا خالد بن الوليد فبرز إليه بطريق يقال له النسطور وعليه الدبياج فأقبل يدعو خالدًا وبهمهم وخالد في القتال لا يشعر به ولا يدرى ما يقول فعندما سمعه يرطن عطف عليه فاقتلا قتالاً شديداً في بينما هما في أشد القتال إذ كبا بخالد الجود فوقع الفرس على يديه وهو خالد على أم رأسه. فقال الناس: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال الواقدي: وخالد يقول: حي حي فعلاً البطريق على ظهر خالد في عثرته وقد سقطت قلنستوه من رأسه فصاح: قلنستوي رحمكم الله فأخذها رجل من قومه منبني مخزوم وناوله إيتها فأخذها خالد ولبسها فقيل له فيما بعد: يا أبا سليمان أنت في مثل هذا الحال من القتال وأنت تقول قلنستوي. فقال خالد: إن رسول الله ﷺ لما حلّ رأسه في حجة الوداع أخذت من شعره شعرات. فقال لي: ما تصنع بهؤلاء يا خالد؟ فقلت: أتبرك بها يا رسول الله وأستعين بها على القتال قتال أعدائي فقال لي النبي ﷺ: لا تزال منصوراً ما دامت معك فجعلتها في مقدمة قلنستوي فلم أقل جمعاً قط إلا انهزموا ببركة رسول الله ﷺ، قال ثم شدها بعصابة حمراء وحمل على النسطور وضربه على عانقه فأخرج السيف من علاققه وانحرس من بقي من ملوكيهم وكرهوا البراز بعد ذلك فكان يدعوهم إلى البراز فلا يخرج إليه أحد ولم يزل يضرب فيهم بسيفه حتى كل فأشفق عليه الحارث بن هشام المخزومي فقال لأبي عبيدة: أيها الأمير لقد قضى خالد ما يجب عليه وأدى السيف حقه فلم لا أمرته أن يريح نفسه قال فمشى أبو عبيدة إليه وجعل يعزم عليه أن لا يتقدم ويسأله أن يريح نفسه. فقال خالد: أيها الأمير: أما والله لأطلب الشهادة بكل وجه فإن أخطأتني فالله يعلم نيتى وحمل فلم يرجع عن حملته حتى جلاها، وذلك أن كل المسلمين استغفوه في حملته وأقبلوا على القتال من بعد هزيمتهم والنساء أمام الرجال ولم يزل الحرب بين الفريقين حتى انقلب الروم على

أعقابها وقد قتل منهم ألف عديدة، وأما أصحاب السلاسل فانحطم أكثرهم ووطلتهم الخيل بحوارتها ولم يزل القتال بينهم حتى مالت الشمس بغروبها وانفصل الجمuan وقد جرت الدماء بينهم وفرشت الأرض بالقتلى والجراح فاشية في الجماعين لكن في الروم أكثر ورجع كل قوم إلى إصلاح شأنهم ومداواة جراحهم، وأما النساء فأصلحن الطعام وشددن الجروح وداوين السقام، ولم يقل أبو عبيدة لأحد من المسلمين من يكون الليلة على حرس المسلمين لما عندهم من التعب بل إنه تولى الحرس بنفسه ومعه جماعة من المسلمين، قال فيما هو يدور إذ رأى فارسین قد لقياه وهما يدوران بدورانه فكلما قال: لا إله إلا الله قالا محمد رسول الله فقرب أبو عبيدة منها فإذا هما الزبير بن العوام وزوجته أسماء بنت أبي بكر الصديق فسلم عليهما وقال: يا ابن عمّة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما الذي أخرجكم؟ قال الزبير: نحرس المسلمين، وذلك أن أسماء قالت لي: يا ابن عمّة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إن المسلمين مستغلون بأنفسهم في هذه الليلة عن الحرس بما لحقهم من التعب في الجهاد طول يومهم فهل لك أن تساعدني على حرس المسلمين؟ فأجبتها إلى ذلك فشكرهما أبو عبيدة وعزم عليهما أن يرجعا فلم يفعلا ولم يزال كذلك إلى الصباح.

قال الواقدي: حدثني أبو عبيدة عن صفوان بن عمرو بن عبد الرحمن بن جبير أن أبي الجعيد كان رئيساً من رؤساء أهل حمص، فلما اجتمعت الروم على المسلمين في اليرموك دخلوا على حمص ونزلوا في بلدة تسمى الزراعة، وكان أبو الجعيد هذا قد جعلها مسكنه لطيب هوائها ومانها وانتقل من حمص إليها فنزل عسكر الروم على الزراعة عنده وكان فيها عرس لأبي الجعيد وزوجته تزف عليه في تلك الليلة. قال فتكلف أبو الجعيد بضيافة الروم وأكرمهم وأطعمهم وسقاهم الخمر، فلما فرغوا من أمورهم قال: هات امرأتك إلينا فأبى ذلك وسبّهم فأبوا إلاأخذ العروس، فلما شنع عليهم بذلك عمدوا إلى العروس وأخذوها كرها منه وعيثوا بها بقية ليلتهم فبكى أبو الجعيد من حزنه ودعا عليهم فقتلوا أولاده، وكان له ولد من زوجة غيرها قال: فأقبلت أم الفتى فأخذت رأس ولدها في خمارها وأقبلت به إلى مقدم ذلك الجيش ورمت الرئيس إليه وشكّت حالها، وقالت له: انظر ما صنع أصحابك بولدي فخذ بحقّي فلم يعبأ بكلامها. فقالت له أم الفتى: والله لتنصرن العرب عليكم ورجعت وهي تدعوا عليه فما كان إلا يسير حتى هلكوا في أيدي المسلمين، قال فلما كان يوم اليرموك بعدما قتل النسطور أتى أبو الجعيد إلى عساكر المسلمين، وقال لخالد: أعلم أن هذا الجيش النازل بإزائهم جيش عظيم ولو سلموا أنفسهم إليكم للقتل لما فرغتم من قتلهم إلا في المدة الطويلة فإن كدمتهم لكم في هذه الليلة مكيدة تظفرون بها عليهم ماذا تعطوني؟ قالوا: نعطيك كذا وكذا ولا تؤدي جزية أنت ولدك وأهل بيتك ونكتب لك بذلك عهداً إلى آخر عقبك.

قال الواقدي: فلما استوثق منهم لنفسه مضى إلى الروم وهم لا يعلمون وأتى إلى واد عظيم مملوء ماء فأنزل الروم إلى جانبه، وقال لهم: إن هذا المنزل به العرب وأنا سأكيد لكم العرب بمكيدة يهلكون بها. قال وجعل الناقوسة فيما بين الروم والعرب ولم يعلم أحد من الروم ما عميقها. قال فلما كان يوم التعويير وعلم أبو الجعید أن النصر للعرب وأن العرب هم المنصوروں، جاء أبو الجعید إلى أبو عبيدة فوجده يطوف تلك الليلة هو وجماعة من المسلمين المهاجرين. فقال لهم: ما قعودكم؟ قالوا: وما نصنع؟ قال: إذا كان ليلة غد فأكثروا من النيران. ثم رجع إلى الروم لينصب عليهم حيلة. فلما كانت الليلة الثانية أوقد المسلمون أكثر من عشرة آلاف نار، فلما اشتعلت النيران أقبل إليهم أبو الجعید، فقالوا: قد أشعّلنا النيران كما أردت فما بعد ذلك؟ قال: أريد منكم خمسمائة رجل من أبطالكم حتى أشير عليهم بما يصنعون.

قال الواقدي: فاختار من المسلمين خمسمائة رجل من جملتهم ضرار بن الأزور وعياض ورافع وعبد الله بن ياسر وعبد الله بن أوس وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر وغانم بن عبد الله ومثل هؤلاء السادات، فلما اجتمعوا سار بهم أبو الجعید على غير المخاضة وقصد بهم عسكر الروم، فلما كادوا يخالطونهم أخذ أبو الجعید منهم رجالاً ودلّهم على المخاضة ولم يكن يعلم بها أحد سواه من سكن اليرموك وقال لهم: ناوشوهم الحرب، ثم انهزموا ودعوني وإياهم. فعلوا ذلك واصححوا فيهم وحملوا ثم انهزموا قدامهم نحو المخاضة، فعند ذلك صاح أبو الجعید برفع صوته: يا معاشر الروم دونكم ومن انحزم فهو لاء المسلمين، قد أوقدوا نيرانهم وعولوا على الحرب. قال فأقبلت الروم على حال عجلة يظنون أن ذلك حق، وبعضهم ركب جواهه عرياناً وبعضهم راجل وساروا في طلب المنهزمين وأبو الجعید يعدو بين أيديهم إلى أن أوقفهم على الناقوسة وقال لهم: هذه المخاضة دونكم وإياهم فأقبلوا يتسلّقون في الماء كتساقط الجراد حتى هلك في الماء ما لا يعد ولا يحصى عدداً ولا يدركه جنان فسمّتها العرب الناقوسة لنقص الروم.

قال الواقدي: هذا ما جرى للروم، ولا يعلم الأول بما جرى للأخر حتى أصبحوا، فنظروا المسلمين في أماكنهم فعلموا أنهم قد دهموا في الليل وقل عددهم وتبدّل شملهم فقال بعضهم لبعض: من كان الصائب في ليتنا. قال الرجل الذي عبّث بزوجته وقتلت ولده وقد أخذ بثأره منكم، قال فلما أصبح ماهان وعلم الحقيقة وعلم ما نزل بأصحابه علم أنه هالك لا محالة وأن العرب ظافرون عليه، فبعث إلى قورين، فقال: ما ترى أن أصنع وقد ظهرت العرب علينا وإن حملوا علينا حملة لم ينفلت منها أحد، فهل لك أن تسألهما أن يأخذوا القتال حتى نفعل الحيلة في خلاص أنفسنا؟ قال قورين: أفعل ذلك.

قال فدعا ماهان برجل من لخم ويعثه إلى المسلمين يقول لهم: اعلموا أن الحرب سجال والدنيا زوال وقد مكرتم بنا فلا تبعوا فالبغى له مصرع وأخروا الحرب عنا يومنا هذا، فإذا كان غد يكون الانفصال بيننا وبينكم. قال: فأقبل اللخمي إلى أبي عبيدة وبلغه الرسالة فهم أبو عبيدة أن يجيئهم إلى ذلك فمنه خالد من ذلك وقال له: لا تفعل أيها الأمير فما عند القوم خير بعد ذلك. فقال أبو عبيدة: ارجع إلى صاحبك وقل له لا نؤخر عنك القتال وإنما على عجل من أمرنا فرجع الرسول إلى ماهان فأعلمه بجواب أبي عبيدة فعظم عليه وكبر لديه وكفر وتجرأ وقال: لقد كنت أتربيص بنفسي عن العرب أرجو بذلك الصلح فوحق الصليب لا يبرز لهم غيري ثم صرخ بالروم وأصحاب سرير الملك، ومن كان يتكل عليه في الشدائند وأمرهم أن يأخذوا الألهة فاستعدوا وخرج ماهان في مقدمة الجيش والصلب أمامه وإذا بالمسلمين أخذوا مصافهم للقتل، وذلك أن أبو عبيدة صلى بالمسلمين صلاة الفجر وأمرهم بالسرعة للقتال وأخذوا مواضعهم للربح ففعلوا وقد أيقنوا أنهم منصورون على عدوهم، وصف أبو عبيدة أصحاب الرايات ووقف هو وخالد في الخيل المعروفة بخيل الزحف وطلعت الشمس وخرج جرجير هو وبعض ملوك الروم ودعا بالبراز وقال: لا يبرز لي إلا أمير العرب فسمعه أبو عبيدة فسلم الراية إلى خالد، وقال: أنت للراية يا أبي سليمان فإن عدت من قتاله فالراية لي وإن هو قتلني فأمسك رايتك حتى يرى عمر رأيه. فقال خالد: أنا لقتاله دونك فقال أبو عبيدة: لا هو طلبني ولا بد لي من الخروج إليه وأنت شريك في الأجر، فخرج أبو عبيدة وما أحد من المسلمين إلا وهو كاره لذلك فأقبلوا يسألونه فلج في الخروج فتركوه ورأيه، فلما قرب أبو عبيدة من جرجير وعاينه قال له: أنت أمير هذا الجيش؟ فقال أبو عبيدة: أنا ذلك وقد أجبتك إلى ما طلبت من أمر البراز فدونك وعرض الميدان، فإذا هزمتكم أو قتلتكم وأقتل ماهان بعده. فقال جرجير: أمة الصليب تغلبكم وحمل جرجير على أبي عبيدة وحمل أبو عبيدة على جرجير وطال بينهما القتال ويقي خالد ينظر إلى أبي عبيدة وأخذ في بالسلامة والنصر وجميع المسلمين يدعون له. قال: وفر جرجير أمام أبي عبيدة ويدعوه عرض الجيش وطلب في فراره جيش المشركين في الميمنة وتبعه أبو عبيدة على أثره فعندها عطف عليه جرجير وخرج كأنه البرق والتقطيا بضربيتين فكان أبو عبيدة أسبق فوقع الضربة على عاتق جرجير فخرجت من علائقه فكثير عند ذلك أبو عبيدة وكثير المسلمين ووقف أبو عبيدة على مصرع جرجير وجعل يتعجب من عظم جثته ولم يأخذ من سلبه شيئاً فنادى به خالد: الله درك أيها الأمير ارجع إلى رايتك فقد قضيت ما يجب عليك فلم يرجع أبو عبيدة فأقسم عليه المسلمين أن يرجع فرجع وأخذ الراية من يد خالد ونظر ماهان إلى جرجير فعظم ذلك عليه وكثير لديه لأنه كان ركناً من أركانهم فهم بالهزيمة، ثم قال في نفسه: ماذا يكون عذري عند هرقل ولا بد أن أبرز إلى الحرب، فإن قتلت فقد

استرحت من العار وإن سلمت كان لي عند الملك عندر أحسن من أن أولي الأدبار، ثم إنه أعلم رجاله أنه يريد المبارزة بنفسه وأخذ عدته ولبس زينته وخرج كأنه جبل ذهب يلمع ثم جمع إليه البطارقة والقسوس والرهبان، وقال لهم: إن الملك هرقل كان أعلم منكم بهذا الأمر وإنه أراد الصلح فحالتموه فيها أنا أبرز إليهم بنفسي فتقدمن إلية بطريق من بطارقة السرير وكان فيه نسك ودين وكان يعظم الكنائس والرهبان ويتعظ ما فرض عليه في الإنجيل وكان يقرب من جرجير في النسب، فلما علم بقتله عظم عليه وقال: حق الصليب لأبرزن إلى المسلمين وأخذ بالثار، فإما أن الحق به وإما أن أقتل قاتله . . .

ثم قال لماهان: قد تعين علي الجهاد وأنا أؤدي فرض المسيح ولا بد لي من المبارزة، قال: فتركه ماهان فخرج وكان اسمه جرجيس وكان عليه درع وعلى الدرع ثوب حديد متقلد بسيفه ومعه قنطرة وعوذته القسوس وبخروه يبخور الكنائس وأقبل إليه راهب عمورية وأعطاه صليباً كان في عنقه وقال: هذا الصليب من أيام المسيح يتوارثه الرهبان ويتمسحون به فهو ينصرك فأخذه جرجيس ونادي: البراز بكلام عربي فصيح حتى ظن الناس أنه عربي من المنتصرة فخرج إليه ضرار بن الأزرور كأنه شعلة نار، فلما قاربه ونظر إليه وإلى عظم جثته ندم على خروجه بالعدا التي أفلته. فقال في نفسه: وما عسى يعني هذا اللباس إذا حضر الأجل ثم رجع مولياً فظن الناس أنه ولى فرعاً فقال قائل منهم: إن ضراراً قد انهزم من العلح وما ضبط عنه قط أنه انهزم وهو لا يكلم أحداً حتى صار إلى خيمته ونزع ثيابه وبيقي بالسراويل وأخذ قوسه وتقلد بسيفه وحجهته وعاد إلى الميدان كأنه الظبية الخمساء فوجد مالكا النخعي قد سبقه إلى الطريق وكان مالك من الخطاط إذا ركب الجواد تسحب رجاله على الأرض فنظر ضرار فإذا بمالك ينادي العلح تقدم يا عدو الله يا عابد الصليب إلى الرجل النجيب ناصر محمد الحبيب فلم يجده العلح لما دخله من الخوف منه قال فجال عليه وهم أن يطعنه فلم يجد للطعنة مكاناً لما عليه من الحديد فقصد جواده وطعنه في خاصرته فأططلع السنان يلمع من الجانب الآخر فنفر الجواد وهو على ظهره لم يقدر أن يتحرك، لأنه مزرر في ظهر الجواد بزنانيه إلى سرجه فنظر المسلمين إلى ضرار وقد أسرع إليه مثل الظبية حتى وصل إليه وضرره بسيفه على هامته فشطرها نصفين وأخذ سلبه فأتاها مالك وقال: ما هذا يا ضرار تشاركتني في صيدي فقال: ما أنا بشريكك، وإنما أنا صاحب السلب وهو لي. فقال مالك: أنا قتلت جواده؟ فقال ضرار: رب ساع لقاعد آكل غير حامل فتبسم مالك، وقال: خذ صيتك هناك الله به قال ضرار: إنما أنا مازح في كلامي خذه إليك فوالله ما آخذ منه شيئاً وهو لك وأنت أحق به مني ثم انتزع سلب العلح وحمله على عاتقه وما كاد أن يمشي به وهو يتصرف عرقاً قال

زهير بن عابد: ولقد رأيته وهو يسير به وهو راجل ومالك فارس حتى طرحة في رحل مالك. فقال أبو عبيدة: بأبي وأمي والله قوم وهبوا أنفسهم الله وما يريدون الدنيا قال فلما قتل الطريق قص جناح ماهان فصاح بقومه وجمعهم إليه وقال لهم: اسمعوا يا أصحاب الملك وبلغوه عني أني ما تركت جهدي في نصرة هذا الدين وحميت عن الملك وقاتلته عن نعمته وما أقدر أن أغغل رب السماء، لأنه قد نصر العرب علينا وملكهم بلدنا والآن ما لي وجه أرجع به إلى الملك حتى أخرج إلى الحرب وأبرز إلى مقام الطعن والضرب وزعمت أن أسلم الصليب إلى أحدكم وأبرز إلى قتال المسلمين، فإن قلت فقد استرحت من العار ومن توبيق الملك لي، وإن رزقت النصر وأثرت في المسلمين أثراً ورجعت سالماً علم الملك أني لم أقصّر عن نصرته فقالوا: أيها الملك لا تخرج إلى الحرب حتى تخرج نحن إلى القتال قبلك فإذا قتلتانا فافعل بعدها ما شئت، قال: فحلف ماهان بالكنائس الأربع لا يبرز أحد قبله، قال فلما حلف أمسكوا عنه وعن مراجعته ثم إنه دعا بابن له فدفع إليه الصليب وقال: قف مكانى وقدم لماهان عدة فأفرغت عليه.

قال الواقدي: وبلغنا أن عذته التي خرج بها إلى الحرب تقومت بستين ألف دينار لأن جميعها كان مرصعاً بالجوهر، فلما عزم على الخروج تقدم له راهب من الرهبان، فقال: أيها الملك ما أرى لك إلى البراز سبيلاً ولا أحبه لك، قال: ولم ذلك؟ قال: لأنني رأيت لك رؤيا فارجع ودع غيرك يبرز. فقال ماهان: لست أفعل والقتل أحب إلى من العار، قال: فيخرون ووذعوه وخرج ماهان إلى القتال وهو كأنه جبل ذهب يبرق وأقبل حتى وقف بين الصفين ودعا إلى البراز وخوف باسمه فكان أول من عرفه خالد بن الوليد فقال: هذا ماهان هذا صاحب القوم قد خرج، والله ما عندهم شيء من الخير قال ومهان يرعب باسمه فخرج إليه غلام من الأوس وقال: والله أنا مشتاق إلى الجنة وحمل ماهان وبيه عمود من ذهب كان تحت فخذه فضرب به الغلام فقتله وعجل الله بروحه إلى الجنة. قال أبو هريرة رضي الله عنه: فنظرت إلى الغلام عندما سقط وهو يشير بإصبعه نحو السماء ولم يهله ما لحقه فعلمت أن ذلك لفرحه بما عاين من الحور العين قال: فجال ماهان على مصرعه وقوى قلبه ودعا إلى البراز فسارع المسلمون إليه فكل يقول: اللهم اجعل قتيله على يدي، وكان أول من برع مالك النخعي الأشتر رضي الله عنه وساواه في الميدان فابتدر مالك ماهان بالكلام وقال له: أيها العلّج الأغلف لا تغتر بمن قتلتة، وإنما اشتاق صاحبنا إلى لقاء ربه وما منا إلا من هو مشتاق إلى الجنة، فإن أردت مجاورتنا في جنات النعيم فانطلق بكلمة الشهادة أو أداء الجزية وإنما هالك لا محالة. فقال له ماهان: أنت صاحببي خالد بن الوليد؟ قال: لا أنا مالك النخعي صاحب رسول الله ﷺ فقال ماهان: لا بد لي من الحرب ثم حمل على مالك وكان من أهل الشجاعة فاجتهد في القتال فأخرج ماهان عموده وضرب به مالكا على البيضة التي على

رأسه فغاصت في جبهة مالك فشتلت عينيه فمن ذلك اليوم سمي بالأشتر قال: فلما رأى مالك ما نزل به من ضربة ماهان عزم على الرجوع ثم فكر فيما عزم عليه فدبر نفسه، وعلم أن الله ناصره قال والدم فائز من جبهته وعدو الله يظن أنه قتل مالكا وهو ينظره متى يقع عن ظهر فرسه وإذا بمالك قد حمل وأخذته أصوات المسلمين يا مالك استعن بالله يعينك على قرينه قال مالك: فاستعنت بالله عليه وصلت على رسول الله ﷺ وضربته ضربة عظيمة فقطع سيفي فيه قطعاً غير موهن فعلمت أن الأجل حصين، فلما أحس ماهان بالضربة ولّى ودخل في عسكره.

قال الواقدي: ولما ولّى ماهان بين يدي مالك الأشتر منهزمًا صاح خالد المسلمين: يا أهل النصر والباس احملوا على القوم ما داموا في دهشتهم ثم حمل خالد ومن معه من جيشه وحمل كل الأمراء بمن معهم وتبعم المسلمين بالتهليل والتکبير فصبرت لهم الروم بعض الصبر، حتى إذا غابت الشمس وأظلم الأفق انكشف الروم منهزمين بين أيديهم وتبعم المسلمين يأسرون ويقتلون كيف شاءوا فقتلوا منهم زهاء من مائة ألف وأسرروا مثلها وغرق في الناقوسة منهم مثلها وأتمم لا تحصى وتفرق منهم في الجبال والأودية وخيم المسلمين من ورائهم يقتلون ويأسرون ويأتون من الجبال بالأسرى ولم يزل المسلمون يقتلون ويأسرون إلى أن راك الليل. فقال أبو عبيدة: أتركهم إلى الصباح فتراجعوا المسلمين وقد امتلأت أيديهم من الغنائم والسرادقات وأذية الذهب والفضة والزلزال والنمارق والطنافس.

قال الواقدي: ووكل أبو عبيدة رجالاً من المسلمين بجمع الغنائم وبات المسلمين فرحين بنصر الله حتى أصبحوا، فإذا ليس للروم خبر وقع أكثرهم في الناقوسة في الليل.

قال عامر بن ياسر: حدثني نوفل بن عدي عن جابر بن نصر عن حامد بن مجيد. قال: أراد أبو عبيدة أن يحصي عدد المشركين فلم يقدر أن يحصي ذلك فأمر بقطع القصب من الوادي وجعل على كل قتيل قصبة، ثم عدوا القصب فإذا القتلى مائة ألف وخمسة آلاف والأسرى أربعون ألفاً غير من غرق في الناقوسة وقتل من المسلمين أربعة آلاف ووجد أبو عبيدة رؤوساً في اليرموك فلم يعلم أهم من العرب أم من الروم. قال: ثم إنه صلى على قتلى المسلمين وسار في طلبهم إلى الجبال والأودية وإذا هم برابع قد استقبلهم فسألوه هل مزّ بك أحد من الروم؟ قال: نعم مر بي بطريق ومعه زهاء من أربعين ألفاً.

قال الواقدي: وكان ذلك ماهان لعنه الله فاتبعهم خالد بن الوليد وجعل يقفوا أثراً لهم ومعه عسكر الزحف فأدركهم على دمشق، ولما أشرف عليهم كثيرون وكثر المسلمين

وحملوا ووضعوا فيهم السيف فقتل مقتلة عظيمة، وكان ماهان قد ترجل عن جواده، وقيل إنه ترجل ينكر نفسه وسلم من القتل فأتاه رجل من المسلمين فحامي عن نفسه فقتله الرجل، وكان قاتله النعمان بن جهله الأزدي وعاصم بن خوال اليربوعي وقد اختلفوا في أيهما قتل ماهان.

قال الواقدي: وخرج أهل دمشق إلى لقاء خالد وقالوا له: نحن على عهتنا الذي كان بيننا وبينكم. قال خالد: أنتم على عهدم ومضى في طلب الروم يقتلهم حيث وجدوهم حتى انتهى إلى ثنية العقارب وأقام تحتها يوماً، ثم مضى إلى حمص ونزل بها وبلغ ذلك أبو عبيدة فسار حتى لحق به فيمن معه قال والأمراء في طلب الروم من كل جهة من الشام ثم اجتمعوا وعادوا إلى دمشق وجمع أبو عبيدة الغنائم وأخرج منها الخمس وكتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتاب البشرة والفتح: بسم الله الرحمن الرحيم وصلوات الله على نبي المصطفى ورسوله المجتبى ﷺ، من أبي عبيدة عامر بن الجراح: أما بعد فأنا أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأشكره على ما أولاًنا من النعم وخصنا به من كرمه ببركات نبي الرحمة وشفيع الأمة ﷺ، واعلم يا أمير المؤمنين أنني نزلت اليرموك ونزل ماهان مقدم جيوش الروم بالقرب منا ولم ير المسلمين أكثر جمعاً منه فأقصى الله تلك الجموع ونصرنا عليهم بمنه وكرمه وفضلة فقتلنا منهم زهاء من مائة ألف وخمسة آلاف وأسرنا منهم أربعين ألفاً واستشهد من المسلمين أربعة آلاف ختم الله لهم بالشهادة ووجدت في المعركة رؤوساً مقطوعة لم أعرفها فصليت عليها ودفنتها وقتل ماهان على دمشق قتله عاصم بن خوال، وقد كان قبل وقعة الانفصال نصب عليهم رجل منهم يقال له أبو الجعيد من أهل حمص حيلة فألقاهم في موضع يقال له الناقوصة ففرق منهم ما لا يحصى عددهم إلا الله تعالى، وأما من قتل من المشركين في الأودية والجبال من المنهزمين وغيرهم وأخذت عدتهم فتسعون ألفاً وقد ملكنا أموالهم وخيولهم وحصونهم وبладهم وكتبنا إليك هذا الكتاب بعد الفتح ونزلنا في دمشق والسلام عليه ورحمة الله وبركاته وعلى جميع المسلمين، وطوى الكتاب وختمه ودعا بحذيفة بن اليمان ودفع الكتاب إليه وضم إليه عشرة من المهاجرين والأنصار وقال لهم: سيروا بكتاب الفتح والبشرى إلى أمير المؤمنين وبشروه بذلك وأجركم على الله، فأخذ حذيفة الكتاب وسار هو والعشرة من وقتهم و ساعتهم يجدون السير ليلاً ونهاراً حتى قربوا من المدينة.

قال الواقدي: قال عبد الله بن عوف المالكي عن أبيه: قال: لما هزم الله الروم في اليرموك وكان من أمرهم ما كان رأى عمر بن الخطاب ليلة هزيمة الروم رسول الله ﷺ جالساً في الروضة ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وكان عمر يسلم عليهم ويقول:

يا رسول الله إن قلبي مشغول على المسلمين وما يصنع الله بهم، وقد بلغني أن الروم في ألف ألف وستين ألفاً. فقال: يا عمر أبشر فقد فتح الله على المسلمين وقد انهزم عدوهم وقتل كذا وكذا، ثم تلا رسول الله ﷺ **﴿تَلَكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يَرِيدُونَ عَلَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾** [الإسراء: ٤] الآية. قال: فلما كان من الغد صلى عمر بالناس صلاة الفجر وأعلم الناس بما رأى في منامه. قال: فاستبشر المسلمين وفرحوا وعلموا أن الشيطان لا يتمثل بالنبي ﷺ وأرخوا تلك الليلة فكانت كما ذكره النبي ﷺ فسجد عمر الله شكرًا ووصله الكتاب فقرأه عمر على الناس فارتقت أصوات المسلمين بالتلليل والتكبير والصلوة على البشير النذير. ثم قال: يا حذيفة فهل قسم أبو عبيدة الغنائم؟ فقال: يا أمير المؤمنين هو منتظرك كتابك وأمرك. فدعا عمر بدواة وقرطاس وكتب إلى أبي عبيدة كتاباً يقول فيه: بسم الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ من عبد الله عمر بن الخطاب إلى عامله بالشام سلام عليك. أما بعد فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد ﷺ وقد فرحت بما فتح الله على المسلمين من نصرتهم وانهزام عدوهم، فإذا وصل إليك كتابي هذا فاقسم الغنيمة بين المسلمين وفضل أهل السبق وأعط كل ذي حق حقه واحفظ المسلمين واكلأهم واسكراهم على صبرهم وفعالهم، وأقم بموضعك حتى يأتيك أمري، والسَّلامُ عَلَيْكَ وَعَلَى جمِيعِ الْمُسْلِمِينَ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، وَطَوَى الْكِتَابَ وَسَلَّمَهُ لِحَذِيفَةَ بْنِ الْيَمَانِ فَأَخْذَهُ حَذِيفَةُ وَسَارَ حَتَّى وَرَدَ عَلَى أَبِي عَبِيدَةَ فَوَجَدَهُ عَلَى دَمْشَقِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ وَنَاوَلَهُ الْكِتَابَ، فَلَمَّا قَرَأَهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ قَسَمَ الْغَنَائِمَ فَأَصَابَ الْفَارِسَ أَرْبَعَةَ وَعِشْرَوْنَ أَلْفَ مَثْقَالَ مِنَ الْذَّهَبِ الْأَحْمَرِ وَالرَّاجِلُ ثَمَانِيَّةُ أَلْفٍ وَكَذَلِكَ مِنَ الْفَضْةِ وَأَعْطَى الْفَرَسَ الْهَجَيْنَ سَهْمَيْنَ وَالْفَرَسَ الْعَتِيقَ سَهْمَيْنَ وَالْحَقِيقَ الْقَادِمِيَنَ عَلَى الْخَيلِ بِالْعَرَابِ، فَلَمَّا فَعَلَ أَبُو عَبِيدَةَ ذَلِكَ قَالَ أَصْحَابُ الْحَمْرَ: الْحَقَّنَا بِالْعَرَابِ. فَقَالَ أَبُو عَبِيدَةَ: إِنِّي قَسَّمْتُ عَلَيْكُمْ بِمَا قَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ الْغَنَائِمَ بَيْنَ أَصْحَابِهِ فَلَمْ يَقْبَلُوا قَوْلَهُ فَكَتَبَ إِلَى عَمَرَ بِذَلِكَ يَعْلَمُهُ بِالْخَيْلِ وَالْهَجَيْنِ وَالْعَرَابِ فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَمَرٌ يَقُولُ: أَمَا بَعْدَ فَقَدْ عَمِلْتَ بِسَتَةَ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَلَمْ تَعْدْ حَكْمَهُ، فَأَعْطَى الْفَرَسَ الْعَرَبِيَّ سَهْمَيْنَ وَالْهَجَيْنَ سَهْمَيْنَ، وَاعْلَمَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَرَبَ الْعَرَبِيِّينَ وَهَجَيْنَ الْهَجَيْنَ يَوْمَ خَيْرِ فَجَعَلَ لِلْهَجَيْنَ سَهْمَيْنَ وَلِلْعَرَبِيِّينَ سَهْمَيْنَ، فَلَمَّا وَرَدَ الْكِتَابَ عَلَى أَبِي عَبِيدَةَ وَقَرَأَهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ قَالَ: مَا أَرَادَ أَبُو عَبِيدَةَ أَنْ يَحْقِرَ رَجُلًا مِنْكُمْ، وَلَكِنْ تَبَعَتْ سَتَةَ رَسُولَ اللهِ ﷺ.

قال الواقدي: فلما قسم أبو عبيدة الغنائم على المسلمين. قال له خالد بن الوليد: إن رجلاً من المسلمين تشفع بي إليك أن تلحق فرسه الهجين بفرسه العتيق العربي وتعطيه سهمين فأبى أبو عبيدة، وقال: والله إن سفت التراب أحب إلي من ذلك. وروى عثمان أن ابن الزبير قال: شهدت جدي الزبير بن العوام يوم اليرموك ومعه فرسان يتعقب عليهمما

للقتال ركب هذا يوماً وهذا يوماً، فلما كان وقت قسم الغنائم أعطاه أبو عبيدة ثلاثة أسمهم له سهم ولفرسه سهمان. فقال الزبير: أما تصنع بي كما صنع بي رسول الله ﷺ يوم خير كان معي فرسان فأسهمني رسول الله ﷺ يوم خير خمسة أسمهم لفرسي أربعة وأعطاني سهماً، وقال المقداد بن عمرو: كنت أنا وأنت يوم بدر ومعنا فرسان لا غيرهما فأعطي رسول الله ﷺ سهرين سهمنين للفرسين، قال أبو عبيدة: إنك لصادق يا مقداد أنا أتبع فعل رسول الله ﷺ وأعطي الزبير وأقبل جابر بن عبد الله الأنصاري فشهد عند أبي عبيدة أن رسول الله ﷺ أعطى الزبير يوم خير خمسة أسمهم، فلما فعل ذلك أتى رجال من رجال العرب لكل واحد منهم أربعة أفراس وخمسة أفراس فقالوا: ألحقنا بالزبير قال فاستأذن عمر في ذلك. فقال: صدق الزبير إن رسول الله ﷺ أعطاه يوم خير خمسة أسمهم فلا تعط غيره مثله.

وروى عروة عن أبي الزبير. قال: لقي الزبير غلاماً كان قد وقع بيده يوم غنيمة عمان فهرب منه، فلما كان يوم اليرموك قبل قسم الغنائم عرفه فقبض عليه وأخذ بيده فقال له الموكلي على حفظ الغنيمة: لست أدعك فبینما هما في المحاورة إذ أقبل أبو عبيدة، فقال: ما بالكم؟ فقال الزبير: أيها الأمير هذا غلامي وصل إليّ من غنيمة عمان وهرب مني وقد رأيته الآن فلا بد لي منه فقال أبو عبيدة: صدق ابن عمّة رسول الله ﷺ هو له وأنا سلمته له من غنيمة عمان فسلمه إليه فأخذنه الزبير، قال زيد المرادي: هربت منا جارية إلى العدو وظفرنا بها يوم اليرموك في قسم الغنائم فكلمنا أبيا عبيدة فيها فكتب إلى عمر فرداً إليه الجواب، إن كانت جارية حرية ففيها السهام وإلا فلا سبيل إليها وإن كان لم تجر فيها السهام فزادوها فكان القوم لا يرضون بهذا من أبي عبيدة. فقال أبو عبيدة: والله الذي لا إله إلا هو هذا كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يحكم بما أمرتكم فقبل قوله ودفع الجارية إلى القسم.

قال الواقدي: حدثني لوي بن عبد ربه عن سالم مولى حذيفة بن اليمان عن القاسط ابن سلمة بن عدي بن عاصم عمن حدثه عن فتوح الشام. قال: لما هزم الله الروم باليرموك على يد أصحاب رسول الله ﷺ وبلغ الخبر إلى هرقل بهزيمة جيشه وقد قتل ماهان وجرجير وغيرهما، قال: علمت أن الأمر يصل إلى هنا ثم أقام يتظاهر ما يجري من المسلمين.

ذكر فتح مدينة بيت المقدس

قال الواقدي: وأما ما كان من المسلمين فإنهم أقاموا على دمشق شهراً فجمع أبو عبيدة أمراء المسلمين وقال لهم: أسيروا عليّ بما أصنع وأين أنوّجه؟ فاتفق رأي

ال المسلمين إما إلى قيسارية وإما إلى بيت المقدس. فقال: فما الذي ترون منهما؟ فقالوا: أنت الرجل الأمين وما تسير إلى موضع إلا ونحن معك. فقال معاذ بن جبل: اكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فحيث أمرك فسر واستعن بالله. فقال: أصبحت الرأي يا معاذ فكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يعلمه أنه قد عزم على قيسارية أو إلى بيت المقدس وأنه منتظر ما يأمره به والسلام، وأرسل الكتاب مع عفرجة بن ناصح النخعي وأمره بالمسير فسار حتى وصل المدينة فأرسل الكتاب لعمر رضي الله عنه فقرأه على المسلمين واستشارهم في الأمر. فقال علي رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين من صاحبك أن يصير إلى بيت المقدس فيiquidوا بها ويقاتلوا أهلها فهو خير الرأي وأكبره، وإذا فتحت بيت المقدس فاصرف جيشه إلى قيسارية فإنها تفتح بعدها إن شاء الله تعالى كذا أخبرني رسول الله ﷺ. قال: صدقت يا أبا الحسن فكتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب إلى عامله بالشام أبي عبيدة. أما بعد فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلّى على نبيه، وقد ورد علي كتابك وفيه تستشيرني في أي ناحية تتوجه إليها، وقد أشار ابن عم رسول الله ﷺ بالسir إلى بيت المقدس فإن الله سبحانه وتعالى يفتحها على يديك والسلام عليك، ثم طوى الكتاب ودفعه إلى عرفة وأمره أن يعجل بالمسير فسار حتى قدم على أبي عبيدة فوجده على الجابية، فدفع الكتاب إليه فقرأه على المسلمين ففرحوا بمسيرهم إلى بيت المقدس، فعندها دعا أبو عبيدة بخالد بن الوليد وعقد له راية وضم إليه خمسة آلاف فارس من خيل الرمحف وسرحه إلى بيت المقدس، ثم دعا بيزيد بن أبي سفيان وعقد له راية على خمسة آلاف وأمره أن يلحق بخالد إلى بيت المقدس، وقال له: يا ابن أبي سفيان ما علمتك إلا ناصحاً، فإذا أشرفت على بلد إيليا فارفعوا أصواتكم بالتهليل والتکبير واسألاوا الله بجهة نبيه ومن سكنها من الأنبياء والصالحين أن يسهل فتحها على أيدي المسلمين، فأخذ يزيد الراية وسار يريد بيت المقدس فسار ثم دعا شرحبيل بن حسنة كاتب وحي النبي ﷺ وعقد له راية وضم إليه خمسة آلاف فارس من أهل اليمن وقال له: سر بمن معك حتى تقدم بيت المقدس وانزل بعسكرك عليها ولا تختلط بعسكرك من تقدم قبلك، ثم دعا بالمرقال بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وضم إليه خمسة آلاف فارس مع جمع من المسلمين وسرحه على أثر شرحبيل بن حسنة وقال له: انزل على حصنها وأنت منعزل عن أصحابك، ثم عقد راية خامسها للمسيب بن نجية الفزاري وأمره أن يلحق بأصحابه وضم إليه خمسة آلاف فارس من النخع وغيرهم من القبائل، وعقد راية سادسة وسلمها إلى قيس بن هبيرة المرادي وضم إليه خمسة آلاف فارس وسيره وراءهم، ثم عقد راية سابعة وسلمها إلى عروة بن مهلهل بن زيد الخيل وضم إليه خمسة آلاف فارس وسيره وراءهم، فكان جملة من سرحه أبو عبيدة إلى بيت المقدس خمسة وثلاثين ألفاً وسارت السبعة أمراء في سبعة

أيام في كل يوم أمير، وذلك كله يرعب به أعداء الله فبقي كل يوم ينزل عليهم أمير بجيشه.

فكان أول من طلع عليهم بالراية خالد بن الوليد، فلما أشرف عليهم كبار وكبار أصحابه، فلما سمع أهل بيت المقدس ضجيج أصواتهم انزعجوا وتزعزعوا قلوبهم وصعدوا على أسوار بلدتهم، فلما نظروا إلى قلة المسلمين استحقروهم وظنوا أن ذلك جميع المسلمين فنزل خالد ومن معه مما يلي باب أريحاء، وأقبل في اليوم الثاني يزيد بن أبي سفيان، وفي اليوم الثالث شرحبيل بن حسنة، وأقبل في اليوم الرابع المرقال، وأقبل في اليوم الخامس المسيب بن نجية، وأقبل في اليوم السادس قيس بن هبيرة فنزل، وأقبل في اليوم السابع عروة بن مهلهل بن زيد الخيل فنزل مما يلي طرق الرملة. قال عبد الله بن عامر بن ربيعة الغطفاني: ما نزل أحد من المسلمين على بيت المقدس إلا وكبار وصلى ما قدره الله عليه ودعا بالنصر والظفر على الأعداء، ويقال إن خالداً كان هو وأبو عبيدة. قال: فلما مضى العسكر أقام أبو عبيدة وخالد وبقية المسلمين والذراري والسودان والغنم وما أفاء الله على المسلمين من الماشي والأموال فلم يبرحوا من مكانهم. قال: وأقام العسكر على بيت المقدس ثلاثة أيام لا يبارزهم حرب ولا ينظرون رسولاً يأتي إليهم ولا يكلّهم أحد من أهلها إلا أنهم قد حضروا أسوارهم بالمجانيق والطوارق والسيوف والدرق والجوашن والزرد الفاخرة، قال المسيب بن نجية الفزارى: ما نزلنا ببلد من بلاد الشام فرأينا أكثر زينة ولا أحسن عدة من بيت المقدس، وما نزلنا بقوم إلا وتضعضعوا لنا وداخلهم الهلع وأخذتهم الهيبة إلا أهل بيت المقدس نزلنا بإزائهم ثلاثة أيام فلم يكلّمنا منهم أحد ولا ينطقون غير أن حارسهم شديد وعدتهم كاملة، فلما كان في اليوم الرابع قال رجل من الباذية لشرحبيل بن حسنة: أيها الأمير كأن هؤلاء القوم صم فلا يسمعون أو يكتمون فلا ينطقون أو عمي فلا يصررون ازحفوا علينا إليهم، فلما كان في اليوم الخامس وقد صلّى المسلمين صلاة الفجر كان أول من ركب من المسلمين من النساء لسؤال أهل بيت المقدس يزيد بن أبي سفيان فشهر سلاحه وجعل يدنو من سورهم وقد أخذ معه ترجمانًا يبلغه عنهم ما يقولون فوقف بازاء سورهم بحيث يسمعون خطابه وهو صامتون.

فقال لترجمانه: قل لهم أمير العرب يقول لكم: ماذا تقولون في إجابة الدعوة إلى الإسلام والحق وكلمة الإخلاص وهي كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله حتى يغفر لكم ربنا ما سلف من ذنبكم وتحقون بها دماءكم، وإن أبيتم ولم تجيبونا فصالحونا عن بلدكم كما صالح غيركم من هو أعظم منكم عدة، وأشد منكم، وإن أبيتم هاتين الحالتين حل بكم البار وakan مصيركم إلى النار. قال: فتقدمن الترجمان إليهم وقال لهم: من

المخاطب عنكم؟ فكلمه قس من القساوسة عليه مدارع الشعر وقال: أنا المخاطب عنهم ماذا ت يريد؟ فقال الترجمان: إن هذا الأمير يقول كذا وكذا ويدعوكم إلى إحدى هذه الخصال الثلاث: إما الدخول في الإسلام، أو أداء الجزية، وإما السيف. قال: بلغ القس من وراءه ما قال الترجمان. قال فضجوا بكلمة كفراهم وقالوا: لا نرجع عن دين العز... والقبول وأن قتلنا أهون علينا من ذلك بلغ الترجمان ذلك ليزيد. قال: فمشي إلى الأماء وأخبرهم بجواب القوم. قال لهم: ما انتظاركم بهم. فقالوا: إن الأمير أبا عبيدة ما أمرنا بالقتال ولا بحرب القوم بل بالنزول عليهم ولكن نكتب إلى أمين الأمة فإن أمرنا بالزحف زحفنا، فكتب يزيد بن أبي سفيان إلى أبي عبيدة يعلمه بما كان من جواب القوم بما الذي تأمر؟ فكتب إليهم أبو عبيدة يأمرهم بالزحف وأنه واصل في أثر الكتاب، فلما وقف المسلمون على كتاب أبي عبيدة فرحاوا واستبشروا وباتوا يتظرون الصباح.

قال الواقدي: ولقد بلغني أن المسلمين باتوا تلك الليلة كأنهم ينتظرون قادماً يقدم عليهم من شدة فرحهم بقتال أهل بيت المقدس، وكل أمير يريد أن يفتح على يديه فيتمت بالصلاحة فيه والنظر إلى آثار الأنبياء، قال: فلما أضاء الفجر أذن وصلت الناس صلاة الفجر قال فقرأ يزيد لأصحابه **﴿يَا قوم ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمَقْدِسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُوا﴾** [المائدة: ٢١] الآية فيقال إن الأماء أجرى الله على أسلتهم في تلك الصلاة أن قرأوا هذه الآية كأنهم على ميعاد واحد، فلما فرغوا من الصلاة نادوا: النفير النغير يا خيل الله اركبي. قال: فأول من برق للقتال حمير ورجال اليمن وبرز المسلمون للحرب كأنهم أسود ضارية، ونظر إليهم أهل بيت المقدس وقد انشرحوا لقتالهم فنشطهم ورشقوا المسلمين بالنساب فكانت كالجراد، فجعل المسلمون يتلقونها بدرقهم فلم تزل الحرب بينهم من الغد إلى الغروب يقاتلون قتالاً شديداً ولم يظهروا فرعاً ولا ربعاً ولم يطمعوهم في بلدتهم، فلما غربت الشمس رجع الناس وصلى المسلمون ما فرض الله عليهم وأخذوا في إصلاح شأنهم وعشائهم، فلما فرغوا من ذلك أوقدوا النيران واستكثروا منها، لأن الحطب عندهم كثير فبقي قوم يصلون، وقوم يقرأون، وقوم يتضرعون، وقوم نائمون مما لحقهم من التعب والقتل، فلما كان الغد بادر المسلمين إليهم وذكروا الله كثيراً وأثنوا عليه وصلوا على رسول الله **ﷺ**، وتقدمت رماة النبل وأقبلوا يرمون ويدركون الله وهم يضججون إلى الله بالدعاء.

قال الواقدي: ولم يزل المسلمون على القتال عدة أيام وأهل بيت المقدس يظهرون الفرح وأنه ليس على قلوبهم من هم ولا جزع، فلما كان اليوم الحادي عشر أشرفت عليهم راية أبي عبيدة يحملها غلامه سالم ومن ورائها فرسان المسلمين وأبطال الموحدين

وقد أحدقوا بأبي عبيدة وخالد عن يمينه وعبد الرحمن بن أبي بكر عن يساره وجاءت النساء والأموال وضج الناس ضجة واحدة بالتهليل والتكبير فأجابتهم القبائل ووقع الرعب في قلوب أهل بيت المقدس فانقلب كبارهم وعظماؤهم وبطارقتهم إلى البيعة العظمى عندهم وهي القمامنة، فلما وقفوا بين يدي جاثليقهم وكانوا يعظّمونه ويجلونه، فلما سمعوا تلك الضجة دخلوا عليه ووقفوا بين يديه وخضعوا له وقالوا: يا أبانا قد قدم أمير القوم إلينا ومعه بقية المسلمين وهذه الضجة بسببه، فلما سمع بتركهم وجاثليقهم تغير لونه وتغير وجهه وقال: هي هي. قالوا: ما ذلك أيها البركة والأب الكبير؟ قال: وحق الإنجيل إن كان قدام أميرهم فقد دنا هلاكم والسلام. قالوا: وكيف ذلك؟ قال: لأن نجد في العلم الذي ورثناه عن المتقدمين أن الذي يفتح الأرض في الطول والعرض هو الرجل الأسمى الأحور المسمى بعمر صاحب نبيهم محمد، فإن كان قد قدم فلا سبيل لقتاله ولا طاقة لكم بزاله ولا بد لي أن أشرف عليه وأنظر إليه وإلى صورته، فإن كان إيمانه عمّد إلى مصالحته وأجبته إلى ما يريد، وإن كان غيره فلا نسلم إليه قط لأن مديتها لا تفتح إلا على يد من ذكرته لكم والسلام، ثم إنه وثبت قائماً والقسوس والرهبان والشمامسة من حوله وقد رفعوا الصليب على رأسه وفتحوا الإنجيل بين يديه ودارت البatarقة من حوله وصعد على السور من الجهة التي فيها أبو عبيدة فنظر إلى المسلمين وهو يسلّمون عليه ويعظّمونه، ثم يرجعون إلى القتال لأنهم الأسد الضاربة فناداهم رجل ممن كان يمشي بين يدي البركة. فقال: يا معاشر المسلمين كفوا عن القتال حتى تستخبركم ونسألكم. قال فأمسك الناس عن القتال فنادهم رجل من الروم بلسان عربي فصيح: اعلموا أن صفة الرجل الذي يفتح بلدنا هذا وجميع الأرض عندنا، فإن كان هو أميركم فلا نقاتلكم بل نسلم إليكم وإن لم يكن إيمانكم أبداً.

قال الواقدي: فلما سمع المسلمون ذلك أقبل نفر منهم إلى أبي عبيدة وحدثه بما سمعوه. قال فخرج أبو عبيدة إليهم إلى أن حاذهم، فنظر البركة إليه وقال: ليس هو هذا الرجل فأبصروا وقاتلوا عن بلدكم ودينكم وحربيكم، فلما سمعوا قوله رفعوا أصواتهم وأعلنوا بكلمة كفراً وأقبلوا يقاتلون القتال الشديد وعاد البركة إلى القمامنة ولم يخاطب أبو عبيدة بكلمة واحدة، بل أمر قومه بالحرب والقتال وعاد أبو عبيدة إلى أصحابه. فقال خالد: ما كان منك أيها الأمير؟ فقال: لا علم لي غير أنني خرجت إليهم كما رأيت وأشرف علي شيطان من شياطينهم الذي يضلّهم، فما هو غير أن نظر لي وتأملني حتى ضجّوا ضجة واحدة وولى عنّي ولم يكلمني. فقال خالد: يوشك أن يكون لهم في ذلك تأويل ورأي فننفف عليه ونعلم نباء، ثم قال: شدوا عليهم الحرب والقتال فشدّ عليهم المسلمون.

قال الواقدي : وكان نزول المسلمين على بيت المقدس في أيام الشتاء والبرد وظلت الروم أن المسلمين لا يقدرون عليهم في ذلك الوقت . قال : وزحف المسلمون إليهم وبرزت النبالة من أهل اليمن ، وصمم أصحاب القسي ورشقوهم بالنبل وكانوا غير محترزين من النبل لقلة اكتراثهم به حتى رأوا النبل ينكسهم على رؤوسهم من وراء ظهورهم وهم لا يشعرون . قال مهلهل : الله در عرب اليمن فلقد رأيتم يرمون بالنبل الروم فيتهافتون من سورهم كالغنم ، فلما رأوا ما صنع بهم النبل احترزوا منه وسروا السور بالحجف والجلود وبما يرد النبل . قال ونظرت الروم إلى ضرار بن الأزرور وقد أقبل نحو الباب الأعظم وعليه بطريق كبير وعلى رأسه صليب من الجوهر وحوله غلمان وعليهم الطوارق وبأيديهم القسي الموترة والعمد وهو يحرض القوم على القتال . قال عوف بن مهلهل فنظرت إلى ضرار وقد قصد نحوه وهو يختفي ويستر إلى أن قرب من البرج الذي عليه الطريق ثم أطلق إليه نبلة ، قال عوف : فنظرت إلى النبلة مع علو هذا الجدار وقد خرجت من قوس ضرار والبرج عال رفيع . فقلت : وما تكون هذه النبلة مع علو هذا الجدار وما الذي تصنع في هذا العلح وعليه هذه الlama اللامعة فأقسم بالله لقد وقعت هذه النبلة في فيه فتردى إلى أسفل برجه فسمعت للقوم ضجة عظيمة وجولة هائلة فعلمت أنه قتل ، قال ولم يزل أبو عبيدة يننزل بيت المقدس أربعة أشهر كاملة ، وما من يوم إلا ويقاتلهم قتالاً شديداً والمسلمون صابرون على البرد والثلج والمطر ، فلما نظر أهل بيت المقدس إلى شدة الحصار وما نزل بهم من المسلمين قصدوا القمامنة ووقفوا بين يدي بتركهم وسجدوا بين يديه وعظموه وقالوا له : يا أبانا قد دار علينا حصار هؤلاء العرب ورجونا أن يأتيانا مدد من قبل الملك ، ولا شك أنه اشتغل عنا بنفسه من أجل هزيمة جيشه وأنهم أشهى منا للقتال وأنهم من يوم نزلوا علينا لم نخاطبهم بكلمة واحدة ولم نجبهم أحتقاراً منا لهم ، والآن قد عظم علينا الأمر وإننا نريد منك أن تشرف على هؤلاء العرب وتتنظر ما الذي يريدون منا ، فإن كان أمرهم قريباً أجنبنا إلى ما يريدون ويطلبون ، وإن كان صعباً فتحنا الأبواب وخرجنا إليهم فإذاً أن نقتل عن آخرنا وإنما أن نهزهم عنا فأجابهم البارك إلى ذلك واشتمل بلباسه وصعد معهم على السور وحمل الصليب بين يديه واجتمع القسوس والرهبان حوله وبأيديهم الأنجليل مفتحة والمباخر حتى أشرف على المكان الذي فيه أبو عبيدة فنادى منهم رجل بلسان فصيح العربية : يا معاشر العرب إن عدمة دين النصرانية وصاحب شريعتها قد أقبل يخاطبكم فليدين منا أميركم فأخبروا أبا عبيدة بمقالهم . فقال : والله إني لأجيئه حيث دعاني ، ثم قام أبو عبيدة وجماعة من الأمراء والصحابة ومعه ترجمان ، فلما وقف بإزاره قال لهم الترجمان : ما الذي تريدون منا في هذه البلدة المقدسة ؟ ومن قصدها يوشك أن الله يغضب عليه ويهلكه فأخبره الترجمان بذلك . فقال : قل لهم نعم إنها شريفة ومنها

أُسرى بنبينا إلى السماء ودنا من ربها كفاب قوسين أو أدنى وأنها معدن الأنبياء وقبورهم فيها ونحن أحق منكم بها ولا نزال عليها أو يملكونا الله إياها كما ملوكنا غيرها. قال البترك: فما الذي تريدون منا؟ قال أبو عبيدة: خصلة من ثلاث: أولها أن تقولوا لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، فإن أجبتم إلى هذه الكلمة كان لكم ما لنا وعليكم ما علينا. قال البترك: إنها كلمة عظيمة ونحن قائلوها إلا أن نبيكم محمداً ما نقول إنه رسول. قال أبو عبيدة: كذبتم يا عدو الله إنك لم توحد قط وقد أخبرنا الله في كتابه أنكم تقولون المسيح ابن الله: لا إله إلا الله سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً. قال البترك: هذه خصلة لا نجيئكم إليها فما الخصلة الثانية؟ فقال أبو عبيدة: تصالحوتنا عن بلدكم أو تؤدون الجزية إلينا عن يد وأنتم صاغرون كما أداها غيركم من أهل الشام.

قال البترك: هذه الخصلة أعظم علينا من الأولى وما كان بالذى يدخل تحت الذل والصغار أبداً. فقال أبو عبيدة: ما نزال نقاتلكم حتى يظفرنا الله بكم، ونستعبد أولادكم ونساءكم ونقتل منكم من خالف كلمة التوحيد وعكف على كلمة الكفر. فقال البترك: فإننا لا نسلم مديتها أو نهلك عن آخرين، وكيف نسلّمها وقد استعدنا بالله الحرب والحصار، وفيها العدة الحسنة والرجال الشداد، ولسنا كمن لاقيم من أهل المدن الذين أذعنوا لكم بالجزية فإنهم قوم غضب عليهم المسيح فأدخلهم تحت طاعتكم ونحن في بلد من إذا سألا المسيح ودعاه أجاب دعوته، فقال أبو عبيدة: كذبتم والله يا عدو الله **﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانوا يأكلان الطعام﴾** [المائدة: ٧٥] فقال: أنا أقسم باليسوع أنكم لو أقمتم علينا عشرين سنة ما فتحتموها أبداً وإنما تفتح لرجل صفتة ونعته في كتبنا ولسنا نجد صفتة ونعته معك أبداً، فقال أبو عبيدة: وما صفة من يفتح مديتهاكم؟ قال البترك: لا تخبركم بصفتة لكن نجد في كتبنا وما قرأناه من علمنا أنه يفتح هذه البلدة صاحب محمد اسمه عمر يعرف بالفاروق وهو رجل شديد لا تأخذه في الله لومة لائم ولسنا نرى صفتة فيكم، قال: فلما سمع أبو عبيدة ذلك من كلام البترك تبسم ضاحكاً، وقال: فتحنا البلد وربت الكعبة. ثم أقبل عليه، وقال له: إذا رأيت الرجل تعرفه؟ قال: نعم وكيف لا أعرفه وصفته عندي وعدد سنينه وأيامه. قال أبو عبيدة: هو والله خليفتنا وصاحب نبينا. فقال البترك: إن كان الأمر كما ذكرت، فقد علمت صدق قولنا فاحقن الدماء وابعث إلى صاحبك يأتي فإذا رأيناه وتبيّناه وعرفنا صفتة ونعته فتحنا له البلد من غير هم ولا نكدر وأعطيانا الجزية. فقال أبو عبيدة: فإني أبعث إليه بأن يقوم علينا أفتحبونا القتال أم نكف عنكم؟ فقال البترك: معاشر العرب ألا تدعون بغيكم.. أتخبركم بأننا قد صدقناكم في الكلام طلبنا لحقن الدماء وأنتم تأبون إلا القتال. قال أبو عبيدة: نعم، لأن ذلك أشهى إلينا من فتوح الشام/ ج ١/ ١٥

الحياة نرجو به العفو والغفران من ربنا. قال فأمر أبو عبيدة بالكف عنهم وانصرف البترك.

قال الواقدي : فجمع أبو عبيدة الأمراء والمسلمين إليه وأخبرهم بما قال البترك فرفع المسلمون أصواتهم بالتهليل والتكبير ، وقالوا : افعل أيها الأمير واكتب إلى أمير المؤمنين بذلك فلعله يسير إلينا ويفتح هذا البلد علينا ، فقال شرحبيل بن حسنة : اصبر حتى نقول لهم إن الخليفة معنا ويتقدم خالد إليهم . فإذا نظروا إليه فتحوا الباب وكفينا التعب وكان خالد أشبه الناس بعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فلما أصبح الصباح . قال له الترجمان : قد جاء الخليفة وكان قد قال أبو عبيدة لخالد فركبوا جميعاً ، وقالوا : قد جاء الرجل الذي تطلبوه فعرفوا البترك فأقبل إلى أن وقف على السور ، وقال له : قل له يتقدم بحيث نراه عياناً فتقدم خالد فتبينه ، وقال : وحق المسيح كأنه هو ولكن باقي العلامات ما هي فيه فبحق دينك من أنت؟ فقال : أنا من بعض أصحابه ، فقال البترك : يا فتیان العرب كم يكون هذا الخداع فيكم وحق المسيح لئن لم نر الرجل الموصوف ما نفتح لكم ولا يرجع أحد منا يكلمكم ولو أقمتم علينا عشرين سنة ثم ولم يتكلم ، فقال المسلمون عند ذلك : اكتبوا إلى أمير المؤمنين وعرّفوه بذلك فعسى أن يأتي ويتشرف بهذه البقعة فكتب أبو عبيدة كتاباً يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم إلى عبد الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من عامله أبي عبيدة عامر بن الجراح . أما بعد السلام عليك فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلحي على نبيه محمد ﷺ واعلم يا أمير المؤمنين أنا منازلون لأهل مدينة إيليا نقاتلهم أربعة أشهر كل يوم نقاتلهم ويقاتلونا ولقد لقي المسلمين مشقة عظيمة من الثلج والبرد والأمطار إلا أنهم صابرون على ذلك ويرجون الله ربهم ، فلما كان اليوم الذي كتبت إليك الكتاب فيه أشرف علينا بتركهم الذي يعظمونه ، وقال : إنهم يجدون في كتبهم أنه لا يفتح بلدتهم إلا صاحب نبينا واسمه عمر وأنه يعرف صفتة ونعته وهو عندهم في كتبهم وقد سألنا حقن الدماء فسر إلينا بنفسك وانجذنا لعل الله أن يفتح هذه البلدة علينا على يديك . ثم إنه طوى الكتاب وختمه ، وقال : يا معاشر المسلمين من ينطق بكتابي هذا وأجره على الله فأنسع بالإجابة ميسرة بن مسروق العبسي ، وقال : أنا أكون الرسول وأرجع مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إن شاء الله تعالى .

قال أبو عبيدة : فخذ الكتاب بارك الله فيك فأخذه ميسرة واستوى على نافة له كومة ولم يزل سائراً إلى أن دخل المدينة فدخلها ليلاً ، وقال : والله لا نزلت عند أحد من الناس ، فأناخ ناقته على باب المسجد وعقلها ودخل المسجد وسلم على قبر رسول الله ﷺ وعلى قبر أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ثم أتى مكاناً في المسجد فنام وكان له ليال عدة لم ينم فأخذته عيناه فما استيقظ إلا على آذان عمر وكان يجلس في

الأذان، فلما أذن دخل المسجد وهو يقول: الصلاة رحمة الله. قال ميسرة: فقمت وتوضأت وصلت خلف عمر صلاة الفجر، فلما انحرف عن محرابه قمت إليه وسلمت عليه، فلما نظر إلى صافحني واستبشر، وقال: ميسرة ورب الكعبة. ثم قال: ما وراءك يا ابن مسروق. قلت: الخير والسلامة يا أمير المؤمنين ثم ناولته الكتاب فقرأه على المسلمين فاستبشروا به، فقال: ما ترون رحمة الله فيما كتب به أبو عبيدة؟ فكان أول من تكلم عثمان بن عفان رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين إن الله قد أذل الروم وأخرجهم من الشام ونصر المسلمين عليهم وقد حاصر أصحابنا مدينة إيليا وضيقوا عليهم وهم في كل يوم يزدادون ذلاً وضعفاً ورعباً فإن أنت أقمت ولم تسر إليهم رأوا أنك بأمرهم مستخف ولقتالهم مستحق فلا يلبثون إلا ينسرون حتى ينزلوا على الصغار ويعطون الجزية، فلما سمع عمر ذلك من مقال عثمان جزاه خيراً، وقال: هل عند أحد منكم رأى غير هذا؟ فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: نعم عندي غير هذا الرأي، وأنا أبديه لك رحمة الله، فقال عمر: وما هو يا أبي الحسن؟ قال: إن القوم قد سألوك وفي سؤالهم ذلك فتح للمسلمين، وقد أصاب المسلمين جهد عظيم من البرد والقتال وطول المقام وإنني أرى أنك إن سرت إليهم فتح الله هذه المدينة على يديك وكان في مسيرك الأجر العظيم في كل ظلماً ومخصصة وفي قطع كل واد وصعود جبل حتى تقدم إليهم. فإذا أنت قدمت عليهم كان لك وللمسلمين الأمن والعافية والصلاح والفتح ولست آمن أن ي Yasوا منك ومن الصلح ويمسكوا حصنهم ويأتيهم المدد من بلادهم وطاغيهم فيدخل فلا يتخلرون عنه، والصواب أن تسير إليهم إن شاء الله تعالى. قال ففرح عمر بن الخطاب بمشورة علي رضي الله عنه وقال: لقد أحسن عثمان النظر في المكيدة للعدو وأحسن علي المشورة للمسلمين فجزاهما الله خيراً ولست أخذ إلا بمشورة علي فيما عرفناه إلا محمود المشورة ميمون الغرة، ثم إن عمر رضي الله عنه أمر الناس بأخذ الأبهة للمسير معه والاستعداد فأسرع المسلمين إلى ذلك واستعدوا وتأهلاً وأمر عمر أن يكونوا خارج المدينة، ففعلوا ذلك وأتى عمر المسجد فصلّى فيه أربع ركعات ثم قام إلى قبر رسول الله ﷺ فسلم عليه وعلى أبي بكر رضي الله عنه واستخلف على المدينة علي بن أبي طالب وخرج من المدينة وأهلها يشيعونه ويودعونه.

قال الواقدي: وخرج عمر من المدينة وهو على بعير له أحمر وعليه غراراتان في إحداهما سويق وفي الأخرى تمر وبين يديه قربة مملوءة ماء وخلفه جفنة للزاد وخرج ومعه جماعة من الصحابة قد شهدوا اليهود وعادوا إلى المدينة منهم الزبير وعبادة بن الصامت وسار عمر نحو بيت المقدس فكان إذ نزل منزلًا لا يربح منه حتى يصل إلى الصبح فإذا اندلعت من الصلاة أقبل على المسلمين وقال: الحمد لله الذي أعزنا بالإسلام وأكرمنا بالإيمان وخصانا بنبيه عليه الصلاة والسلام وهدانا من الضلال وجمعنا بعد الشتات على

كلمة التقوى وألف بين قلوبنا ونصرنا على عدونا ومكّن لنا في بلاده وجعلنا إخواناً متحابين فاحمدو الله عباد الله على هذه النعمة السابعة والمن نظاهره . فإن الله يزيد المستزيدين الراغبين فيما لديه ويتم نعمته على الشاكرين . ثم يأخذ الجفنة فيملؤها سويقاً ويصف التمر حولها ويقرب لل المسلمين ويقول : كلوا هنيئاً مريئاً فيأكل ويأكل المسلمون معه ، ثم يرحل فلم يزل كذلك في مسيرةه . قال عمرو بن مالك العبسي : كنت مع عمر بن الخطاب حين سار إلى الشام فمر على ماء لجذام وعليه طائفة منهم نزول والماء يدعى ذات المنار فنزل بال المسلمين عليه ، في بينما هو كذلك وأصحاب رسول الله ﷺ حوله إذ أقبل إليه قوم من جذام ، فقالوا : يا أمير المؤمنين إن عندنا رجلاً له امرأتان وهما أختان لأب وأم . قال : فغضب عمر وقال علي به فأتي بالرجل إليه ، فقال له عمر : ما هاتان المرأتان ؟ قال الرجل : زوجتاي قال : فهل بينهما قرابة ؟ قال : نعم مما أختان قال عمر : بما دينك ألسنت مسلماً ؟ قال : بلى قال عمر : وما علمت أن هذا حرام عليك والله يقول في كتابه « وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف » [النساء : ٢٢] فقال الرجل ما علمت وما هما علي حرام فغضب عمر وقال : كذبت والله إنه لحرام عليك ولتخلين سبيل إحداهما وإلا ضربت عنقك . قال الرجل : أفتحكم علي قال : أي والله الذي لا إله إلا هو ، فقال الرجل : إن هذا دين ما أصبتا فيه خيراً ، ولقد كنت غنياً عن أن أدخل فيه ، قال عمر : ادْنِ مِنِي فَدَنَا مِنْهُ فَخَفَقَ رَأْسَهُ بِالدَّرَّةِ خَفْقَتِينِ ، وقال له : أتشاءم بالإسلام يا عدو الله وعدو نفسه ، وهو الدين الذي ارتضاه الله لملايكته ورسله وخيرته من خلقه خل يا ويلك سبيل إحداهما وإلا جلتلك جلدة المفترى ، فقال الرجل : كيف أصنع بهما وإنني أحبهما ، ولكن أقرع بينهما فمن خرجت القرعة عليها كنت لها وهي لي ، وإن كنت لهما جميعاً محباً فأمر عمر فاقترع فوقعت القرعة على إحداهما فأمسكها وأطلق سبيل الثانية ، ثم أقبل عليه عمر ، وقال له : اسمع يا ذا الرجل وع ما أقول لك إنه من دخل في ديننا ثم رجع عنه قتلناه فإياك أن تفارق الإسلام وإياك يبلغني أنك قد أصبحت أخت امرأتك التي فارقتها فإنك إن فعلت ذلك رجمتك .

قال الواقدي : وسار عمر حتى مر على حي من بني مرة . فإذا بقوم منهم قد أقاموا في الشمس يعذبون فقال لهم عمر : ما بال هؤلاء يعذبون ؟ فقيل : عليهم خراج فهم يعذبون قال : فما يقولون . قال : يقولون : ما نجد ما نؤدي ، فقال عمر : دعوهن ولا تكلفوهم ما لا يطيقون فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تعذبوا الناس في الدنيا يعذبكم الله يوم القيمة » فخلى سبيلهم . ثم سار حتى إذا كان بودادي القرى أخبروه أن شيئاً على الماء وله صديق يوده ، فقال له صديقه هل لك أن تجعل لي في زوجتك نصيباً وأكفيك رعي إيلك والثيام عليهاولي فيها يوم وليلة ولك فيها يوم وليلة ؟ قال له الشيخ : قد فعلت ذلك ورضي . فلما أخبر عمر بذلك أمر بهما فأحضرها . فقال : ويلكما ما

دينكم؟ قالا: الإسلام. قال عمر: فما الذي بلغني عنكم؟ قالا: وما هو؟ فأخبرهما عمر بما سمعه من العرب، فقال الشيخ: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين. فقال عمر: أما علمتني أن ذلك حرام في دين الإسلام؟ قالا: لا والله ما علمنا ذلك. فقال عمر للشيخ: وما دعاك أن صنعت هذا القبيح؟ قال: أنا شيخ كبير ولم يكن لي أحد أثق به ولا أتكل عليه قلت: يا هذا أتكفيني الرعي والسكنى وتعيني على دوابي وأنا أجعل لك نصيباً في امرأتي والآن علمت أنه حرام فلا أفعله فقال عمر: خذ بيدي امرأتك فلا سبيل لي عليها، ثم قال للشاب: إياك أن تقرب منها فإنه إن بلغني ذلك ضربت عنقك ثم ارحل عمر يريد بيت المقدس حتى دنا من أول الشام وأشرف عليه. قال أسلم بن برقان مولى عمر، فلما أشرفنا على الشام وأشرف عليه المسلمون نظرنا إلى طائفة من خيل المسلمين. فقال عمر للزبير: أسرع وانظر ما هذه الخيل فأسرع الزبير إليها، فلما قرب منها وإذا هي خيل من اليمن قد بعث بها أبو عبيدة يأخذون له خبر عمر رضي الله عنه، قال الزبير: فسلمو علي وقالوا: يا فتى من أين أقبلت؟ قلت: من مدينة رسول الله ﷺ قالوا: كيف خلقت أهلها؟ قلت: بخير، قالوا: مما فعل عمر هل قدم علينا أم لا؟ قال الزبير: من أنت؟ قالوا: نحن من عرب اليمن قد وجهنا أبو عبيدة لتأخذ له خبر عمر، قال: فرجع الزبير إلى عمر وحدّثه قال: أصبت يا أبا عبد الله، فأقبل علينا جمّ آخر فسلمو علينا وسألونا عن عمر. فقال لهم: ها أنا عمر فما تريدون؟ قالوا: يا أمير المؤمنين قد ذرفت العيون وطالت الأعناق بطول قدومك فلعل الله أن يفتح بيت المقدس على يدك.

قال الواقدي: ثم رجعوا على أعقابهم حتى أشرفوا على عسكر المسلمين وأبى عبيدة ونادوا بأصواتهم: أبشروا يا مسلمون بقدوم عمر قال فارتاج الناس وهموا أن يركبوا لاستقباله بأجمعهم. فقال أبو عبيدة: عزيمة على كل رجل أن لا يخرج من مركزه ثم سار أبو عبيدة في أناس من المهاجرين والأنصار حتى أشرف بمن معه على عمر قال: ونظر عمر إلى أبي عبيدة وهو لا يلبس سلاحه متنكب قوسه وهو راكب على قلوصه مغطى بعباءة قطوانية وخطام قلوصه من شعر، فلما نظر أبو عبيدة إلى عمر رضي الله عنه أناخ قلوصه وأناخ عمر بعيره وترجل كلاهما ومد أبو عبيدة يده فصافح عمر وتعانقا جميعاً وسلم بعضهما على بعض وأقبل المسلمون يسلمون على عمر ثم ركبوا جميعاً وجعلوا يسيرون أمام الناس وهو يتحادثان ولم يزال كذلك حتى نزل ببيت المقدس، فلما نزل صلى عمر رضي الله عنه بالمسلمين صلاة الفجر ثم خطبهم خطبة حسنة فقال في خطبته: الحمد لله الحميد المجيد، القوي الشديد، الفعال لما يريد، ثم قال: إن الله تعالى قد أكرمنا بالإسلام وهدانا بمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام، وأزاح عننا الضلاله وجمعنا بعد الفرقه وألف بين قلوبنا من بعد البعضاء فاحمدوه على هذه النعمة تستوجبوا

منه المزید فقد قال الله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لِأَزِيدُنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنْ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إِبْرَاهِيمٌ: ٧] ثم قرأ: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهَدِّدُ وَمَنْ يَضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مَرْشِدًا﴾ [الإِسْرَاءُ: ٩٧] قال فلما تلا عمر ذلك قام قس من النصارى كان حاضرًا بين يديه. فقال: إن الله لا يضل أحدًا، فلما كررها قال عمر: انظروا إن عاد إلى قوله فاضربوا عنقه فعرف القس ما قال عمر فأمسك ومضى عمر في خطبه. فقال:

أما بعد: فإنني أوصيكم بتقوى الله عزوجل الذي يقى ويقنى كل شيء سواه، الذي بطاعته ينفع أولياءه، وبمعصيته يفني أعداءه، أيها الناس أدوا زكاة أموالكم طيبة بها قلوبكم وأنفسكم لا تريدون بها جزاء من مخلوق ولا شكورًا افهموا ما توعظون به فإن الكيس من أحرز دينه، وإن السعيد من اتعظ بغیره لأن شر الأمور مبتدعاتها وعلىكم بالستة ستة نبيكم ﷺ فالزموها فإن الاقتصاد في السنة خير من الاجتهد في البدعة والزموا القرآن فإن فيه الشفاء والثواب، أيها الناس إنه قام فينا رسول الله ﷺ كقيامي فيكم وقال: الزموا أصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يظهر الكذب حتى يشهد من لم يستشهد ويحلف من لم يحلف فمن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، وتعودوا من الشيطان ولا يخلون أحد منكم بأمرأة فإنهن من حبائل الشيطان ومن سرتهم حسته وساعته سيئته فهو مؤمن، والصلوة الصلاة، فلما فرغ من خطبه جلس فجعل أبو عبيدة يحدثه بما لقى من الروم وعمر باهت، فتارة يبكي وتارة يهدأ فلم يزل كذلك إلى أن حضرت صلاة الظهر. فقال الناس: يا أمير المؤمنين اسأل بلاً أن يؤذن لنا، وكان بلاً مقیماً ببلد، فلما بلغه أن عمر قد وصل سار مع أبي عبيدة حتى سلم على عمر فعظم قدره، فلما حضرت صلاة الظهر وسأل المسلمين عمر أن يسأل بلاً. فقال له: يا بلاً إن أصحاب رسول الله ﷺ يسألون أن تؤذن لهم وتذكريهم أوقات نبيهم ﷺ فقال بلاً: نعم فلما قال: الله أكبر خشعت جلودهم واقتصرت أبدانهم، قال: فلما قال: أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله بكى الناس بكاءً شديداً حتى كادت قلوبهم أن تتتصدع عند ذكر الله ورسوله، فلما فرغ بلاً من أذانه وجلس قال بلاً: يا أمير المؤمنين إن أمراء المسلمين وأجناد الشام يأكلون لحوم الطيور والخبز النقي وما لا يلحق ضفاعة الناس وما لا تناهه أيديهم وإن الكل يقنى وماله إلى التراب ومصيرنا إليه. فقال له يزيد بن أبي سفيان: إن سعر بلادنا هذه رخيص وإننا لننصيب ما قاله بلاً هبنا مثل ما كنا نقوت به أنفسنا مدة من الزمان في الحجاز. فقال عمر: إن الأمر كما ذكرت فكلوا هنئاً مريئاً ولست أبرح من مكانني حتى تجمعوا إلى من في المنازل وأن تكتبوا إلى فقراء المسلمين من في المدن والقرى فأفرض لكل أهل بيته ما يجزيهما من البر والشعير والعسل والزيت وما يحتاجون إليه ولا بد لهم منه ثم قال عمر: هذا لكم من أمرائكم غير ما يأتيكم من بيته مال المسلمين، فإن قطعت عنكم أمراؤكم فأمروني حتى أعزلكم

عنكم ثم أمرهم بالرحيل، فلما هم بالركوب على بعيره وعليه مرقعة من صوف وفيها أربع عشرة رقعة بعضها من أدم.

قال الواقدي: بلغني ممن أثق به أنها كانت مرقعة من صوف. فقال له المسلمين: يا أمير المؤمنين لو ركبت بدل بعيরك جواً ولبس ثياباً بيضاً. قال ففعل. قال الزبير: أحسب أنها كانت من ثياب مصر تساوي خمسة عشر درهماً وطرح على عاتقه منديلاً من كتان ليس جديداً ولا بالخلق دفعه إليه أبو عبيدة وقدم إليه البرذون أشهب من براذين الروم، فلما صار عمر على ظهره جعل البرذون يهملج به، فلما نظر عمر إلى البرذون وفعاله نزل عنه مسرعاً وقال: أقيروا عشرتي أقال الله عشرتكم يوم القيمة، فقد كاد أميركم أن يهلك بما دخل قلبي من العجب والكبر وإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من الكبر» ولقد كاد أن يهلكني ثوابكم الأبيض وبروزنكم المهمملج، ثم إن عمر رضي الله عنه نزع ما كان عليه ثم عاد إلى لبس مرقعته.

قال الواقدي: كنا يوماً نقرأ فتوح الشام وفتح بيت المقدس عند قبر أبي حنيفة، وكان الفتوح يقرأ على عبادة بن عوف الدينوري وكان من أهل الفضل، وكان يسجع كلامه. فلما وصل إلى ما ذكرناه من لبس عمر لمرقعته. قال: قد سمع خاطري بما أنا قائله.

قال الواقدي: قلت: قل ولا تخف الصدق فتهوى في النار، وإن الصدقأمانة والكذب خيانة. قال: لما لبس عمر مرقعته وجعل يتميز في شمائل فقره، والكائنات تتعجب من زهده وصبره عندما تزيينت له الدنيا بملابسها وتراءت له في حلل أميانتها بواسطة حدثان مشيّتها، وقد جعلت أشباح شهواتها على قمة رأس مرآتها وأقبلت رافلة في حلة مراودته، مطلقة عند الطعم في طلب زوال مجاهدته، معرضة بملابس جمالها على سوق معارضته في سناء قبلة مرأة تبهرجها في عين مشاهدته، واقفة على قدم الاستدراج إلى ترك خدمته، جاعلة ودادها ذريعة إلى وصلته، وعمر قد أمسك غری طاعته بيد عصمته، فلما نصب له حبائل بلاها، ولم تره وقع في أشراك هواها، أسمعت في معناها، قد شغفها حبّاً إنا لزهاها، وقالت: يا عمر قد وليت أرضي فلا بد من القيام بفرضي، فالولاية لا تقوم إلا بالملابس الهنية والمأكل الشهية، والظلم في الرعية، فقال عمر: اذهبي فلست من رجالك ولا من يقع في حبالك ولا في أوحالك. أما علمت أني قد تجردت لمعاندتك ولا حاجة لي في مشاهدتك، وهو أنا على قدم تجردت لإقامة دعوة سيد الأمم، حتى أفتح بلاد الروم والعجم، ثم أظهر في وجهها صارم اجتهاده من معنى قوله **«وجاهدوا في الله حق جهاده»** [التوبية: ٨٦].

قال الواقدي: فاستحسنـت هذا الكلام وألحقـت ما قالـه في هذا الموضع بقول رسول الله ﷺ: «إن من البيان لسحرا» قال: وإن عمر سار يريد العقبة ليصعد منها إلى بيت المقدس فلقيه قوم من المسلمين وعليهم ثياب الديباج مما أخذوه من اليرموك فأمر عمر أن يحثوا التراب في وجوههم، وأن تمزق عليهم، ولم يزل على ذلك حتى أشرف على بيت المقدس، فلما نظر إليها قال: الله أكبر، اللهم افتح لنا فتحا يسيرا، واجعل لنا من لدنك سلطاناً نصيراً، ثم سار واستقبلته العشائر والقبائل وأصحاب العقود وسار عمر حتى نزل بالموضع الذي كان فيه أبو عبيدة وضررت له خيمة من شعر وجلس فيها هناك على التراب. ثم قام يصلي أربع ركعات.

قال الواقدي: وعلـت للمسلمـين ضـجة عـظـيمـة وصـيـاح مـزعـجـ بالـتـهـيلـ والـتـكـبـيرـ، فـسـمعـ أـهـلـ بـيـتـ المـقـدـسـ الضـجـةـ وـالـجـلـةـ، فـقـالـ لـهـمـ الـبـرـكـ: يـاـ وـيـلـكـمـ مـاـ شـأـنـ الـعـربـ قدـ اـرـفـعـتـ لـهـمـ جـلـبـةـ مـنـ غـيـرـ شـيـءـ فـأـشـرـفـوـاـ عـلـيـهـمـ وـانـظـرـوـاـ مـاـ شـأـنـهـمـ.

قال الواقدي: فأشرف عليهم رجل ممن يعرف العربية، فقال: يا معاشر العرب أخبرونـا ما قـضـتـكـمـ؟ قالـواـ: إنـ أمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ عمرـ قدـ قـدـمـ عـلـيـنـاـ مـنـ مـدـيـنـةـ نـبـيـنـاـ، وـهـذـهـ الضـجـةـ مـنـ فـرـحـ الـمـسـلـمـينـ بـهـ. قالـ: فـرـجـعـ وـأـعـلـمـ الـبـرـكـ فـأـطـرـقـ إـلـىـ الـأـرـضـ وـلـمـ يـتـكـلـمـ، فـلـمـ كـانـ الـغـدـ وـصـلـىـ عـمـرـ بـالـنـاسـ صـلـةـ الـفـجـرـ. قالـ لأـبـيـ عـبـيـدـةـ: يـاـ عـامـرـ تـقـدـمـ إـلـىـ الـقـوـمـ وـأـعـلـمـهـ أـنـيـ قـدـ أـتـيـتـ. قالـ: فـخـرـجـ أـبـوـ عـبـيـدـةـ وـصـاحـ بـهـمـ وـقـالـ: يـاـ أـهـلـ هـذـهـ الـبـلـدـ إـنـ صـاحـبـنـاـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ قـدـ وـرـدـ فـمـاـ تـصـنـعـونـ فـيـمـاـ قـلـتـ. قالـ: فـأـعـلـمـ الـبـرـكـ فـخـرـجـ مـنـ كـنـيـسـتـهـ وـعـلـيـهـ الـمـسـوـحـ وـتـرـجـلـ الـرـهـبـانـ وـالـقـسـوسـ وـالـأـسـاقـفـةـ مـعـهـ، وـقـدـ حـمـلـ بـيـنـ يـدـيـهـ صـلـيبـ لـاـ يـخـرـجـوـنـهـ إـلـاـ فـيـ عـيـدـهـ وـسـارـ مـعـهـ الـبـاطـلـيـقـ الـوـالـيـ عـلـيـهـمـ وـهـوـ يـقـولـ لـلـبـرـكـ: يـاـ أـبـانـاـ إـنـ كـنـتـ تـعـرـفـ مـعـرـفـةـ حـقـيـقـيـةـ إـلـاـ فـلـاـ تـفـتـحـ لـهـ وـدـعـنـاـ وـهـؤـلـاءـ الـعـربـ إـلـاـ مـاـ نـبـيـدـهـمـ، وـإـمـاـ أـنـ يـدـوـنـاـ، قـالـ الـبـرـكـ: أـنـ أـفـعـلـ ذـلـكـ، ثـمـ صـعـداـ عـلـىـ السـوـرـ وـوـقـفـ الـبـاطـلـيـقـ إـلـىـ جـانـبـهـ وـالـصـلـيبـ أـمـامـهـ وـأـشـرـفـ عـلـىـ أـبـيـ عـبـيـدـةـ وـقـالـ: مـاـ تـشـاءـ أـيـهـاـ الشـيـخـ الـبـاهـيـ؟ قـالـ أـبـوـ عـبـيـدـةـ: هـذـاـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ عـمـرـ وـلـيـسـ عـلـيـهـ أـمـيرـ قـدـ أـتـيـ فـاـخـرـجـوـاـ إـلـيـهـ وـاعـقـدـوـاـ مـعـهـ الـأـمـانـ وـالـذـمـةـ وـأـدـاءـ الـجـزـيـةـ. قـالـ الـبـرـكـ: يـاـ ذـاـ الرـجـلـ إـنـ كـانـ صـاحـبـكـ الـذـيـ لـيـسـ عـلـيـهـ أـمـيرـ قـدـ أـتـيـ فـدـعـهـ يـدـنـ مـاـ فـيـنـاـ نـعـرـفـ بـنـعـتـهـ وـصـفـتـهـ وـأـفـرـدـوـهـ مـنـ بـيـنـكـمـ وـلـيـقـفـ بـيـازـائـنـاـ حـتـىـ نـرـاهـ، فـإـنـ كـانـ صـاحـبـنـاـ الـذـيـ نـعـتـهـ فـيـ الـإـنـجـيـلـ نـزـلـنـاـ إـلـيـهـ وـعـقـدـنـاـ مـعـهـ الـأـمـانـ وـأـقـرـرـنـاـ لـهـ بـالـجـزـيـةـ، وـإـنـ كـانـ غـيـرـ الـذـيـ نـجـدـ نـعـتـهـ فـيـ الـإـنـجـيـلـ وـصـفـتـهـ فـمـاـ لـكـمـ عـنـدـنـاـ غـيـرـ الـقـتـالـ، قـالـ فـرـجـعـ أـبـوـ عـبـيـدـةـ إـلـىـ عـمـرـ وـأـخـبـرـهـ بـمـاـ قـالـهـ الـبـرـكـ فـهـمـ عـمـرـ بـالـقـيـامـ. قـالـ لـهـ أـصـحـابـهـ: يـاـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ تـخـرـجـ إـلـيـهـمـ مـنـفـرـداـ، وـلـيـسـ عـلـيـكـ آلـهـ حـرـبـ غـيـرـ هـذـهـ الـمـرـقـعـةـ وـإـنـاـ نـخـشـيـ عـلـيـكـ مـنـهـمـ غـدـرـاـ أوـ مـكـرـاـ فـيـنـالـوـنـ مـنـكـ. قـالـ عـمـرـ «قـلـ لـنـ يـصـيـبـنـاـ إـلـاـ مـاـ كـتـبـ اللـهـ لـنـاـ وـعـلـىـ اللـهـ

فليتوكل المؤمنون [التوبه: ٥١] ثم أمر بيعيره فقدم إليه فاستوى في ركوبه عليه، وعليه مرقة ليس عليه غيرها وعلى رأسه قطعة عباءة قطوانية وقد عصب بها رأسه وليس معه غير أبي عبيدة رضي الله عنه وهو سائر بين يديه حتى قرب من السور ووقف بإزاء السور والبرك والباطلية عليه، فتكلم أبو عبيدة وقال: يا هؤلاء هذا أمير المؤمنين قد أتى فمسح البرك عينه ونظر إليه وزعن بأعلى صوته: هذا والله الذي نجد صفتة ونعته في كتبنا ومن يكون فتح بلادنا على يديه بلا محالة، ثم إنه قال لأهل بيت المقدس: يا ويحكم انزلوا إليه واعقدوا معه الأمان والذمة، هذا والله صاحب محمد بن عبد الله.

قال الواقدي: فلما سمعت الروم كلام البرك نزلوا مسرعين وكانوا قد ضاقت أنفسهم من الحصار ففتحوا الباب وخرجوا إلى عمر بن الخطاب يسألونه العهد والميثاق والذمة ويقررون له بالجزية، فلما نظر إليهم عمر على تلك الحالة تواضع الله وخر ساجداً على قتب بعيরه ثم نزل إليهم وقال: ارجعوا إلى بلادكم ولكم الذمة والعهد إذ سألتمونا وأقررتם بالجزية. قال فرجع القوم إلى بلدتهم ولم يغلقوا الأبواب ورجع عمر إلى عسكره فبات في ليلة، فما كان الغد قام فدخل إليها وكان دخوله يوم الاثنين وأقام بها إلى يوم الجمعة وخط بها محارباً من جهة الشرق وهو موضع مسجده فتقدما وصلى هو وأصحابه صلاة الجمعة فهمت الروم بغدرهم وكان أبو الجعید الذي احتال على الروم باليرموك ببيت المقدس هو وأهله وما له فقالوا: ما ترى في غدر هؤلاء العرب إذا هم اشتبثوا بصلاتهم وليس معهم آلة حرب ولا ما يحترزون به من الضرب والقتل؟ فقال لهم أبو الجعید: يا قوم لا تفعلوا ولا تغدوا بهم فإن فعلتم ذلك أخبرتهم بما تريدون أن تفعلوا بهم فقالوا: وما الذي نصنع؟ فقال أبو الجعید: أظهروا للعرب ما لكم من الزينة ومتاع الدنيا فإن متاع الدنيا وما فيها لا يصبر أصحابها عنهم، فإن طلبوهـما بـغدر فـشـأنـكـمـ وـماـ تـرـيـدونـ،ـ قـالـ فـأـقـبـلـ الـقـوـمـ عـلـىـ مـاـ كـانـواـ يـقـدـرـونـ عـلـىـ مـاـ الـمـالـ وـالـمـتـاعـ الـحـسـنـ فـأـظـهـرـوـهـ وـصـفـوـهـ فـيـ طـرـيـقـ الـمـسـلـمـيـنـ وـشـوـارـعـهـمـ،ـ فـجـعـلـ الـمـسـلـمـوـنـ يـنـظـرـوـنـ إـلـىـ ذـلـكـ فـيـ دـخـولـهـ وـخـرـوجـهـمـ وـهـمـ يـعـجـبـوـنـ مـنـهـمـ وـلـمـ يـمـلـ أـحـدـ مـنـهـمـ إـلـيـهـ وـلـمـ يـلـمـسـهـ وـهـمـ يـقـولـونـ:ـ الـحـمـدـ لـلـهـ الـذـيـ أـورـثـنـاـ دـيـارـ قـوـمـ مـثـلـ هـذـاـ،ـ وـلـوـ سـاـوـتـ الدـنـيـاـ عـنـدـ اللهـ جـنـاحـ بـعـوـضـةـ لـمـ سـقـىـ كـافـراـ مـنـهـ شـرـبةـ مـاءـ،ـ قـالـ عـوـفـ بـنـ سـالـمـ:ـ فـوـالـلـهـ مـاـ مـنـ الـمـسـلـمـيـنـ مـنـ جـعـلـ يـدـهـ عـلـىـ شـيـءـ مـنـ مـتـاعـهـمـ وـلـاـ لـمـسـهـ.ـ فـقـالـ لـهـمـ أـبـوـ الجـعـيدـ:ـ هـؤـلـاءـ الـقـوـمـ الـذـيـنـ وـصـفـهـمـ اللهـ فـيـ التـوـرـةـ وـالـإـنـجـيلـ وـأـنـهـمـ لـاـ يـزـالـونـ عـلـىـ الـحـقـ وـلـاـ يـقـرـبـهـمـ أـحـدـ مـاـ دـامـواـ عـلـىـ مـاـ هـمـ عـلـيـهـ.

قال الواقدي: وأقام عمر في بيت المقدس عشرة أيام. قال شهر بن حوشب: سمعت كعب الأحبار يقول: إن عمر بن الخطاب لما صالح أهل بيت المقدس ودخلها أقام فيها عشرة أيام فأقبلت إليه وكنت في قرية من فلسطين، وتقدمت إليه لأسلم عليه

وأسلم على يديه، وذلك أن أبي كان أعلم الناس بما أنزل الله على موسى بن عمران وأنه كان لي محباً وعلى مشفقاً ولم يكتم علي شيئاً إلا أعلمني إياه مما كان يعلم الناس، فلما حضرته الوفاة، دعاني إليه وقال لي: يابني إنك تعلم أنني ما ادخلت عنك شيئاً مما كنت أعلمه لأنني خشيت أن يخرج بعض هؤلاء الكاذبين وتبعدهم وقد جعلت هاتين الورقتين في هذه الكرة التي ترى فلا تتعرض لهما ولا تنظر فيهما إلى أن تسمع بخبرنبي يبعث في آخر الزمان اسمه محمد، فإن يرد الله بك خيراً فأنت تتبعه، ثم مات بعد وصيته إبّاًي. قال كعب: فدفنته، فما كان شيء أحب إليّ بعد انقضاء العزاء من النظر في الورقتين وقراءة ما فيهما ففتحهما، فإذا فيهما: لا إله إلا الله محمد رسول الله خاتم النبيين لا نبي بعده، مولده بمكة، ودار هجرته طيبة، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب، ألمته الحامدون الذين يحمدون الله على كل حال ألسنتهم رطبة بالتهليل والتکبير وهم منصورون على كل من عادهم من أعدائهم أجمعين يغسلون وجوههم ويسترون أوساطهم أناجيهم في صدورهم تراحمهم بينهم تراحم الأنبياء بين الأمم، وهم أول من يدخل الجنة يوم القيمة من الأمم. قال كعب الأخبار: فلما قرأت ذلك قلت في نفسي: وهل علمي أبي شيئاً أعظم من هذا ثم مكثت بعد وفاة والدي ما شاء الله إلى أن بلغني أن النبي ﷺ الموصوف قد ظهر بمكة وهو يظهر مرة بعد أخرى. قلت: هو والله لا محالة ولم أزل أبحث عن أمره حتى قيل إنه خرج ونزل بيشرب فجعلت أترقب أمره حتى غزا غزوات ونصر على أعدائه، فتجهزت أريد المسير إليه فبلغني أنه قد قبض ﷺ وانقطع الوحي. قلت في نفسي: لعله ليس الذي كنت أنتظره حتى رأيت في منامي كأن أبواب السماء قد فتحت والملائكة تنزل زمرة بعد زمرة وقائل يقول: قد قبض رسول الله ﷺ وانقطع الوحي عن أهل الأرض فرجعت إلى دار قومي وجاءنا الخبر أنه تقدم ألمته خليفة اسمه أبو بكر فقلت: أقدم عليه فلم ألبث حتى جاءتنا جنوده إلى الشام ثم جاءتنا وفاته، ثم قيل إنه استخلف عليهم رجل اسمه عمر. قلت: لا أدخل هذا الدين حتى أحقهه ولم أزل متوقفاً حتى قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ببيت المقدس وصالح أهلهما ونظرت إلى وفائهم بعهدهما وما صنع الله بأعدائهم، وقلت: إنهم أمة النبي الأمي فحدثت نفسي بالدخول في هذا الدين، فواهني إني كنت ذات ليلة على سطحي وإذا أنا برجل من المسلمين يقول ﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقًا لما معكم من قبل أن نطمئن وجوهاً فتردّها على أدبارها أو نلعنهم كما لعننا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً﴾ [النساء: ٤٧].

قال كعب: فلما سمعت هذه الآية خفت والله أن لا أصبح حتى يحول وجهي فما كان شيء أحب إليّ من الصباح أن يرد، فلما أصبحت غدوت من منزلي وسألت عن عمر فقيل لي إنه ببيت المقدس فقصدت إليه وإذا به قد صلى بأصحابه صلاة

الفجر عند الصخرة فأقبلت إليه وسلمت عليه فردة علي السلام، وقال لي: من أنت؟ فقلت له: أنا كعب الأحبار وإنني جئت لأريد الإسلام والدخول فيه فإبني وجدت صفة محمد ﷺ وأمته في الكتب المنزلة، وإن الله عز وجل أوحى إلى موسى عليه السلام أنني ما خلقت خليعاً أكرم على من من أمة محمد ﷺ ولو لاه ما خلقت جنة ولا ناراً ولا سماء ولا أرضًا، وأمته خير الأمم ودينه خير الأديان، بعثته آخر الزمان، أمته مرحومة، وهو نبي الرحمة، وهو النبي الأمي التهامي القرشي الرحيم بالمؤمنين، الشديد على الكافرين، سريرته مثل علانيته، قوله لا يخالف فعله، القريب والبعيد عنده سواء، أصحابه متراحمون متواصلون، فقال عمر: أحق ما تقول يا كعب؟ قال: أي والله والله يسمع ما أقول ويعلم ما تخفي الصدور، فقال عمر: الحمد لله الذي أعزتنا وأكرمنا وشرفنا ورحمنا برحمته التي وسعت كل شيء وهدانا بمحمد ﷺ فهل لك يا كعب في الدخول في ديننا؟ فقال كعب: يا أمير المؤمنين في كتابكم الذي أنزل إليكم في أمر دينكم ذكر إبراهيم. فقال عمر: نعم وقرأ **﴿ووصى بها إبراهيم بنه ويعقوب يابني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتون إلا وأنتم مسلمون ألم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي، قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إليها واحداً ونحن له مسلمون﴾** [البقرة: ١٣٣]. ثم قرأ **﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً﴾** [آل عمران: ٦٧] ثم قرأ **﴿أفغير دين الله يبغون وله أسلم﴾** [آل عمران: ٨٣] الآية. ثم قرأ **﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾** [آل عمران: ٨٥] الآية، ثم قرأ **﴿فقل إني هداني ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيئماً﴾** [الأعراف: ١٦٦] الآية، ثم قرأ **﴿وَمَا جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل﴾** [الحج: ٧٨] الآية. قال كعب: فلما سمعت هذه الآيات. قلت: يا أمير المؤمنين أناأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، ففرح عمر بإسلام كعب الأحبار، ثم قال: هل لك أن تسير معى إلى المدينة فنзор قبر النبي ﷺ وتتمتع بزيارتة؟ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين أنا أفعل ذلك. قال وارتحل عمر بعد أن كتب لأهل بيت المقدس كتاباً: أي عهداً وأترهم في بلدتهم على الجزية وسار بمن معه من العساكر إلى الجابية فأقام بها ودون الدواوين وأخذ الخمس الذي لله مما أفاء الله على المسلمين، ثم قسم الشام قسمين فأعطي أبا عبيدة من حوران إلى حلب وما يليها وأمره بالمسير إلى حلب وأن يقاتلوا أهلها إلى أن يفتحها الله على يديه وأعطى أرض فلسطين وأرض القدس والساحل ليزيد بن أبي سفيان، وجعل أبا عبيدة واليأ عليه وأمر يزيد أن يحارب أهل قيسارية إلى أن يفتحها الله على يديه، وكان قد أعطى أكثر الأجناد لأبي عبيدة مع خالد وسير عمرو بن العاص إلى مصر واستعمل على قضاء حمص عمرو بن سعيد الأنصاري ثم سار عمر رضي الله عنه يريد مدينة الرسول ﷺ وأخذ كعب

الأហار معه وكان أهل المدينة يظنون أن عمر يقيم بالشام لما يرون من كثرة خيرها وطيب فواكهها ورخص أسعارها ولما يخبرون عنها أنها بلاد الأنبياء وهي الأرض المقدسة وفيها المحشر فبقي الناس يتطاولون نحوه ويخرجون في كل يوم ينظرون حتى قدم عمر رضي الله عنه فارتاجت المدينة يوم قدمه واستبشر أصحاب رسول الله ﷺ برؤيته وسلموا ورحبوا به وهنئوه بما فتح الله على يديه، فأقول ما بدأ بالمسجد سلم على قبر رسول الله ﷺ وعلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ثم صلى ركعتين ودعا بكعب الأبار. وقال: حدث المسلمين بما رأيت في الورقتين فزاد الناس إيماناً.

قال أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي: حديثنا أحمد بن الحسين بن العباس المعروف بأبي سفيان التحوي. قال حديثي أبو جعفر بن أحمد بن عبيد الناسخ. قال حديثي عبد الله بن أسلم الزهري وعد الله بن يحيى الزرقاني عن حديثه ممن تقدم ذكرهم وأسماؤهم أول الكتاب وحديث القوم قريب بعضه من بعض والله يعيذنا من الزيادة والنقصان، لأن الصدقأمانة والكذب خيانة والله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ما اعتمدت في خبر هذه الفتوح إلا على الصدق وما حديثه إلا على قاعدة الحق لأثبت فضل أصحاب رسول الله ﷺ وجهادهم حتى أرغم بذلك أهل الرفض الخارجين على أهل السنة، إذ لولاهم بمشيئة الله تعالى لم تكن البلاد للمسلمين وما انتشر علم هذا الدين فلله درهم لقد جاهدوا في الله حق جهاده لا جرم، وقد قال فيهم الملك المقتدر «فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر» [الأحزاب: ٢٣].

قال الواقدي: وذلك أنه لما بعث عمر بن الخطاب أبا عبيدة وجعله أمير الشام وأمره بالمسير إلى حلب وأنطاكية والمفرق وما يليهم من الحصون بعث عمرو بن العاص إلى مصر ويزيد بن أبي سفيان إلى ساحل الشام فنزلوا قيسارية وهي آهلة بالخلق كثيرة الجنود وكان عليها قسطنطين إلى أن نزل يزيد وقسطنطين هذا ابن الملك هرقل وكان معه ثمانون ألفاً من الروم والعرب المتنصرة والروسية، فلما نظر قسطنطين إلى نزول يزيد بن أبي سفيان عليه بعث إلى أبيه يستتجده فبعث إليه هرقل بصاحب مرعش وعشرين ألفاً من أبطال الروسية وأنفذ له المراكب بالزاد والعلوفة، فلما نظر يزيد إلى ذلك وأن لا قدرة له على ذلك كتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول: بسم الله الرحمن الرحيم، من يزيد بن أبي سفيان العامل على بعض الشام إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه إنني نازلت أهل قيسارية وهي مدينة آهلة بالخلق كثيرة الجنود وليس إليها سبيل وإن قسطنطين قد استتجد بأبيه وقد أتجده بصاحب مرعش وعشرين ألفاً والمراكب ترد عليه كل يوم بالعلوفة والزاد وأريد النجدة والسلام. وبعث الكتاب مع عمرو بن سالم بن حميد النخعي فلما ورد المدينة وسلم الكتاب إلى عمر بن الخطاب. قال عمر: من أين هذا الكتاب؟

قال: من عاملك يزيد بن أبي سفيان فقرأه، فلما أتى على آخره تفکر في أمر يزيد وما وقع له حتى دخل عليه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فارأه كتاب يزيد من قيسارية الشام يطلب منه نجدة. فقال علي: لا تغتم على المسلمين فإن الله يفتحها على يديك رغمًا فأنجد يزيد وأنفذ إليه الكتاب.

ذكر فتح مدينة حلب وقلاعها

قال الواقدي: كان مع أبي عبيدة عشرون ألفاً ومع يزيد وعمرو بن العاص عشرة آلاف.

قال الواقدي: فلما وصل كتاب عمر إلى أبي عبيدة أنفذ إلى يزيد ثلاثة آلاف فارس مع حرب بن عدي ويقي أبو عبيدة في سبعة عشر ألفاً وأكثرهم من اليمن، وكان أبو عبيدة قد صالح أهل قنسرين والعواصم على خمسة عشر ألف مثقال من الذهب ومثلها من فضة وألف ثوب من أصناف الدبياج وخمسمائة وسق من التين والزيت، فلما تم الصلح وجاءوا بما ضمموه من مدحاتهم كتب لهم كتاباً وشرط فيه الشروط ودخل أبو عبيدة وخالد في رجال من المؤمنين وسادات المسلمين فحطوا بها مسجداً، فبلغ ذلك أهل حلب من الصلح لقنسرين ومسير العرب فاضطربوا اضطراباً شديداً وكان عليهم رئيسان أخوان لأب وأم وكانتا يسكنان في القلعة ولم تكن القلعة محيطة بالمدينة بل كانت المدينة منفردة بذاتها وكان الطريقان يقال لأحدهما يوقنا والآخر يوحنا وكان أبوهما ملكاً، وأعماله وضياعه ورساتيقه إلى حدود الضروب وإلى حدود الفرات وقد ملك حلب سنتين لا ينazuه فيها منازع، وكان هرقل طاغية الروم يهابه ويوقره ولا يحاربه كل ذلك لبقاء ملکهم واجتمع كلمتهم لأنه كان قد انتزع من رومية إلى أقصى البلاد لثلا يجيش عليه أحد جيشاً ولا ينazuه في ملکه لكثره شره وتديبره وشدةبني عمه، فلما نزل بالعواصم استخلاص لنفسه قلعة حلب وبناها وحصنتها ومكّن في البلاد، فلما هلك آل الأمر بعده لولده يوقنا وكان الكبير وكان شجاعاً بطلاً جاماً للأموال مقداماً للحروب لا يصطلي له بنار ولا يدفع شره وكان أخوه يوحنا ديناً قد نزع يده من الرياسة وترهب وكان أعلم الناس في أهل زمانه وأنه لما بلغهم الخبر أن أبي عبيدة قد قصد إليهم قال لأخيه يوقنا: على ماذا عولت؟ قال: على قتال العرب ولا أدعهم يقربون من أرضنا وببلادنا حتى يرى العرب أنني لست كمن لقوا من بطارقة الشام ولا من غيرها وكان يوحنا قد درس الإنجيل وقرأ المزامير، وليس له همة إلا عمارة الكنائس والأديرة وتشييد المواقع وكثرة الشمامسة والقسوس والرهبان والقيام بأمورهم، فلما بلغ هذين الآخرين فتح العواصم عنوة وقنسرين صلحَا وأن العرب نازلوكن عليها وأن خيلهم تضرب إلى الفرات والعواصم والبقاء فأقبل يوحنا على أخيه الأكبر يوقنا. وقال: يا أخي أريد أن أختلي بك الليلة وأشاورك وأطلعك

على سري ورأيي وأشرف على سرك ورأيك. قال: نعم، فلما اجتمعا في الليل في دار كانت لأبيهما في القلعة وجلسا للمشورة أقبل يومنا على أخيه يوحنا وقال: يا أخي لا ترى ما نزل بنا من العرب الجياع الأكباد العراة الأجساد وما حل بأهل الشام منهم من القتل والنهب وأخذ الأموال وأنهم لا ينزلون مدينة من مدن الشام إلا فتوحوها وملکوا أهلها فما ترى أن نصنع في أمر هؤلاء فكأنّي بهم وقد أشرفوا علينا.

قال الواقدي: فقال يوحنا: يا أخي إذا قد استشرتني في أمرك فإني أنصحك ولا أغشك إذا قبلت النصيحة وإن كنت أصغر منك سنا فإني أعلم منك بصيرة، فورق المسيح والقربان لئن قبلت مشورتي ليعلوون أمرك ويسلم لك مالك ونفسك. فقال يومنا: يا أخي ما علمتك إلا ناصحاً فما عندك من الرأي؟ فقال: الرأي عندي أن ترسل رسولاً إلى العرب وتبذل لهم ما شاءوا وتسألهم الصلح وتتفق معهم على معلوم يدفع لهم في كل عام ما دامت الغلبة لهم، فلما سمع يومنا ذلك من كلام أخيه يوحنا أقبل عليه وقد استوثق منه الغضب وقال: قبحك المسيح ما أعجز رأيك ما ولدتك أملك إلا راهباً أو قسيساً ولم أفلدك لا ملكاً ولا محارباً ولا مقاتلاً، والرهبان ليس لهم قلوب لأكلهم العدس والزيت والبقل ولا يأكلون اللحم ولا يعرفون النعيم وليس لهم بالقتال بصيرة ولا بمقابلة الرجال خبرة، وأما أنا فملك ابن ملك وليس بيسي وبينهم إلا الحرب ولا ترى الملوك العجز ويلك كيف نسلم ملكتنا العرب ونعطيهم القياد من أنفسنا من غير حرب ولا قتال. قال: فلما سمع يومنا ذلك من أخيه تبسم من كلامه وتعجب كل العجب وقال: يا أخي، وحق المسيح إن أجلك قد اقترب لأنك صاحب بغي تحب سفك الدماء وقتل النفس وما أظن جموعك أكثر من جموع الملك هرقل التي جمعها باليرموك مع ماهان ويوم أجنادين، وهوئاء القوم قد أيدهم الله علينا فاتق الله ولا تسع في قتل نفسك. فلما سمع يومنا كلام أخيه داخله الغضب وقال له: قد أكثرت وأطلت في مدحك العرب وإنني لست كمن لا قوه من هذه الجموع التي ذكرتها ولا أقس بهم ومع ذلك أعلم أن كل من ذكرت من أهل المدن وغيرها أسلم بلدته عنوة أو صلحًا قبل أن يقاتل بلا عذر في القتال ويبذل المجهود عن نفسه، وإنما جمعت الأموال من قبل إلى الآن لأدفع بها الأذى عن نفسي وإنني مجمع على قتال العرب ومحاربتهم، فإن أطفرني الصليب بهم وأعانتي المسيح عليهم طلت العرب إلى أن دخل خلفهم الحجاز وأسود على سائر الملوك وأرجع إلى الشام ملكاً فلا يقدر هرقل أن يناظعني، وإن هزمتني العرب طلعت إلى قلعتي هذه ولزمتها فإني قد عيّبت فيها من الزاد والأطعمة ما يكفيوني طول دهرٍ وأكون فيها عزيزاً إلى أن أموت ولا ألقى يدي إلى العرب ولا أبذل أموالي من غير طلب فلا تعارضني في شيء من أمر العرب ولا تدعني إلى الصلح وإلا بطشت بك قبلهم.

قال الواقدي : واحتوى الشيطان على قلب يوقنا وقد سولت له نفسه العمل ، فلما سمع يوحنا من أخيه يوقنا هذا المقال قال له : كلامك على حرام أبداً ، حتى ترجع إلى رأيي وتعود إلى قولي ثم قام عنه مغضباً ، فلما كان من الغد جمع يوقنا إليه جميع من التجأ إليه من العسكر من الأرمن والمتنصرة وغيرهم وعرضهم على نفسه ، فمن أراد سلاحاً أعطاهم وفرق فيهم الأموال وجعل يهون العرب عليهم ويقول : إنما هم قليلون نحن أكثر منهم ، لأن جموعهم قد تفرقت منها جماعة على قيسارية ومنهم من توجه إلى مصر .

قال الواقدي : وعزم على قتال أبي عبيدة قبل أن يصل إليه وإلى بلده ، ثم عمد إلى بطريق من بطارقته يقال له كراكس وضم إليه ألف فارس ووكله بحفظ بلده وسار يوقنا بمن معه يريد أن يلقى جيش أبي عبيدة والمسلمين هو وقومه في اثنى عشر ألف مدرع غير من كان معه بغير درع ونشرت أمامه الأعلام والصلبان وكان فيها صليب من الذهب والجوهر ومن حوله ألف غلام عليهم ثياب الدبياج المنسوج بالذهب . قال ابن ثعلبة الكندي : فأقام أبو عبيدة على مدينة قنسرين بعد أن فتحها بالصلح وبعد أن أتاه يزيد بكتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأمره أن يبعث إلى يزيد بن أبي سفيان طائفة من جيشه فبعث له بثلاثة آلاف فارس لابسين السلاح الكامل وعول أبو عبيدة على المسير إلى حلب فدعا برجل منبني ضمرة وكان بطلاً مجربياً بشدة البأس وكان إذا ثبت على وجه الأرض للقتال لا يهاب الجحافل قلت أو كثيرون فضم إليه ألف فارس وزياد على مقدمته وقال : يا كعب لا تقاتل جيئاً لا تطيقه واختبر أمر هذا العلح واعرف خبره وأنا راحل من ورائك فسار كعب بن ضمرة يريد حلب وكان يوقنا قدم أمامه عيوناً يأتونه بالأخبار فأنته جواسيسه يخبرونه أن خيول العرب قد أتت تريد بلده وقتاله . فقال لهم : في كم أنت العرب ؟ قالوا : في ألف فارس وهم على ستة أميال من بذلك نزول . قال : فكمن يوقنا كميئاً ثم سار إليهم بجيشه وبطارقته ، فلما أشرف عليهم يوقنا بجيشه وبطارقته يسوقون خيولهم ويتوسطون فيبينما هم كذلك إذ أشرف عليهم يوقنا بجيشه وبطارقته والصلب أمامه ، فنادي المسلمين بعضهم ببعض واستوروا على متون خيولهم ، وورد كعب بن ضمرة على فرسه وسبق في أول الخيل وأشرف على جيش يوقنا فحضره أنه في خمسة آلاف فارس وكان يوقنا قد قسم عسكره شطرين النصف معه والنصف مع الكمين ، فلما نظر كعب إلى يوقنا وجيشه انقلب إلى أصحابه وقال : يا أنصار دين الله إني نظرت عسكركم وحضرتكم فهو في خمسة آلاف وهم لكم مغنم ويقاتل الواحد منكم خمسة . قالوا : بلى والله ، وأقبل أصحابه يشجع بعضهم ببعض فقربت الفتنة من الفئة وصاح يوقنا بأصحابه ورجاله وغلمانه وعيده وبيطارقته وأمرهم بالحملة على المسلمين فحملوا بأجمعهم حملة صعبة وحمل عليهم المسلمين والتقي الجمعان واشتباك العرب وقاتل

الجماعان قتال الموت وقد أيقن المسلمون بالظفر والغنية فطلع عليهم الكمين من ورائهم وأكباوا عليهم جمياً.

قال مسعود بن عون العجي: شهدت الخيل التي بعثها أبو عبيدة طلائع مع كعب بن ضمرة وكنت فيها يوم التقى الجماعان وقد خرج علينا الكمين ونحن في القتال، ونحن لا نظن أن لهم كميّاً يطلع من ورائنا وإذا بأصوات حوافر الخيل أكبت علينا وأيقنا بالهلاكة بعدما كنا موقنين بالغلبة وصرنا في وسط عسكر الكفار فلم يكن لنا بد من القتال فافتقرت المسلمين ثلاث فرق فرقة منهم منهزمة وفرقه قصدت قتال الكمين وفرقه مع كعب بن ضمرة قصدت قتال يوقدنا ومن معه. قال مسعود بن عون: فلله در كندة يومئذ لقد قاتلوا قتالاً شديداً وأبلوا بلاء حسناً ووهبوا أنفسهم لله تعالى حتى قتل منهم ذلك اليوم مائة رجل في مقام واحد وعمل أهل الكمين عملاً عظيماً وكعب بن ضمرة فلق على المسلمين فجاهد عنهم وهو يجول بالراية وينادي: يا محمد يا محمد يا نصر الله انزل معاشر المسلمين اثروا إنما هي ساعة ويأتي النصر وأنت الأعلون، فاجتمع المسلمين عليه والجراح فيهم فاشية وقتل من المسلمين مائة وسبعون رجلاً من الأعيان: منهم عباد بن عاصم النخعي وزفر بن أم راضي وحازم بن شهاب المقربي وسهيل بن أشيم ورفاعة بن ممحصن وغانم بن برد، وسهيل بن مفلج وكان من شهد يوم السلاسل وتبوك بين يدي رسول الله ﷺ وشهد قتال اليمامة مع خالد بن الوليد. قال مسعود بن عون: والله لقد تأسفنا على قته ووجدنا فيه أربعين ضربة كلها في مقدمه رضي الله عنه ولم نجد واحدة في ظهره وكان الأعيان أربعين رجلاً، لأن الرجل هنا ما قتل حتى قتل عدداً من المشركين، فلما نظروا إلى ثبات المسلمين مع قلتهم وما هالهم ممن قتل منهم هم المشركون أن ينهزوا فثبتهم يوقدنا وقال: ويلكم ما العرب إلا مثل الذئاب إن صدمت ولت وإن تركت طمعت، ولما نظر كعب بن ضمرة إلى من قتل تحت رايته اغتنم لذلك غمّاً شديداً فنزل عن فرسه ولبس درعاً من فوق درعه وشد وسطه بمنطقة ومسح وجه فرسه ومنخره وقبله بين عينيه وكان قد شهد معه المواطن وجاهد معه وبين يدي رسول الله ﷺ وكان قد سماه الهطال. فقال: يا هطال هذا يومك المحمود عاقبته فأثبت للقتال في طاعة الله، ولما استوى على متنه وقف أمام المسلمين وجعل ينظر إلى القتلى وهو متفكّر في أمره والراية بيده وهو يتظاهر من أبي عبيدة جيشاً يقبل عليه أو طليعة تنجده فلم ير لذلك أثراً.

وذلك أن أبي عبيدة ما قطعه عن المسير إليه إلا قدوم أهل حلب عليه، وذلك أنه لما سار يوقدنا إلى حرب المسلمين اجتمع مشايخ أهل حلب والروسية بعضهم إلى بعض وقالوا: يا قوم تعلمون أن هؤلاء العرب قد أطاعهم أهل دين النصرانية والصلب ودخلوا

في دينهم ومنهم من رجع إلى دينهم ومنهم من قاتلهم. فأما الذي قاتلهم فخسر فهل لكم أن تسيروا إلى أمير المؤمنين ونسائه الصلح ونصالح عن مديتها وندفع إلى ما أحب من أموالنا، فإن ظفر المسلمون بالبطريق يوتنا نكن نحن آمنين غير وجلين منهم ونقر عيناً من بأسمهم، وإن صالح يوتنا القوم نكن نحن قد سبقناه إلى الصلح، وإن غلب ورجع سالماً لم يبلغه ولم نعلمه، واستوى رأيهم على ذلك فخرج منهم ثلاثة رجلاً من رؤسائهم وسلكوا طريقاً غير طريق يوتنا حتى أشرفوا على عسكر المسلمين فنادوا: الغوث الغوث وكان العرب قد علمت أن الغوث بالرومية هو الأمان، وقال لهم الأمير: فمن سمعتموه يقولها فلا تعجلوا عليه بالقتل لثلا يطالبكم الله يوم القيمة وعمر بريء منه فكان العرب يعرفونها، فلما سمع المسلمون منهم ذلك أسرعوا إليهم وأوقفوهم بين يدي أبي عبيدة. فقال خالد: يوشك أن هؤلاء يطلبون الصلح والأمان لأنفسهم وهم أهل حلب. قال أبو عبيدة: أرجو ذلك إن شاء الله تعالى، وإن صالحوني صالحتهم وهو لا يعلم ما أصابه من الحرب الشديد والقتل العتيد وكان قدومهم عليه ليلاً والنيران تضرم بين يديه وكان في العسكر رجال قيام في صلاتهم يتلون القرآن فجعل بعضهم يقول لبعض بهذه الفعال ينصرون علينا، فلما سمع الترجمان مقالهم أخبر أبو عبيدة بما قد تناجووا بينهم. فقال أبو عبيدة: إنما قوم قد سبقت لنا العناية من ربنا وإنما رجال لا نريد من الله ورسوله بدلاً ولن نجزع من قتال الأعداء فأخبرهم الترجمان بذلك، ثم قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نحن سكان حلب من تجارها وسوقتها ورؤسائها وقد جئنا نطلب منكم الصلح. فقال أبو عبيدة: فكيف نصالحكم وقد بلغنا أن بطريقكم قد صمم على قتالنا وقد حصن قلعته وجعل فيها ما يقوته سينين واتخذ الجندي وأكثر من ذلك وما لكم عندنا صلح. فقالوا: أيها الأمير إن صاحبنا قد خرج من عندنا يريد حربكم وقتالكم. قال أبو عبيدة: متى خرج؟ قالوا: خرج سحراً ونحن من بعده وسلكنا طريقاً غير طريقه وإنما نرجو أنه هالك لا محالة لأنه ركب البغي ولم يرض بالصلح وقد أطاع هواه فقد وقع في شرك الردى، فلما سمع أبو عبيدة بخروج الطريق خاف على طليعته منه. فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم هلك والله كعب ومن معه إنما الله وإنما إليه راجعون، ثم أطرق إلى الأرض فقالوا بعض مشائخ أهل حلب: كلام لنا الأمير في الصلح قال فكلمه. فقال أبو عبيدة بضرجر: لا صلح لكم عندنا، قال فخاف الشيوخ على أنفسهم وقالوا: إنما قد اجتمع عندنا من القرى والرسانيق خلق كثير، فإن صالحونا عمرنا لكم الأرض وكنا لكم عوناً على عمارتها وعشنا في ظلكم أيام عدلكم، وإن أنتم أبitem ذلك فر الناس عنكم وطلبوها أقصى البلاد وشاء الخبر عنكم أنكم لا تصالحون فلا يبقى حولكم أحد. قال فأعلمه الترجمان بما قالوا فجعل ينظر إليهم وإذا قد بز من القوم وصاح رجل أحمر الوجه وكان من حكماء الروم فصيحاً بلسان عربي. فقال: أيها الأمير اسمع ما ألقى إليك من العلم الذي فتوح الشام / ج ١ / ١٦

أنزل الله في الصحف على الأنبياء. قال أبو عبيدة: قل لنسمع فإن كان حقاً علمناه، وإن كان غير حق لا نسمعه ولا نعمل به وكان اسمه دحداح. فقال: أيها الأمير إن الله سبحانه وتعالى أنزل على أنبيائه يقول: أنا الرب الرحيم خلقت الرحمة وأسكنتها في قلوب المؤمنين وإنني لا أرحم من لا يرحم من أحسن أحسنت إليه ومن تجاوز تجاوزت عنه ومن عفا عفوت عنه ومن طلبني وجدني ومن أغاث ملهوفاً أمنته يوم القيمة وبسطت له في رزقه وباركت له في عمره وأكثرت له أهله ونصرته على عدوه ومن شكر المحسن على إحسانه فقد شكرني وإن قد أتيتك ملهوفين خائفين فأقل عثراتنا وأمن رواعتنا وأحسن إلينا.

قال: فبكى أبو عبيدة من قوله وقرأ **«إن الله يحب المحسنين»** [البقرة: ١٩٥] ثم قال: اللهم صل على محمد وعلى جميع الأنبياء، فبهذا والله أرسل نبينا أرسله الله إلى جميع الخلق والحمد لله على هدايته لنا، ثم أقبل على المسلمين وهو حوله وفيهم الرؤساء من المهاجرين والأنصار وقال لهم: الحمد لله على هدايته، ثم قال: إن هؤلاء أهل متجر وسوقه وضياع وهم مستضعفون وقد رأينا أن نحسن إليهم ونصالحهم ونطيب قلوبهم وممئى كانت المدينة في أيدينا والسوقة معنا فإنهم يمروننا بالعلوفة ويعلموننا بما يعزم عليه عدونا ويكونون عوناً لنا عليه. فقال رجل من المسلمين: أصلح الله الأمير إن مدينة القوم بالقرب من القلعة ولا نأمن أن القوم يدخلون على عوراتنا ويخبرون بأحوالنا وما أتى القوم ليخدعونا ألا ترى إلى بطريقهم وقد خرج يبغى قتالنا وحربنا فكيف يطلب هؤلاء الصلح منا؟ ولا شك أنهم مكرروا بکعب بن ضمرة ومن معه من المسلمين. فقال أبو عبيدة: أحسن ظنك بالله وثق بالله فإن الله ينصرنا ولا يسلط علينا عدونا، فرحم الله من قال خيراً أو صمت وإذا أشرط عليهم النصيحة في صلحهم للمسلمين، ثم أقبل على القوم وقال: إني أريد أن تبذلوا في صلحكم ما بذله أهل قنسرين. فقالوا: أيها الأمير إن قنسرين أقدم من مدینتنا وأكثر جمعاً ومدینتنا خالية من السكان لجور صاحبنا لأنه قد أخذ أموالنا وغلاتنا وأصعد الكل إلى قلعته وما بقي عندنا إلا الضعفاء ومن لا مال له وإننا نسألك الترفق بنا والعدل فيما والإحسان إلينا. فقال أبو عبيدة: فما الذي تريدون أن تبذلوا في صلحكم؟ قالوا: نعطي نصف ما أعطى أهل قنسرين فقال أبو عبيدة: قد قبلت منكم ذلك على أننا إذا نزلنا بصاحبكم أعتمنا بالميرية والعلوفة وتبيعون وتشترون في عسکرنا ولا تكتموا عنا خبراً تكونون تعلمونه من أعدائنا ولا تتركوا جاسوساً يتتجسس علينا وإن رجع إليكم بطريقكم منهزاً تمنعوه أن يصل إلى القلعة. فقالوا: أيها الأمير أما قولك هذا أن نمنع الطريق أن لا يصعد إلى القلعة فما نجد إلى ذلك من سبيل ولا نقول لك ما لا نفعله، ما لنا به طاقة ولا بمن معه من أعوانه وجندوه. قال أبو عبيدة: فلا تمنعوه من الصعود إلى القلعة وعليكم عهد الله وميثاقه والإيمان المؤكدة الغليظة أن لا تقولوا هذا إلينا.

القول وأن توفوا لنا كل شرط تم عليكم، ثم حلفهم بالإيمان التي يعرفونها فحلف القوم عن آخرهم وصالحوا عن رجالهم ودوايهم وأبنائهم ونسائهم وعيدهم وسائر أهاليهم وانتهوا على ذلك. فقال أبو عبيدة: إنكم قد حلفتم وقد قبلنا قولكم وأيمانكم فإن أصينا أحدا قد أخلف أو علم من الطريق عملاً ولم يعلمنا به فقد وجب عليه القتل، وأخذ ماله وولده حلال لنا لا يطلبنا الله بذمته، ومتنى نقضتم ما شرطنا عليكم فلا عهد لكم عندنا ولا ذمة لكم علينا ولنا عليكم الجزية في العام المقبل. قال سعيد بن عامر التنوفي فرضي أهل حلب بما شرطه عليهم أبو عبيدة وأخذوا عهدهم وكتب أسماءهم وعزم القوم على الانصراف إلى ديارهم، وقال لهم أبو عبيدة: على رسلكم حتى أبعث معكم من يسير معكم إلى مأمنكم فقد وجب علينا حفظكم إلى أن تعودوا سالمين إلى بلدكم. فقال له الدجاج: أيها الأمير: إننا نرجع من الطريق الذي جئنا منه وما نريد أحداً يسير معنا، فتركهم أبو عبيدة وبات بقية ليلته قلقاً على كعب بن ضمرة ومن معه.

قال الواقدي: ورجع القوم من ليتهم إلى حلب وانفجر الصبح ولم يصلوا، فلما أشرفوا على حلب نظر إليهم بعض أعلام الطريق وهم راجعون فأقبل إليهم وسألهم: من أين أقبلتم؟ وما صنعتم فظنوا أنه من أهل حلب فأخبروه بصلحهم مع أبي عبيدة فتركهم ومضى وأن القوم استقبلهم أهل حلب فسألوهم فأخبروهم بالصلح ففرحوا بذلك وأقبل العرج حتى أشرف على عسرك يوقنا وهو نازل على أصحاب رسول الله ﷺ وقد أحاط بهم وهو يظن أنه قد ملكهم وهو يتوقع الصباح إذ أتى عليه العرج. فقال له: أيها الطريق إنك غافل عما نزل بك ودهنك. قال له: وما ذاك يا ويلك؟ قال له: إن أهل بلدك قد صالحوا العرب وكأنك بهم وقد ملكوا القلعة وأخذوا الأموال والنسوان، فلما سمع يوقد ما أخبر به العرج خشي على قلعته أن يملكونها في غيبته فانعكس عليه ما كان يؤمل أن يفوز به من الظفر بأصحاب رسول الله ﷺ. وكان قد قتل من المسلمين نيف عن المائتين، وكعب قد أجهد نفسه في الحرب وأيقنوا أنهم هالكون لا محالة. قال كعب بن ضمرة: وكنت ذلك اليوم صاحب القوم وأنا أثبthem في الحرب، وإلى الحرب أنهضم بهمتي وأدفع عنهم بمهمتي فإذا أحجفني القتال وركبني الحرب التتجأت إلى أصحابي وأنا مع ذلك أتوقع فرجاً من الله تعالى وأترقب راية أبي عبيدة أن تطلع وبعد علينا ذلك ولم تزل الحرب بيتنا يوماً وليلة إلى الصباح من اليوم الثاني، فأقسم بالله إن كان أحدهنا ليصلني ولا حصل له زاد يأكله ولا ماء يشربه وأنا بين اليأس والرجاء أترقب طريق قنسرین أن تطلع منه علينا راية الإسلام فما أرى لها أثراً، فرأيت عند الصباح جيش العدو وقد اضطرب من جوانبه وقد علت لهم ضجة عظيمة من جميع جوانبه فقلت: ما هذا إلا مدد لحقهم من البلد أو من الملك فالتجأت إلى كلمة الشدائـد، وهي لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. قال كعب بن ضمرة: فوعيش رسول الله ﷺ ما قلت الكلمة حتى رأيت

جيش العدو وقد انكشف عنا على عقبه فقلت: الحمد لله حمد الشاكرين وإنني أظن أن صائحاً صاح بهم من السماء فبدهم أو ملائكة نزلت عليهم كيوم بدر فلم أر لهم أثراً. قال كعب: فهممت أن أتبعهم فصاح المسلمون إلى أين يا كعب أما كفاك ما نحن فيه ننزل بنا إلى الأرض وارض بما نحن فيه من التعب والنصب ونؤدي فرضنا ونريح خيولنا فما رد الله هؤلاء القوم إلا بمشيتيه وقدرتة. قال فنزل كعب وشربوا الماء وأسبغوا الوضوء وصلوا ما فاتهم وأكلوا زادهم واستقبلوا الراحة.

قال الواقدي: وأبطأ خبر كعب على أبي عبيدة، فلما صلى الصبح افتلت من صلاته وأقبل على المسلمين وخطب من بينهم خالداً، وقال: يا أبا سليمان إن أخاك أبو عبيدة ما رقد الليلة غمّاً، وإنك كان يجب علينا الشكر بما فتح الله علينا، وإن نفسي تحدثني بأن الذين مع كعب بن ضمرة قد قتلوا لما أخبرني هؤلاء الذين يسألون الصلح أن أصحابهم يوقدنا قد سار إليهم ولم أر أثراً وأظن أنه صادف أصحابنا وقتلهم وأفناهم عن آخرهم، فقال خالد: والله إني ما نمت مثلك من الغم عليهم مما الذي عزّمت أن تصنع؟ قال: الرحيل، ثم أمر الناس بالرحيل، وارتحلوا، وساروا يريدون حلب، وعلى المقدمة خالد بن الوليد، وعلى الساقية أبو عبيدة، فما كان غير بعيد حتى أشرف على المسلمين خالد بن الوليد وهو نائم، وقد أقاموا لهم من الديدبان من يحرسهم، فلما أشرف عليهم خالد والراية في يده رفعها فوق رأسه، فلما رأها الديدبان صاح: الفير يا أنصار الدين فثاروا عن مضاجعهم كأنهم أسد ثائرة واستوتوا في متون خيولهم واستقبلوا صاحب الراية فعرفوه فصاح بعضهم ببعض: هذه والله راية الإسلام والمسلمين، فنزل خالد وسلم عليهم واتصلت بهم الساقية وأقبل أبو عبيدة فلما نظر كعب بن ضمرة حمد الله وأثنى عليه ونظر إلى موضع القتلى مطروحين وما كان من المسلمين ورأواهم، فلما نظروا إلى ذلك عاد فرجمهم ترحاً واسترجعوا وقالوا: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم إنا لله وإنا إليه راجعون، وسأل كعباً: كيف قتل أصحابك هؤلاء ومن قتلهم؟ فأخبره كعب بقتال يوقدنا وأنه أشرف هو وقومه، ومن كان معه على الهلاك حتى لم يبق فيهم حرفة ونمـنا ليـلتـنا هـذـهـ، فـلـمـ أـصـبـحـنـاـ إـذـاـ هـمـ قـدـ صـاحـبـاـ وـانـقـلـبـوـ رـاجـعـنـ عـنـاـ مـنـ غـيرـ قـتـالـ، فـقـالـ أـبـوـ عـبـيـدـةـ: فـسـبـحـانـ مـسـبـبـ الأـسـبـابـ لـيـتـ أـبـاـ عـبـيـدـةـ قـتـلـ أـمـامـهـ وـلـمـ يـقـتـلـوـ تـحـتـ رـايـتـهـ، ثـمـ أـمـرـ بـدـفـنـ الـمـسـلـمـينـ بـعـدـمـ جـمـعـهـمـ زـمـرـاـ زـمـرـاـ وـصـلـىـ عـلـيـهـمـ وـدـفـنـوـهـمـ بـأـسـلـابـهـمـ وـدـمـائـهـمـ، ثـمـ قـالـ: سـمـعـتـ رـسـوـلـ اللهـ يـقـولـ: «يـحـشـرـ اللهـ الشـهـداءـ الـذـيـنـ قـتـلـوـ فـيـ سـبـيلـ اللهـ يـوـمـ الـقيـامـةـ وـدـمـائـهـمـ عـلـىـ أـجـسـادـهـمـ: الـلـوـنـ لـوـنـ الدـمـ، وـالـرـيـحـ رـيـحـ المـسـكـ، وـالـنـورـ يـتـلـلـأـ عـلـيـهـمـ وـيـدـخـلـوـنـ الجـتـةـ» فـلـمـ وـارـوـهـمـ فـيـ حـفـرـهـمـ قـالـ لـخـالـدـ: إـنـ كـانـ عـدـوـ اللهـ يـوـقـنـاـ رـجـعـ إـلـىـ الـقـوـمـ، وـعـلـمـ بـصـلـحـهـمـ لـنـاـ فـيـلـقـوـنـ مـنـهـ تـعـبـاـ عـظـيـمـاـ فـالـحـقـ بـهـمـ فـقـدـ وـجـبـ عـلـيـهـاـ أـنـ نـذـبـ عـنـهـمـ لـأـنـهـمـ تـحـتـ ذـمـتـنـاـ وـارـتـحـلـ أـبـوـ عـبـيـدـةـ يـرـيدـ حـلـبـ فـلـمـ وـصـلـ إـلـيـهـاـ رـأـيـ الـبـطـرـيقـ

وجنوده قد أحدقوا بأهل البلد وهم يريدون قتلهم ويقال لهم: يا ولكلم صالحتم العرب عن أنفسكم وصرتم عوناً لهم علينا، قالوا: قد فعلنا ذلك وأنهم قوم منصورون فقال: يا ولكلم إن المسيح لا يرضي بفعلكم فورح المسيح لأقتلنكم عن آخركم أو تخرجون معي إلى قتالهم وتنقضون ما بينكم وبينهم من العهد والميثاق فأخبروني بما من بدأ بهذا الأمر حتى أبدأ به قال: فلم يطعوه على ذلك. فقال لعيده ادخلوا عليهم وأثنوني بهم لأقتلنهم، فقد أخبرني فلان أنه لقيهم وعرفني بهم فهم العبيد عليهم وجعلوا يقتلونهم على فرشهم وأبواب منازلهم فسمع أخيه يوحنا الضجة في البلد وهم في القلعة فنظر إلى أخيه وهو يقتل في الناس وقد قتل من أهل البلد ثلثمائة، فصاح بهم وب أخيه على رسلك لا تفعل فإن المسيح يغضب عليك وقد نهانا أن نقتل عدونا فكيف بما من هو على ديننا؟ فقال يوحنا لأخيه: إنهم صالحوا العرب عن البلد وصاروا لهم عوناً علينا. فقال يوحنا: وحق المسيح لا أبقي عليك العرب أبداً وأن لهم من يقتضى منك.

قال: ومن يقتضي مني؟ قال: المسيح يقتلك كما قتلتهم بغير ذنب، فقال يوقنا: أنت حملتهم على ذلك وأنت أول من أبطش به، ثم عمد إلى أخيه وقبض عليه وجرد سيفه ليعلوه به، فلما نظر يوحنا إلى أخيه وقد جرد سيفه وعلم أنه هالك رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم اشهد على أنني مسلم وأنني مخالف لدين هؤلاء القوم، وأناأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، ثم قال لأخيه: اصنع ما أنت صانع فإن كنت قاتلي فإني صائر إلى جنات النعيم، فورد على يوقنا من إسلام أخيه مورد عظيم من أهل بلده ومن فزعه من المسلمين فحمله الغيط على أن يرمي برأس أخيه عن جسده والتفت إلى أهل البلد فوجدهم يستغيثون فلا يغاثون ويسألونه فلا يجيبهم ولا يكف عنهم فكثر منهم الضجيج وعلت الجلة، وقد أخذوا عليهم البلد من سائر جوانبها، وقد أيس أهل حلب من نفوسهم، وإذا بالفرج وقد أتى، والمعونة وقد أدركتهم وأشرفت عليهم رايات المسلمين وأبطال الموحدين وهم ينادون بكلمة التوحيد ويقدمهم خالد بن الوليد، فلما نظر خالد إلى أهل حلب ولهم ضجيج بالصياح والبكاء قال لأبي عبيدة: أيها الأمير هلك والله أهل صلحك وذمامك كما ذكرت فصاح بجوارده وحملة الراية وزرع في القوم وقال: أفرجوا معاشر الأعلام عن أهل صلحنا ثم أجاد فيهم الطعن وحمل المسلمين معه، وبذلوا السيف في الأعلام، فلما نظر يوقنا إلى ذلك انهزم إلى القلعة ومعه بطريقته. قال محسن بن عترة: فرج الله عن أهل البلد بقتل الأعلام يوم حلب في البلد فمن لجا إلى القلعة سلم ومن طلب الهرب قتلناه قال محسن فكان جملة من قتل يوقنا من أهل صلحنا، ثلاثة وألف أو يزيدون فكانت وقعة عجيبة ففرج المسلمون بها، فلما قتل من قتل وفرج الله عن أهل حلب ما يجدون أخبروا أبا عبيدة كيف قتل يوقنا أخيه يوحنا وبالقصة جميعها.

قال الواقدي: فلما سمع يوقدنا سيف المسلمين صعد القلعة هو ومن معه من جنده واستعد للحصار ونصب المجنانيق ونشر السلاح على الأسوار وكثرة الحصار، وأما أهل حلب فإنهم أخرجوا للعساكر المسلمين أربعين أسيراً من البطارقة. فقال لهم أبو عبيدة: لأي سبب أسرتكم هؤلاء؟ قالوا: لأنهم من أصحاب يوقدنا هربوا إلينا فلم نر أن نخفيهم منك لأنهم ليسوا منا ولا معنا في الصلح قال فعرض عليهم الإسلام فأسلم منهم سبعة، وأما الباقيون فأبوا فضرب رقبتهم وقال لهم: لقد نصحتكم في صلحكم وسترون منا ما يسركم وصار لكم ما لنا وعليكم ما علينا، وهذا بطريقكم قد تحضن في هذه القلعة فهل تعرفون لها عورة تدللون عليها حتى نقاتلهم منها فإن فتحها الله علينا جعلناها لكم غنية مع ما غنمتم من قومكم حتى نكافئكم بفعلكم الجميل فقالوا: أيها الأمير: والله ما نعرف لها عورة وأن يوقدنا قد شحن طرقاتها وقطع مسالكها، ووغر فجاجها، وهذا ما نعلمه ولو لا أنه قتل يوحنا لكان أخذها سهلاً لكم. فقال أبو عبيدة: وما جرى له؟ فأخبروه بخبره وحديثه مع أخيه وأنه أسلم بعدهما رفع يديه إلى السماء وما ندرى ما قال غير أنا سمعنا طرف كلامه وهو يقول: اللهم إني أشهد أن لا إله إلا أنت وأن عيسى عبدك ورسولك ومحمدًا عبدك ورسولك ختمت به الأنبياء وجعلته سيد المرسلين ولا دين أعلى من دينه فاصنع ما أنت صانع، فلما أسلم قتله. قال: فلما سمع أبو عبيدة ذلك قال: في أي موضع قتله؟ ثم وشب وأخذ خالدًا معه وجماعة من المسلمين وأتوا إلى موضع قتله وهو رأس سوق الساعة فوجده ملقى على ظهره وكأنه البدر ليلة تمامه مشيراً بأصبعه إلى السماء وقد مات وأصبعه قائمة فأخذه أبو عبيدة وكفنه وصلّى عليه ودفنه في مقام إبراهيم، فلما واروه أتى إلى أبي عبيدة رجل من المسلمين، فقال: أصلح الله الأمير انظر إلى هؤلاء القوم فإن كانوا من حزبنا نصحوهم ودللونا على عورات قومهم. فقال: لا والله ما يفعلون ذلك أبداً فعندها أقبل أبو عبيدة على المسلمين، وقال: أشيروا علي رحمكم الله، فقال له ذلك الرجل وكان اسمه يونس بن عمرو الغساني وكان رجلاً بصيراً بالشام وجباله ومدنها وجميع أرضه وعارفاً بطريق الشام: أصلح الله الأمير انظر إلى ما أعرفه من البلد وما عندي من الرأي.

قال أبو عبيدة: تكلم يا أبو عمرو فأنت عندنا ناصح للمسلمين. فقال: إن الله قد فتح على يدك الشام وسهله وجبله وحزنه ووعره وقتل طاغية الكفر وحاميته، وأما بقایا عساکرهم فھي من وراء الدروب وهي جبال وغابات ومضائق والقوم قد رعبت قلوبهم مما أباد الله منهم، وليس لهم قلوب يقاتلون بها المسلمين فحاصر هذه القلعة وبث الخيل وشن الغارات في بقایا البلاد وشاطئ الفرات فما لهم زاد يقوم بهم فتبسم خالد من كلام الغساني، وقال: هذا والله هو الرأي وأنا أشير عليكم بمشروة أخرى: أن نزحف نحو القلعة فلعل الله أن يفتحها في وقتنا هذا فإني أخشى إن طال بنا المقام أن تعطف علينا

جيوش الروم من جهة أخرى فيحولوا بينها وبيننا. قال أبو عبيدة: يا أبا سليمان لقد أشرت فأحسنت وقلت فصدقتك، ثم أمر أبو عبيدة بالزحف إلى القلعة فترجلت الفرسان عن خيولهم وتجردت من ثيابهم واحتللت العبيد والسدادات وافتخرت القبائل وانبثت العشائر وتجاوزوا بالأشعار وتداعوا بالأنساب. قال مسروق بن مالك: فوالله ما رأيت في قتال حصون الشام يوماً كان أعظم من ذلك اليوم لأننا كنا نشهي دوران الحرب كدوران الريح تهشم ما دارت عليه وقد بربنا إليهم في أول حربهم وتبادرت أبطال اليمن وسدادات ربيعة ومضر يتلو بعضهم بعضاً يجعلوا يطلبون القلعة من حيث لا طريق عليها. فإذا دنوا منها أخذتهم الحجارة من كل جانب ورمونهم بالمجانق والغرازات، وكانت أنا وأصحابي أقرب الناس إلى الأرض ففرزعن راجعين على أعقابنا يدفعون بعضنا بعضاً لا نظن أن ينجو من أحد فوقعت الخذلة في المسلمين وقد شدخت منا الحجارة خلقاً كثيراً، فقتل بعضنا وبعضنا رمته فكان من جملة من قتل يوم حصار قلعة حلب بالحجارة عامر بن الأصلع الريعي، ومالك بن خزعل الريعي وحسان بن حنظلة ومروان بن عبد الله وسليمان بن فارغ العامری وعطاف بن سالم الكلابي وسراقة بن مسلم بن عوف العدوی ورجال من أهل اليمن من آل عامر ومن بني كلاب وغيرهم وبسبعة من بني عبد الله. قال مرزوق بن مالك: فلقد كنا نرى بعد ذلك بستين خلقاً كثيرة عرجاً من يوم حصار قلعة حلب فعندها نصب أبو عبيدة رايته خارج المدينة وجعل ينادي بال المسلمين فاجتمعوا إليه. فقال: أيها الناس إنكم قاتلتم اليوم على غرة فادفعوا الشهداء وشدوا كل من أصابه جرح فانتدب المسلمون إلى ذلك وفرح الروم بهزيمة المسلمين وما قد نزل بهم. فقال لهم يوقنا: إن العرب لا تدنوا من القلعة بعد هذا اليوم أبداً، وإن حاصروا فلأكيدنهم ولأهبطن إلى عسكرهم.

قال الواقدي: ولقد حدثني عبد الله بن سليمان الدينوري وكان ممن نقل أخبار الشام وفتوحه عن ثقات المسلمين. قال: حدثني عمرو: أن يوقنا انتخب ألفين من خيار بطارقه وأبطاله، وقال لهم: انزلوا مسرعين وليحذرون ببعضكم بعضاً وميلوا على طرف عسكر المسلمين إذا خمدت نيرانهم واغتنموا غرتهم وأمر عليهم وزيره، فنزلوا ليلاً من القلعة وجعلوا يدورون حول العسكر إلى أن أتوا إلى مكان، وقد خمدت نيرانهم، وكان القوم بادية من أهل اليمن مثل مراد وبني كلاب وعيدهم. قال عبد الله بن صفوان البكري: كنا تلك الليلة غادين من عدونا آمنين لكثرتنا وقد غفل حرسنا، فلم نشعر إلا وجماعة الروم قد هجموا علينا وهم ينادون بلغتهم وقد أعلنوا التهرب بزيتهم فلا نعلم ما يقولون ووضعوا السيف فينا فكان التحبيب منا من استوى على جواهه وطلب النجاة وهو لا يعلم من أين هي ولا كيف يتخلص، وقد وقعت الجندة في أبطال المسلمين وعساكرهم والقوم ينادون النفير النغير دهينا ورب الكعبة، وهم يسرعون إلى خيمة أبي

عبيدة وينادون: أيها الأمير كبسنا يوقدنا، فعندها ركب الأمير في بعض الرجال وجعل يدور حول العسكر فنظر صاحب الروم إلى العرب وقد لحقته، فصالح بأصحابه: من كان أخذ شيئاً فليتركه ويطلب نجاة نفسه. قال عبد الله بن صفوان: أخذوا من رجالنا نحو خمسين رجلاً من أخلاق الناس وأكثراهم من ربيعة ومضر ومضوا يجمع بعضهم بعضاً ويطلبون القلعة، فلما نظر خالد إلى ذلك حمل في أصحابه واقطع من الروم زهاء من مائة رجل ووضع فيهم السيف فقتلهم عن آخرهم فلما وصل أصحاب يوقدنا إلى القلعة فتح لهم وأدخلهم، فلما أضاء الفجر وطلعت الشمس دعا يوقدنا بال المسلمين الخمسين رجلاً وهم موثقون بالحبال، فقربهم إلى موضع ينظرون المسلمين ويسمعون أصواتهم وهم يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله حتى قتلوا عن آخرهم، فلما نظر أبو عبيدة إلى ذلك أمر منادياً ينادي في عسكره عزيمة من الله ورسوله ومن الأمير أبي عبيدة: على كل رجل لا يكل حرسه إلى غيره، ول يكن كل رجل منكم حارس نفسه، ولا يتكلم ببعضكم مع بعض. قال فأخذ القوم حذرهم وأعدوا حرسهم، وأقبل يوقدنا يدبر أمره في مكيدة أخرى ليكيد بها المسلمين إذ علم أنهم محاصرون ومع ذلك جواسيسه تأتيه بالأخبار في الليل والنهار وكان أعظم جواسيسه من متصرّة العرب لأنهم كانوا يحسنون لسان الرومية.

قال: في بينما يوقدنا ذات يوم جالس في قلعته والبطارقة من حوله وقد أضر بهم الحصار وأشد ما كان عليهم من أهل المدينة لأنهم لا ينظرون إلى رجل من أصحابه يعرفونه إلا أخذوه وسلموه للمسلمين، وإذا بجاسوس قد أقبل وهو من عيونه، فقال له: أيها السيد إن أردت أن تكيد العرب فهذا وقتك، فقال له يوقدنا: وكيف ذلك؟ وما الذي عندك من الخبر؟ قال: إن العلافة منهم قد خرجوا إلى وادي بطان وقد صالحوا أهله وعلوقة العرب وميرتهم منه، وقد رأيت منهم جمالاً وبغالاً ومعهم طائفة منهم وعليهم القمحان الخلقة وبأيديهم الرماح المشبعة وهم يقصدون القرى في طلب الميرة وهم قليلون وليس هم في كثرة. فلما سمع يوقدنا ذلك من جاسوسه، اخтар ألفاً من أصحابه وقال لهم: أصلاحوا شأنكم فورحق المسيح لأضيقن على العرب مسالكهم ولاقطعن عليهم طرقاتهم. فلما أقبل الليل فتح لهم الباب، وسار الجاسوس أمامهم حتى استقاموا على الجادة وجعلوا يسيرون تحت جنح الليل في بينما هم كذلك، إذ هم براب ومعه سرح من البقر يريد بها بلده، وقد خرج بها من بلد آخر وهو يسير بها سيراً عنيناً، فلما نظروا إليه أسرعوا نحوه وقالوا: أحسست بأحد من العرب قد عبر عليك؟ قال: نعم والشمس عند الغروب قد اصفرت وهم نحو مائة رجل على خيول وهم مسرعون ومعهم جمال وبغال وهم يريدون الميرة من هذا الوادي من الذين هم في صلحهم ولستنا نخاف منهم، فقال له المقدم عليهم: الآن قد أقيمت علينا من صلح أهل هذا الوادي ما لم يكن عندنا منه خبر في حق المسيح أخبرنا بأي طريق ذهبت العرب. فقال: من هنا وأواماً بيده إلى الشرق

فصار البطرق بمن معه ولم يعرفوا أن صاحب البقر منهم حتى إذا قرب الصبح أشرفوا على خيل المسلمين وكان الأمير عليها يقال له مناوش، فلما نظر مناوش إلى خيل الروم قد أقبلت أقبل على أصحابه وقال: يا بنى العرب هذا بطريق من بطارقة الروم قد أقبل إلينا فدونكم إيه والجihad والصبر على الشدة تناولوا الجنة ثم حمل وحمل معه أصحابه فحملت عليهم الروم فثبت لهم المسلمين واقتتلوا قتالاً شديداً وقتل مناوش بن الضحاك والغطريف بن ثابت ومنيع بن عاصم وكهلان بن الضحاك فقطل من المسلمين ثلاثون رجلاً كلهم من طيء وانهزم الباقيون وملك الروم ما كان مع المسلمين من الإبل والبغال وعاد المسلمون منهزمين فعند ذلك أقبل البطرق على أصحابه، وقال: ارموا الأحمال عن هذه الدواب واعقوروا وسوقوا بقية الدواب بما عليهما فإنها لنا ميرة واطلبو الجبل واختفوا عن أعين العرب وإلا ففي هذه الساعة تطلع علينا خيول العرب كالرياح تهزكم فاكمنوا حتى إذا جاء الليل طلباً القلعة واعتصموا بها ففعلوا ذلك وقتلوا الجمال وساقوا الدواب والتوجهوا في الجبل إلى قرية فأقاموا بقية يومهم يرقبون الليل ليرجعوا إلى القلعة وأقاموا لهم ديدباناً. قال عوف بن صباح الطائي كنت في الخيل لما قتل عمي مناوش، ونحن في قلة وقد دهمتنا الخيل، فلما نظرنا إلى كثرة الروم وشدة بأسهم مع قلتنا أخذنا على أنفسنا وأتينا المسلمين فبادر إلينا أبو عبيدة، وقال لنا: ما وراءكم؟ قلنا: الحرب والطعان، قتل منا مناوش وقتل معه خلق كثير من فرسانا وأخذ ما كان معنا من الزاد والدواب.

فقال أبو عبيدة: وما الذي دهلكم وقد حاصر الله الروم وما يجسر أحد أن يخرج منهم؟ قالوا: لا علم لنا غير أنا رأينا بطريقاً عظيماً قد أشرف عليها وهو في عدة حسنة وخيول كثيرة مستعدين للقتال لا نعلم عددهم ولا من أين أتى مددهم فهجموا علينا ونحن سائرون فأصيب أميرنا وقتل رجالنا وأخذنا ما كان معنا من الدواب والزاد فلما سمع أبو عبيدة ذلك دعا بخالد بن الوليد إليه وقال: يا أبا سليمان أنت لها والمعد لمثلها وأنا واثق بالله ثم بك مع أني أستخير الله في جميع أموري، سر على بركة الله تعالى وخذ معك من المسلمين من أردت لعلك أن تقفو القوم وتعاني موضع أثر الوعنة وتتبع آثارهم عسى الله أن يوقعنا بهم واطلبهم أينما كانوا وحيث ساروا لعلك تأخذ بثار المسلمين، واعلم أننا صالحنا أهل الوادي وأتنا لا ننقض عهودنا ولا نتحول عن قولنا إلا أن يكون القوم قد مكرروا بنا فنجد إلى قتالهم سبيلاً فاتق الله فيهم، سر برحمك الله. قال: فأسرع خالد إلى خيمته ولبس سلاحه واستوى على متنه جواده وهم بالمسير وحده. فقال له أبو عبيدة: إلى أين يا أبا سليمان؟ قال له: أسارع إلى ما أمرتني به. فقال له: خذ من أردت معك من المسلمين، فقال خالد: أنا أمضي وحدي وما أريد أحداً فقال له أبو عبيدة: كيف تمضي وحدك وعدوك في عدد كثير؟ قال خالد: لو كانوا في ألف أو ألفين أقاهم بمعونة

الله تعالى. فقال له أبو عبيدة: إنك كذلك ولكن خذ معك رجالاً قال فأخذ ضراراً وأمثاله وسار حتى أتى إلى موضع الوعرة فرأى القتلى مطروحين ورأى حولهم أهل الوادي وهم يبكون خوفاً من المسلمين على أنفسهم وذريتهم وأن العرب تطالبهم بهم، فلما طلع عليهم خالد ومن معه كأنهم شعلة نار تصارخ القوم في وجهه والقوا أنفسهم بين يديه، فقال لهم خالد: من هؤلاء القوم الذين قتلوا أصحابنا؟ قالوا: إننا نحن بريئون من دماء أصحابكم ونحن في صلحكم فاستحلفهم خالد أنهم لا يعلمون من قتلهم فحلفوا له فقال لهم: من الذي أوقع بأصحابي؟ فقالوا: بطريق بعثه يوقنا من القلعة ومعه ألف فارس من أشد قومه وأن لهم في عسكركم عيوناً يخبرونه بما أنتم فيه كل ساعة، فقال لهم: وفي أي طريق قصدوا. قالوا: في هذا الطريق، فقال خالد: أو ما حلتم أن ما عندكم علم بهم، قالوا: هذا الذي يخبرك من أهل حلب قد أتى يشتري طعاماً ولو لا أنك أقبلت في هذه الساعة ما كنا عرفنا من قتلهم، فقال له خالد: أعلى هذا الطريق أخذوا؟ فقال له الرجل: نعم ورأيتهم يطلبون الجبل، فقال خالد لأصحابه إن القوم علموا أنهم لا بد لهم من خيل تطلبهم وتتبعهم وقد عدلوا عن طريقنا حتى إذا هجم عليهم الليل رجعوا إلى قلعتهم فعولوا على المسير في طلبهم. ثم إنهم أرخوا الأعنة وخالد يقدمهم وقد أخذ معه رجالاً من المعاهدين يقفون بهم أثر الطريق والقوم، فلما حصلوا على الطريق. قال خالد لواحد من المعاهدين أللهم طريق إلى قلعتهم غير هذا؟.

قال: نعم ولكن كن هنا فإنك تفوز بهم إن شاء الله تعالى فنزل خالد ومن معه في الوادي، وهم يرقبون الطريق مما مضى من الليل إلا قليل إذ سمع وقع حواري الخيل والبطريق أمامهم والخيل من ورائه وهو يزجرهم ويحثّهم على المسير، فلما توسلوهم صاح خالد صيحة شديدة ووثب خالد كأنه الأسد وخرج عليهم هو وأصحابه فما كان قد صد خالد غير الطريق وظن أنه يوقنا فضربه ضربة رماه نصفين وقد وضعوا السيف فيهم وجعلوا يطلبونهم وهم في الهرب فلم ينج منهم إلا من أطال الله أجله وحزروا جميع ما معهم وأتوا برأس الطريق إلى أبي عبيدة على رأس رمح فوجدوه متلهفاً على قدميه، فلما أشرف خالد بمن معه من الأساري والأسلام والدواب هلّلوا وكبروا. فأجابهم العسكر بالتهليل والتكبير. قال وأتى خالد ومن معه بالرأس والأسلام والأساري، فكانوا أزيد من ثلثمائة أسير ورؤوس القتلى سبعمائة فعرضوا عليهم الإسلام فأبوا، وقالوا: نحن نعطيك الفداء. فقال خالد: نضرب رقابهم قبل القلعة لنوهن بذلك عدو الله قال فضررت رقابهم قبل القلعة. فقال خالد: إننا نظن أنا محاصرون القوم وإذا نحن بخلاف ذلك وهم يرقبون غفلتنا ويستظرون غرتنا، وقد قتلوا جمالنا والدواب والصواب أن نجعل عليهم حرساً في كل طريق يمكننا ولا نتمكنهم أن يخرجوا من قلعتهم ونضيق عليهم ما استطعنا. قال أبو عبيدة: جزاك الله خيراً يا أبا سليمان ما أبصرك بالأمور، فلما كان من الغد وصلى

أبو عبيدة بالناس صلاة الفجر دعا بعد الرَّحْمَنِ بن أبي بكر وبضرار بن الأزور وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وقيس بن هبيرة وميسرة بن مسروق ففرقهم حول القلعة ومعهم من اختاروا وأمرهم أن يمسكوا الطريق والمسالك على يومنا حتى لو طار طائر منها أو إليها اقتنصوه وأقام القوم على ذلك مدة، فلما طال عليهم ذلك ضجر أبو عبيدة لطول مقامه فأمر الناس بالرحيل عنهم وعزم أن يتبعونهم: أي عن القلعة لعل أن يجد منهم غفلة فينتهذها. قال وبعد عن المدينة فنزل بقرية بقرب منها يقال لها النيرب وهو يريد حيلة يصل بها إلى يومنا. قال ويوقنا لا ينزل من القلعة ولا يفتح بابها، ففكَّر أبو عبيدة غاية الفكر، وقال لخالد: يا أبا سليمان إن جواسيس عدو الله تكشف أخبارنا وتوصلها إليه وتخوفه فإني أقسم عليك يا أبا سليمان إلا ما جلت في عسكرنا جولة واختبرت أمر الناس فلعلك تقع بأحد من جواسيسه. قال فركب خالد وأمر الناس أن يدوروا في عسكرهم وأن يقبحوا على كل من انكروه. قال فيما خالد في طوافه إذ نظر إلى رجل من العرب المنتصرة وبين يديه عباءة يقلبها فجعل خالد يرقبه فاستراب الرجل منه فناداه، وقال: من أي الناس أنت يا أخا العرب؟ قال: أنا رجل من اليمن. قال: من أيها؟ قال: فأراد أن يقول ويتنمي إلى غير قبيلته فجري الحق على لسانه، فقال: أنا من غسان، فلما سمع خالد كلامه قبض عليه، وقال له: يا عدو الله أنت عين علينا لعدونا. قال: وما أنا متنصر وأنا مسلم فأنت به إلى أبي عبيدة، وقال: أيها الأمير قد رابني أمر هذا لأنني ما رأيته قط إلا يومي هذا وقد ذكر أنه من غسان ولا شك أنه من عباد الصليب، فقال أبو عبيدة: اختبره يا أبا سليمان قال: وكيف أختبره؟ قال: اختبره بالقرآن والصلوة، فإن أجابك إلا فهو كافر. فقال له خالد: فصل ركعتين واجهر بالقراءة فيهما فلم يدر ما يقول. فقال له خالد: أنت يا عدو الله عين علينا. ثم استخبره عن شأنه فأخرجه وأقرَّ أنه عين عليهم، فقال له خالد: أنت وحدك؟ قال: لا ولكننا ثلاثة أنا أحدهم والاثنان قد ذهبنا إلى القلعة ليخبرنا يومنا بخبركم، وأنا قد تخلفت لأنظر ما يكون من أمركم، فقال أبو عبيدة: أخبرني أينما أحب إليك: القتل أو الإسلام فليس بعدهما شيء.

فقال الغساني: أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، ثم رجع أبو عبيدة إلى حلب وما زالت القلعة محاصرة أربعة أشهر، وقيل خمسة أشهر، وأبطأ خبر أبي عبيدة على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكتب إلى أبي عبيدة يقول: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر إلى عامله أبي عبيدة سلام عليك، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد ﷺ، واعلم يا أبا عبيدة أن بانقطاع كتابك وإبطاء خبرك يكثر قلقى ويفضي جسدي على إخوانك المسلمين وما لي ليل ولا نهار إلا وقلبي عندكم ومعكم. فإذا لم يأت منك خبر ولا رسول فإن عقلي طائر وفكري حائر، وكأنك لا تكتب إلى إلا بالفتح أو الغنيمة، واعلم يا أبا عبيدة أنت وإن كنت غائباً عنكم فإن

همتي عندكم وأني داعي لكم، وقلقي عليكم كقلق الوالدة الشفوفة على ولدها، فإذا قرأت كتابي هذا فكن للإسلام وال المسلمين عضداً، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعث الكتاب إلى أبي عبيدة. فلما ورد عليه وقرأه عليهم. قال: معاشر المسلمين: إذا كان أمير المؤمنين داعياً لكم وراضياً عنكم في فعالكم فإن الله ينصركم على عدوكم. ثم كتب جواب الكتاب يقول: بسم الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: إلى أبي عبد الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، من عامله بالشام أبي عبيدة: سلام عليك، وإنني أحمد الله تعالى وأصلى على نبئه، وبعد يا أمير المؤمنين فإن الله تعالى له الحمد قد فتح على أيدينا قنسرين، وقد شتنا الغارة على العواصم وقد فتح الله علينا مدينة حلب صلحًا، وقد عصت علينا قلعتها وبها خلق كثير مع بطريقها يوقدنا، وقد كادنا مرارًا وذكر له ما جرى له مع أخيه يوحنا وأنه قتل منا رجالاً ورزقهم الله الشهادة على يديه. ثم إنه ذكر له من قتل والله تعالى من ورائه بالمرصاد، وقد أردنا الحيلة عليه فلم نقدر وأردت الرحيل عنه وعن محاصريه إلى البلاد التي بين حلب وأنطاكية، وأنا منتظر جوابك والسلام عليك وعلى جميع المسلمين، وبعث الكتاب مع عبد الله بن قرط وجعده بن جبير فسارا إلى أن أخذنا في طريق هبشت العتيقة وجداً في السير حتى قطعاً أرض الجفار إلى صكاصكة وهي حصن العرب قربة من تيما، فلما وصلا إليها عارضهما فارس وعليه درع سابق وعلى رأسه بيضة تلمع، وهو معتقل برمج كأنه قد برز إلى عدوه أو قاصل إلى قتال. فلما نظر إليهما قصدهما. فقال عبد الله بن قرط لجعده بن جبير: يا ويلك أما ترى هذا الفارس، وقد عارضنا في مثل هذا المكان على مثل هذه الحالة فقال له جعده: وما عسى أن نتخوف من فرسان العرب ورجالها، وليس في هذا الموضع من رفع عموداً أو ضرب وتداً إلا وأصبح معنا ودخل تحت طاعتنا وفي شريعتنا، فلما قرب الفارس من سلم علينا، وقال: من أين أقبلتما وإلى أين قاصدان؟ فقالا له: نحن رسولان من الأمير أبي عبيدة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فمن أنت أيها الرجل؟ قال: أنا هلال بن بدر الطائي. فقالا له: ما لنا نرى عليك آلة الحرب. قال: إني خرجت في طوائف من قومي وجماعة من أصحابي نريد الشام للجهاد، لكتاب ورد علينا من عمر بن الخطاب. فلما رأيتكم في بطن الوادي قصدتكم لأنظر ما قصتكم،ولي أصحاب من ورائي مقبولون.

ثم سلم عليهم وولى فركبا مطيهما وسارا وإذا بالخيل قد أشرفـت، والإبل قد أقبلت تتبع هلال بن بدر أرسلاً يتبع بعضها بعضاً إلى أن لحقوه فأخبرـهم بقصة صاحبـي رسول الله ﷺ ففرحوا بذلك وساروا يريدون الشام، وأما عبد الله بن قرط وجعده بن جبير فإنهما وصلا المدينة ودخلـا المسجد وسلمـا على عمر بن الخطاب وعلى المسلمين ودفعـا له الكتاب، فلما قرأه استبشر ورفعـ كفيـه إلى السماء، وقال: اللهم اكف الناس شرـ

كل ذي شر. ثم أمر منادياً في الناس الصلاة جامعة، فلما اجتمع الناس قرأ عليهم كتاب أبي عبيدة، فلما قرأه قدم عليه من حضرموت وأقصاصي اليمن من همدان ومدان وسبأ وأقارب يسألونه أن ينفذهم إلى الشام، فقال لهم عمر: في كم أنتم بارك الله فيكم؟ قالوا: نحن زهاء من أربعين ألفاً وثلاثمائة مطية مردفين ومعنا أناس يمشون على أقدامهم لا ركاب لهم، فإن كان عند أمير المؤمنين ما يحملهم عليه حتى نصل إلى عدونا، فقال لهم عمر: وكم يبلغ الرجال الذين معكم؟ قالوا: أربعين ومائة رجل، فقال لهم: عرب أو موالي؟ قالوا: عرب وموالى أذن لهم ساداتهم في الجهاد والمسير إلى الأعداء، فعندها دعا عمر بعد الله ابنه رضي الله عنه، وقال: امض إلى مال الصدقات فألت القوم بسبعين راحلة ليتقبوا عليها ويحملوا زادهم وميرتهم على ظهورها فأسرع عبد الله بن عمر وأتى بسبعين بعيراً وسلمها إليهم، وقال لهم: جدوا رحmkm الله إلى إخوانكم المسلمين وأسرعوا إلى حرب عدوكم، ثم كتب إلى أبي عبيدة. أما بعد فقد ورد علي كتابك مع رسلي فسرني ما سمعت من الفتح والنصر على أعدائكم ومن قتل من الشهداء، وأما ما ذكرته من انتصافك إلى البلاد التي بين حلب وأنطاكية وتترك القلعة ومن فيها فهذارأي غير صواب ترك رجالاً قد دنوت من دياره وملكت مدینته، ثم ترحل فيبلغ إلى جميع النواحي أنك لم تقدر عليه ولم تصل إليه فيضعف ذكرك ويعلو ذكره ويطعم من يطعم ويجهريء عليك أجناد الروم خاصتهم وعامتهم وترجع إليه الجوايس وتكلبت ملوكيها في أمرك فإذاك أن تبرح عن مجاهدته حتى يقتله الله أو يسلم إليك إن شاء الله تعالى أو يحكم الله، وهو خير الحاكمين وبث الخيل في السهل والوعر والضيق والاسعة... وأكناf الجبال والأودية... وشن الغارات في حدود المفازات، ومن صالح الحكم منهم فاقبل صلحه رمَّن سالمك فسالمه والله خليفيٰ عليك وعلى المسلمين، وقد أنفذت كتابي إليك ومعه عصبة من حضرموت وغيرهم وأهل مشايخ اليمن منن وهب نفسه الله تعالى ورغب في الجهاد في سبيل الله وهم عرب وموالٰ فرسان ورجال والمدد يأتيك متواتراً إن شاء الله تعالى والسلام. وختم الكتاب وسلمه لعبد الله بن قرط وجعدة، وجعل القوم يجدون في سيرهم ومع ذلك يسألون عبد الله بن قرط وصاحبه عن بلاد الشام وفتح البلاد، وقتل الروم إلى أن سألوهما عن مستقر العسكرية، فقال لهم عبد الله: إن جميع المسلمين وأميرهم محاصرون بقلعة حلب وفيها عظيم من عظماء الروم ومعه أعلاج من أصحابه، وقد تحصنوا في رأس قلعته، فقالوا له: يا ابن قرط ما لهؤلاء لا يدخلون في جملة من صالح من أصحابهم، فقال لهم: يا معاشر العرب إنما لم نر بعد وقعة اليرموك رجالاً أشجع من هذا فلقد قتل رجالاً وجندل أبطالاً وإنه ليغير على أطراف العسكرية في وقت صلاته فيقتل رجالهم وينهب أموالهم ويرجع إلى قلعته وربما أنه يستتر في سواد الليل في طلب العلافة فيقع بهم فيأمر بهم ويأخذ دوابهم وجميع

زادهم وميرتهم، ثم يعود إلى قلعته ونحن لا نعلم به، وأن المسلمين له محاصرون ومنه خائفون حذرون.

قال: وكان فيمن سمع كلامه وفهمه مولى من موالى بنى طريف من ملوك كندة ويقال له دامس وبكتني بأبي الأهوال مشهور باسمه وكتبه وكان أسود كثير السواد بصاصاً كأنه النخلة السحوق إذا ركب الفرس العالي من الخيل تخط رجله بالأرض، وإن ركب البعير العالي تقارب ركبتهانه رجلي البعير وكان فارساً شجاعاً قويًا قد شاع ذكره ونما أمره وعلا قدره في بلاد كندة وألوية حضرموت وجبال مهراً وأرض الشجرة وقد أخاف البدية ونهب أموال الحاضرة، وكان مع ذلك لا تدركه الخيل العتاة، وكان إذا أدركته العرب في باديتها تعجبت من صولته وشجاعته وبراعته، فلما سمع دامس أبو الهول بذلك يوفنا وما فعل بالمسلمين كاد أن يتمزق غيظاً وحنقاً، وقال عبد الله بن قرط: أبشر يا أخا العرب فوالله لأجتهد في أن يخذله الله على يدي، فلما سمع عبد الله كلامه جعل ينظر إليه شزاراً، وقال: يا ابن السوداء لقد حدثتك نفسك آمالاً لا تبلغها وأشياء لا تدركها يا ويلك ألم تعلم أن فرسان المسلمين وأبطال الموحدين بأجمعهم له محاصرون ولا أصحابه محاربون ومع ذلك لا يقدر أحد له على شر وقد كاد ملوكاً وقهراً. فلما سمع دامس كلام عبد الله بن قرط غضب، وقال: والله يا عبد الله لولا ما يلزمني ذلك من أخوة الإسلام لبدأت بك قبله فاحذر أن تزدرني بالرجال وإن أحببت أن تعرفي فسل عنى من حضر من أهلي وما قد تقدم من فعلي الذي من ذكره تطيش العقول وتتضيق الصدور كم من عساكر قتلتها وجموع فرقتها ومحافل بذاتها وغارات شنتها ولا يضم لي جار ولا يلحقني عار وبحمد الله أنا فارس كرار غير فزار. ثم تركه مغضباً وسار أمام الناس وإن قوماً من العرب قالوا عبد الله بن قرط: يا أخا العرب ارفق بنفسك فإليك وايم الله تخاطب رجالاً يقرب إليه البعيد ويهون عليه الصعب الشديد وإنه لجليد فريد لا تهوله الرجال، ولا تفزعه الأبطال إن كان في حرب كان في أولها لا يدركه من طلب ولا يفوته من هرب، فقال عبد الله: لقد كثر وصفكم وأطربتكم في ذركم وأرجو أن يجعل الله فيه خيراً وفرجاً للمسلمين، قال ثم أخذ القوم في جد السير حتى قدموا حلب إلى أبي عبيدة، وهو منازل أهل قلعة حلب ومحاصرها وقد أحاط المسلمون بالقلعة من كل جانب، فلما أشرف القوم عليهم أخذوا في زينتهم وجردوا سيفهم وأشهروا سلاحهم ونشروا رياتهم وكبروا بأجمعهم وصلوا على نيتهم. فأجابهم أهل العسكر بالتكبير من كل جانب واستقبلهم أبو عبيدة وسلم عليهم وسلسو عليه ونزل كل قوم عندبني عمهم وعشيرتهم، ويوفنا ما زال في كل ليلة ينشط إليهم برجاته ويناوشهم وذلك أنه كان لا يقاتلهم إلا قليلاً ولا يظهر من القلعة نهاراً أبداً وكان أكثر خروجه في وقت خروج الناس، فلما بات المسلمين القادمون في تلك الليلة ونظرت طيء وشنبس ونبهان وكندة

وحضرموت إلى شدة الحرث وعظم حرسهم وحذرهم أقبل دامس أبو الهول على أهله الذين نزل عليهم من طريف وكندة، فقال لهم دامس: والله ما أنتم محاصرون لا محالة. فقالوا له: وكيف ذلك. قال: لأن العدو في رأس قلعة وأنتم قدام العدو من الأرض لقربكم ولا عسكر بيازائمكم تخافونه فما هذا الخوف؟ قالوا: يا أبو الهول إن صاحب هذه القلعة عاج ميشوم يرتفع غفلتنا ويغير على أطرافنا ويأتينا من مأمتنا فيما دامس يخاطب القوم وإذا بالضجة قد وقعت في طرف عسكر المسلمين ولها جلبة عظيمة فوقف دامس متضيّعاً حسامه متنكباً حجفته وطلب الناحية التي سمع منها الصوت حتى بلغ إليها وإذا بيوقنا في خسمائة رجل أبطال أنجاد وليوث شداد وقد وجد فرقة من القوم، فلما نظر دامس إلى الروم وقع في وسطهم، وجعل يقول:

أنا أبو الهول وأسمي دامس أكر في جمعهم مداعس
ليث هزير بطل ممارس مدمر كل عدو ناكس

قال: وجعل يضرب في أغراضهم بسيفه ومعه طائفة من بني طريف من شجاعتهم وفرسانهم، فلما نظر يوقنا ما نزل به تقهقر إلى ورائه، وقد قتل من رجاله مائتان ودامس يكر عليهم ويتبعهم إلى رأس درب القلعة وكندة من ورائه فناداهم أبو عبيدة: عزيمة مني عليكم أن لا يتبعهم منكم أحد في ظلمة هذا الليل، فقال الناس: يا أبو الهول إن الأمير يعزّم علينا وعلىك بالرجوع فارجع رحمك الله فرجع دامس إلى رحله، وتراجع القوم إلى رحالهم، وقد أبليت كندة بلاء حسناً والناس قد خرجوا فلما أصبح الناس اجتمعوا للصلوة مع أبي عبيدة، فلما قضيت الصلوة تفرقوا ولم يبق إلا نفر يسير من أمراء المسلمين فجعلوا يذكرون ليلتهم. فقال خالد: أصلاح الله الأمير لقد رأيت كندة وقد أبليت بلاء حسناً، وقد تقدمت رجالها وثبتت أبطالها، وما زالت تتضرّب حتى أزالتك عنا حامية الكفر والعدو، فقال أبو عبيدة: صدقت والله يا أبو سليمان، والله لقد أسعدت الناس كندة بثباتها والله لقد سمعتهم يقولون: أحسن دامس وأجاد أبو الهول، فقام إلى أبي عبيدة رجل من رؤساء كندة يقال له سراقة بن مرداس بن يكرب، فقال: أصلاح الله الأمير دامس هو أبو الهول، وهو مولى طريف قدم مع هذا الوفد الذي ورد بالأمس، وهو رجل يفجر ويهول على الأبطال ويفضح الشجعان ويدلل الأقران، لا يهوله جمع ولا يصعب عليه غارة، فقال أبو عبيدة لخالد: أما تسمع كلام سراقة في عبدهم دامس، فقال خالد: يوشك أن يكون صادقاً في قوله، ولقد سمعت بذلك وحديثه وشجاعته وبراعته، ولقد أخبرني رجل يقال له النعمان بن عشيرة المهرمي أن دامساً قد أغار وحده وهم على ساحل البحر في سبعين رجلاً من أهل مهراً، وكان دامس هذا يطلبهم لأجل ثأر كان له عند القوم، وكانوا يخافون منه ومن شره وبأسه فكانوا مع ذلك يفتدون بأموالهم ودوا بهم ويهربون إلى

أطراف الجبال وسواحل البحر حذراً منه، وكان مع ذلك يسأل عن أخبارهم ويطلع على آثارهم، فلما صرّع عنده نزولهم على ساحل البحر استصرخ قومه للغزو فتشاغلوا ولم ينفر منهم أحد معه، وكان خبيزاً بالبلاد سهلها ووعرها بزها وبحرها، فلما أيس من قومه دخل إلى خيابته واحتمل رزمه على عاتقه فأتاه أناس من قومه وقالوا له: إلى أين تريد وما هذا الذي معك؟ فقال: يا قوم أنا أريد الغارة علىبني الشعر وأخذ بالثار وأكشف العار، فقال له مشايخ الحي: ما رأينا أعجب من أمرك وأنت تعلم أن بنى الشعر سبعون، فمن يربد أن يغير عليهم وحده ويأخذ منهم بالثار؟ وما سمعنا بهذا أبداً، وإنما نرى أن تقصد جواد، وكانت جواد هذه أمة لبني حياس من الحضارة، وكانت بقرية من قرى حضرموت يقال لها أسفل، وكان دامس هذا يهواها وكل ما يأخذه من الأموال والخيل والإبل يدفعه إليها ولا يعظم عليه كثرته، وكان لا يرضى لها بالقليل ولا يشبع لها بالكثير فظن القوم أنه مضى إليها وقصد نحوها بحملته التي معه من رزمه، فقال لهم: وايم الله إني بطل فما تظنون؟ وسوف تعلمون أن ما أفعله الحق واليقين. قال: فرجع قومه وتركوه وسار إلى أن أتى إلى مرعى قومه فأخذ راحلته من إبلهم ورحلها وأخذ سيفه وحفته، وجعل الرزمه تحته وسار بقية يومه وليلته، حتى إذا كان آخر الليل عطف بالراحلة إلى بعض الأودية فأبركها وحل رحلها وعقلها ودورها ترعى معقوله، ثم كمن بين حجرين، وكان قريباً من القوم ويختاف أن يدوروا به، فلما مضى عليه نهاره وأقبل ليله أتى إلى راحلته وأبركها ورحلها واستوى في كورها، وسار حتى أشرف على نار القوم فعدل بناقته حتى أشرف على الحي، وكان في ذلك الشرف شجر من الطلح فأبرك ناقته وزم شدقها لثلا ترغو فيسمع القوم رغاءها. ثم عمد إلى رزمه فحلّها واستخرج منها الثياب وأتى إلى تلك الشجرة، فجعل على كل عود منها مثل عمامة الرجل، ويأتي بالعود ينصبه ويستنده بالحجارة ويطرح عليه الإزار، ولم يزل حتى أقام أربعين عوداً على هذه الصفة، وجعل عليه حلة حمراء أرجوانية وهبط من ذلك الشرف الذي عليه الثياب وقصد الحي ودار حول بيوتهم وتفكر في أمره، وكيف يحتال وقد مضى أكثر الليل. ثم صبر إلى أن طلع الفجر وسار نحو الساحل، فلما قرب منهم صاح فيهم وقال: دنا أجلكم أنا أبو الهول ولقد أصبحتم بالويل وأخذتم من البر والبحر، وجعل ينادي: يا ثار طريف يا آل طريف يا آل كندة، فلما وقع صوته في أسماعهم ذهلت رجالهم وتصارخت نساوهم وفرّ القوم بين يديه من البيوت هاربين وإلى الساحل نحو الجبل طالبين وهو من خلفهم، فلما رأوه وحده شجع بعضهم بعضاً ورجعوا إليه يقاتلونه وطمئنوا فيه لما رأوه وحده ولم يروا أحداً من ورائه وأخذوا في طلبه، فجعل يكتّر عليهم ويرجع عنهم ويقتل رجالاً بعد رجل، فلما نظروا إلى شدة بأسه وعظم مراسه وهو صولته وشدة حملاته أرادوا أن يسبقوه إلى الشرف ليأتوا إليه من ورائه، فلما علم أنهم قد قاربوا الأعداء التي عملها وعليها الثياب

خاف أن ينظروا إليها ويعلموا ما فعله من المكر، فسبّهم إلى الشرف وسار أمامهم وأقبل على الأعواد مخاطبًا لها كأنه يخاطب الرجال وهو يقول: يا أهل كندة يا أهل طريف إياكم والقوم، قد أنتكم الرجال فلا تحملوا عليهم وأنا أفديكم بمنفسي، فإن رأيتم علي الحيف فاحملوا على القوم، فمد القوم أبصارهم إليه فوجدوا عنده الثياب على الأعواد في انشقاق الفجر فلم يشكوا أنهم رجال فانقلبوا راجعين نحو البحر، وجعل دامس ينادي: ألا يا قوم أقسمت عليكم أن لا تبرحوا من أماكنكم وأنا أكفيكم مؤنة القوم وحدي فرجعت بنو مهرة ناكصين على أعقابهم. هذا قد أردف زوجته، وهذا أولاده وهذا أمته وهذا أخذ ما قدر عليه من ثاثة ورجم أبو الهول إلى الحي، فلم يصادف فيه إلا العبيد والصبيان والمشائخ والعجائز فأمر العبيد أن يوقرروا الجمال فحملوها وكتفهم وساق الجميع قدامه وعاد وأخذ الثياب من على الأعواد ولحقهم وأتى بهم ديار قومه فعجبوا منه ومن فعاله، فلما سمع أبو عبيدة ذلك من خالد أقبل على سراقة وقال له: ادع لي عبدكم حتى أنظر إليه وأسمع كلامه فأتى به سراقة، فقال له أبو عبيدة: أنت دامس. قال: نعم أصلح الله الأمير، فقال له: بلغني عنك عجائب وأنت وايم الله أهلهما، لأنك جزل من الرجال واعلم أنك وقومك تقاتلون في بلاد سهلة لا تأتون الجبال ولا القلاع، ولقد افتحت البارحة أثر القوم اقتحاماً منكراً فارفق بنفسك واحذر من هذا الطريق يوقدنا، فقال له دامس: أصلح الله الأمير لقد غزوت مهرة وأخذت أموالها، وأن جبالها منيعة شامخة رفيعة ذات وعر وحجر، وما هذه بأمنع من تلك الجبال، فقال أبو عبيدة: أنا أراك نجيئاً فهل حدثتك نفسك من أمر هذه القلعة بشيء؟ فقال دامس: أصلح الله الأمير إني لما قدمت عليك في هذا الوقت كنت رأيت في نومي رؤيا، فقال أبو عبيدة: وما الذي رأيت؟ أراك الله الخير. قال: رأيت كأني سائر في وطأة من الأرض وأنني مجد أطلب قومي، وبينما أنا في مسيري إذ أشرفت عليهم وهم حائزون لا يتقدمون ولا يتأخرون فناديتهم: يا قوم ما شأنكم وأي شيء عرض لكم في طريقكم؟ فقال لي القوم: ما ترى هذا الجبل كيف قد عرض لنا في آخر هذا الطريق وليس لنا فيه مسلك ولا مطلع، فقلت: على رسلكم ألا ترون هذه الفجوة في هذا الجبل؟ فقالوا: هيئات ليس لنا فيه منفذ ولا مطلع، فقلت: ولم ذلك؟ قالوا: لأن فيه ثعباناً عظيماً لا يمْرَّ به أحد إلا وأهلكه، وقد قتل رجالاً وجندل أبطالاً، فقلت: يا قوم ألا تهجمون عليه بأجمعكم؟ قالوا: لا نقدر على ذلك لأن النار تخرج من أنفاسه وليس لنا عليه من سبيل، فقلت لهم: فالتمسوا لكم طريقة من وراء ظهره. فقالوا: لا نقدر على ذلك من عظم جثته فتركتهم والتمسست لي طريقة فلم أجده إلا طريقة صعباً حرجاً فاقتتحمه فيما سلكته إلا بعد المشقة وأتيت إلى الشعبان من ورائه فقتلته، ثم أشرفت على قومي فاتبعوني، فما وصلوا إلا بعد جهد جهيد وهو آمنون من عدوهم، ثم استيقظت فرحاً مسروراً.

فقال أبو عبيدة: خيراً رأيت وخيراً يكون يا دامس. أما رؤياك هذه فإنها لل المسلمين بشاره، ولعدونا خسارة، ثم قال له: اجلس مكانك، وأمر أبو عبيدة أن ينادي المسلمين فحضر رؤساء المسلمين وأعيانهم، فلما حضروا قال أبو عبيدة: الله أكبر فتح الله ونصر، وحبانا بالظفر، وخذل من كفر، ثم قال: يا معاشر المسلمين اسمعوا رؤيا أخيكم دامس فإنها عبرة لمن اعتبر وموعظة لمن افتكر. قال فأقبلوا يسمعون له، فعندها قام أبو عبيدة على قدميه وقال: الحمد لله وصلى الله على رسوله وسلم، ثم قال: يا معاشر الناس إن الله سبحانه وتعالى له الحمد قد وعدنا في كتابه على لسان نبيه محمد ﷺ الغلبة على أعدائنا والظفر بمرادنا، وما كان الله ليخلف وعده، وإنني نذرت إن فتح الله هذه القلعة على يدي أصنع من البر ما استطعت، والآن قد هجس في نفسي وقع في قلبي أنا ظافرون بهذه القلعة ومن فيها إن شاء الله تعالى، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، لأنه قد دلني على ذلك رؤيا هذا الغلام. ثم قبض بكفه على زند أبي الهول وقال له: رحمك الله حدث إخوانك بما رأيت في منامك فقام دامس قائماً وقال: اعلموا أنني رأيت في منامي كذا وكذا وجعل يقص على الناس رؤياه من أولها إلى آخرها، فلما فرغ منها أقبل المسلمون على أبي عبيدة وقالوا له: أيها الأمير قد سمعنا قوله وحفظنا شرحة، فما تأويل رؤياه؟ قال أبو عبيدة: اعلموا رحmk الله، أما الجبل الذي رأه عاليًا شامخًا شديد الامتناع بين الشعاب والقلاع فذلك دين الإسلام بلا شك وسنة محمد ﷺ، وأما الشعبان الذي رأه وقد منع الناس وقد هجم عليه بسيفه فأمر حسن هو أن يفرج الله على يديه على المسلمين ففرح الناس بتأويل أبي عبيدة. وقالوا: أيها الأمير فما الذي تأمننا به، فقال: أمركم بتقوى الله سرًا وجهراً. ثم المكيدة على الأعداء طوعاً وصبراً فارجعوا إلى رحالكم حفظكم الله وأصلحوا شأنكم والله حرركم وما تحتاجون إليه فإني أقدمكم غداً إلى أعاديكم إلى أن يحدث لي رأي غير هذا، فإني لست أدع الاجتهاد في الرأي والمشاورة لمن أثق به وبرأيه من المسلمين، فقالوا بأجمعهم: وفق الله رأيك أيها الأمير وظفرك بأعدائك إنه سميع عليم، فقال لما يريد ومضوا إلى رحالهم، فجعل هذا يحد سيفه، وهذا يصلح آلة حربه وفرسه، وهذا يتقدّد درعه، وهذا قوسه ونشابه، وما زالوا كذلك بقية يومهم، فلما أصبحوا دعا أبو عبيدة بدامس، فقال له: أيها الولد المبارك. ماذا ترى في أمر هذه القلعة وما عندك من الحيلة؟ فقال دامس: اعلم أيها الأمير أنها قلعة منيعة شامخة حصينة تعجز الوافد وتمتنع القاصد في أهلها محاصرة ولا تضيق صدورهم من قتال، غير أنني أفكّر في حيلة احتالها أو بلية أعملها وأرجو من الله أن يتم ذلك عليهم، فيكون تبديدهم، ونمك بميشيّة الله ديارهم، ونقلع آثارهم، فقال أبو عبيدة: يا دامس وما هي؟ فقال: أصلح الله الأمير أنت تعلم ما في إذاعة الأسرار من الشر والإضرار،

ومن كتم سره كانت الخيرة فيما لديه، ويقال إن دامساً هذا أول من تكلم بهذه الكلمة فصارت مثلاً، فقال أبو عبيدة: فما الذي تشير إليه، وما الذي تعتمد عليه؟

قال: تزحف بعسكرك وجملة من معك من أصحابك حتى تنزلوا يازاء القلعة ليظهر لهم منك الحرص والهيبة، واعلم أن في ذلك من الحيل ما أرجو من الله أن يتمها إن شاء الله تعالى، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فأمر أبو عبيدة عسكره بالرحيل فارتحلوا ونزلوا تحت القلعة وهلّلوا وكتبوا وأظهروا سلاحهم وأرهبوا أعداء الله تعالى . قال فأشرف عليهم الروم ونظروا إلى جمعهم فهابوهم وأنقى الله الرعب في قلوبهم حتى أنهم اضطربوا في قلعتهم وماجوا وجعل كبراؤهم يستشرون فيما بينهم . فقال قوم نقاتلهم، وقال قوم: بل نقعد في قلعتنا فإنهم لا يقدرون علينا، ثم اجتمع رأيهم على القتال من فوق القلعة وقعدوا على الأبراج والبنيان وجعلوا يرمون المسلمين بالحجارة والسهام وقد أقاموا على ذلك ليلاً ونهاراً وdamس مع ذلك يعمل حيلة يصل بها إليهم بسوء . قال: فلما كان بعد السبعة والأربعين يوماً أقبل damس على أبي عبيدة وقال له: أيها الأمير قد عجزت وأنا أعمل حيلاً فما صدر من يدي في حقهم شيء وقد افتكرت في شيء وأرجو من الله أن يكون به الظفر والظهور على أعداء الله . فقال أبو عبيدة: وما الذي دبرت؟ قال: تضيف إلى من صناديد الرجال ثلاثين رجلاً وتأمرهم بالطاعة وترك المخالفة والاعتراض على فيما أمرهم به وأفعله وأراه . فقال أبو عبيدة: سأفعل ذلك، ثم ضمَّ إليه ثلاثين رجلاً من الشجعان حتى إذا اجتمعوا قال لهم أبو عبيدة: معاشر المسلمين إني قد أمرت دامساً عليكم وأمرتكم بالطاعة والقبول لأمره واعلموا رحمة الله إني ما أمرته عليكم لكونه أجل منكم حسباً ونسبة ولا أعظم موكباً ولا أشد بأساً ولا أكثر مراساً فلا يقل أحدكم إني قد أمرت عليكم عبداً احتقاراً بكم، وبالله أحلف مجتهاذا لو لا ما يلزمني من تدبير هذا العسكر لكنت أول من ينطلق معه في جمعكم وأنا أرجو من الله أن يفتح على يديكم، فأقبلوا عليه بجمعهم، وقالوا: أصلح الله الأمير ما نشك في إعظامك لنا ومعرفتك بسابقتنا، ولقد كان كلامك الأول أثر في نفوسنا، وهو نحن لك وبين يديك ولو أمرت علينا علجاً أغلف لم نخرج لك من أمر ولارأي إذ علمنا أنك لا تريد إلا نصحاً للدين وحياطة، فالسمع والطاعة الله ثم لك ثم لمن وليته علينا من قبلك كائنا من الناس أجمعين . قال ففرح أبو عبيدة بما قالوه ووثق بكلامهم وجزاهم خيراً، وقال لهم: اعلموا رحمة الله تعالى أن نفسى تحذرني أن الله تعالى يفتح هذه القلعة على يد هذا العبد الم قبل لأنه دقيق الحيلة حسن البصيرة فسيروا معه وثقوا بالله وتوكلوا عليه وقد تعلمون أن رسول الله ﷺ قد ولى قواضاً على سادات العرب من المسلمين والأشراف من عشيرته، ثم أقبل على damس . فقال له: يا دامس ما الذي تحب بعد هذا؟ قال: ترحل أنت بجيشك من وقتك هذا فتكون منا على مسيرة فرسخ فتنزل بالعسكر وتأمرهم بقلة الحركة وأن

يختفوا ما استطاعوا أو يكون لك رجال تشق بشدتهم ونصحهم لل المسلمين يتجلسون عن أخبارنا وأثارنا من غير أن يعلم بهم وبنا أحد ويكونون بغير سلاح سوى الخناجر، فإذا عاينوا منا الظهور على أعدائنا والظفر بهم لحقوك وبشرونك بذلك فتلحق بنا إن شاء الله تعالى ول يكنوا متفرقين في موضع واحد، فإن ذلك أسلم لهم وأبلغ لما يريدون من أمرهم والله المستعان في جميع الأمور والأحوال.

فعلم أبو عبيدة أنه نصيحة من الرجال صاحب رأي وبصيرة، ثم إن دامساً أقبل على رفقاء الذين ولـي عليهم وقال لهم: يا فتيان العرب انهضوا بنا بارك الله فيكم حتى نكمـن في بعض هذا الوادي ما دام الناس عازمين على الرحيل لثلا تشرف الروم فينظـروا إلى رحـيلنا فلا يتـفق لنا أن نطلبـ لـنا مـكمـنا إذا أـشرـفـوا من أعلى حصـنـهمـ وـليـكنـ معـ كلـ رـجـلـ منـكمـ سـيفـهـ وـحـجـفـتـهـ وـخـنـجـرـهـ لاـ غـيرـ، فـفـعـلـواـ ذـلـكـ، فـلـمـ تـكـامـلـواـ لـبسـ دـامـسـ لـامـةـ حرـبـ وـجـعـلـ خـنـجـرـهـ تـحـتـ أـثـوـابـهـ وـأـخـذـ جـمـاعـتـهـ وـخـرـجـ بـهـمـ حـتـىـ إـذـ فـارـقـ العـسـكـرـ جـعـلـواـ يـخـفـونـ آـثـارـهـ وـأـشـاصـهـ وـهـوـ سـائـرـ بـهـمـ حـتـىـ أـتـىـ بـهـمـ كـهـفـاـ فـيـ الجـبـلـ فـأـمـرـهـمـ بـالـدـخـولـ إـلـيـهـ وـجـلـسـ عـلـىـ بـابـهـ. قال: وأـمـاـ أـبـوـ عـبـيـدـةـ فإـنـهـ أـمـرـ النـاسـ بـالـرـحـيلـ بـعـدـماـ رـتـبـ الرـجـالـ كـمـاـ وـصـاهـ أـبـوـ الـهـوـلـ فـاـرـتـحـلـ العـسـكـرـ وـأـشـرـفـ عـلـيـهـمـ أـهـلـ القـلـعـةـ فـرـأـوـهـمـ يـرـحـلـونـ فـقـرـحـواـ بـذـلـكـ وـسـرـزـواـ سـرـورـاـ عـظـيـمـاـ وـصـارـوـاـ يـصـيـحـونـ عـلـىـ الـمـسـلـمـينـ مـنـ أـعـلـىـ القـلـعـةـ وـقـالـواـ لـبـطـرـيقـهـمـ: أيـهاـ السـيـدـ اـفـتـحـ لـنـاـ الـبـابـ حـتـىـ نـخـرـجـ وـرـاءـ العـرـبـ فـلـعـلـ أـنـ نـقـتـلـ أـحـدـاـ أـوـ نـأـسـرـهـ فـنـهـاـمـ عنـ ذـلـكـ قـالـ وـدـامـواـ بـقـيـةـ يـوـمـهـ إـلـىـ الـعـشـاءـ. فـقـالـ دـامـسـ لـأـصـحـابـهـ: مـنـ فـيـكـمـ يـنـهـضـ إـلـىـ تـحـتـ القـلـعـةـ وـيـأـتـيـاـ بـخـبـرـ مـنـهـ إـذـ يـقـدـرـ عـلـىـ رـجـلـ يـأـسـرـهـ فـيـأـتـيـاـ بـهـ فـنـأـخـذـ مـنـهـ خـبـرـاـ فـلـمـ يـجـهـ أـحـدـ، فـقـالـ: أـنـاـ أـعـلـمـ أـنـ مـاـ فـيـ هـذـهـ الـجـمـاعـةـ إـلـاـ مـنـ هـوـ ضـنـنـ بـنـفـسـهـ كـارـهـ لـلـمـوتـ وـأـنـاـ لـكـمـ الـفـداءـ فـاـنـظـرـواـ كـيـفـ تـكـمـنـونـ، ثـمـ تـرـكـهـمـ دـامـسـ وـمـضـىـ فـغـابـ عـنـهـمـ سـاعـةـ وـإـذـ بـهـ قـدـ أـتـىـ وـمـعـهـ عـلـجـ وـقـالـ لـهـمـ: يـاـ فـتـيـانـ الـعـرـبـ دـونـكـمـ هـذـاـ فـاسـلـوـهـ فـسـأـلـوـهـ فـلـمـ يـفـقـهـوـ قـوـلـهـ. فـقـالـ: عـلـىـ رـسـلـكـمـ فـغـابـ غـيـرـ بـعـيدـ وـأـتـىـ بـثـلـاثـةـ أـخـرـ فـلـمـ يـكـنـ فـيـهـمـ بـلـغـةـ الـعـرـبـ. فـقـالـ دـامـسـ: لـعـنـ اللهـ هـؤـلـاءـ مـاـ أـفـطـعـ لـغـتـهـمـ وـأـكـثـرـ طـمـطـمـتـهـمـ ثـمـ أـوـثـقـهـمـ كـتـافـاـ وـغـابـ إـلـىـ أـنـ مـضـىـ مـنـ الـلـيـلـ نـصـفـهـ وـلـمـ يـأـتـ فـقـلـقـ عـلـيـهـ أـصـحـابـهـ قـلـقـاـ شـدـيـدـاـ وـاغـتـمـواـ عـلـيـهـ وـقـالـ بـعـضـهـمـ لـعـبـضـ: أـنـاـ أـقـولـ إـنـ دـامـسـاـ قـدـ فـطـنـ بـهـ فـقـتـلـ أـوـ أـسـرـ وـمـاجـواـ فـيـ ذـكـرـهـ وـهـمـواـ أـنـ يـرـجـعـواـ إـلـىـ الـعـسـكـرـ فـيـ بـيـنـهـاـ هـمـ فـيـ ذـلـكـ إـذـ دـخـلـ إـلـيـهـمـ دـامـسـ وـهـوـ يـقـودـ رـجـلـاـ مـنـ الـرـوـمـ فـتـوـاـبـواـ إـلـيـهـ وـقـبـلـوـهـ بـيـنـ عـيـنـيهـ وـسـأـلـوـهـ عـنـ إـبـطـائـهـ وـقـالـواـ لـهـ: يـاـ دـامـسـ لـقـدـ حـدـثـتـنـاـ نـفـوسـنـاـ بـالـعـظـائـمـ وـصـعـبـ عـلـيـنـاـ إـبـطـاؤـكـ عـنـاـ. فـقـالـ: اـعـلـمـواـ رـحـمـكـمـ اللهـ تـعـالـىـ: أـنـيـ لـمـ فـارـقـتـكـمـ سـرـتـ إـلـىـ قـرـيبـ مـنـ سـوـرـ الـقـلـعـةـ وـكـمـنـتـ لـهـمـ وـهـمـ يـمـرـزـونـ عـلـيـهـ وـهـمـ يـرـطـنـونـ بـلـغـتـهـمـ وـأـنـاـ لـأـتـرـعـضـ لـلـقـومـ كـلـ ذـلـكـ، وـأـنـاـ أـطـلـبـ مـنـ يـتـعـرـضـ لـلـعـرـبـيـةـ وـيـتـكـلـمـ بـهـاـ فـلـمـ أـرـ أـحـدـاـ حـتـىـ أـيـسـتـ وـهـمـمـتـ بـالـرـجـوعـ خـائـبـاـ إـذـ سـمـعـتـ هـدـةـ شـدـيـدـةـ قـدـ وـقـعـتـ مـنـ أـعـلـىـ سـوـرـ فـأـسـرـعـتـ

إليها لأنظر إليها ما هي فإذا أنا بهذا الرجل وقد ألقى نفسه من القلعة إلى أسفل السور فبادرت إليه وأخذته وأتيت به إليكم فانظروا ما هو؟ فدنوا إليه وحاطبوه فلم يكلمهم إلا بلغته وإذا به قد انفتحت جبهته. فقال لهم دامس: اعلموا أن له شأنًا وأي شأن، وإنني أظننه هاربًا من القوم وليس فيكم من يفهم ما يقول ولكن على رسليكم فأنا آتيكم بمن يتكلم بلسانه وبالعربية، ثم أسرع دامس من عندهم فلم يكن إلا قليل وإذا به قد عاد وهو معه رجل قد نزلت عمامته في رقبته وهو يقوده حتى مثله عندنا. فقالوا له: من المدينة أنت أم من القلعة؟ فقال له دامس: منمن أنت تكون أمن الروم أم من العرب المتنصرة؟ قال: ولكنني مع العرب المتنصرة؟ فقالوا: يا هذا هل لك أن تطلعنا على عورات القلعة أو عورة من عوراتها، ونحن نطلق سبيلك ولا يتعرض إليك أحد بسوء. فقال: يا هؤلاء لست أعرف لهذه القلعة عورة ولا طریقاً ولو عرفت لما وسعني في ديني ولا رأيت أن أدلّكم عليها وحق المسيح. قال فانغاظ منه دامس وقال له: أسأل هؤلاء الأسارى هل فيهم أحد من أهل الريض فإن بيننا وبينهم صلحًا. قال: فسألهم فلم يجد فيهم أحداً من أهل الريض بل كلهم من أهل القلعة وأنا أعرفهم.

قال له دامس: فسأل هذا الرجل لم طرح نفسه من السور وما دعاه إلى ذلك؟ فسأله فقال له: إنه يقول إن الملك يوقدنا غصب على أهل الريض لأجل صلحهم لكم وبعث يتهددهم، فلما انصرفت العرب نزل يوقدنا فجمع رؤوسهم وأصعدهم إلى القلعة وأنا في جملتهم وطلب منا من الأموال ما لا طاقة لنا به ولا نقدر عليه، فلما رأيت ما قد نزل بنا هربت وألقيت نفسي من القلعة أطلب الفرج وأنجو من العقوبة فلم أشعر إلا وأنت قد قبضت علي وأنا من أهل الريض، فإن كتم من العرب فأنا في ذمتكم وأمانكم فلا تنكثوا ولا تغدوا وإن كتم من غيرهم، فاطلبوا مني ما أردتم من الفداء فإني قد هربت من العقوبة. فقال له دامس: قل له نحن من العرب ولا بأس عليك ولا خوف ولا ينالك من سوء وأراد دامس أن يرى الريض ما يفعل بأعدائه، فأخرج الروم والمتنصرة وضرب رقبهم ولم يدع غير الريض، ثم أطلقه واستمرروا إلى الليل وعمد دامس إلى مزوده فاستخرج منه جلد ماعز وألقاه على ظهره وأخرج كعكاً يابساً وقال لأصحابه: بسم الله استعينوا بالله وتوكلوا عليه وأخفوا نفوسكم وقدموا العزم في أمركم فإني معول على فتح هذه القلعة إن شاء الله تعالى. فقالوا: سر على بركة الله تعالى فقاموا مسرعين، وتقدم دامس وبعث رجلين من أصحابه يعلمان أبا عبيدة بشأنهم ويقولان له: أبعث الخيل عند طلوع الفجر. قال: فانطلق الرجال وصعد دامس ومن معه تحت الظلام ودامس على المقدمة يمشي على أربعة والجلد على ظهره وكلما أحس بشيء قرض في الكعك كأنه كلب يقرض عظماً وهم من ورائه يقفون أثره وهم يستترون بين الأحجار فلا زالوا كذلك حتى لاصقوا السور وسمعوا أصوات الحرس وزعقات الرجال من أعلى القلعة والحرس

شديد فلم يزل دامس دائراً بهم حول السور إلى أن أتى إلى مكان لم يجد به حساً وإذا بحرسه قد ناموا وراء المكان ولم يروا في السور أقرب منه. فقال دامس لأصحابه: أنتم ترون هذه القلعة وعلوها وتحصينها وليس فيها حيلة لشدة الحرس ويقطة القوم فما الذي ترون من الرأي أن نصنع بها وكيف الحيلة في الصعود إليها إلى أن نحصل في وسطها؟ فقالوا: يا دامس إن الأمير أمرك علينا وأنت أدرى منا وأجراً أجئنا ونحن لك بين يديك فمهما رأيت فيه الصلاح لل المسلمين فلا تتأخر عنه والله إن قتل نفوسنا وذهب أرواحنا أسهل علينا من الرجوع بغير فائدة فمنك الأمر ومننا السمع والطاعة فليس منا من يتأخر عنك ولا نموت إلا تحت ظلال السيوف وفي طاعة الله ونصرة دين الإسلام. فقال دامس: شكر الله فضلكم ورزقكم النصر على أعدائكم، فإن كانت هذه نيتكم فالتصقوا بنا إلى هذا المكان. قال: وكانوا ثمانية وعشرين رجالاً واثنان كانوا أرسلوهم إلى الأمير يعلمونه بأن يأتي إليهم في الصبح.

قال لهم دامس: أفيكم من يقدر على الصعود على هذه القلعة؟ فقلنا له: يا أبا الهول وكيف لنا أن نرقى إليها وعلى أي شيء نصل إلى أعلىها بغير سلم فقال: على رسلكم، ثم إنه اختار منا سبعة رجال كالأسد الضواري لو كلفوا حمل ذلك البرج على مناكبهم لما عظم ذلك عليهم، ثم جلس على قرافيصه وقال لأحد السبعة: اجلس على منكبي وارم بحبلك إلى الجدار واجلس كما أنا جالس ففعل الرجل ما أمر به وأمر آخر أن يفعل ويصعد على منكبي الآخر وأن يرمي بقوته على الجدار قال ففعل، ثم إنه لم يزل يصعد واحد بعد واحد إلى أن صعد الثامن بقوته على الجدار وهم متمسكون به، فعند ذلك أمر الأعلى أن يقوم قائماً وأن يطرح حبله على الجدار فقام الأول وقام الثاني ثم قام الثالث ثم قام الرابع والخامس والسادس وكل واحد منهم قد طرح نفسه على الجدار، ثم قام دامس آخرهم فإذا الأعلى قد وصل إلى شرافة السور وتعلق بها فاستوى على السور ونظر إلى حارس ذلك المكان فوجده نائماً وهو ثمل من الخمر فأخذ بيده ورجله ورماه، فلما وصل إلى الأرض قطعواه وأخفوا جسده ووجد من أصحابه اثنين سكارى وهم رقود فذبهم بخنجره ورمى بهم، ثم أرخى عمامته لصاحبه ونشله إليه فإذا هو معه على السور وكان دامس قد أعطاهم حبلًا فبقوا ينشلون به بعضهم إلى أن تكاملوا على السور وأصعدوا من بقي معهم على الأرض، وكان آخر من صعد أبو الهول. فقال لهم: مكنكم حتى أقفوا الخبر وأكشف لكم الآخر، ثم إنه أتى إلى دار الطريق وهو في وسط القلعة وإذا عنده سادات البطارقة وأكابرهم وهم جلوس وبين أيديهم بواطي الخمر، ويوقدنا جالس في وسطهم على بساط من الدبياج منسوج من الذهب وعليه بدلة من اللؤلؤ ومعصب بعصابة من الجوهر وال القوم يشربون والمسمك والبخور يفوح عندهم فعاد دامس إلى أصحابه وقال: أعلموا أن القوم خلق كثير وإن هجمنا عليهم فلا نأمن الغلبة من

كثرتهم ولكن ندعهم فيما هم فيه، فإذا كان وقت السحر هجمنا على يوقنا ومن معه من الملوك نقتلهم بسيوفنا فإذا ظفرنا بهم وذلّهم الله لنا وعلى أيدينا فهو الذي نريد، وإن كان غير ذلك فيكون الصباح قد قرب، ولا شك أن الرجلين من أصحابنا قد أعلما خالد بن الوليد فيأتينا. فقالوا: ما نخالف لك أمراً ونحن قد صرنا في قلعة هؤلاء الأعداء وليس ينجينا إلا صدق جهادنا والعزّم والشدة من قوتنا. فقال لهم: مكانكم فلعل أن يفتح الباب. قال: وكان للقلعة بابان وبينهما دهليز والبوابون داخلهما والرجال تنام عندهم بالنوبة، فلما وصل دامس إلى الباب وجده مغلقاً وإذا بالقوم رقد من السكر فعاجلهم بالذبح، ثم فتح البابين وتركهما مردودين ورجع إلى أصحابه وقد قرب الفجر فقال لهم: أبشروا فإني قد فتحت البابين وقتلت من كان وراءهما فدونكم والباب فاسبقوهم إليه وخذوه عليهم فقد بقي القوم حصيناً بأسياف المسلمين إن شاء الله تعالى. قال: وأرسل من يستعجل خالداً ويبشره بذلك، ثم أرسل خمسة من أصحابه يمسكون الباب وأخذ الباقين ومشي نحو دار يوقنا فصاحوا عليه ووقع الصياح في القلعة فرجعوا بجمعهم إلى الباب وأخذ كل واحد منهم مكاناً يحميه فعندها جاءت الأبطال وصاحت الروم وبلاه كيف تمت علينا هذه الحيلة وصرخ يوقنا بأصحابه فأتوا من كل جانب، فعندها كبر المسلمين ونادوا بلسان واحد: الله أكبر فخيل للروم أن القلعة ملأة منهم. قال ابن أوس: وقاتلت الروم قتالاً شديداً، وأما المسلمين فكانوا كالأسد الضاربة فما رأيت أقوى بأساً ولا أشد مراساً من دامس أبي الهول في ذلك اليوم فلقد عدنا في بدنـه بعدما انفصلـنا ثلاثة وسبعين جرحاً كلها في مقدم بدنـه. قال في بينما نحن في أشد القتال ونحن يحمي بعضنا بعضاً وقد بقي منا ثلاثة وعشرون وقتلـنا أربعة وهم أوس بن عامر العزمي منبني حزم وأبو حامد بن سراقة الحميري والفارع بن مسيب التميمي وفزارة بن مراد العوفي.

قال الواقدي: لقد حدثني نوفل بن سالم عن جده غوبلم بن حازم وكان ممن
صحاب دامساً في قلعة حلب قال: لما قتل من قتلناه وقد قتل أيضاً ملاعيب بن
مقدام بن عروة الحضرمي وكان ممن حضر مع رسول الله ﷺ الحديبية وتبوك
ومرارة بن ربيعة العامري وهلال بن أمية وهو ابن أخي كعب الذي تختلف عن
رسول الله ﷺ في تبوك وأنزل الله فيه ما أنزل، قال وبقينا عشرين رجالاً وتكاثرت الروم
عليينا في أزيد من خمسة آلاف وهم سد من حديد، قال ونحن قد أيسنا من الحياة إذ
دخل علينا خالد بن الوليد ومعه جيش الزحف فوجدنا ونحن في أشد ما يكون من
القتال، فلما دخلوا علينا صاح فيهم خالد فجفلت الروم عنا. قال أوس: فلما رأيناهم
كذلك وانفج عننا ما كنا فيه اشتتدت قلوبنا فعندها كبرت المسلمين ودخل ضرار وأمثاله
يضربون رقبتهم، فلما رأى الروم ذلك وعلموا أنهم لا طاقة لهم بما وقع بهم ألقوا

السلاح ونادوا الغوث وكفوا أنفسهم عن القتال فكفت المسلمين أيديهم عنهم في بينما هم كذلك إذ أقبل أبو عبيدة ومعه عساكر الإسلام فأخبروه أن الروم يطلبون الأمان وأن المسلمين قد رفعوا عنهم القتل إلى أن تأتي وترى فيهم رأيك، فقال أبو عبيدة: قد وفروا وسددوا فأمر بإحضار رجالهم ونسائهم وعرض عليهم الإسلام فكان أول من أسلم بطريقهم يوقنا وجماعة من ساداتهم. قال فرد عليهم أموالهم وأهاليهم واستبقى منهم الفلاحين وعفا عنهم من القتل والأسر وأخذ عليهم العهد أن لا يكونوا إلا مثل أهل الصلح والجذة وأخرجهم من القلعة. قال: ثم أخرج المسلمين من الذهب والأواني ما لا يقع عليه عدد فأخرج منه الخمس وقسم الباقي على المسلمين وأخذ الناس في حديث دامس وحيله وعجائبه وعالجوا جراحته حتى برأت قال وأعطاه أبو عبيدة سهرين ثم إن أبو عبيدة طلب أمراء المسلمين وأكابرهم وشاورهم في أمره وقال: إن الله وله الحمد قد فتح هذه القلعة على أيدي المسلمين وما بقي لنا موضع نخافه، فهل تقصد أنطاكية، وهي دار الملك وكرسي عزّهم وفيها بقية ملوكيهم مع هرقل فما ترون من الرأي؟ قال فعندها قام البطريق يوقنا وتكلم بلسان عربي فصيح وقال: أيها الأمير إن الله تبارك وتعالى قد أيدكم وأظفركم بدعوكم ونصركم وما ذاك إلا أن دينكم هو الدين القويم والصراط المستقيم ونبيكم هو المشهور في الإنجيل وهو لا محالة الذي بشّر به المسيح ولا شك فيه ولا مراء وهو الفاروق الذي يفرق بين الحق والباطل وهو النبي الكريم اليتيم الذي يموت أبوه وأمه ويكتفه جده وعمه فهل كان ذلك أم لا أيها الأمير؟ فقال أبو عبيدة: نعم هو نبينا ﷺ وإنني يا يوقنا قد حررت في أمرك وأنت بالأمس تقاتلنا ومرادك أن تكسر عسكرنا وقطع الطريق على علوفتنا واليوم تقول مثل هذا القول، وقد بلغني أنك لا تفهم بالعربية شيئاً فمن أين لك حفظها. فقال: لا إله إلا الله ومحمد رسول الله وإنك تعجب أيها الأمير من هذا الأمر؟ قال: نعم قال له: أعلم أيها الأمير إني كنت البارحة مفكراً في أمركم وقد وصلتم إلى قلعتنا ونصرتم علينا وإنه لم يكن عندنا أمة أضعف منكم وتوسست في ذلك، فلما نمت رأيت شخصاً أبيه من القمر وأطيب رائحة من المسك الأذفر ومعه جماعة فسألت عنه فقيل لي: هذا محمد رسول الله فكأنني أقول إن كان نبياً حقاً فليسأل ربه أن يعلمني العربي وكان يشير إلى وهو يقول: يا يوقنا أنا محمد الذي بشّر بي المسيح وأنا لا نبي بعدى وإن أردت فقل لا إله إلا الله وإنني محمد رسول الله فأخذت يده فقبّلتها وأسلمت على يديه واستيقظت وفي من تلك الليلة كالمسك الأذفر وأنا أتكلم بالعربية، ثم إني قمت إلى منزل أخي يوحنا وفتحت خزانة كتب فوجدت في بعض الكتب صفة محمد ﷺ وما يكون من أمره ووجدت كل الصفات صحيحة وإن أبغض الخلق إليه اليهود أكان ذلك أيها الأمير أم لا؟

قال أبو عبيدة: نعم كانت اليهود تطلبنا أشد الطلب حتى نصرنا الله عليهم وأخذنا حصونهم وقتلنا أبطالهم. قال يوقنا: وجدت هذا في سيرته وجملة أخباره وأن الله تعالى كان يوصيه بأصحابه وبال المسلمين وبالآيتام والمساكين أكان ذلك أم لا؟ قال أبو عبيدة: نعم، أما وصيته من الله على أصحابه فقد قال الله تعالى: **«وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»** [الأفال: ٦٤] وقال في حق اليتيم والمسكين: **«فَإِنَّمَا الْيَتِيمَ فَلَاتَقْهُرْ وَإِنَّمَا السَّائِلَ فَلَا تَنْهِرْ»** [الضحى: ٧] فما معنى [الضحى: ١٠ - ٩]. فقال يوقنا: كيف قال: **«وَوَجَدْكَ ضَالًاً فَهَدَى»** [الضحى: ٧]

وصفه بالضلال وهو عند الله كريم. فقال له معاذ بن جبل رضي الله عنه: وجدناك ضالاً في تيه صحبتنا فهديناك إلى مشاهدتنا وأيضاً سهل لك الوصول إلى سبل المكافحة ووقفك للوقوف في مقام المشاهدة ووجدك ضالاً في بحار الطلب على مركب العطب فهداك إلى سواحل الحق وقربك إلى ظل حقائق الصدق لتكون بقلبك مائلاً عن الأغيار أو تهيم في قياع الاختيار متمنياً ساعات الوصول والتلاق وليس لك منا خبر ولا معك مما أثر الحنا لك لواحة الرضا وكشفنا لك عن واضح القضا، أما علمت يا يوقنا أنه لا شيء عند المؤمن أوفي من العلم ولا أربع من الحلم ولا حسب أوضح من الدين ولا قرين أزین من العقل ولا رفيق أشر من الجهل ولا شيء أعز من التقوى ولا شيء أوفي من ترك الهوى ولا عمل أفضل من الفكر ولا حسنة أعلى من الصبر ولا سيئة أخزى من الكبر ولا دواء ألين من الرفق ولا داء أوجع من الخرق ولا رسول أعدل من الحق ولا دليل أنسخ من الصدق ولا فقر أذل من الطمع ولا غنى أشقي من الجمع ولا حياة أحسن من الصحة ولا معيشة أهنا من العفة ولا عبادة أفضل من الخشوع ولا زهد خير من القنوع ولا حارس أحفظ من الصمت ولا غائب أقرب من الموت، فلما سمع يوقنا هذا الكلام من معاذ تهلل وجهه، وقال: هكذا قرأته في كتاب أخي يوحنا وهو مذكور في الإنجيل والتوراة ثم خر ساجداً وقبل الأرض شكرًا، وقال: الحمد لله الذي هداني إلى هذا الدين والله لقد رسم هذا الدين في قلبي وعلمت أنه الحق وسأقاتل في الله كما كنت أقاتل في طاعة الشيطان والله لأنصرن هذا الدين حتى أتحقق بأخي يوحنا، ثم إنه بكاء شديدًا على ما فرط في أمر أخيه. فقال له أبو عبيدة: قال الله في حق إخوة يوسف **«لَا تُشَرِّبُ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ»** [يوسف: ٦٤]، وقال له: إن أخاك في علبيين مع الحور العين، وأما أنت فساعة أسلمت خرجت من ذنبك كيوم ولدتك أمك فبكى لذلك وقال: أشهد على المسلمين أنني كلما جاهدت وقتلت من المشركين فثوابه في صحيفه أخي يوحنا ولا بد أن أقاتل في سبيل الله وأمحو ما سلف من الفعال. فقال أبو عبيدة: يا عبد الله دلنا أين نسير؟ فقال يوقنا: اعلم أنها الأمير أن حصن عاز حصن منيع وهو قوي بالرجال والعدد والزاد وفيه ابن عم لي اسمه دراس بن جوفناس وهو ذو شدة وبأس وقوة ومراس جلد في الحرب قوي عند الطعن والضرب وإن أتمت تركتموه

ومضيتم إلى نحو أنطاكية أغارت على حلب وقنسرين وأذاقهم شرّاً. فقال أبو عبيدة: يا عبد الله قد أنطق الله لسانك بالحق والصواب فما عندك من الحيلة؟ .

قال يوقنا: عندي من الرأي أن أركب جوادي وتضم إلى مائة فارس من المسلمين ولنكن على زي الروم ولباسهم وأتقدم بهم، ثم يتقدم أمير من العرب ومعه ألف فارس على خفاف الخيل وأنا في المقدمة بالمائة فارس على مقدار فرسخ كأننا هاربون منكم وأوائل الخيل الألف في طلبنا فإذا أشرفنا على عزاز نلقي الصوت، فإذا نظر إلينا صاحبها دراس لا بد أن ينزل إلينا ويلقانا، فإذا سألني أخبرته أنني أسلمت زورًا ثم هربت فخرجت العرب في طلبي فإذا سمع مني ذلك يصعد بنا إلى حصنه ول يكن مقدم الألف بالقرب فإذا في قرية هناك فإذا كان نصف الليل سرنا في وسط الحصن ونضع السيف في أعدائنا فإذا كان عند صلاة الفجر يأتينا أمير العرب بالألف الذي معه، فلما سمع أبو عبيدة ذلك استئنار وجهه واستشار خالدًا ومعاذًا في ذلك فقالا: يا أمين الأمة رأي سديد إن لم يغدر هذا الرجل ويرجع إلى دينه. فقال أبو عبيدة **«إن ربك لبالمرصاد»** [الفجر: ١٤]. فقال يوقنا: أنا والله رجعت عن دينكم بعدما كنت أعظم من تلك الصور والصلبان وما بقي في قلبي سوى محبة الرحمن ومحمد سيد ولد عدنان والجهاد عن أفضل الأديان والله على ما أقول وكيل، وحق الذي لا إله إلا هو، وحق محمد عبده ورسوله ﷺ الذي رأيته وعاينته في المنام إن كنتم تظلون في غير ذلك فلا تتركوني أفعل شيئاً مما ذكرته لكم. فقال أبو عبيدة: يا عبد الله إن أنت نصحت للمسلمين ولم تغدر بهم كان الله لك معيناً في كل ما تحاوله فاتبع الصدق تنج به فإن ديننا مبني على الصدق واتبع سنن إخوانك المؤمنين، واعلم أن المؤمن الصادق قوته ما وجد ولباسه ما ستر ومسكته ما وجد فلا يحزنك ما تركت من ملكك وحكمك وإمارتك فإن الذي تركته فان، والذي تطلبه باق لأن نعمة الدنيا فانية والآخرة خير وأبقى، واعلم أنك في يومك هذا عار من الشرك، واعلم أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر والمؤمن يتيقن أن القبر مضجعه، والخلوة مجلسه، والاعتبار فكره، والقرآن حدثه، والرب أئسها، والذكر رفيقه، والزهد قرينه، والحزن شأنه، والحياة شعاره، والجوع إدامه، والحكمة كلامه، والتراب فراشه، والتقوى زاده، والصمت غنيمته، والصبر معتمده، والتوكّل حسيه، والعقل دليله، والعبادة حرفة، والجنة داره، واعلم يا يوقنا أن المسيح قال: عجبت لمن ليله غافل وليس بمغفول عنه ومؤمل دنيا والموت يطلبه وباني قصرًا والقبر مسكنه، وقد قال نبيتنا ﷺ: من أعطي أربعًا أعطي أربعًا وتفسير ذلك في كتاب الله تعالى: من أعطي الذكر ذكره الله عزّ وجلّ لأن الله تعالى يقول: **«فاذكروني أذكريكم»** [البقرة: ١٥٢] ومن أعطي الدعاء أعطي الإجابة لأن الله تعالى يقول: **«إدعوني أستجب لكم»** [غافر: ٦٠] ومن أعطي الشكر أعطي الزيادة لأن الله تعالى يقول: **«لشن شكرتم لأزيدنكم»**

[إبراهيم : ٧] ومن أعطي الاستغفار أعطي المغفرة لأن الله تعالى يقول: ﴿استغفروا ربكم إنه كان غفارا﴾ [نوح : ١٠].

قال الواقدي: حَدَّثَنِي عَامِرُ بْنُ قَبِيصَةَ الْيَشْكُرِيَّ. قَالَ حَدَّثَنِي يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى قِرَاءَةً عَلَيْهِ قَالَ شَهْرُ بْنُ حَوْشَبَ عَنْ جَدِّهِ عَامِرِ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: كُنْتُ مِنْ مَنْ شَهَدَ فَتْحَ الشَّامِ وَكُنْتُ فِي فَتْحِ قَنْصُورَةِ وَحَلْبَ مَعَ أَبِيهِ عَبِيْدَةَ وَكُنْتُ كَثِيرًا مَا أَصْحَبَ الرُّومَ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي دِيَنَا فَلَمْ أَرْ مِنْهُمْ أَشَدَّ اجْتِهَادًا وَلَا أَخْلَصَ اعْتِقَادًا وَلَا أَعْظَمَ نِيَةً وَلَا أَحْسَنَ فِي الْجَهَادِ حُمْيَةً وَلَا أَبْلَغَ فِي قَتْلِ الرُّومِ مَنْ يَوْقَنَا وَلَقَدْ نَصَحَّ وَاللهُ لِلْمُسْلِمِينَ وَجَاهَدَ فِي الْكَافِرِينَ وَأَرْضَى رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَلَقَدْ فَعَلَ فِي الرُّومِ مَا لَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ عَلَيْهِ مِنْ أَبْنَاءِ جَنْسِهِ مِنْ بَعْدِهِمَا فَاسِيُّ الْمُسْلِمِينُ مِنْهُ عَلَى قَلْعَةِ حَلْبَ وَمَا تَرَكُوهُ يَنَامُونَ وَلَا يَقْرَءُونَ لَيَلًا وَلَا نَهَارًا وَمَا قُتِلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

ذكر فتح عزاز

قال الواقدي: لَمَّا وَعَظَ أَبُو عَبِيْدَةَ يَوْقَنَا وَفَرَغَ مِنْ وَعْظِهِ ضَمَّ إِلَيْهِ مَائَةَ فَارِسٍ وَأَبْسَمَهُمْ زَيْرَ الرُّومِ قَالَ: وَكَانَ كُلُّ عَشَرَةَ مِنْ قَبِيلَةِ قَالِ وَهُمْ مِنْ طَيءٍ وَفَهْرٍ وَخَزَاعَةٍ وَشَنِيسٍ وَنَمِيرٍ وَالْحَضَارَةِ وَحَمِيرٍ وَبَاهْلَةٍ وَتَمِيمٍ وَمَرَادٍ وَجَعَلَ عَلَى كُلِّ عَشَرَةِ نَقِيبًا، فَأَمَّا نَقِيبُ طَيءٍ فَخَزْعَلُ بْنُ عَاصِمٍ وَعَلَى فَهْرٍ فَهَرُ بْنُ مَزاْحَمٍ وَعَلَى خَزَاعَةِ سَالِمٍ بْنُ عَدِيٍّ وَعَلَى شَنِيسٍ مَسْرُوقٍ بْنُ سَنَانٍ وَعَلَى نَمِيرٍ أَسْدٍ بْنُ حَازِمٍ وَعَلَى الْحَضَارَةِ مَاجِدٌ بْنُ عَمِيرَةٍ وَعَلَى حَمِيرٍ مَلْكُهُمْ ذُو الْكَلَاعِ الْحَمِيرِيِّ وَعَلَى بَاهْلَةِ سَيفٍ بْنِ قَادِحٍ وَعَلَى تَمِيمٍ سَعْدٌ بْنُ حَسَنٍ وَعَلَى مَرَادٍ مَالِكٍ بْنِ فَيَاضٍ، فَلَمَّا كَمِلُوا قَالَ لَهُمْ أَبُو عَبِيْدَةَ: اعْلَمُوا رَحْمَكُمُ اللهُ أَنِّي مَرْسِلُكُمْ مَعَ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي وَهَبَ نَفْسَهُ للهِ وَرَسُولِهِ وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ عَلَيْهَا نَقِيبٌ وَقَدْ وَلَيْتَهُ عَلَيْكُمْ فَاسْمِعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا مَا دَامَ مَرْضَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ فَلَبِسُوا وَرَكِبُوا وَسَارُوا مَعَهُ، فَلَمَّا بَعْدُوا بِفَرْسَخٍ أَرْسَلَ وَرَاءَهُمْ أَلْفَ فَارِسٍ وَأَمْرَ عَلَيْهِمْ مَالِكًا الْأَسْتَرِ النَّخْعَنِيِّ وَقَالَ لَهُ: سَرْ فِي أَثْرِ الْقَوْمِ وَانْظُرْ مَا يَكُونُ مِنْ أَمْرٍ هَذَا الْعَبْدُ الصَّالِحُ. فَإِذَا قَرِبَتْ مِنْ هَذَا الْحَصْنِ فَاقْمِنْ إِلَى وَقْتِ السُّحْرِ ثُمَّ تَظَاهِرْ لِإِخْرَانِكَ، سَرْ وَقْفَكَ اللهُ وَأَرْشِدْكَ، فَسَارَ مَالِكٌ يَقْدِمُ قَوْمَهُ فَسَارُوا بِقِيَةِ يَوْمِهِمْ، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِمُ الظَّلَلَ كَمِنُوا فِي قَرْبَةِ بِالْقَرْبِ مِنَ الْحَصْنِ وَهِيَ خَالِيَّةٌ مِنَ السُّكَانِ. وَأَمَّا مَا كَانَ مِنْ يَوْقَنَا فَإِنَّهُ أَخْذَ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ وَسَارَ طَالِبًا عَزَازَ.

قال الواقدي: حَدَّثَنِي سَلِيمَانَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الْيَشْكُرِيَّ حَدَّثَنِي الشَّدِيدُ بْنُ مَازِنَ عَنْ جَدِّهِ خَزْعَلِ بْنِ عَاصِمٍ قَالَ: كُنْتُ فِي خَيْلٍ يَوْقَنَا لَمَّا وَجَهْنَا أَبُو عَبِيْدَةَ مَعَهُ. قَالَ لَمَّا شَارَفَنَا عَزَازَ قَالَ لَنَا يَوْقَنَا: اعْلَمُوا يَا فَتَيَانَ الْعَرَبِ أَنَا قَدْ شَارَفْنَا هَذَا الْعَدُوِّ فَإِيَّاكُمْ أَنْ يَتَكَلَّمُ

أحد منكم فإن لغتكم لا تخفي على الروم وأنا المترجم عنكم وكونوا على يقظة من أمركم . فإذا رأيتوني وقد بطشت بصاحب الحصن فثوروا على اسم الله تعالى ، ثم ساروا وليس عنده خبر من تواتر القدر .

قال الواقدي : حديثي سليمان بن عبد الله البشكري . قال : حديثي عبد الرحمن المازني وكان من يكتب فتوح الشام . قال : حديثي الأكوع بن عباد المازني . قال : كنت مع مالك الأشتر من جملة الألف حين سرنا في أثر يوقنا صاحب حلب حتى إذا كنا في تلك القرية ، ونحن ننتظر الصباح وإذا نحن بجيش من ورائنا من غربي القرية فسار مالك الأشتر وقصد الحصن فغاب عنا غير بعيد وعاد ومعه رجل من العرب المنتصرة وقد أقبل به ، فلما صار بيننا قال : يا فتيان اسمعوا ما يقول هذا الرجل فقلنا : وما الذي يقوله ؟ قال : أسأله فإنه يخبركم فسألناه وقلنا : من أي الناس أنت ؟ قال : من غسان منبني عم جبلة بن الأبيهم . فقال له مالك : ما اسمك ؟ قال : اسمي طارق بن شيبان . فقال له : يا طارق بحق ذمة العرب لا تكتمنا أمراً تعرفه من أعدائنا قال : والله لا أكتم أمراً أعرفه ولكن خذوا على أنفسكم قبل قدوم عدوكم قال مالك : وكيف ذلك ؟ قال : لأن البارحة ورد علينا جاسوس من عندكم وهو متى اسمه عصمة بن عرفجة ، وكان يسمع ما تناجيتم به من الحيلة التي أرادها يوقنا على صاحب عزاز ، فلما سمع الجاسوس منكم ذلك كتب رقعة وربطها تحت جناح طير كان معه وأطلقه إلى صاحب عزاز ، فلما قرأها أرسلني إلى صاحب الرواندات لوقا بن شاس يستنجد به عليكم فمضيت إليه بالرسالة وهو قادم في خسممائه فارس وكانكم بهم ، وقد هجموا فخذلوا حذركم .

قال الواقدي : وأما ما كان من أمر يوقنا فإنه سار حتى وصل إلى الحصن فوجد صاحبه قد تجهز بنفسه ومعه أصحابه وهو خارج الحصن وكان اللعين يركب في ثلاثة آلاف فارس من الروم وألف من العرب المنتصرة غير من التجأ إليه من السود ، فلما قدم عليه يوقنا لم يوهمه في شيء من أمره بل استقبله وترجل إليه وأقبل كأنه يقبل ركابه وكان في يده سكين أمضى من القضاء فقطع به حزام فرس يوقنا وجذبه إليه وإذا به قد وقع على أم رأسه فأطبق الأربعة آلاف على أصحاب رسول الله ﷺ ولم يمهلوهم حتى أخذوهم قبضاً بالكف وشدوهم كتافاً وبصق دراس في وجه يوقنا ، وقال : لقد غضب عليك المسيح والصلب إذ فارقت دينك ودخلت في دين أعدائك وحق المسيح لا بد لي أن أبعثك إلى الملك الرحيم هرقل يصلبك على باب أنطاكية بعدما أضرب رقاب هؤلاء العرب ثم إنه أصعدهم إلى الحصن .

قال الواقدي : ومن خيرة الله لل المسلمين أن الجاسوس لم يكتب لصاحب عزاز في مكاتبه بسير مالك الأشتر . قال : وإن مالكا الأشتر لما سمع كلام المنتصر أيقظ أصحابه

وربط المتنصر عنده وأقاموا ينتظرون صاحب الرواوندات، فلما راق الليل سمعوا وقع حوارف الخيل فلم يكلمهم مالك حتى توسطوا الكمين وأطبقوا عليهم، فكل اثنين ربطوا واحداً من الروم وأخذوهم بالكف ولم ينفلت منهم أحد ولبسوا ثيابهم ورفعوا راياتهم وصليبيهم كما كانت، ثم إن مالكا قال للمنتصر: هل لك أن ترجع إلى دين الله عز وجل ودين نبيه محمد ﷺ فيمحو عنك ما سلف من الكفر بالإيمان وتبقى لنا من جملة الإخوان؟ فقال: إن قلبي ولبي عندكم فلا جزى الله من أجاننا إلى الدخول في هذا الدين خيراً وأنا والله من الطائفة التي هي أول من أسلم على يد عمر بن الخطاب وقد سمعنا عن محمد ﷺ أنه قال: من بدل دينه فاقتلوه. فقال له مالك: لقد صدقت في قولك ولكن انسخ هذا الحديث بقول لا إله إلا الله، فقد قال الله تعالى: ﴿إِلا مَنْ تَابَ وَأَمْنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سِيَّنَاتَهُ﴾ [الفرقان: ٧٠] الآية، وقبل رسول الله ﷺ توبية وحشى قاتل عمه حمزة فأنزل الله فيه الآيات، فلما سمع الغساني ذلك فرح وقال: أناأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله والآن والله يا مالك قد طاب قلبي وانجبر كسري أخذ الله بيديك وأنقذك الله يوم القيمة. قال: ففرح مالك بإسلامه، وقال له: وفقك الله وثبت إيمانك، ثم قال له: يا عبد الله إني أريد أن تمحو ما سلف منك بما تفعله. فقال: وما ت يريد أيها الأمير؟ قال: تمضي إلى صاحب عزاز وتبشره بقدوم صاحب الرواوندات إلى نصرته. فقال: أفعل ذلك إن شاء الله تعالى وإن كنت في شك من أمري فأرسل معي من تثق به حتى يسمع ما أقول فإن اللبلاء قد تنصف والحرس شديد وباب الحصن مغلق وأنا أخاطبهم من شفير الخندق، قال فأرسل معه مالك ابن عم له يقال له راشد بن مقبس ووصاه أن يكون مستيقظاً فسارا جمياً إلى أن وصلا إلى الحصن فوجدا الحرس شديداً والروم تضرب بوقاتها والصوت عال في وسط الحصن. فقال طارق لابن عم مالك: ما هذا وحق أبي إلا قتال وضرب وحرب فأنصتا فإذا هو كما قال طارق.

قال الواقدي: وكان السبب في ذلك أن ابن صاحب عزاز شاب شجاع يقال له لاوان كان أبوه دراس في وقت يرسله إلى يوقنا بالهدايا والتحف لما بينهم من القرابة وكان يقيم عنده أشهراً في أعز مكان وإنه حضر عنده في بعض المرات في عيد الصليب في البيعة التي هي اليوم الجامع، وكان يدخل في كل وقت فرأى يوماً ابنة يوقنا وهي بين جواريها وخدمتها وحشمتها فوقع بقلبه حبها فكتم أمرها وعاد إلى عزاز وشكا حاله إلى أمه وما كان لأبيه ولد غيره وهي تجد له محبة عظيمة فقالت له: أنا أخاطب أباك في ذلك وألزمك أن يرسل ليخطبها من أبيها وزوجك بها ونبذل له من المال ما أراده وطلبه واشتغل قلب الشاب بحب الجارية، وفي أثناء ذلك جاءت العرب إلى بلادهم واشتغلت خواطرهم، فلما وقع يوقنا في يد أبيه وكان من أمره ما كان وقبض عليه وعلى المائة من

ال المسلمين وحبسهم جميعاً في دار ولده لاوان ووصاه بحفظهم فقال لاوان في نفسه وحق ديني إن ابن عمنا يوقدنا أعلم من أبي بالأديان ولو لا أنه رأى الحق مع هؤلاء العرب ما تبعهم بعدما قاتلهم أشد القتال وأيضاً إن جيوش الملك ما ساوتهم وأن الله قد نصرهم على ضعفهم وأنا قلبي متعلق بابنته وإنني أرى من الرأي السديد أن أحل هؤلاء القوم من الوثاق وأرجع إلى دينهم بعد أن أثق من ابن عمي أن يزوجني ابنته فإنه على الحق وأنا ما أطلب بعدها وأتزوج ابنته، فلما حدثه نفسه بذلك أقبل إلى يوقدنا وجلس بين يديه وقال له: يا عم إني عولت على أن أحل وثائقك أنت وأصحابك، وقد اخترتك على أهلي وأبي وملكي وأنت تعلم أن فراق الأهل صعب واخترت الإيمان على الكفر وقد علمت أن دين هؤلاء صحيح، ولكن لي عليك شرط أن تزوجني ابنتك ومهرها عتقك أنت وهؤلاء الناس الذين معك. فقال يوقدنا: يابني ما لك إلى زواجهما من سبيل إذا كنت تدخل فيه لأجل غرض الدنيا ول يكن دخولك فيه خالصاً من قلبك حتى إن الله يأجرك على ما تفعله وأنا إن شاء الله تعالى أبلغك ما ترومه وتنال عز الدنيا والآخرة فقال: لا وأناأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله، ثم حل وثاق يوقدنا وأعطاه سلاحه وحل المائة وأعطاهم سلاحهم، وقال لهم: كونوا على أهبة وأنا أمضي إلى أبي وهو ثمل بالخمر فأقتله وثوروا على بركة الله تعالى في رضا الله فندهما قال يوقدنا للمائة: أشهدوا عليّ أني زوجته ابتي وجعلت صداقها عتقنا فقبل منه ومضى إلى دار أبيه فوجد أباه مقطوع الرأس وإخوته عنده، فقال لهم: من فعل هذا بأبي؟ قالوا: نحن قال: ولم ذلك؟ قالوا: أردنا بذلك وجه الله وقد سمعناك وما تحدثت به مع يوقدنا وأصحابه فخفنا عليك أن لا يتم لك هذا الأمر ويتكاثر الجمع على القوم ويلجأ أباًنا خبرك فيقتلوك فبطشنا به قبلك، قال: ففرح لاوان بذلك ورجع إلى يوقدنا وأصحابه وأعلمهم بما جرى فخرجوا من دار لاوان وتسطروا الحصن ورفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير والصلوة على البشير النذير والسراج المنير ووضعوا السيف في الروم، قال وقع الصائح في الحصن كما وصفنا وتبادرت الروم لقتال المسلمين، وفي تلك الساعة قدم طارق ورفيقه قال فسمعنا الأصوات قال فرجعنا إلى مالك وأعلمناه بما سمعناه. فقال مالك لأصحابه اركضوا لأصحابكم فركضوا خيولهم وخلف منهم مائة يحفظون الأسرى، فلما قربوا من الحصن وكان يوقدنا قد قال للاوان: إن نجدة من المسلمين تأتينا فأتى لاوان فرأى المسلمين قد أتوا ففتح لهم بباب الحصن من باب السر وأدخلهم، فلما حصل مالك الأشتري في حصن عزاز نادى هو ومن معه الله أكبر ففتح الله ونصر وخذل من كفر، فلما رأى أهل الحصن ذلك رموا سلاحهم ونادوا الغوث الغوث فرفعوا عنهم السلاح وأخذوههم أسرى وشكروا ليوقدنا ومن معه، قال: فحدث يوقدنا مالكا الأشتري بحديث الغلام لاوان فقال مالك: إذا أراد الله أمراً هي أسبابه.

قال الواقدي: حدثني قيس عن عقبة عن صفوان، عن عمرو بن عبد الرحمن عن جبير عن أبيه. قال: سألت أبا لبابة بن المنذر وكان ممن حضر فتوح الشام كيف كانت فتوح عزاز وقتل دراس فإن نفسي تنكر هذا وأريد صحته؟ فقال: لما وضعت الحرب أوزارها وجمع مالك الأشتر الأساري والمال والثياب والذهب والفضة والآنية، وأمر بإخراج ذلك من الحصن ووكل به قيس بن سعد، وكان ممن حضر وأصابه سهم فعوره، وكذلك أبو لبابة بن المنذر وكلاهما حضر بدرًا مع رسول الله ﷺ فلم يبق أحد في عزاز. ثم قام مالك فمشى في الحصن وتفقد دارساً فوجده مقتولاً، فقال: من قتل هذا اللعين؟ فقال لاوان: قتله أخي لوكا وهو أكبر مني سناً فأمر مالك بإحضاره، وقال: لم قتلتته وهو أبوك؟ وما سمعنا ولدًا قتل أبوه من الروم سواك؟ فقال: حملني على ذلك محبة دينكم، لأن في بيعة هذا الحصن قسًا من المعمرين، وكنا نقرأ عليه الإنجيل ويعلّمنا بعلم الروم، وإنني كنت في بعض الأيام في البيعة أنا وهو وليس عندنا أحد وكان اسمه أبا المنذر، فقلت له: يا أبا المنذر ألا ترى إلى بلاد الشام كيف استولت عليها العرب وملكوها أكثرها وهزموا جيوش الملك؟ وما كان نظن أن العرب تقدر على ذلك لأنه ليس في الأمم أضعف منهم وأن الله تعالى نصرهم على ضعفهم، فهل قرأت ذلك في كتب الروم أو ملامحهم أو ملاحم اليونانيين؟ فقال: يا بني نعم إنني قرأت ذلك، ولقد أخبرنا الملك هرقل بذلك قبل وقوع هذا الأمر وجمع إليه الملوك والأساقفة والبطارقة وغيرهم، وأخبرهم أن العرب لا بد أن يملكون ما تحت سريري هذا، ولقد بلغنا عن النبي القوم أنه قال: «زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها» فقلت له: يا أباانا فما تقول في النبي القوم؟ قال له: يا بني إن في كتبنا أن الله تعالى يبعث نبينا بالحجاج وقد بشّر به عيسى المسيح بن مريم، ولا ندرى أهو هذا أم لا؟ فعلمت أنه كتم عني أمره مخافة أن أذيع سره فكتم ما قال لي البارحة، فلما رأيت يوقدنا وأصحابه أسرى قلت: هذا يوقدنا قد قتل أخاه يوحننا وعاند العرب وقاتلهم، ثم إنه رجع إلى دينهم، وما ذاك إلا أنه قد علم الحق معهم، فقلت أنا لنفسي: قم أنت وقتل أباك وخلاص يوقدنا وأصحابه وارجع إلى دين هؤلاء فهو الدين الحق لا شك فيه، فلما نام أبي بعدما شرب الخمر وسكر قتله وسرت إلى خلاص يوقدنا ومن معه فوجدت أخي لاوان قد سبقني إلى ذلك، فقال له مالك: يا غلام لم فعلت ذلك؟ قال: محبة في دينكم وأناأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقال له مالك: قبلك الله ووفتك. ثم خرج مالك من الحصن وولاه سعيد بن عمرو الغنوبي وترك معه المائة الذين كانوا مع يوقدنا وقدموا إليه صاحب الروايات ومن معه فعرض عليهم الإسلام فأبوا فضرب رقابهم.

قال الواقدي: حدثني عبد الملك بن محمد عن أبيه حسان بن كعب عن عبد الواحد عن عبد الله بن قرط الأزدي أن فتح عزاز كان هكذا، والذي ذكر أن بنات دراس وزوجته قتلته لم يصح والله أعلم، ثم إن مالكا الأشتر أراد أن يرحل فعرض عليه سبي عزاز فكان ألف رجل من الشباب ومائتين وخمسة وأربعين رجلاً من الشيوخ والرهبان وألفي امرأة من النساء والبنات ومائة وثمانين عجوزاً ونظر إلى شيخ من الرهبان مليح الشيبة واضح الهيبة، فقال: إن صدقت الفراسة فهذا القس الذي أخبرني به لوقا وأخوه لاوان فدعا بهما وقال: هذا هو القس الذي أخبرني به لوقا، فقال: نعم فقال له: يا شيخ إذا كنت من علماء أهل الكتاب فكيف تكتم الحق عن مستحقيه فقال: والله ما كتمت الحق عن مستحقيه، ولكن خفت من الروم أن يقتلوني، لأن الحق ثقيل وقد قتلوا الأبناء والإخوة وذلك لأجل الحق فكيف أنا. فقال له مالك: أتتدخل في ديننا؟

فقال: لست أدخل فيه إلا إذا سألتكم عن مسائل وجدتها في الإنجيل. فقال له مالك: هات ما عندك، فلما أراد القس أن يتكلم وقع الصياح في الحصن فارتاع الناس ووثب مالك لينظر ما خبر الناس؟ وظن أن الروم قد غدرت بهم وإذا بناس من المسلمين الذين بالحصن يقولون: أيها الأمير خذوا حذركم فإننا نرى غيرة على طريق منبع ويزاعة ولا ندري ما هي فركب مالك ومن معه ووقفوا ينتظرون ماذا وإذا قد لاح من تحتها خيول الإسلام وهم يسوقون السبايا والأموال والرجال وهم مشدودون في الجبال ووراءهم ألف فارس من المسلمين وأميرهم الفضل بن العباس رضي الله عنه، وكان قد أرسله أبو عبيدة حتى غازى منبع والباب ويزاعة فوق الكثير في الفريقين وسلم بعضهم على بعض وسأل الفضل مالكا عن قصته فحدثه أن الله قد فتح عزاز وأذل من فيها، وحدثه بما كان من حديث يوقدنا، وأنني ما منعني من الرحيل إلا هذا القس وسؤاله، فقال له الفضل: أيها القس قل ما أنت قائل، فقال القس: أخبرني عن أي شيء خلقه الله تعالى قبل خلق السموات والأرض؟ فقال الفضل: أول ما خلق اللوح والقلم ويقال العرش والكرسي ويقال الوقت والزمان، ويقال العدد والحساب، ويقال أول ما خلق الله جوهرة فنظر إليها فصارت ماء، ثم خلق العرش ياقوتة وكان عرشه على الماء، وأنه نظر إلى الماء فاضطرب وارتعد وصعد منه دخان فخلق الله منه السماء، ثم خلق الأرض، وقيل خلق أولاً العقل لأنه أراد أن يتتفع به الخلق، وقيل: أول ما خلق الله نوراً وظلمة، ثم دعاهما إلى الإقرار فأنكرت الظلمة وأقر النور، فخلق منه الجنة لرضاه عنه، وخلق النار من الظلمة لسخطه عليها، وخلق أرواح السعداء من النور وأرواح الأشقياء من الظلمة، فلأجل ذلك كل منهم يرجع إلى مستقره، ويقال أول ما خلق الله نقطة فنظر إليها بالهيبة فتضعضعت وسالت ألفاً فجعلها مبدأ كتابه العزيز فسبحان من ألف كتابه من نقطة، وخلق خلقه من نقطة، ثم

يميتهم بقبضة ويحييهم بنفخة. فلما سمع القس ذلك من كلام الفضل بن العباس قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، هذا هو العلم الذي استأثر به أنبياء الله تعالى. فلما نظر أهل عزاز إلى قسمهم وقد أسلم أسلموا عن آخرهم إلا قليلاً منهم والله أعلم.

قال الواقدي: حدثني عامر بن يحيى عن أسد بن مسلم عن دارم بن عياش عن جده. قال: لما أسلم أهل عزاز بإسلام قسمهم الذي كان معتقدهم عول الفضل ومالك على المسير إلى حلب، فقال يوقنا: أنا والله ما لي وجه مقابل به المسلمين، لأنني كنت قلت قولاً ودبرت أمراً فلم يتم لي وإنني سائر إلى أنطاكية فلعل الله أن يظفرني بالأعداء وينصرني عليهم، فقال له الفضل: إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ ليس لك من الأمر شيء فلا تحمل قلبك همّا، فقال: ودين الإسلام لا أرجع إلا بأمر يبيّض الله به وجهي عند إخواني المسلمين، فنظر وقد صحبه مائتان منبني عمه من قد رsex في قلوبهم الإيمان ولهم عيال وأولاد في حلب فأخذهم يوقنا وسار يريد أنطاكية، فلما قرب من أرضها أخذ منهم أربعة وأمر الباقى أن يتبعوا خلفه أربعة أيام، ثم يأتوا بأنهم هاربون من العرب ليتم ما دبره في خاطره وسار هو والأربعة على طريق حارم والباقي على طريق أرناح، وقال لهم: الميعاد بيننا أنطاكية ففعلوا ذلك وساروا وسار هو إلى أن أشرف على دير سمعان المشرف على البحر، فوجد هناك خيلاً ورجالاً يحفظون الطرق، فلما رأوا يوقنا والأربعة معه بادروا إليهم واستخبروهم عن حالهم، فقال لهم يوقنا: أنا صاحب حلب وقد هربت من العرب فوكل بهم صاحب الدرك جماعة وأمرهم أن يسيروا بهم إلى الملك فأخذتهم الخيل وأتوا بهم إليه فوجدوه في كنيسة الفتيا يصلي، فوقفوا حتى فرغ من صلاته فأوقفوا يوقنا بين يديه، وقالوا: أيها الملك إن بطرس صاحب الحرس الذي عند دير سمعان، قد وجه بهذا ومن معه إليك ويزعم أنه صاحب حلب، فلما سمع هرقل ذلك. قال له: يا يوقنا ما الذي أتي بك وقد بلغني أنك دخلت في دين العرب؟ فقال: أيها الملك لقد بلغك الحق، وذلك أنني ما أسلمت إلا لمكيدة القوم حتى أتخلص من شرهم ومن كراهة منظركم وتن رائحتهم، وإنني قلت لهم: أسلم إليكم حصن عزاز وأقتل أصحابها وأخذت منهم مائة سيد من ساداتهم وسرت بهم، وأمرت أن ينفذ ورائي ألف حتى إذا صاروا داخل الحصن اق卜 عليهم وأرسلتهم إليك فعجل دراس علي ولم يفهم ما أضمرته ووثق بكلام جاسوسه ولم يثق بكلامي، فقبض علينا فأتت العرب ووضعت السيف في أهلها، وذلك أن لوقا قتل أبوه رجل من العرب وأنا من جملتهم، فلما اشتغلوا بالقتال والنهر هربت أنا وهؤلاء الأربعة وجئنا إليك، ولو لا محبتى في ديني ما كنت قلت أخي يوحنا وصبرت على قتال العرب وحضارهم ستة كاملة.

قال الواقدي: فأعانته البطارقة والملوك الذين كانوا حاضرين، وقالوا: صدق يوقنا أيها الملك، وسيظهر لك فعله وعمله وجهاده، فابنـش وجه الملك لذلك وخلع عليه من لباسه الذي هو عليه وسـوره ومنطقـه وتوجهـه، وقال له: إن كانت حلب أخذـت منك فإـني ولـيـتك علىـ أنـطـاكـية وأـعـطـاهـ وظـيـفـة دـمـسـقـهاـ وـسـكـنـدـرـهاـ يـعـنيـ والـيـهاـ.

قال الواقدي: فسمع يوقنا له ودعا له. فيـيـنـماـ هوـ كـذـلـكـ إـذـ أـتـىـ إـلـيـهـ المـوـكـلـ بـجـسـرـ الحـدـيدـ وـأـخـبـرـ الـمـلـكـ أـنـ قـدـ قـدـمـ عـلـيـهـ مـائـاـ بـطـرـيقـ مـنـ فـرـسـانـ حـلـبـ، وـهـمـ يـزـعـمـونـ أـنـهـمـ مـنـ بـيـتـ وـاحـدـ مـنـ الرـوـمـيـةـ مـنـ بـنـيـ عـمـ يـوـقـنـاـ، وـأـنـهـمـ قـدـ هـرـبـواـ مـنـ الـعـرـبـ، فـلـمـ سـمـعـ ذـلـكـ قـالـ لـيـوـقـنـاـ: أـيـهـاـ الدـمـسـقـ وـالـسـكـنـدـرـ قـمـ وـارـكـ وـأـشـرـفـ عـلـىـ هـؤـلـاءـ الـقـومـ، فـلـانـ كـانـوـاـ مـنـ بـنـيـ عـمـكـ فـأـقـلـ بـهـمـ وـضـمـهـمـ إـلـيـكـ لـيـكـونـواـ عـسـكـرـكـ، وـإـنـ كـانـوـاـ غـيـرـ ذـلـكـ فـأـتـ بـهـمـ لـأـرـىـ فـيـهـمـ مـاـ أـرـىـ، وـإـيـاكـ أـنـ يـكـونـواـ مـنـ قـبـلـ الـعـرـبـ مـمـنـ رـجـعـ إـلـىـ دـيـنـهـمـ مـنـ أـهـلـ سـيـجـرـ وـحـمـةـ وـالـرـسـنـ وـجـوسـيـةـ وـبـعـلـبـكـ وـدـمـشـقـ وـحـورـانـ، فـقـالـ: نـعـمـ أـيـهـاـ الـمـلـكـ فـرـكـ وـرـكـبـ مـعـهـ الـفـرـسـانـ مـنـ الـمـلـكـيـةـ وـالـسـرـيـرـيـةـ، وـأـتـواـ إـلـىـ جـسـرـ الـحـدـيدـ وـأـمـرـ أـصـحـابـ الـدـرـكـ أـنـ يـأـتـواـ بـالـمـائـيـنـ، فـلـمـ رـأـهـمـ يـوـقـنـاـ رـخـبـ بـهـمـ وـنـظـرـوـاـ إـلـيـهـ وـهـوـ فـيـ ذـلـكـ الـزـيـ وـالـحـشـمـةـ وـخـلـعـةـ الـمـلـكـ عـلـيـهـ، فـتـرـجـلـوـاـ وـقـبـلـوـ رـكـابـهـ، فـقـالـ لـهـمـ: كـيـفـ خـلـصـتـ مـنـ أـيـديـ الـعـرـبـ؟ فـقـالـوـاـ: أـيـهـاـ السـيـدـ إـنـاـ خـرـجـنـاـ مـعـ أـمـيرـهـمـ وـأـغـرـنـاـ عـلـىـ مـبـعـجـ وـبـزـاعـةـ، فـلـمـ رـجـعـنـاـ نـرـيدـ حـلـبـ أـخـذـنـاـ عـلـىـ عـزـازـ فـوـجـدـنـاهـمـ قـدـ مـلـكـوـهـاـ، فـلـمـ كـانـ الـلـيـلـ تـرـكـنـاهـمـ وـأـتـيـناـ.

قال الواقدي: وهذا كله وحـجـابـ الـمـلـكـ يـسـمـعـونـ، فـلـمـ حـضـرـوـاـ أـخـبـرـوـاـ الـمـلـكـ بـذـلـكـ وـدـخـلـ يـوـقـنـاـ بـهـمـ عـلـىـ الـمـلـكـ فـخـلـعـ عـلـيـهـ وـأـنـزـلـهـمـ وـأـمـرـهـمـ أـنـ يـكـونـواـ فـيـ خـدـمـةـ يـوـقـنـاـ وـأـعـطـاهـ دـارـاـ بـإـرـازـ قـصـرـهـ، فـقـالـ يـوـقـنـاـ: أـيـهـاـ الـمـلـكـ أـنـتـ تـعـلـمـ أـنـ هـذـهـ الدـارـ لـاـ يـدـوـمـ نـعـيمـهـ، وـأـنـ السـيـدـ مـسـيـحـ شـبـهـهـ بـالـجـيـفـةـ، وـطـلـابـهـ بـالـكـلـابـ يـتـجـاذـبـونـهـ. كـمـ روـيـ عنـ مـسـيـحـ أـنـ رـأـيـ طـائـرـاـ حـسـنـاـ مـزـيـنـاـ بـكـلـ زـيـنةـ، فـنـزـعـ جـلـدـهـ فـرـأـهـ أـقـبـعـ ماـ يـكـونـ مـنـظـرـاـ، فـقـالـ لـهـ: مـنـ أـنـتـ؟ قـالـ: أـنـاـ الـدـنـيـاـ ظـاهـرـيـ مـلـيـعـ وـبـاطـنـيـ قـبـيـعـ، وـإـنـماـ ضـرـبـتـ لـكـ هـذـاـ مـثـلـ أـيـهـاـ الـمـلـكـ لـتـعـلـمـ أـنـهـ مـاـ خـلـاـ جـسـدـ مـنـ حـسـدـ، وـإـنـ أـقـبـلـتـ الـدـنـيـاـ عـلـىـ أـحـدـ كـثـرـ حـسـادـهـ، وـأـنـاـ أـخـافـ مـنـ الـحـسـادـ أـنـ يـتـكـلـمـوـاـ فـيـ عـنـدـ الـمـلـكـ وـيـرـمـونـيـ بـالـبـهـتـانـ وـبـمـاـ لـاـ أـفـعـلـهـ، فـإـنـ كـانـ الـمـلـكـ يـنـفـرـ مـنـ فـلـيـلـوـ هـذـهـ الـوـظـائـفـ غـيـرـيـ وـأـنـاـ مـاـ أـبـرـحـ عـلـىـ رـكـابـكـ. ثـمـ إـنـهـ بـكـيـ، فـقـالـ لـهـ الـمـلـكـ: أـيـهـاـ الدـمـسـقـ ماـ وـلـيـتـكـ هـذـاـ الـأـمـرـ إـلـاـ وـقـلـبـيـ وـخـاطـرـيـ وـاثـقـ بـكـ، وـمـنـ تـكـلـمـ فـيـكـ بـشـيـءـ سـلـمـتـهـ إـلـيـكـ تـفـعـلـ بـهـ مـاـ تـرـيدـ، فـشـكـرـهـ يـوـقـنـاـ وـأـرـادـ الـخـرـوجـ إـلـىـ وـظـيـفـتـهـ التـيـ وـلـاهـ إـيـاهـ، وـإـذـ بـخـيلـ الـبـرـيدـ قـدـ أـقـبـلـتـ مـنـ مـرـعـشـ وـهـمـ رـسـلـ اـبـتـهـ زـيـتونـةـ، وـأـنـهـ خـافـهـ مـنـ الـعـرـبـ، وـهـيـ تـرـيدـ الـقـدـومـ عـلـيـكـ حـتـىـ تـرـىـ مـاـ يـؤـولـ مـنـ الـأـمـرـ، وـأـنـهـ تـسـأـلـكـ أـنـ تـرـسـلـ لـهـ جـيـشـاـ يـوـصـلـهـ إـلـيـكـ، فـلـمـ سـمـعـ الـمـلـكـ ذـلـكـ. قـالـ: لـيـسـ لـهـذـاـ الـأـمـرـ إـلـاـ الدـمـسـقـ يـوـقـنـاـ،

فقبل الأرض وقال: السمع والطاعة لأمرك فضم إليه ألف فارس ومائتين من أصحابه من المدبرة والقياصرة.

قال الواقدي: فسار بالآلفين والمائتي فارس وقد رفع الصليب فوق رأسه وجنبت الجانبين عليها الرخوة المذهبة، وسار يجد السير إلى أن وصل إلى مرعش وأخذ زيتونة بنت هرقل، وهي الصغرى، وكان الملك قد ولأها على تلك البلاد وزوجها بنو سطير بن حارس، وكانوا يسمونه سيف النصرانية لشجاعته، وكان قد قتل على اليرموك من جراحات أصابته.

قال الواقدي: فلما أخذ يوقنا ابنة الملك وعاد يطلب بها أنطاكية أخذ على الجادة العظمى لعله يلقى أحداً من جواسيس المسلمين أو يرى معاهداً فيرسله ليعلم أبا عبيدة أنه قد تمكن من الملك ومن البلد، فلما وصل مرج الديباج، وكان ليلاً وإذا بخيله التي على مقدمته قد أتته وهو مذعورون، فقال لهم: ما بالكم؟ فقالوا له: أيها السيد الدمشقي إن هناك عسكراً نازلاً فقربنا منهم فإذا هم عرب وهم نيام ولا شك أنهم مسلمون، فقال لهم: خذوا أهبتكم وأيقظوا خواطركم وانصحروا لدينكم وجاهدوا عدوكم وقاتلوا عن ابنة الملك ولا تسلموها إلى أعدائها وكونوا خير جند قاتل عن نعمة صاحبه، وإذا تمكّن الحرب بينما وبينهم فاعتمدوا على الأسر وإيابكم والقتل واعلموا أن العرب وأميرهم لا بد لهم أن يقصدوا الملك ومن معه، فإن أسرروا منا أحداً يكن عندنا الفداء، فقد وجدت في كتاب حرفاً من الحكيم: إن من نظر في عواقب زمانه توسع بوشاح أمانه، ومن أهل أمره خاف حذر، ومن أكثر الغدر حل به الأمر، سيروا على بركة الله.

قال الواقدي: فشرعوا الأعنة وقوموا الأسنة وقصدوا ذلك العسكر، فلما أحسوا بهم بادروا إليهم واستقبلوهم وهو ينادون بعيسي ابن مريم والصلب المفخم: من أنت؟ فقال لهم يوقنا: ومن أنت؟ فقالوا: نحن أصحاب جبلة بن الأبيهم. فلما سمع يوقنا ذلك ترجل عن دابته وسلم عليهم وسلمت العرب المنتصرة على الروم فقال جبلة: من أين جئتم؟ فقال له: من مرعش ومعي ابنة الملك وأنتم من أين جئتم؟ فقال جبلة: من العمن وقد أتينا بميرة أهلها فلما رجعت ووصلت إلى مرج دابق لقيت كتيبة من فرسان المسلمين وهو زيادة عن مائتي فارس وهو لا يسوقون زيتنا فلما وصلنا إليهم ابتدرونا بعزم شديد وحرب عتيد وإذا مقدمهم لا يصطلّى له بنار، فلقد أبادتنا رجالاً وجندل منا أبطالاً ونحن في أفقنا فارس وهو مائتان وكان فيما كالنار المحرق فما زلتنا نقاتلهم حتى أسرناهم بعدما قتل الفارس منهم الفارس والاثنين والثلاثة منا وبقي أميرهم إلى آخر الناس فقصدنا جواده بالسهام حتى قتلناه ووقع فهجمنا عليه وأخذناه أسيراً فإذا هو من أصحاب محمد وهو ضرار بن الأزور ونحن قاصدون بهم إلى الملك هرقل ليرى فيهم رأيه فأظهر لهم يوقنا

الفرح وقال : وحق ديني لقد فزت بالفخر بأسرك لهؤلاء وهذا الغلام فلقد بلغني عنه ما فعل بأبطال الشام وفرسان الروم ، ثم سار القوم جميعاً يطلبون أنطاكية .

قال الواقدي : حدثني الشريد بن عاصم عن شروان بن مجzel عن قادم بن بشر عن زائدة بن معمر . قال : حدثنا بشار عن عوف عن صالح عن عبد الله عن جده مسروق ، قال المؤلف : وحدثني هذا الحديث عباد بن عاصم عن عمران بن حصين . قال : لما فتح المسلمون حصن عزاز وترك مالك الأشتر عليها سعيد بن عمرو العنوي والتقي بالفضل بن العباس ورجعا بالغنائم إلى حلب استبشر أبو عبيدة بسلامة الناس ويفتوح عزاز فسأل مالكًا عن يومنا فحدثه فيما بينه وبينه سرًا وأنه قصد أنطاكية ليدخل على كلب الروم بحيلة ولم يكن له وجه يعود إليك به ، فقال أبو عبيدة : الله ينصره ويظفر له ، فلقد ظهر لنا منه ما لم يكن لنا في حساب ، ثم إنه كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتاباً يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من أبي عبيدة عامر بن الجراح إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب سلام عليك . فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلى على نبيه محمد ﷺ أما بعد : فإن الله سبحانه له الملة علينا التي يستوجب بها الحمد من جميع المسلمين إذ فتح علينا مستصعب قلاع الكفر وحصونه وأذلَّ لنا ملوكيهم وأورثنا أرضهم وديارهم وأنه سبحانه قد فتح علينا قلعة حلب وأردفها بحصن عزاز وأن الطريق يومنا صاحب حلب قد أسلم وحسن إسلامه وقد صار عوناً للمسلمين على الكافرين من بعدما قاسينا منه ما الله عالم به فإنه يجازيه فقد نصر الله به الدين ونصح للمسلمين وأياد المشركين ، وقد دخل أنطاكية يدبر حيلة على كلب الروم ، وقد ألقى بنفسه إلى الهلاك في طاعة الله ورسوله ، ولقد كتبت هذا الكتاب ونحن معذلون على المسير إلى أنطاكية نقصد طاغية الروم مما بقي حصن سواه لأعدائنا قريباً منا ونحن طامعون في أخذه وأخذ سريره وكنوزه كما وعدنا رسول الله ﷺ فزوّدنا بالدعاء منك فإنه سلاح المؤمنين ودمار الكافرين ، والسلام عليك وعلى من معك من المسلمين ورحمة الله وبركاته . ثم إنه أخرج الخمس وسلمه إلى رياح بن غانم اليشكري وضم إليه مائتي فارس من المسلمين فيهم قنادة وسلمة بن الأكوع وعبد الله بن بشار وجابر بن عبد الله ومثل هؤلاء رضي الله عنه فأخذوا الخمس وساروا . ثم إن أبا عبيدة دعا بضرار بن الأزرور وضم إليه مائتي فارس وأمره أن يشن الغارة فركب ضرار وكان معهم سفينة مولى رسول الله ﷺ ولم يزل ضرار سائراً هو ومن معه ومعهم رجال من المعاهدين يذلونهم على الطرق حتى وصلوا إلى مرج دابق ، وكان وقت السحر ، فقال لهم المعاهد : ارفعوا على خيولكم فنزلوا وأراحوها بقية يومهم وليلتهم حتى إذا كان وقت السحر فما شعرو إلا وجبلة كبسهم ، فلما وقع الصياح ركب ضرار وركب معه نحو مائة فارس وأما المائة الأخرى فقد دهمتهم خيول المتنصرة فلم يتمكّنوا من الركوب فقاتلوا رجالاً فنفرت خيولهم ووصل إليهم عدوهم حتى إنه

قتل كل واحد خصمه وتکاثرت عليهم الخيل فأسرروا المائة وأما ضرار فإنه صاح بالمائة الثانية، وقال: يا فتيان العرب إن أعداءكم قد هاجموكم على حين غفلة منكم وهم عرب مثلكم وهذه أفضل الساعات عند الله فقووا عزمكم ولا تفشلوا فأنتم تعلمون أن النبي ﷺ قال: «الجنة تحت ظلال السيوف» وقد قال الله تعالى: «كم من فتة قليلة غلبت فتة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين» [البقرة: ٢٤٩]. قال ميسرة بن عامر: وكان من جملة من حضر معنا في مرج دابق ربيعة بن معمر بن أبي عوف وهو ابن عمر بن ربيعة الشاعر وكان ربيعة من فصحاء العرب لا يتكلم إلا بالسجع كلامه ينظم بحسن مقاله وكنا نصغي إليه إذا سمع ونحفظ منه، فلما سمع ضراراً وهو يحرّضنا. قال: يا فتيان العرب لن تناولوا الجنة إلا بالصبر على المكاره، ووالله لن يدخلها من هو للجهاد كاره:

ولله في عرض السموات جنة ولكنها محفوفة بالمكاره

وأعلى الدرجات درجة الشهادة، فارضوا عالم الغيب والشهادة فهذا الجهاد قد قام على ساقه وكسد النفاق في أسواقه واحتفى بمناقفه في أنفاقه أما أنتم أصحاب نبي العصر؟ ولم يستتم من الثبات والنصر؟ بشروا روح المصطفى بثباتكم وقووا العزم بصفاء نياتكم، وإياكم أن تولوا الأدباء فتستوجبوا غضب الجبار، واعلموا أن النصر والثبات جندان منصوران فمن طلب دار البقا هان عليه الملتقى فصححوا طلبكم تناولوا رحمة ربكم، وحققوا حملتكم تناولوا بغتتكم واطعنوا التحور تناولوا الحور وتسكنوا القصور وقوموا الأسنة تناولوا الجنة واعتمدوا على الصبر تناولوا النصر وإياكم أن توافقوا الكفار في حالهم واعدلوا عن طريق قولهم. قال العالم بحالهم وفعلهم «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلفن الذين من قبلهم» [النور: ٥٥]. قال سمرة بن غانم: والله لقد دهشت أنفسنا بقوله وحملنا على المتنصرة وضرار ينشد:

| | |
|--------------------------------|--------------------------------|
| لترووا سيوفاً من دماء الكتاib | ألا فاحملوا نحو اللثام الكواذب |
| وارضوا إله العرش رب المواهب | وردوا عن الدين المعظم في الورى |
| من النار في يوم الجزا والمأرب | فمن كان منكم يبتغي عتق ربه |
| ويرضي رسولاً في الورى غير كاذب | فيحمل هذا اليوم حملة ضيفم |

قال الواقدي: ثم حمل ضرار ونحن من ورائه وبذلتنا نفوسنا وروينا سيوفنا ورميحتنا من المتنصرة وجرى الحرب بما لا يوصف وضرار فيه كأنه النار في الحطب اليابس وجبلة بن الأبيهم يتعجب من حملاته وضربياته فأمر قومه أن يقصدوا جواده بسهامهم، ففعلوا ذلك فانصرع الجواب ووقع ضرار فتكاثروا عليه وأخذوه أسيراً وأخذوا بقية أصحابه وساروا يريدون أنطاكية فالتفوا بيوقنا وابنة الملك كما ذكرنا.

قال الواقدي : ولقد حدثني معمر بن رواحة عن القاسم عن خزامة بن عمرو وعن أبي المنذر أن سفينة مولى رسول الله ﷺ كان في حرب ضرار بن الأزور أسيراً، فلما كان الليل انطلق هارباً يلتمس الوصول إلى أبي عبيدة، فإذا هو بأسد عارضه. فقال سفينية : يا أبا العارث أنا مولى رسول الله ﷺ وكان من أمري كيت وكيت فقرب منه وهو يبصص بذنبه حتى وقف إلى جانبه وأشار إليه برأسه أن سر فسرت وهو إلى جانبي حتى أتي بي إلى بلد من صلحنا فتركني ومضى .

قال الواقدي : فلما وصل سفينية الجيش حدث الناس بأسر ضرار ومن معه فصعب ذلك على المسلمين وبكي أبو عبيدة وخالد بن الوليد على أسرهم ، وقالا : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ويبلغ ذلك أخته خولة . فقالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، يا بن أمري ليت شعري في السلاسل أو ثقتك ، أم بالحديد قيدوك ، أم في البيداء طرحوك ، أم بدمائك خضبوك ، وأشندت تقول :

فمن ذا الذي يا قوم أشغلكم عنا
لكنا وقفنا للوداع وودعنا
فهل بقدوم الغائبين تبشرنا
وكتنا بهم نزهو وكأنوا كما كنا
وأقبحه ماذا ي يريد النوى منا
ففرقنا ريب الزمان وشتتنا
لشمنا خفافاً للمطايا وقبلنا
تركتناه في دار العدو ويممنا
وما نحن إلا مثل لفظ بلا معنى
إذ ما ذكرهم ذاكر قلبي المضنى
 وإن بعدوا عنا وإن منعوا منا

الآخر مخبر بعد الفراق يخبرنا
فلو كنت أدرى أنه آخر اللقاء
الآخر يا غراب البين هل أنت مخبر
لقد كانت الأيام تزهو لقربهم
الآخر قاتل الله النوى ما أمره
ذكرت ليالي الجمع كنا سوية
لئن رجعوا يوماً إلى دار عزهم
ولم أنس إذ قالوا ضرار مقيد
فما هذه الأيام إلا معاشرة
أرى القلب لا يختار في الناس غيرهم
سلام على الأحباب في كل ساعة

قال الواقدي : ولقد بلغني عن واصل بن عوف أنه قال اجتمعت النساء من العreibيات منهن كان لهم أسير مع ضرار عند خولة ومن جملتهم مزروعة بنت عملاق الحميرية وكانت من فصحاء زمانها ، وكان ولدها صابر بن أوس فيمن أسر مع ضرار فجعلت تندب ولدها وتقول :

وقد أحرقت مني الخدود المدامع
وقد حمي مني الحشا والأصالع

أيا ولدي قد زاد قلبي تلهبا
وقد أضرمت نار المصيبة شعلة

وأسأل عنك الركب كي يخبرونني
 فلم يكن فيهم مخبر عنك صادقا
 فيما ولدي مذ غبت كدرت عيشتي
 وفكري مقسوم وعقلني موله
 فإن تكن حياً صمت الله حجة

بحالك فيما تستكن المدامع
 ولا منهم من قال إنك راجع
 فقلبي مصدوع وطرفني دامع
 ودمعي مسروح وداري بلا قع
 وإن تكن الأخرى فما العبد صانع

فقالت لهن سليمى بنت سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وكانت من الزاهدات العابدات: أبهاذا أمركن الله؟ إنما أمركن بالصبر ووعدكن على ذلك الأجر، أما سمعتن ما قال الله سبحانه وتعالى ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون وأولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ [البقرة: ١٥٧] فاصبرن تؤجرن فسكتن عن البكاء.

قال الواقدي: ولما ورد الخمس على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكتاب أبي عبيدة مع رياح بن غاثم اليشكري وقع الصاتح في المدينة بقدومه، فاجتمع الناس إلى المسجد ليسمعوا ما تجدد من أمر المسلمين، فلما دخل رياح المسجد بدأ بالسلام على قبر رسول الله ﷺ وعلى قبر أبي بكر وصلّى ركعتين وأتى عمر وقبل يده وعرض عليه الكتاب فقرأه على المسلمين فضجوا بالتهليل والتكبير وصلوا على البشير النذير، وأخذ الخمس وكتب إلى أبي عبيدة يأمره بالمسير إلى أنطاكية ولا يصدّه عن ذلك شيء ورد الجواب مع رياح اليشكري.

قال الواقدي: أخبرني مازن بن عبد ربه عن مالك بن أنسيد عن جده مروان بن الجرير أن الجواب لما ورد على أبي عبيدة سار من يومه يطلب أنطاكية. قال: وأما ما كان من أمر يوقنا رحمة الله تعالى وجبلة بن الأبيهم لعنه الله فإنهم ساروا إلى أنطاكية وسبق البشير إلى الملك هرقل بقدمه ابنته مع يوقنا وقدوم يوقنا ومعه المائتا أسير من المسلمين فأمر بتزيين البلد والبيع فأظهرت الروم زيتها ودفعت الصدقات إلى الفقراء وأخرج موكب الروم إلى لقائهم مع ابن أخيه في زينة عظيمة ودخل القوم وهو في زيه وحشهم وكان يوماً مشهوداً وقد ترجلت الملكية والسريرية بين يدي ابنة الملك وخرج كل من بأنطاكية وقدموا أصحاب رسول الله ﷺ أمامها وهم مشدودون والروم تشتمهم وتقبص عليهم وقد دارت بهم الرجال والبطارقة ودخلت ابنة الملك إلى قصر أبيها.

قال الواقدي: ودخل جبلة بن الأبيهم ويوقنا على الملك فخلع عليهما وعلى كبار أصحابهما، ثم إنهم أحضروا الصحابة وأوقفوهم بين يديه وهو في الحال، فلما وقفوا صاحت بهم الحجاب اسجدوا إلى الأرض تعظيمًا للملك فلم يلتفتوا إلى قولهم ولا اعتنوا

بـهـ . فـقـالـ لـهـمـ الـحـاجـبـ الـكـبـيرـ : مـاـ مـنـكـمـ أـنـ تـعـظـمـوـاـ الـمـلـكـ بـالـسـجـودـ بـيـنـ يـدـيـهـ ؟ فـقـالـ لـهـمـ ضـرـارـ : لـاـ يـحـلـ لـنـاـ أـنـ نـسـجـدـ لـمـخـلـقـ وـقـدـ نـهـانـاـ نـبـيـنـاـ نـبـيـتـهـ عـنـ ذـلـكـ .

قال الواقدي: حدثني سهل بن برقان رضي الله عنه عن السائب بن حازم عن الحكم بن مازن. قال: لما وقف ضرار والصحابية بين يدي هرقل خاطبهم من غير ترجمان وأراد الملك أن يسمع بطارقته وحجابه بما كان يحدّثهم به حين بعث النبي ﷺ، وذلك أنه جمعهم إليه لما بلغه أن النبي ﷺ قد ظهر وقال: هذا هو النبي المبعث الذي بشّر به عيسى بن مريم وهو صاحب الوقت ولا بد لدينه أن يظهر حتى يملأ المشرق والمغرب، ثم إن هرقل دعاهم لأداء الجزية فأرادوا قتله فأراد ذلك اليوم أن يبيّن لهم حقيقة قوله وأنه أراد بذلك الإصلاح لهم ولحالهم. فقال لضرار ومن معه: من يخاطبني منكم عما أسأله من العلم؟ فأشاروا إلى قيس بن عاصم الأنصاري رضي الله عنه وكان شيخاً معمراً وقد شاهد جميع أحوال رسول الله ﷺ ومعجزاته وغزوته، فلما أشاروا إليه قال للملك: قل ما أنت فائق أيها الملك. قال هرقل: كيف نزل على نبيكم الوحي أول مبتدأ أمره. فقال قيس بن عاصم: سأّل هذا السؤال لنبينا ﷺ رجل من مكة يقال له العمارث بن هشام. فقال رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أتيني أحياناً مثل صلصلة الجرس وهو أشدّه على فينفصّم عنّي وقد وعيت عنه، وأحياناً يتمثّل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعطي ما يقول». قال قيس: ولقد كان ينزل عليه في اليوم الشديد البرد فينفصّم عنه وإن جبيّنه ليرفض عرقاً، فأول ما بدأ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حجب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فیتحثّث فيه: أي يتبع الليلي ذوات العدد، فلم يزل كذلك حتى جاءه الملك وقال له أقرأ. فقال: لست بقاريء، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني وقال لي أقرأ فقلت: ما أنا بقاريء، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني وقال لي أقرأ فقلت: لست بقاريء فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: «أقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علّق أقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم» [العلق: ١ - ٥] فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف بها فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها. فقال: زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فأخبر خديجة وقال لها: لقد خشيت على نفسي. فقالت له خديجة: كلا لا يخزيك الله أبداً إنك تصلّي الرحم وتتحمل الكل وتكتسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الدهر والحق، وذكر الحديث بطوله. قال رسول الله ﷺ: بينما أنا أمشي إذا سمعت صوتاً من السماء فرفقت بصري فإذا أنا بالملك الذي جاءني بحراء وهو جالس على كرسي بين السماء والأرض فخشيت منه رعباً فرجعت إلى خديجة فقلت: دُرُونِي دُرُونِي فأنزل الله تعالى «يا أيها المدثر قم فانذر» [المدثر: ١، ٢] الآية، ثم حمى الوحي وتتابع، ولقد كنت معه يوماً

في المسجد إذ دخل رجل ومعه بعير له فأناخه بالباب وعقله ودخل وقال: السلام عليكم فرددنا عليه السلام. فقال: أيكم محمد؟ قلنا: هذا الأبيض الوجه. فقال له الرجل: يا ابن عبد المطلب قد أتيت أسلوكاً مشدداً عليك فلا تجد علي في نفسك. فقال له: سل عما بدا لك. فقال: بربرك ورب من قبلك الله أرسلك إلى الناس كلهم كافه؟ قال: اللهم نعم. قال: أنشدك بالله الله أمرك أن تصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: اللهم نعم. قال: أنشدك بالله الله أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة؟ فقال: اللهم نعم. فقال: أنشدك بالله الله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ فقال: اللهم نعم. فقال: آمنت بما جئت به وأنا رسول من ورائي من قومي: أنا ضمام بن ثعلبة أخوبني سعد بن بكر. فقال هرقل: بحق دينك ما الذي رأيت من معجزاته. قال: كنت معه في سفر فأقبل إليه أعرابي فدنا منه. فقال له النبي ﷺ: أتشهد أن لا إله إلا الله وأنّي محمد رسول الله. قال الأعرابي: ومن يشهد بما تقول؟ فقال النبي ﷺ: هذه الشجرة، ثم إن النبي ﷺ دعا الشجرة وهي بشاطئ الوادي فأقبلت إليه وهي تخط الأرض حتى قامت بين يديه فاستشهد لها ثلث مرات. فقالت: أنت محمد رسول الله، ثم أمرها فرجعت إلى منبتها. فقال هرقل: إنا نجد في كتابنا أن الرجل من آمنته إذا عمل السيئة كتبت عليه واحدة وإن عمل الحسنة كتبت له عشرة. قال قيس بن عاصم: هذا في كتابنا. قال الله تعالى: «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها» [الأనعام: ١٦٠]

قال هرقل: اعلم أن النبي ﷺ الذي يبشر به عيسى المسيح هو الشاهد على الناس يوم القيمة. فقال قيس: هو نبينا، قال الله تعالى في كتابه العزيز: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعينا» [الأحزاب: ٤٥، ٤٦] الآية، أما شهادته في العقبى فهو قول ربنا في كلامه القديم: «وجئتنا بك على هؤلاء شهيداً» [النساء: ٤١]. فقال هرقل: إن الذي وصفته لك هو الذي يأمر العباد أن يمضوا إليه في حياته ويصلوا عليه في حياته وبعد وفاته. قال قيس: هو نبينا ﷺ. قال الله تعالى في كتابه العزيز: «إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً» [الأحزاب: ٥٦] قال هرقل: إن الذي وصفه المسيح يرجع به إلى السماء ويخاطبه العلي الأعلى. فقال قيس: هو والله نبينا ﷺ. قال الله تعالى في حقه: «سبحان الذي أسرى بيده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى» [الإسراء: ١].

قال الواقدي: وكان في ذلك الوقت بترك الروم وهو رأس دينهم جالساً يستمع لهذا الكلام فالفلت هذا البترك إلى الملك وقال له: أيها الملك إن الذي ذكره عيسى لم يبعثه بعده ولا قبله بل هي تأويل كاذبة. فقال ضرار بن الأزور: كذبت في وجهك وكذبت هذه اللحية الملعونة المخزية يا كلب الروم أنت من أمثالك من يكذب عيسى عليه السلام وينكر بعث نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، أما تعلم أن عيسى قرأ في الإنجيل وموسى

قرأه في التوراة وقرأه داود في الزبور، وأن نبينا المبعوث بخير الأديان المشهود له بالنبوة والرسالة في كتاب الله العزيز وجميع الكتب المنزلة على الأنبياء من قبله، وهو نبينا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب المكي، ولكن حجاب الكفر منعكم عن معرفته، فلما أن سمع هرقل من ضرار هذا الكلام قال له : لقد أساءت الأدب في المجلس إذ خرقت بعمدة دين النصرانية فمن أنت؟ فقال له قيس بن عامر : هذا صاحب رسول الله ﷺ هذا ضرار بن الأزور لا تتكلم في حقه بكلام قبيح فقال الملك : هذا الذي بلغني عنه أنه يقاتل مرة راجلاً ومرة فارساً ومرة عارياً ومرة لابساً! قال : نعم فعندها سكت ولم يتكلم.

قال الواقدي رحمه الله تعالى ورضي عنه : ولقد بلغني أن البرك لما سمع خرق ضرار به أبدى الغضب بعد الابتسام ولحقه غيظ شديد ما عليه من مزيد وقام من حضرة الملك قال وغضب البطارقة والحجاج لغضب البرك فلما رأى الملك غضبهم خاف على نفسه منهم فقال : قطعواه بسيوفكم وامحوه أثره، قال فنزلوا عليه بالسيوف وضربوه ضربات شديدة وكانت عدة تلك الضربات مائة وأربع عشرة ضربة إلا أنها غير قاتلة لما يريده الله من لطفه الخفي في حياته ونجاته فلما رأى البرك هذه الفعال سكن غضبه وقال : اقطعوا لسانه فلما أن رأى يوقنا ذلك الأمر وتحقق هذا الكلام منهم قال في نفسه والله لا أترأك هذا اللعين يتمكّن من أصحاب رسول الله ﷺ وتقدم إلى الملك وقبل الأرض ودعا بدوام الملك والنعم وقال أيها الملك : إن هذا ليس بصواب وإن من الرأي السديد عندي أن تترك هذا الغلام حتى يصح فإذا عاد إلى صحته أخرجناه إلى باب المدينة وصلبناه لشفيف صدور الروم لأنه قد أثّر فيهم كلامه الذي تكلمه وقد قتل من آبائهم وأبنائهم وإخوانهم وأيضاً يبلغ الخبر إلى المسلمين بإهانته وضربه فيوهنوا بذلك.

قال الواقدي رحمه الله تعالى ورضي عنه : إنما أراد يوقنا بذلك أن يخلص ضراراً منه وقال في نفسه إذا بات تلك الليلة انكسرت حدة الغيظ من الملك فيطلقه فقال الملك ليوقنا : خذه واحفظه إلى غد فأخذه يوقنا إلى داره وافتقد جراحاته فإذا بها كلها سليمة ماقطع له عصب ولا عرق وذلك من لطف الله الخفي ولما أن رأى يوقنا جراحاته خاطتها وداوهاه وأطعمه وأسقاه ففتح عينيه فرأى يوقنا وولده ولم يكن عنده علم بأن يوقنا قد أتى إلى هذا محل ليحتم على الملك فلما أن رأهما قال لهما : إن كنتما كافرين فقد سخركم الله لي حتى داويتمني وإن كنتما مؤمنين فمرحباً بكم وهنيئاً لكم ولعل الله يبركتكم يا جم ش ملي بعجز في الحجاز قد أعلّها البكاء والعويل ليلاً ونهاراً من أجلي وأجل أخي خولة وهي في العسكرية ولقد كانت تحسب هذا الحساب لأنني بقية من مضى لها من الأحباب ولقد خفيت عليها خيري وأمري فإن قدرتما أن تبلغها سلامي وتعلّماها مقامي وكيف كان للكافرين كلامي فهي ترسل وتعلم أمي وتكلّمتها بأمري فلما استراح في الليل قال بالله عليكم اكتبا عني ما أقول لكم فكتب عنه ابن يوقدنا وهو ي ملي له ويكتب حرفاً بحرف شرعاً :

سلامي إلى أهلي بمكة والحجر
بعرٌ واقبال يدوم مع النصر
فقد خف عني ما وجدت من الضر
كذلك فعل الخير بين الورى يجري
تركت عجوزاً في المهمة والقفر
على ناثبات الحادثات التي تجري
على الشيع والقيصوم والنبوت والزهر
وأكرمها جهدي وإن مسني فقري
من الوحش والبربر والظبي والصقر
مع البقر الوحش المقيمات في البر
لها ناصراً في موقف الخير والشر
وجاهدت في جيش الملائين بالسمير
لعلي أنال الفوز في موقف العشر
وقاتل عباد الصليب ببني الكفر
وجندلته بالطعن في الكر والفر
ألا يا أخي مالي على البين من صبر
بحسن رجوع قادم منك بالبشر
فإما رجوع أو هلاك مدى الدهر
وقولاً غريب مات في قبضة الكفر
على نصرة الإسلام والطاهر الطهر
رسالة صب لا يفيق من السكر
إلى عسكر الإسلام والصادفة الغر
بعيد عن الأوطان في بلد وعر
غريب كثيّب وهو في ذلة الأسر
بأن دموعي كالسحاب وكالقطر
قتلت بعد المرهفات من البتر
وقولي ضرار قد يحن إلى الوكر

ألا أيها الشخصان بالله بلغا
تلقيتما ما عشتما ألف نعمة
ولا ضاع عند الله ما تصنعانه
بصنعكمالي نلت خيراً وراحة
وما بي وايم الله نموتي وإنما
ضعيفة حال ما لها من جلادة
تعودها حب القفار مقيمة
وكنت لها ركناً تعد رحاله
وأطعمنها من صيد كفي أرانبا
من الضب والغزلان والبهت بعده
وأحمي حمامها أن تضام ولم أزل
 وإنني أردت الله لا شيء غيره
وأرضيت خير الخلق أعني محمداً
 فمن خاف يوم الحشر أرضى إلهه
كذا جلت يوم الحرب في كل كافر
تقول وقد حان الفراق لحيته
ألا يا أخي هذا الفراق فمن لنا
إذا سافر الإنسان عن أرض أهله
ألا بلغها عن أخيها تحية
جريح طريح بالسيوف مشرح
ألا يا حمامات الأراك تحملني
حمامائم نجد بلغني قول شائق
وقولي ضرار في القيود مكبل
حمامائم نجد اسمعي قول مفرد
وإن سألت عن الأحبة خبري
حمامائم نجد خبرى الأخت أنتي
حمامائم نجد عددي عند موطنى

له علة بين الجوانح والصدر
وواحدة عند الحساب بلا نكر
على فقد أوطن وكسر بلا جبر
فوفاه أبناء اللثام على غدر
ألا واكتبا هذا الغريب على قبرى
ألا خبراً أمي ودلا على أمري
لقلب غريب لا يرام من الفكر

وقولي لهم إني أسير مقيد
له من عداد العمر عشر وسبعة
وفي خده خال محته مدامع
مضى سائراً يبغى الجهاد تطوعاً
ألا فادفناني بارك الله فيكما
ألا يا حمامات الحطيم وزمز
عسى تسمح الأيام منا بزيارة

قال الواقدي: لما كتب ابن يوقنا هذه الأبيات كتب أبوه يوقنا إلى أبي عبيدة يعلمه بما يريد أن يدبره وسلمه إلى رجل يثق به وبعثه إلى المسلمين.

قال المؤلف: حدثني جابر بن عمران الدوسى ونحن في أرض يقال لها البلاط إذ جاء معن بن أوس من آل مخزوم، ولقد تركه أبو عبيدة في المقدمة فجاء برجل من الروم فقال لأبي عبيدة: خذ هذا إليك فهو يزعم أنه رسول فاستخبره أبو عبيدة في السر. فقال: أنا رسول إليك بكتاب. فقال: من؟ قال: من يوقنا ومن أسير لكم بأنطاكيه يقال له ضرار بن الأزرور فأخذ أبو عبيدة الكتاب وقرأه على من يعز عليه فبكوا من أبيات ضرار وبلغ الخبر أخته فأتت إلى أبي عبيدة وقالت: يا أمين الأمة اسمعني أبيات أخي فقرأ البعض عليها ولم يتمها فاسترجعت وقالت: إنما الله وإنما إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فوالله لآخذن بشأره إن شاء الله تعالى وحفظ الناس أبيات ضرار وتداولوها بينهم فكان أشد الناس عليه حزنًا خالد بن الوليد.

قال الواقدي: حدثنا عبد الملك بن محمد عن أبيه حسان بن كعب عن عبد الواحد بن عون عن موسى بن عمران البشكري عن عامر بن يحيى عن أسد بن مسلم عن دارم بن عياش أن أهل حازم فتحوا قلاعاً كثيرة وحصونا منها الراؤنرات وما سواها من قورص وباسوطاً، ولم يزل أبو عبيدة سائراً بال المسلمين إلى أن نزل على جسر الحديد وبلغ الخبر هرقل فتمكن الخوف من قلبه وأمر بطارقته بالتأهب للقتال ونصب سرادقاته مما يلي جسر الحديد وضررت الملوك خيامها وفتح الملك هرقل خزائن السلاح وفرقها على رجاله وأبطاله وخلع على يوقنا وقال له: أيها الدمستق قد وليتك على جيشي هذا كله فكن أنت مدبره وسلم إليه صليباً كان في بيعة القيasan لا يخرجونه إلا في الأيام العظام عندهم وقال له: أيها الدمستق قدم هذا الصليب بين يديك واعتمد على نصرته فهو ينصرك فأخذنه وسلمه إلى ولده وأمره أن يحمله بين يديه فعندها ركب الملك هرقل إلى كنيسة القيasan ومعه الملوك والحجاج حتى يصلى صلاة النصر، فلما وصلوا

وصلى الملك جلس وأمر بإحضار الماتتين من أصحاب رسول الله ﷺ ليقربهم قرباً فقبل يوقنا يده وقال له: يا عظيم الروم ما ولاك الله على البلاد والعباد إلا وقد علم أن عقلك يسع ذلك وقد قال ديسقور الحكمي: إن العقل مرقى جليل وصاحبها نبيل، لأنه عزّ الإنسان ومصباح الأنام، واعلم أيها الملك أن العرب قد قصدتنا بعدها وعديدتها وقد نزلوا على جسر الحديد ولا بد لنا من القتال والمصالف معهم ولا ندرى على من تكون الدائرة، فإن قتلت هؤلاء الأسرى ووقع أحد من بأيديهم فإنهم لا يبقون عليه، والصواب ترکهم إلى أن نرى ما يقول من أمرنا، فإن أسرروا من أصحابنا أحداً أو من أعياننا نفاديه، فقال أرباب الدولة: صدق الدمستق في قوله قال البرك أيها الملك أحضرهم إلى هذه الكنيسة فإنها أحسن كنائس بلدنا وأمر النساء والبنات يتزين ويحضرن هنا فإذا هم نظروا إلى نسائنا وحسنهن وجمالهن وطيب رائحتهن مالت أنفسهم إليهن فيرجعون إلى ديننا فيكون ذلك وهن على المسلمين.

قال: فأمر بذلك، فلما حضروا رفعت القوسos أصواتهم بقراءة الإنجيل فرفع المسلمون أصواتهم بالتهليل والتكبير وقالوا: كذب الجاحدون وضلوا ضلالاً بعيداً ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله، وكان في الأسرى رجل من اليمن من فضلاتهم وعلمائهم من علم علم الحميريين وقرأ الكتب السالفة وكان اسمه رفاعة بن زهير يقول الشعر وينظم الكلام وأنه لما نظر الكنيسة ملائكة بأهل الكفر ورآهم يعظمون الصليبان ويسجدون للصور قال: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله كذب العادلون عن الله أصحاب الشيطان ولا إله إلا الله الواحد الرَّحْمَنُ الذي ليس له أب محسوب، وأنه فرد صمد لا إلى شيء منسوب، ليس له ضد ولا ند ولا حد أوجد الموجودات، وصور المخلوقات، وخلق الكائنات، ودب الأرض والسموات، أول لا افتتاح لوجوده، وأخر لا عدم لشهوده لا يموت ولا يفني، ولا يزول ولا يبلى، لا شريك له ولا وزير له ولا صاحب له، ولا مشير له، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. قال فاضطربت الكنيسة لقوله ومالت القوسos بعكاكيزها إليه فأشارت الحجاب إليهم أن لا يكلموه ويتركوه فتفرقوا عنه. فقال له الملك هرقل: ما اسمك يا أخا العرب؟ قال: أيها الملك وما تريد من اسمي ولست من جنسكم فستخبروني؟ فقال البرك: صدق أيها الملك ليس هو من جنسنا ولا له علم ولا خبرة فعلام تسأله إنما هو بدوي يعلم بسكنى القفار وصحبة الأشرار والحكمة من بلادنا ظهرت، وفي حكمائنا اشتهرت، لأنها نبعث من اليونانيين ووعاها جدودنا السريانيون من أين للعرب حكمة يتوارثونها وعلوم يتدارسونها والفضائل كلها من علمائنا والعدل في ملوكنا الإسكندر وبطليموس وموريق ويوسطنيوس وأرموبيل وأنطامييس وأرجاس وجرس واسطوس واسطانييس وسارغورس النوصيدي، وهو الذي بني أنطاكية وسفليوس واريسا، وكان نبياً ملكاً ويلينوس وهو الذي بني الراها ومنبع واسطبس وكان

كاهنًا وهو الذي أخبر ملك زمانه أنه قد ولد مولود يخاطب الرب ويكون له شأن ونبأ عظيم يهلك على يديه أفلاطون وهو فرعون، ومنا فسطين الحكم ومنا فجر العلوم، ومنا متّهو وهو الذي بنى رومية الكبرى وباسمها، ومنسطاليوس وهو الذي وضع الكتاب الأول الذي فيه حوزة الأرض بجبالها وبحارها وبنائتها وصوانها ووصف أمّة كل إقليم بألوانها وخصائصها ووصف ما في كل إقليم من معدن ذهب أو فضة أو جوهر وأحصى عيون الأرض جميعها بأسمائها وجبالها وأوديتها وشعابها وغدرانها وعجائبها، ومنا ايردروس القلنوب الرومي وهو الذي يقول: لا حشرني الله مع الذين يقال لهم في الميعاد أدبروا مع إيليس وجنوده إلى النار، ألم تظهر نفسك أيها المسكين الناظر في كتابي القاري الآبي من أدناس الدنيا وشهواتها المظلمة للنفس المغورة للحس الروحاني التوراني أن ترقى إلى عالم عليين فانظر في الحكمة فإنها سلم العالم الروحاني فمن عدمها فقد عدم القرب إلى بارئه ومصوروه ومنشئه.

قال الواقدي: إنما تكلم البرك بهذا الكلام بين يدي هرقل وهو يظن أنه يطعن في العرب ليسمع جبلة بن الأيم حكمته، وكان جبلة ولده حاضرين وكان بين البرك وبينه عداوة سببها أن البرك كان بنى له ديرًا عظيماً وجعل له عيداً في السنة تقصده الروم من كل مكان بالذور والأموال والستور والشموع، وكان ذلك كله برسم البرك قال فأعطي الملك لجبلة تلك الأرض التي فيها الدير فتغلب جبلة على الدير وبنى حوله مدينة وسماها باسمه وهي جبلة هذه.

حدثنا سليمان بن عامر عن منصور الجوني. قال حجاج بن جريح أخبرني يحيى بن عمارة بن أبي الحسن. قال: لما سمع رفاعة بن مهير كلام البرك تبسم من قوله وقال: أيها البرك لقد مدحت أقواماً ليس لهم إلى الفضل سبيل، ولا فيهم فاضل ولا نبيل، ولا من وحد الملك الجليل، الذي ليس له مثيل ولا عديل، وما الفضل إلا لولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل، الذي لهم البيت العرام وزمز والمقام والمشعر الحرام، ومنهم التبابة والأقيال والحمامة والأشبال الذين ملكوا الأرض في الطول والعرض، ومنهم الملك الصعب الإسكندر الذي ملك قرنى الأرض ودخل الظلمات ودخل في طاعته أهل الأرض، وبلغ مطلع الشمس وغربها وأذل ملوكها وجعل له منهم جنداً وأعواناً وسماه الله ذا القرنين، ومنهم سباً بن يعرب بن قحطان وشداد بن عاد وشديد بن عاد وعمرو ذو الأذقان وهو ابن سكست ولهدهد بن عاد ولقمان بن عاد وشعبان بن أكسير بن جلهمة بن سياسة بن عجلان بن ياقد بن رخ وثمود بن كنعان، ومنا سباً بن يشجب، وهو أول متوج منا ثم ولـي بعده حمير ثم منا تبع وهو متوج ومنا وائل بن حمير متوج ومنا عاد بن حمير متوج ومنا نبي الله حنظلة بن صفوان من أهل

الرس، ومنا نفيل بن عبد المدان بن خشدم بن عبد ياليل بن جرهم بن قحطان بن هود عليه السلام عاش خمسماة سنة، وهو الذي بنى المصانع واستخرج الكنوز وقاد الجيوش وورثه الله علم نبيه حنظلة بن صفوان، وقد ختم الله شرفنا ورفع قدرنا إذ جعل محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منا فتحن السادة وأنت العبيد.

حدثنا سفيان عن عبد ربه. قال: أخبرها رحيم، قال: حدثنا الوليد بن زيادة عن حزام بن حكيم قال: بلغني أن هذا الرجل يعني رفاعة بن زهير بن زياد بن عبيد بن سرية الجرهمي، كان عالماً بأنساب العرب وأخبارهم وملوکهم وكان طالع كتب هود وصالح وحنظلة عليهم السلام، فلما تكلم بحضورة الملك هرقل بهذا الكلام أراد البرك أن يعجزه بسؤال يلقيه عليه، فقال: يا ذا الهمم العلية والقرائح الذكية بم تصل القلوب إلى نسيم العقل الروحاني وترقى إلى ملكوت الالاهوت والطيور الخفية الغائبة عن الأبصار بالأقطار وترقى في رياضات الألباب المصفاة من الأدنس والآفكار النورانية بصفو أكدار الأخلاق المحيطة بالأفكار من الهياكل الجسمانية؟ فعند الصفو من مفارقة الكدر تعيش الأرواح عيشة الأبد الذي لا يصل إليه انحلال ولا اضمحلال، فحينئذ يختلط العنصر بالعنصر، ويطفو الصفو بالصفو، ويرسب الكدر إلى الكدر؟ فقال رفاعة بن زهير: ما أصبت أيها البرك في مقالتك، فقال: ولم؟ قال رفاعة: كيف تدل القلوب إلى عالم الغيوب، وقد حجب عنها صواب المصيب، أم كيف يتخلص الصفو من الكدر بغير تهذيب من الكفر وكيف تحلى الأفكار من غواص الأسرار وهي في حجب الاغترار إذا تناهت الأهوال إلى مفازاتها وقربت الهمم من مواضعها وعادت الفكر إلى عناصرها وعادت متحرکات الفكر إلى مساكنها وغاليات الأذهان إلى أماكنها فانحازت الأشكال عن الأشكال بلطف تأثير الهوى فيها وانكبت مشرفة عن هياكلها من أقطار عناصرها. قال: أيها البرك هذا كلام العرب الذي زعمت أن الحكمة ليست من أخلاقهم ولا تبع في أسواقهم ولقد كان ملك من ملوك اليمن اسمه سيف بن ذي يزن الذي بشّر بنينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتكلم بغوامض العلوم الحكيمية ووشح بوشاح شكر النعمة، ومن جملة ما قال فصيبح من فصحائنا اسمه قس بن ساعدة هذه الآيات:

أياد من الحسنى فعوفوا من الجهل
ولا عرفوا إلا التقبة في الفعل
عرفناه والتوحيد يعرف بالعقل
معاينة الأشخاص بالجوهر المجلب
وما نحن بالتصوير في عالم الشكل

ألا إننا من عشر سبقت لهم
ولم ينظروا يوماً إلى ذات محرم
وفينا من التوحيد والفعل شاهد
نعاين ما فوق السماء جميعها
ونعلم ما كنا ومن أين بدؤنا

وإنا وإن كنا على مركز الشري

وَمَا صَعَدْتُ كَيْ تُسْتَرِيحَ وَإِنْمَا

قال الواقدي : قال أبو سعيد : حَدَّثَنَا شِيبَةُ بْنُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَيْسَى عَنْ لَقِيَةِ بْنِ هَنْدِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَبِيعَةَ ، قَالَ : قَلْتُ لِرَفَاعَةَ بْنَ زَهِيرٍ لَمَا خَلَصَ مِنْ قِبْضَةِ الرُّومِ يَا عَمَ كَيْفَ كَانَ الْبَتْرَكُ يَفْهَمُ مَا تَقُولُ وَتَفْهَمُ مَا يَقُولُ ، فَقَالَ : يَا بْنِي مَا رَأَيْتَ أَفْصَحَ مِنَ الْلَّعِينِ بِلِسَانِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَلَقَدْ سَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ يَوْقَنَا فَقَالَ : أَمَا عَلِمْتُ أَنَّ مُلُوكَ الرُّومِ وَالْبَطَارِقَةِ لَا يَسْتَقِيمُ مُلْكُهُمْ إِلَّا أَنْ يَتَعَلَّمُوا لِسَانَ الْعَرَبِيَّةِ . قَالَ : وَلَمَا حَدَّثَ رَفَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ بِمَنَاظِرِ الْبَتْرَكِ كَتَبَهَا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ .

قال الواقدي : وكان لرفاعة بن زهير الجرهمي ولد جاهل . قال وكان أسر معه . قال وكان قلبه يميل إلى الكفر وكان رفاعة يدعو عليه ، فلما حضر الأسaris في كنيسة القيسان واشتغل رفاعة مع البترك بالمناظرة أقبل ولد عامر يحدق بنظره إلى البيعة وزيتها وصورها وصلبانها ويتأمل نساء الروم وزينتهن فبادر إلى تقبيل الصليب والإشراك بالرحمن ، فلما رأه أبوه رفاعة بكى ، وقال : يا وليك أكفرت بعد الإيمان ، يا وليك طردت عن باب الرحمن ، يا وليك كفرت بالملك الديان ، يا طريد القدرة يا من بعد عن الحضرة فيها ولدي ما بكائي على فرافقك ، وإنما إذا سلكت أنا في طريق وأنت في طريق إذا مضيت أنت إلى دار الأبالسة وحشرت مع الرهبان والشمامسة وتكون في طبقة النار السادسة ، وأنا أمضي مع محمد إلى دار فيها الأرواح مستأنسة يابني لا تطلب حياة الدنيا ، يابني لا تختر شهوتها على الآخرة واحجلني من فعالك إذا وقفت بين يد العزيز الجبار . يابني لقد فضحت شيبة أبيك إذ كفرت بعالم السر والنرجوى ، يابني لقد خاب أملـي فيك والرجاء . يابني كيف طاب قلبك أن تبتراً من محمد المصطفى . يابني ممن تطلب الشفاعة غداً . يابني غرتك الحياة فصرت تكفر بالعلمـ . يابني صرت إلى الشقاء من بعد كونك في النعيم . يابني أما تخشى العذاب في الجـيم . أما تستحي من أحـمد يوم القيـمة . أما تعلم أنـ أباك قدـ غدا منـ أجلـ كـفرـكـ فيـ هـمـومـ . أـينـ المـفرـ إـذـ دـعاـكـ اللهـ فيـ الـيـوـمـ الـعـظـيـمـ ، وـيـقـولـ يـاـ عـبـدـيـ كـفـرـتـ بـواـحـدـ فـرـدـ . ياـبنيـ أـنـتـ فيـ عـيـشـ ذـمـيـمـ . أماـ أبوـكـ فـإـنـهـ يـبـقـىـ بـعـزـ مـقـيمـ ، أـسـأـلـكـ يـاـ ولـدـيـ بماـ قـدـ كانـ فيـ الزـمـنـ الـقـدـيـمـ منـ حـنـوـيـ وـتـعـطـفـيـ حـالـ الرـضـاعـةـ وـالـقـطـامـ إـلاـ رـجـعـتـ إـلـىـ الـذـيـ غـطاـكـ بـالـسـتـرـ الـعـمـيـمـ . قالـ فـقـيلـ لـهـ : إنـ ولـدـكـ قدـ أـغـلـقـ الـبـابـ عـلـيـهـ وـأـرـخـيـ الـحـجـابـ ، فـأـمـرـ بـهـ الـبـترـكـ فـحلـ مـنـ الـثـوـثـاقـ ، وأـمـرـ بـهـ إـلـىـ جـرـنـ مـاءـ الـمـعـمـودـيـةـ فـعـمـسـوـهـ فـيـهـ ، وـدارـتـ بـهـ الـقـسـوسـ وـالـشـامـاسـةـ وـبـخـرـوـهـ وـوـقـعـتـ عـلـيـهـ الـخـلـعـ مـنـ الـبـطـارـقـةـ وـالـمـلـوـكـ ، وـوـهـبـ لـهـ الـبـترـكـ مـرـكـبـاـ وـجـارـيـةـ وـمـنـزـلـاـ وـضـمـهـ إـلـىـ عـسـكـرـ جـبـلـةـ بـنـ الـأـيـهـمـ . ثمـ قـالـ الـبـترـكـ : يـاـ هـؤـلـاءـ مـاـ مـنـعـكـمـ أـنـ تـدـخـلـوـاـ فـيـ دـيـنـنـاـ كـمـاـ فـعـلـ

صاحبكم. قالوا: منعنا من ذلك صحة ديننا وثبات يقيننا، وما نحن من الذين يبدلون إيمانهم بالكفر ولو قتلنا، فقال لهم البرك: طردكم المسيح عن بابه وأبعدكم عن جنابه.

فقال له رفاعة: الله يعلم أينا المطرود ومن هو عن رحمة ربِّ معبود، فقال هرقل: يا معاشر العرب قد وصل إلينا أن خليفتكم وأميركم يلبس مرقة وقد وصل إليه من أموالنا وذخائرنا ما يكفي عنه الوصف فما منعه أن يتربى ببزي الملوك؟ فقال رفاعة: يمنعه من ذلك طلب الآخرة والفوز من جبار الجبارية، فقال هرقل: ما صفة دار إمارته؟ قال: رفاعة: مبنية بالطين خالية من الحجاب آنسة بالفقراء والمساكين. قال: فما بساطه؟ قال: العدل والتمكين. قال: فما سريره. قال: العقل واليقين، قال: فما بدلة ملكه؟ قال: الزهد والدين. قال: فما خزانته؟ قال: الثقة برب العالمين. قال: فمن جنده؟ قال: أبطال الموحدين. أما علمت أيها الملك أن جماعته قالوا له: يا عمر قد ملكت كنوز القياصرة وذلت البطارقة والأكاسرة فهلا لبست ثياباً فاخرة. قال: أنتم تريدون زينة الحياة الظاهرة، وأنا أريد رب الدنيا والآخرة، فلما أبدى هذا القول وأضمر أشار إليه منادي القدرة وبشر **«الذين إن مكثاً في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر»** [الحج: ٤١]، قال: ثم إن الملك هرقل أمر بهم إلى السجن الذي هو في كنيسة القيasan وخرج إلى عسكره ليشرف على الخيام فرأى السرادقات قد ضربت لأن البطارقة ضربت سرادقاتها عند خيامه ونونيا الملوك قد نصبت بإزاء كل نونية كنيسة من الخشب المدهون بسائر الأصناف والنوافيس على أبوابها وكان زي الروم ذلك وهذه البيع والخشب كانوا يتنافسون فيها وفي صنعتها وتكون معهم في أسفارهم وعساكرهم وطاف هرقل على عسكره جميعه وأراد الدخول إلى أنطاكية وإذا بفوارس تركض إليه، فقالت لهم الحجاب وأصحاب السرير ما وراءكم؟ قالوا: ملك جسر الحديد منا وقد حصلت العرب منا على داخل الجسر. قال: فأيقن الملك بزوال ملكه، وقال: وكيف ملكت العرب الجسر والبرجين وفيها ثلاثة من البطارقة الشداد، قالوا: أيها الملك إن المقدم الذي على الأبراج هو الذي سلمهم.

قال الواقدي: ومن حسن لطف الله بال المسلمين أن صاحب الملك كان في كل يوم يمضي إلى الجسر ويوصي من في البرجين باليقظة والحرس الشديد وأنه مضى في بعض الأيام على عادته فوجدهم يشربون الخمر وليس عندهم حفظ ولا حرس فأخذهم وضرب كبراءهم وهو بقتل مقدمهم. ثم إنه أمسك عنه خوف الملك فعمل الحقد في قلوبهم فجاءهم يوقدوا في بعض الأيام يتجلسن ليذبر فيه حيلة فرآهم حنقين من صاحب الملك فسألهم فأنكروا منه، فقال لهم: أطلعوني على خبركم، فقالوا له: أتعطينا منك أماناً
فتح الشام / ج ١ / ١٩

فأعطاهم، فقالوا: نحن نسلم هذا الجسر للعرب. فلما صع عنده ذلك، قال لهم: ما مرادكم؟ قالوا: نأخذ أمانًا من المسلمين، فقال يوقدنا: أنا أكتب لكم كتاباً إلى أميرهم بأن يعطيكم أمانًا، وإن دخلتم في دينهم فهو خير لكم، فقالوا له: وكيف أنت دخلت في دينهم. ثم رجعت، فقال: حاش الله وإنما أتيت أدبرهم على تسليم أنطاكيه لهم، فلما صع عندهم ذلك. قالوا: ونحن نسلم إليهم الجسر، فلما وافقهم على ذلك كتموا أمرهم، فلما قدم المسلمون مضى إليهم صاحب الجسر من غير أن يعلم به أحد وأخذ له ولمن معه أمانًا وناوله كتاب يوقدنا ففرح المسلمون بذلك بأن يأخذوا جسر الحديد من غير قتال فأعطوا للمقدم أمانًا، فلما وصل عسكر المسلمين إلى الباب الذي على الجسر فتح لهم فدخلوا، فلما سمع هرق بذلك أمر الناس أن يتأنبوا للحرب. قال ففعلوا ذلك.

قال الواقدي: حدثنا ياسر بن عبد الرحمن عن منازل بن نزاف الصيدلاني وكان أعرف الناس بفتح الشام. قال: بلغني أنه لما صار المسلمين بأرض أنطاكيه. قال أبو عبيدة لخالد: يا أبا سليمان قد صرنا بأرض أنطاكيه بلد كلب الروم والساعة يأتيانا عسكره مما ترى من الرأي. قال خالد: إن الله قال: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة» [الأنفال: ٦٠] الآية فأمر أصحابك أن يتأنبوا ويظهروا زينة الإسلام وقوة الإيمان وسير كل أمير بجيشه ولتكن الكتاب والعواكب يتلو بعضها ببعضًا. قال: فعل أبو عبيدة ذلك، وأول من سير سعيد بن زيد أحد العشرة ومعه ثلاثة آلاف فارس فيهم المهاجرون والأنصار وجعله على مقدمة الجيش، وسير وراءه رافع بن عميرة الطائي ومعه ألف فارس، وسير وراءه ميسرة بن مسروق العبسي في ثلاثة آلاف فارس، وسار وراءه خالد في جيش الزحف، وسار وراءهم أبو عبيدة في بقية العسکر، وكان معه عمرو بن معد يكرب الزبيدي ذو الكلاع الحميري وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن عمر وأبان بن عثمان بن عفان والفضل بن العباس وأبو سفيان صخر بن حرب وراشد بن ضمرة وسعيد بن رافع وزيد بن عمرو ومثل هؤلاء السادات وسار وراءهم النساء اللاتي لهن الأسرى وفيهم خولة بنت الأذور وعفيرة ابنة عفان ومزروعة ابنة عملاق وأم أيان بنت عتبة وليس فيهم أشد حزنًا من خولة بنت الأذور.

قال الواقدي: وما بلغني أنها قالت في أسر أخيها من المراثي المبكيات:

| | |
|--------------------------|--------------------------|
| فكيف ينام مقرور الجفون | أبعد أخي يلذ الغمض عيني |
| أعز علي من عيني اليمين | سابكي ما حييت على شقيق |
| لهان علي إذ هو غير هون | فلو أني لحقت به قتيلا |
| وأعلق منه بالحبيل المتين | وكنت إلى السلو أرى طريقا |

فليس يموت موت المستكين
لباكيه بمنسجم هتون
اما ابكي وقد قطعوا وتيسي
وإنما عشر من مات هنا

قال: فسار أبو عبيدة في مواكبه كما ذكرنا، فبينما الروم في خيامها وعسكرها إذ
وقع فيهم الصائح بقدوم العرب، فركزوا خيولهم وصفوا صفوفهم، فأول من أشرف
عليهم برايته سعيد بن زيد وبعده المسيب بن نجية الفزاروي، وبعد ميسرة بن مسروق
العبيسي، وبعده أتى خالد بن الوليد، وبعدهم أبو عبيدة في مواكبه، فنزل كل أمير بقومه،
فلما نظر هرقل إليهم وأنهم قد نزلوا ببنائه وبنائه ترك على حفظ جيشه صاحبه الأكبر
نسطاروس بن روميل، وكان من شجعان الروم، ودخل إلى كنيسة القيasan وجمع الملوك
والبطارقة والسريرية والحجاج، وقام هرقل فيهم خطيباً. وقال: يا أهل دين النصرانية ويا
بني ماء المعمودية قد قرب ما حذرتكم منه من زوال ملككم وذهب عزكم من أرض
سورية، وقد كنت حذرتكم من زوال ملككم ومن هذا المقام فلم تقبلوا مني وأردتم
قتلي، وهؤلاء القوم قد دخلوا بدار ملككم ورياح عزكم فقاتلوا عن حريمكم وأموالكم
وأنفسكم، وإياكم والفشل لا يلحقكم في الجهاد فقد جاهدت عنكم جهدي وأتلفت
أموالي وخزانتي ورجالي عن ديني وملككم، فلم تصادفي مساعدة ولا أدركت من القوم
فائدة، فإن أنتم فشلتم وتقاومتم ولم تجردوا لهؤلاء العرب سيف العزم، وإنما كان العار
عليكم، والذلة تصل إليكم، أين أبناءكم ومن سلف من آبائكم؟ ماتوا كراماً غير لثام
وسكنت ديارهم العرب اللئام، وكنائسهم صبروها جوامع، وأخربوا البيع والصوماع،
وأذلوا ملوككم واستعبدوا أبناءكم ونساءكم وملكونا قلاعكم واستولوا على حصونكم
ومدائنكم، وقد مضى ما مضى فاستأنفوا الأمر وقاتلوا، فكم هلك من الأمم قبلكم على
مماليكم وعلى الغيرة على حريمهم، ولقد كانت حكمتي أنتجه لكم أن تسجوا على
منوال المصالحة بينكم وبين هؤلاء العرب فأبىتم ذلك، لأن ظلمة جهلكم قد أطفأت نور
الحكمة. أما علمتم أنه قد وجد لوح من الحجر على قبر طيماؤن تلميذ أفيانوس وفيه
مكتوب: الحكمة سلم العالم الأعلى، من عدمها فقد عدم القرب إلى بارئه، الحكمة
حياة القلوب، وبغية الأذهان، ونزهة النفوس، ونور العقول، من لم يكن حكيمًا لم يزل
سقيناً، من تدبّر نظر، ومن نظر عرف، ومن عمل افتح ذهنه وعقله،
ومن افتح عقله صفت نفسه، فقام إليه جبلة بن الأبيهم، وقال: يا عظيم الروم إنما قتال
هؤلاء العرب بقتل خليفتهم عمر بالمدينة، فلو أنت أرسلت إليه رجلاً من آل غسان يقتله
فيكون سبب فشلهم وانتزاع الشام من أيديهم فقال هرقل: هذا شيء لا يصلح أمله ولا
ينقضي أجله، لأن الآجال مقدرة، والأنفاس مقررة، ولكن هو شيء تطيب النفس عند

سماعه فافعل ما أردت. قال: فأرسل جبلة من قومه رجلاً يقال له واثق بن مسافر الغساني، وكان جريأاً مقداماً في الحروب فقال له انطلق إلى يثرب فلعلك تقتل عمر، فإن كنت فعلت ذلك فأنا أعطيك ما أردته من الأموال. قال: فانطلق واثق بن مسافر حتى دخل المدينة ليلاً، فلما كان الغد صلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالناس صلاة الصبح ودعا وخرج إلى ظاهر المدينة يتنسم أخبار المجاهدين بالشام. قال فسبقه المتنصر وجلس له بأعلى شجرة من حديقة ابن الدحداح الأننصاري واستتر بأغصانها، ثم إن عمر قام عن ظاهر المدينة حين حميّت الرمضاء وعاد وهو وحده فقرب من الحديقة ودخلها ونام في ظلها، فلما نام هم المتنصر بالتزول من الشجرة وجرد خنجره وإذا هو بأسد أقبل وهو بقدر البقرة الكبيرة وطاف حول عمر وجلس عند قدميه يلحسهما وأقام حتى استيقظ، فعندها نزل المتنصر وقبل يد عمر، وقال له: يا عمر قد عدلت فأمنت... بأبي والله من الكائنات تحفظه والسباع تحرسه والملائكة تصفه والجن تعرفه، ثم حدثه بأمره وأسلم على يديه.

قال الواقدي: وكانت هذه الفعلة قبل نزول المسلمين على أنطاكية.

حدثنا أبو محمد قال: أخبرني أبي عن حسان عن السدي عن يحيى الواقدي عن شهر بن عباس البيرولي أن عمر حدثه عن نزول أبي عبيدة بالمسلمين على أنطاكية. قال: وعظ هرقل قومه بكنيسة القيasan واستحلفهم أنهم لا ينهزمون أو يموتون عن دم واحد فحلفوا وخرجوا مع الملك إلى عسکره، وقد رفعت الصلبان وقرأت القوسos والرهبان وارتفع الضجيج من أهل الكفر والطغيان واصطفوا للقتال، وكان المسلمون قد رتبوا صفوفهم وأوقفوا كل أمير في مكانه ونشرت الرایات والأعلام وأشار أبو عبيدة إلى ربيعة بن معمر الشاعر، وكان لستاً فصيحاً لا يتكلّم إلا بالكلام المنظوم. فقال له: يا ربيعة فوق سهام لفظك ووعظك إلى المجاهدين وحرض المسلمين على قتال المشركين قال فتقدّم ربيعة أمام الصفوف وكان جهوري الصوت يسمعه القريب والبعيد. فقال: أيها الناس إلى متى هذه المهلة فتأهّبوا للحملة، وهذه طيور الأرواح قد عولت على فراق أफاق الأشباح وقد ارتاحت إلى باريها وأجابت صوت مناديها وها هي تخاطبنا بلسان إشارتها عن نطق عبارتها ما هذا الوقوف على بذل أنفسكم وقد اشتراها مؤيدكم؟ أفركتم إلى حب الحياة الفانية والأنفس الدانية، وهذه أوقاتكم بالنصر مؤيدة وهمتكم عن طلب زينة الدنيا متحيدة والمواعظ الصادقة بكلام الحق مقيدة: بينما تكونوا يدركون الموت ولو كنتم في بروج مشيدة، وهذه طوالع سعودنا بالإقبال طالعة وشجرة آمالنا بالتأييد يانعة، فللله درّهم فلقد ظهرت زهرة نجوم المحبة في أفلالك راياتهم وتبلغ فجر العشق في سماء سماتهم وأشارت شموس المعرفة في مشارق عشقهم، فلما همّوا بالحملة بأجمعهم

واصطفوا وقدموا همم النفوس في رضا الملك القدس واستبقوا وزاحموا بعضهم بعضاً ولم يرافقوا نودوا من صفاء أسرارهم **«من المؤمنين رجال صدقوا»** [الأحزاب: ٢٣].

قال الواقدي رحمه الله: حدثني زيد بن إسماعيل الصائغ عن جعفر بن عون عن عياش بن أبيان عن جابر بن أوس. قال: كنت حاضراً في مصاف أبي عبيدة على أنطاكية حين وعظنا بسجعه ربيعة بن معمر، فكان أول من خرج من الروم للبراز شجاع الروم نسطاروس بن روبيل وهو كأنه برج من حديد، فلما توسط الميدان طلب البراز فخرج إليه دامس أبو الهول مولىبني طريف فاتح قلعة حلب، وهو يومئذ فارس غطريف فحملأ على بعضهما، فلما اشتغلت نار الحرب بينهما عشر جواد دامس فسقط على ظهره فانقض عليه نسطاروس وأخذه أسيراً وقاده ذليلاً ورجع إلى الميدان، فخرج عليه الضحاك بن حسان الطائي، وكان يشبه خالدًا في حملاته وخفته، فلما بُرِزَ قال قائل من الروم ممن شاهد قتال خالد في المواطن وعرفه هذا فارس الشام والمسلمين الذي فتح بلادنا فصار كل من في أنطاكية ينظر إليه وهم يظنون أنه خالد فزاد حمّت خيل المشركين من كثرة النظر إليه فقطعت حبال السرادقات التي لنسطاروس وغيرها سيره فخاف الغلمان على أنفسهم وسرادقاته على ذلك وإذا رأها على تلك الحالة قتلهم ولم يجدوا أحداً يعينهم على رفع السرادق لأن كل من في العسكر مشغول بالفرجة على نسطاروس مع خصميه فاتفق اثنان من الفراشين وكانوا ثلاثة على حل دامس أبي الهول، وقالوا له: نحن نحلك من وثاقك وتعيننا على شيل عمود هذا السرادق ونعيديك إلى الوثاق. فإذا جاء الطريق نشعف فيك فإنه يخلّي سبilk. فقال: نعم فحلوه من وثاقه، فعندما قبض على الاثنين كل واحد بيد وضرب واحد بوحد فصرعهما فماتا فهجم على الثالث فقتله وفتح صندوقاً من الصناديق فوجد فيه ثياب نسطاروس فلبسها وركب من الطوالة جواداً من خيارها وأخذ بيده قنطرية وسيفه ولثم وجهه وقصد عسكر المتنصرة ووقف إلى جانب حازم بن عبد يغوث وهو ابن عم جبلة، وكان قدمه على عسكر المتنصرة وجبلة وولده وبنو عمه في موكب الملك.

قال الواقدي: ولم ينزل القتال بين نسطاروس والضحاك بن حسان إلى أن كل الجوادان ولم يقدر أحد منهما على صاحبه فافتلقا وعاد نسطاروس إلى سرادقاته ليستريح فوجد السرادق على الأرض والفراشين قتلى ولم ير داماً فعلم أن المصيبة من قبله فمضى إلى الملك وأعلمه بذلك، فقال: وحق المسيح ما هؤلاء العرب إلا شياطين. قال: وهرج العسكر بصنع أبي الهول، فقال الملك: هو الآن في عسكرنا وما رأينا خرج وما هو إلا مختلف في عسكر المتنصرة لأنه من جنسهم، فلما رأى دامس هرج عسكر الروم، وأن ذلك بسببه انتقضى سيفه على حين غفلة وضرب به حازم بن عبد يغوث فرمى

رأسه عن بدنـه فبـهـتـتـ المـتـنـصـرـةـ منـ فعلـهـ وأمسـكـ اللهـ عنـهـ أـيـديـهـ وـدـهـشـواـ لـذـلـكـ وأـطـلقـ جـوـادـهـ وـطـلـبـ عـسـكـرـ الـمـسـلـمـينـ،ـ فـلـمـ رـأـوـهـ صـاحـواـ بـالـتـهـلـيلـ وـالـتـكـبـيرـ فـأـتـىـ إـلـىـ أـبـيـ عـبـيـدةـ وـأـخـبـرـهـ بـمـاـ وـقـعـ لـهـ مـعـ الـقـومـ.ـ فـقـالـ:ـ لـاـ شـلتـ يـدـاكـ.ـ قـالـ:ـ وـبـلـغـ الـخـبـرـ جـبـلـةـ مـنـ قـتـلـ اـبـنـ عـمـهـ حـازـمـ فـغـضـبـ وـأـتـىـ إـلـىـ هـرـقـلـ وـصـقـعـ لـهـ،ـ وـقـالـ:ـ يـاـ عـظـيمـ الـرـوـمـ أـنـاـ لـاـ أـفـدـرـ عـلـىـ الصـبـرـ وـلـاـ بـدـ لـنـاـ مـنـ الـحـمـلـةـ عـلـىـ هـؤـلـاءـ الـذـينـ قـدـ تـعـدـواـ طـورـهـمـ وـجـهـلـوـاـ قـدـرـهـمـ،ـ فـأـرـادـ الـمـلـكـ أـنـ يـأـمـرـهـ بـالـحـمـلـةـ،ـ إـذـاـ قـدـ أـقـبـلـتـ عـلـيـهـ خـيـلـ تـرـكـضـ،ـ فـقـالـ لـهـمـ:ـ مـاـ وـرـاءـكـ؟ـ قـالـواـ:ـ أـيـهـاـ الـمـلـكـ إـنـهـ قـدـ قـدـمـ إـلـىـ نـصـرـتـكـ فـلـنـطـانـوـسـ بـنـ سـطـانـيـوـسـ بـنـ أـرـمـونـيـاـ صـاحـبـ الـمـدـائـنـ وـرـوـمـيـةـ الـكـبـرـىـ وـبـاسـمـ جـدـهـ سـمـيـتـ،ـ وـكـانـ قـدـ وـضـعـ فـيـهـ هـيـكـلـاـ عـظـيـمـاـ يـسـمـيـ أـبـا سـرـفـيـاـ وـكـانـ بـهـ صـورـةـ مـطـلـيـةـ بـالـذـهـبـ الـأـحـمـرـ وـلـذـلـكـ الـهـيـكـلـ سـبـعـةـ أـبـوـابـ مـنـ الذـهـبـ عـلـىـ كـلـ بـابـ هـيـكـلـ مـدـورـ عـلـىـ رـأـسـ شـخـصـ آـدـمـيـ وـبـيـدـهـ عـدـةـ لـوـحـ مـخـتـصـاـ وـفـيـ كـلـ عـامـ يـعـلـقـ مـنـهـ لـوـحـ عـلـىـ الـهـيـكـلـ تـلـقـاءـ الشـمـسـ ثـمـ يـنـظـرـ كـاهـنـ ذـلـكـ الـهـيـكـلـ فـيـ ذـلـكـ الـلـوـحـ فـيـعـلـمـ مـاـ يـجـريـ فـيـ الإـقـلـيمـ الـمـخـتـصـ بـذـلـكـ الـلـوـحـ،ـ وـكـانـ كـلـ لـوـحـ مـخـتـصـاـ يـاـقـلـيمـ مـنـ الـأـقـالـيمـ السـبـعـةـ وـكـذـلـكـ لـكـلـ هـيـكـلـ مـنـ تـلـكـ السـبـعـةـ هـيـاـكـلـ،ـ فـيـعـلـمـ أـهـلـ رـوـمـيـةـ الـكـبـرـىـ مـاـ يـجـريـ فـيـ الـعـالـمـ بـمـاـ وـضـعـ حـكـمـأـهـمـ الـأـقـدـمـوـنـ وـفـيـ وـسـطـ تـلـكـ السـبـعـةـ هـيـاـكـلـ قـبـةـ مـثـمـنـةـ عـلـىـ ثـمـانـيـةـ عـمـدـ مـنـ نـحـاسـ أـصـفـرـ مـطـلـيـةـ بـالـذـهـبـ مـحـوـطـ بـهـ سـوـرـ مـرـقـطـ بـبـيـاضـ وـفـيـ بـابـهـ الـأـعـظـمـ وـعـلـىـ رـأـسـهـ صـورـةـ مـنـ حـجـرـ لـاـ يـعـلـمـ مـاـ هـوـ؟ـ بـلـ الـحـجـرـ أـسـوـدـ.ـ إـذـاـ كـانـ اـسـتـوـاءـ الـزـيـتونـوـنـ فـيـ مـشـارـقـ الـأـرـضـ وـمـغـارـيـهـاـ يـسـمـعـونـ مـنـ تـلـكـ الصـورـ صـوتـاـ هـائـلـاـ تـكـادـ الـقـلـوبـ تـفـنـطـرـ مـنـهـ،ـ فـإـذـاـ كـانـ الـغـدـ تـأـتـيـ مـنـ آـفـاقـ الـأـرـضـ زـرـازـيرـهـاـ وـكـلـ زـرـزـورـ حـامـلـ ثـلـاثـ زـيـتونـاتـ وـاحـدـةـ فـيـ مـنـقـارـهـ وـاثـنـتـانـ فـيـ رـجـلـيهـ فـيـلـقـونـهـاـ عـلـىـ رـأـسـ تـلـكـ الصـورـ فـلـاـ تـزالـ كـذـلـكـ حـتـىـ يـمـتـلـئـ ذـلـكـ الـمـكـانـ الـعـظـيمـ.ـ قـالـ:ـ فـيـعـصـرـونـ مـنـهـ زـيـتـهـمـ وـمـاـ يـأـكـلـونـ مـنـ الـعـامـ إـلـىـ الـعـامـ وـكـانـ فـيـ دـاخـلـ الـهـيـكـلـ الـأـعـظـمـ بـيـتـ مـقـفلـ لـمـ يـفـتـحـ مـنـذـ بـنـيـتـ رـوـمـيـةـ وـلـمـ أـرـادـ فـلـنـطـانـوـسـ الـمـلـكـ النـهـوـنـ إـلـىـ نـصـرـةـ هـرـقـلـ اـحـتـاجـ إـلـىـ مـالـ يـصـرـفـهـ عـلـىـ عـسـكـرـهـ فـأـتـىـ إـلـىـ ذـلـكـ الـبـيـتـ الـمـقـفلـ وـهـمـ بـفـتـحـهـ،ـ فـقـالـ لـهـ عـظـمـأـهـ وـعـطـمـاـوـسـ،ـ وـهـوـ الـقـيـمـ عـلـىـ أـمـرـ الـهـيـاـكـلـ كـلـهـاـ:ـ أـيـهـاـ الـمـلـكـ إـنـ هـذـاـ الـبـيـتـ مـنـذـ أـقـفـلـ تـارـيـخـهـ سـبـعـمـائـةـ سـنـةـ وـذـلـكـ مـنـ قـبـلـ ظـهـورـ الـمـسـيـحـ بـمـائـةـ سـنـةـ وـسـبـعـينـ،ـ وـمـاـ أـحـدـ مـنـ أـجـدـادـكـ تـعـرـضـ إـلـيـهـ وـلـاـ أـحـدـ مـنـ وـلـيـ أـمـرـ هـذـهـ الـكـنـيـسـةـ إـلـاـ وـيـوـصـيـ عـلـىـ هـذـاـ الـبـيـتـ أـنـ لـاـ يـفـتـحـ فـلـاـ تـزلـ حـكـمـةـ أـسـسـهـاـ مـنـ كـانـ قـبـلـكـ مـنـ الـحـكـمـاءـ وـالـمـلـوـكـ،ـ وـقـدـ بـنـىـ هـذـهـ الـمـدـيـنـةـ وـأـسـسـ هـذـاـ الـهـيـكـلـ وـهـذـاـ الـبـيـتـ،ـ وـهـوـ بـيـتـ جـدـكـ رـسـيـوـيـ بـنـ قـطاـوـسـ وـبـقـيـ فـيـ مـلـكـهـ عـلـىـ مـاـ بـلـغـنـاـ ثـلـثـمـائـةـ وـسـبـعـينـ سـنـةـ وـوـصـيـةـ أـبـيـهـ وـتـولـىـ عـلـىـ أـحـدـ أـجـدـادـكـ حتـىـ وـصـلـ إـلـيـكـ هـذـاـ الـمـلـكـ وـلـكـ فـيـهـ مـائـةـ سـنـةـ فـلـاـ تـزلـ حـكـمـةـ أـجـدـادـكـ الـذـينـ أـسـسـوـهـاـ وـطـلـاسـمـ وـضـعـوـهـاـ.ـ قـالـ:ـ فـأـخـذـهـ الـلـجـاجـ فـيـ فـتـحـهـ،ـ فـلـمـاـ فـتـحـهـ لـمـ يـجـدـ فـيـهـ شـيـئـاـ إـلـاـ أـنـ رـأـيـ فـيـ الـبـيـتـ صـورـةـ الـقـدـسـ وـمـدـنـ الشـامـ وـصـفـةـ مـلـوـكـهـمـ وـعـدـدهـمـ

وفي آخرهم صورة ليطن وهو هرقل كأنه ينظر في اللوح مكتوب باليونانية: يا طالب العلم عليك بكثرة القراءة فإنه كلما تكرر مرور النكت على مسامع من يتعلّمها كان ذلك أشد لشبوته وأحکم لتصريفه، إذ العلوم كلها إنما تستخرج بالعقل والقياس، وإنما يكون بكثرة الرياضة، والعلم مطية التدبير، والتدبیر موضع العلم، والعلم موضع العقل، هذا هو المتمم لأنّكال العلوم، وقد رأينا في الحكم والأسرار الخفية أن صاحب الغمامه إذا خيمت على صفحة الأرض وحلت الضلاله خرج مصباح الهدایة من أرض تهامة فيذهب بظلام الجهل المظلم للحس ويدعو الناس بدينه إلى توحيد الصانع وهو صاحب الجمل الأورق فيذهب بالأديان والملك، يضيق لدعوته السهل والجبل، فإذا غلب نوره على كلّ كثيف انتقل إلى العلم الروحاني وولى بعده رجل نحيف الصورة قلبه منور بنور الصدق يشيد ملته ويصدق شريعته وويل للشام مما يحل بها من الرجل الأحور الذاهب بملك قيسار وهو الرجل الكثيف صولته الربعة صورته العدل صفتة والحق منقبته جبته مرقة وسيفة درته، في أيامه تذهب الدول وتحتحول وتضمحل وتزول، وأوانه إذا فتح هذا البيت المصور بالحكمة المحفوظ بحفظ النعمة فطوبى لمن رسخت الحكمة في قلبه، وأشارت مصابيحها في له واتبع الحق وعرفه، وجانب الباطل وخالقه. قال فلما قرأ فلسطانوس ما في اللوح أخذه العجب، وقال لعطاوس قيم الهياكل: أيها الأب الشقيق ما تقول في هذه الحكمة؟ قال: أيها الملك وما عسى أن أقول في حكمة وضعتها العظام وعلمت بها الحكماء وإنما العلوم غامضة يصل إليها الخبر الجوهرى بنور العقل، وإنما أرى أن دولة هرقل وهي عز دولتها وانهدمت أركان ملوكه من أرض سوريا وانتقل ملك الروم إلى أرض اسطور يعني قسطنطينية وبذلك أخبر مهرايس الحكيم في كتابه العزيز الذي وضعه وسماه أسلاموس يعني جواهر الحكمة، ومن جملته: إذا ظهر نور القيمة المصفاة من الأدناس من جبال ثاران تصفت الأذهان بنور حكمته وانصرفت الظلمة المتكافئة في سماء الجهل بقوة عزيزته، ودعا الناس إلى لطيف دعوته وقادهم بأزمة لطافته فيعلو على الأفلاك، فويل لأرض إيليا من صولة صاحبه المتتوشع بوشاح الهيئة المتوج بتاج العقل، صاحب فتوح الأرض ومذل ملوكها العدل فسطاطه والمرقة لباسه، وفي زمانه ينكسر الصليب وتخرج الهياكل وتنددرج المذابح ويدُوب ماء المعمودية فلا نجاها من صولته إلا باتباع شريعته وصاحبها. قال فلما سمع ذلك فلسطانوس من القيم على الهياكل كتم الأمر في نفسه وقال: لا بد لي من النظر إلى العرب والمسير إليهم وإلى نصرة الملك هرقل وقد وصل إلى كتاب البترك ونبني إلى نصرة دين المسيح فإن تأخرت حرمني، ثم إنه اختار من جيشه في رومية ثلاثة ألفاً وهم الكرجية وولى في موضعه ولده استفلبيوس وهو مثلث النعمة واستخرج من بيت الحكمة رايات الإسكندر اليوناني، وكانت منسوجة بالذهب واللؤلؤ التي نشرها يوم فتح الواحات من أرض باليوس، وكانت لا تنشر إلا في يوم واحد في

السنة ببيعة آيا صوفيا وهو يوم عيد الصليب والشعانين. قال: فلما رفعت على رأس فلسطنطوس سار حتى ورد أنطاكية ونزل على باب هاوس ومعناه باب فارس، قال وركب الملك هرقل في موكبه إلى لقائه وضررت سرادقاته بازاء سرادقات هرقل وفرحت الروم وتفاءلت بالنصر وضررت النواقيس ووقدت ضجة عظيمة في جيوشهم وارتفعت أصواتهم وجاءت عيون المسلمين فأخبروهم بقدوم صاحب رومية فرفع أبو عبيدة كفه إلى السماء، وقال: اللهم إن أعداءك يستنصرون علينا بكثرة عددهم وتزايد مددهم فشتّت كلمتهم ودمّر جيوشهم وزلزل أقدامهم وعسر أيامهم واجعل كلمتنا العليا وكلماتهم السفلية وانصرنا نصر نبيك في يوم الأحزاب: اللهم رد كيدهم في نحرهم وانصرنا عليهم قال: وأمنت المسلمين على دعائه.

قال الواقدي: حدثنا إبراهيم بن العلاء عن أبي يوسف الكندي عن أبي جعفر الدارمي عن الربيع بن أنس عن جعفر بن ميسرة قال: قال لي عمي لما قدم صاحب رومية بجنوده خاف المسلمون ولكن ثبتهم الله وبعث أبو عبيدة معاذ بن جبل ومعه ثلاثة آلاف وقال له: يا صاحب رسول الله إن الروم قد تجمعت من سواحل البحر لنصرة دينها فانهض وشن الغارات على بلاد السواحل واحتفظ أن تؤتي المسلمين من قبلك قال فعل ذلك معاذ وسار إلى جبلة واللاذقية فاحتلوش أموالها، وأخذ غنائمها ووجد على باب جبلة عنان بن جرهم الغساني ابن عم جبلة بن الأبيهم ومعه ألف دابة محمولة بـ١٠ وشعيراً لعسكر الكفر، وقد جمعها من طرابلس وعكا وصور وصیدا وقيسارية وقد بعث بها قسطنطين بن هرقل إلى أبيه، فلما وصلت مدينة جبلة سلمها العرب المنتصرون لابن عم جبلة وعادوا فوقع بها معاذ رضي الله عنه فأخذها ورجع قافلاً إلى عسكر المسلمين، فلما رأوها رفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير فسأل هرقل عن ذلك فأخبروه بما وقع فغضب على أخذ الميرة التي تتقوت بها عسكر أعدائهم. فقال لبطارقته ما بقي بيننا وبين هؤلاء إلا المصاف ويعطي الله النصر لمن يشاء، ثم إنه أمر عساكره بالأهبة للقتال ثم إنه ركب وإلى جانبه فلسطنطوس صاحب رومية وصاحب مرعش وصاحب قلعة اسكيابانيس وهي قلعة الروم وصاحب طرطوس وصاحب مصيصة وصاحب قونية وصاحب مصر وصاحب اقصرا وصاحب قيسارية الروم الأقصى وصاحب قوماط وصاحب انطرانه وصاحب طبرزند وجبلة بن الأبيهم.

قال الواقدي: وأقبل يوقنا يرتّب الصفوف في الحرب، فلما وقف كل ملك بجيشه وكل بطريق بأصحابه أراد فلسطنطوس ملك رومية أن يتقرّب إلى هرقل بمبارزة العرب فصفع له على قربوس سرجه وقال: أيها الملك ما تركت ملكي وأتيت إلى خدمتك من مائتي فرسخ إلا حتى أرضي المسيح وأخدمه بين يديك وأن كل عسكرك قد قاتلوا

وجاهدوا وأ يريد أن أبرز في هذا اليوم إلى هؤلاء المسلمين وأشفي فؤادك وفؤادي منهم فأراد الملك أن يطيب قلبه. فقال له: الزم مكانك ولا تخرق بحرملك وحشمتك حشمة الملوك فأنت أقدم مني في المملكة فدع غيرك يكون لهذا الأمر فما بلغ من شأن العرب أن تخرج أنت إليهم بنفسك. فقال فلسطينوس: أيها الملك وأي حشمة بقيت لنا مع هؤلاء وقد أهملوا عزنا وأذلوا أعز ديننا والجهاد مفروض على كبيرنا وصغيرنا، أما علمت أيها الملك أنه من نظر إلى الدنيا بعين المحبة جذبته الشهوات إلى الغلو في محبتها والتعلق بزخارفها، فإذا فعل ذلك ركب غيم كثافة الجهل على صفحة صدره فمنعه ذلك عن طلب معاده، ومن سارع إلى طاعة خالقه بترك شهواته ارتقى إلى دار دائرة القدس في محل الأنس، ولما علم القديم الأزلي بركون أنفسكم المحجوبة بحجاب الغفلة إلى طلب ما يفني سلط عليكم أضعف أمة قد أخرجتكم من دياركم وأبعدتكم عن أوطانكم وما ذاك إلا لخلودكم إلى الأهواء الجاذبة إلى مهابيكم وإلى إدراك المهالك لأنكم حكمتم بغير الحق واجترأتم على الرعية بطلبكم منهم ما ليس لكم بحق والجور فيأخذ أموالهم وفساد أحوالهم وكثرة الزنا واتباع الخنا فلأجل ذلك لم تنصروا، ودارت دائرة السوء عليكم. قال: ثم تكلم صاحب الملك هرقل الكبير واسمه سروندي وصاح عليه وقال له أيها السيد لا تحمل على قلب الملك من كلامك ما لا يطيق في مثل هذه الساعة، فقد وعظه من هو أكبر منك فلم يسمع قوله. قال فغضب فلسطينوس من صياغ الحاجب عليه وكتم أمره إلى الليل، فلما مضى من الليل ربعه طلب حاجبه وخواصه، وقال لهم: أرضيتم أن يزعق علي حاجب هرقل ويوبخني بين الملوك وأنتم تعلمون أن بيتي أعظم من بيته ونسبة أدنى من نسبي وملكي أقدم من ملكه؟ ولقد قال قسيس حكيم بلاد الذكر المشهور بحكمته وهو الذي وضع المنار الأعظم في يوم كبير كان بين بلاد الجرامقة وببلاد الأنجر وهي مسيرة اثنى عشر يوماً ولا يصل إلى أرضها إلا بعد عناه كبير فاحتفر لها بئراً ووضع في وسطها عموداً على رأس حجر يدور من صنعة حكمتها يسمع له من حلة النساء من حوله ويرشح له بقدر ما يملأ ذلك الجن العظيم، فإنه قال: لا تسع بقدمك إلى من يراكم دونه فتصغر عنده واجعل عز نفسك في مقابلة كبرياء عجبه، فإن عزة النقوس تقابل جاه الملوك ولا تصنع صنيعك لغير مستحقه لأنها تجلب عليك السوء من قبل ذلك، فإن ذلك الإحسان لا يزكي إلا عند ذوي الأصول فإنه يندمج عند السفهاء والأرذال لا تصنع إليهم النصيحة، فإنك أنت تطلب منفعته وهو يريد هو نفسه بأذتك وقد جتنا من مائة فرسخ وأكثر إلى خدمة رجل يرى أننا قد قصدنا داره وتاج عزه وأننا نحن من جملة خدمه وأن نور العقل المجوهر للحسن يمنعني من اتباع الجهل المظلم للحواس، وأن فسي تأبى ذلك، والعز محل جليل ومقام نبيل، والذلّ وليل وصاحب قليل، وقد عولت أن أسير إلى هؤلاء العرب واختبر ملتهم فإنها هي الملة الواضحة بالحق المؤيدة بالصدق، ومن كان

عليها أمن في معاده من الهمول الأكبر فما أنتم قائلون؟ قالوا: أيها الملك وكيف تطيب نفسك بترك دينك وملكك وعزك وتبيع هؤلاء وهم لا فضل لهم ولا عندهم حكمة. فقال فلسطنطانوس: أما الحكمه البالغة فعندهم مقرها وفي نفوسهم موطنها. لأن نور توحيدهم صفي أذهانهم ونور إيمانهم ببركة أصحابهم المسمى في علوم الغيب، لأن مغناطيس حكمته الربانية جذب جوهر عقولهم إلى متابعته والاقتداء بشرعيته، ومن أراد أن يلقى عالم عليين فلا يقعد على صفحة أرض الجهل: أما علمتم أن النور أنور من الظلمة والموت نهار الحياة. قال: فلما سمعوا قوله قالوا: أيها الملك نحن ما نمنعك من عز دائم يخرجنا من الذلة ومهابة الغلبة، فإذا كنت تطلب بنا طريقاً يؤدي إلى البقاء وينذهب بالشقاء فالحق اتباع الحق ونفي الباطل فنحن لك وبين يديك. قال: فخذنا على أنفسكم فإذا كانت ليلة غد ركبنا كأننا نطوف حول البيت نحرسه ونطلب جيش العرب. قال: فعلوا ذلك وأخذ فلسطنطانوس في أمره. قال ابن وهب وابن صالح عن أبي موسى الأشعري. قال: لما عزم أن يسير إلى جيش المسلمين أتى إليه يوقنا برسالة الملك هرقل، فلما أدى الرسالة وهم بالقيام قال له فلسطنطانوس من أنت من الحجاج؟ قال: أنا يوقنا صاحب حلب. قال: وكيف تركت بلدك؟ قال: استولت عليها العرب وحدهم بحديثه. فقال فلسطنطانوس: وما الذي ظهر لك من هؤلاء العرب؟ قال: أيها الملك إني دخلت في دينهم واطلعت على أمرهم وكشفت سرّهم فرأيت القوم لا يستمعون إلى الباطل ولا يحيدون عن الحق ولا ينامون الليل من كثرة اجتهدتهم ولا يتكلّمون بغير ذكر ربهم ينصفون المظلوم من الطالم ويواسى غنيهم فقيرهم، الأمراء منهم في زي المساكين، والعزيز والذليل عندهم سواء. فقال له فلسطنطانوس: فإذا وقفت على سرّهم ورأيت فضلهم بما منعك أن تقيم عندهم وبينهم؟ فقال يوقنا: منعني من ذلك صحة ديني وصحبة قومي لأنني لم أر فرافقهم.

قال فلسطنطانوس: إن النفوس الزكية الباقية إذا رأت الحق جاذب اليقين إلى حضرة طلب الإخلاص من المعيشة الذميمة إلى أن ترقى إلى أعلى علية. قال: فخرج يوقنا وقد رسم كلام فلسطنطانوس في قلبه، فقال: والله ما تكلم بشيء إلا وهو منقوش على صفحة صدرني وكلامه يشهد بقبول عقله لصحة دين الإسلام، وأقام يوقنا على قلق من ذلك حتى أقبل الليل فأتى إلى فلسطنطانوس فرأه وهو على نية الركوب إلى ما ذكرناه، فلما وقف بين يديه صفع له. فقال له فلسطنطانوس بأبي حجاج حجب الله الظالمين عن اتباع سبيل المتقين فالحق واضح لمن طلبه والباطل خفي عن اتبعه. فقال يوقنا: أيها الملك ما معنى هذا الكلام الذي أشرت إليه؟ فقال: لو أئك رأيت بعين بصيرة لما رجعت عن ملتهم ولا أردت بدلاً غيرهم وإنما أنت طلبت نعيمًا يؤول إلى الزوال ويفضي بصاحبها إلى النكال. قال: فسكت يوقنا وخرج من عنده وجعل يتتجسس عليه ومضى ووقف على الطريق الذي

يمضي إلى المسلمين فركب فلسطينوس وخرج من سرادقه فوجدبني ~~عنه~~ قد أخذوا أهبتهم وهم أربعة آلاف فارس وقدموا عزتهم وساروا يدًا واحدة يطلبون جيش الموحدين وقد تركوا عزهم وفارقوا دينهم، فلما قربوا من جيش المسلمين ظهر لهم يوقدنا وبنو عمه المائتان. فقال يوقدنا لفلسطinos : أيها الملك عولت على أن تكبس المسلمين فقال : لا والقديم الأزلي وإنما أنا قاصد إليهم وداخل في دينهم وملتهم وأكون من جملتهم ، فمن نظر إلى الدنيا بعين الفناء عمل للأخرة فما الذي يمنعك يا يوقدنا مما نحن عولنا عليه؟ فقال يوقدنا : أيها الملك لقد جذبك جاذب الحق عن طريق الضلال ثم إنه حدثه بحديثه وأنه عازم على أن يغدر بالروم فقبله فلسطينوس وفرح بمقالته وقال له : كيف تقدر على ذلك وما أرى معك إلا نفراً يسيراً . فقال : أيها الملك إن في داخل بيتي مائتين من المسلمين من أكابر أصحاب رسول الله ﷺ في مقام عشرين ألفاً من الروم ، ولقد رأيت أن تعود أنت وقومك ولا تستعجل ونبعث رجالاً إلى أمير المسلمين يخبره بما نحن معولون عليه فإذا كان غداً تقف أنت وجيشك حول الملك هرقل وأدخل أنا البلد وأطلق المائتي أسير وأعطيهم سلاحاً ويحمل جيش العرب وتحمل أنت وعسكرك على مركب هرقل وتتصده بنفسك فتقبض عليه وتكون قد جاهدت وأسير أنا ومن معي في داخل البلد فتسلكها إن شاء الله تعالى ، وإن أردت أن ترجع إلى دار ملكك ويكون أمرك مكتوماً علينا فحول أمر جيشك لمن ثق به منبني عملك . قال فلسطينوس : ما فعلت هذاولي نية في ملكي ولا في ملك الدنيا ، بل إذا قضي هذا الأمر ونصر الإسلام قصدت مكة فأ Hajj وأزور قبر النبي ﷺ ، ثم أرجع إلى بيت المقدس فأقيم فيه إلى أن أموت ، فمن يذهب إلى أمير العرب برسالي ويخبرهم بما قد عولنا عليه؟ فقال له يوقدنا : اعلم أن لهم عندنا عيوناً وجواسيساً من هو تحت ذمتهم وأنا أعلمهم بما قد وقع ، قال : فيبينما هم في الكلام تحت ستر الليل وإذا بشيخ قصد إليهما فتأمله يوقدنا فإذا هو عمرو بن أمية الضمري ساعي رسول الله ﷺ فسلم على يوقدنا وعلى من معه ، وقال ليوقدنا : إن الأمير أبا عبيدة يقول لك : جزاك الله خيراً عن الإسلام وإن رأى في المنام رسول الله ﷺ وأخبره بما كان من أمر صاحب رومية وما تحدثتما به وما وقع له مع قومه وما عزتم عليه وبشره بأن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وقد تفتح أنطاكية ويزول عز الروم عنها ويتنزع ملك صاحبها .

قال الواقدي : فتهلل وجه فلسطينوس فرحاً وازداد إيماناً وقال : الحمد لله الذي هدانا للإسلام والإيمان .

قال الواقدي : وذلك أن أبا عبيدة رضي الله عنه رأى النبي ﷺ في النوم وهو يقول : يا أبا عبيدة أبشر برضوان الله ورحمته وغداً تفتح أنطاكية صلحًا وإن صاحب رومية

المداين الكبرى قد جرى من أمره كيت وكيت هو ويوقنا صاحب حلب وهما بالقرب منك فأنفق إليهما بنجاز الأمر. قال فاستيقظ أبو عبيدة وقصن رؤياه على خالد وأنفذ عمرو بن أمية كما ذكرنا. قال: فلما سمع فلانطانوس ذلك اقشعر جلده وارتعدت فرائصه وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، وأشهد أن هذا الدين هو الحق اليقين، ثم إنهم عادوا وطافوا بجيش الملك لأنهم يحرسون، في بينما يوقنا قد ذهب بأصحابه من عند صاحب رومية وقد قوي عزمهم على ما ذكرنا من أمر كبسهم الملك وإذا بالحاجب قد لقيه والمشاعل بين يديه وقد خرج من أنطاكية ومعه ضرار بن الأزور ورفاعة بن زهير والمائتا أسير وقد عوّل على قتلهم وأن يرمي غداً برؤوسهم إلى المسلمين، فلما سمع يوقنا ذلك ضاقت الدنيا عليه وقال له: أيها الحاجب الكبير أنت تعلم أن المصالف غداً واقع بينما وبينهم فإن أنت قتلت هؤلاء ورميت برؤوسهم إلى المسلمين فإنهم لا يقعون بأحد مما فيقولون عليه فاتق الله ولا تعجل بذلك ودعهم عندي وراجع الملك في أمرهم إلى أن نرى ما يقول أمرهم إليه. قال: فتركهم الحاجب عند يوقنا ومضى إلى الملك وأخبره بما قال يوقنا. فقال له: دعهم عند الدمستق فرجع إليه وقال له: الملك يقول لك احتفظ عليهم فأمرهم لك فأخذهم يوقنا وسار بهم إلى خيمته وصعب عليه إخراجهم من أنطاكية لأنه كان قد عوّل على أن يملك بهم البلد، فلما حلوا في خيمته حلّ لهم من الوثاق وسلم إليهم العدد وأخبرهم بما قد عزم عليه هو وصاحب رومية من القبض على الملك هرقل. فقال ضرار: والله لأرضين الرب غداً بجهادنا وكانت قد ختمت جراحاته لأنه كان في الأسر ثمانية أشهر وفرقهم معبني عمه.

قال الواقدي: حدثنا أبو محمد عن سعيد بن أبي مريم عن يحيى بن أبي عبد الله بن مسعود أن الذي أمر بإخراج الأسرى لم يكن هرقل وإنما كان مملوكه الخاص وأسمه تاليس بن رينوس وكان قد ألبسه تاجه ومنطقته وكان أشبه الخلق به وقال له: كن غداً مكانني فإني أريد أن أكيد العرب وأكمن خلفهم وما ذاك إلا أنه رأى في نومه وكان شخصاً قد نزل من السماء وقلبه عن سريره وكان تاجه قد طار من على رأسه، وكان شخصاً يقول له: قد قرب ما بعد وقد زال ملكك من سوريا وقد ذهبت دولة الشقاق والنفاق وجاءت دولة الوفاق، وكان ذلك الشخص قد نفح في عسكره فأورقد ناراً فاستيقظ مرعوباً وفسر منامه على نفسه بزوال ملكه، وكان قبل نزول العرب قد عَبَّى خزانته وجمع ما يخاف عليه من التحف ووضعها في المراكب من حيث لا يعلم بذلك أحد من دولته وعَبَّى الزاد والماء، ثم إنه أرسل أهل بيته في تلك الليلة بعدما رأى في المنام ولم يدع من حريمه وأولاده وعياله أحداً وبعده أمر مملوكه تاليس بن رينوس بما أمره أن يفعله. قال: فلما ركب تاليس فما كان من أمره إلا أن قال للحاجب: أخرج الأسرى واضرب رقابهم فأخرجهم وأخذهم يوقنا كما وصفنا. قال: حدثنا ياسر عن سليمان بن

عبد الواحد عن صفوان بن بشر عن عروة بن مذعور عن محمد بن علي عن عدي عن شعبة عن قتادة عن أبي الصديق التاجي عن ابن سعد. قال: ما خرج هرقل من أنطاكية إلا وهو مسلم وذلك أنه كتب إلى عمر بن الخطاب في السر عن قومه إن بي صداعا لا يسكن فانفذ إلى بدءاء أندادى به فأرسل إليه قلنوسة فكان إذا وضعها على رأسه سكن صداعه وإذا رفعها عاد إليه فتعجب من ذلك وأمر بفتحها فإذا فيها مكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم. فقال هرقل: ما أكرم هذا الاسم وأعزه حيث شفاني الله به و كانوا قد توارثوا هذه القلنوسة إلى أن وصلت إلى صاحب عمورية، فلما كان يوم المعتصم ونزل عليها عرض للمعتصم صداع فأرسل إليه صاحب عمورية بالقلنوسة، فلما وضعها على رأسه سكن ما به فأمر المعتصم بفتحها فإذا فيها الرقعة ومكتوب فيها: بسم الله الرحمن الرحيم.

قال الواقدي: وأما ما كان من أمر تاليس، فلما أصبح ركب ورتب عساكر الروم عن آخرها ودارت المواجه حول تاليس بن رينوس، وكان كل من رأه يظن أنه هرقل ولا يشك فيه ودار بمواكب عسكر فلسطينوس صاحب رومية وركب يوقنا ومن معه وهم متذكرون تحت السلاح، فكان أول من حمل خالد بن الوليد بجيش الزحف. قال: وتبعه سعيد بن زيد وتبعه قيس بن هيبة وتبعه ميسرة وبعده عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ذو الكلاع الحميري وأمثالهم وأطبق الناس بعضهم على بعض، فلما اشتربت الحرب هجم يوقنا ومن معه وحمل ضرار فله دره لقد أعطى السيف حقه وأخذ ثأره من الروم وكلما قتل واحداً صاح واثارات أسر ضرار بن الأزور، وكان قد قصد عسكر المنتصرة هو وأصحابه ورفاعة بن زهير يشجعهم ويويخهم ويقول: خذوا بشاركم ممن أسركم وأحملوا، وإياكم أن تفشوا واعلموا أن الجنة قد فتحت أبوابها وزينت حورها وقصورها وأشرق بنianها ومرح ولدانها وتجلی ديانها، ثم صاح: يا فتيان العرب أيكم يرغب في زواج الحور فإن بذل النفوس هي المهر من يزيد عرسا في الجنان ويقوم في خدمته الولدان، من يرغب فيما قال الملك الديان **﴿متكثين على رفرف خضر وعقبري حسان﴾** [الرحمن: ٧٦] أين من شهد بذراً وحنين مع سيد الكونين، أين من يزيل عن قلبه حجاب الغفلة والرین؟ وافقوا قوماً صارت هممهم إلى دار الأزل فأناخوا بباب من لم يزل سرائرهم فرأوا داراً بناؤها النور قواعدها من الرحمة حيطانها من الذهب ملاطها المسك ماؤها من الحيوان حصباوها الدر والجوهر ترابها الكافور والعنب سورها المجيد اللطيف ستورها الكرم أشجارها لا إله إلا الله أغصانها محمد رسول الله ثمارها سبحانه الله والحمد لله عرضها السموات والأرض سقفها عرش الرحمن، فلما كشف لهم عن هذه الأسرار استاقوا إلى سكنى الدار، قيل لهم: لن تصلوا إليها إلا ببذل النفوس في رضا الملك

القدوس، ثم خلع عليهم خلع الإحسان وتوجهم بتيجان الرضوان ونشر على رؤوسهم رايات الغفران مرسوم على طرازها بقلم السر المكتنون «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون» [آل عمران: ١٦٩] لقد بذلوا النفوس في رضا القدس.

قال الواقدي: في بينما ضرار يحمل في الأعداء وبذيقهم شراب الردى وإذا هو بفارس يطحطح الكتائب ويفرق المراكب ويصبح واثارات ضرار بن الأزرور فتأمله فإذا هو أخته خولة فنادها دارك يا بنت الأزرور أنا والله أخوك فأقبلت لتسلم عليه. فقال لها: إليك عندي ما هذا وقت سلام، وإن قتال الكفر أفضل من كلامك يا بنت الأزرور فاجعلي عنانك مع عناني وسانانك مع سناني وجاهدي في سبيل الله، فإن قتل أحدنا فالملتقى في الحشر عند حوض سيد البشر، في بينما هم في ذلك إذ نظر إلى جيوش الروم وقد تقهقرت وفرسانهم قد انهزمت وكان السبب في ذلك أن صاحب رومية رحمة الله لما رأى الحرب قد أضرمت نيرانها وعلا دخانها حمل بأصحابه وقصد تاليس بن رينوس فقبض عليه وهو يظن أنه هرقل فصاح الصائح: إن الملك هرقل قد قبض عليه فلسطنطونس ملك رومية وغدر به فولت الروم الأدبار وقتل المسلمين منهم مقتلة عظيمة لم يقتل مثلها إلا بأجنادين واليرموك، وقتل من العرب المنتصرة زهاء من اثنين عشر ألفاً وطلب جبلة ولده فلم ير لهم خبراً فقيل إنهم وأكابر قومهم ركبوا مع الملك هرقل في المراكب، وكان جملة من هرب من سادات المنتصرة مع جبلة وابنه خمسماة من جملتهم ابن عمه قرظة وعروة بن واشق ومرهف بن واشق وهجام بن سالم وشيبان بن مرة. قال فسكنوا جزائر البحر فمن نسلهم هذه الإفرنج. قال: وأخذ المسلمون ما كان من السرادقات والخيام والديباج والممتاع والخزائن وأسروا ثلثين ألفاً وقتلوا من الروم سبعين ألفاً وولت العرب المنتصرة منهزمين، فمنهم من أخذ نحو الدروب ومنهم من طلب قيسارية إلى قسطنطين بن هرقل، فلما وضعت الحرب أوزارها وخمدت نارها جمعوا الأموال والأنفال والأسرى بين يدي أبي عبيدة، فلما نظر إلى ذلك سجد الله شكرًا وسلم المسلمين بعضهم على بعض، وجاء ضرار وأصحابه ويوقنا وفلسطنطونس وأصحابه وسلموا على المسلمين وفرحوا بهم، فلما وصل فلسطنطونس قام إليه المسلمين وقال كبار الصحابة: سمعنا نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: إذا أتاكم كريماً قوم فاكرموه. قال: فنظر فلسطنطونس إلى تواضعهم وحسن سيرتهم وكثرة عبادتهم فقال: هؤلاء والله القوم الذين يبشر بهم عيسى عليه السلام، قال فأسلم بنو عميه عن آخرهم وواجهدوا في الكفار إلى أن فتحوا جميع الأ MCSAR وبعد ما مضى فلسطنطونس إلى مكة فحج وزار قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المختار، وسلم على عمر رضي الله عنه، فلما رأه وثب إليه قائماً وصافحة هو وجميع المسلمين وعاد إلى بيت المقدس فجلس يعبد الله فيه حتى أتاه اليقين.

قال الواقدي : ونظر أبو عبيدة إلى جيش أنطاكية وقد تحصنوا فيها وهم لا يحصون فقال : اللهم اجعل لنا إلى فتحها من سبيل وفتح لنا فتحاً مبيناً . قال : وكان على أنطاكية بطريق اسمه صليب بن مرقس ، وكان جاهلاً في رأيه فعم على القتال من داخل السور فاجتمع أكابر البلد إلى البترك في الليل وقالوا له : اخرج إلى هؤلاء العرب وصالح بيننا وبينهم على ما تقدر عليه . قال : فخرج البترك إلى أبي عبيدة وحده في الصلح فأجابه إلى ذلك ، فكان جملة ما صالح عليه أهل أنطاكية ثلاثة ألف مثقال من الذهب ، فلما تقرر الصلح قال له أبو عبيدة : احلف لنا أنكم لا تغدون بنا فإن مدینتکم مانعة كثيرة الجبال والوعر . فقال خالد : ومن يحلفه ؟ فقال أبو عبيدة : يوقنا . قال : فوضع يوقنا يده على رأس البترك فوق يده وقال : قل والله والله والله أربعين مرة ، وإنما قطعت زناري وكسرت صليبي ولعنتني الشمامسة والديريانيون وخلعت دين النصرانية وذبحت العمل في حرن ماء المعمودية ونجستها ببول مولود من أولاد اليهود وقتلت كل الشهدود ، وإن خرقت شدائد مريم وعصبت رأسي ، وإنما ذبحت القسوس وصبغت بدمائهم ثوب عروس ، وإنما جعلت مريم زانية به ، وإنما جعلت في المذبح حيضة يهودية ، وإنما أطفأت قناديل بيعة جرجيس وجعلت عزيزاً في مقام كالوس ، وإنما تزوجت يهودية طامنة لا تنقى أبداً وإنما غسلت أثوابي صبيحة يوم الجمعة وهدمت الكنائس والبيع وأحللت الأعياد والجمع ، وإنما عبدت الالاهوت وجحدت الناسوت ، وإنما أكلت لحم الجمل يوم الشعانيين ، وإنما صمت رمضان عاطشاً و كنت للحم الرهبان ناهشاً ، وإنما صليت في ثياب البهود . وقلت إله عيسى دباغ الجلود اتنا لا نغدر بكم ولا كنا إلا معكم .

قال الواقدي : فعندها قام أبو عبيدة ودخل أنطاكية وكان دخوله لخمسة أيام مضيين من شعبان سنة سبع عشرة من الهجرة فدخله وبين يديه اللواء الذي عقده له أبو بكر الصديق رضي الله عنه وعن يمينه خالد بن الوليد وعن يساره ميسرة بن مسروق ودخلها القراء بين يديه يقرؤون سورة الفتح ، فلم يزل سائراً حتى وصل إلى باب الجنان فنزل هناك وخطَّ هناك مسجداً وأمر ببنائه وبه يعرف إلى يومنا هذا . قال ميسرة بن مسروق فنظرنا إلى بلد رطب طيب الهواء كثير الماء والخيرات ، فاستطابه المسلمون ووددنوا لو أقمنا فيه شهراً لنستريح ، فما تركنا أبو عبيدة فيه غير ثلاثة أيام ، ثم إنَّه كتب إلى عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه : سلام عليك وإنِّي أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو ، وأصلَّى على نبيِّ محمد ﷺ وأشكره على ما فتح علينا ورزقنا من الغنمة والنصر وأعلمك يا أمير المؤمنين أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد فتح على المسلمين كرسى النصرانية ، مدينة أنطاكية وكسر الله عسكراً ، ونصرنا الله عليهم و Herb هرقل في البحر وإنِّي لم أقم بها لطيب هوائتها وإنِّي خشيت على المسلمين أن يغلب حب الدنيا على قلوبهم فيقطعهم عن طاعة ربِّهم وإنِّي معمول على المسير إلى حلب وإنِّي منتظرك أمراك ، فإنِّي أمرتني أن أسير إلى داخل

الدروب فعلت، وإن أمرتني بالمقام أقمت، واعلم يا أمير المؤمنين أن العرب قد نظرت إلى بنات الروم فدعنهم أنفسهم إلى التزوج فمنعتهم من ذلك، وإنني أخشى عليهم الفتنة إلا من عصمه الله، فجعل إلى بأمرك السلام عليك وعلى جميع المسلمين. وطوى الكتاب وختمه، وقال: معاشر المسلمين من يسير بكتابي هذا إلى أمير المؤمنين؟ فأسرع بالإجابة زيد بن موهب مولى عمير بن سعيد مولى عمرو بن عوف، فقال: أنا أبها الأمير أوصله إن شاء الله تعالى، فقال أبو عبيدة: يا زيد أنت لست مالك نفسك، وإنما أنت مملوك، فإن أردت المسير فسل مولاك أن يأذن لك في ذلك، فأسرع زيد إلى مولاه عمير فانكب على يديه يقبلهما فمنعه من ذلك، وذلك أن عميراً كان رجلاً زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة. ما يملك من الدنيا سوى سيفه ورمحه وفرسه وبعيره ومزادته وقصعته ومصحفه، وكان الذي يصيبه من الغاثم لا يدخل منه ولا يأخذ إلا ما يقوته، وكان يفرق الباقى على قرابته وقبوته، فإن فاض شيء يرسله إلى عمر رضي الله عنه يفرقه على فقراء المسلمين المهاجرين والأنصار. قال: فلما أراد زيد أن يقبل يد سيده منعه، وقال له: ما الذي تريده؟ فقال: يا مولاي تأذن لي أن أكون رسولًا للMuslimين بشيراً إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فقال عمير بن سعيد: تريد أن تكون بشيراً للMuslimين وأمنعك من ذلك. إني إذا لآثم، امض فأنت حر لوجه الله تعالى، وأرجو بعثتك أن يجيرني الله من النار.

قال: ففرح زيد بذلك وعاد إلى أبي عبيدة فأخبره أن بركة كتابه صار حُرًّا فسر أبو عبيدة وسار زيد على نجيب من نجد اليمن دفعه إليه وكان سابقاً. قال: فجعل زيد يطلب أقرب الطرق حتى قدم المدينة ودخلها، وإذا بها ضجة عظيمة ولأهلها ضجيج وهم يهرعون نحو البقيع وقباء، فقلت لنفسي: إن لهم أمراً فتبعتهم لأرى ما شأنهم وأنا أحسب أنهم يريدون حرباً فرأيت رجلاً فعرفته فسلمت عليه فعرفي، وقال: أنت زيد؟ قلت: نعم. قال: الله أكبر ما وراءك يا زيد؟ قلت: البشرة والغنية والفتح. قلت: ما فعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب؟ قال: إنه خارج يريد الحج ومعه أزواج النبي ﷺ يحج بهن والناس يشيعونه. قال زيد بن وهب: فاختت بعيري وعقلته وأسرعت مهولاً حتى وقفت بين يدي عمر رضي الله عنه وهو يمشي راجلاً ووراءه مولا يقود بعيراً وقد رحله بعباءة قطوانية وزاده وجفته عليه، والهوادج بين يديه سائرة، وعن يمينه علي بن أبي طالب، وعن يساره العباس بن عبد المطلب، ومن ورائه المهاجرون والأنصار وهو يوصيهم بالمدينة. قال زيد بن وهب: فلما وقفت بين يديه ناديت: السلام عليك يا أمير المؤمنين أنا زيد بن وهب مولى عمير بن سعيد أتيتك بشيراً. قال عمر: بشرك الله بخير فما بشارتك؟ قلت: هذا كتاب من عاملك أبي عبيدة يخبرك أن الله قد فتح على يديه أنطاكية. قال: فلما سمع عمر بذلك أنطاكية وأن الله فتحها خرّ الله ساجداً يرمي خديه على

التراب، ثم إنه رفع رأسه من سجوده وقد ترب ووجهه وشيبته من التراب، وهو يقول: اللهم لك الحمد والشكر على نعمك السابعة، ثم قال: هات الكتاب رحمة الله فناولته إياه، فلما قرأه بكى، فقال له علي كرم الله وجهه: مم بكأوك؟ قال: مما صنع أبو عبيدة بال المسلمين وما استعقب رأيه في الموحدين، ثم قال: إن النفس لأمارة بالسوء ودفع الكتاب إلى علي فقرأه على المسلمين إلى آخره. قال زيد بن وهب: ثم رأيت عمر قد هدا من بكانه، وقد زاد فرجه وأقبل علىي، وقال: يا زيد إذا عدت فامعن النظر في أيتها وأعنابها وأحمد الله كثيراً، فقلت: يا أمير المؤمنين ليس هذا أوانه. قال: ثم جلس عمر على الأرض ودعا بدواة وقرطاس رسب إلى أبي عبيدة كتاباً يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر إلى عامله بالشام أبي عبيدة عامر بن الجراح، سلام عليك وإنني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلني على بيته وأشكروه على ما وهب من النصر لل المسلمين، وجعل العاقبة للمتقين ولم يزل بنا لطيفاً معيناً. وأما قولك لم نقم بأنطاكية لطيبها، فإن الله عز وجل لم يحرم الطيبات على المؤمنين الذين يعملون الصالحات، فقال: **﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ كُلُّوا مِنَ الطَّيَّابَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾** [المؤمنون: ٥١]، وقال: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُّوا مِنْ طَيَّابَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا اللَّهَ﴾** [البقرة: ٥٧] الآية فكان يجب عليك أن تريح المسلمين من تعهم وتدعهم يرغدون في مطعمهم ويريحون أبدانهم من نصب القتال مع من كفر بالله، وأما قولك إنك متضرر أمري فالذي أمرك به أن تدخل وراء العدو وتفتح الدروب فإنك الشاهد وأنا الغائب، وقد يرى الشاهد ما لا يراه الغائب وأنت بحضوره عدوك وعيونك تأتيك بالأخبار، فإن رأيت أن دخولك إلى الدروب المسلمين صواب فابعث إليهم بالسراية وادخل معهم إلى بلادهم وضيق عليهم المسالك، ومن طلب منك الصلح فصالحهم ووف لهم بما تقدر، وأما قولك إن العرب أبصرت نساء الروم فرغبت في التزوج، فمن أحب ذلك فدعه إن لم يكن له أهل بالحجاز، ومن أراد أن يشتري الإمام فدعه فإن ذلك أصون لفروعهم وأعف لنفسهم، وما تحتاج أن أوصيك في أمر فلسطينوس صاحب رومية أوسع عليه في النفقه وعلى من معه فإنه قد فارق أهله وملكه وأمره ونهيه السلام عليك وعلى جميع المسلمين. وطوى الكتاب ودفعه لزيد بن وهب، وقال له: انطلق رحمة الله وأشرك عمر في ثوابك، فأخذ زيد الكتاب وهم أن يسيرون بأمره أن يقف، وقال له: على رسلك حتى يزودك عمر من قوته، ثم إن عمر أنanax راحته وأخرج له تمراً وأعطاه صاع تمراً وصاع سويق وقال: يا زيد اعذر عمر فهذا ما أمكنه، ثم إن عمر قبل رأس زيد بن وهب فبكى زيد، وقال: يا أمير المؤمنين أو بلغ من قدرني أن تقبل رأسي وأنت أمير المؤمنين وصاحب سيد المرسلين، وقد ختم الله بك الأربعين فبكى عمر وقال: أرجو أن يغفر الله لعمر بشهادتك. قال زيد بن وهب: فاستويت على كور ناقتني وهمت بالمسير فسمعته يقول: اللهم احمله عليها بالسلامة

واطّو له البعيد وسهل له القريب إنك على كل شيء قدّير. قال زيد بن وهب: ففرحت بدعوة عمر رضي الله عنه وعلمت أن الله لا يرد دعوته إذ كان لربه طائعاً ولنبيه تابعاً، فجعلت أسيير والأرض تطوي لي تحت أحفاف مطيتي فكنت والله في اليوم الثالث عند أبي عبيدة، وقد رحل عن أنطاكية وقد نزلت على حازم. قال زيد: فلما وصلت إلى عساكر المسلمين سمعت ضجة وجلبة وقد ارتفعت الأصوات فسألت رجلاً من أهل اليمن ما سبب ذلك؟ قال: فرحاً بما فتح الله على المسلمين. وهذا خالد قد أتى وكان قد ضرب على شاطئ الفرات وأغار بخيله، وقد صالحه أهل منبع ويزاعة وبالس وأتى برجالهم وأموالهم وافتتحها صلحًا، وقد فتح منبع ويزاعة وبالس وقلعة نجم في العشر الأوسط من المحرم سنة ثمانية عشرة من الهجرة وصالحهم بعد رد أموالهم على مائة ألف وخمسين ألف دينار وأخذها بعد أن نزل صاحبهم جرفناس وسار بأموالهم وعيده وخيوله إلى بلاد الروم وولي على منبع عباد بن رافع التميمي، وعلى الجسر نجم بن مفرج، وولي على بزاعة أوس بن خالد الرايعي وعلى بالس بادر بن عوف الحميري وبنى له بها قلعة إلى جانب بالس من الشرق وسمّاها باسمه وعاد خالد بالأموال والأتقال يوم قدوم زيد بن وهب. قال: فأتيت أبي عبيدة وهو جالس وخالد إلى جانبه، وقد قدم مال الصلح فأنحت ناقتي وسلمت عليهم ودفعت الكتاب إلى أبي عبيدة فقضاه وقرأه على المسلمين، فلما سمعت المسلمين ما فيه. قال أبو عبيدة: معاشر المسلمين إن أمير المؤمنين قد جعل أمر الدخول إلى الدروب إلى، وقال: أنت الشاهد وأنا الغائب وأنا لا أفعل شيئاً إلا برأيكم فما تشيرون علي أن أفعل رحّمكم الله؟ فلم يجبه أحد، وأعاد القول ثانية فلم يجبه أحد، والله أعلم.

تم الجزء الأول

ويليه الجزء الثاني:

أوله ذكر غزوة مرج القبائل داخل الدروب

فهرس محتويات
الجزء الأول
من
فتح الشام

فهرس المحتويات

| | |
|----|--|
| ٥ | إقبال الجند |
| ٧ | وصية أبي بكر |
| ١٤ | وصية الصديق لعمرو بن العاص |
| ١٦ | عمرو بن العاص في فلسطين |
| ٢٠ | كتاب عمرو بن العاص إلى أبي عبيدة |
| ٢٢ | خالد بن الوليد في الشام |
| ٣٢ | معارك الشام |
| ٤٠ | خولة بنت الأزور |
| ٤٥ | معركة حول دمشق |
| ٤٩ | بطولة النساء |
| ٥٢ | نصيحة خالد |
| ٥٩ | معركة أجنادين |
| ٦٢ | كتاب أبي بكر إلى خالد |
| ٦٣ | حول دمشق |
| ٦٥ | بطولة المرأة |
| ٦٩ | القتال من فوق الأسوار |
| ٨٣ | كتب خالد بالفتح |
| ٨٦ | تولية أبي عبيدة |
| ٨٨ | ذكر حديث وقعة أبي القدس |
| ٩٦ | معركة ضرار |
| ٩٩ | ذكر فتح حمص |

| | |
|-----|---|
| ١٠١ | ذكر حديث سرية خالد بن الوليد رضي الله عنه |
| ١٠٢ | ذكر فتح قنسرين |
| ١١١ | جبلة يحارب خالداً |
| ١٣١ | ذكر حديث نزول المسلمين على حمص |
| ١٣٧ | ذكر فتح الرستن |
| ١٤٥ | معركة حمص |
| ١٤٨ | ذكر وقعة اليرموك |
| ١٥٥ | جبلة بن الأبيهم |
| ١٨٦ | نساء المسلمين في المعركة |
| ١٩٧ | الشعار |
| ٢١٩ | ذكر فتح مدينة بيت المقدس |
| ٢٣٧ | ذكر فتح مدينة حلب وقلاعها |
| ٢٦٧ | ذكر فتح عزاز |